وزارة المعـارف العمومية

كتاب
المجتمع ومشاكله

مقدمة لمبادئ علم الاجتماع

تأليف

جروف ساموئيل داو

GROVE SAMUEL DOW

أستاذ علم الاجتماع بجامعة دنفر

ترجمة

إبراهيم رمزى

بوزارة المعارف المصرية



القاهـرة
طبع بالمطبعـة الأميرية ببولاق
١٩٣٨

كلمة للناقل

كان من حسن حظى أن تفضلت وزارة المعارف فعهدت إلىّ بنقل كتاب " المجتمع ومشاكله " الذى وضعه البروفسور داو الأستاذ بجامعة دنفر بأمريكا .

والكتاب كما يدل عليه عنوانه متوسع الجذور فى علوم شتى ، ومناح من البحث متباينة ، ولذلك كان من أشق ما تناولت ترجمته من الكتب . ولكن جلال موضوعاته ، وخطورة مباحثه ، واغتباطى بأنى أحمل نوره إلى بنى قومى ليستهدوا به فيما هم بصدده من إصلاح أحوالنا الاجتماعية قد منحتنى نشاطا عوّض بعض ما كان يعوزنى من القوة للاجادة فى نقله . فان استوجب الكتاب مع ذلك رضا القراء والعلماء ، فقد وجب أوفر شطريه لزميلىّ الفاضلين الأستاذ على الجارم المفتش بالمعارف ، والدكتور محمد عوض الأستاذ بمدرسة التجارة العليا إذ راجعا الترجمة وتناولاها بما تيسر من التهذيب ، وشذبا بعض مالم يتفقا مع المؤلف على إيراده فى كتاب مقصود به جمهور القراء فى العالم العربى .

والله أرجو أن ينفع به القراء وأن يجد رجال الإصلاح فى صفحاته هدى لهم وصوابا ما "

٥ أبريل سنة ١٩٣٥ رمزى

مقـدمة

وضعنا هذا الكتاب على رسم غرضنا منه إعطاء المبتدئ فكرة عامة عن علم الاجتماع بتمامه وإعطاء الذى يتقصاه أساسا لدراسته على وجه أوسع . وقد عنينا بالموضوعات التى تكون ذات قيمة عملية كبرى للطالب مثل : الهجرة ومشكلة الجنس والأسرة والفقر والجريمة وإن لم نهمل غيرها من وجوه هـذا العلم مثل : تطور الأوضاع والقواعد العامة التى بنيت عليهـا النظرية الاجتماعية . وسيرى القارئ أننا بعد أن تناولنا تعريف علم الاجتماع أخذنا نبحث المشاكل الأساسية واحدة بعد أخرى فابتدأنا بدراسة السكان ونسب المواليد والوفيات وحركات السكان وتبعا لذلك تناولنا تلك العناصر المعضلة المتصـلة بذلك ، ألا وهى الهجرة وازدحام المـدن ، والعداوات الجنسية . ويبحث الجزءان اللذان يأتيان بعد هذا عن مسائل المجتمع من باطنه — أى تطور الأسرة والمنزل ، والدين ، والأخلاق ، والتربية ، والضبط الاجتماعى، والتنظيم . ثم يعقب ذلك أحوال سوء الوضع وفساد المهايأة، والفقر، والجريمة، والفسوق ، ومعالجة ذوى العاهات . فيتضح من هذا أن غرض المؤلف إنما هو أن يعرض صورة واسعة تتضمن أساسيات هذا العلم باعتبار كونهـا أول الخطى فى درس علم الاجتماع نفسه. وسيرى القارئ فى ذيل كل فصل جدولا يتضمن طائفة من المراجع فى صدده من شأنها أن تزيد مؤونة القارئ فى أى منحى يكون له ولوع به (*) . على أن هذا الكتاب وإن يكن مقصودا منه بادئ ذى بدء أن يكون متنا لطلاب علم الاجتماع فما هو مقصور القصد عليهم لأنه كتب على تقدير أن الذى يتناوله لم تسبق له دراية بهذا العلم. ولهذا السبب نأمل أن تكون فائدته سواء، للطلاب وجمهرة القراء الذين يعنون بالمشاكل التى يلقاها المجتمع العصرى .

ولقد حاول المؤلف أن يدل على أن الأمريكيين يتناولون هذه المشاكل بما يجب لها من الاستنارة وعلو التقدير وأنه لهذا السبب ينظر الى المجتمع الحاضر نظرة تفاؤل ورجاء . على أنه وان كان يدرك أن هناك مشاكل جدية كثيرة لا تزال محتاجة الى المعالجـة يرى أن الأمة تواجهها برشد وكفاية .

(*) اكتفينا بالمراجع التى ذكرها المؤلف فى ذيل الصفحات (الناقل) .

ومنذ ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سنة ١٩٢٠ تهيأت لمؤلفه الفرصة أن يعيد النظر فى متونه ولا سيما بعد ما جاءته أرقام احصاء سنة ١٩٢٠ التى لم تكن حاضرة فى تلك السنة . فهناك أجزاء من الكتاب نقحت وكبرت لتفى بعض حاجات الدراسة بعد ما اختبره كثير من الكليات من تلك الناحية ولقد كانت نتيجة هذا التنقيح سواء كان بيد المؤلف نفسه أو بيد معاونيه صوغ الكتاب صوغا جديدا .

ويود المؤلف أن يقر بالفضل إجمالا لذويه فى هذه المناسبة وكذلك بما انتفع به من الحقائق والآراء فى موضوعه اقتباسا من الكتب المدرجة فى فهرس المراجع على أنه يود أن يعبر عن تقديره بوجه خاص للبروفيسير ملز (L. J. Mills) لمساعدته القيمة فى تنقيح المسودة والى البروفيسير برادبورى (O. C. Bradbury) أستاذ علم الحياة فى جامعة بايلور لمساعدته فى اعداد الفصل الخاص بالوراثة وكذلك لأساتذة علم الاجتماع الكثيرين الذين أبدوا اهتماما بهذا الكتاب والى مسز داو (Mrs. Dow.) على اقتراحاتها ومعونتها فى إعداد الكتاب والى مستر ووكر ماكسپادن (J. Walker Mc Spadden) لتنقيحاته الفنية فيما يختص بالنشر .

٥ أبريل سنة ١٩٢٢

داو

(G. S. Dow)

صحيفة المشتملات

الجزء الأول

المجتمع ومشاكله

الفصل الأول

صفحة

الجزء الثانى

السكان

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الجزء الثالث

تطور النظام الاجتماعى

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الجزء الرابع

تحليـــل المجتمع

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الجزء الخامس

سوء الوضع الاجتماعى

الفصل العشرون

الفصل الحادى والعشرون

الفصل الثانى والعشرون

الفصل الثالث والعشرون

الفصل الرابع والعشرون

الفصل الخامس والعشرون

الجـــزء السادس

التقدم الاجتماعي

الفصل السادس والعشرون

المجتمع ومشاكله

الجزء الأول

الفصل الاول

ماهية علم الاجتماع

ما علم الاجتماع ؟

من المألوف فى هذه الأيام أن يبدأ مؤلف كتابا يتضمن امهات المسائل فى علم ما بلا تعريف للعلم الذى يتناوله ، بيد أن مؤلف هذا الكتاب يرى أن حمل الطالب على الأخذ فى درس علم الاجتماع دون أن يزوده بشىء من العلم بطبيعته ، أمر غير مأمون العاقبة بتاتا .

وما من طالب يزمع درس منهاج تمهيدى فى علم الاجتماع إلا وله فى موضوعه تصور مبهم ، فقد يرى أنه يتناول بالبحث مسائل يدخل فى عدادها الفقر والجريمة والرذيلة والافراط فى شرب الخمر وأنه يتضمن البحث فى موضوع الأحياء القذرة المزدحمة فى البلاد وكذا النظر فى غير ذلك من أسباب شقاوات الانسانية ولكنك اذا سألت الطالب نفسه أن يبين لك الفرق بين علم الاجتماع "السوشيولوجيا" والاشتراكية "السوشالزم" فلعله لا يستطيع أن يحير جوابا .

ولعلم الاجتماع من التعاريف قدر ما وضع فيه من الكتب . على أن المؤلف وإن كان يرى أن غالبية هذه التعاريف من القصور عن الكمال بدرجة بعيدة أو قريبة ، يتردد فى أن يضيف الى عدادها تعريفا جديدا . فقد عرفوا علم الاجتماع بأنه " علم المجتمع " وبأنه " الدراسة العلمية للمجتمع " و" علم الظواهر الاجتماعية " و" علم معاشرة الناس بعضهم لبعض " وبأنه " علم التطور الاجتماعى " و" علم العلاقة الاجتماعية " وكذا بأنه " العلم الذى

يبحث فى ظواهر المجتمع الناشئة من تعاشر الجنس البشرى . على أنه ربما كان أظهر تعريف أعطى حتى اليوم وأحسنه هو الذى ذكره الأستاذ إلوود[1] (Ellwood) إذ سماه "العلم الذى يبحث التعاشر الانسانى ، من حيث منشؤه ، وتدرجه ، وأشكاله ، ووظائفه" .

اختلاف الآراء فى علم الاجتماع

علة الاختلاف فى تعريف علم الاجتماع ناشئة فى غالب الأمر من تعدد التصورات التى فى أذهان علماء الاجتماع عن مدى هذا العلم إذ يرى بعضهم أنه علم شامل يتضمن مجالات الجهود الانسانية جميعها وبعضهم لا يرى له إلا مجالا محدودا ويقصره على شىء من التحليل الفنى لأشكال التعاشر الانسانى أو تقسيم الجماعات المختلفة التى توجدفى العالم الانسانى . ولذلك فانه يجدر بنا ، قبل أن نحاول الإدلاء بتعريف جديد لعلم الاجتماع ورسم حدود ما نتنظر دراسته ، أن نلم المسامة عاجلة بالموجود من تلك الآراء — أو ربما كان الأجدر بنا أن نسميها مجموعات الآراء — التى يقول بها أعلام الاجتماعيين .

١ — علم الاجتماع من حيث أنه دراسة للمشاكل الاجتماعية

فكرة أن علم الاجتماع كما أشرنا فى الفقرة الأولى من هذا الفصل ، عبارة عن درس المشاكل الاجتماعية ، هى الفكرة القائمة لدى كل من لم يدرس علم الاجتماع . ولسوء الحظ أيضا عند بعض من درسوا هـذا العلم ، أو من يزعمون على الأقل أنهم قد درسوه . نعم إن علم الاجتماع يبحث بلا ريب فى الشرور التى توجد فى المجتمع وفى طرق علاجها ، ولكنه لا يقتصر على هذه وحدها إذ أنه يتناول العـادى من أحوال المجتمع وغير العادى مما ويحلل الصحيح منها والمريض . بل الواقع أنه يعتبر الأحوال غير العادية والمريضة من المجتمع أمثلة من سوء الوضع ، وسوء التصرف أى أمثلة لما ينبغى أن لا يكون ، ويرى أن شرور المجتمع ليست إلا ميلا عن طريق الرقى الاجتماعى السليم . ولذا فهو يدرج هـذه الأحوال فى جانب أو فى ركن من حظيرة هـذا العلم . وتختص فروع من علم الاجتماع — كحب النوع الانسانى (Philanthropy) وعلم الجريمة (Criminology) اختصاصا كليا بهذه النواحى الاجتماعيـة الشاذة . نعم إن هـذه الأمور من أشهر مناحى العلم ، ولكنها ليست بحال ما كل هذا العلم . وفيما انطوت عليه هذه الموضوعات من دواعى اجتذاب الكثيرين من الناس اليها ما يعلل ذيوع الرأى الخاطئ الذى أشرنا اليه

---

(1) Sociology and Modern Social Problems

٢ — علم الاجتماع من حيث هو تحليل نظرى للتعاشر الانسانى:

هناك رأى لا يقول به الجهلاء بهذا العلم بل علماؤه المعترف بهم، مؤداه أن علم الاجتماع عبارة عن تحليل لموضوع التعاشر الانسانى . وتتوقف طبيعة هذا التحليل على الباحث الاجتماعى نفسه . فالأستاذ سمل (Simmel) يرى أن علم الاجتماع هو علم نظام المجتمع أو تنظيمه ، ويكاد يقصره الأستاذ سمول (Small) على دراسة الجماعات أو عمل الجماعات. وقد استخرج الأستاذ جيد نجس (Giddings) نظاما تفصيليا دقيقا جدا بناه فى جوهره على ما فى الجنس الانسان من نزعة الى الاجتماع . وينظر غيره إلى هذا العلم باعتبار أنه درس المهام الانسانية والقوى التى تضبط أعمال الإنسان . وبعضهم يقصره على دراسة النظام الحالى للمجتمع . وليس لدينا فى انتقاد هذه الآراء إلا ما سبق لنا الإدلاء به فيا يختص بالفكرة الذائعة عن هذا العلم — وهو أن أصحاب هذه الآراء إنما يتناولون جانبا واحدا من علم الاجتماع . نعم إن كل نوع من هذه البحوث هو بلا شك من علم الاجتماع ، ولكن كلا منها من الضيق والحصر بحيث لا يستطيع أن يمثل هذا العلم بأكمله . كل منها يتناول منحى واحدا من العلم . والعلة فى ذلك أن علم الاجتماع علم حديث ؛ فعند ما يحدث فيه الباحث "نظرية" جديدة فانه يميل الى أن يخضع لها كل شيء اجتماعى ، ولذلك فانه يبنى علما كاملا على ما لا يصح أن يكون إلا أساسا لجناح واحد فقط من البناء لا للبناء جميعه .

٣ — علم الاجتماع من حيث هو دراسة للمدنية :

قصر الأستاذ وارد (Ward) وهو أحد الاجتماعيين البارزين فى أمريكا نظره على ترق النظم البشرية ، كالدولة والأسرة والدين واللغة والتربية وبعبارة أخرى عنى بعلم الاجتماع من حيث هو درس للمدنية ، وان كان يسلم بخطورة شأن الوجوه الأخرى من هذا العلم . على أنه يجب ألا يفوتنا أن هذه الموضوعات وان كانت من أهم وجوه علم الاجتماع إلا أنها تشمل العلوم السياسية والاقتصادية والتاريخ كما تشمل علم الاجتماع نفسه . زد على ذلك أنه لا يتيسر للباحث مع هذا التحديد أن يجد فيه مجالا لفحص الأحوال الحاضرة وهو موضوع يهم طالب علم الاجتماع العادى أكثر مما يهمه موضوع حالة المجتمع منذ خمسة وعشرين ألفا من السنين ؛ لأنه إنما يدرس علم الاجتماع ليستعين به على أن يحيا الحياة التى هيئت له فى زمنه . على أن دراسة المدنية تكون لنا آراءنا فيا يختص بتطور المجتمع وهذا أكبر فائدة لهذه الدراسة .

٤ — علم الاجتماع من حيث هو فلسفة اجتماعية :

هناك رأى مشهور مؤداه أن علم الاجتماع يتناول بحث المجتمع كما يتناول علم النفس بحث الفرد — أى أنه دراسة العقل الاجتماعى . فهو لهذا ايضاح لما يفعله الانسان ولماذا يفعله ، وكيف يفعله . بيد أن هذا جزء من علم الاجتماع لا علم الاجتماع برمته ، ولعل هذا على كونه وجها مهما من وجوه علم الاجتماع ، أصعب هذه الوجوه جميعا ، ولذلك فقد كان البحث فيه أقل من سواه .

علم الاجتماع كما سبق القول لا يقتصر على واحد من هذه الأمور بل يشملها جميعها ، وذلك أنه يتناول التعاشر الانسانى كما يتناول منشأ المجتمع وتطوره وأشكاله ووظائفه ، وتتضمن أبحاثه موضوع أصل النظم البشرية فى نموها والمراحل التى مر فيها المجتمع وتنظيم المجتمع اليوم والأحوال الاجتماعية الحاضرة والمهام التى تبعث على العمل الانسانى ، والقوى الموجودة فى المجتمع والتى تسيطر عليه وعلى العقل الاجتماعى .

وقد ينقسم علم الاجتماع إلى نظرى وعملى أو كما يسميان غالبا : البحث والتطبيق ، ويتناول النظرى أو البحث ، أصل النظم وتطورها وتحليل المهام الانسانية والقوى الاجتماعية وعلم النفس الاجتماعى . ويتناول العمل أو التطبيق الأحوال التى عليها المجتمع اليوم ويعنى بوجه خاص بالمشاكل الاجتماعية الحاضرة .

وسنحاول فى هذا الكتاب أن نتناول وجهى علم الاجتماع — النظرى والعملى ، ولكنا سنعنى عناية خاصة بالجانب العملى .

ما هو المجتمع ؟

ذكرنا فيما سبق أن علم الاجتماع هو دراسة التعاشر الانسانى — أو المجتمع ، وقبل المضى فى سبيلنا يجب أن نفهم معنى هذا التعبير .

يعرض لنا هنا أيضا اختلاف فى الرأى ، فان بعض علماء الاجتماع يرون أن لفظ " المجتمع " ليس إلا اسما آخر للانسانية أو الجنس البشرى ، ويعتبره غيرهم مرادفا لما يعبر عنه " بالأمة " . على أن هذا الرأى ليس بالرأى المقبول بوجه عام . بل الواقع أنه الرأى المنبوذ عادة . ويرى غيرهم أن المجتمع لفظ يعبر به عن نوع ممتاز أو خاص من التجمع أو هو الجماعة المثقفة . وقد يستعملون هذه الكلمة للدلالة على " المخالطة الاجتماعية " على أن العرف فى علم الاجتماع قد اخذ يجرى على اعتبار أنه " المجتمع " يعنى " الجماعة " أى عددا غير محدود من أشخاص تربطهم بعضهم ببعض علاقات دائمة — ولو إلى أمد محدود كالأسرة

أو النادى أو العصبة أو الفرقة المدرسية أو الزمرة التى دفعت بها الظروف عرضا إلى الاجتماع فى رحلة ، أو فى الجملة أية هيئة من الأشخاص المرتبطين بنوع ما من الروابط حتى ولو كانت هذه الرابطة ضعيفة ومؤقتة . وقد عرّف " الوود " المجتمع بأنه " كل جماعة مؤلفة من أفراد بينهم رابطة نفسية " [٢] .

على أنه لا مشاحة فى أن لفظ "مجتمع" يعنى به فى بعض الأحيان " الأمة " أو جنس من الأجناس بل والانسانية إطلاقا ، ومع ذلك فان هذا على اعتبار أن الأمة والجنس والانسانية "جماعات مكبرة" وهو يعنى بظواهر تعاشر أعضاء الجماعة أكثر من عنايته بالأفراد الذين يكوّنون الجماعة نفسها .

وقد حلل الأستاذ جد نجس (Giddings) صور التعاشر تحليلا دقيقا وقسمها الى ثمانية أنواع مختلفة سماها — العاطفى والتجانسى والتجريبى والاستبدادى والتسلطى والتآمرى والتعاقدى والأمثلى [٣] ولكن هذا التقسيم على دقته وسعته ودلالته على التفنن ليس مما يساعد الطالب مساعدة عظيمة اذ الواقع أنه أدعى الى الربك منه الى الايضاح .

تعقد النظم الاجتماعية

لا يمكن تفسير النظام الاجتماعى بمبدأ واحد معين أو بطائفة من المبادئ ولا يمكن الرجوع به الى أية قوة واحدة معينة كما حاول الأستاذ تارد (Tarde) مثلا إذ جعل مبدأ " التقليد " مفتاحا لجميع الظواهر الاجتماعية ، وكذلك العبارات الشائعة مثل قولهم " الشعور النوعى " أو " اتقان الحرفة " كلها لا تجدى فى حل المشكلة شيئا .

فان التعاشر الانسانى من التعقد والتوشج بحيث لا يمكن الابانة عنه بمثل هذه العبارات . وفى المجتمع قوى مختلفة دائمة العمل بعضها يعاون بعضا وبعضها يعارضه . والمصالح التى تبعث الناس على العمل هى من الكثرة بحيث يستحيل معها تفسير العمل الانسانى بطائفة واحدة معينة من الدوافع . ولئن أمكن عقلا رد نظام المجتمع إلى نوع ما من التنسيق والترتيب ، فانه ليس من السهل تحقيق ذلك المأرب . ولهذا فانه وان كان أقرب الى الصواب أن نتناول تحليل المجتمع فى هذه النقطة من أن نؤجله إلى ظرف آخر فاننا مع ذلك سندرس أولا الناس الذين يؤلفون المجتمع وترقى النظم فى المجتمع قبل أن نحلل المصالح التى تدعو الناس الى العمل ، والقوى التى تضبط العمل الانسانى . على أنه قد يجمل بنا لبيان تعقد روابط المجتمع أن نشير

---

(٢) ص ١٣ من كتابه : Ellwood-Sociology in its Psychological Aspects.

(٣) المجلد العاشر من المجلة الأمريكية صفحة ١٦١ الى ١٧٦ American Journal of Sociology.

الى مبدأ التعاون الدائم بين الناس سواء أكان ذلك عن شعور منهم او عن غير شعور وبارادة منهم أو بغير إرادة . وليس على الانسان لكى يستطيع أن يحصل صورة من هذا المبدأ إلا أن أن يقف ويقدر عدد الأشخاص الذين يشتركون فى انتاج شيء من حاجاته كالخبز مثلا الذى يباع الرغيف منه منـذ مدى طويل بخمسة ستنيات فان انتاجه لم يقتصر على البـدال الذى باعه والخباز الذى صنعه بل لقد كان عمال السكة الحديدية الذين نقلوا الدقيق والطحان الذى طحن القمح والأفراد الذين صنعوا الآلات التى استعملت فى الطاحون والعربات التى استعملت فى السكة الحـديدية بل وفى الطاحون نفسها والرجال الذين عبّدوا الطريق وعمـال السكة الحديدية الأخر الذين حملوا القمح الى الطاحون والزارع الذى استنبت الحب والرجال الذين صنعوا الآلات التى استخدمت فى استنبات الزرع وحصده والمعدنيين الذين استخرجوا المعدن من أرضه والخشابين الذين قطعوا أخشاب الآلات وكذا الرجال الذين استخدموا فى العمليات المتصلة بذلك أشد اتصال من تناول الحب أو الدقيق . أولئك جميعهم تضافروا على انتاج الرغيف ذى الستنيات الخمسة . بل يجب علينا فى الحقيقة أن نرجع سنوات عدة حتى يمكننا حصر جميع الأشخاص الذين اشتركوا فى انتاج هذه السلعة بعينها .

وينطبق هذا أيضا على كل سلعة أخرى انتجت . فان هذه الدنيا التى نعيش فيها متوشجة معتقدة : هى دولاب آلات واسع النطاق مبدعه الإنسان ؛ والتعاشر الانسانى من التوشج والتـدخل بحيث لا يسهل ايضاحه . إذ الانسان لا يمكن عزله ، لأنه لا يستطيع أن يعيش بدون إخوانه ولا بد له أن يكون متصلا بهم .

علاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى

عند ما يحاول اجتماعيون مثل "كونت" (Comte) و"وارد" (Ward) أن يرتبوا العلوم فأنهم فى الجملة يضعون علم الاجتماع أما فى مقدمة العلوم ويرونه أهمها وأرقاها أو يقولون أن علم الاجتماع يشمل الجزء الأكبر من سائر العلوم ولا سيما ما كان منها قريب العلاقة به — كالاقتصاد والعلم السياسى والدين والأخلاق والتاريخ وعلم الانسان (Anthropology) والنتيجة الرئيسية لهذه الدعوى العريضة هى مخاصمة سائر العلوم له وتعريض علم الاجتماع الى الانتقاص بسبب امتداد دعواه الى مجالات من الفكر لا يقتصر أمره فيها على العجز عن تمام الاشتمال عليها ، بل يتعداه الى أنه ليس له عليها حق شرعى ، وكثير جدا أن يسمح لعلم حديث ظهر فجأة أن يستولى — بناء على وجهة نظر جديدة — على موضوعات قد استحدثت ونمت على مدى حقب طويلة من الزمن ولقد كانت محاولة هذا الاستيلاء سببا فى تعطيل سير علم الاجتماع . لا فى تقدمه .

ولذلك فانا فى بحثنا هذا لا ندعى تلك الدعوى لعلم الاجتماع فلا نحاول أن نبرهن على أنه " علم العلوم " (Scientia Scientiarum) أو أنه يشمل فى نظامه شيئا من العلوم التى سبقته

فان لعلم الاجتماع حدوده الخاصة ، وهذه تشمل منطقة واسعة تمكن الاجتماعيين أن يشتغلوا ويبحثوا . نعم إن علم الاجتماع يشارف حدود بعض العلوم الأخرى ، ويغزو حرمها فى بعض الأحيان ولكنه لا يفعل ذلك بأكثر مما تفعل هى فى دورها إذ تطغى على حظيرة علم الاجتماع .

هناك ما يمكن أن نسميه ذخيرة المعرفة الانسانية التى تستمد منها جميع العلوم . وهى أشبه شئ بالغابة المشاعة التى يذهب إليها كل علم طلبا لمادته الغفل . وعلم الاجتماع يستمد من هذا المورد العام حقائق قد ينتفع بها غيره من العلوم أيضا . ويستعملها فى بناء كيانه ، وقد يأخذ المادة التى يأخذها غيره ويتصرف فيها بطريقة تختلف اختلافا تاما عن طريقة بعض العلوم الأخرى فنحن نعرف مثلا أن النورمانديين استولوا على انجلترا ؛ أما التاريخ فيستعمل هذه الحقيقة فى أغراضه وكذلك علم الاجتماع فى بيان نظرية "التمثيل الاجتماعى" أى اختلاط الأجناس . وقد يتناول الفن والدين والأخلاق والاقتصاد والعلم السياسى هذه الحقيقة بعينها بيد أن كلا منها يستعملها على طريقته أى من وجهة نظره الخاصة . ويستفيد علم الاجتماع من أبحاث غيره من العلوم كالكيمياء وعلم طبقات الأرض والاقتصاد ولكنه من الجانب الآخر يجرى أبحاثا فى موضوعات أخرى مثل مستويات المعيشة والمصالح الانسانية ، وأسباب الفقر وظروفه وما إلى ذلك ، فتستعمل العلوم الأخرى نتائج هذه الأبحاث بدورها . واليوم يعد البحث الاجتماعى وتجميع المعلومات الجديدة أو تفسير المعلومات القائمة ، الطريقة الرئيسية لعلم الاجتماع . ولما كان علم الاجتماع يبحث فى المشاكل والأحوال التى لا يعرف غيره من العلوم ، ولاسيما علم الاقتصاد والتاريخ ، كيف يتناولها فقد سمى أحيانا "علم المتروكات" على أن هذه التهمة ليست أكثر ثبوتا على علم الاجتماع منها على غيره من العلوم إلا من حيث أن علماء الاجتماع حاروا فى بعض الأحيان ولم يعرفوا كيف يحددون مجالهم ويرتبون مادتهم . وقد اتهم علم الاجتماع أيضا بأنه أكبر لص بين العلوم ، وذلك لأنه يسرق كل ما يشتهى ويرفض كل ما لا يحتاج اليه أو ما لا يعرف كيف يستعمله . على أن هذه التهمة انما أملتها الغيرة أكثر مما أملاها أى باعث آخر وذلك لما لعلم الاجتماع من مزية التشويق وكثرة عدد المريدين الذين اكتسبهم . ولكى نرى موقف علم الاجتماع من غيره من العلوم رؤية أدق وأجلى نأخذ الآن فى بحث أمره بالنسبة الى بعض العلوم التى تمت اليه بالقرابة .

١ — علم الاجتماع والاقتصاد

لعل أقرب العلوم الى علم الاجتماع هو علم الاقتصاد الذى هو علم الثروة والذى يبحث فى الظواهر الناتجة من جهود الانسان فى تحصيل الثروة واستعمالها . وهو نطاق أدق وأوضح حدودا من نطاق علم الاجتماع بكثير .

يتناول علم الاقتصاد موضوع انتاج الثروة وتوزيعها واستهلاكها ويستخرج منها قوانين أو مبادئ فيما يختص بهذه الجهود . وعندما يتناول علم الاجتماع المسائل أو الظروف المتضمنة

توزيع الثروة كموضوع الفقر مثلا لا بد له من الرجوع الى علم الاقتصاد ليستمد منه المبادئ التي يقوم عليها توزيع الثروة والقوانين الضابطة لذلك . وكذلك فانه عندما يتناول علم الاجتماع الظواهر المشتملة على إنتاج الثروة يحتم عليه أن يرجع الى علم الاقتصاد لدرس العوامل الداخلة فى ذلك وكذلك عند ما يبحث علم الاقتصاد موضوع تبادل الثروة يحتم عليه أن يرجع الى علم الاجتماع لمعرفة المصالح الانسانية التي تدعو الناس الى طلب المواد التي لا تكون فى حوزتهم ، والى أنهم يكونون راغبين فى استبدال غيرها بها . ولا بد للاقتصاد من الرجوع الى علم الاجتماع وكذا الى علم النفس لمعرفة القوى التي تضبط العمل الانسانى إذ أن علم الاقتصاد لا يستطيع أن يفسر رغبة الانسان فى الاجتماع وتشوقه الى المراهقة وان كان حتما عليه أن يراعى هذه المسألة ويعتبرها عاملا فى توزيع الثروة . والعرف والعادة والتقليد وأمثال ذلك من العوامل ، جميعها أمور محسوسة فى العالم الاقتصادى . فلا بد لعلم الاقتصاد من أن يرجع الى علم الاجتماع ليعرف منه القوانين أو المبادئ الضابطة لهذه المسائل ، كما يحتم على علم الاجتماع أن يرجع الى علم الاقتصاد لالتماس كثير من معلوماته الأساسية . فلا بد لعلم الاجتماع أن يعتمد على علم الاقتصاد فى المسائل المتضمنة انتاج الثروة وتوزيعها واستهلاكها ولا بد لعلم الاقتصاد أن يعتمد على علم الاجتماع فى المسائل المتصلة بالتعاشر الانسانى أى جهود الناس الاجتماعية . كلاهما ضرورى للآخر لا يستغنى عنه ؛ ولكن لا يمكن أن يسمى أحدهما جزءا من الآخر وان كان المغرقون فى التحمس من طلاب العلمين يقولون بهذا الرأى أحيانا . على أن هناك منطقة وسطى يدعيها كل منهما كلها أو بعضها تشتمل على مسائل مثل الفقر والعمل وانتقال السكان وزيادتهم يصعب فيها أن تضع فاصلا بين العلمين .

٢ — الاجتماع وعلم السياسة

علم السياسة أو علم الحكومة كما يسمونه أحيانا يبحث فى المسائل التي من قبيل أصل الدولة وطبيعتها وأشكالها ووظائفها ومحل السيادة وشؤون الادارة . وللعلوم السياسية من العلاقة بعلم الاجتماع ما هو كبير الشبه بالعلاقة التي بين علم الاقتصاد وعلم الاجتماع .

الدولة أحد الأوضاع الرئيسية فى المجتمع ولذا تدخل فى مجال البحث الذى يشمله علم الاجتماع . ولهذا فأن أصل الدولة وترقيها هما من الظواهر التي يعالجها العلمان كلاهما . غير ان علم السياسة فى هذه المسألة أشد اعتمادا على علم الاجتماع من الاجتماع على علم السياسة اذ لا بد لهذا من أن يلجأ الى علم الاجتماع يستمد منه معرفة مبادئ الرقابة الاجتماعية ولفهم طبائع المحكومين وغير ذلك من المبادئ الأساسية التي لا بد من الأخذ بها فى إدارة الحكومة .

ويستخدم علم الاجتماع حقائق العلوم السياسية على الأخص من أجل بيان بعض مبادئه العامة . وخط التحديد بين الاثنين أبين كثيرا منه بين علمى الاجتماع والاقتصاد ومن أجل هذا كان الاحتكاك بينهما أقل .

٣ — علم الاجتماع والتاريخ

التاريخ علم تحريرى فى جملته ، ولذا فانه أكثر وأشد تحددا من علم الاجتماع ؛ فهو يبحث فى أعمال الناس الماضية — ما فعله الانسان وكيف فعله . ولا بد لعلم الاجتماع أن يرجع الى التاريخ دائما يستمد منه المادة والاخبار والأمثلة والبرهان اللازم لأصوله وكذلك لايضاح مشاكله . على أنه لابد للتاريخ من أن يعتمد على علم الاجتماع لتفسير الدواعى التى تدفع الانسان إلى العمل . وليس بين علم الاجتماع وبين التاريخ الموضوعى القائم على سرد الحوادث كما وقعت أدنى تنازع وإن كان فى المؤرخين نفر قليل يدمجون علم الاجتماع برمته فى التاريخ . ولكن عند ما يصل بنا الأمر الى بعض التقسيمات أو الفروع التى للتاريخ مثل فن تأليف التاريخ وفلسفته ، نرى الحدود الفاصلة بين العلمين تضمحل وتتلاشى . ومن المؤرخين من يقرر مثلا أن علم الاجتماع لا يكاد يتميز عن كونه فلسفة للتاريخ ، وإن لم يسبق لهذه الفلسفة أن عالجت إلا النزر اليسير من المشاكل الاجتماعية . وعلى الجملة فان حد التفرقة فى هذا الصدد أدق منه فيما بين علمى الاجتماع والاقتصاد ، فكلاهما متوقف على الآخر ، وإن كان فى استطاعة التاريخ أن يسير مستقلا عن علم الاجتماع على حال أحسن مما يسير علم الاجتماع بغير التاريخ ، وعلى كل حال فالتاريخ قد وجد منذ مئات من السنين قبل أن يوجد علم الاجتماع ولكن هذا المبحث الجديد قد أنعش القديم بما نفخ فيه من الحياة بما أثار فيه من الاهتمام الانسانى بعد ان كان فى جوهره مجرد مجموعة من الاخبار . وبإيجاز القول أن علم الاجتماع قد جعل التاريخ اجتماعيا ووسعه تبعا لذلك ، ولم يعد التاريخ يقصر نفسه على ذكر الوقائع وأعمال الحكام وأفعال النبلاء بل أنه اليوم يعنى بحياة الشعب ومستويات معيشتهم ومثلهم العليا وعاداتهم وعرفهم كما يعنى بأعمال حكامهم . ولو كان هذا هو الفضل الوحيد الذى لعلم الاجتماع على غيره من العلوم لكانت رسالته ومهمته مبررتين تبررا عظيما .

٤ — علم الاجتماع وعلم الانسان (الانثروبولوجيا)

إن الانثروبولوجيا — التى تتضمن بحث الانسان من الوجهة الحيوانية أو الجنسية وتعتبر إجمالا دراسة للانسان فى حالته الفطرية ، تقف فى علاقتها بعلم الاجتماع نفس موقف التاريخ منه . فان علم الاجتماع يستخدم الانثروبولوجيا بمثابة مورد يستمد منه الحقائق الخاصة بالانسان الأول من حيث تاريخه المبكر وأصل أوضاعه وتطورها ، مثل الأسرة والدولة والدين وقد أصابت الانثروبولوجيا من التوسع ما أصاب التاريخ بفضل علم الاجتماع اذا انقلبت من حالة كانت فيها مجرد جداول لمجموعات مختلفة إلى حال يحاول بها تقصّى طريق التطور الذى سلكه المجتمع الانسانى من مبدئه الى يومنا هذا . أما المنطقة الفاصلة بين هذين العلمين فتشتمل

على مقدار كبير مما يتناوله علم الانثروبولوجيا حتى ليصعب أن يقول قائل أين تنتهى الانثروبولوجيا وأين يبتدئ علم الاجتماع . بيد أن علم الاجتماع يعنى خاصة بالزمن الحاضر أو على الأقل بالعصر التاريخى .

٥ — الاجتماع وعلم الاخلاق

ليس من السهل بيان العلاقة الحادثة بين علمى الأجتماع والأخلاق ، فعلم الأخلاق (Ethics) أو علم الفضيلة يبحث فيا ينبغى أن يكون ، فهو علم مثالى (Idealistic) وان كان لابد له من الوقوف على الحقائق الأجتماعية ، على حين أن علم الأجتماع يبحث فيا كان وفيا هو كائن . ويعتمد علم الأخلاق فى ادراك هذه المعلومات على علم الأجتماع ، وإن كان علم الأخلاق لا يحاول أن يتناول هذه الحقائق إلا بقدر علاقتها بما ينبغى أن يكون . وعلم الأخلاق يختص بالمستويات الخلقية والمثل العليا والقواعد القياسية ؛ أما علم الأجتماع فهو وان أدى الى المثل العليا لا يبحث فى أمرها بل يعنى بالأشياء كما هى فقط . وبعبارة أخرى ، علم الأجتماع يهدى الباحث و يسايره صوب علم الأخلاق ، ولكنه يقف قبل أن يصل إليه . ولما كان علم الأخلاق علما يتناول القيم والمثل العليا فهو يتناول جميع نواحى النشاط الانسانى ويحاول أن يضع معايير أى دساتير للأعمال . من ثم كان علم الأخلاق عيالا لا على علم الأجتماع وحده بل وعلى سائر العلوم تقريبا ، وأن كان له من علم الأجتماع عون ودعامة أشد ملاصقة له وأتصالا به من سائر العلوم .

٦ — علم الاجتماع والعلوم الطبيعية

أهم العلوم الطبيعية لعلماء الاجتماع هو علم الحياة (Biology) . فهو يمد علم الاجتماع بالظاهرات الطبيعية للحياة وعلى الأخص فيا يتعلق ببنية العصب وعلاقة الكائن الحى ببيئته وهلم جرا اذ لا بد لعلم الاجتماع أن يستمد من علم الحياة حاجته من الالمام بطبيعة الوراثة والتطور العضوى . أجل لا بد له أن يحصل من علم الحياة على الحقائق التى يحتاج اليها فيا يختص بالحياة الحيوانية ، ولا بد لعلم الاجتماع كذلك أن يلتجئ الى الكيمياء والموسيقى* وعلم

---

* أطلق مترجمو العرب عن اليونانية كلمة "فوسيق" تعريبا لكلمة (Physics) التى اصطلح مترجمو مصر ومن نحا نحوهم على ترجمتها بكلمة "طبيعة" فقالوا علم الطبيعة والواقع أن كلمة طبيعة لا يصح أن تطلق إلا على كلمة (Nature) . التى هى أعم من الفوسيقى فما يعنى أن علم الفوسيقى (Physics) أحد العلوم الطبيعية ، ويختص من الطبيعة بظواهر وأمور محدودة لا يتعداها . ولا يليق سا فى المسائل العلمية التى تحتاج الى تحديد أن تجاوز وتباين ولا سيما فيا يختص بكلمة كهذه كثيرة الاستعمال والتداول وتتطلب شدة العناية فى الاطلاق لئلا يترتب على الخلط خلط فى معقول الطالب والقارئ وسألتزم التعبير بلفظة موسيقى وتصريفاتها للدلالة على معنى (Physics) وما يشتق منها (المعرب) .

طبقات الأرض (الجيولوجيا) والجغرافيا والعلوم الطبيعية الأخرى طلبا لمعلومات معينة من كل منها . على أنه ليس فى هذه العلوم واحد يحتاج الى علم مبهم مطلق كعلم الاجتماع إذ الواقع أن العلوم المذكورة هى العلوم الأساسية وبعبارة أوضح العلوم الآلية .

٧ – علم الاجتماع وعلم النفس

علم النفس (بسيكولوجيا) كعلم الاقتصاد قريب الجوار من علم الاجتماع لا ينفك أحدهما عن الاغارة على حرم الآخر بسبب أن الحدود بينهما غير سهلة التمييز . فالسيكولوجيا وهى علم الشعور والسلوك ، تبحث عادة فى الفرد ، أما علم الاجتماع فيبحث فى الجماعة . هذا هو الفارق المهم بينهما ولا بد لمن يريد أن يكون اجتماعيا من أن يكون سيكولوجيا ، إذ لابد لكى يفهم الانسان المجتمع من أن يعرف أصول علم النفس ، لأنه لما كان علم النفس هو دراسة عقل الفرد ، وليس المجتمع إلا مجموع أفراد ، فلكى يفهم الانسان عقل المجتمع يحتم عليه ضرورة أن يعرف عقل الفرد . نعم أن الفرد كثيرا ما يعمل ويفكر وهو فى المجتمع على خلاف أمره وهو وحده ، بيد أن عملياته العقلية واحدة وكثير من القوى التى تضبط الأفعال الانسانية والمهام التى تستحث الانسان على العمل لا يمكن تفسيرها الا بعلم النفس . وفى الناس كثيرون يرون أن علم الاجتماع هو علم النفس الاجتماعى وأنه لا يتضمن إلا تحليلا نفسيا للمجتمع . نعم إن علم النفس الاجتماعى جزء مهم جدا من علم الاجتماع ولا سيما من علم الاجتماع البحت أى النظرى وأنه فى الواقع يؤثر فى جميع مناحى هذا العلم لكنه ليس بحال ما كل علم الاجتماع . فما علم النفس الاجتماعى سوى الناحية من علم الاجتماع المقابلة لعلم النفس ، وهى منطقة الحدود الواقعة بين الاثنين ولذلك يدعيها العلمان على السواء . وعلم الاجتماع يعتمد على علم النفس بقدر اعتماد هذا على علم الحياة ويحتاج إلى علم النفس بقدر ما يحتاج إلى علم الاقتصاد ، ولعله لا يزيد على ذلك وقد أخذ عدد من علماء الاجتماع : نخص منهم بالذكر تارد (Tarde) وجيدنجس (Giddings) بعض أصول علم النفس وبنوا عليها لعلم الاجتماع نظما كاملة ، ولا شك أن هذا إغراق فى تقدير العلاقة بين العلمين وان كان الواجب على الاجتماعى لكى يفسر المجتمع تفسيرا تاما أن يدرك القوى النفسية العاملة ويوضحها إلى أبعد مدى مستطاع .

ومن الممكن أن نذكر علوما أخرى ذات صلة بعلم الاجتماع بيد أن ما سبق هو أشدها علاقة وأهمها جميعا علوم الاقتصاد والنفس والتاريخ والحياة .

وفريق من العلوم التى ألممنا بها فى الفقرات السابقة يتألف منه ما يسمونه إجمالا مجموعة العلوم الاجتماعية بسبب شدة العلاقة التى بين كل منها وبين المجتمع من جهة وبين سائر علوم المجموعة من جهة أخرى . ولكن ليس هناك اجماع فى الرأى على ما يجب أن تشمله هذه

المجموعة من العلوم وكل انسان يدرك وجاهة اشتمالها علم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم الانسان. ويكاد كل انسان أن يدرج معها علم التاريخ أيضا. وبعض الناس يلحق بها علم الأخلاق والدين وقليل منهم يضيف اليها علم النفس . على أن هذا التقسيم انما يصاغ عادة من وجهة النظر التعليمى (البيداجوجى) لأنه يعين على تبديد الحيرة التى قد تعترى عقل الطالب . ولعل بلاكمار (Blackmar) وجيلين Gillin [٤] يعطيان خير مجموعة للعلوم الاجتماعية وأهم فروع كل علم كالآتى :

١ — علم الأخلاق

مبادئ علم الأخلاق .

تاريخ علم الأخلاق .

الأخلاق الاجتماعية .

٢ — علم الاقتصاد

النظريات والنظم الاقتصادية .

السياسات الاقتصادية .

التاريخ الصناعى .

التشريع الخاص بالعمال .

نظرية المصارف والعملة .

الضرائب والمالية العامة .

٣ — السياسيات

النظرية السياسية .

الدبلوماسية والقانون الدولى .

الادارة الحكومية .

الادارة البلدية .

القانون الدستورى .

الادارة الاستعمارية .

[٤] فى صفحات ٢٦ — ٢٧ من كتاب (Outlines of Sociology)

٤ — التاريخ

التاريخ السياسى .
تاريخ النظم الحكومية .
التاريخ الاجتماعى .
الجغرافيا التاريخية .

٥ — علم الاجتماع

علم الاجتماع الوصفى .
الأصول الاجتماعية .
التطور الاجتماعى .
الأمراض الاجتماعية .
التربية الاجتماعية والرقابة الاجتماعية .
علم النفس الاجتماعى .
تاريخ علم الاجتماع .

٦ — علم الانسان (الانثروبولوجيا)

قواعد علم الانسان العام .
علم الأجناس البشرية (الأثنولوجيا) .
علم وصف الأجناس البشرية (الأثنوجرافيا) .
علم أو دراسة الأجسام (السوماتولوجيا) .
علم الآثار (الأركيولوجيا) .

٧ — مقارنة الأديان

ولما كانت هذه القائمة لم تقدم على أنها النظام الوحيد الممكن اتباعه بل على أنها ربما كانت خير ما اقترح حتى اليوم ، فقد تضاف اليها موضوعات أخرى . وعلى كل حال فانها تؤدى إلى غرضنا إذ تساعدنا على بيان العلاقة القائمة بين العلوم التى جرت العادة بتسميتها اجتماعية .

علم الاجتماع علم عام .

كثيرا ما أخذ على علم الاجتماع أنه علم عام جدا مجمع تجميعا مفككا فيرمونه بأنه لا يضع حدودا واضحة جلية ، ولا يستطيع أن يقول أن هذا أو ذاك مؤكد حدوثه . ففى الكيمياء مثلا ، إذا وضع عنصران أو أكثر معا بنسب معلومة تكون النتيجة واحدة دائما إذا تماثلت الظروف . وكذلك الأمر فى الفوسيق فان قوانين الروافع والجاذبية وغيرها تعمل دائما على صورة مطردة حين تكون ظروفها واحدة . وفى العلوم الرياضية تكون النتائج دائما دقيقة مضبوطة ، بل الواقع أن النتائج الرياضية هى خير مثل للدقة العلمية . ويقال أن الكيمياء والفوسيق والعلوم الرياضية هى علوم دقيقة من حيث أنه يمكن وضع قوانين ثابتة لها . أما علم الاجتماع فانه لا يستطيع أن يبدى مثل هذه الدقة غير المتغيرة . فقد يحدث أن نرى شخصين تحيط بهما ظروف متماثلة كل التماثل ينقلبان متضادين فى الخلق — ترى أحدهما قد أصبح عاملا اجتماعيا كثير التضحية كل همه خير الناس والآخر مجرما مستطير الشر أو يصبح الأول متلافا والثانى من ذوى الملايين ، ذلك لأن العوامل من الكثرة والاختلاف بحيث لا تسمح بتكوين قوانين ثابتة . ليس فى الدنيا شخصان متماثلان ومن ثم فانه لا يمكن أن يسيرا على وتيرة واحدة بتأثير المؤثرات الواحدة ، إذ أمكن حدوث مثل ذلك .

ولما كان علم الاجتماع لا يستطيع أن يضع قوانين دقيقة شاملة فان كثيرا من الناس ينالون فيأبون عليه شرف تسميته علما . ولكن هذه الانتقادات آخذة فى الاضمحلال بازدياد معرفة الناس به . على أن العدل يقضى بأنهم اذا أخذوا على علم الاجتماع أنه لا يستطيع أن يضع قوانين متماسكة ثابتة ، أن ينتقدوا كذلك علم الحياة (البيولوجيا) لأنه يعيد تنظيم نظرياته وترتيبها من حين لحين أو يغضوا من شأن الرياضة لأنها ليست غاية فى ذاتها بل واسطة تصل العلوم الأخرى بفضلها الى مراميها أو ينتقصوا علم الاقتصاد بسبب أن الاقتصاديين لا يمكن أن يتفقوا فيما بينهم على حقيقة تعريف الربح والايجار والعمل .

الواقع أن لعلم الاجتماع قوانين ولكنها ليست جامدة بل هي عبارات تدل على اتجاهات ، وتعميات . وبالاختصار هي خلاصات عامة للحالات السائدة يحتمل أن تصح فى أغلب الأحوال .

وسنجد الأمر كذلك حينما نتتبع العصور المختلفة فى التاريخ الاجتماعى إذ قلما نستطيع أن نحدد تاريخا معينا ولو لعصور الانسانية على وجه الإجمال فقد تقتبس أجناس أو شعوب مختلفة أختراعا معينا فى أزمنة متباينة تباينا واسعا ، وقد يمر بعضهم فى مثل أطوار الحضارة التى مر بها البعض الآخر ولكن يكون ذلك فى عهود من الزمن مختلفة جد الاختلاف . فقد يتقدم جنس أو شعب تقدما سريعا وسواه ، وهو غير بعيد المنازل منه ، يسير فى تقدمه الهوينى . ذلك لأن العوامل المؤثرة فى هذا الأمر هى من الكثرة والاختلاف بحيث لا يتيسر وضعها كلها محل النظر والتقدير بل يندر فى الواقع أن يعرف المرء من هذه العوامل إلا القليل. واذا استطعنا أن ندرك جميع القوى العاملة ونعرف جميع الظروف ذات الأثر الفعال فلعلنا نستطيع إذ ذاك أن نتنبأ بالدقة عما سيحدث فى المستقبل كما يستطيع الكيميائى عند ما يخلط عناصر شتى بعضها ببعض .

لهذا فاننا عندما ندرس علم الاجتماع لن نلاقى قوانين شاملة دقيقة العبارة مثل التى اعتدناها فى علم الرياضة أو الفوسيق . على أنه مع ذلك لا يجوز لنا أن نتجاهل القوانين الاجتماعية إذ أنها مساوية فى الأهمية للقوانين المستخرجة فى العلوم .

يبحث علم الاجتماع فى ظواهر التجمّع الانسانى فى قواعده وحقائقه . وفى بحث هذه يجب علينا أن نراعى أصل المجتمع وترقيه والمهام التى تحفز الى العمل الانسانى والقوى الضابطة للانسان والنظام الذى عليه المجتمع فى الوقت الحاضر وكذا المشاكل التى تواجهه . ولذلك فانا فى اتباع هذه الخطة العامة سندرس أولا أمر السكان — وتأثير الطبيعة فى السكان ، والتزوج واختلاط الأجناس ، وهذا سيؤدى بنا الى مواجهة مسائلنا الحاضرة عن الهجرة والاختلافات الجنسية ، وثانيا سنتأثر خطى ترقى المجتمع ونخص بالعناية موضوع الأسرة والدولة والدين ، وثالثا سنحلل نظام المجتمع الحاضر أولا فى مظهره العادى أى السليم ثم فى مظهره غير العادى أى المعتل وأخيرا قد نلقى نظرة على المستقبل نحاول بها التنبؤ بما سيحدث من التقدم الاجتماعى .

الجــزء الثــانى

الفصل الثانى

الإنسان والطبيعة : تأثير البيئة الجغرافية فى تطور المجتمع

تأثير البيئة الجغرافية فى المجتمع من الأمور التى ينكرها كثير من الكتّاب إنكارا تاما حين أن القليل ولا سيما باكل (Buckle) ومس سمبل (Miss Semple) يؤكدونه ا كــ١٠ أشد مما تسمح به الأسباب . أما نحن فسنتناول هذا التأثير فى هذا الفصل على تقدير أنه أحد عوامل تكوين المدنية لا أنه أهم عامل فيها .

أثرها فى السكان

الإنسان كسائر الأنواع الأخرى من عالم الحيوان يتوقف وجوده على البيئة التى هو فيها. ولقد كان هــذا الاعتماد على البيئة أشد وأقوى اتصالا بحاله وهو على الفطرة الأولى منه وهو متمدين؛ لأن الإنسان الأول عاش بالاستيلاء مباشرة على خيرات الطبيعة . كان يعيش على أنواع من الثمــار والفاكهة والبقل والمحار ، بل وعلى كل ما كانت تصل اليه يده مما يمكن أكله . وإذ أن وجوده نفسه كان لهذا متوقفا على البيئة التى هو فيهــا ، فقد كان مضطرا إلى أن يعيش فى النواحى التى يمكن الحصول فيهــا على الطعام . ولمــا أضاف السمك الى عداد مأكولاته صار يدنو من مجارى المياه وسواحل البحار لكى يحصل هناك على طعامه الجــديد . وعند ما أخذ فى الصيد انتقل الى الاصقاع التى توجد بها بغيته . وعند ما أخذ بعد ذلك فى استئناس الحيوانات التمس لها المراعى التى تستطيع ماشيته أن تتغذى فيهــا . ولمــا أضيفت الزراعة الى وسائل حصوله على الطعام ازدادت الرابطة بينه وبين بيئته شــدة واتصالا ، لأن نجاح زرعه لا يمكن أن يتم إلا حيث تكون الأرض من الخصب والجودة بدرجة كافية ، وحيث يكون المطر وافيا والجو مهيئا درجة الحرارة الصالحة[1] .

على أن اتخــاذه أية وسيلة جديدة لتحصيل الطعام لم يجعله أقل اعتمادا على الطبيعة بل قصاراه أنه أصبح أقل اعتمادا على حالة خاصة من حالات الطبيعة ، فاذا قصرت احدى وسائل العيش وجد أمامه سائر الموارد الأخرى .

ومن خصائص الاقليم أنه يعين إلى حد كبير مقدار الطعام الذى يحتاجه الإنسان ونوعه إذ الغرض من الطعام أن يعطى الجسم حرارة ويعوض ما اندثر من الأنسجة فى الحركة البدنية . فاذا عاش الإنسان فى صقع بارد لم يقتصر أمره على الحاجة الى طعام أوفر، بل لا بد أن يكون طعامه من نوع آخر ، إذ يجب أن يعطى حرارة أكثر . ومن ثم وجب أن يحتوى مقدارا أكبر من الدهن . وفى الصقع البارد كذلك تقضى الضرورة بأن يبذل الأنسان جهدا أكبر لحصول على المعاش ومن ثم كان مقدار ما ينفقه الجسم من النشاط أكبر وبسبب هذا يحتاج الى مقدار أوفر من الطعام . أما فى الأقليم الحار فيحتاج الأمر الى كد أقل — بل الواقع لا يحتاج إلا الى قليل منه . ومن ثم كان انفاق الجهد أقل والحاجة الى الدهن أقل؛ و إذ ذاك تفضل الفواكه طعاما . وفضلا عن هذا فان الطعام يكثر فى البلاد الحارة . ولما كان المطلوب من الكد طفيفا كانت الحاجة إلى الحذق والابتكار أقل ، ومن ثم كانت الأصقاع الحارة ، كما سنرى فيما بعد لا تنبت الأجناس البشرية الضليعة الذكية التى تحدثها الأصقاع الباردة .

هذا هو أحد الأسباب فى أن جميع الشعوب الفاتحة تقريبا جاءت من الشمال ، وفى أن قارة عظيمة كأفريقية وقطرا شاسعا كالهند تقهرهما بسهولة أمم أوروبية صغيرة . بل الواقع أن الأجناس الفاتحة فى عصور الماضى جميعه قد أتت من الشمال . فانه لما كانت هذه الشعوب مضطرة الى العمل كدحا بلا ملل لكى تحصل على العيش فقد أصبحت نشيطة وواسعة الحيلة . لأن حربهم الدائمة الشديدة مع الطبيعة ومحاولتهم مقاومة المصاعب قد جعلتهم شجعانا لا يهابون . أما أولئك الشعوب الذين يعيشون فى الصقع الحار حيث يكثر الطعام فانهم لم يكونوا فى حاجة الى التفكير فى المستقبل بل كانوا قادرين على أن يعولوا أنفسهم بالقليل من العمل فأصبحوا لهذا كسالى قصيرى الحيلة هيابين .

قبل أن تنتشر التجارة انتشارا كافيا لاستحضار الطعام من بلاد إلى بلاد كان مقدار الطعام الذى ينتجه الصقع يعيّن عدد الناس الذين يستطيعون العيش فيه . وهذا هو السبب فى أننا نجد المدنية قد نشأت أولا فى الوديان الغنية من أنهار دجلة والفرات والنيل . فقد استطاعت هذه الأصقاع أن تطعم عددا كبيرا من السكان واتصل كثير من الناس فيها بعضهم ببعض وتبادلوا الآراء ولذا تقدموا أسرع من غيرهم فى الأصقاع الأخرى التى لم يكن يستطيع أن يعيش فيها إلا قليل . والأرض التى تستعمل للرعى لا تعول عددا كبيرا من

(١) لا يتضمن هذا القول أن هذا الترتيب هو الترتيب المطلق أو النموذجى للرقى الصاعد ولكنه يؤدى الى عرضنا من الابانة .

السكان بيد أنها تعول أكثر مما لو أنها كانت مستعملة للصيد ، لأن الحيوانات المستأنسة يمكن تربيتها على مساحة أقل مما تحتاج اليه حيوانات متوحشة اذا كانت هذه من كثرة العدد بحيث تكفى لتموين السكان . ويعول صيد السمك عددا من السكان أكبر مما يعول القنص . أو الرعى اذا كان السمك كثيرا كما يكون حاله فى بحيرة كبيرة أو نهر أو بحر . والزراعة تعول أكثر من هذا وأوفر . ومع ذلك فانه لا بد حتى فى هذه الحالة من مراعاة أنواع النبات المزروع فالبطاطس مثلا تحتاج الى حيز من الأرض أقل مما تحتاج اليه الذرة أو القمح ، ويحتاج الموز الى أقل مما يحتاجه البطاطس . وحيث يتكاثر الناس تستعمل وسائل الزراعة المركزة الكثيفة، وتزرع النباتات التى لا تحتاج إلا الى حيز قليل ، ومن ثم كان عدد السكان الذين يستطيعون العيش فى صقع ما متوقفا على أحوال تربته ومقدار مطره ودرجة حرارته إلا اذا نقصت غلاته بسبب آخر . وفى العصور الحديثة اتخذت التجارة والصناعة بدلا من الحرف الأصلية فساعدت الناس على انتاج سلعات أخرى يبادلون بها ما يحتاجونه من الطعام وغيره ولو أن بريطانيا العظمى وولايات نيوانجلاند (New England) كانتا غير قادرتين على صناعة بضاعة تستبدل بها غيرها من الضرورات لما كانتا قادرتين على إعالة العدد العظيم من السكان الذين يعيشون فيها .

تأثير البيئة فى حياة الناس

لا يقتصر تأثير الظروف الجغرافية على موارد الغذاء بل انها تكاد تؤثر أيضا فى كل ناحية من حياة الشعب . فالمناخ يعيّن حاجة الناس الى كثير أو قليل من اللباس . والطبيعة تتولى ذلك بنفسها فى الحيوان إذ تهيىء له فروا أو شعرا يتقى به هبوط درجة الحرارة . أما الانسان فلم تهيأ له تلك الوسائل بل المطلوب منه أن يهيىء لنفسه حاجتها بنفسه . على أن الانسان واجد مواد اللباس اللائق قريبة منه ، فى كل حال تقريبا . ففى الأصقاع الباردة يمكنه الحصول على الفراء والريش ، أما فى الأصقاع الدفيئة فيمكنه استعمال أنواع من البوص والأعشاب والألياف ولحاء الشجر. على أن هذه المسألة ليست من الأهمية بالقدر الذى قد يظنه الانسان، فان الملبس كما سنرى فيما بعد جاء بقصد الزينة أكثر منه لوقاية البدن . والسكن شبيه بذلك الأمر ، ففى الأقطار الدفيئة لا يحتاج الانسان منه إلا الى قليل . أما فى الاصقاع الباردة فلا بد من تهيئة الكثير منه . ولعل أهم أثرلها أن الجهاد فى سبيل الغذاء والكساء والسكن فى الأصقاع الباردة ينمّى النشاط وسعة الحيلة — وهى خصائص أقل ظهورا فى المناطق الحارة منها فى الأصقاع الباردة .

أثر البيئة فى الرقى الاقتصادى

القطر الذى يعيش فيه النـاس يعيّن كذلك أعمالهم فاذا كان به وفرة من حيوان الصيد أخذ الانسان فى الصيد ، وإذا كانت مجاريه غاصة بالأسماك أحترف صيدها ، وإذا كانت الأرض صالحة للرعى استأنس الحيوان وأصبح راعيا واذا كانت التربة خصبة صـار زارعا وإذا كان يعيش على الشواطئ حيث يستطيع أن يحصـل على مواد لصناعة السفن ولم يكن مغرى إغراء شديدا بخصوبة الأرض وانتاجها أصبح ملاحا . وإذا كانت جماعة من الناس تسكن بين شعوب مشتغلة بأعمال مختلفة كأن تكون بين قبائل زراعية من جهة وراعيـة من جهة أخرى فغالب أمر هذه الجماعة أن تصبح شعبا تجاريا يشتغل بمبـادلة بضائع جيرانه . لقد كان نشوء صناعات شتى بين أمم الدنيا مرجعه فى معظم الأمر إلى الظروف الجغرافيـة التى تحيط بأقطارها . فانجلترا أصبحت أمة صناعية بسبب ضعف تربتها وكثرة وقودها وكثافة سكانها . ولنقيض هذه الظروف تمـاما أصبحت الدانمرك أمة زراعية راقية جدا . وأصبحت الصين فى معظم أمرها زراعية بسبب خصوبة وديان أنهـارها . والفينيقيون والقرطاجيون والبندقيون والهولنديون ومن بعدهم الانجليز والألمـان ، اتخذوا التجارة حرفة بسبب ملاءمة موقع بلادهم لذلك ، يعززها فى ذلك أسبـاب أخرى كزيادة عدد السكان فى بلادهم وقلة الموارد الطبيعية فيها. وبقى الهنود الأمريكيون فى جوهرهم صيادين بسبب وفرة الصيد وقلة السكان.

والواقع أن الحياة الاقتصادية لكل أمة تكيفت إلى مدى بعيد بفعل الظروف الجغرافية. فلا يقتصر الأمر على أن نوع العمل وحده الذى اختاره الانسان أو بالأحرى اضطر إليه الانسان هو فى أكثره نتيجة البيئة بل إن نصيبه من النجاح فى عمله يمكن أن يعزى إلى الظروف الطبيعية أيضا لأنه إذا كان الانسان غير قادر على أن ينتج أكثر مما يستهلك لم يبق لديه شئ يكون له منه رأس مال فلا تكون هناك صناعة ولا فراغ ولا تربية ولا تقدم فى سبيل المدنية إلا بالقدر اليسـير . ومن أحسن الأمثلة على هذه الحالة بلاد التبت والأصقاع المتجمدة والقوقاز . وفضلا عن هذا فان هـذه الأقطار واقعة مواقع لا تسـمح بنشوء التجارة فيهـا أو الصناعة. واذا تفحصنا مختلف أجزاء الولايات المتحدة نجد أمثلة متعددة على تأثير الظروف الطبيعيـة . فان الاصقاع الخصبة الكبيرة التى فى الولايات الوسطى والأجزاء الغنية المنتثرة فى ذلك القطر مثل وادى المسيسبى وما يوجد منها فى كاليفورنيا وأوريجون وواشنطن جميعها موقوفة على الزراعة . والنواحى المرتفعة من نيوانجلند مكرسة للصناعة ولفلاحة البساتين والجزء الواقع غربى تلك الجهات الزراعيـة مباشرة مخصص لتربية المـاشية والأغنام لقـلة صلاحيته للزراعة فكل صقع يحاول أن يعمل ما هو مهيأ له أحسن تهيؤ. وقد صار هذا الأمر خطة للأمم فى السـنوات الأخيرة إذ يرون أنه يجب على كل قطر أن يعمل على إنتاج الأشياء التى يصلح لها على خير وجه لا أن يحاول إنتاج كل ما يستهلكه .

تأثير البيئة فى النظم الانسانية

فيما يتعلق بأمر الحكومة نلاحظ أن نوع الحكومة يكون غالبا نتيجة البيئة الجغرافية ، فنشوء الديموقراطية فى حكومات المدن الاغريقية إنما كان ممكنا بفضل سلاسل الجبال التى تقسم القطر أقساما صغيرة . وعند ما يكون الأقليم واسع النطاق وهو مع ذلك منعزل عن غيره من الأقطار ، تكون الظروف أشد ملاءمة لنشوء الامبراطوريات والملكيات المطلقة مثل ما نشأ فى أشور وفارس والروسيا والصين . وفى الأقطار التى تحتك فيها الناس بأقوام من شعوب أخرى ويكون لهم اد ذاك فرصة أوفى للملاحظة والتفكير نرى أن لعامة الشعب فيها صوتا فى حكومتهم ، ونرى فيها ممالك دستورية ومدنا حرة وجمهوريات .

وفى الأقاليم التى يصعب حكمها بسبب عزلتها ومنعتها نجد الفوضى وقطع الطريق وفقدان الحكومة المنتظمة ، كما كان الحال ولا يزال فى القوقاز والأفغان والتبت وكما كان فى الهند الشمالية أيام نزل الانجليز بها . وتكون المستنقعات والجزر والجبال بمثابة ماوى للقراصين وقطاع الطرق والخارجين على القانون. ولقد كانت كثرة عدد هذه البقاع فى الولايات المتحدة سببا فى صيرورة تنفيذ القانون مشكلة ذات شأن عظيم فى أول عهد الغربيين باستعمارها وقد كان سكان الجهات الجبلية (الهايلاندرس) من بلاد اسكتلنده معروفين بأنهم قوم لا ينزلون على قانون حتى بعد أن أصبحت اسكتلنده فى جملتها قطرا عظيم الرقى جدا . ولقد كان الكرد والتتر بمثابة شوكة فى جوانب جيرانهم ووقفت جغرافية بلادهم عقبة فى سبيل معاقبة جيرانهم لهم على اعتداءاتهم . وكثيرا ما اتخذ حجة على قانون تحريم المسكرات (بأمريكا) كونه لا يمكن تنفيذه فى مثل الجهات الجبلية من كنتاكى . فالصفات الجغرافية لقطر ما — بقطع النظر عن العوامل الأخرى — هى ذات أثر عظيم لا شك فيه فى نشوء الحكومة وتنفيذ القانون .

إن سياسة الأمم — كالسياسة الاستعمارية مثلا — إنما تمليها البيئة الجغرافية فى الغالب أو على الأقل تؤثر فيها — أى أنها انما تقترح أو تفرض فرضا على القطر بسبب موقعه وازدياد سكانه . وسياسة التجارة الحرة أو الحماية انما يعينها الموقع أو نوع العمل، فانجلترا تزكى حرية التجارة لأنها لا تستطيع انتاج المواد الخام بل لا بد لها أن تستوردها مع ما تستورده من مواد الغذاء واذا استطاعت أن تحمل غيرها من الأقطار على قبول مصنوعاتها فانها تكسب بذلك كثيرا . وقد كانت الولايات المتحدة فيما سبق على نقيض حالة انجلترا ولذلك لزمت جانب حماية التجارة . ولكن ازدياد عدد سكانها آخذ تدريجيا فى تغيير مصالحها وسياستها الجمركية تبعا لذلك .

عند ما ندرس الدين نرى أن للبيئة تأثيرا نفسيا في الانسان. لا تأثير الهواء وحده ومنظر السماء واتساع الأفق ، بل ونوع العمل الذي يمارسه — وهو كما سبق ان أشرنا ، إنما تعينه العوامل الجغرافية الى حد كبير. وقد جاءتنا الأديان العظيمة على أيدي أقوام من الرعاة كانت لهم فرصة للتفكير في أسرار الحياة، وقد تأثرت عقائدهم باحتكاكهم بالطبيعة مباشرة في السهول حيث لم يتمالكوا أن يتأثروا بصفاء السماء وسعة المشهد، وبجلال المناظر عند ما كانوا يسوقون في الصيف قطعانهم الى الجبال . ونجد على العكس من ذلك أن أديان الشعوب التي تعيش في المناطق الحارة تكون — بسبب تعقد الحياة عندهم والخطر الحادث لهم من الحيوانات والزواحف — ممزوجة بالسحر والخرافات . لم يستطع أولئك الأقوام أن يفسروا الطبيعة ولذلك زعموا أن أعمالها من فعل الأرواح وأن هذه لا يسترضيها إلا السحر .

وكثير من النظم الاجتماعية كالرق نما أو منع تبعا لطبيعة القطر فالرق محصور في الجملة في البلاد الدفيئة حيث العمل مجهد والطعام وافر وحيث يكفي عمل الرجل الواحد لاعالة اثنين ، وحيث يمكن أن يطعم العبد ويكسى بقليل من النفقة . وقد اندثر الرق من شمالي الولايات المتحدة لأنه ليس مربحا، وراج في الجنوب لأن العبد كان يمكن استخدامه في المزارع الكبيرة بما يعود بالفائدة. وفي الأصقاع الجبلية الواقعة في الجنوب ، ولا سيما كنتاكي الشرقية وتنيسي الشرقية وفرجينيا الغربية والجزء الغربي من ولايتي كارولينا ومن جورجيا الشمالية ، في هذه كلها لم يرج الرق مطلقا ولذلك انحاز جزء كبير من هذه الولايات الى الشمال في الحرب الأهلية. وكذلك الامر في أفريقيا وأسيا فقد راج الرق في تلك الأقاليم التي يجعل المناخ العمل فيها مكروها والتي يكون فيها عمل الرقيق مربحا . ومن الحقائق أن الأدب والتربية ينموان في الأقاليم الشمالية أو المعتدلة أكثر منهما في غيرها . ونجد الديموقراطية والمساواة أكثر في هذه الأقاليم ولا سيما في الأقطار التي تقع موقعا يسمح لأهلها بالاحتكاك بالغير .

تأثير البيئة في الأسرة

إن مقام المرأة في الأسرة تابع الى حد كبير لأهمية مركزها باعتبارها عاملا . فاذا كان عملها أهم من عمل زوجها فاما أن تحكم الأسرة أو يكون لها رأي عظيم في تدبير شؤون المنزل وأما اذا كان عملها أمرا ثانويا فانها تهمل . ويلاحظ هذا في الشعوب الراعية حيث لا تستطيع المرأة أن ترعى القطعان ومن ثم تصبح في عداد المتاع وكذلك الأمر في أهل الصيد سوى أن المرأة مضطرة بينهم الى القيام بالأعمال الصغيرة المكروهة حول الخيام وصيرورتها بذلك خادمة مسخرة. وحيث تكون الحياة رخيصة أو المعيشة شاقة نجد عادة قتل الأطفال شائعة .

وفي الجزء الأكبر من أفريقيا نجد أن مقام المرأة لا يفضل مقام العبد إلا قليلا ، أما في المناطق المعتدلة فانها ذات منزلة تكاد تساوي منزلة الرجل .

تأثير البيئة فى أخلاق الشعب

تتأثر أخلاق الشعب بالبيئة الجغرافية بقدر كبير. وقد سبق لنا أن أشرنا الى أن المناخ البارد ينهت الطبقة الحاربة لأن سكان البلاد البـاردة يكونون ذوى نشاط وشجاعة وذكاء أكثر من سواهم حين أن أهل البلاد الحـارة يكونون عادة أميل الى البلادة والخمول وعدم التبصر. وسكان البلاد الدفيئة يكونون فى العادة أميل الى الفنون الجميلة وأوسع خيـالا وأكثر نظرا إلى الكمال إذ تستثير البيئة خيالهم؛ وهم كذلك أشد رعونة واندفاعا، وأقل تقديرا لقيمة الحياة الانسانية، فالحياة عليهم أهون وأقل خطرا، ومن ثم كانوا أكثر تعرضا لاقتراف القتل. أما أهل الشمال فانهم لحاجتهم إلى بذل الجهد الكبير يكونون فى العادة أشـد احتمالا وأقوى عضلا مالم يكن للمناخ من القسوة بحيث يعجز النمو بسبب قصور الطبيعة عن أن يهيئ الكفاية من الغذاء. وبالجملة فان للمناطق الحارة أثرا مخمدا حين أن للبلاد الباردة أثرا منبهـا.

تأثير البيئة فى الهجرات البشرية

نجد أن انتقال الانسان ظاهرة خاضعة لجغرافية بلاده. فاذا كان محوطا بالجبال امتنع عليه النزوح والهجرة، واذا عاش فى السهول لم يستطع أن يمنع نفسه عن التجوال. ولقد سار الانسان فى تنقله متبعا أسهل الدروب فسـار فى وديان الأنهار بدلا من تسلق الجبال، ومشى حول البحار بدلا من عبورها. وعلى الجملة فقد ذهب حيث سمحت له الطبيعـة أن يذهب. عاقته الصحارى والمستنقعات والجبال والمحيطات والبحار بل والأنهار أيضا، وأغرته السهول والوديان والشـواطئ بالتجوال فى طرق جديدة، ولذلك فأن أمريكا لم تسـتوطن إلا منذ عهد قريب جدا فى تاريخ الانسان لأنه لم يستطع أن يبلغها. أما أوروبا فقد استوطنت منذ عهد بعيد لسهولة الدخول اليهـا. والواقع أن خيرات الأقطار هى التى أغرت الانسان بالنزوح اليها ومن ثم كانت تجارة الفراء فى سيبيريا وألاسكا وشمالى كندا عنصرا عظيم الشأن فى استعمار تلك الأقطار وكان العاج والمطاط سببا فى اجتذاب سكان أوروبا الى أفريقيا وأمريكا الجنوبية، والذهب والفضة ممـا دفع به الى أقاصى الدنيا فى الكلونديك وشمالى سيبيريا وأفريقيا الجنوبية واستراليا وبيرو.

تأثير البيئة فى الرياضة البدنية

حتى الألعاب وأنواع الرياضـة فانها وليدة الموقع الجغرافى. ترى النـاس فى الأصقاع الباردة مغرمين بالألعاب المجهدة وذلك لحاجتهم الى الدفء. وأما أهل المنطقة المعتدلة فأحب الألعاب اليهم لعب كرة القدم والباسبول (Baseball) والتنس والجرى والقفز وما إلى ذلك

من الألعاب التى تتطلب نشاطا عضليا . أما فيما وراء ذلك من الشمال فنجد ألعاب الانزلاق على الثلج بطرق شتى ، منتشرة انتشارا كثيرا وهى ألعاب مستحيلة فى البلاد الدفيئة ، أما فى الأصقاع الحارة فاللعب لا يقتصر أمره على كونه غير مطلوب بل أنه ثقيل على النفس ، ولذلك تترجم الرياضة فيها حالة السكون والراحة وتجنب بذل الجهد . ولذا نرى الهندوس والصينيين يزدرون الأوربيين لعكوفهم على الألعاب العنيفة ويتساءلون أليس فى الامكان استئجار أجراء ليلعبوا لهم التنس وكرة القدم فيتجنبوا هذا الجهد الشاق . ذلك لأن الرياضة فى نظرهم هى أن يجلسوا ساكنين لا يفعلون شيئا . على أنه من المشاهد الآن أن الصينيين واليابانيين لاحتكاكهم بالأوروبيين والأمريكيين أخذوا مسرعين فى اقتباس الألعاب الغربية ولا سيما التنس والباسبول والألعاب الرياضية .

تأثير البيئة فى التقدم الاجتماعى

تقدم الأمة والجنس فى طريق المدنية أو بقاؤها على حالة التأخر أمر مرجعه فى الأكثر إلى الموقع الجغرافى . فالشعوب التى تكون مواقعها الجغرافية ملائمة — كأن تكون فى المنطقة المعتدلة أو فى أرض منتجة فهى لذلك مرغوب فيها ، أو على شواطئ البحار حيث يسهل اتصالهم بالغير بالبيع والشراء — تتقدم فى سبيل المدنية بخطى أوسع وأسرع من غيرها من الشعوب التى تحول منازلها دون اتصال أهلها بالغير . وكذلك كون الشعب النازل فى المنطقة المعتدلة يمتاز امتيازا بينا على غيره ممن يعيشون فى المناطق الحارة حيث الطبيعة مفرطة فى الكرم وحيث حيوية أهلها مفقودة ، له أثره فى التقدم الاجتماعى .

ولقد يتحدد حجم الأمة وقوتها بالأقطار التى تحيط بها ، فالجبال والبحار والصحارى والمستنقعات قد تمنعها عن التوسع وعن التقدم فى سبيل المدنية . ولذلك ترى الشعوب المتأخرة تعيش فيما لا يمكن الوصول إليه من أصقاع الدنيا مثال ذلك التبت وبلاد الأفغان وأدغال أفريقيا أو الجهات المنعزلة عن العالم كأستراليا ومدغشقر وجزيرة أرض النار (تيرادلفويجو). ولوقوع القطر فى داخل الأرض أو على الشاطئ شأن كبير فى تطوره ورقيه . فوقوعه فى الداخل من شأنه أن يسمح له بالتوسع فضلا عن كونه يهيىء له فرصة الفتح وإن لم يكن يسمح بحدوث اختلاط عظيم بينه وبين الشعوب الأخرى كما هو شأن الموقع الساحلى . وعلى الجملة فاننا نجد أن للقطر الذى يجمع بين سعة الداخل وحسن الموقع على الشاطئ امتيازا ظاهرا على القطر الذى لم يهيأ له إلا أحد هذين الأمرين . والولايات المتحدة موفقة جد التوفق فى هذا الصدد إذ أحرزت الميزتين معا . والملاحظ أن الأمة التى ليس لها سوى واحدة منهما تحاول أن تحصل على الأخرى ، ولذلك جاهدت روسيا مدى قرون عدة فى سبيل الحصول على مخرج ملائم

لمـا على البحر . ولم يكن للولايات المتحدة فى أوائل العهد من تاريخها إلا الشاطئ وحده فلم تهدأ حتى أضافت اليها منطقة داخلية واسعة . أضف الى ذلك أن النفوذ الواسع الذى تيسر لكثير من الأقطار الصغيرة مثل فينيقيا وأغريقيا وانجلترا وهولاندا إنمـا كان فى الأكثر بسبب موقعها الجغرافى .

ويسمح الوقوع بين قطرين مهمين باكتساب ثقافة الأثنين ومدنيتهما ولكنه يعرض صاحبه للغزو من هذا أو ذاك . على أننـا نرى من جهة أخرى أن تنازع البقاء ينقلب الى نزاع لحيازة الأرض ، وأن الأجناس المتفوقة تختار أحسن الأرض ، وتدفع الأجناس المنحطة الى التجمع فى البقاع غير المرغوب فيها ، وتغزو أملاك الشعوب الضعيفة وتأخذها منهـم . ولذلك فأننا نرى أن مسألة الموقع ليست كل شيء فى الموضوع ، ومع هذا فان حسن الموقع فى الجملة عامل عظيم فى التقدم حين أن عدم ملاءمته قيد عائق ، وهذا أحد الأسباب المهمة فى أن بعض الأمم قد تقدمت وبعضها لم يتقدم . ولكى نستطيع أن ندرس هـذا الموضوع على وجه أحسن يجدر بنا أن نبحث فى شيء من التفصيل ، تأثير العوامل الجغرافية المختلفة مثل المياه والجبال والسهول والمناخ فى رقى الأنسان .

تأثير المياه فى الانسان

إن الانسان بطبعه حيوان أرضى وإنمـا سار على وجه المـاء طلبا للطعام والمكسب الأقتصادى ، واذا نزل بالقرب من البحر أو النهر لم يفعل ذلك إلا ليقترب من موارد الطعام أو طلبـا للحماية إذ يؤمنه البحر مفاجأة الأعداء من تلك الناحية أما النهر فانه يعوق العدو قليلا فيكتسب الانسان وقتا للدفاع عن نفسه . وربمـا خرج الأنسان الى المـاء فبنى مساكنه على الجزائر بل وعلى أكوام الرمل والحجـارة ، ليزداد طمأنينة وأمنا . وقد وجدت أمثال هـذه المنازل فى بلاد الملايو وفى البحيرات السويسرية . ويخبرنا التاريخ أن الإغريق لجأوا يوما ما الى هذه الوسيلة بالقرب من طيبة للاحتماء من غزاة الفرس . ولقد جاد البحر على الانسان بزاد مهم أضافه الى طعامه فمكنه بذلك من العيش فى جهات لولا ذلك لمـا كانت قابلة للسكنى ، وساعده على أن يضرب فى الجهات الشمالية إلى أبعد ممـا كان يفعل بدون ذلك . وبهـذا أصبحت الأصقاع القاحلة قادرة على تغـذية سـكان أكثر عددا ، كما هو الحال اليوم فى نيوفوندلند والنرويج والاسـكا واليابان . كذلك كانت مصايد الأسمـاك عاملا عظيما فى التوسع البحرى إذ ساعدت على انتشار السكان فى أصقاع مثـل الاسكا والجهات الشمالية الشرقيـة من الولايات المتحدة ، وكانت أيضا بمثابة معاهد لتنشيء الملاحين الذين كانوا سببا فيما كان لانجلترا الجديدة من النشاط التجارى وللهولنديين والأسكندناويين .

ولقد كان تسلط الانسان على المـاء عاملا عظيما فى المدنية وكان من دواعى الحروب بين الأمم على مدى الأيام. ومن قبيل ذلك، النضال الذى وقع بين الأغريق والفينيقيين من أجل السيطرة على بحر ايجه، والنضال بين القرطاجيين والرومان على البحر الأبيض المتوسط، وبين فرنسا وانجلترا على بعض مصايد الأسماك، وبين الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا معاطى حقوق الصيد والسيطرة على البحار الداخلية والبحيرات والمرافئ ذات شأن عظيم، إذ الشواطئ هى مخارج للتجارة والتوسع ومداخل للمخترعات والتحسينات والآراء الجديدة. ولهذا كان للرافئ أهمية كبيرة. والسيطرة على الأنهار لاتقل أهمية عن السيطرة على البحار لأن الأنهار مسالك عظيمة الشأن للتوسع وتقوم مقام الواسطة بين اليابسة والبحر، ولذلك فالقطر ذو الأنهار الصالحة للملاحة يمتاز على القطر المحروم منها امتيازا كبيرا. ومن ثم كانت أنهـار المسيسبى والأوهيو والمسوّرى ذات فضل على الولايات المتحدة لا يمكن تقديره ولا سيما فى أوائل عهد نشوئها. أما روسيا فقد عاق تقدمها أن كثيرا من أنهارها يصب فى الأصقاع القطبية وأنها لم تستطع أن تحصل على مرفأ يفيدها الفائدة التامة. وللمـانيا كما للولايات المتحدة امتياز بين فى هذا الصدد. هذا والسيطرة على مصب النهر ذات قيمة حربية عظيمة إذ أن حركة المرور تزداد أهمية كلما قربت من المصب عـا فى ذلك حركة التصدير والاستيراد. ولقد كانت حركة الملاحة النهرية فيما مضى أهم شأنا منها الآن بعد أن استخدمت السكك الحديدية ولذا فقد اضطرت الولايات المتحدة الى الاستيلاء على مصب المسيسبى رعيا للصلحة الوطنية والاقتصادية معا. ولم يهيىء البحر الأبيض المتوسط لأهليه ألا مزايا محدودة بسبب قلة الأنهار الكبيرة التى تصب فيه. وقد كان هذا الأمر سببا فى أن التجارة والمدنية لم تتقدما فيه فى الزمن القديم إلا بالقرب من السواحل ، أما أقطار البلطيق فكانت على العكس أوفر حظا .

ولأهل السواحل دائمـا ميزة على أهل الداخل ، اذا كان الدخول الى سواحلهم ممكنا لأن الشاطئ منطقة انتقال وملتقى لمختلف الثقافات والمدنيات ، ينزل فيه الواردون من الأقطار الأخرى ومعهم آراؤهم وعرفهم وعاداتهم ومخترعاتهم وهو بمثابة باب ومنفذ للاستعمار والتصدير ومدخل للهجرة والاستيراد .

وتنشأ المستعمرات فى الغالب بالقرب من الشاطئ . فالجزائر وأشباهها تستوطن أولا لأنها أول ما يقع عليه عين المرتادين وفضلا عن هذا فانها تسهل وسيلة الاتصال وتسهل عند الحاجة طريق الرجعة إلى بلاد الوطن . وبعد ذلك يمتد الاستعمار الى الداخل ويحتل منطقة أكبر . وكما أن أشباه الجزائر تمتد فى البحر وتجتذب التجارة فالأنهار والخلجان والمرافئ تمتد الى الداخل وتقرب البحر الى الأقطار الداخلية وتجلب اليها التجارة والرقى العاجل . واذا كان الشاطئ منفصلا عن الداخل بجبال أو لم يكن به مرافئ صالحة كما هو شأن جزء عظيم من

أفريقا أو كان مستنقعا كما هو الحال عند مصب النيل لم تأت التجارة اليه ، أما اذا كان الأمر على نقيض ذلك فكانت هناك مرافئ وسهولة اتصال بالداخل وكانت السلع التجارية قريبة كما هو حال انجلترا الجديدة و بريطانيا العظمى وألمانيا وهولندة وفرنسا فاننا نجد أن التجارة تروج بسرعة . أما اذا كان الداخل غنيا جدا — أغنى بكثير من الشاطئ — فالشاطئ لا يغرى أحدا إذ ذاك ولا يكون البحر مصدر تأثير عظيم فى الداخل وهذا مشاهد فى كثير من بقاع إفريقا .

بسبب هذه المزايا كان أهل الشواطئ فى العادة أرق من أهل الداخل ، أى اذا كان الشاطئ ملائما ؛ أما اذا كان الوصول اليه صعبا أو كان قاحلا أو بعيدا عن طريق التجارة فالعكس صحيح . ولكن العادة أن أهل الشواطئ يرتقون قبل غيرهم . فاذا نظرنا الى آسيا وجدنا أن المدنية والتقدم يجاوران الشاطئ لزاما وأن أهل الشواطئ أرق كثيرا من سكان الداخل لأنهم فى العادة خليط من عدة أجناس ، ولموقع البلاد على البحار الداخلية من المزايا مثل ما للأقطار الواقعة على المحيط الخارجى بل الحقيقة أن هذه البحار الداخلية أسبق تقدما إذ كانت قبل غيرها وسائط للتواصل ومهادا للتجارة ، لأن البحار الداخلية لم يرتد الناس عنها خوفا من الماء كما هو شأن المحيط العظيم وبالرغم من أن البحر الأعظم رد الانسان على عقبيه فى مبدأ الأمر فكان بمثابة حاجز له ومانع ، فقد أصبحت سواحله عونا على التوسع عند ما ارتقت التجارة ولكنه لم يساعد على التوسع السياسى مساعدة السهول . ولقد كان حسن الموقع على البحار أقوى عامل فى تقدم الأمم كفينيقيا وقرطاجة وهولندة وانجلترة وكان أحد العوامل الرئيسية فى نهوض الأغريق . والرومان ومن خصائص أهل الشواطئ الجرأة والأقدام ، لا لما فى أعمالهم من المخاطرة وحدها بل ولأن المستعمرين يكونون فى العادة أجرأ الناس وأشدهم أقداما ولذلك فان الشواطئ تستقبل أهل الإقدام والهمة من رجال الأمم الأخرى ونسائها وكذلك الطائشين منهم والمستهترين . ونظرا لما يصيبه سكان السواحل من متنوع الطعام نراهم عادة أقوياء الأبدان وتغذيتهم حسنة كاملة .

وبارتقاء التجارة العالمية أصبح للأوقيانوس قوة موحدة إذ جمع بين مختلف الأمم وكان وسيلة لنقل مميزات كل مكان ومخترعاته إلى كل مكان آخر ، ولقد جعل الماء الانسان ذا صفة دولية بما هيأ له من رخص وسائل الانتقال وسرعتها ، وباستكشاف أمريكا انتقلت المدنية الأوروبية اليها وأضيف الى أوروبا موارد وغلات جديدة استطاعت أمريكا أن تقدمها مثل البطاطس والذرة وثروة المناجم ومصايد الأسماك فيها ثم غلة حقولها بعدئذ . وقد أضيف هذا كله الى ما كان لدى أوروبا منها من قبل . ولما كانت الملاحة البحرية عظيمة الشأن لدى الانسان فقد قبل الناس حيدة البحار وجعلوها مبدأ ثابتا فى القانون الدولى .

وفى الجزر ضروب كثيرة من التأثيرات ترجع بها على الشواطئ . فان أهل الجزائر فى العادة يشبهون شعوب الأقطار التى يأتون منها وربما فاقوهم، كما حدث فى كريد فيما مضى أو انحطوا عنهم . وكثيرا ما كانت الجزائر تحتل كملجأ للهاربين ، فلما تقدمت وسائل النقل بالماء فقدت الجزائر مناعة موقعها وأصبح الحال على نقيض ذلك لأنها لما كانت محدودة المساحة كانت قدرتها على الدفاع عن نفسها فى الجملة ضئيلة ، ومن ثم كان سهلا وقوعها فريسة للفاتحين . من أجل هذا لم يصعب على أثينا أن تخضع عصبة جزائر ديلوس وكانت كريد منذ مبدأ التاريخ تقريبا خاضعة لبعض الدول ، وكذلك كان حال جزائر سردينيا وكورسيكا وصقلية . وجميع جزائر الهند الشرقية خاضعة لدول أوروبية ما عدا الفيليبين ، على أن هذه كانت كأخواتها الى عهد قريب . وكانت جزائر الهند الغربية خاضعة جميعها أو أكثرها لدول أوروبية ولولا الولايات المتحدة الأمريكية لظلت جميعها كذلك . وجزائر المحيط الهادى مملوكة لدول العالم المختلفة ؛ إلا اليابان فانها فى الواقع الأمة الجزيرية الفريدة المستقلة . والجزائر ولا سيما القاحلة منها أو المقفرة كثيرا ما تتخذ سجونا للجرمين والمذنبين السياسيين ، ومن أشهر هذه الجزائر سخالين ونيوكاليدونيا وسانت هيلانة والبا وجزيرة الشيطان .

وكثيرا ما كانت الجزر مأوى الشعوب التى على الفطرة وتقاليدهم وعاداتهم . والواقع أنه بعد أن تترك الجزيرة بعيدة عن طريق التقدم تبقى فى العادة على ما هى عليه حين تتقدم الدنيا وتترقى . ومن الجزائر ما هو الآن مباءة بعض شعوب تعد اليوم أشد الناس التزاما للفطرة مثال ذلك سيلان وبرنيو ومدغشقر وزيلنده الجديدة .

وكثيرا ما تكون الجزائر مجدبة غير منتجة فيستعصى العيش فيها على أهلها . وقد يضطرون الى الالتجاء الى وسائل اصطناعية لتقليل عدد السكان كقتل الأطفال أو عوق النسل ببتر أعضاء من الجسم أو التأخر فى الزواج ، بل وبأكل الناس لحوم الآدميين . على أن كثرة السمك من جهة أخرى كثيرا ما تسمح بكثرة السكان . وقد تكون شدة العيش فيها سببا فى اتساع مجال العقل والمهارة . ولما كانت الجزائر عادة ذات مناخ طيب فهى كثيرا ما تتخذ مكانا للهو أو التماسا الصحة . وحسن المناخ فى الجزيرة يجعل أهلها أولى مزاج سمح غالبا واذ أنهم يلتقون فيها بكثير من الغرباء فى معرض التجارة والتبادل ، اذا كانت الجزيرة واقعة فى طريق التجارة ، لذلك فانهم يصبحون ذوى طباع كريمة .

تأثير البيئة الجبلية

ألمعنا فيما سبق الى تأثير الجبال إذ تكون كحوائل تحتبس الناس فيما بين سلاسلها وترد الناس دونها — وهما أمران متعادلان فى الأهمية . على أن الجبال لا يقتصر أمرها على منع التوسع ودفع الغزو بل أنها تمنع التقدم أيضا إذ تحول دون تطرق الآراء الجديدة والتحسينات

والمخترعات اليها . وهى تعوق السكان عن الاتصال بالغير وتدعو الى نشوء روح الريبة فى نفوس أهلها نحو الأجانب . على أنها فى الوقت نفسه تكوّن فى أهلها خلال التخشن والاستقلال . ويصبح أهل الجبال فى العادة أشداء فى القتال يندر التغلب عليهم فاذا قهروا لم يكن هذا إلا بسفك مقدار عظيم من الدماء . ودول الجبال كثيرة نوعا ما فمنها سويسرا والجبل الأسود والحبشة والافغان والتبت . وهذه الدول وان كانت صغيرة وفى بعض الأحيان متبربرة ، قد احتفظت باستقلالها وهى فيما عدا ذلك ليست بالدول ذات الخطر . والحياة فى الجبال شاقة والأحوال فيها على فطرتها الأولى كما نرى فى التبت والحبشة والجبل الأسود. وتصبح الجبال كما أشرنا فيما سبق من القول ملجأ للمضطهدين حتى ليقال عن بلاد القوقاس أنها مقبرة أجناس وأمم وأديان وتقاليد وعادات ومثل عليا . ولقد أنقذ أهل رومانيا أنفسهم غير مرة بالتجائهم الى جبال الكرمات وترك الغزاة يمضون فى طريقهم .

ولقد كانت الجبال ملاجئ المجرمين أيضا وللطبقات الخارجة على القانون ، ولذلك فكثيرا ما نرى فى أهل الجبال خلال السلب والغارة لعكوفهم على سرقة الماشية وقطع الطرق والنهب إجمالا . ولقد عرف أهل الأفغان والأكراد وأهل الجبال فى اسكتلنده بهذا الأمر . وهى أيضا تخرج المرتزقة من الجنود . وقد ظل أهل سويسرا عهدا طويلا يستخدمون كذلك . وعمال الجبال لقلة الأشغال فى جهاتهم يهبطون الوديان فأهل الأفلاق (ولاشيا) والتيرول وغيرهم من سكان جبال الكرمات والألب يهبطون الوديان بالألوف كل عام للمساعدة فى زراعة الغلات وحصدها . والجبليون متصفون لذلك بالاستقلال والشعور بالذات الفردية والأقتصاد فى المعيشة والشجاعة وقوة الأرادة وهم يعدون العالم بالأشداء من الأجناس وهم أهل خيال ودين أذ يؤثر جلال الجبال فى نفوسهم تأثيرا بليغا .

تأثير السهول والسهوب والصحارى

تأثير السهول على نوعين وذلك لأن السهول ضربان — السهول المنتجة وغير المنتجة . الأولى تدعو الى الاشتغال بالرعى والزراعة وتسمح بالتوسع السياسى وبناء الممالك الواسعة . وفيها نرى المؤثرات التى تدعو إلى توحيد الحكومة والعمل ولها أثرها أيضا فى جميع نواحى النشاط الانسانى . ومن خصائص السهول أن تندمج فيها القوميات واللغات والتقاليد بحيث يصبح الكل وحدة متفقة وليس فيها فرصة للعزلة ولا للفردية الذاتية — فروسيا مثلا أشد وحدة من سائر الأمم الكبيرة تقريبا .

وأهل الصحارى والفلوات القاحلة كالذين يعيشون فى الصحراء الكبرى مثلا أو فى جزيرة العرب أو فى بلاد المغول يكونون فى الجملة رعاة أو تجارا بيد أنهم تعوزهم الوحدة . وهم عادة على شكل عصابات ويميلون غالبا الى النهب والإغارة على جيرانهم الأوفر ثروة، لسلب ثروتهم

وهم أهل خفة عظيمة فى الحركة والانتقال بل إن هذا فى العادة أمر أضطرارى لقلة ما لديهم من المؤونة . ويضطر كثير منهم الى الرحلة تبعا لفصول السنة فيذهبون الى الجبال أثناء الصيف طلبا للرعى ويعودون الى السهول أثناء فصل المطر القصير المدى . هذا التجول الأضطرارى يجعلهم رحلا ولذلك فهم يؤلفون بسهولة عصائب النهب والسلب . وإذ كانت حياتهم شاقة عليهم فهم أولو شجاعة وذكاء ويقظة وهم يحسنون القتال. ولا يوجد من الفرسان فى العالم من هم أحسن من القوزاق (الروس) .

وقلما يحتشد أهل السهول فى جيوش عظيمة بيد أن الفتوحات الأسلامية تعد من الحوادث الاستثنائية وإنما تم ذلك بسبب الحماسة الدينية . على أنهم فى العادة إذ يفتحون الأقطار قلما يتدخلون فى حياة عامة الشعب المغلوب ، بل يكتفون بأسقاط الطبقة الحاكمة كما فعلت أسرة المنشو فى الصين والملوك الرعاة فى مصر . هذا وأهل السهول يتعذر قهرهم لسهولة تراجعهم وصعوبة اقتفائهم ومن ثم احتفظ أهل هاتيك الأصقاع من العالم على وجه عام باستقلالهم ، ولو كان لهم جيران أقوياء . وقد تمتع العرب باستقلال فعلى وكذلك المغول وسكان شمالى إفريقيا .

ولما كان مورد طعام أهل السهول ضيقا فهم مضطرون الى التقشف. وهم أهل نشاط وقوة عضل وهمة . ومن خلالهم الكبرياء يبلغون فيها حد العناد ، وذلك بسبب ما جبلتهم عليه حياة الاستقلال والترحال .

ويقوم هؤلاء الناس بالوساطة بين الأصقاع المنتجة الرخية التى تجاورهم . فقد كانت البضاعة تأتى من الشرق إلى اوروبا فى قوافل من جوابى الصحراء هؤلاء . ولا تزال هذه الطريقة متبعة فى شمالى أفريقيا إلى يومنا هذا ، وتبعا لذلك أنشأوا أسواقا صحراوية ومراكز تجارية . وقد كانت كل من تمبكتو فى إفريقيا ، وبغداد ودمشق فى غربى آسيا مشهورة فيما مضى بأنها مراكز تجارية. وقد تاجروا فى الرقيق فعملوا بذلك على استبقاء هذا النظام. ولكن لعل أعظم ماجاد به هؤلاء الناس على المدنية هو تلك الآراء الدينية التى تكونت لديهم ثم نشروها وأذاعوها وقد قاموا فى التاريخ بدور غير مستقر بيد أنه مهم .

تأثير المناخ :

المناخ أثر فى الجسم وفى الروح معا فقد وضع حدودا للجهات التى يستطيع الانسان سكناها وحدد قوة انتاج التربة وأثر فى حياة الانسان جميعها . وكان تأثيره فيه مزدوجا : مباشرا وغير مباشر . فتأثيره المباشر هو تحديد درجات الحرارة التى يمكن أن يعيش فيها ، وتأثيره غير المباشر أنه سبب فى تحديد مورد غذائه . فان مقدار سقوط الأمطار يعيّن قوة

إنتاج التربة ولم يستطع الانسان أن يزرع على نطاق واسع بغير المطر إلا منذ سنوات معدودة وإن كان الرى كوسيلة لامداد الأرض بالماء يعد قديما جدا. وقد اضطر المناخ الناس الى النزوح ، فالمناخ السيء أجبرهم على الارتحال والمناخ الجيد أغراهم بالاقامة .

وقد أثر المناخ فى النظم الانسانيـة : أثر فى الأسرة بأن دعا الى التبكير فى الزواج وكثرة الأولاد وقلة الاعتداد بالحياة فى المناخ الدفىء ، ودعا الى التأخير فى الزواج وقلة الأولاد فى البلاد الباردة . وأثر المناخ فى نوع الحكومة إذ يغلب وجود النظام الاستبدادى فى المناخ الدفىء غير الصحى ، وتغلب الديموقراطية فى المناطق المعتدلة ، وقد نشأ الاسترقاق كما ألمعنا فى المناخ الذى يكون فيه العمل مجهدا .

وفى المناخ الحار نجد طرفى التناهى فى الفقر وفى الغنى إذ الأجور قليلة بسبب رخص العمل وفى بعض الأحايين بسبب التنافس بين العمال والعبيد ، وزد على ذلك أن المناخ الدفىء ولا سيما اذا كان متواصلا ، يكون ذا أثر ضار إذ الواقع أن الفرد أو الجنس الذاهب الى المناطق الحارة أو الى مناخ دفىء رطب يصيبه الانحطاط على عجل ويصبح سكان هذه الأصقاع قوما عديمى الاكتراث شديدى التهيج وإن كانوا أهل خيال وفنون . أما أهل البلاد الباردة فيكونون أهدأ طبعا وأوفر عقلا وأشد تدبيرا . والمناطق المعتدلة تجمع أنواعا مختلفة من المناخ إذ تكون باردة فى الشتاء دفيئة فى الصيف فتعين بذلك على ابتكار صنوف شتى من الأعمال وتبعث أنواعا مختلفة من النشاط الذهنى . ولهذا السبب نجد الأمم النازلة فى المناطق المعتدلة أشد نشاطا وتطلعا ونجاحا . ومن ثم عرفت المنطقة الشمالية المعتدلة بأنها مهد المدنية . وفرط البرد فى أثره كفرط الدفء إذ تكون الحياة فيه على وتيرة واحدة وذات أثر مخمد .

ولا يقتصر أمر الظروف الجغرافية على أنها أثرت فى تاريخ الأمم الحاضرة بل لقد أثرت فى موقعها وحجمها إذ الطبيعة تصنع لها حدودها وتعيّن نشاطها الاقتصادى بدرجة كبيرة وتؤثر فى أوضاعها وحياتها اليومية وتعمل على صوغ صفاتها التى تمتاز بها وتعيّن مدى النجاح الذى قد تبلغه فى ميدان الحضارة . على أنه يجدر بنا ألا نغلو فنقول أن جغرافية القطر هى ذات الأثر الكلى فما هى إلا أحد العوامل الواجبة التقدير فى دراسة حياة الانسان . نعم أنها قد تكون مهمة جدا بيد أنها ليست بحال ما كل شيء إذ لا بد من تقدير القوى العاملة الأخرى كالوراثة والغرائز الانسانيـة . بل الواقع أن العوامل الاقتصادية والبيولوجية والنفسية ، من الخطر والأثر ، فى درجة العوامل الجغرافية .

الفصل الثالث

المغايرة والوراثة واليوجينية

بحثنا فى الفصل السابق تأثير الجغرافيا فى نمو المجتمع وتطور الاوضاع الانسانية ، وسنبحث فى مواضع أخرى من الكتاب التأثيرات الاقتصادية وضبط المجتمع بواسطة أوضاعه. أما غرض هذا الفصل فهو بيان ناحية أخرى نصل منها إلى دراسة علم الاجتماع وهى بيان ما للوراثة من التأثير فى الانسان وفى رقى المجتمع .

علينا الآن ونحن بصدد الكلام عن طائفتى القوى العظيمتين العاملتين فى المجتمع — وهما الوراثة والبيئة — أن نتناول موضوع الوراثة . والواجب علينا إذ نتناول هذا الموضوع أن نبحث النظريات البيولوجية العظيمة وقوانين المغايرة والوراثة ، متجنبين فى سبيل ذلك مصطلحات العلوم وعباراتها ما أمكن، حتى يستطيع من ليس مشتغلا بعلم الحياة أن يدركها. على أننا لن نحاول مطلقا أن نلم بجميع وجوه النظريات أو القوانين المتعددة بل نمس ما كان منها مفيدا لنا فيما نحاوله من تفهم حركة دولاب المجتمع تفهما أدق .

نظريات المغايرة والوراثة وقوانينهما — وراثة الخصائص المكتسبة . (Lamarck) أخرج لا مارك أحد علماء الحيوان الفرنسيين هذه النظرية للعالم سنة ١٨٠٩ فقد لاحظ فى دراسته أنواع الحيوان ملاءمة الأعضاء للبيئة والاستعمال — أى أن العضلات والأعضاء المتعددة جنحت إلى النمو تبعا لاستعمالها والحاجة اليها . ولاحظ أيضا أن هناك حيوانات شتى ملائمة ملاءمة خاصة لبيئتها الخاصة كالزرافة فى ملاءمة رقبتها الطويلة لتغذيها على أوراق الأشجار وكذلك طول رقبة الأوزة فى موافقتها لطريقة معيشتها . وكذلك كثافة فراء الحيوانات القطبية . من هذه الملاحظات استخرج لامارك هذه القواعد العامة :

١ — تميل الحياة دائما بفعل قواها الباطنة إلى زيادة جرم الجسم وحجم أجزاء الجسم إلى الحد الذى تريده (أى الحياة) .

٢ — نمو عضو جديد أو جزء جديد فى الجسم إنما يحدث من حاجة جديدة أو من نقص طارئ (بسبب تغير فى البيئة) بحيث تظل هذه الحاجة أو النقص محسوسة يشعر بها الكائن الحى .

٣ — نمو الأعضاء وكذلك نمو قواها العملية تابع تبعية مباشرة لاستخدام العضو فاذا لم تستخدم الأعضاء فيما جعلت له انحطت تبعا لعدم استخدامها .

٤ — الصفات التى يكتسبها الفرد بالمراس تنتقل بالوراثة إلى أعقابه فلا يقتصر أمرها لذلك على استمرارها فى النسل بل تزداد فيه ، إذ يكون لكل جيل جديد ميزة ما بلغه الجيل السابق من النمو. على أن لامارك لم يحقق هذا القول بالعناية الوافية فظل فى أكثر أمره نظريا . بيد أن نظريات التطور التى ارتآها كثير من علماء الحياة قد بنيت عليها . وقد نقضتها فى أكثر أمرها أبحاث فايزمان (Weismann) وغيره وصارت إلى حد كبير لا يعتد بها ولعل أعظم ما أفادته هـذه النظرية أنها وجهت نظر الباحثين الى مجال معين من من العمل فبعثت بذلك على زيادة الدرس والبحث .

الانتخاب الطبيعى

قد يقسم هـذا الموضوع الى قسمين : أحدهما " بقاء الأصلح " وثانيهما " الانتخاب الطبيعى " ولكن لما كان الاثنان فى حقيقـة الأمر وجهين أو تعبيرين مختلفين لمبـدأ عام واحد فسنتناولهما كليهما تحت عنوان واحد . ونحن مدينون لسبنسر (Spencer) وداروين (Darwin) ووالاس (Wallace) بفضل إيضاح هذه النظرية . وان كانت وليدة التفكير التدريجى حقبة من الزمن .

من السهل إدراك فكرة " بقاء الأصلح " اذ معناها ينحصر فى أنه عند تنازع البقاء يعيش الأقوى والأصلح وبذلك يتكاثر ويبقى . أما الأضعف والأقل صلاحية فيموت من الجوع والمرض أو من افتراس الأقوى والأصلح له . ولسنا بالطبع نعنى دائما بقولنا " الأصلح " أنه الأقوى لأن المكر فى بعض الأحايين والدهاء والقدرة على التغلب على المصاعب والمخاطر أو تجنبها قد يكون لها نتائج أعظم من مجرد القوى البدنيـة. بل قد تفيد كلمة "الأصلح" فى بعض الأحايين معنى امتلاك أقصى السرعة للفرار من الخطر أو القدرة على تسلق الأشجار أو الاختفاء بل وكذلك تجنب انتباه العدو له . على أن المبدأ واحد فى كل سواء كان الأمر راجعا الى القوة البدنية أو الذكاء أو المكر أو السرعة فى العدو أو القدرة على التغلب على المصاعب والبقاء بالرغم من المخاطر فانه لا يبقى على كل حال إلا الأصلح ولا يستأصل إلا الأقل صلاحية . بل ولا يفيد هـذا دائمـا معنى بقاء الأحسن أى من الوجهة الأدبية أو الخلقية اذ قد تفيد كلمة الأصلح معنى القدرة على العيش بأتفه طعام وعلى احتمال أشد الضيق وبذلك تدل على معنى القدرة على البقاء بالرغم من المصاعب. ولا يسرى هذا المبدأ على التنازع على الطعام وغيره من وسـائل العيش فقط بل أنه يسرى كذلك على مسألة التنازع على الزوج أيضا فانه عند ما يطلب حيوانان إلفا واحدا ويصبح أمر الفصـل موكولا الى القوة البدنية لحصول عليـه كان أحسنهما معاملة

هو الذى يظفر به وبهذا يكون أبا للجيل التالى . بل وكذلك اذا لم يفصــل القتال فى الموضوع فان أحسن الاثنين سواء بسبب حجمه أو قوته أو جماله أو القدرة على الاجتــذاب هو الذى ينتخب وبذلك ينقل هذه الخصائص الى الأجيال التالية .

نظرية الانتخاب الطبيعى

لنظرية الانتخاب الطبيعى الوجوه الآتية :

١ — إن هناك اختلافات صغيرة فى الكائنات الحية فى الطبيعة .

٢ — قد تكون هذه الاختلافات ذات فائدة أو ضرر للكائن الحى .

٣ — بعض الاختلافات يثبت فضلها عند تنازع البقاء فتنتخب وتبقى بطبيعتها .

٤ — تنازع البقاء مسبب عن التنافس فى سبيل الطعام وغيره من وسائل العيش .

٥ — يترتب على هذا التنازع نشوء كائنات ذات صفات تهيئها للبقاء . أما الكائنات التى يجسمها اختلافات لا تؤهلها للبقاء فانها تكون عرضة للاستئصال وبذلك تزول صفاتها معها . أما الصفات التى تكون مفيدة فانها تنتقل وتزداد ، إذ أن الكائنات التى اختصت بها لا تنقطع عن اكتساب المزيد من تلك الصفات التى تزداد وضوحا فى أجيالها المتعاقبة . وعلى ذلك فالطبيعة طبقا لقانون الانتخاب الطبيعى تنتخب الأصلح بسماحها له بالبقاء وباستئصال غير الصالح . على أن "الأصلح" فى مكان ما قد لا يكون كذلك فى مكان غيره . فمعناه والحالة هذه أن الطبيعة تختير الصفات التى تكون أشد موافقة للبيئة الخاصة . فالأفراد أو الأجناس الملائمة أو القادرة على أن تغدو ملائمة لظروف البيئة تعيش وتزداد عددا، أما تلك التى لا تكون ملائمة أو تكون غير قادرة على أن تصبح ملائمة فتهلك . ولهذا كانت حياة الجماعة أو زيادتها أو فناؤها متوقفــة على درجة الملاءمة . ففى القطــر الصحراوى لا يعيش من الحيوان إلا ما كان قادرا على العيش بمقــدار قليل من المــاء، أو القادر على أن يقضى فترات طويلة من الزمن بدون ماء . ومن ثم كانت الحيوانات القادرة على أن تختزن المــاء كالجمل، أو ذات الجلود أو الأغطية التى تمنع تبخر المــاء أو تعوقه أهلا للعيش فى الأقطار الصحراوية . وعلى العكس من ذلك فانه لا يستطيع العيش فى الأقطار الرطبة الممطرة إلا الحيوانات القــادرة على العيش فى أشد حالات الرطوبة . وفى الأصقاع القطبية لا يعيش إلا الحيوانات التى تنمو لها أغطية كثيفة من الفرو أو غيره من أسباب الوقاية مثل طبقــات الدهن . وكذلك الأمر فى الأجنــاس التى تكون ذات نشاط وتدبير فانها تكون أقدر على الحياة فى الأصقاع الباردة القارصة ممن اتصفوا بالكسل وعدم التدبير . وفى الأصقاع الحارة يتطلب الأمر عكس ذلك من الصفات فلا يعيش فيها إلا القادر على تحمل الحرارة أو القادر على أن يمرن نفسه عليها .

أما فيما يختص بالانسان فان الأجناس التى تكون أقل نشاطا وأكثر قناعة وتكون نسبة المواليد فيهم عالية فمن شأنهم أن يبقوا . أما أصحاب المزاج العصبى الذين تقل نسبة المواليد فيهم فانهم يكونون أقل قدرة على البقاء وأكثر تعرضا للفناء . ونشاهد عمل هذا القانون فى دراسة خصائص الشعوب الشمالية والزنجية فقد حدث فى الأصقاع البـاردة القاسية فى نواحى بحر البلطيق والبحار الشمالية حيث نشأ جنس الانجلوسكسون ان زال العنصر الضعيف والعديم التدبير والكسلان والجبان و بقى الجرىء والنشيط وذو الميول الحربية وفى افريقيا كما سنرى فيما بعد عنـد ما ندرس المشكلة الجنسية عنـدنا بقيت أجناس ذات خصائص تختلف عن هذه اختلافا تاما . ونرى فى الصين مثلا لبقاء جنس موصوف بالسماحة والتفكير والقناعة والمقدرة على تحمل الجهـد الجسدى مدى طويلا بقليل من الغذاء . هـذا والصفات الصالحة لا يقتصر أمرها على الثبوت بل انها علاوة على ذلك تزداد . أما الصفات غير الصالحة فتفنى وبهذه الطريقة يكون انتخاب الأصلح .

سبق لنا ان بحثنا حين تناولنا موضوع تنازع الألف كيف أن الأصلح سواء فى القدرة على الاقتتال أو فى قوى الاجتذاب هو الذى ينتخب . بهذه الطريقة تورث الصفات المرغوبة أما الصفات غير المرغوبة فتستبعد . ويسمى هـــذا عادة " الانتخاب الجنسى "وهو يظهر فى الحيوانات وفى الطيور خاصة فى جمال الريش وما يمتاز به اللون من حيث التخطيط وغير ذلك من العلامات . أما فى الانسان فيرجع الانتخاب الجنسى الى الجاذبية الشخصية وكرم الطباع وهكذا تنتخب الصفات المرغوبة وتنقل الى الأجيال المتعاقبة ، وليس هذا إلا وجها آخر لقانون الانتخاب الطبيعى العام .

والذين يربون السلالات الحيوانية يستفيدون من قانون الانتخاب باحداث انتخاب صناعى فيختارون للتناسل الحيوانات التى يرون فيها الصفات المستحبة مثل سرعة العدو الممتازة فى خيول السباق ، أو فرط اللحم أو شدة ادرار اللبن فى الماشية وجودة الفراء فى الحيوانات ذات الفراء . فهم يقصرون التناسل على هذه الحيوانات وغيرها ممـا يكون حائزا مثل هـذه الصفات ويستبعدون جميع الحيوانات التى لا تكون حائزة للصفات المطلوبة ، ثم اذا جاء النسل الجديد عادوا فانتقوا ما كان منـه حائزا لتلك الخصائص المطلوبة واستولدوه بعضه من بعض أما ما كان منه غير حائز للخصائص المطلوبة فيعودون الى اقصائه وبهذه الطريقة تحسن الأصناف وتحدث سلالات جديدة .

الانتخاب الجرثومى

كانت النظرية العظيمة الثانيــة فى الانتخاب هى نظرية " الانتخاب الجرثومى " التى أدلى بها ڤايزمان وهى تعارض نظرية وراثة الصفات المكتسبة معارضة شـديدة . وقد دافع ڤيزمان وأتباعه عن نظريته دفاعا شديدا حتى أصبحت النظرية السابقة غير مقبولة لدى أكثر علماء البيولوچيا . ففى رأى ڤايزمان أن انتخاب الصفات إنما يحدث فى بلازمة (Plasm) الجرثومة وأن مجموعات من الصفات القديمة والجديدة يحملها الكروموسومات(chromosomes) فى باطن خلية الجرثومة . وما يحتمل فقدانه من الصفات انما يحدث بوساطة هذه المجموعات. وتنتقل الصفات من الأب الى النســل بوساطة خلية الجرثومة وإنما تنشأ نماذج جديدة من نماذج لحقها التغير من الخلايا الجرثومية . ويسـلم ڤايزمان بوجود تنازع بين الصفات ولكنه يقول بأن هذا التنازع بين " الصفات الهامة " يحدث فى باطن الخلايا الجرثومية وأنه تنازع فى سبيل الحصول على الطعام الصالح وعلى الموقع الحسن فى الخلية الجرثومية . وأن تلك التى تحصل على الطعام وعلى المركز الملائم تصبح الأقوى . ثم تنتقل هــذه الصفات فى دورها الى الجيل الثانى حيث لا يقتصر أمرها على الميل الى الثبات بل وكذلك الى الازدياد فى الأهمية. وكذلك الصفات الأضعف حالا تزداد ضعفا وعلى مضى الزمن تميل الى الزوال .

هذه النظرية لا تنافى نظرية الانتخاب الطبيعى بل أنها بالأحرى تعززها وتزيد فى أهميتها وتعين على تفسير كثير من التفاصيل التى لم تستطع نظرية الانتخاب الطبيعى الأدلاء فيها بشيء . على أنها على كل حال تعارض وتنقض كثيرا من نظريات التطور المبنية على نظرية لامارك القائلة بتوارث الخصائص المكتسبة . فلا تزال نظرية الانتخاب الجرثومى ثابتة مقبولة عند الاكثرين بالرغم من حدوث تعديلات كثيرة فى موضوع الانتخاب الجرثومى . وهذه النظرية ذات شأن حيوى لدى الاجتماعيين ولاسيما أولئك الذين يعنون بالخطط الإنشائية الإصلاحية لمعالجة بعض المشاكل كمشكلة ضعاف العقول والمجانين والمصابين بالصرع والمجرمين وفســدة الأخلاق .

النشوء الفجائى

وهنالك نظرية أقل وضوحا من السابقتين، وهى نظرية دى ڤريز (De Vries) فى النشوء الفجائى (Mutation Theory)[1] وهى بالاختصار تفيد حدوث التغير الفجائى (ابن يومه وليلته) أو خروج نموذج جديد فجأة . وهى فى بعض أمرها تشابه نظرية بلازمة الجرثومة وفى البعض الآخر مبنية على قوانين أخرى خاصة بالوراثة ولا سيما قانون مندل (Mendel) وهى مؤسسة على اتحاد الصفات الكروموسومية . والتسليم بهــذه النظرية آخذ فى الازدياد بصفة عامة :

ذلك بأن هذه النماذج الجديدة مسببة فضلا عن حدوث اتحاد جديد خاص بين صفات موجودة من قبل مع احتمال زوال بعض الصفات . فهى اذن احدى الحالات أو الوجوه الخاصة بالنظرية السابقة وتوضح التغييرات الكبيرة التى تحدث . فاة بدلا من الاختلافات الصغيرة التى تحدث عادة . وقد أخذ مربو الماشية يعملون بهذه النظرية وان كانت غير مفهومة على وجه التمام وكان من نتائج تطبيقها حدوث بعض ما لدينا من السلالات أو النماذج الجديدة كالماشية العديمة القرون مثلا .

القانون المندلى

آخر القوانين وأهمها من الوجهة الاجتماعية هو القانون البيولوجى الذى استكشفه الراهب النمساوى المسمى مندل (Mendel) والأمر الجوهرى فى هذا الاستكشاف هو شرح الخصائص "الغالبة" و" المغلوبة " فالصفة الغالبة تميل الى أن تورث بنسبة أكبر بكثير من نسبة الصفات المغلوبة وهذه النسبة وان لم يمكن تقديرها على وجه التحقيق هى بمعدل ثلاثة الى واحد إجمالا . ونحن وان كنا لا نزال نجرى تجاريب بصدد ذلك على الحيوانات ونشاهد وندرج النتائج فى جداول فقد أخذنا نتبين على مهل ماهية بعض هذه الصفات الغالبة والمغلوبة فى الإنسان مثال ذلك أننا نلاحظ ، وبوجه عام نسلم بأن الشعر القاتم اللون أشد تغلبا من الشعر الأشقر وأن العيون السوداء أشد تغلبا من العيون الزرقاء ، وأن الذكاء المتوسط أشد تغلبا من الذكاء المفرط أو من الغباوة . والعقول العادية أشد تغلبا من العقول الضعيفة ، ومن كثير من أنواع الجنون واضطراب الجهاز العصبى ولكن ليست جميع الخصائص الطبيعية العادية أشد تغلبا من العيوب والنقائص .

وللمندلية وجه آخر هو امكان عزل كل صفة معينة فان الصفات اذا اتحدت فى ملازمة جرثومة عادية لجيل واحد فانها تنفصل بعضها عن بعض بلا تغير يلحقها فى الجيل الثانى وما يليه من الأجيال وبعبارة أخرى تتكون الخلية الجرثومية من عدد من الصفات الموروثة كل على حدة ومن الممكن أن تجمع مرارا وتكرارا على أشكال لا حصر لها . فى هذه التجمعات وحدها تظهر الصفات الغالبة بمقدار يعادل ظهور الصفات المغلوبة ثلاث مرات . فالمندلية بدلا من معارضة نظرية النشوء الفجائى تماشيها فى الحقيقة وتعرض حلا لظاهرة النشوء الفجائى أى ظهور نموذج جديد ، تلك الظاهرة التى تبدو صعبة البرهان . وهى تساعد أيضا على ايضاح وجوه من الوراثة شاهدناها كثيرا فى المجتمع وكانت تلوح لولا المندلية صعبة التعليل .

ولا ينتظر منا فى كتاب كهذا أن نتناول الوراثة بالتفسير التام الوافى بل وليس لدينا من الوقت ما يسمح لنا أن نذكر جميع النظريات أو القوانين الخاصة بها وانما غرضنا ينحصر

فى أن تقدم من القوانين والنظريات أعظمها مساعدة للطالب على تكوين فكرة تمهيدية يدرك بها كيف يسير دولاب المجتمع ويفهم مسائله . وبالاختصار لايسعنا هنا أن نضع رسالة فى علم الحياة بل ولاجزءا من رسالة فان غرضنا هو مجرد اظهار بعض الاتجاهات البيولوجية وسنتناول الآن بعض الأحوال التى نصادفها فى أثناء تطبيقنا هذه المبادئ على المجتمع الانسانى وبعض المشاكل الاجتماعية الخاصة .

الصعوبات التى تصادف فى دراسة الوراثة الانسانية

أول عقبة نلقاها فى دراسة التوارث الانسانى هى أننا لانستطيع أن نجرى على الإنسان تجارب كما نجرى على الأرانب والفيران والجرذان . كل مانستطيعه هو أن نلاحظ وتثبت ملاحظاتنا فى جداول خاصة . هذا فضلا عن أنه لا يوجد لدينا أنساب خالصة نعاملها لأن جميع الأجناس خليطة ، والأجناس الرئيسية شديدة الاختلاط ، كما أن الانسان حيوان بطىء التناسل جدا فهو لم ينسل منذ عهد المسيح مثلا إلا ستين جيلا وهو عدد يبلغه كثير من الحيوانات فى بضع سنين ويبلغه بعض الحشرات فى أشهر بل أسابيع وفضلا عن هذا فان نسل الانسان قليل ، وهو عادة من القلة بحيث لا يكون ذا قيمة فى أية دراسة علمية فمن مئات الألوف من الاحتمالات لا يكون لزوجين انسانيين الا عدد محدود لايكفى مطلقا لأى غرض من الأغراض الاحصائية فى دراسة الوراثة . ولا بد لكى نحصل على أى نوع من الاحصاء الموثوق به من دراسة بضعة أجيال وهذا صعب جدا بل وفى معظم الأسر مستحيل وليس فى مقدور الباحث أن ينتظر أجيالا كثيرة مستقبلة .

ومدة الطفولة فى الانسان أطول منها فى أكثر الحيوانات فان أغلب الحيوانات تتمكن من السعى فى سبيل العيش فى بضعة أشهر أما الانسان فيدوم اعتماده على غيره سنوات عديدة فالمهر أو العجل يستطيع المشى فى بضع دقائق أو ساعات ويجرى فى أيام قليلة ويحصل على مواد عيشه فى بضعة أسابيع أما طفل الانسان فاعتماده على الغير كلى عند مولده ، ويندر أن يمشى أو يتكلم قبل مضى عام ولا يستطيع أن يحصل على عيشه قبل سنوات عديدة . وفترة الاعتماد هذه آخذة فى الازدياد بازدياد المدنية فى التعقد وارتفاع مستويات المعيشة ، ولضرورة زيادة الاستعداد . وبسبب هذا الزمن الطويل فى الاعتماد ومطالب التعليم اللازمة للقيام بشرائط المجتمع الحديث أصبح اعتماد الانسان على البيئة فيما يختص بالتربية المنزلية والتعليم إجمالا أكبر بكثير منه فى الحيوان سوى أن للانسان القدرة على السيطرة على بيئته بدلا من توقف أمره عليها توقفا كاملا . ولكن لابد بالرغم من كل هذه الصعوبات من تقدير تأثير الوراثة فى الانسان . ويرى بعض الناس أن علم الاجتماع يتوقف توقفا كليا على البيولوجيا أى علم الحياة ونحن وان

كنا لا نذهب الى الطـرف الأقصى فى ذلك لا نتردد فى الاعتراف بأن علم البيولوجيا هو أحد العلوم الأساسية وأن من الأمور الجوهرية جدا أن يكون الاجتماعى عليما نوعا ما بالبيولوجيا ولا سيما بتلك المباحث الخاضعة بالوراثة .

الخصائص الملحوظة فى الوراثة الانسانية

من الحقائق التى نلاحظها فى دراسة الوراثة أنه من المحتم على الأولاد بالرغم ممـا يكون آباؤهم قد اكتسبوا وحصلوا أن يتعلموا كل شىء من البـداية . فلا بد لكل طفل أن يتعلم الكلام والمشى وعمل كل ما جرت العادة بعمله يوميا . نعم أنه قـد يرث الملكات أو سرعة الادراك أو المقدرة الفطرية فى بعض النواحى ولكن لا بد له من اكتساب الخبرة من جديد.

وتتعين الصفات وقت الاخصاب ، ولقد كان يعتقد فيما مضى أن طبيعة الطفل يمكن التأثير فيها بمـا تفعله الأم أو تراه أو تسمعه أثناء الحمل فقالوا ان طبيعة الطفل يمكن أن تتعين برؤية شىء غريب أو بسبب الذعر من شىء ، بل لقد عللوا حدوث العيوب الجسمانيـة تبعا لهذا الرأى المدحض من زمان بعيد . فاذا حدثت علامة فى الجسم شبيهة بالثعبان مثلا يقولون أن سببها كون الأم قد رأت ثعبانا أثناء الحمل نعم أن حدوث صدمة نفسية قوية قد يؤذى الطفل فى رحم أمه بل أن فرط الخوف قد يضر أيضا وذلك بتأثيره فى سيل الغذاء الى الجنين ولكن هذه الأمور نادرة الحدوث كما أن تأثيراتها ليست من العظم بالدرجة التى قد يظنها الانسان . أما الخصائص العقليـة فتتعين قطعا وقت اخصاب البويضـة بالحيوان المنوى ، وكذلك الصفات البدنية فانها تتعين هى أيضا عند الأخصاب قطعا الا فى مثل ما سبقت الاشارة اليه.

وهناك خاصة مشاهدة هى احتمال الوراثة عن الأسلاف المختفين، اذ كثيرا ما يختلف الأخوة والأخوات فى الشبه جدا ويكون من المؤكد تقريبا أن يختلفوا فى بعض التفاصيل وكثيرا ما يكون الأبناء فى ظاهرهم غير شبيهين بأحد والديهم اذ يكونون وارثين عنهما كليهما مزيجا خاصا من الخصائص أو تبدو عليهم ملامح أسلاف لهم أقدمين. وقد درس طلاب الوراثة هذه المسألة بيد أنها وإن كانت تلوح متمشية مع قوانين الوراثة المندلية فان من الصعب جدا تعليلها وذلك فى الأكثر بسبب قلة نسل الجنس الإنسانى واتساع مدى الاحتمالات وصنوفها. وقد وضع الأستاذ كارل بيرسون (Karl Peorson) متوالية هندسية لتفسير ذلك عزا فيهـا إلى الأبوين من الخصائص الوراثية فى كل فرد ٠٫٦٢٤٤ أى أكثر قليلا من ثلاثة أخماسها وإلى الجدود الأربعة ٠٫١٩٨٨ أى الخمس تقريبا ، وإلى الأجداد الثمانية الذين قبلهم ٠٫٠٦٣ أى أكثر قليلا من ستة فى المائة ، وإلى الأجداد الستة العشر الأسبقين ٠٫٠٢٠٢ نعم إن مثل هذا المنحنى له فائدته ولكن يجب أن نذكر أنه جدول رياضى لا بيولوجى ولا يصح اعتباره بصفة

جدية ، نعم إن احتمالات الوراثة تأخذ فى النقصان بتوالى الأجيال ولكنها باقية على الدوام ولا يفيد هذا أنه لابد لفرد بعينه من وراثة نسبة مئوية معينة من كل فرد من أفراد أسلافه على حدة أو منهم جميعا ، فقد يرث مقدارا عظيما عن سلف معين ومقدارا قليلا أو لا يرث منه شيئا البتة . ويجوز أن يرث قليلا عن أبيه وكثيرا جدا عن جده لأمه أو العكس . وكل ما هنالك أن فرصة وراثته عن أسلافه المباشرين تكون أعظم بكثير منها عن غيرهم وأنها تنقص تبعا لكل درجة من درجات التباعد عنهم . وتناسل الأقارب هو أيضا ظاهرة صعبة التفسير ولذلك يساء فهمه كثيرا . فهناك ذعر من زواج الأقربين يكاد يكون عاما . والاجماع حاصل على أن زواج الأقارب الأدنين مضرجدا بالنسل ، والجاهلون يقدمون هذا التفسير تعليلا لجميع أنواع الشذوذ مثل أحوال ضعف العقل والصمم والجنون . على أن الأبحاث لا تثبت هذا الزعم دائما بل الواقع أنها تعارضه وما أخذ باحثو هذه المسألة يسلمون به بوجه عام أن الأمر مرجعه فى أكثره إلى السلالة الأصلية ، فاذا كانت السلالة جيدة فى أصلها لم يكن تناسل الأقارب بالضرورة مضرا بل لقد تغلب فيه الفائدة . وإذا كانت السلالة الأصلية سيئة فهو ضار لأن الصفة الرديئة تورث إذ ذاك من الطرفين وبذلك تزداد سوءا . والحجة الرئيسية التى يعترض بها على تناسل الأقارب هى أنه لا يسمح بدخول عناصر جديدة فلا يؤدى إلا إلى استمرار ضرب واحد ، ولذلك فهم فى تربية الحيوانات يلجأون عادة إلى مزاوجة الأقارب قصد استكمال حالات التخصيص أى تنمية نموذج خاص . وإليها يعزى الفضل فى تحسين السلالة .

ومن الحقائق أو الأحوال التى يجب الإشارة إليها أو تذكرها كون الانسان يخالف كل قواعد التوالد مخالفة تامة . فنحن حين نربى الحيوانات نستبعد جميع السلالات المنحطة ونعمل على أن لا نربى إلا الأحسن والأكمل من الحيوانات . أما فى الانسان فنحن نسمح للجميع بالتزاوج والتناسل ولا نعزل إلا فرقا قليلة جدا مثل المجانين والمجرمين ولا يقتصر الأمر على صدق هذا القول بل الواقع أن الأنواع المنحطة هى بالذات أكثر الناس نسلا فى حين أن أرقانا فكرا هم أقلنا ذرية . ويلوح فى بعض الأحيان كأنه كلما كان الأصل أحط كانت الذرية أكبر وكلما كان الفرد أقدر كان عدد أطفاله أقل . على أننا انما نشير إلى هذه الحالة هنا ونرجىء بحثها إلى الوقت الذى نتناول فيه دراسة اليوجينية واثمار الجنس .

تطبيق الوراثة على المسائل الاجتماعية — الهجرة

يبحثون اليوم موضوع الوراثة بجد متزايد فيما يختص بمشكلة السكان العظيمة الشأن . والواقع أنه لا بد لنا أن نقصر البحث على الناحية الاقتصادية والدينية والمستويات الأدبية والخلقية والمثل السياسية العليا فى النازحين الينا ، بل لا بد لنا أن نتعرف سلالتهم الجنسية

لترى هل هؤلاء النازحون أبناء أجناس قوية أصابت نجاحا أم انهم سلالة أجناس مقهورة غلبهم على أمرهم ، بسبب ضعفهم ، من هو أقوى منهم ؟ وهل جاء النازحون الينا من أجناس تغلبوا على المصاعب فكان لهم مكان فى موكب المدنية ، أم أنهم ينتمون الى قوم يعيشون فى الرق والعبودية وقد صاروا أرقاء أو عبيدا لأنهم كانوا أحط جنسا أو انهم من سلالة أجناس منحطة ؟ فالأوروبى الشمالى هو المتناسل عادة من أجناس ناجحة فى حين أن كثيرا من أولئك الذين يسملون على الدخول فى بلادنا من أهل أوروبا الجنوبية، بل غالبهم متناسل من سكان كانوا فيا مضى عبيدا ، ومن ورائهم أسلاف لم ينجحوا فى حياتهم فى قرون عدة . وإذ ندرس موضوع الهجرة فى أمريكا يجب علينا أن ننظر فى أمور منها لون البشرة وطول القامة ووزن الجسم والميول الموروثة وكذلك قوة البنية وقوة الفكر واليقظة فلو أن الذين يترحون الى أمريكا كانوا أصغر جسما من الأهالى وأقل تحملا للشاق وأضعف بنية لهبطت حيوية الجنس حتما على مر الزمن وكذلك الأمر فيا يختص بالميزات العقلية كالمثابرة والشجاعة والابتكار واليقظة والقدرة على التفكير ، فلو ان النازحين كانوا منحطين فى هذه الصفات لأدى هذا الى انحطاط مستوياتنا وهبوط درجة نجاحنا كأمة . يرى ماديسون جرانت (Madison Grant) فى كتابه المسمى " زوال الجنس العظيم " أن الأوروبيين الجنوبيين آخذون بفضل زيادة توالدهم فى قتل الجنس الأنجلو سكسونى وغيره من الأجناس الشمالية خنقا بلا رحمة كأنما يقتلونهم فى ملحمة بدنية. على أننا وان كنا نرى أن فى هذا القول مبالغة نلاحظ فعلا أن النازحين الينا ولاسيما الذين نحن أشد زهدا فيهم أولادهم أكثر كثيرا من الوطنيين الأمريكيين ولاسيما أبناء الأجناس الأنجلو سكسونية منهم . وقد تنبه مشرعونا الى هذه المخاطر اليوم ، وهم باذلون جهدهم فى معالجة هذه المسألة بوضع قوانين للهاجرة .

مشكلة الجنس

لا بد فى دراسة موضوع اقتران أى جنسين مختلفين اختلافا حيويا من تقدير أمر وراثة الخصائص تقديرا جديا وينصرف هذا على وجه التخصيص الى مسألة الزنوج عندنا. فقد أجرى دافنبورت (Davenport) أبحاثا واسعة النطاق فيا يختص بتطبيق القوانين المندلية الوراثية فى موضوع خلط الجنسين الزنجى والأبيض[1] . نعم ان درس هذا الموضوع هو من الدقة الفنية بحيث لا يوافق كتابا من هذا القبيل ولكن لا مناص من الاشارة اليه ههنا . نعم انهم اشتدوا فى انتقاد أساليب البحث التى جرى عليها فى عمله فأصبحت النتائج التى وصل اليها تبعا لذلك محل الارتياب ولكنا مع ذلك نرجح أنه أبحاثه أوسع ما لدينا فى هذا الصدد وهى

(١) راجع كتابه المسمى (Heredity of Skin Color in Negro White Crosses)

وان كانت قابلة للتصحيح ، فان فيها مقترحات ذات فائدة. فاذا طبقنا نظرية مندل على هذا الإدماج الجنسي نجد أن كثيرا من صفات الزنجي غالبة على صفات الأبيض مثل غلبة الصبغ الأسود تحت الجلد وغلبة الشعر المفلفل والمجعد على المستقيم منه وغلبة الغلظ في الشفاه على الرقة فيها . ولهذا فانه بدلا من تغلب الدم الأبيض على الأسود بسبب رجحان البيض في القطر على السود بنسبة عشرة الى واحد تقريبا نرى أن الصفات الزنجية تنزع الى الازدياد حتى يصبح سكان القطر جنسا مختلطا أى خلاسيا. فالمندلية اذن تثبت أن الأبيض لايستطيع أن يمتص الاسود وسيكون هنالك عدد من السود الخالصين بالنسبة السابقة ، ينسلون سودا خالصين . وبرغم وجود نسبة محدودة من البيض الخالصين ينسلون بيضا خالصين فلا بد من أن يرجح السود عليهم بنسبة ثلاثة الى واحد . وإذ أن الأمر ليس مقصورا على مسألة اللون الاسود بل هنالك اللون الأصفر كذلك والشفاه الغليظة والأنوف الفطس والشعر المكرثأ وغير ذلك من الصفات الزنجية التى نجد أكثرها حائزا صفة الغلبة ، فاننا نجد أن احتمال حصولنا على أبيض نقى فى جميع خصائصه من تزويج الخلاسيين بعضهم من بعض احتمال يقرب من واحد فى الألف وان لم يكن لدينا دليل ثابت نستطيع به أن نؤيد ما يكررون ذكره من أن "من يولد من زنجى عرضة دائما أن يلد زنجيا خالصا" .

ان تطبيق المندلية على مسألة وراثة اللون ومثله من الخصائص ليس كل ما هنالك من الأمور فى معالجة المشكلة الزنجية ، بل لا بد لنا من تقدير أمر الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح. ولكن هذا الموضوع سنعالجه فى الفصل الذى خصصناه لمشكلة الجنس . ان خلط الأجناس بالمعنى البيولوجى ليس فى ذاته أمرا ضارا ، بل الواقع أن النتيجة تكون غالبا ذات فائدة . والأمر متوقف على الأجناس، فان امتزاج السود والبيض يثير مشاكل خاصة بسبب الفارق العظيم بين الجنسين ، وصعوبات الوراثة التى يصادفها . كما أن هنالك نواحى أخرى تدخل فى الموضوع مثل المقاطعة التى يلقاها المتناسلون من زواج كهذا وهذا مشاهد على الأخص فى أحوال الاقتران بين الأصفر والأبيض وكذا بين الأبيض والأسمر .

ذوو العاهات

لا بد من تقدير شأن الوراثة فى دراسة ذوى العاهات الذين من بينهم المجنون وضعيف العقل المصاب بالصرع والصمم فقد دلت الأبحاث على أن أكثر هذه العيوب موروث كصفات مغلوبة ولكن لا يزال هنالك شك فيما يختص ببعضها ولا سيما ضعف العقل وبعض العيوب الصغرى المعروف أنها صفات غالبة . عند ما يقترن شخص ذو عاهة بشخص سليم عادى لا يكون الأثر سيئا كما يكون الحال عند ما يقترن أثنان من ذوى العاهات أحدهما بالآخر إذ تكون الوراثة فى هذه الحالة مضاعفة وأثرها فى المجتمع مفسدا . ولقد أدركنا خطورة الأمر فعزلنا المجنون ولكننا لم نتنبه بعد الى ما هو أخطر من ذلك شأنا ألا وهو مسائل ضعف العقل .

الفقر والإجرام :

ليس الفقر ولا الإجرام من الأحوال الوراثية ولكن الوراثة تؤثر فيهما كليهما . كلا هذين الأمرين العظيمين يرجع السبب فيه الى البيئة أكثر من رجوعه الى الوراثة ولكن بعض الرمت الشريرة التى تؤدى إلى هذه المشاكل تأتى من طريق الوراثة مثل اختلال الصفات البدنية والعقلية والأدبية . ويندر أن يسقط القوى إلى بؤرة الفقر فان سقط فانه يستطيع فى العادة أن ينهض مرة أخرى ، أما الضعاف فأمرهم بخلاف ذلك ، والغالب أن يظلوا مغمورين . وكذلك الأمر فيما يختص بالاجرام فان الأقوى أقدر على مقاومة أسباب الأغراء، أما الضعيف فيستسلم . فأهمية الوراثة فى هذا الصدد تبدو فى وراثة أنواع الضعف .

الحـــرب

الحرب مشكلة اجتماعية أخرى يجب أن تتدبر فيها أمر الوراثة ، ففى العهود السابقة عنـد ما كانت الأجناس القوية تغزو الضعيفة وتبيدها كان مؤداها بقاء غير الأصلح ، فانه اذا كان التجنيد عاما والقتل مقصورا لهذا على من يحملون السلاح كان هنالك فى الواقع انتخاب الأصلح للقتـل والابادة ، فانه لا يجند ألا الناجحون فى الكشف الطبى العسكرى أما المقعدون والمرضى وذوو العاهات فيبقون بالديار ويصبحون آباء الجيل التـالى . نعم أن هذا الأمر لا يكون خطيرا فى الحروب الصغيرة ، اذ العادة أن الجيوش فيها انمـا تؤلف من المخاطرين ، كما أن نسبة الوفيات فيها قليلة أما فى الحروب الكبيرة فالأمر على ما ذكرنا وقد ظهر ذلك للجميع فى الحرب العالمية الأخيرة وأصاب الذعر من جرائه كثيرا من الأمم ولا سيما فرنسا . أما نحن الأمريكيين فاننا لم نشعر بالأمر كثيرا بسبب قصر مدة اشتراكنا فى الحرب وقلة خسارتنا فيها . ولكن جميع أمم أوروبا تقريبا قد أحست بذلك فعلا ثم أن الذين لا يكونون مشتغلين منهم بالقتال كثيرا ما يصيبهم الأذى فى أثناء الحرب بسبب سوء الغذاء ومشقة العمل وبهذا تضعف حيويتهم . بل أن استبقاء جيوش دائمة من شأنه أن يؤثر فى المسألة لأنه يحبس عددا كبيرا من الرجال السليمى البنيـة عن أن يحتلوا مكانهم فى المجتمع ويصبحوا آباء الجيل التالى .

اليوجينية (Eugenics)

اليوجينية هى دراسة كيفية تحسين الجنس أو هى علم حسن الانتاج وقد بدأت كبداية منظمة من عهد سير فرانسيس جالتون (Sir Francis Galton) على أنه لم يكن أول من وجه النظر الى ضرورة تحسين الجنس بل ولا هو أول من كتب فى ذلك فقد دعا إليـه

أفلاطون وعملت أسبارطة به قبل عهد أفلاطون بزمن بعيد وتكلم عنه كثير من الكتاب فى أوقات مختلفة أخرى . بل أن دراسة اليوجينية نفسها مؤسسة على علم الحياة وتستمد من علم الاجتماع مادة تقيم بها بنيانها فهى لهذا خليط من هذين العلمين . ولما كان علماء البيولوجيا قد قاموا بأكثر أبحاثها فقد اجتذبت لدراستها عددا من البيولوجيين أكثر من الاجتماعيين ولكنها مفيدة للعلمين كليهما وتتوقف عليهما معا . ليس لدينا هنا من الوقت ما يسمح بالدخول فى أية دراسة معضلة للبولوجينية وإذا فعلنا ذلك لم يكن الظرف مناسبا لأن مسائلها تتردد بعينها فى مواضع أخرى من هذا الكتاب وتتطلب الى حد كبير أن تعالج بنفس الطريقة .

لتسهيل الموضوع تقسم اليوجينية غالبا الى جزئين — اليوجينية الايجابية واليوجينية السلبية ، فالأولى ترمى الى أستحداث جنس متفوق بتزويج من هم أشد صلاحية أو بزيادة عدد نسل أولئك الذين يرجح أن ينتجوا خير عقب . وأما السالبة فغرضها تحديد نسل غير الصالح إما بالعزل أو التعقيم للطبقات او الافراد الذين هم غير صالحين والذين هم لذلك عرضة لانتاج نسل من شأنه أن يضر بالمجتمع .

ولا مشاحة فى أن اليوجينية الايجابية خيالية بعيدة المنال الى حد ما . فانها لا تدخل فى حسابها بالقدر الكافى — ولعلها لا تستطيع أن تدخل فى اعتبارها — ظاهرة الانتخاب الجنسى، وأن الزواج فى الأقطار التى ارتقت بحيث تعرف مصلحتها ، يعد من الأمور الشخصية . على ان اليوجينية الايجابية معززة بذلك المبدأ الذى يكاد يكون مقبولا فى جملته ألا وهو مبدأ تجاذب الاضداد مثل انجذاب الطويل الى القصير والسمين الى النحيل والكبير الجرم الى صغيره والسريع الى البطئ والعصبى الى الفاتر والمتزن الى سريع التهيج . نعم أن هذا يساعد على حمايتنا من الانحطاط ولكنه مع ذلك يمنع من انتخاب فريق متفوق على أننا اذا زوجنا الشديدى التفوق بعضهم من بعض بقيت عندنا الدرجات السفلى بعد ذلك وتطلب الأمر مواجهة مشكلتها مالم نمنع تكاثرها بالعزل أو التعقيم أو باستخدام المواد الخانقة. هذا وأى محاولة يراد بها بناء المجتمع على قاعدة لا تراعى فيها تلك المسائل الحيوية التى منها الاجتذاب الشخصى والجنسى لا بد أن تصبح وهمية . على أن اليوجينية الايجابية تسدى شيئا كثيرا من الفضل بما تبين الناس من خطورة أمر الزواج ، وبما تثير من اهتمام الجمهور بالموضوع وتكوين رأى عام له يتطلب زيادة الحرص فى انتقاء شريك الحياة ورفض الاشخاص الذين لا يرغب فيهم فتكون قيمتها الرئيسية تهذيبية أكثر من كونها اجبارية .

واليوجينيــة السلبية ترمى الى اقتلاع أولئك الأفراد والطوائف المزهود فيهم وذلك بمنع زواجهم وهى تدعو الى اتخاذ وسائل مثل عزل المجانين وضعاف العقول والمصروعين والمصابين بأمراض مستعصية الشفاء وتكون اما وراثية أو من شأنها اصابة الجيل التالى اصابة شديدة. وهى تدعو الى اتخـاذ وسائل كالمطالبة بشهادات طبية تدل على سلامة البنية وتدعو الى عزل ذوى العاهات والمجرمين أو تعقيمهم حين يثبت قطعا أنهم كذلك فمنناها على هذا الاعتبار استئصال غير الصالح بطريقة اجبارية .

ومتى تعلم الجمهور ضرورة اتخاذ هذه الاجراءات استطاع أن يرى أن جميع هذه الوسائل وكثيرا غيرها وجيهة وعملية . وبهـذه الطريقة تكون اليوجينية السلبية متقدمة بمنهاج معين ينطوى على نفع كبير للمجتمع . على أنه لا بد لنا من التأكيد هنا أنه لا بد قبل تنفيـذ مثل هذا المنهاج أن يدرك الجمهور ضرورته وقيمته لأن التنفيذ الصحيح مستحيل ما لم يكن الناس أنفسهم راغبين فى الأمر رغبة شديدة .

الفصل الرابع

زيادة السكان

نرى بقدر ما يسمح أغلب الظن أن الانسان نشأ فيما يعرف الآن بآسيا الصغرى أو قريبا منها . بيد أننا لن نستطيع أن نعين بقعة منشئه الحقيقية وكل ما نعرفه أن أقدم ما لدينا من المدونات وأدق ما جرى من البحوث يدل على أن أول ظهور الانسان كان فى ذلك الصقع . ونشك كثيرا فيما يختص بالزمن الذى حدث فيه ظهوره لأول مرة . اما التاريخ فلا يرجع بنا إلا الى ستة آلاف من السنين ولكن هذا الأمد قصير بالقياس الى حياة الانسان قبل أن يبلغ درجة المدنية التى قامت الدلائل على وجودها . وقد كثر الاختلاف فى تقدير عمر الانسان ؛ فمن الناس من يصر على أنه لا يبلغ الا بضعة آلاف من السنين على حين أن غيرهم يرى أنه مضى على أول ظهور الانسان فى الدنيا ملايين من السنين . وتخبرنا الجيولوجيا أن الانسان كان من آخر المخلوقات التى استعمرت الأرض وأنه لم يظهر الا فى عهد متأخر من تاريخ وجودها . ومن العلماء من يذهب الى أن الانسان ناشئ من أصول متعددة. ولكن النظرية السائدة اليوم هى أن الانسان لم ينشأ الا من أصل واحد أى أن نظرية وحدانية المنشأ (Monogenesis) غالبة على نظرية تعدد المنشأ (Polygenesis) . من ذلك المكان الواحد انتشر الانسان على جميع الكرة الأرضية . وقد حاول الباحثون فى هذا الموضوع أن يترسموا لنشأته من الأجناس المنحطة عنه أطوارا معينة، ولكن كانت فى مشروعاتهم جميعها فجوات عظيمة اضطر أصحاب هذا المقصد ليسدوا فراغها أن يحيكوا لها من النظريات والفروض الشيء الكثير حتى عجزوا فى النهاية عن تقدير تلك الأطوار . بيد أن دراسة هذا الموضوع البعيد المدى على ما فيه مما يستهوى النفس ، لا تدخل فى نطاق علم الاجتماع بل يختص بها شقيقه علم مناشئ الأجناس (الانتروبولوجيا) . ذلك لأن علم الاجتماع يجد الانسان على الأرض فيبدأ بدراسة حياته الاجتماعية . والانسان بدأ شرذمة قليلة . ومنها أخذ يزداد فى العدد حتى بلغ ذلك العدد الجسيم الذى هو عليه فى الوقت الحاضر. بدأ صغيرا بالضرورة وبطيئا فى نموه مثل كرة الثلج ثم كان ما كان من زيادة جرمه فأخذ ينمو شيئا فشيئا على عجل ويزداد كلما زاد المجموع حجما وقوة . وتدل الدلائل الحاضرة على أن الانسان لم يقف سير نموه أو يعق سرعة هذا النمو عائق خطير الا فى بضعة أقطار . بل الواقع أن الانسان قد زاد عدده فى ظلال المدنية بسرعة أعظم وأبلغ منها فيما مضى وأصبح العيش أيسر والحياة آمن .ونقصت المخاطر حين زادت وسائل العيش وتمكن الناس بفضل وسائل التقدم والمخترعات من أن يعيش منهم فى بقعة معينة عدد أكبر

مما كانت تسمح به أحوال الماضى . كانت زيادة الناس فى المبدأ بطيئة وقد بادت قبائل متعددة بل أجناس برمتها فقد مضى الانسان أحقابا طويلة لم يستطع أن يفعل فيها شيئا سوى المناضلة عن نفسه . فأما الأجناس التى ميزتها الطبيعية عن غيرها فقد ازدادت حتى أصبح ازدحام السكان فى بعض الأقطار كالصين والهند واليابان وإيطاليا مشكلة قاسية . وليس هذا من الظواهر الحديثة بل هو على العكس أقدم من المدنية نفسها . وكان ازدحام السكان سببا فى انتشار الانسان على وجه الأرض . أما اليوم وقد كشفت مجاهل الدنيا جميعها واستولى الانسان على أحاسن الأرض فيها فانا نشفق أن سيأتى على الدنيا وقت يكون فيه الناس من كثرة العدد بحيث لا تستطيع الأرض اعالتهم . على أن هذا الأمر لا يستوجب اليوم من القلق ما استوجب منذ مائة عام ، إذ أن ازدحام بعض البلاد اليوم بالسكان ليس بالشدة التى كان عليها يومئذ . وذلك نظرا الى الفرج الذى أتاهم من زيادة الانتاج وتحسن حالة التجارة .

نظرية مالتوس فى السكان

منذ أكثر من مائة عام نشر مالتوس (Malthus) مؤلفه الشهير المسمى "مقالة عن السكان" (١) الذى طبع مرات متعددة ووصل الينا أثرا كتابيا قديما . فى هذا الكتاب قرر مالتوس أن السكان يجنحون الى الزيادة بسرعة تتخطى وسائل الاعالة . وقد حاول أن يوضح هذا الأمر ببيان أن وسائل الاعالة تزداد تبعا لنسب حسابية وأن السكان يزدادون تبعا لنسب هندسية . ولكنه أهمل هذه المحاولات بعد ذلك . وذكر مالتوس أن هناك طريقتين لعوق تيار ازدياد السكان أو تقييدهم بمقدار مزرد الغذاء : احداهما إيجابية كالحرب والمجاعة والمرض والرذيلة والفقر ، والأخرى سلبية أى منطوية على موانع مدبرة مثل تأخير الزواج أو التزام العزوبة وتحديد عدد المواليد . وقد حاول أن يثبت أنه اذا لم يتيسر لنا العمل بالوسيلة السلبية لم تقصر الوسيلة الإيجابية عن العمل . ويرى مالتوس أن الفقر نتيجة مباشرة لتلك الكثرة فى عدد السكان لأنها تدعو الى وجود مزيد من العمال وهذا يؤدى الى هبوط الأجور . بل لقد ذهب فى هذا الى حد اعتبار الكثرة السبب الجوهرى فى جميع أحوال البؤس والشقاء .

---

(١) Essay on Population

على أننا لانستطيع بطبيعة الحال أن نوافق على هذا الاستنتاج اذ الواقع أن نظريته العامة لا تؤيدها الأحوال العصرية . نعم يجوز أن تصدق هذه القاعدة فى الشعوب الأولية اذا هى طبقت على أمة جامدة غير متقدمة ولكنها لا تصدق على المجتمع الحديث . فان مالتوس لم يستطع أن يتكهن بمخترعات العصور الحديثة ومستكشفاتها تلك التى زادت مقادير المواد الغذائية بآلات الحصاد والحزم والربط والحرث والزرع والاحتفار والوسائل الحديثة لحفظ الخضر والفواكه وتعبئتها فى العلب وكذلك أساليب الزراعة المتداركة فأن التقدم فى هذه الأشياء قد ساير ازدياد عدد السكان وأربى عليه . فالواقع أن عددا متناقص النسبة المئوية باطراد من سكاننا قد استطاع أن ينتج حاجة الدنيا من مواد الغذاء . كما أن مالتوس لم يدخل فى حسابه قدرة الإنسان على التعاون والحصول به على مزايا تعظم كلما ازداد عدد السكان وازدحموا . ذلك أنه كلما زاد عدد السكان استطاع الانسان أن يوزع العمل بأساليب اقتصادية أبلغ من سواها واستعمل فى تصريف العمل طرقا تفضل غيرها كثيرا وبفضل المخترعات والمستكشفات الحديثة تمكن من زيادة الأنتاج . من ذلك يرى أن الأنسان يستطيع دائما أن يحصل مقدار انتاجه أكثر فى مدة من الوقت أقصر . ولذا فأن يوم عمل العامل فى وقتنا هذا آخذ فى التناقص فى جميع أصقاع الدنيا ولاسيما فى الأقطار المتمدينة والمزدحمة بالسكان .

وهناك نظريات أخرى عن عدد السكان منها نظرية دومون (Dumont) الاقتصادى والاجتماعى الفرنسى الذى يرى أن المجتمع كالأسفنج فانه يسمح بزيادة عدد السكان الى الحد الذى تستطيع الصناعة أن تعوله — وأنه اذا كان فى القطر فرص للعمل كما فى الارجنتين أو كندا أو الاسكا ازداد عدد السكان واذا لم تكن هناك فرص لم يزد عدد السكان . وهذه النظرية تستدعى النظر كما أنها جديرة بالتقدير الى حد ما وان كان التاريخ لا يعززها . نعم ان القطر الذى فيه للناس آمال يجتذب اليه المهاجرين . ولكن ربما لا تزداد نسبة المواليد فيه بل الغالب أنها لا تزداد . ولذلك يصعب على المرء أن يضع قاعدة محدودة ثابتة لنظرية السكان . نحن نعرف أمرا واحدا وهو أن عدد السكان آخذ فى الزيادة باطراد وأن وسائل الاعالة كانت فى مدى مائة السنة الماضية على الأقل متمشية مع هذه الزيادة بل تجاوزتها ورأينا أنه وان كان من المنتظر زيادة سكان الكرة الأرضية زيادة مطردة حتى تزدحم بهم الأرض ليس هناك فى الأحوال العادية ما نخشاه من خطر حدوث مجاعة . نعم أن فى أحوال الصين والروسيا والهند ما قد ينقض هذا القول ولكن لا بد للعلم فى النهاية أن يحل المشاكل الخاصة بمواد الطعام فى جميع الأقطار .

ازدياد عدد السكان فى بعض الأمم الحديثة الراقية

يستدل من الجدول الآتى على مقدار ازدياد بعض الأمم الحديثة فى عدد سكانها [٢]

القطر	الزيادة فى النسبة المئوية ١٨٠٠—١٩٠٠	القطر	الزيادة فى النسبة المئوية ١٨٠٠—١٩٠٠
الولايات المتحدة	١٣٣١٫٦	السويد	١١٨٫٦
البلجيك	٢٠٤٫٣	ايطاليا	٨٨٫٤
الدانمارك...	١٦٣٫٤	البرتغال	٨٥٫١
المملكة المتحدة (انجلترا وارلندا واسكتلندا)	١٥٥٫٩	سويسرا	٨٤٫١
		النمسا	٨١٫٦
النرويج	١٥٤٫٦	اسبانيا	٧٥٫٦
المانيا	١٤٣٫٢	فرنسا	٤٢٫٥
هولانده	١٤٣٫١		

من هذه الأرقام يرى لأول لمحة أن الأمم الزائدة النسبة هى الأمم الراغدة أو الحسنة الموقع الجغرافى. ومع ذلك لا نستطيع أن نستخرج أى قانون عام من تلك البيانات فقد كانت فرنسا من أكثر البلاد رغدا وكانت تتمتع بحكومة راقية وكانت عامة الشعب تعيش عيشة سعيدة ومع ذلك لم تكن حتى قبل الحرب قادرة على مجاراة غيرها فى عدد السكان .

تتأتى الزيادة فى عدد السكان من زيادة المواليد على الوفيات وبالمهجرة اليها . ولكن مجرد الارتفاع فى نسبة المواليد لا يفيد زيادة فى عدد السكان بل الأمر على العكس فان بعض الأقطار التى جاءت فى صدر القائمة السابقة تعد نسبة المواليد فيها منحطة بالقياس الى كثير من الأقطار الواردة فى ذيلها كما ترى من الجدول الآتى :

(٢) نقلا عن كتاب A Century of Population in the United States, 1790-1900 وضع مصلحة الاحصاء ص ٨٥

نسب المواليد والوفيات فى الالف من السكان فى سنة ١٩٠٠ [٣]

القطر	نسبة المواليد	نسبة الوفيات	زيادة المواليد على الوفيات
النرويج	٣٠و٧	١٥و٨	١٤و٩
ألمانيا	٣٥و٦	٢٢و١	١٣و٥
الدانمرك	٢٩و٨	١٦و٩	١٢و٩
المجر...	٣٩و٣	٢٦و٩	١٢و٤
اسكوتلنده	٢٩و٦	١٨و٥	١١و١
انجلترا وويلس	٢٨و٧	١٨و٢	١٠و٥
السويد	٢٦و٩	١٦و٨	١٠و١
المملكة المتحدة	٢٨و٢	١٨و٤	٩و٨
البلجيك	٢٨و٩	١٩و٣	٩و٦
ايطاليا	٣٢و٩	٢٣و٧	٩و٢
أسبانيا	٣٤و٤	٢٩و٤	٥
ارلنده	٢٢و٧	١٩و٦	٣و١
فرنسا	٢١و٤	٢١و٩	٠و٥
سويسرا	٠٠	١٩و٣	٠و٥ —

فالجدير بالاعتبار اذن فى موضوع الزيادة هو النتائج الختامى أى رجحان المواليد على الوفيات. ولا بد كذلك من تقدير العوامل الأخرى فى كل قطر على حدته ولا سيما عاملا الهجرة منها أو اليها .

ولم يحتفظ إلا قليل من الولايات فى الولايات المتحدة بمدونات دقيقة للواليد والوفيات لمدة ما ، ولذلك لا يمكننا أن نوازن بين الولايات المتحدة وأى قطر من الأقطار المدرجة

(٣) نقلا عن كتاب Social Conditions تأليف Bailey صفحتى ٩٧ و ٢١٤

فى القائمة المتقدمة(٤) بل لو كانت هناك أرقام يمكن الاستفادة منها لكانت الموازنة بين الولايات المتحدة وأوروبا غير عادلة لأننا (أهل الولايات المتحدة) قد أخذنا مئات الألوف من المهاجرين الأوروبيين كان أغلبهم فى مقتبل الشباب . ومن جهة أخرى لأن كثيرا من هؤلاء المهاجرين عادوا الى أوروبا ليموتوا فى أوطانهم .

اذا وازنا بين نسب المواليد بها فى بضع عقود من السنين الماضية لاحظنا انحطاطا يكاد يكون عاما ولا سيما فى الأمم المستبحرة فى العمران ووجدنا أن نسب الوفيات تدل على انحطاط أكثر . فليست الزيادة فى عدد السكان نتيجة زيادة نسبة المواليد بل نتيجة هذا الانحطاط فى نسب الوفيات الذى هو من نتائج العناية بالصحة العامة وزيادة العلم بمبادئ الطب ولا سيما بين الجماهير ومنع الحوادث الصناعية ومنع الأمراض بفضل المحاجر الصحية والتطعيم والحقن واستكشاف أنواع العلاج للأمراض . ولقد كان لانشاء معاهد للبحوث الطبية ولأنظمة التأمين الاجتماعى وللزائرات الصحيات ولتشريع قوانين خاصة لتحسين بناء البيوت ولنشر المعارف الصحية ولتقليل ساعات الشغل وتحسين الأحوال الصحية المحيطة بالعمال ولتنظيف الشوارع والحارات والتفتيش على المواد الغذائية ، نقول كان لهذه ولألوف أخرى من قبيلها يد فى حط نسبة الوفيات . والمأمول أن نزيد تقدمنا فى هذه السبيل وأن نبلغ شوطا أبعد مدى لأنه كلما زادت العناية بالصحة العامة والصحيين نقصت نسبة الوفيات .

ونلاحظ أيضا أن أمم العالم الصناعية آخذة فى الزيادة فى عدد سكانها لأنها تهيء عملا لأبنائها وبذلك تعوق الهجرة منها وتغرى فى نفس الوقت بالهجرة إليها . إذ الواقع أن التوسع الصناعى فى الولايات المتحدة هو السبب الأكبر أن لم يكن السبب الكلى فى نزوح الناس إليها فى العصر الحديث ، وأن ألمانيا حينما تقدمت فى الصناعة بقى أهلها فى ديارهم وكذلك الأمر فى النرويج والسويد .

هذا وقد غيرت الحرب العالمية القريبة العهد أحوال الصناعة والمعيشة تغييرا عظيما فى كل قطر ولذلك سيضطر الباحث الاجتماعى الى أن ينهج نهجا جديدا فيما يضعه من احصاء .

(٤) أخذنا اليوم نتدارك ما فاتنا من التقيصة ولذلك نحن عاملون على جمعها وفى سنة ١٩١٩ عملت احدى وعشرون احصائية عن المواليد فكانت نسبة المواليد فيها ٢٢٫٣ وفى نفس السنة عملت ٣٧ ولاية ومقاطعة كولمبيا احصائيات عن الوفيات وكانت نسبة الوفيات فى هذه الولايات ١٢٫٨

زيادة السكان فى الولايات المتحدة

لا بد لنا لامكان درس هـذا الموضوع درسا صحيحا من أن نلق نظرة على احصائيات السكان فى الولايات المتحدة .

السنة	السكان	النسبة المئوية	السنة	السكان	النسبة المئوية
١٧٩٠	٣,٩٢٩,٢١٤	—	١٨٦٠	٣١,٤٤٣,٣٢١	٣٥,٦
١٨٠٠	٥,٣٠٨,٤٨٣	٣٥,١	١٨٧٠	٣٨,٥٥٨,٣٧١	٢٦,٦
١٨١٠	٧,٢٣٩,٨٨١	٣٦,٤	١٨٨٠	٥٠,١٥٥,٧٨٣	٢٦,٠
١٨٢٠	٩,٦٣٨,٤٥٣	٣٣,١	١٨٩٠	٦٢,٩٤٧,٧١٤	٢٤,٩
١٨٣٠	١٢,٨٦٦,٠٢٠	٣٣,٥	١٩٠٠	٧٥,٩١٤,٥٧٥	٢٠,٧
١٨٤٠	١٧,٠٦٩,٤٥٣	٣٢,٧	١٩١٠	٩١,٩٧٢,٢٦٦	٢١,٠
١٨٥٠	٢٣,١٩١,٨٧٦	٣٥,٩	١٩٢٠	١٠٥,٧٠٨,٧٧١	١٤,٩

تدل هـذه الأرقام على أنه قد حدث هبوط مطرد فى نسبة الزيادة منذ سـنة ١٨٥٠ وأن الزيادة وإن كانت لا تزال جديرة بالاعتبار ، لا تعد بحال ما جارية على سرعتها السابقة . ولم تكن الزيادة حينئذ نتيجة المهاجرة الينا لأن غالبية المهاجرين انمـا وردوا الينا من سنة ١٨٨٠ على حين أنه فى بدء تاريخنـا يوم كانت الزيادة بالغة أقصاها لم يكن ليصلنا الا القليل من المهاجرين . بل الواقع أن زيادة السكان كانت فى أشـد ضعفها فى أثناء عقود الستين التى وصـل الينا فيها أكثر المهاجرين . بل يذهب بعض الثقات الى أن المهاجرة كانت سـببا فى تقليل عدد السـكان بدلا من زيادته وهـذا قول يلوح فى ظاهره صادقا ولكن لعلنا اذا فحصنا عن جميع الأمور نجده فى غير محله . لأنه لمـا كانت القوائم الدقيقة للواليد والوفيـات غير موجودة إلا فى بعض الولايات الأمريكية فاننـا لا نستطيع أن نحصـل على احصاءات يمكن الاعتماد عليها .

إن نسبة المواليد فى ماساتشوست بين النازحين اليها المولودين فى الخارج وبين المولودين فى القطر هى بنسبة ٣ الى ١ ولكن هذه الاحصائيات مضللة لأن المولودين فى الخـارج من النازحين لا يأتون الى الولايات المتحدة عادة إلا فى ريعان الحياة أو على الأقل فى عهد البلوغ والحمل . كما أن كثيرا منهم يعودون الى أوربا بعد تجاوز سن الشباب . ويترتب على هـذا أن تكون نسبة الولادة بين هؤلاء النازحين أعلى بكثير منها فى سواهم . ولهـذا السبب أيضا

تكون نسبة الوفيات في المولودين في القطر أعلى منها بين المولودين النازحين وان كان هذا الفرق طفيفا . على أن ماساتشوست لا تعد بمثابة ميزان للولايات اذ الحال فيها خاص لأن أقوى وأنشط أهلها نزحوا الى الغرب ولا سيما الرجال منهم . ولذا اختلت نسبة عدد النساء الى الرجال تبعا لذلك . هذا عدا أن فريق المهاجرين محتشد الى حد كبير في المدن الصناعية مثل فول ريفر (Fall River) ونيو بدفورد (New Bedford) ولورانس (Laurance) وأنه يقاسي أحوالا سيئة جدا تدعو الى انحطاط مستوى المعيشة وارتفاع نسبة المواليد. ونرى من جهة أخرى أن الأسعار في نيوانجلند عالية والأجور منخفضة ولذلك كان الوطني لحكمته مضطر الى تأجيل زواجه وتقليل عدد أولاده ليحتفظ بمستوى المعيشة الذى اعتاده . وقد قل متوسط عدد الأسرة في الولايات المتحدة فقد كان ٥,٦ في سنة ١٨٥٠ و ٥,٣ في سنة ١٨٦٠ و ٥,١ في سنة ١٨٧٠ و ٥ في سنة ١٨٨٠ و ٤,٩ في سنة ١٨٩٠ و ٤,٧ في سنة ١٩٠٠ و ٤,٥ في سنة ١٩١٠ و ٤,٣ في سنة ١٩٢٠ . على أن الهبوط بين الوطنيين البيض كان أكثر من هذا . وفى بعض جهات نيوانجلند لم تحدث زيادة مطلقا أما الولايات الأخرى فنرى أقلها نيفادا اذ متوسط عدد الأسرة فيها ٣,٥ ثم تتبعها كليفورنيا اذ هو ٣,٨ وأوريجون اذ هو ٣,٩ . أما الولايات الجنوبية وعلى رأسها كارولينا الشمالية فهى من هذه الوجهة أفضل اذ متوسط عدد الأسرة فيها ٥ وقد أدى هذا النقص ببعض الناس الى التذمر من الحالة . وأسباب هذا النقص في نسبة المواليد كثيرة ، بيد أن أهم هذه الأسباب هي :

١ — اطراد الارتفاع في مستوى المعيشة

الناس يتطلبون المزيد . فالأشياء التي كانوا يرونها في الماضي من مظاهر الترف أصبحت تعد من الضروريات كالحمامات بالمنازل والتليفونات والأنوار الكهربائية وأصبحوا يتطلبون ملابس أجمل وتنوعا في الطعام أكثر ومنازل أحسن وأسباب رغد أوسع . وهم يؤثرون تقليل عدد الأولاد على التضحية بهذه الأشياء كما أن الهمة الآن متجهة الى تحسين تربية الأولاد وتزويدهم بالمؤهلات الحقيقية أكثر من اتجاهها الى مجرد المجىء بهم الى الدنيا. وهذا الميل لا يدعو الى القلق بل الواقع أنه يؤدى الى مدنية أرقى .

٢ — اطراد الزيادة في نفقات المعيشة

ان زيادة الأثمان ولاسيما أثمان مواد الطعام وايجار المساكن وأثمان الملبس ، المتأتية من النقص النسبي في مساحة الأراضي اللازمة لانتاج هذه الحاجات وزيادة الطلب عليها هو علة أخرى في قلة عدد الأسرة . نعم إن الأجور قد ارتفعت أيضا ولكن من الحقائق الاقتصادية

أن الأجور أبطأ فى ارتفاعها من الأثمان فضلا عن أن الأجور كما سنرى عند الكلام على الهجرة ظلت منحطة بسبب منافسة المهاجر للعامل الوطنى. هذا سبب يؤسف له ولكن يصعب منعه كما أن الحرب العالميـة قد زادت فى تعقيد هـذه الحالة حديثا باحداث زيادة غير طبيعيـة فى الأثمـان بسبب كثرة الطلب . على أن هذه الزيادة قوبلت فى بعض الصناعات بزيادة فى الأجور أربت على زيادة الأثمـان .

٣ — الأثرة أو كراهة التناسل

قد يتأتى هذا من عدم الرغبة فى التضحية بسبب الأولاد، أو عدم الميل الى تحمل الضيق والألم الناشئ من إيجادهم فى هـذه الحياة أو عدم الرغبة فى الاستعاضة عن السرور الموجود بمجهول من هناءة الأبوة . وأصدق ما يكون هـذا لدى الأغنياء الذين يكرهون أن يختلوا عن الاشتراك فى الأعمال الاجتماعية أو يستغنوا عن الوقت الذى تستوجبه الأبوة . واليك جدولا وضـعه برتيلون (Bertillon) به نسبة المواليد فى الألف بين الطبقات الاقتصادية المختلفة فى المدن الأوربيـة الأربع الكبرى [٥] يبين ما هو معروف من أن الفـقراء أكثر أولادا من الأغنياء .

المواليد لكل ألف أنثى بين ١٥ و ٥٠ سنة من العمر

	ڤينا	برلين	باريس	لندن
فقراء جدا	١٠٨	١٥٧	٢٠٠	١٤٧
فقراء	٦٥	١٢٩	١٠٤	١٤٠
فى كفاية من العيش	٧٢	١١٤	١٥٥	١٠٧
فى كفاية أوسع من العيش	٦٥	٩٦	١٥٣	١٠٧
أغنياء	٥٣	٦٣	١٠٧	٨٧
أغنياء جدا	٣٤	٤٧	٧١	٦٣
المجموع	٨٠	١٠٢	١٥٣	١٠٩

(٥) نقلا عما أورده Bailey فى كتابه Modern Social Conditions

يتضح من هذا الجدول أن الفقراء جدا مواليد بنسبة ثلاثة الى واحد من مواليد الأغنياء جدا . والواقع أنه كلما زاد الاقبال الاقتصادى فى القطر نجد هبوطا فى نسبة المواليد فيه . وهى حالة يؤسف لها إذ من سوء الحظ ألا يكون لمن يستطيعون الإنفاق على الأولاد ذرية على حين أن الذين لا يستطيعونه تكون لهم أسر كبيرة[٦]

٤ — التربية — أى التربية العالية

بازدياد الثقافة وارتقاء المدنية يحتاج الإنسان الى وقت أطول للاستعداد لعمله فى الحياة، فاذا كان الانسان آخذا فى إعداد نفسه لحرفة فنية اقتضى الأمر أن ينفق أربع سنين فى مدرسة راقية (ثانوية) وهناك حرف فنية كثيرة تتطلب قضاء أربع سنوات فى كلية وثلاث سنين أو أربع فى مدرسة التخصص . فاذا دخل المدرسة الراقية فى الرابعة عشرة من العمر واطرد نجاحه فى الدراسة (وهو مالا يحدث دائما) كان عمره خمسا وعشرين سنة عند ما يتم استعداده . ثم لابد له أن يشتغل بضع سنين قبل أن يكون قادرا على كسب ما يكفيه أو الوصول الى حد من النجاح فى صناعته يكفل له هناءة الزواج . فكأنه لابد له أن يكون قرابة الثلاثين إذا كان له أن يتزوج . واذا تزوج امرأة متربية كانت فى سنه تقريبا . ويصدق هذا على وجه أخص اذا هو ولع وهو فى المدرسة بزميلة فيها وانتظرته حتى يتم استعداده . فمن الطبيعى، والحالة هذه، أن تكون أسرتهما أقل عددا من أسرة رجل غير متعلم فى سن الواحدة والعشرين أو الثانية والعشرين تزوج فتاة فى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من العمر . ولقد كان لتعليم المرأة أثر أكبر فى نسبة المواليد من أثر تعليم الرجل لأن التعليم جعل المرأة أقل اعتمادا على الزواج إذ مكنها من تحصيل العيش الرغيد لنفسها كما أن التربية جعلتها أحرص فى انتقاء زوجها . نعم إن هذا كان داعيا الى تهذيب الرجل ودفعه الى أن يعيش عيشة أنقى وأسلم ولكنه عاق الزواج . ولقد كانت المرأة فيما مضى إما خادما فى المنزل وإما زينة وحلية وكانت بمثابة بارومتر اجتماعى يستدل منه على حالة الرجل الاقتصادية . فاذا كان غنيا لم تضطر الى العمل واذا كان فقيرا كان لابد لها من ذلك ؛ على أن المجتمع لم يتعدل حاله فى هذه الناحية . من أجل ذلك نجد المرأة تتردد اليوم أكثر من قبل فى أمر الزواج . واذا هى تزوجت نفرت من الرجوع الى الحالة السابقة التى كانت عليها المرأة فى المنزل، ومن ثم نجد أن المرأة اليوم تكره أن تؤسس أسرة أو أن تكون لها أسرة كثيرة العدد .

[٦] فى أحد الأحياء الغنية بالقرب من قصر أستور من مدينة نيويورك فى سنة ١٩٢١ كانت نسبة المواليد ٧ فى الألف يقابلها ٢٥ فى الألف فى سائر منهاتان . نقلا عن جريدة نيويورك تايمس ٢٢ من يناير سنة ١٩٢٢

٥ — الرذيلة

ممـا يؤسف له أن كثيرا ممن يرغبون فى الأولاد لا ينالونهم . والمقول إن نصف هؤلاء على الأقل إنما حرموا ذلك بسبب الفسوق ، إذ المعروف أن الأمراض التناسلية ، كما سنرى فيما بعد عند ما نتناول موضوع الرذيلة، تجعل الولادة خطرة أو مستحيلة. وهذا أحد الأسباب فى أن نسبة المواليد فى فرنسا ليست أعلى ممـا هى عليه ، وفى أن كثيرا من الأغنياء فى سائر الأقطار ليس لهم ذرية . هذا، ومع أنه ليس بين النساء عند زواجهن إلا عدد قليل مصاب بالأمراض فانه اذا كان بأزواجهن أمراض من هـذا القبيل لا يمضى عليهن وقت طويل حتى يصبن بها . والرذيلة سبب فى إيجاد كثير من الأسر ذات الولد الواحد . إذ يمنع المرض حدوث الحمل مرة أخرى ، ولنا أن نأمل قلة تأثير هذا السبب فى المستقبل لأن هـذا الشر الاجتماعى آخذ فى التضـاؤل سريعا وسيكون الزمن كفيلا بتطهير المجتمع منـه أو إضعاف وطأته الى الحد الأدنى . كان اذا تعذر الحـمل على المرأة فى العهد المـاضى سميت عاقرا وأمكن تطليقها بسبب ذلك ، أما اليوم وقد عرفنا أحد الأسباب الرئيسية فنحن لا نسمع عن العقم إلا قليلا . نعم إن فى النساء من هن غير قادرات بطبيعة بنيتهن على الحمل والولادة ولكن هناك عددا أكبر كان النسل فى استطاعة الكثير منهن لو كان أزواجهن عاشوا عيشة طاهرة نقية .

٦ — ازدياد العلم بوسائل تحديد النسل

كان العمل على منع الحمل فيما مضى من الأمور المكروهة لأنه عمل غير اجتماعى أو مخالف للدين، ولذلك حرمه القانون . واليوم يناصر الرأى العام هذه الآراء والقانون يغضى عنها شيئا فشيئا . ولقد كانت الكنائس فيما سلف ترغى وتزبد غضبا لمحاولة تحديد الحـمل أما اليوم فقد خفت معارضتها . ومرجع الأمر فى هذا التغير إزدياد العلم بأحوال الفقراء . والمشاهد أنه كلما تعلم الناس كان علمهم بقوانين التناسل ومقتضياته أعم ونتج عن ذلك قلة فى أولادهم وسواء أكان هـذا فى مصلحة البلاد أم لم يكن فالمنتظر أن يزداد هذا الجنوح ظهورا بازدياد بلادنا فى الرفاهية والعرفان .

وعلى الجملة إن لنا أن نرتقب هبوطا مستمرا فى نسبة المواليد . ولكنا نشك كل الشك فى أن هذا الهبوط سيبلغ درجة تعد الأمة عندها منتحرة .

هبوط نسبة الوفيات

لاحظنا الى جانب الهبوط فى نسبة المواليد هبوطا مطردا فى نسبة الوفيات فى الأمم المتمدينة . وكلما كانت درجة المدنية أعلى كانت نسبة الهبوط أكثر فقد انحطت نسبة الوفيات فى الولايات المتحدة الى أكثر من الربع بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٢٠ . واطراد الزيادة فى عدد السكان إنما هو نتيجة هذا الهبوط فى نسبة الوفيات وهذا الهبوط ناشىء من عدة أسباب ربما كان أهمها ما يأتى :

١ — ازدياد المعارف الطبية

لا ينقطع توفق الطب الى العثور على علاج للأمراض التى كانت تعد فيما مضى مستعصية على الشفاء كالحمى الصفراء والحمى ذات البقع والهيضة (أو الكوليرا) وأصبح كثير من الأمراض التى كانت خطرة فى مقام الأمر الهين كالجدرى الذى كان فيما مضى معدودا من البلايا فقد صار لا يخشى أمره أكثر مما تخشى الإصابة ببرد شديد ، كما أن السل اخذ فى الخضوع لوسائل الوقاية . وتستعمل اليوم وسائل وقائية مضادة للتوكسين للاحتماء من التيفويد والدفتريا وما الى ذلك . وكشف الطب اليوم أسباب حدوث علل كثيرة كانت غير معروفة مدة طويلة جدا مثل علة الدودة الخطافية ووجدت وسائل أنجع لمعالجة ما يسمونه أمراض الأطفال مثل الحصبة والسعال الديكى والذبحة وما الى ذلك ، وقلت نسبة الوفيات بها تبعا لذلك . ولا يقتصر فضل الطب على أنه قد نقص نسبة الوفيات نقصا كبيرا ، بل إنه لمن المرجو أن يزداد فضله فى هذا المنحى ازديادا كثيرا . ويضاف الى هذا الكشف النافع سهولة الوصول الى أنواع العلاج ووسائل الشفاء على جمهور الناس بفضل ما هنالك من المستشفيات ، إذ بانشاء المستشفيات البلدية والمصحات الخاصة التى ينفق عليها الأفراد لم يعد مقضيا على الإنسان فى المدن أن يظل عاجزا عن نيل العلاج الطبى عند الحاجة اليه حتى ولو كان معدما . هذا ، وازدياد معرفة الجمهور بقابلية الأمراض للشفاء والتشدد فى الترخيص بمزاولة الطب قد ساعدا على زيادة الهبوط فى نسبة الوفيات واليوم لا يخشى الناس دخولهم المستشفيات كشأنهم فى الماضى ، وقد زادت ثقتهم بالأطباء الذين أصبحوا وقد تمت لهم وسائل العلم يعملون بما يقضى به علمهم ومهارتهم .

٢ — تحسن وسائل العناية بالصحة العامة وقوانينها

انتشر العلم بقوانين الصحة فى البلاد بفضل التعليم فى المدارس والحملات التهذيبية الخاصة والمجلات السائرة وخزائن الكتب العامة وغير ذلك من وسائل نشر العرفان . واليوم تسعى الزائرات الصحيات متنقلات من بيت لبيت لتبصير الفقراء ولاسيما المهاجرين بالحياة الصحية

وكيف يعيشون عيشة أهم ويحيون حياة أسعد وكيف يطهون الطعام الجيد، ويمنعون العدوى من الجراثيم . ونرى مدنتا مجدة فى التشريع وفيما هو أهم من ذلك ألا وهو تنفيذ القوانين الخاصة بتصريف المواد البرازية والقمامات و بتنظيف الشوارع والتفتيش على مواد الطعام والألبان ونقاء الماء ومعالجة شؤون الأمراض المعدية وغير ذلك من الأمور الحيوية بالنسبة للصحة العامة . ولما كانت الوقاية خيرا من العلاج فان هذا النوع من الجهد يعد أعظم من وسائل العلاج وقد أخذ تأثيره فى الازدياد والأمل معقود بعظم نتائجه فى المستقبل .

٣ — منع الحوادث الصناعية

اتخذت أكثر الأمم الأوربية نظام التأمين من أخطار المصانع وألزمت أصحابها دفع تعويض للعمال الذين يصابون فى مصانعهم فدفع هذا الأمر بأصحاب المصانع أن يلتمسوا أحدث الوسائل المصرية لمنع الحوادث . ويجرى اليوم كثير من الولايات الأمريكية على هذه الخطة كما أن كثيرا من مستخدمى العمال عاملون على إدخال مثل هذه الإصلاحات من تلقاء أنفسهم. هذا ، وقد وجد فى الولايات أن ٣٥,٠٠٠ من العمال يقتلون كل عام و ٥٠٠,٠٠٠ يشوهون بسبب حوادث فى المصانع يمكن اتقاء كثير منها . وقد أخذ نظام قلة ساعات العمل فى اليوم يصبح عادة تقلل عدد الحوادث تبعا لذلك ، وقد تنبهنا الى الحقيقة وهى أن فقد الأرواح بسبب الحوادث الصناعية ليس من الضرورى الحتم وشرعنا فى اتخاذ الوسائل لمنعها .

٤ — نقص وفيات الأطفال

تصل نسبة وفيات الأطفال فى السنة الأولى من حياتهم أقصاها ولا سيما بين طبقات الفقراء والجهلة وفى الأقطار التى يكون جمهور الناس فيها جهلة فقراء . ففى روسيا يموت ٢٧ ٪ من الأطفال قبل انقضاء السنة الأولى من حياتهم وذلك فى الأحوال العادية بل نرى أن ١٦,٢ ٪ من الأطفال فى منطقة التسجيل بالولايات المتحدة نفسها يموتون فى هذا العهد ونحن اليوم آخذون فى التنبه الى خطورة هذه الخسارة غير الحتمية فى الأرواح وعاملون على منعها بزيادة الاهتمام بالتفتيش على اللبن والعناية الوالدية وتعليم الأمهات ونشر المعارف الصحية .

٥ — منع الحرب

استطعنا قبل الحرب العالمية أن ننقص خسارة النفوس الناشئة من الحرب نقصا مطردا حتى لقد كنا نرجو أن نخرج الوفاة لهذا السبب من حسابنا إخراجا تاما ، ولكن هذه الحرب خيبت كل هذا، غير أنه اذا نجحت عصبة الأمم فى تحقيق كل ما ينادى به مشايعوها كان لنا

أن نرجو حلول اليوم الذى نرى فيه هذه العصبية الكبرى عند حدها الأدنى. لقد سئمت الدنيا الحروب ونحن ندعو أن توفق هذه العصبة الى تحقيق كل ما يتكهن به لها أنصارها المتحمسون .

وعلى الجملة فان المنتظر أن يزداد عدد السكان ازديادا مطردا إلا أن هذه الزيادة سيكون سيرها أقل سرعة مما كانت عليه فى الماضى اذ المنتظر حدوث نقص مطرد فى نسبة المواليد يقابله نقص، وإن كان طفيفا، فى نسبة الوفيات . وقد عملت تقديرات كثيرة لعدد سكان الولايات المتحدة فى تواريخ معينة فى المستقبل، فى سنة ٢٠٠٠ مثلا . وتتراوح التقديرات لهذه السنة بين مئتى مليون وأربعمائة مليون . على أن مثل هذه التكهنات غير صحيحة وليست بذات قيمة اذ أن الأحوال دائمة التغير كما أن نسبة الزيادة مستمرة فى النقصان . واذا استمررنا على خطة تقليل أسباب إغراء الناس بالهجرة إلينا فلا بد أن تنقطع الهجرة بعد وقت ما. واذا نضب معين الغنى عندنا فلا غرو أن نرتقب نزوح الناس عن بلادنا ونقص عدد سكان بلادنا تبعا لذلك. وفضلا عن هذا فاننا اذ نستغل مواردنا الطبيعية ونعمر أراضينا بالناس ونحسن وسائل التعليم ونرقى مستوى معيشتنا، فالمنتظر أن تهبط نسبة الزيادة بسرعة ولما كان المستقبل من الغموض بحيث لا يتيسر للانسان أن يتكهن فى شأنه تكهنا يطمئن له . وقصارى ما يستطاع قوله إنه اذا استمرت الأحوال الحاضرة على ما هى عليه فلا بد من ازدياد عدد السكان باطراد وكذلك الأمر يوم تتقه الدنيا من أثر الصدمة العارضة التى أصابتها من الحرب الكبرى فانه لابد لها أن تستمر فى أن تأوى وتطعم عددا مطرد الازدياد من الناس .

الفصل الخامس

نزوح الإنسان

اذا صح القول بأن الإنسان ابتدأ حياته بأسرة واحدة أو جماعة صغيرة العدد فلا بد أن يكون قد نزح من مكانه الأول شيئا فشيئا حتى احتل جميع أجزاء الأرض الصالحة للسكن . والمقصود من هذا الفصل أن نبين لماذا نزح وكيف نزح وما أثر ذلك فى رقيه .

اضطر الإنسان الى النزوح عن مقره بسبب نقص موارد الطعام لديه . ذلك لأن ازدياد المجموع فى عدده جعل الحياة أشق عليه فترتب على هذا أن بعضا من المجموع لم يجد بدا من ترك منزله الأول طلبا لموارد جديدة من الطعام. وهذا أدى الى تألف زمر يأخذون فى التجوال للبحث عن مواطن جديدة. ومن المرجح أن هذه الزمر كانت مؤلفة من أشخاص أسرة واحدة أو من أشخاص مرتبطين ارتباط قرابة أو صداقة. بيد أنا لا نعرف أكانت هذه الزمر طوائف ضعيفة طردها الأقوياء أم كانت أفرادا نشيطة غير راضية عن شظف العيش الذى هى فيه فرغبت فى تحسين حالها . إن جميع الاحتمالات تدل على أن هذه الزمر كانت مؤلفة من هذا الفريق وذاك . وعلى كل حال تجمع الإنسان زمرا ليكون له من هذا الأمر وسيلة أقوى للدفاع عن نفسه وليجيب ما فطر عليه من الشوق الى المرافقة ثم أخذ يرحل طلبا للغزو والكشف .

ولقد اتبعت هذه الزمر فى تجوالها بطبيعة الحال أقل الطرق مقاومة أى أسهلها مسلكا فكانت تذهب صاعدة أو هابطة فى أودية الأنهار أو على امتداد الشواطئ أو حول سلاسل الجبال أو فى شعابها حتى اذا بلغت مكانا كثر فيه مورد الطعام نزلت به واستقرت أو بقيت به حتى تخرجها منه زمرة أخرى أو تنزح عنه من تلقاء نفسها مغراة بالتماس موارد أوفى وأوفر واذا أجبرتها زمر أشد منها على الجلاء لم يكن أمامها إلا العودة الى سابق عهدها من التجوال مالم تؤثر القتال على الهرب . وكثيرا ما كانت الزمرة القوية تبيد الفئة الضعيفة أو تسترقها .

رأينا فيما سبق أن أودية الأنهار الغنية كوادى النيل ووادى دجلة والفرات كانت فى طليعة الأصقاع التى احتلها الإنسان فكانت لهذا فى طليعة الديار التى سكنها أقوام ذوو مدنية عريقة . ولقد سار الانسان فى الطرق التى تجود بخير الموارد الغذائية فاستمتع بميزات الطبيعة مباشرة بصيد البحر أو صيد البر أو بتأنيس القطعان والأسراب بعد أن عرف الزراعة . وبهذه الطريقة انتشر الإنسان من آسيا الصغرى الى جميع الجهات فذهب شرقا الى ما هو الآن بلاد

الهند ثم ذهب حول جبال هملايا أو اخترق مجازاتها الى بلاد الصين الخصبة حتى وقفته مياه المحيط الهادى . ولعل استراليا وجزائر الهند الشرقية كانت متصلة بآسيا ببرازخ من اليابسة أو كانت مفصولة عنها بخلجان ضيقة ،ولذلك كان الإنسان قادرا أن يسكن جزائر الهند الشرقية واستراليا ونيوزيلانده وأكثر جزائر المحيط الهادى الجنوبى . أما فى الشمال فقد اضطر أو أغرى بعبور بحر بارنج إما سيرا على جامد الثلج أو على الأرماث وربما تنقل من جزيرة الى أخرى من جزائر الوشيان .

ومن ثم نزل بأمريكا . ولقد كان من سهل الأمور أن ينحدر من ألاسكا منتشرا فى الأمريكتين . واذ نزح الإنسان من آسيا الصغرى مغربا فقد نزل بأفريقيا عن طريق برزخ السويس الى وادى النيل ومن هناك الى بقاع أفريقيا ولم يصادف فى طريقه شيئا يذكر من العوائق الأرضية إلا الصحراء الكبرى . وإذ نزح الى الشمال فقد دخل اوربا بمحاذاة شاطئ البحر الأبيض المتوسط أو هابطا وادى الطونة الذى كان بمثابة طريق عظيم لكل من هاجروا الى أوربا . ومن طريق اوربا اجتال الانسان صوب الشمال وأمعن فى السير بقدر ما سمحت له حالة الجو وقد اضطر فى هذه الجهات الى النكوص مرة على الأقل طوعا لتغيرات المناخ التى دفعت بالثلاجات الى الانزلاج جنوبا ، ثم عادت بها ثانيا الى حيث كانت تبعا لتردد أحوال الجو السالفة الذكر . ولقد عمرت أوربا أيضا بالمهاجرين اليها من آسيا ممن كان سيرهم اليها من طريق متجهة الى الشمال راحلين اليها من طريق سيبريا ومن هنا امتلأت أقطار روسيا والبلقان بالجنس الصقلبى . ومن أوربا عبر المهاجرون مياه الاطلانطيق وجاء النورس (أهل الشمال) بطريق ايسلانده والأسبان من طريق جزائر آزوره .

دواعى النزوح

كان داعى النزوح الأول الضرورة الحافزة بسبب قلة موارد الطعام أو الخوف من قوة أشد بطشا . ثم طرأت بعد ذلك أسباب أخرى أخصها الاضطهاد الدينى والعسف السياسى والرغبة فى التخلص من عقاب القانون والأحوال الاقتصادية .

كان الاضطهاد الدينى أحد الأسباب الرئيسية التى دعت الى استعمار امريكا ، بيد أنه كان باعثا قويا على الهجرة قبل هذا بمدى طويل ، إذ الظاهر أن من الطبيعة الإنسانية كون الذين يعتنقون مذهبا ما يحاولون إلزام غيرهم الدخول فيه ويطردون من يخالفهم أو يبيدونه . لذلك هاجر كثير من الناس طلبا للحرية الدينية . وكانت الحكومة أول الأمر فى يد الأقوياء فمن كان يجرؤ على المناهضة كان يقتل أو يطرد . ولذا كان فى الناس دائما من تلجئهم الضرورة الى الهجرة لأسباب سياسية ،وطالما اتخذ المنفى الى خارج الحدود السياسية أو الى

مكان معين كستعمرة تعزيرية وسيلة من وسائل العقوبة . هذا، وكانت دائماً شهوة التجوال والرغبة فى دوام التنقل من الأسباب القوية فى الهجرة . وزادت أنواع الحج الديني وارسال البعوث الداعية الى الدين فى ترويج الهجرة . كما أن الرق عمل على تشتيت الناس إذ يستولى الأقوياء على الضعفاء ويبيعونهم أرقاء فينتشرون فى الدنيا . ولعل فى استرقاق الزنج خير مثل لهذا . وقد جرت الأمة الاغريقية والرومانية على هذا وكان عندهم عرفا مرعيا . وكانت رومية تبيع أسرى حروبها . ولما كانت الأمة تغلب فى الحرب وتلجأ الى الهرب كانت فى غالب أمرها تتفرق أفراد طلبا للأمان فلا تستطيع التجمع مرة أخرى .

ولعل أكبر دواعى الهجرة الى اليوم هو الداعى الاقتصادى والتماس الفرص ليحصل الإنسان على جزاء أعظم لعمله وجهده . وهذا هو الداعى الذى يحدو أغلبية المهاجرين على الانتقال الى امريكا وهو السر فى أكثر أحوال تجوال الإنسان اليوم فان إغراء الذهب وطماعية الانسان فى الغنى تدفعه الى قصد أشد أصقاع الدنيا استعصاء وتحمل نكال البرد والحر ومواجهة أخطار الأمراض والحيوانات المفترسة وتحمل حر الظمأ وقارس الثلج والمطر المغرق وجميع أنواع الضيق والشقاء ويهون عليه ترك الأصدقاء والأقرباء والرضى بالوحدة والحرمان . وقد شجعت جميع الأمم تقريبا أهلها على التجارة فقد أرسلت فينقيا واغريقيا وقرطاجنة جاليات هنا وهناك لهذا الغرض ثم تلتها بعد ذلك فرنسا وانجلترا وهولنده والمانيا . والواقع أن التاجر فى كل حال يسبق الجندى والمستعمر ، إذ أن هذين إنما كان يستحثهما على الرحيل ما كان يرويه السائح الذى كان يجول فى سبيل التجارة . وقد اضطرت الشعوب الفارة من وجه الغالب الى الاحتماء فى أصقاع الأرض المستعصية حيث يكون اللاجىء بمنجاة من اقتفاء العدو أثره وكشف مكانه ويسمى ربلى (Ripley) القوقاز قبر الشعوب واللغات والعادات والقوى الجسمانية . فى مثل هذه البقاع النائية ينحط الناس بسبب عدم اتصالهم بغيرهم ثم هم لم يكونوا فى أول أمرهم ذوى قدرة وإلا لما اضطرهم الأمر الى الفرار . ثم جاءت الوحدة والانعزال عن الدنيا فضاعفت هذه النقيصة .

كانت الهجرة لدى الإنسان الأول أمرا هينا فلم يكن يهتم بأمر بيع أرضه ، بل ولا بأن ينقل أثاث بيته لأنه لم يكن يمتلك شيئا من ذلك وكل ما كان عليه أن يفعله هو أن ينهض ويسير الى مكان غير مكانه . ولذلك كان سهلا عليه وطبيعيا أن تتربى فيه عادة التجوال . نعم إنه لم يكن قادرا على الانتقال بنفس السرعة التى يجول بها الإنسان اليوم لأنه لم يكن يعرف القطر السريعة والسفن التجارية والطرق والجسور . وفى أول الأمر لم يكن لديه حيوانات جر ومع هذا التقدم فى وسائل الانتقال فان الرجل المتمدين تصادفه فى الانتقال مشقة أكبر بسبب كثرة ممتلكاته كما أن دواعيه الى الهجرة أقل . كانت تنقلات الإنسان الأول غير سريعة اذ كانت جولات بطيئة متمهلة تشترك فيها قبائل أو أمم برمتها . وكانت هذه الزمر فى أول

الأسر مرتبطة الأفراد بروابط الأسرة ، حتى اذا نمت هذه الأسر صارت عشائر وافرة العدد كذلك كانت الغزوات الصقلبية لأوربا . كما أن فى هجرة الوندال Vandal غربا مثلا آخر صالحا؛ اتصلوا بروميه فى أول الأمر واحتلوا إحدى إيالاتها على نهر الطونة واستقروا بها مدة ثم مالوا غربا ثم الى الجنوب ونزلوا أسبانيا وأخيرا عبروا مضايق جبل طارق الى شمالى أفريقيا فقضوا فى هذه الحركة برمتها قرابة مئتى عام . أما النزوح فى العصر الحديث فانما هو استعمار تعززه المملكة الفاتحة وأما الهجرة اليوم فمسألة فردية وإن كان المشاهد أن أفرادا كثيرين يخرجون معا ويكون ذلك فى الغالب بتشجيع من حكوماتهم .

اتجاه حركة المدنية شطر الغرب

إن كانت المدنيــة قد سارت شرقا أمدا ما فانتقلت من آسيا الصغرى الى الهند ثم الى الصين فانا نجد أنه كانت لها وجهة انتشار غربية، إذ مرت من بابل وآشور وفارس الى أفريقيا ومنها الى رومية ومن رومية الى فرنسا وأسبانيا وانجلترا . ومن هناك الى أمريكا واليابان والصين . على أن هــذا التنقل الغربى الوجهــة لم تنفرد به المدنيــة وحدها بل المشاهد أنه تناول السـيطرة العالمية أيضا . واذ سارت المدنيــة غربا فقد كانت خطاها على امتداد المنطقة المعتدلة الشمالية ولهذا سميت "طريق المدنية" وسنرى فى الفصل الآتى الذى عالجنا فيــه موضوع الهجرة من ناحية كونها مشكلة من المشاكل الأمريكية أن هذه الهجرة كانت ولا تزال جزءا من هــذه الحركة الغربية الوجهة لشعوب تلتمس فرصا لتحسين أحوالها وتطمح الى نيل الحرية الدينية والسياسية واليسر الاقتصادى .

وفى بضع السنوات المـاضية خطت اليابان خطا باهرة فى سبيل الثقافة الغربية ومدنيتها واليوم إذ أنشأت جيشا قويا وبحرية عظيمة وظهرت بمظهر القوة البـاطشة أصبحت تتبوأ مكانا عليا من القوة بين الأمم ؛ على أن قوتها فى الحرب لم تظهر إلا بعــد أن قهرت بسرعة ومهارة الأمبراطورية الروسية فى الحرب الروسية اليابانية . منذ ذلك الحين استوجبت احترام سائر الأمم فمدت يدها اليها متشوقة الى محالفتها .

ضاقت اليابان عن أن تسع سكانهـا المتزايدين على الدوام . وفى بضع السنين المـاضية أخذت تنظر بعين الحسد الى المـارد الجاثم بجوارها غربا، ولكنها لم تستطع قبل الحرب الأخيرة أن تستفيد شيئا مذكورا من هذا الجار . ولكن بينما كانت الحرب شاغلة وقت الأمم الأخرى وانتباهها تمكنت اليابان من تنمية مصالحها . وتدل الدلائل الحاضرة على أنه لن يمضى وقت طويل حتى تبنى اليابان لنفسها سلطة واسعة فى الشرق إما بالتعاون مع الصين وإما باجتناء ثمرة عمل الصين *

* استولت اليابان اليوم على منشوريا وتدلت الى عاصمة الصين نفسها كما تنبأ المؤلف (الناقل) .

على أن الصين آخذة فى التيقظ فهى اليوم ملقية عنها ربقات الجمود وأثقال الماضى ومقتبسة الوسائل العصرية فى المدنيـة والصناعة ونظام الحكومة وقد أصبحت جمهورية ترحب بالآراء الغربية وبالمخترعات الحديثة والمدنية العصرية ؛ على أنا لا ندرى أتستطيع أن تنشىء قوة عسكرية وبحرية شديدة البأس أسوة باليابان جارتها ؟ ولكن مما لا ريب فيه أن الشرق يوشك أن يمثل دورا مهما إن لم يكن دور تفوق وسلطان فى تاريخ العالم . واليوم اتخذت اليابان لنفسها مبدأ شبيها بمبدأ منرو ليعينها على أن تجنى لنفسها كل الفائدة المتأتيـة من نهوض الشرق تجاريا وسياسيا ، وقد تتخذ لنفسها الزعامة فى السياسة الشرقية تبعا لذلك . ولكن مهما تكن نتيجة هذا الجدل فانه يجب أن يحسب لجنس الأصفر حسابه فى المستقبل فى تكييف السياسات العالمية .

يقول لنا كثيرون من المشتغلين بالشؤون الشرقية إن الصين هى الزعيمة المنتظرة للشرق وإنها فى نهاية الأمر ستمتص اليابان أو تسيطر عليها وذلك بسبب عظم حجمها وثروة مواردها الطبيعية والصناعة الحيوية الطبيعية التى فى أهلها بيد أن الخبر فى ذلك عند الزمن .

والروسيا ، بما لهـا من الموارد التى لا تحد والفرص التى لا تنقطع ولا سيا سيبريا ، بلاد ذات مستقبل يتخطى كل حدس. فلقد ألقت الأغلال التى أقعدتها بها حكومة رجعية. ثم إنها استبدلت بها فيا يلوح لنا أغلال حكم أشد تقييدا هو حكم البلشفية ولكن لا بد لروسيا بعد أن تؤسس حكومة ديموقراطية قوية على أنقاض هذه الفوضى الحاضرة، أن تصلح حالها وتتقدم، يومئذ تستحث الشعب على النهوض بدلا من إخضاعه وهو جاهل وتنشأ على أثر ذلك مدنية أرقى . ثم لا بد من أن تمر على روسيـا سنوات كثيرة قبل أن تتبوأ مكانا فى الزعامة العقلية ولكن الزعامة السياسية ميسورة لها قبل ذلك بمدى طويل .

حقا إن الحرب العالمية الحديثة ، على ما انطوت عليه من الفظائع والرزايا لم تؤذن بموت المدنية الأوربية ولكنها أخرت أوربا عن التقدم عشرات من السنين . بيد أن الدلائل الحاضرة تنبىء أن سينكشف الأمر عن بناء أعظم وأروع من ذلك الذى تهدم .

ونحن الأمريكيين لا نطيق أن نتصور أنه قد يأتى علينـا وقت، كما أتى على الإغريق والرومان ، نكون فيه نسيا منسيا . يرى البعض أننا آخذون فى سبيل الدمار سراعا . على أننا فى الواقع لا نزال صاعدين فى مراقى التقدم والرقى . ولكننا قد نسقط بسبب فرط الرفاهية ولا سيما بعد ما جلبتـه لنا الحرب العالمية من الثروة والسـلطة العالمية . قد نسلم زعامتنا إلى آسيا على مضى الزمن — لا لتبق هذه الزعامة فى يدها على الدوام ، بل لعلها لا تبق الا إلى مدة ثم تردها آسيا إلى أوربا وبهذه الطريقة قد تسير المدنية ، حول الأرض ، وتعود كرة أخرى إلى أمريكا . على أنا لا ندلى بهذا القول تكهنا بل ارتياء محتملا لاستمرار حركة سير المدنية

قريبا وهو المنحنى الذى جرت عليــه فى المــاضى . ولا يعد الموضوع فى نظر بحاث السياسة العالمية من الأمور الممكنة بل من المحتملة،ولكن المستقبل زاخر بالكثير من الأمور وهو لكثرة ما يحيط به من الشكوك لا يسمح بالإدلاء برأى مقطوع به .

وجملة القول أنه كلما نهضت أمم وأقطار وتقدمت فى سبيل المدنية تفتحت فيها أبواب فرص جديدة فهاجر اليها الإنسان . هذه الفرص قد تكون دينية أو سياسية أو اقتصادية أو طبيعية أو فنية اسطيقية (Esthetic) ولكنها ستجتذب اليها أناسا من أقطار ليس بهـا إلا قليل من مزايا التقدم. وعليه فالإنسان دائم الهجرة والمجتمع لا ينقطع عن الحركة . وسنرى فى الفصل التالى كيف كان تأثير هجرة الإنسان فى بلادنا الأمريكية .

الفصل السادس

الهجرة

الهجرة الأمريكية جزء من حركة الاجناس

ليست مشكلة الهجرة فى شكلها الذى يعرض على أهل الولايات المتحدة إلا صورة ممثلة لحركة الأجناس التى سبق لنا بحثها . ولعلها تبدو للعين فى بيان أوضح وأجلى من نظائرها بسبب سرعة حدوثها ونموها . نحن جميعا مهاجرون أو أولاد مهاجرين ، بيد أن الزمن الذى الذى وصلنا فيه مختلف . وسواء أجاء أسلافنا قبل سنة ١٧٠٠ وساعدوا فى تكوين المستعمرات وحاربوا الهنود ، واشتركوا فى حرب الاستقلال أم جاءوا فى الوفدة الارلندية فى الأربعينيات من القرن الثامن عشر حاملين كل ثروتهم مصرورة فى مناديلهم الكثيرة الألوان — أم أننا نحن أنفسنا قد نزلنا فى جزيرة إليس ايلاند (Ellis Island) فالأمر لا يعدو بنا فى مداه غير بضعة أجيال .

على أن مشكلة الهجرة فى أمريكا كانت ذات وجه يختلف كثيرا عما حصل فى غيرها . فقد كانت حركة الناس فى العهود الغابرة نزوح قبيلة برمتها أو جزء عظيم منها إلى صقع بعينه أو اتجاه معين . أما أمريكا فتفردت فى أنها كانت بمثابة مغناطيس اجتذب بنى الإنسان من جميع الجهات ومن جميع البلاد : من جبال النرويج الوعرة ، ومن منحدرات إيطاليا المشمسة ، ومن سهول الروسيا ، وضفاف نهر الطونه ، ومن أقاليم انجلترا وألمانيا . ولقد اجتذبت الشرق كما اجتذبت الغرب . بيد أن الهجرة الأمريكية كانت منسجمة مع غيرها من الهجرات الأخرى فى أنها كانت حركة انتقال صوب الغرب . كانت أمريكا بوتقة الذوبان ، ألقيت فيها مختلف ثقافات الدنيا ومدنياتها بلا تفريق ولا تمييز . وقد اختلطت هذه بعضها ببعض بتأثير المصالح والمهام المختلفة العاملة فى بلادنا ، وما هو إلا زمن يمضى حتى تبرد الكتلة المنصهرة لنرى كيف يكون مقلبها . بل لعل الأمر موقوف أيضا على الزمن حتى نعود فنفرغ ما يزيد من سكاننا فى أصقاع أقل احتشادا بالسكان . فاذا كان الأمر كذلك أصبحت المسألة أشد خطورة لأنه لا يهاجر إلا الجسور العزوم والقوى الجرىء فنعترض على النزوح إذ ذاك اعتراضا أشد من اعتراضنا على هجرة الناس إلينا .

أسباب الهجرة

تكاد أسبابُ الهجرة إلى الولايات المتحدة تكون هى عين الأسباب السالفة الذكر التى استحثت على الهجرة إلى غيرها من أصقاع الدنيا . فلقد كانت الدواعى الأولى دينية سياسية واقتصادية معا . وتضاف إلى هذه دواع أخرى أقل شأنا مثل الرغبة فى ارتياد المجاهل أو الفرار من التجنيد أو الإفلات من العقوبة على الجريمة. فالمستوطنون الأول فى نيوانجلاند جاءوا فى الغالب فرارا من الاضطهاد الدينى ورغبــة فى أن يكونوا أحرارا فى عبادة الله وفاقا لمـا استقرت عليــه ضمائرهم . وكذلك كان الأمر فيمن نزلوا فى بنسلفانيا وماريلاند . وقد استعمرت فرجينيا ونيويورك وديلاوير بانجلترا وهولاندا والسويد على الترتيب فى محاولة كل منها أن تقيم لنفسها دعامة تفوق سياسى .

ونزل كثير من المهاجرين بهــذه البلاد فرارا من الاضطهادين السياسى والدينى . ويصدق هذا على وجه التخصيص على المهاجر الألمــانى الأول . أما أقاليم كارولينــا وجورجيا فقد استعمرها فى الغالب مسجونون بعثت بهــم انجلترا توخيا لغرضين : الأول الخلاص من طبقة مجرمة من أهليها ، والثانى أن تقيم بالصقع الذى هم فيه فاصلا بين فرجينيا وفلوريدا الاسبانية . وقد جرت البلاد الأوروبية زمنا طويلا حتى بعد الثورة على إرسال مجرميها إلى هذه البلاد . ولقد كان هذا الأمر من المسائل التى شغلت أمتنا فى أوائل العهد من تاريخها .

ولكن الدواعى الرئيسية للهاجرة فى السنوات الحديثة كانت اقتصادية وهى الرغبة فى الحصول على ثروة أكبر ، والمقدرة على اكتساب أجور أعلى واقتناص فرصة ينال فيها المرء جزاء لجهده أتم وأوفى . ولقد استحث هــذه الحركة ما كانت تقوم به مركات المراكب البخارية من الإعلان والترويج لمـا نالها من مهاجرة الناس من المكسب الوافر .

وقد أتى مهاجرونا الحــديثون من بلاد أقل يسرا ورخاء من بلادنا — بلاد اعتادوا قلة الأجور فيها وفداحة الضرائب ، وشدة العيش إجمالا . سمعوا بالأجور العالية التى يحصل عليها عادة فى امريكا فانجذبوا اليها بطبيعتهم . ويصدق هــذا على الأخص على مهاجرى الطليان والإغريق والصقالبة . وأول من أسس الولايات المتحدة هم الانجليز والاسكتلانديون والغاليون يشاركهم فى ذلك كثير من قوميات أخرى أغلبها بقايا مواليد المستعمرات التى استحدثتها أمم أخرى حاولت أن تستوطن أمريكا الشماليــة . كان المهاجرون الأولون فى أكثرهم من دم القوم الذين عملوا على تأسيس الأمة والذين رحب بهم فى ديارنا بطبيعة الحال قصــد تكثير سكاننا القليلى العدد ورغبة فى صيانتها من غزوات الأجانب ، وحبا فى أن تؤخذ من القبائل الحمر ومن وحوش الفلاة تلك المجاهل العظيمة الواقعة غربى جبــال اليغانى (Alleghanies)

ولكن كان عدد هؤلاء النازحين قليلا حتى سنة ١٨٤٠ بل الواقع أنه لم يزد على مائة الف نفس حتى سنة ١٨٤٢ وفى تلك السنة طفرت الهجرة طفرة سببتها مجاعة البطاطس فى إرلنده وثورة غير موفقة حدثت فى المانيا . منذ ذلك الحين جرت الهجرة الى شواطئنا بجرى الأمواج . وكان من هذه الأمواج طوائف تتألف أفرادها من قوميات قائمة بذاتها فتكون كتلة المهاجرين من أمة ، وتكون غدا من أمة أخرى .

الارلنديون

كان الارلنديون أول من استوجب كراهية من سبقتهم من المهاجرين . وكان هذا الشعور نتيجة الأحوال الآتية :

إنهم اضطروا الى الخروج من بلادهم بسبب خيبة محصول البطاطس ، والبطاطس هو المحصول الذى كانت ارلنده تعتمد عليه زمنا طويلا ولذلك لم يحضر الإرلنديون معهم إلا ثروة قليلة ، بل الواقع أن الغالبية منهم كانت تحمل كل ما تملك مصرورا فى مناديلها الملونة وكانت الملابس التى يرتدونها بالغة النهاية فى الخشونة . وكانت أخلاقهم فظة وكانوا يتكلمون بلهجة جعلت محادثتهم مستحيلة . كانت ارلنده ترزح تحت عبء نظام مرهق من الضرائب يتطلب من الفلاح أن يدفع ضريبة لكل ما يمكن أن يعد من الثروة . فاذا تملك الارلندى ماشية وضعت عليها ضريبة ومن هنا نشأت عندهم عادة تخبئة الخنزير فى غرف الاستقبال ليضللوا جباة الضرائب . وإذا أصلح الارلندى ملكه أو لبس لباسا لائقا اتخذ ذلك دليلا على أنه ميسر الحال غنى وفرضت عليه الضرائب تبعا لذلك . ومن ثم نشأت فى الفلاح عادة إخفاء ثروته والظهور بمظهر البائس المرزوء ما أمكنه ذلك . وقد نقل المهاجر الارلندى هذه العادة معه بطبيعة الحال .

وفى ذلك الوقت تقريبا أخذت إجارات مائة السنة التى كانت ممنوحة للاسكوتلانديين الذين نزلوا بشمالى ارلنده ينفذ مداها . ومع أن أولئك المستأجرين كانوا يعدون إجارتهم أبدية فقد أجلوا عن ديارهم ولم يكن أمامهم من ملجأ إلا أمريكا إذ هيأت لهم موطنا جديدا يطمئنون فيه على مستقبلهم . وكانت أراضى أمريكا مباحة أو رخيصة جدا وكانت الحاجة فيها الى العمال شديدة . ولهذا هاجر هؤلاء الاسكوتلانديون زرافات كبيرة من إرلندا إلى أمريكا حيث كانوا يعرفون بالاسكوتلانديين الإرلنديين .

نزلت غالبية أولئك الارلنديين الخشنى المظهر والمخبر الى ماساتشوسيت فكان هـذا سببا فى ظهور وجه الاختلاف بصورة واضحة جدا ، إذ كانت بوسـتون وكامبردج تفخران بثقافة أهلهما وتربيتهم . وإذ كان الارلندى فى أول أمره خالى الوفاض فقد كان يسعده أن يحصل على أى نوع من العمل ليقتات منه ولم يكن فى حالة تسمح له أن يساوم فى الأجور، بل كان يأخذ ما كان يستطيع أن يحصل عليه . ولكنه لم يلبث طويلا حتى اكتسح النيوانجلندى وهو ابن الوطن، من المعامل والمصانع . ورأى أصحاب المصانع أن هذا المهاجر الخشن ممتاز فى سرعة إدراكه وأنه سريع الاندماج فى تيار الأحوال الجارية، ولذلك يستطيع أن يحل محل ابن الوطن المرتفع الأجر . وكان الإرلندى شديد الرغبة فى العمل سريعا فى الفهم، ولذلك لم تمض سنوات قليـلة حتى كانت له الغالبية فى المصانع . ولكنه عند ما أصبح عليا بأحوالنـا طلب أجورا عالية أسوة بابن البلد وسرعان ما جرى على عاداتنا وتقاليدنا وكانت نتيجة ذلك أن اندمج المهاجرون الايرلنديون فينا بسرعة بالغة .

على أن الارلنديين لم يكتفوا بالاندماج السريع وحده ، بل أوغلوا حتى أخذوا يسيطرون فكان منهم مشرفون على العمال ومقدمون . وقد أبدوا فى هذه الوظائف كفاية عظيمة . ثم نزلوا بحار السياسة ، واليوم هم زعماؤنا السياسيون . وقد تحكموا فى بوستون سـنوات عدة ، حتى ليستحيل أن ينتخب اليوم لها عمدة ما لم تكن أصـوات الايرلنديين معه . وكذلك تحكم الايرلنديون فى تامانى (Tammany) بولاية نيو يورك، بل الواقع أنهم فى جميع مدننا الكبرى التى يوجد فيها ارلنديون قـد أصبحوا عاملا سياسيا قويا . ولقد كان الايرلنديون فى بعض الأيام عنصرا خطرا فى البلاد ، ولكنهم مع ذلك أفادوا سياسة البلاد إفادة تذكر .

أفرغت إيرلندا نصف سكانها فى الولايات المتحدة منذ سنة ١٨٢٠ إذ جاء منهم أربعة ملايين حين جاء ثلاثة ملايين وثلثمائة ألف من بريطانيا العظمى . وكان داعى هـذا النزوح اقتصاديا . وكان نزوحهم للبقاء والاستقرار إذ لم يرجع منهم إلى بلادهم إلا القليـل . وكانوا يعدون أمريكا عند وصـولهم وطنهم المستقبل . وإذا حدث أن جاء الرجال وحدهم فانهم كانوا يبعثون فى طلب أسرهم أو خطيباتهم لمشاركتهم فى حياتهم الجديدة . أما فى السـنوات الحديثة فقد انقطع الايرلنـديون عن الورود إذ اختفت دواعى النزوح ، وأخذت إيرلنـدا تخطو فى سبيل اليسر والرخاء بتغير سياسة الحكم الانجليزى فيها، بل إن إيرلندا ترتقب مستقبلا أكثر رغدا من مستقبل انجلترا . إذ لابد لانجلترا أن تعتمد على إيرلندا إلى حد كبير فى الحصول على مـواد الطعام ، ولذلك لا ننتظر أن يصل الينا كثير من الإيرلنديين بل الواقع أن هجرة الإيرلنديين على نطاق واسع قد أصبحت اليوم أمرا من أمور المـاضى . نعم إن الإيرلنـدى قد حمل معـه إلى أمريكا بعض الخلال المكروهة ، ولكنه قد حمل معـه أيضا الظرف ، والبشاشـة والقدرة على الاختلاط وسرعة الملاحظـة والقدرة على التنظيم . ولقد كان عنصرا متينا فى سكان بلادنا وكان له فضل كبير فى يسر بلادنا ورخائنا .

الألمـان

تختلف الدواعى التى ألجأت الألمـانى الى هجر دياره والتمـاس غيرها عن الدواعى التى أثارت الايرلندى . كان الألمـانى يلتمس الحرية ، يبتغى مفزعا يلتجئ اليه من الاضطهادين السياسى والدينى : ذلك أن ألمـانيا كانت ممزقة بتأثير علة حروب مدمرة ، ولا سيما حرب الثلاثين السنة . ولم يقتصر أمرها على أنها غزيت بجيوش فرنسا تحت إمرة نابليون ، بل تعداه الى أنها اضمحلت بتأثير الشقاق الداخلى . ولقد كانت ألمـانيا يومئذ مكونة من إمارات مستقلة أو شبه مستقلة بعضها يغـار من بعض ، فكانت فى شجار دائم . وكانت كل إمارة تفرض ضرائبها الخاصة ، فأدى ذلك الى الارتباك ودوام التنازع . وقد كان بين الكاثوليك والبروتستانت شقاق ونزاع ، وكانت كل حرب يعقبها اضطهاد قاس وفرض ضرائب عاسفة .

كل هذه الأمور وما صاحبهـا من عسف أعوان الظلم كانت تجعل الحيـاة عبئا لا يطاق . فلا عجب أنه لمـا جاءت الأخبار بمـا فى أمريكا من الحرية والرخاء التمست ألوف النـاس الخلاص من العسـف فى بلادها بالهجرة منهـا . وقد اجتاحت الجيوش الغـازية بلاد ألمـانيا يومئذ اجتياحا عظيما ، وأصبح كثير من الأصقاع بسبب ذلك ولا سيما التى على نهر الرين ، أشبه شىء بالصحارى . فلو لم يكن هنـاك عسف ولا قسوة لكان من الصعب من الوجهـة الاقتصادية أن تعود الحياة إلى مجاريها . ولقد أصبحت الهجرة من العظم بحيث ارتاعت لهـا الحكومة الألمـانية فعملت على منعها بمـا عن لها من الإجراءات فأصـدرت قوانين جعلت أمر الهجرة أصعب سبيلا ، ولكن كانت تلك الإجراءات عبثا ، فقـد كان الألمـانيون يرحلون الى أمريكا حتى ولو كانت أيديهم صفرا ، بل لقد أجر بعضهم نفسه للخدمة مدة ثلاث سنين الى سبع لسد أجرة السفر . ولقد أدى هذا الانكباب على الهجرة الى معايب عدة ، فكثيرا ما كانوا يتركون متاعهم على المرافئ فى بريمن أو هامبورج وكانت السفن مزدحمة جدا بالراحلين فنشأت بينهم العلل والأمراض والآلام حتى لقد مات كثير منهم فى طريقهم الى أمريكا . على أن الألمـان لم يلقوا أسوأ مما لقى غيرهم ممن جاءوا الى أمريكا فى ذلك الوقت ولكن حدث أنهم سقطوا فى الزحام فلم تته متاعبهم عند الوصول بل تناولهم النصابون المبتزون عقب وصولهم مباشرة واذ كان الألمـان يجهلون عاداتنا ولغتنا فقد وقعوا تحت رحمة كل من أراد خديعتهم . وكثيرا ما كانت السكك الحديدية تترك متاعهـم فى نيويورك أو غيرها من محطات الوصول . وبلغت المساوئ من العظم درجة رأت حكومة الولايات المتحدة عندها ضرورة العمل لإقصاء أشد الأضرار فأبطلت فى سـنة ١٨٢٠ مسألة بيع خدمة الشخص قصد الحصول على أجرة السفر وعالجت مساوئ أخرى بعد ذلك مثل ازدحام السفن بالراحلين وقلة صلاحيتها للمسافرين .

على أن هذه الهجرة مع ما لابسها من تلك الأحوال لم تكن كلها سواء، فقد ساعدت على عمارة حدودنا بطريقة أسرع بكثير مما كان يتصور. ويصدق هذا بوجه التخصيص على المواطن الألمانى فى بنسلفانيا الغربية الذى يعزى اليه عنصر السكان الذين يعرفون باسم "دوتش بنسلفانيا" (Pensilvanian Dutch) وقد استمرت الهجرة مطردة متزايدة إلا فى غضون فترة الحرب الأهلية الى أيام الذعر الذى حدث فى سنة ١٨٧٣ وبعد ذلك التاريخ اتجهت الهجرة الى حد كبير الى غيرنا من الأقطار ولا سيما أمريكا الجنوبية، وذلك بجهد متواصل من الحكومة الألمانية لكى تربط بهم أسباب التجارة ولأن الحكومة خشيت أن يفلت أمر المهاجرين من يدها اذا هم أتوا الى الولايات المتحدة ولذلك لم يأت الينا فى السنوات الحديثة إلا قليل من الألمان .

واندفع معظم الألمان الى الريف، على حين اندفع الأرلنديون الى المدن ولم يقفوا ليملأوا مزارع الولايات الشرقية بعد يدهم، بل أوغلوا الى الحدود فذهبوا فى أول الأمر الى بنسلفانيا الغربية ثم الى ويسكونسين Wisconsin ومنيسوتا Minnesotea وغيرهما من الولايات الغربية ولا سيما الى ويسكونسين التى كانت مفتحة الأبواب للمهاجرين بعد حرب البلاك هوك B'ack Hawk فى سنة ١٨٣٣ ولذلك كان ٧٠٩,٩٦٩ من عدد السكان فى ويسكونسين الذين بلغوا ٢,٠٦٩,٠٤٢ فى تعداد سنة ١٩٠٠ من أصل ألمانى[1] ولقد كانت ويسكونسين مغرية لهم بوجه خاص بسبب رخص أرضها إذ كان ثمن الفدان الصالح للزراعة فيها ريالا وربعا . والمناخ فيها طيبا، وكانت الضرائب فيها منخفضة إذ لم يكن عليها دين ثقيل . وكان يكفى أن يمكث بها النازح عاما واحدا ليكتسب حق التصويت . وفضلا عن هذا كانت ويسكونسين فى حاجة الى مستعمرين ولذلك شجعت الناس على الهجرة اليها ولا سيما الألمان حتى إنها كانت تعلن بطلبهم وأقامت وكالة لها مدة من الزمن فى نيو يورك للعمل على توجيههم الى ويسكونسين . وعرضت منيسوتا من المزايا ما عرضت السابقة ونالت قسطا كبيرا من هجرة الألمان اليها .

ولم يكن الألمان سراعا الى الاندماج كالإرلنديين بل كانوا أعصى منهم فى النزول عن عاداتهم وتقاليدهم ولا سيما لغتهم . وكان هذا أبين ما يكون عند ما كانوا ينزلون عصبا وهى طريقة مميزة للألمان . كانوا يحبون عاداتهم القديمة وينفرون من النزول عنها. على أنهم كانوا يصبحون من أقوم الوطنيين يوم يندمجون فينا لأنهم حينما كانوا يتخذون عاداتنا كانوا يختارون

---

(١) ودل تعداد سنة ١٩٢٠ فى ويسكونسين على أن منهم ١٥١٠٠٠ مولودين فى ألمانيا .

أحسنها . ولقد جلب الألمان معهم مشاكل إضافية لمدنيتنا أهمها فيما نرجح شرب الجعة فقد بنوا مصانعها وإليهم يعزى معظم السبب فى عظم زيادة استهلاك الجعة فى الولايات المتحدة. وكان الألمان من الوجهة الاقتصادية أولى إدخار ويسر وكانوا أولى جد وعمل ولعلهم يعدون من الوجهة الاقتصادية أعظم مهاجرينا نجاحا . ولقد ساعدت قلة الأمية بينهم يوم نزلوا وضخامة أبدانهم على أن يصيروا عنصرا ذا شأن بين سكان بلادنا . وفى الحرب الأهلية تطوعوا فى جيش الاتحاد جموعا عظيمة وإن لم يكن قد مضى عليهم يومئذ فى البلاد إلا وقت قصير . على أنه وإن كان الألمان فيما مضى كونوا فى سكاننا عنصرا قويا فان الدور الذى سيقوم به المهاجرون الألمان فى المستقبل مسألة فيها نظر .

عند ما أخذت الولايات المتحدة تقوم بدور مهم فى الحرب العالمية وذلك بإمداد الحلفاء بالذخيرة والمؤن صارت هذه البلاد ميدانا لأعمال الجاسوسية الألمانية ، فان العنصر الألمانى من سكاننا لم يقتصر على إخفاء الجواسيس الذين كانت ترسلهم الينا ألمانيا بل كان عاملا كذلك على تجنيد فريق من الجواسيس والموالين ، على أنه إن كان كثيرون ممن هم من أصل ألمانى قد ناصروا هذه الحركة فان غالبية العنصر التيوتونى من سكاننا كانت على ولاء لهذه البلاد . ولا تزال الوصمة التى أحدثها ذلك العنصر غير الموالى باقية على كل حال. ولعلنا سنعتبر العنصر الألمانى الى أمد من السنين غير مرغوب فيه وهو رأى يخالف ما كان عليه الناس قبل الحرب مخالفة تامة .

الفرنسيون

لم يصلنا من فرنسا إلا عدد قليل بالنسبة الى غيرهم من المهاجرين ، ولا سيما فى السنوات الأخيرة . أما فى السنوات الأولى من تاريخنا فقد ورد الينا قليل هربا من الاضطهاد الدينى ؛ ولكن من حين أن أصبحت الولايات المتحدة ملجأ للضطهدين تحسنت حال فرنسا من الوجهتين الدينية والسياسية إذ منح عهد نابليون والثورة الفرنسية بلاد فرنسا الحرية فلم يبق لدى الفرنسى سبب خاص يدعو الى ترك بلاده . كانت فرنسا غنية اقتصاديا سنوات عدة والفرنسيون الذين جاءونا إنما وردوا من طريق كندا وهؤلاء سنبحث أمرهم فيما بعد . أما الذين جاءوا الينا من فرنسا مباشرة فقد كانوا عمالا أولى مهارة ممتازة من طهاة أو نذل مدربين أو أعضاء من طبقة الفنيين ولا سيما المعلمون والمغنون . واليوم إذ انتهت الحرب العالمية فسيتوقف الحكم على مقدار ما يرد علينا من المهاجرين على مقدار ما تصيبه فرنسا من

النجاح فى النقه من آثار الحروب وعلى ما تستطيعه من إقامة بناء صناعاتها التى تهدمت واستعادة تجارتها الخارجية وهل يقدر الأهالى أن يحملوا عبء الضرائب ناشطين . على أن جميع الاحتمالات تنبىء بأنه لن يصلنا من فرنسا إلا عدد قليل من المهاجرين فى المستقبل لأنها لا تملك مزيداً من السكان فان نسبة المواليد فى هبوط والمنظور أنهـا ستهيىء عملا لجميع سكانها فى الوطن مدة طويلة من الزمن .

الاسكندناويون

تحت هذه التسمية يندرج المهاجرون الينا من بلاد السويد والنرويج وكذا الدانيمارك ، إذ أن الدانيماركيين متناسلون من تلك الأرومة . بدأت هذه الهجرة فى سنة ١٨٢٠ وبلغ مجموع الذين جاءوا من سنة ١٨٢٢ الى سنة ١٩٠٣ من هذه الأقطار مجتمعة ١,٦٠٩,٩٢٢ وبلغت فى سـنة ١٨٨٢ ، ١٠٥,٣٢٦ أى ١٣,٣ ./٠ ولكنها نزلت فى سـنة ١٩٠٧ الى ٤٠,٩٦٥ أى ٣,٩ ./٠ واستمرت فى النزول منذ ذلك الحين وفى سنة ١٩٠٣ لم يفقها فى عدد المهاجرين إلا ثلاثة أقطار : المـانيا وارلندا وانجلترا . ولكن منذ ذلك الحين فاقتها النمسا والمجر وايطاليا والروسيا . ولقـد كانت الهجرة الاسكندناوية فى أول الأمر عنصر زيادة مهمة فى عدد سكاننا ، أما اليوم فقد أصبحت عنصرا صغيرا فى تيار المهاجرة . ولقد كان بين المهاجرين الاسكندناويين كثير من البحارة والنجارين والنقاشين وصناع الأحذية ولكن غالبيتهـم كانوا خدما وعمال مياومة . وقد اعتادوا الذهاب الى مينسوتا ونيويورك وويسكونسين وداكوتا الشمالية والجنوبية وايلنواز (Illinois) ومتشيجان ، حيث ساعدوا على عمـارة أصقاع جديدة من القطر ولا سيـما مينسوتا وولايتى داكوتا . وكان نصف الواردين تقريبـا إناثا حضرن صحبة أهلهن أو أصدقائهن أو للخدمة فى المنـازل . وكان متوسط ما أحضره الاسكندناوى معه خمسة وعشرين ريالا . وكانت نسبة الامية فيهـم صغيرة جدا إذا كانت ٠,٧ ./٠ أى معدومة تقريبا وهم على ما فيهـم من تبرم وعبوسة قوم ثابتو العـزم مجتهدون وبفضل عقليتهم وتربيتهم تراهم يتعلمون الانجليزية بسرعة ويندمجون بسهولة . وقد اهتموا بالسياسة اهتماما عظيما منحازين فى العادة الى جانب حكومة جيدة . هذا ، وكانت داكوتا الشمالية من أوائل الولايات التى حرمت شرب الخمر ، ولويسكونسين تشريع صناعى راق جداً ، وهم لم يقتصروا على إرسال أولادهم الى المدارس بل تجاوزه الى تقرير التعليم الثانوى لهم . وإن فى نمو جامعة مينسوتا دليلا على هذا . والاسكندناويون ، اذا استثنينا المخالفات الصغيرة ، معرأون من الجـريمة والتسول . ويعد السويديون فى الجملة أرقى من النرويجيين واليوم لا يأتى إلا قليل من أهل الدانيمارك وذلك بسبب ازدياد الرفاهية الاقتصادية فى بلادهم فى السنوات المـاضية القليلة بادخال نظام التعاون الزراعى فى بلادهم ولا سيما فيما يختص ببيع المحصول فى الأسواق . واليوم أخذت السويد تنتقل من حالة الزراعة الى الصنـاعة ولذا أصبح العمال فيها

قليلين والأجور عالية . وزادت تجارتها البحرية زيادة باهرة بسبب موقعها الطبيعى الحربى. وقد تضافرت هذه العوامل على إبقاء السويديين فى بلادهم فى السنوات القليلة الماضية فضلا عن أن حكومتهم تثبط همة الناس عن الهجرة وتعمل على تقييدها. والنرويج مقتفية أثر السويد نوعا ما فى هذا الصدد ، هذا فضلا عن أننا لا نقدم اليوم للاسكندناويين من المغريات ما كنا نقدمه بالأمس فقد تقدمت أراضينا الرخيصة . وفى البلاد تنافس بينهم وبين الايطالى والصقلى اللذين يعد مستوى معيشتهما منحطا ويقبلان أن يعملا بأجور قليلة .

ولقد كان الاسكندناوى عونا عظيما لهذه البلاد ، فانه لما كان من بلاد كانت حياته فيها فى تنازع دائم مع الطبيعة كان مدربا على المشقة فى العمل فكان ذا قوة فى الخلق كفيلة بجعله فى المقدمة . ولا ينتظر أن يرد الينا كثير من هذا الصنف مدة سنوات عدة اذ أصبحت هذه الأمم الثلاث بعد الحرب أغنى وأسعد مما كانت ، فهى اليوم غير مثقلة بديون حربية ، ولم تصب صناعاتها بما أعجزها إلا فيما يختص بحمولة سفنها التجارية التى أغرقت فى غضون الحرب ، ولم يصب التقتيل سكانها ، ولقد كانت فى مركز يسمح لها بالانتفاع من الحرب بسبب التجارة الواردة اليها ، بله الغنم الذى أصابته فى أثناء الحرب من بيع المؤن الى الأمم المتحاربة فليس ثمة ما يستحثهم على الهجرة .

تحول مصدر الهجرة من أوربا الشمالية والغربيـة الى أوربا الجنوبية والشرقية

كان أكبر تغير أصاب الهجرة — وهو الأمر الذى يؤسف له — هو تغير جنسية المهاجرين الينا . واليوم لا نتلقى الا قليلا من ايرلندا وانجلترا والأقطار الاسكندناوية . فقد جاء بدلهم مهاجرون من إيطاليا والنمسا والمجر والروسيا واليونان وتركيا والولايات البلقانية. والصنفان الايطالى والصقلى هما الراجحان . والخطر متأت من الاختلافات حتى فى التقاليد والعادات والتربية ومستويات المعيشة . ولقد كان هذا التغير وأثره فى حياتنا الاجتماعية — سيما فيما استولى علينا فى السنوات الأخيرة من التخوف من أمر الهجرة واعتبارها من المشاكل الخطيرة . فلقد كان المهاجر الوارد من شمالى أوربا معتادا نوعا من المدنيـة ، وحالة من المعيشة لا يختلفان فى جوهرهما عما نحن عليه . كان متعلما، أو على الأقل كانت نسبة الأمية فى بنى قومه قليلة جدا، أما ابن ايطاليا والنمسا والمجر ، فهو — بما مضى من أجيال تحت أثقال العسف والضيق الاقتصادى — غير متعلم ، وتراه معتادا آراء فى الحياة تخالف آراءنا . ويتبين هـذا التغير فى موارد الهجرة الى الولايات المتحدة من الفحص عن إحصائيات سنتى ١٨٨٢ و ١٩٠٧ حين كانت الهجرة فى درجتها العليا[٢] .

(٢) نقلا عن كتاب الوود الموسوم Sociology and Modern Social Problems. طبعة ١٩١٣ صفحتى ٢٠٣ و ٢٠٤

القطـــر	مهاجرون	النسبة المئوية للهجرة
سنة ١٨٨٢		
بريطانيا العظمى وإرلندا	١٧٩٫٤٣٢	٢٣٫٨ ٪
ألمانيا	٢٥٠٫٦٣٠	٣١٫٧ ٪
اسكندناوه	١٠٥٫٣٢٦	١٣٫٣ ٪
الأراضي الواطئة وفرنسا وسويسرا	٢٧٫٧٩٥	٣٫٥ ٪
المجموع لأوربا الشمالية والغربية		٧١٫٣ ٪
إيطاليا...	٣٢٫١٥٩	٤٫١ ٪
النمسا والمجر	٢٩٫١٥٠	٣٫٧ ٪
الروسيا والبلقان الخ	٢٢٫٠١٠	٢٫٧ ٪
المجموع لأوربا الجنوبية والشرقية		١٠٫٥ ٪
جميع الأقطار الأخرى	١٤٢٫٤٩٩	١٨٫٢ ٪
المجموع الكلي	٧٨٨٫٩٩٢	١٠٠
سنة ١٩٠٧		
بريطانيا العظمى وإرلندا	١١٣٫٥٦٧	٨٫٨ ٪
أسكندناوه	٤٩٫٩٦٥	٣٫٩ ٪
ألمانيا	٣٧٫٨٠٧	٢٫٩ ٪
الأراضي الواطئة وفرنسا وسويسرا	٢٦٫٥١٢	٢٫١ ٪
المجموع لأوربا الشمالية والغربية		١٧٫٧ ٪
النمسا والمجر	٣٣٨٫٤٥٢	٢٦٫٣ ٪
إيطاليا	٢٨٥٫٧٣١	٢٢٫٢ ٪
الروسيا...	٢٥٨٫٩٤٣	٢٠٫١ ٪
اليونان والصرب ورومانيا الخ	٨٨٫٤٨٢	٦٫٩ ٪
المجموع لأوربا الجنوبية والشرقية... ...		٧٥٫٥ ٪
جميع الأقطار الأخرى	٨٥٫٨٩٠	٦٫٨ ٪
المجموع الكلي	١٫٢٨٥٫٣٤٩	١٠٠

وإذا فحصنا عن إحصائيات الهجرة للسنة المنتهية فى يوم ٣٠ من يونيه سنة ١٩١٤ أى قبل نشوب الحرب العالمية مباشرة نجد أن الأرقام تكافئ أرقام سنة ١٩٠٧ وإليك البيان :

القطر	الهجرة سنة ١٩١٤ عدد المهاجرين	النسبة المئوية للمجموع
بريطانيا العظمى وإيرلندا	٧٣و٤١٧	٦و٠ ٪
اسكندناوة	٢٩و٣٩١	٢و٤ ٪
ألمانيا	٣٥و٧٣٤	٢و٩ ٪
الأراضى الواطئة وفرنسا وسويسرا الخ	٢٥و٥٩١	٢و٠ ٪
المجموع لأوربا الغربية والشمالية		١٣و٣ ٪
النمسا والمجر	٢٧٨و١٥٢	٢٢و٨ ٪
إيطاليا	٢٨٣و٧٣٦	٢٣و٣ ٪
اليونان والصرب ورومانيا الخ	٢٥٥و٦٦٠	٢٠و٩ ٪
الروسيا	٥٧و٢٥٢	٤و٧ ٪
المجموع لأوربا الجنوبية والشرقية		٧١و٧ ٪
آسيا	٣٤و٢٧٣	٢و٨ ٪
جميع الأقطار الأخرى	١٤٥و٢٧٢	١١و٩ ٪
المجموع الكلى	١و٢١٨و٤٨٠	١٠٠ ٪

سبق لنا أن بحثنا فى أمر الأقطار التى تلقينا منها فيما سبق القسط الأكبر من المهاجرين إلينا ، ورأينا أنه لا يتنظر أن يعود تيار ذلك الصنف إلى مجراه لأن بلادنا لم تعد تعرض من المغريات ما يكفى لاجتذابهم إلينا . والآن لنكشف عن السر فى أننا نجذب أهل إيطاليا والنمسا والمجر والروسيا وأمثالها من الأقطار . ولكى نستطيع ذلك يجب علينا أن ندرس الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى تلك الأقطار . وسترينا هذه البحوث كيف أن هؤلاء المهاجرين لم ترغب البلاد فيهم أو لم ترد نزوحهم إليها .

الايطاليون

إذا درسنا مسألة الإيطاليين كان من الواجب علينا أن نفرق بين أهل الشمال منهم والجنوب ، فإيطاليا الشمالية فى غالب أمرها زراعية وإن كانت التربة فيها غير خصبة إلا فى أودية الأنهار والناس فيها يجدون مشقة فى تحصيل المعاش ولكن هذه المشقة قد كونت فيهم صلابة فى الخلق وقوة تجعلهم يوم يأتون إلى الولايات المتحدة سكانا مرغوبا فيهم .

مثلهم فى ذلك مثل النرويجيين والسويديين وان اختلفت أرومتهم . أما إيطاليا الجنوبية فهى على العكس من ذلك غير مهيأة للزراعة ، فانه لما قطعت جميع أشجار غاباتها تقريبا لم يعد هناك إلا مطر قليل . والجبال فيها شديدة الانحدار ومجارى المياه قصيرة سريعة. زد على ذلك أن تربتها اكتسحها توالى الفيضان وانهيار الأرض . وفضلا عن ذلك فان البلاد نفسها غير صحيحة إذ الملاريا منتشرة فيها على وجه خاص . ومن أجل ذلك ترى السكان يسكنون قمم الجبال. وعليهم، والحالة هذه، أن يقطعوا مسافات طويلة من دورهم إلى حيث يعملون فاذا اجتمعت هذه الأسباب بعضها إلى بعض جعلت الزراعة غير مثمرة وجعلت المهاجرين من تلك البقاع لا يرتجى منهم خير .

ونظام ملكية الأرض فى إيطاليا عائق كبير فى سبيل رفاهيتها الاقتصادية. فأغلب الأرض مملوكة لدوائر كبيرة . ومنها جزء عظيم تملكه الكنيسة . وقد حاولت الحكومة أن تحدث توزيعا أعدل وأنسب وذلك ببيع بعض أراضيها أجزاء صغيرة ولكنها كانت يومئذ فى حاجة شديدة إلى المال فكانت تبيعها بشروط قاسية من شأنها إعطاء مزايا " الخصم " الكبير لمن يدفع الثمن نقدا من فوره وإذ أن الفقير لا يملك نقدا فانه لم ينتفع بمزايا " الخصم " المشار إليها كما أنها لم تأته بخير كثير . هذا، وإن قوانين الميراث فى إيطاليا تحكم فتحتم تقسيم الضيعة الموروثة إلى أجزاء صغيرة والغالب فى أمر هذه الأجزاء أن تكون من الصغر بحيث لا يتيسر الكسب من العمل فيها ولذلك تضمها الدوائر الكبيرة. وقد ترتب على هذا نقص مطرد فى عدد الملاك . هذا، وملاك الدوائر الكبيرة يؤجرونها لعملاء وهؤلاء يؤجرون الأرض قطعا صغيرة بأغلى إيجار مستطاع وهذا يضطر المستأجر أن يجهد الأرض فى سبيل الحصول على أقصى ما يستطيع إخراجه منها فتنحط التربة تبعا لذلك وتتلف المزارع . ولما كان الفلاح الإيطالى جاهلا بخير طرق التسميد والحرث وغيرهما من العمليات الزراعية العصرية فانه يستعمل عين ما كان يستعمله فى قديم الزمن من المحاريث الخشبية والفؤوس غير المتقنة ، كما أنه لا يزال يدرس غلته باليد. فمن المستحيل والحالة هذه أن يكون الناتج بنسبة كل فرد وافرا . ولما كانت قوة إنتاج العمل قليلة كانت الأجور منحطة تبعا لذلك . فلقد كان الأجير الزراعى قبل الحرب يشتغل بثلاثين سنتيا فى اليوم تقريبا أى من خمسين إلى ثمانين ريالا فى السنة ، وهذا يضطره إلى العيش فى أكواخ من القش هو وماشيته، وأولاده يكافون العمل فى سن مبكرة دون أن يكون لديهم فرصة للتعلم إلا فيما ندر . وفى جنوبى إيطاليا وصقلية يدفعون بالصبية إلى العمل فى مناجم الكبريت. وقد يبيعهم آباؤهم للعمل فيها إلى أن يبلغوا سن الرشد بثمن يتراوح بين عشرة ريالات وعشرين لكل واحد منهم على أمل من الوالد أن يستخلصهم بعد ذلك ولكنه قلما يستطيع ذلك . وهناك يجبر هؤلاء الأحداث على العمل كالأرقاء حتى يبلغوا سن الرشد . ومهمة هؤلاء الأولاد فى المناجم

أن يجلبوا الكبريت إلى سطح الأرض محمولا على ظهورهم وهم عراة الأجسام. والعادة فى تلك الجهات أن يكلف الأبناء تحصيل معاشهم عندما يبلغون سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة وفى بعض الأحيان قبل ذلك . والعامل هناك فى حالة من الفقر لا تسمح له أن يساوم فى أجره ولذلك لا يحصل على أرض يستأجرها إلا بشروط قاسية؛ فمثله فى ذلك مثل الزنجى الأمريكى إلا أنه أسوأ كثيرا . وفضلا عن ذلك فأنه يوم يخرج للعمل التماسا للأجر يضطر فى كثير من الأحوال أن يترك داره ويرحل عنها طلبا للشغل فتنحل روابط الحياة المنزلية تبعا لذلك ، وهذا أحد أسباب شناعة الأحوال الخلقية السائدة فى إيطاليا اليوم لأنه لما كان كثير من الرجال يرحلون عن القطر كان عدد النساء يرجح على عدد الرجال رجحانا كبيرا، ومن ثم تصبح المرأة رخيصة وروابط الأسرة مفككة والرذيلة ذائعة .

هذا ، وبسبب الجهل وسوء البيئة وضرورة القيام بالعمل فى سن مبكرة ترى الزواج يعقد فى إيطاليا فى سن مبكرة جدا ، وللسبب عينه ترى نسبة المواليد عالية والأسر كبيرة العدد ونسبة الوفيات كذلك عالية وعدد السكان أكثف منه فى ألمانيا أو فرنسا أو الهند أو الصين ، ولا يفوقها فيه إلا بريطانيا العظمى وبلجيكا ورود أيلاند وولاية ماساتشوسيت فى أمريكا .

كان الفلاح الإيطالى قبل الحرب ينفق ٨٥ فى المائة من دخله فى طعامه يقابله ٦٢ فى المائة ينفقها العامل الألمانى و٤١ فى المائة ينفقها الصانع الأمريكى. زد على ذلك أن نفقات القوة البرية والبحرية الإيطالية تأخذ خمسة فى المائة من إيراد الشعب وهى نسبة أعلى منها فى ألمانيا أو فرنسا . وتبلغ هذه النفقات فى الولايات المتحدة اثنين فى المائة فقط ، ويتطلب من كل فلاح إيطالى سليم البنية أن يخدم فى الجيش أو الأسطول خمس سنوات .

فلا عجب والحالة هذه أن الإيطالى عند ما سمع بارتفاع الأجور فى أمريكا رغب فى الرحيل اليها . على أن الأسباب التى كانت تستحثه على ذلك اقتصادية بحتة ولم يكن يقصد أن تكون أمريكا وطنا دائما له ، بل محلا يستطيع أن يكسب فيه مالا . على أن الإيطالى لم يأت الى أمريكا وحدها بل ذهب كذلك الى غيرها من الأقطار حيث كانت الحاجة ماسة الى عمال . وفى العهد الأخير اجتذبته أمريكا الجنوبية . وقد قام الإيطالى بأعمال وضع قضبان السكك الحديدية فى الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية واستراليا وفى سيبريا ، وحفر القنوات والمسالك والمجارى الأرضية والخنادق ووضع مجارى المسارب ومهّد الشوارع . والواقع أنه قام بجميع صنوف الأعمال التى لا تحتاج الى مهارة فنية ، ولكنه ما كان يرى أن جيوبه قد امتلأت حتى يكون على تمام الاستعداد للعودة الى وطنه وإنفاق ما حصله جميعه هناك .

على أنه إن كانت الهجرة قد سرّت عن إيطاليا فعلا بما أخذت من سكانها الزائدين عن الحاجة وبما أرسلت اليها من ملايين الريالات كل عام فانها لم تكن خير طريقة لحل مشكلتها. نعم كان المهاجرون يرسلون اليها من ٣٠ مليونا من الريالات الى ٨٠ كل عام، ولكن هـذا لم يعوضها من الخسارة فى أبنائها فقد نزح عنها اثنا عشر مليونا من أهلها جاء ثلثهم الى الولايات المتحدة وذهب ثلثهم الى أمريكا الجنوبية والثلث الباقى الى غيرها من الأقطار. بيد أن هذه الملايين كانت خير أبناء ايطاليا وأقواهم. ولقد عاد كثير منهم متهدمين أكلت منهم الأعمال المجهدة وظروف الأحوال الصحية السيئة مثل قسوة المناخ فى بلادنا. وكثيرون كانوا يعودون الى بلادهم ليموتوا فيها. ولقد روعت هذه الحالة الحكومة الإيطالية فعمدت حديثا الى اتخاذ إجراءات إدارية لعرقلة نزوح الإيطاليين من بلادهم. ولا بد لإيطاليا لحل هـذه المشكلة من تعليم أفراد شعبها حتى يستطيعوا أن يكونوا أكثر إنتاجا ويساعدوا بذلك على حل مشاكلهم الاجتماعية.

والعادة أن يتجه الإيطالى عند مجيئه الى الولايات المتحدة الى أعمال البناء حتى اذا أيسر انقلب رئاتا للأراضين أو بيـاعا لحم المليح أو أقام مجيرة لبيع الفاكهة. والإيطالى من الوجهـة الاقتصادية ذو يسار ولكنه يرسل فى العادة جزءا كبيرا من ماله الى بلاده وفى النهاية يأخذ الباقى معـه لأنه فى الغالب يعود اليهـا. أما من الوجهة الاجتماعية فالإيطالى كما سترى فيما بعد مشكلة من المشاكل، إذ انه يجلب معه مستوى منحطا من المعيشة. غير أنه كان يصعب جدا أن نبنى سككنا الحديدية بدونه أو نحفر سراديبنا الأرضية أو نمد مجارى المسارب أو نردس الشوارع. وكان الإيطالى من الوجهة الاقتصادية نعمة أصابها صاحب رأس المـال ولكنه كان منافسا للوطنى. ولا مشاحة فى أنه أنزل مستوى الأجور أو عاقها على الأقل عن الارتفاع. أما من الوجهة الاجتماعية والخلقية فقد كان أذى لنا لا عونا فقد جلب لنـا من المشاكل أمثال "اليد السوداء". وهو يسكن فى الأقسام المزدحمة من مدننا يوم لا يسكن تجاتر المبانى، ويتحمل صروف الأحوال ويعيش بأجور لا يطيقها الأمريكى، ونسبة الأمية فيه عالية جدا ولا يندمج بسهولة أو على الأقل لا يكون اندماجه سهلا كغيره من المهاجرين. وهذا راجع فى أكثره الى عدم الاتصال المباشر بالأمريكيين لا إلى درجة عقله إذ الإيطالى ممتاز فى ذكائه وحدة تصوّره هذا فضلا عن كونه لطيف الطبع ودودا، وإن كان محبا للانتقام. وليس المهاجر الإيطالى فى ذاته شخصا مرذولا بحال ما، ولكنك اذا تناولته من حيث هو فريق من النـاس وجدت أنه كان، ولا يزال، عنصرا خطرا بين سكاننا بسبب منافسته للعمال الوطنيين ونقصه فى التربية وانحطاط مستواه فى المعيشة والأخلاق.

أما أن يهاجر الينا عدد كبير من الإيطاليين فى المستقبل فأمر مرهون تماما بحالة تقدم إيطاليا الاقتصادى بعد عودة الأحوال العادية اليها . ولقد أفادت الحرب ايطاليا من بعض الوجوه بكونها هيأت لها الفرصة التى كانت تتمناها من زمن طويل، فرصة الارتقاء صناعيا ، اذ كان هذا الرقى قبل الحرب غير ممكن بسبب المنافسة، ولا سيما منافسة المـانيا فقد منعت الحرب دخول المصنوعات الألمـانية كما ساعد تشجيع الحلفاء على إنشاء كثير من المصانع . فاذا استمرت هذه المصانع على ما هى فيه من الرواج ونمت هذه الحركة كان ثمة عمل للجنود بعد عودتها من القتال. نعم ستكون هناك عقبة كبيرة ناشئة عن حاجة البلاد الى الفحم ولكنهم سيتخطونها بفضل كثرة العمال . أما إذا لم يقيموا الصناعة على هذا النحو فلا بد من عودة تيار الهجرة سيرته الأولى . بل ربمـا كان أعظم ممـا كان قبل الحرب . وإذا كان للايطاليين فى الولايات المتحدة مغريات اقتصادية مثل ارتفاع الاجور فلا بد أن يتهددا فيضان من الهجرة الإيطالية من جديد ما لم يجدوا فى أقطار أخرى مغريات اقتصادية أشد أثرا . على أن أمريكا بما فرضت من اختبار فى القراءة والكتابة، وبما سنت من القوانين الجديدة التى نظمت نسبة ما يمكن أن يرسله كل قطر قد قامت بالفعل بعمل ما يعوق هذا الخطر .

الصقالبة

ينقسم الصقالبة ثمانى طوائف مختلفة كما يأتى :

(١) البولندى و(٢) السلوفاك و(٣) الكرواتى والسـلوفينى و(٤) الروتينى أو الروسيناك (٥) البوهيمى والموراڤى (٦) البلغارى وساكن الجبل الأسود (٧) الروسى (٨) الدلـامى والبوسنى والهرسكى[٣] كل واحد من هذه الأقسام يتميز فى ذاته عن الآخر، ولكننا لا نفرق بينهم عادة ؛ لأن الأمريكى العادى غير خبير بجغرافيـة اوربا خبرة تكفى لمعرفته حقيقة مواقع الأقطار والمقاطعات كلها التى يأتى منها هؤلاء الناس، بل إن مصلحة الإحصاء عندنا تدرجهم تبعا للأمة التى أتوا منها أكثر ممـا تلحقهم بأقسام الجنس الصقلبى . ولكل طائفة من هـذه الطوائف عاداتها وخصائصها وبعضها أفضـل كثيرا من بعض . فالبوهيميون مثلا أرقى من غيرهم ثقافة وأسمى منهم تربية بسبب أنهم عاشوا فى بلاد تتاخم المـانيا . هذا فضلا عن أن نسبة العمال ذوى المهارة فيهم أعلى منها فى سواهم . ويكاد يكون عدد اللغات التى يتكلمها الصقالبة عدد طوائفهم السياسية اذ يوجد على الأقل ست لغات مختلفـة ، بله اختلاف اللهجات . وهذه اللغات كما يأتى (١) الروسـية وتنقسم الى الروسية الكبرى والروسية الصغرى والروسية البيضـاء (٢) البلغارية (٣) الصربوكرواتية

---

(٣) من كتاب بلش Our Slavic Fellow-citizens -

(٤) السلوفية (٥) البولندية (٦) البوهيمية والسلوفاكية . وهذه اللغات على وجود شبه عام بينها متميز بعضها عن بعض فكل منها غنية فى صورها النحوية . ولقد كان هذا الأمر من مضاعفات المشقة على موظفينا الموكلين بأمر المهاجرين .

والصقلبى من الوجهة البدنية قصير القامة ، مدمج وممتلئ بطئ الحركة ، له وجه عريض بعيد ما بين العينين ، لونهما فى العادة أزرق ، وأنفه عريض قصير وجبهته غماء . مزاجه مختلف بين الكآبة والعنف . ويمتاز بعدم ميله الى العدوان ولا الى التماسك. على أنك تجد فيه الجندى الشجاع والمحارب المقدام إذا أحسنت قيادته فقد كان البولاندى تحت قيادة نابليون محاربا مهيبا ؛ ولكنه عند ما يلاقى المحارب الألمانى تصيبه عادة الهزيمة بسبب نقص التنظيم الحربى .

والصقلبى ، على أنه أتى أصلا من آسيا ، يؤلف اليوم ربع الأربعماية مليون من سكان أوربا . ولقد فقد الصقلبى كثيرا من أرضه منذ نزل باوربا فقد كان فى يوم من الأيام يمتلك نصف المانيا وما كان يسمى فى السابق النمسا والمجر .

وقد كانت الحالة الاقتصادية فى النمسا والمجر قبل الحرب شبيهة جدا بها فى إيطاليا من حيث اتباع الطرائق العتيقة فقد كانت الأرض مقسمة قطعا كثيرة مستطيلة لأنه لما ألغى النظام الإقطاعى فى سنة ١٨٤٨ قسمت الأرض بين الموالى تقسيما يتيسر به حصول كل واحد منهم على سلخة من المرج وقطعة من الأراضى المرتفعة على أن يكون له حق شائع فى أرض المراعى .

وكانت الأحوال السياسية فى النمسا والمجر قبل الحرب مختلة فقد كان كل قسم منها يكره الآخر، فلم يكن بينهما وحدة مشتركة إلا فى قليل من الأشياء إذ كان لكل منهما عملة مستقلة ومجالس تشريعية مستقلة ونظام بريد مستقل . ولكن كان لها حاكم واحد أو بالأحرى كان المجريون تحت حكم الأمبراطور النمسوى . وفى أوائل الحرب انضم عدد كبير من الكتائب الصقلبية ـ ملة الى الروس . ولقد عانت الحكومة النمسوية صعوبة كبيرة فى وقف حوادث الفرار من الجيش وفى إجبار الصقالبة على التجند . وفى كثير من الأحوال لا سيما فى جلاتيا اضطرت الى الالتجاء الى وسائل العنف والشدة فكانت تقتل سكان قرى برمتها أو ترمى بالرصاص كتائب كاملة كانت لا تطيع الأوامر. ويقال إن الفرقة الرابعة والعشرين البوهيمية، وكانت تتألف من ٣٠٠٠ رجل أبيدت عن آخرها بهذه الطريقة إذ أدار ضباطها أفواه مدافعها الرشاشة على الجنود عند ما رفضوا إن يحاربوا الصربيين وأنه لم ينج منهم إلا تسعة وعشرون. على أن الصقالبة قلما يتحدون . بل أن من السهل انقسامهم فرقا يعادى بعضها البعض . ويشهد بذلك ما جرى فى الحرب البلقانية الثانية يوم انقلبت الصرب واليونان

ورومانيا على بلغاريا لأن هذه أخذت نصيب الأسد من غنائم الحرب البلقانية الأولى. ولعل هذا كان السبب الأقوى فى انضمام بلغاريا الى ألمانيا فى الحرب العظمى إذ قصدت محاربة الصرب مرة أخرى ومن ثم كانت النعرة حائلا دون ارتباط الأقطار البلقانيـة وتكوين اتحاد قوى منها .

ومحاولة الإصلاحات الاجتماعية فى مثل هؤلاء النـاس صعبة لأنهم من الجهل بدرجة يستعصى عليهم فيها تقدير مزاياها ، فهم يعتقـدون أن الأمراض إنما يرسلها الله ويرون أن أية محاولة لمقاومتها دليل على الجبن وعدم استعداد الإنسان لتقبل ما يقضى به الله تعالى . هذا ومقام الفلاح من الوجهة الاجتماعية أحط من مقام التاجر ولكنه أعلى من مقام العامل وكل فلاح يخشى أن ينقلب عاملا . وهو احتمال يساوره على الدوام نظرا للحالة الاقتصادية التى هو فيها . ولقد كان هذا الخوف من الأسباب القوية المغرية بالهجرة فلقد بلغ الأمر بالرجال أن يقترضوا قصد الرحيل الى أمريكا . ومركز المرأة عندهم منحط جدا فزوجها يعذبها ولا يرى لها مقاما أعلى بكثير ممـا يرى للـماشية ، بل إنها لتجر المحراث فى بعض الأوقات وهذا المسلك من الرجال حيال النساء هو من الأمور التى يغضب لها الأمريكى ، وهنا يجد الصقلبى نفسه معارضا لأساليب حياتنا .

ومن الأسباب المهمة فى النزوح الصقلبى شدة وطأة الضرائب والخـــدمة العسكرية والاضطراب السياسى واضطهاد الحكومة . وقد روّج الهجرة ما كان يقوم به وكلاء شركات الملاحة من الإعلان وكانت غالبية المهاجرين الينـا من بلاد الروس من اليهود والبولانديين والفنلانديين والألمـان ، وبعبارة أخرى من الطبقات التى كانت مضطهدة أو مغلوبة على أمرها من جانب الحكومة الروسية . فقد ظلت الروسيا أجيالا عدة تضطهد اليهود بسبب تفوقهم على الروس فى الذكاء والرخاء فانه منذ هزيمة بولندا على أيدى الروس والألمـان والنمساويين ظلت محلا للعسف من الغزاة ولا سيما بولاندا الروسية، ولذلك هاجر البولانديون التمـاسا لحرية السياسية. والفنلانديون أرقى كثيرا من الروسيين من حيث نسبة المعرفة بينهم بالقراءة والكتابة حتى إنهم ليعدون من هذه الناحية من أرقى أمم الأرض جميعا، وهم يفوقون فى ذلك الولايات المتحدة بمراحل وهم أهل تربية عالية ونشاط فى العمل ولكن روسيا أخذت جميع الحريات من فنلندا ومنها حقهم فى استخدام لغتهم الوطنية ونظامهم فى التعليم وحاولت أن تصبغهم صبغة روسية وفرضت عليهم ضرائب باهظة؛ على أن الروس أنفسهم لم يكونوا من الطائفة الصقلبية المهاجرة الينا إلا الجزء الأقل لأنهم كانوا يذهبون الى سيبريا بفضل تشجيع الحكومة الروسية .

وفى الولايات المتحدة نحو من ٤،٠٠٠،٠٠٠ من الصقالبة يعيشون فى معظم الأحوال جاليات فى الجهات التى يحتاج فيها إلى العمال العاديين كمراكز صناعة الفولاذ فى مثل جارى (Gary) و بتسبورج (Pittsburgh) . واليك عدد السكان البولانديين فى بعض مدننـا : فى شيكاجو ٢٥٠،٠٠٠ وفى بفالو ٧٠،٠٠٠ وملواكى ٦٥،٠٠٠ ودتروات ٥٠،٠٠٠ وبتسبورج ٥٠،٠٠٠ وكليفلاند ٣٠،٠٠٠ وتوليدو ١٤،٠٠٠ و يوجد من الصقالبة ٤٢٣،٠٠٠ فى بنسلفانيا و ٣٨٩،٠٠٠ فى الينواز و ٣٥٦،٠٠٠ فى نيويورك .

والحالة الاقتصادية للصقلبى فى جملتهـا حالة العامل ، وإذا كان غيرذى حرفة فنية ولا يتكلم الانجلـيزية فان أجرته تكون منحطة إذ كانت تتراوح قبـل الحرب بين ١،٣٥ من الريال إلى ١،٦٥ من الريال فى اليوم ، أما إذا كان من ذوى الحرف الفنية فهو يتقاضى أكثر من هذا ، ولا سيما فى مصانع الفولاذ . وهو يحاول أن يحصل على الأجرة السائدة، ولكنه لا ينال ذلك قبل أن يتعلم لغتنا ويلم بشىء من عاداتـنا . وقد أدت زيادة الهجرة ولا سيما هجرة الصقالبة والايطاليين إلى تخفيض مستوى الأجور فى بلادنا ولا سيما فى المناجم فان من خصائص الصقالبه قبول الأعمال المحفوفة بالمخاطر والفاقدة للشروط الصحية . والصقلبى يقوم فى المناجم بحفر المغارات التى لا يجرؤ سواه على أن يقوم بها لمـا فيها من المخاطرة، وفى مصانع الفولاذ يتحمل الساعات الطويلة والأشغال الشاقة منها .

والأحوال الاجتماعية والخلقية التى عليها الصقالبة سيئة جدا، وقليل منهم من كانوا يحضرون نساءهم معهم من أول الأمر و إنما كانوا يبعثون فى طلبهن بعد مجيئهم . فاذا بعث الصقلبى فى طلب زوجته فانه يستأجر عادة أو يبنى كوخا صغيرا مكونا من غرفة أو من غرفتين ثم يسكن معه فى الغالب نزلاء وسكانا، وهؤلاء كثيرا ما ينـامون على الأرض و يكونون من الكثرة بقدر ما تسمح به مساحة المكان ولذلك كانت أحوال تربية الأطفال مروعة. والصقلبى يدمن الشراب ولا سيما المشروبات الروحية و إذا شرب كان خطرا جدا اذ يجنح إلى المشاحنة وارتكاب جريمة القتل. واذ أن الصقالبة يتجمعون جاليات فانهم لا يتصلون بعاداتنا وتقاليدنا بل يبقون على ما لديهم حتى إنهم لينزلون بمستوى معيشتهم الأصلى قصد أن يوفروا لأنفسهم أقصى ما يستطيعون من المـال . وأحوال السكنى بين الصقالبة فى منـاطق المنازل المكتظة فى شيكاغو من أسوأ الحالات فى تلك المدينة فليس ثمة رعاية يعتد بها للأمور الصحية وقواعدها ، وحالتهم الخلقية كذلك سيئة . وكانت أعظم زيادة للهجرة الصقلبية قبـل الحرب من المجريين اذ كان عددهم فى سنة ١٨٩٠ يعادل عددهم فى سـنة ١٨٨٠ ثلاث عشرة مرة و يليهم البولانديون إذ تضاعف عددهم ثمانى مرات ثم يأتى بعدهم اللتوانيون والصربيون. أما نسبة الهجرة البوهيمية فقد هبطت وفى السنوات الأخيرة زادت هجرة البلقانيين الينا زيادة سريعـة .

ويتوقف مقدار ما ينتظر وروده من المهاجرين الصقالبة الينا فى المستقبل على مستقبل وفاهية الأقطار الصقلبية ولا سيما الجديدة منها التى تألفت أثر معاهدة فرساى . فاذا وفقت الحكومات الجديدة التى نشأت فى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا وفنلندا وروسيا أن تقرب من أهليها مثال قسط أوفر من الرفاهية الاقتصادية والمزايا السياسية والأحوال الاجتماعية لم يكن لنا أن نرتقب هجرة كبيرة من تلك لأقطار الينا . ويصدق هذا أيضا على رومانيا وبلغاريا فاذا اخفقت تلك الحكومات فيما ذكرنا فلنا أن نرتقب عودة الصقالبة الى الهجرة . ولكن يظهر أن الدلائل الحالية تدل على نقص عدد المهاجرين لا على زيادته . وفى كثير من الأصقاع مثل بولندا قللت الحرب عدد السكان حتى لا يرجى أن يكون بها زيادة منهم فى مدى عدة من السنوات . وسيبدأ غالب هذه الأقطار الصقلبية حياته خفيفا غير مرهق بالديون الثقيلة لأن الحكومات الجديدة لن تكون ملزمة بحمل التزامات الحكومات السابقة وستكون هذه ميزة أكيدة . كما أن تنفيذ القانون الذى يشترط الكتابة والقراءة فيمن يهاجرون الى أمريكا من شأنه أن يقيد الهجرة الصقلبية لأن فى الصقالبة نسبة كبيرة من الأميين . على أنه اذا لم يعد الصقالبة الى الهجرة كان ذلك خيرا للولايات المتحدة لأننا عددنا هذه الفئة من المهاجرين غير المرغوب فيها لانحطاط مستوى حالتهم المعيشية .

أجناس أخرى — اليونانيون

أتى اليونانيون الى هذه البلاد جماعات كبيرة فى السنوات القليلة الماضية وإن لم يكونوا قد أحدثوا لنا بهجرتهم هذه مشكلة اجتماعية ذات شأن كبير نظرا الى قلة عدد السكان منهم وهم عادة يزاولون من الأعمال مسح الأحذية وفتح المطاعم وما شابهها . وترامى من الوجهة الاقتصادية فى رخاء فقد استطاع مساح الأحذية اليونانى أن يغلب منافسيه من الوطنيين الامريكيين ومن الجنسيات الأخرى ذات الألوان . وفى الواقع أن هذا العمل من خصائص اليونانى فهو يتناول فى العادة حرفة مثل هذه الحرف الصغرى وينظمها ويخرج شيئا طيبا مما لا يعتبره غيره إلا عملا ثانويا . وهناك مشكلة متصلة بمهنة مسح الأحذية وهى مشكلة استخدام الأطفال وما يترتب على ذلك من التقصير فى إطاعة القوانين المتعلقة بالمدارس . وقد يجرون فى بعض الأوقات على نظام يشبه بيع الخدمة اذ يجلبون الصبيان من بلاد اليونان للعمل فى محال مسح الأحذية .

على أن الحرب قد مكنت اليونان من فرص عظيمة : فستفتح أمام اليونانى بالقرب من بلاده أبواب اقتصادية أوسع مجالا ، ولذلك لا يبقى فى أمريكا من المغريات شىء كثير يدعوه الى الهجرة اليها .

الأرمن والأشوريون والسوريون

جمعنا هـذه الجنسيات الثلاث بعضها مع بعض لتماثلها لا من حيث أرومتها الجنسية وأشكالها فقط، بل من حيث مالها من الأثر فى الولايات المتحدة . وفد الأرمن على هـذه البلاد بسبب الاضطهاد الذى تلقوه من الحكومة التركية . وكان ورود الفريق الأول منهم باقتراح من المرسلين المسيحيين الذين بينهم . وكان كثير منهم أولى حرف كالخبازة والحياطة وصناعة الأحذية . وكان مقدار ما أحضروه معهم من النقود قليلا لا يزيد فى متوسطه على ٢٣ ريالا لكل منهم . وكانت نسبة الأمية فيهم عظيمة اذ كانت ٢١٫٩ ٪ بين من كان منهم فوق الرابعة عشرة من العمر وبعضهم كان من التجار المتعلمين تعلما راقيا فهم مرغوب فيهم جدا . ولكن كان غيرهم أقل منهم فى هذا الصدد كثيرا . ولقد كان الأرمن فى بلاد تركيا أصحاب التجارة وبسبب مهارتهم واقتدارهم على التفوق على الأتراك البطيئى الإدراك كانوا مبغضين ، واذا جاءوا الى هذه البلاد فانهم فى العادة يترلون جاليات فى مراكز الصناعة .

والأشوريون والسوريون متشابهون جدا ، وقد وفدوا على هذه البلاد فرارا من الاضطهاد التركى الذى كان أشبه بسرقة مشروعة . ولقد كانت منهم فى السنين الأخيرة غالبية كتلة الباعة الجوالين ، على أن كثيرا من هؤلاء يستقرون بعد ذلك ويدخلون فى زمرة صغار التجار .

ولقد كاد الجنس الأرمنى يباد عن آخره فى أثناء الحرب فلم يبق اليوم منه إلا عدد قليل ولكن تركيا اليوم فى دور الانحلال وستتاح لسوريا وأشور فرص أوسع وحرية أكثر . ولذا فانا لا نرتقب أن يرد الينا منهم فى المستقبل إلا قليل . على أننا لن نأسف لأن الأمريكيين لم يكونوا يحبون هذا الفريق من الناس لأسباب أهمها سمرة وجوههم — وإن كانوا لم يحدثوا فى البلاد مشكلة كمشكلة الصقلى والايطالى .

البرتغاليون

أكثر ما نزل البرتغاليون فى نيو بدفورد (New Bedford) وماساشوسيت وفى جزائر "هوائى" (Hawaiian Islands) ذلك الى جالية صغيرة فى كاليفورنيا. حدث أن تحطمت سفينة برتغالية ذات يوم بالقرب من نيو بد فورد ، فلما نزل الملاحون باليابسة استطابوا صقعها وأقاموا بها ، ثم نشأت المهجرة البرتغالية . وهم يشتغلون فى مصانع القطن فى هذا البلد والبلدان القريبة منه ويعملون كذلك فى زراعة مستلزمات أسواق الخضر. وهم فى هذا ناجحون جدا بذوا الأمريكى الأصيل بسبب استطاعتهم أن يبيعوها بأثمان أقل. وهم أولو نشاط كبير بيد أنهم يلزمون جميع أفراد أسرهم العمل فيخرجون أولادهم من المدارس

بمجرد أن يسمح القانون بذلك أى أنهم ينظرون الى التعليم الإجبارى بالعين التى ينظرون بها الى الخدمة العسكرية الإجبارية. أما مستواهم فهو أحط من مستوى الأمريكى ولكنهم يجمعون الثروة بسرعة ولن يمضى عليهم ألا أجيال قليلة حتى تراهم قد أصبحوا جزءا قويا من سكان البلاد، على أنهم قليلو العدد لا يأتون إلا الى الجهات التى ذكرناها ، ولقد كان نزولهم فى هواى كنتولهم فى نيو بدفورد ، فهم فيها يعملون فى المزارع وينجحون كثيرا .

الكنديون الفرنسيون

يأتى الكنديون الفرنسيون إلينا فى الغالب من نوفاسكوتشيا (Nova Scotia) ونيو برانسويك (New Brunswick) وكويبك (Quebec) وأكثر ما يقصدون الى نيوانجلاند حيث يشتغلون فى المصانع وإذ ذاك يقبلون أجرة أقل من أجرة كل من صداهم من الأجناس . وبينما الانجليز والاسكلانديون والغاليون يصبحون أحب النزلاء الينا نجد أن الكنديين الفرنسيين من أقل من يرغب فيهم ، وذلك بالأخص لأنهم منحطون لأنهم قد أصبحوا أجانب عن فرنسا ولم يندمجوا فى العنصر الانجليزى فى كندا ، وقد عاشوا فى أقل أجزاء كندا إنتاجا وأصبحوا بذلك معزولين منحطين فى مدارج المدنية . ولما كانت نسبة المواليد بينهم عالية جدا فأنهم يزدادون بسرعة تفوق سرعة أى عنصر آخر من سكان بلادنا .

وهم لا يقصدون أن يبقوا بالبلاد دائما لذلك يحتلون لسكناهم أى كوخ قديم يجدونه ولهؤلاء ميل شديد الى الإسراع فى إرسال أولادهم للعمل فى المصانع وهم فى أصغر سن ممكنة متملصين من القوانين المدرسية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . ويذهب الكنديون الفرنسيون أيضا الى مراكز الخشب حيث هم صناع مهرة ولكنهم مكروهون هناك جدا كما هم مكروهون فى أى مكان آخر وهم شديدو الحب للكحول والإدمان عادة شائعة بينهم ، وإذا شربوا وسكروا صاروا مشاغبين وخطرين وهم يعاملون أهل بيوتهم معاملة وحشية فيضربون زوجاتهم وأولادهم وأحيانا يطردونهم من بيوتهم . والكنديون الفرنسيون وإن كانوا قليلى العدد يعدون عنصرا مكروها جدا ولكن يظهر أن لا حيلة فى صد تيار ورودهم إلا بالقانون القاضى بالاختبار فى القراءة والكتابة أو بالقيد المبنى على عدم الترخيص إلا بدخول نسبة مئوية معلومة من كل جنس .

اليابانيون

كانت هجرة اليابانيين غير ذات شأن الى عهد قريب لأنها الى سنة ١٨٩١ كانت بنسبة أقل من ألف مهاجر فى السنة ولكن بين سنة ١٨٩١ و ١٩٠٥ دخل الى البلاد ٩٥,٠٠٠ منهم . وكانت غالبية هؤلاء المهاجرين الأول تنزل فى هواى . على أن أرقام الإحصاء

غير دقيقة، لأن كثيرا من اليابانيين كانوا يتزحون الينا من طريق المكسيك وكندا . ودافعهم الى الهجرة اقتصادى بحت ، فان الأجور فى اليابان منحطة جدا بسبب زيادة السكان . ولاعتدالهم فى المصرف كان يأتى كل واحد منهم بما يعادل خمسة وأربعين ريالا فى المتوسط . وأجرة اليابانى فى الولايات المتحدة أقل بكثير من أجرة الرجل الأبيض اذ كانت تتراوح قبل الحرب بين ٨٥ و ٩٠ سنتيا فى مزارع البنجر ، واذ أنهم يعملون عملا كثيرا بهذه الأجرة الضئيلة فقد سببوا لأنفسهم كره العامل الأمريكى وأحدثوا فى البلاد مقتا لهم عاما .

ويصبح المهاجرون من اليابين عمالا وفلاحين وخدما . وفى كاليفورنيا يتخذون زراعة الخضر حرفة وقد نجحوا فيها نجاحا كثيرا . وهذا هو السبب فى وضع كاليفورنيا قانون أرض الأجانب منذ سنوات قليلة . وهم فى هذه الولاية مكروهون أكثر مما يكره الصينيون بسبب ما هم عليه من الجرأة والعناد فأنهم ليسوا كالصينيين فى هدوئهم بل هم سراع الى القتال واليابانيون وإن كانت نسبة الأمية فيهم قليلة ، إذ تبلغ ٢١,٦ فى المائة ذوو أخلاق تستوجب الإعجاب فهم قوم يحترمون القانون وهم مقتصدون نظيفو الأجسام ، حسنو الزى ، سراع وأذكياء ، يحترمون الحكومة احتراما شديدا .

لقد كانت العلاقة بين الولايات المتحدة واليابان ودية دائما ، فأن الولايات المتحدة هى التى فتحت اليابان للعالم وبالأحرى إن الولايات المتحدة هى أول من ذهب اليها بعد أن أفسحت اليابان صدرها للأجانب . ولقد أسفت حكومة اليابان لاتجاه الهجرة من بلادها الى الولايات المتحدة فحاولت أن تحولها الى كوريا ونجحت بعض النجاح فى هذه المحاولة ، وهى لا تعطى من جوازات السفر الى الولايات المتحدة إلا قليلا ، ولذلك كان غالب المهاجرين اليابانيين الواردين الينا يأتون من طريق هواى . ولقد كان أثر الحرب فى اليابان أن جعلتها أمة ذات قوة عظيمة فى الشرق ومدت ظل سلطتها على الصين ومن ثم كان من مصلحة الحكومة اليابانية أن تستبق أبناءها لآسيا ، إذ تعلم أن مستقبل أمرها هناك .

ولم تحاول الولايات المتحدة نظرا الى دقة المركز الدولى أن تشرع تشريعا يحظر دخول اليابانيين ولكنها انعقت اتفاقا وديا مع اليابانيين يرمى الى الغرض نفسه .

الصينيون

بدت هجرة الصينيين خطيرة الشأن قبل قوانين الحظر التى صدرت فى العقد التاسع من القرن الماضى ، فقد حصل هذا بعقد اتفاقات مع الصين منع الصينيون بها من الدخول فى الولايات المتحدة إلا لأغراض خاصة كتلقى العلم فى مدارسها . ولما كان الصينيون

لا يتزوجون من الأمريكيات ولا يجلبون من النساء الصينيات عددا يكفى لاستبقاء عدد السكان منهم وإنهاضه فان عددهم آخذ فى الزوال أو باق على الأقل عند حد منحط . ولقد جلب الصينيون معهم يوم جاءوا مستويات منحطة جدا ، فقد كانوا يعيشون فى أكواخ ويأكلون طعاما حقيرا ويتعاطون الأفيون بكثرة وكانوا ذوى رذيلة وفساد ، ولذلك كانوا عنصرا مكروها جدا . أما من جاءوا منهم فيما بعد فقد كانوا من نوع أرق وصادفوا نجاحا فى جميع مدننا إذ كانوا أصحاب مغاسل وأرباب مطاعم وتجارا صغارا . وقد يكون تطبيق قانون الحظر ظلما من الوجهة النظرية ولكن لعل الضرورة الاجتماعية قد سوغته فيما يختص بالصينيين ؛ فلقد كان الصينيون شرا كبيرا للعامل الأمريكى بسبب استعدادهم لقبول أجور أقل من العامل الوطنى ولقدرتهم على العيش بالقليل بسبب انحطاط مستواهم العيشى . على أننا لا نعنى أن الصينيين هم أحط الأجناس ، أو أن الجنس الصينى أحط من الجنس اليابانى ، فالصينيون فى كثير من النواحى ذوو كفاية وأقوياء . على أن الذى أحدث المشكلة التى شكونا منها هو فريق الصينيين الذين كانوا يفدون الينا فقد كان يفد الينا صنف الحمالين أى فريق من العمال وكانت كثرة عددهم مضافا اليها قدرة الأجير الصينى على العيش بأقل مما يكفى العامل الأمريكى سببا فى القلق ، وفى نشوء المعارضة لهجرة الصينيين والمعاهدات التى ترتبت على ذلك .

المكسيكيون

وهناك نوع آخر من الهجرة يؤثر فى الجنوب الغربى من بلادنا وهو هجرة المكسيكى . حالة هذه الهجرة معقدة بسبب أن بين أهل بلادنا عنصرا أمريكيا مكسيكيا فى الجنوب الغربى متناسلا من قدماء المستعمرين الأسبانيين . وكثير من هؤلاء وإن كانوا وطنيين أمريكيين بالولادة لا يستطيعون الكلام باللغة الانجليزية . ويصدق هذا على الأخص على النساء لأن أغلب الرجال قد اضطرهم اختلاطهم الى أن يتعلموا لغتنا . على أن كثيرا منهم لم يتعلم الانجليزية لأن قانون التعليم الإجبارى لم يوجد إلا منذ عهد قريب . وعندنا فضلا عن هذا العنصر الوطنى النازل فى كاليفورنيا الجنوبية وأريزونا ونيومكسيكا وتكساس تيار هجرة دائم من المكسيك والينا إذ يأتى كثير منهم للعمل فى حقول القطن بالولايات المتحدة وفى سككنا الحديدية أوفى شغال البناء . والى سنة ١٩١٨ كان عدد المقيد ورودهم الينا بين ١٠,٠٠٠ و ٢٩,٠٠٠ فى العام منهم قرابة الثلثين ذكور ومنذ ذلك الحين أخذ عدد الواردين يزداد بسرعة إذ بلغ ٥٢,٢٦١ فى سنة ١٩٢٠ يقابل هذه الهجرة نزوح مستمر من جانبنا هبطت نسبته على كل حال فى سنة ١٩٢٠ فلم يبلغ الا ٦,٦٠٦ فى تلك السنة وقد دل إحصاء السكان سنة ١٩٢٠ على أن المكسيكيين فى بلادنا يبلغ عددهم ٢٦٩,٨٨٥

والمكسيكيون فى العادة عمال ويعيشون على حدة فى أقسامهم من البلدان . وهم فى العادة قوم مسالمون يرعون القانون ويحترمهم الكثيرون وهم بالفطرة مؤدبون يفوقون الأمريكيين كثيرا فى هذا الصدد . على أنه تعوزهم القوة البدنية والنشاط وملكة الابتكار والقوة العقلية والخلقية. وهم يعيشون فى مستوى أحط من مستوى العمال الأمريكيين لأسباب منها قلة أجورهم ولهم فى الدين والتعليم والأخلاق مستويات تخالف مستوى عمالنا . وبينا تجد كثيرين من الأمريكيين يحترمونهم ترى غيرهم على نقيض ذلك . على أن هذه العواطف تتوقف فى الواقع الى حد كبير على المنطقة وعلى ما يتصل بها من الأحوال الخاصة ولكن المشكلة غير ذات خطورة لأن غالب بلاد المكسيك غير مزدحمة والحاجة الى العمال هناك شديدة ، واذا قدر للمكسيك أن تنال حكومة ديموقراطية قوية فلعل هذه الهجرة تقل .

الهندوس

الهندوس فرقة جديدة جدا تعد الى اليوم غير ذات بال فى مجرى المهاجرين الينا ، ولكنهم اذا زادوا على ذلك كانت هجرتهم خطرا علينا لأن الهندى يأتى بمستوى منحط هو فى الواقع دون مستوى الصينى ، وهو كذلك متكبر ويرى فلسفته فى الحياة أرقى من فلسفتنا . الى اليوم لم يفد الينا منهم إلا قليل ولكن اذا زاد عددهم فلا بد من اتخاذ الوسائل الكفيلة بوقفهم كأن يكون ذلك باتفاقية مع بريطانيا العظمى وهى اتفاقية يسهل بلا شك المفاوضة فيها . على أن هجرة الهندوس كانت الى كندا أكثر منها الى الولايات المتحدة بيد أنهم مكروهون فى كندا بقدر ماهم مكروهون فى بلادنا وقد رفض دخول كثير منهم اليها .

أمواج الهجرة

كانت الهجرة الى بلادنا ، كما سبق أن ألمعنا ، تأتى الينا أمواجا تتبع عهود النماء عندنا . ولقد جاءت أول موجة عظيمة الينا فى سنة ١٨٤٢ يوم بلغت حد ١٠٠,٠٠٠ ثم حدث هبوط فى الهجرة فى السنة التالية بسبب عدم الاطمئنان المالى فيها والاضطرابات السياسية الناشئة من الحرب المكسيكية . ولم ترد الموجة التالية الى شواطئنا الا فى سنة ١٨٥٤ يوم وصل ٤٢٧,٠٠٠ من الأجانب . وبعد الحرب الأهلية لم تعد الموجة إلا فى سنة ١٨٨٢ يوم استفاقت البلاد من الذعر الذى غشيها فى سنة ١٨٧٣ ولكنها بلغت فى ذلك الوقت ٧٨٨,٠٠٠ وبعد ذلك هبط العدد ولم يصل الى مستواه السابق حتى أصلحت البلاد حالة الخسائر التى أصابتها من الذعر الذى تولاها سنة ١٨٩٣ ، ثم زاد فى الجزء الأخير من العقد العاشر من القرن التاسع عشر ، وبلغ ذروته فى سنة ١٩٠٧ ، قبيل الذعر الذى كان فى ذلك العام ، حينما وفد الينا ١,٢٨٥,٣٤٩ ، ثم هبط عدد الواردين بعد ذلك مباشرة ولكن سرعان ما أخذ

فى الزيادة حتى كاد يبلغ فى سنتى ١٩١٣ و١٩١٤ الذروة التى وصلها فى سنة ١٩٠٧ وبابتداء الحرب العالمية هبطت المهاجرة على الفور، بل انقلب التيار فى الجهة المضادة إذ عاد كثير من الأجانب لينضموا الى الجيوش الأوروبيـة المحاربة وفى السنة التـالية هبط عدد المهاجرين الى ٣٢٦,٧٠٠ أى ٢٦,٨٪ من عددهم فى السنة التى قبلها .

القيود الجديدة المفروضة على النزوح الينـا

فى غضون السـنوات الأخيرة من الحرب كانت الهجرة غير ذات بال ولكن لمـا أشرق صبح السلم عادت سيرتها السابقة بشـدة وذلك فى سنتى ١٩٢٠ و ١٩٢١[٤] حتى اضطرت حكومتنا الى اتخاذ وسائل لتقييدها ، ذلك أنها أصدرت فى مايو سنة ١٩٢١ قانونا يقرر أن "عدد الأجانب، من أية جنسية، الذين يمكن قبول دخولهم بموجب قوانين المهاجرة فى الولايات المتحدة فى أى سنة ماليـة يكون مقصورا على ثلاثة فى المـائة من عدد الأشخاص المولودين فى الخارج من الجنسية المعينة المقيمة فى الولايات المتحدة على حسب إحصاء الولايات المتحدة الصادر فى سنة ١٩١٠ . لذلك كان عدد الواردين بموجب هذا القانون فى السنة المـالية ١٩٢١ — ١٩٢٢ (اثنى عشر شهرا) ٣٥٥,٨٢٥ على أن هذا قسم بعد ذلك أيضا الى نسب دخول شهرية .

نظرة الى المستقبل

لايستطيع أحد أن يتكهن واثقا بمايخبئه المستقبل لنا فيمايختص بالمهاجرة ، فاذا استطاعت الأقطار الصقلبية من أوروبا الوسطى ، كما سبق لنـا أن ألمعنا ، أن تحدث حالات سياسية واجتماعية واقتصادية جيدة سليمة ، فلا ينتظر أن يأتى الينا من هذا المورد القديم المعظم إلا عدد قليل فى المستقبل . واذا استعادت فرنسا وانجلترا شيئا من سابق رخائهما فلا أمل لنا فى زيادة تصلنا من تلك الناحية . أما البلاد المحايدة ولا سيما الاسكندناوية فلن تكون مثقلة بالديون ولذلك ستجد سوقا رائجة لمنتجاتها، وتبعا لهذا لا يرجى أن تعود الهجرة الاسكندناوية . أما فى ألمـانيا والنمسا فقد تنشأ فيهما رغبة شديدة فى الإفلات من الضرائب المحتم فرضها ومن الهبوط الاقتصادى، غير أن بلادنا لن تكون مستعدة لقبول مثل هذه الهجرة حتى ولو كنا فى المـاضى اعتبرنا الجنس التيوتونى مرغوبا فيه. والمنتظر أنه اذا ابتدأت هذه الهجرة فستشرع حكومتنا على الفور فى القضاء عليها إما بعقد اتفاقية وإما باصدار تشريع . أما فيما يختص بتركيا

---

(٤) سنة ١٩١٦ ، ٢٩٨,٨٢٦ و١٩١٧ ، ٢٩٥,٤٠٣ و١٩١٨ ، ١١٠,٦١٨ و١٩١٩ ، و ٢٦٤١,١٣٢ و١٩٢٠ ، ٤٣٠,٠٠١ و١٩٢١ ، ٨٠٥,٢٨٨

فالحالة مشكوك فيها جدا ولكن الشعوب المضطهدة فى ذلك القطر سينالون الحرية السياسية والدينية وسيظفرون بأحوال اجتماعية واقتصادية خير مما كان بتدخل الأمم الأوربية . ولذلك فلا نرتقب من المهاجرين من تلك الناحية إلا عددا أقل مما كان . أما الروسيا وإيطاليا فهما العنصران المشكوك فيهما وستوقف النتائج على مايكون لها فى المستقبل من الرخاء فاذا لم تستطع إيطاليا أن تحصل على رخاء اقتصادى بتوسيع صناعتها فلا بد أن يلتمس أهلها مهربا من الفقر ومن زيادة عبء الضرائب بالنزوح منها . أما روسيا فستوقف الحالة فيها كثيرا على نجاح جهودها فى إنشاء حكومة ديموقراطية مستقرة ، نعم إنها ألقت عن عاتقها نير حكومتها القديمة المستبدة التى وقفت فى الماضى عقبة فى سبيل تقدمها ولكن الوقت لم يحن بعد للتكهن بشكل حكومتها التى ستحل مكانها .

هذا، ويدل أحدث الإحصائيات التى يمكن الحصول عليها الآن (من أول يونيه سنة ١٩٢١ الى مارس سنة ١٩٢٢) على حدوث تغير فعلى فى حالة الهجرة ، فقد ورد الينا فى غضون تلك المدة ٢٢٦,٨٤١ مهاجر ونزح عنا ٤٦٩ وأهم الأسباب فى ذلك تحريم الخمور عندنا والبطالة كما أن هجرة الإيطاليين لقيت عرقلة شديدة من قانون الثلاثة فى المائة ، اذ كان أثره فى الإيطاليين أشد منه فى كل طائفة أخرى . وفى الجدول الآتى بيان الوافدين الينا والنازحين عنا من الطوائف الرئيسية .

الطائفة	المهاجرون الينا	النازحون عنا	الطائفة	المهاجرون الينا	النازحون عنا
الايطاليون	٢٩,٥٢٣	٤٠,٦٦٦	الأنجلو	١٩,٣٩١	٦,٣٤٩
الولانديون	٥٠,٩٦٣	٢٥,١٦٦	الأرلنديون	١٢,٣٦٣	٦,٣٤٩
الصقالبة الأخر ...	٢٤,٣٩٦	٢٧,٧١٨	الاسكندنايون ...	٩,٧٨٩	٢,٨٨٨
العبرانيون	٤١,٦٨٩	٥١٦	الاسكتلانديون...	٩,٧٦٧	١,١٠٦
الألمان	٢١,٤٠٩	٣,٧٩٨	المكسيك	٨,٥٧١	٤,٨٥٢

الفصل السابع

الهجرة — تكملة

تأثير الهجرة فى عدد سكان الولايات المتحدة

كان صافى الزيادة فى عدد سكاننا المولودين فى الخارج ، بين سنتى ١٩٠٩ و ١٩٢٠ هو ٤٫٤٨٥٫٠٠٠ أى قرابة ٣٧٥٫٠٠٠ كل سنة وفى سنة ١٩٢٠ كان عدد من هو فى الولايات المتحدة من هؤلاء ١٣٫٧١٢٫٧٥٤ أى ١٣ فى المائة من مجموع السكان البالغ قدرهم ١٠٥٫٧١٠٫٦٢٠ ، ولكنا اذا أدخلنا مع هؤلاء أولئك المولودين فى الولايات المتحدة من أبوين أجنبيين ومختلطين نجد أن العدد أكبر من هذا جدا ، اذ بلغ فى تلك السنة ٣٦٫٣٩٨٫٩٥٨ أى ٣٤٫٤ فى المائة ولا بد لنا أن نرى أولئك المولودين من أبوين أجنبيين لأن أولاد المهاجرين كثيرا ما يسببون لنا مشاكل أعظم مما يسببه المهاجرون أنفسهم ، ولا سيما فى مدننا الكبرى. نعم إن المولودين هنا من أجانب ليسوا موزعين بالتساوى فى القطر. والنسب الآتية تبين الإحصائيات عن المراكز المهمة لتوزيع هؤلاء فى سنة ١٩٢٠ :

الولايات	النسبة المئوية للمولودين فى الخارج (المهاجرين)	النسبة المئوية للمولودين هنا من أجانب ومن أبوين مختلطين
رود أيلاند	٢٨٫٧	٦٩٫٥
ماساشوست	٢٨٫٠	٦٦٫٨
كونيكتيكات	٢٧٫٣	٦٥٫٨
نيو يورك	٢٦٫٨	٦٢٫٦
نيوجرسى	٢٥٫٤	٦٢٫٤
مينيسوتا	٢٠٫٤	٦٤٫٨
نورت داكوتا	٢٠٫٣	٦٦٫٧
كاليفورنيا	١٩٫٩	٤٦٫٣
مشيجان	١٩٫٨	٥٢٫٦
الينواز	١٨٫٦	٤٩٫٨
ويسكونسين	١٧٫٥	٥٩٫٤
مونتانا	١٧٫٧	٤٧٫٢

وبينما نجد أن جل الولايات التى تفوق سواها فى النسبة المئوية للمولودين فى الخارج تقارب الذروة كذلك فى عدد المولودين بها من آباء أجانب نلاحظ أن قليلا من الولايات التى تفوق سواها فى عدد المولودين فيها من آباء أجانب، لا تتضمن إلا عددا لا يعتد به من المولودين فى الخارج، مثل ميشيجان ومونتانا وأوتاه . وهذا يدل على أن تلك الولايات لم تعد تجتذب اليها المهاجرين . وتكاد تنحصر الهجرة الحديثة كلها فى عشر ولايات . واذا لخصنا عن أرقام سنة ١٩٢٠ المدن العشر الرئيسية فى الولايات المتحدة مرتبة تبعا لكثرتها وجدنا أنها نالت الجزء الأعظم من هذه الهجرة بنسبة أتساعها تقريبا . ونجد النسبة متشابهة فى عمودى الجدول فى هذه المدن :

المدينـــة	نسبة المولودين فى الخارج	نسبة المولودين هنا من أجانب او من أجنبي ووطني
نيويورك	٣٥٫٤	٧٦٫٤
شيكاجو	٢٩٫٨	٧٢٫٠
فيلادلفيا	١٩٫٨	٥٤٫٢
ديترويت	٢٩٫٢	٦٤٫٢
كليفلند	٣١٫٠	٧٠٫٠
سنت لويس	١٢٫٤	٤٤٫٤
بوستون	٣١٫٩	٧٣٫٣
بالتيمور	١١٫٤	٣٣٫٦
بتسبورج	١٩٫١	٥٦٫٧
لوس انجيلوس	١٩٫٤	٤٣٫٨

وللقليل من المدن الصغرى نسب أعلى من النسب فى بعض المدن المذكورة سابقا مثل :

بروفيدانس	٢٢٫٦	٧٢٫٥
نيوارك	٢٨٫٢	٦٨٫٤

ويقال إن فى نيويورك من السكان الألمانيين ما يزيد على عددهم فى أية مدينة أخرى فى العالم بعد برلين ، وفيها من الإيطاليين أكبر عدد بعد نابولى وأكبر عدد من اليهود إطلاقا .

لم يقتصر الأمر فى الهجرة على أن المهاجرين إلينا كانوا يذهبون دائما ألى جهات معينة بل لقد كان لكل جنسية جهة أو جهات خاصة بهـا تستقر فيها ، فكان للألمـان صقعان محبوبان هما نيو يورك وبنسلفانيا فى الشرق وويسكونسين والينواز فى الغرب . ثم ذهب كثير منهم الى غير تلك النواحى ولكنهم كانوا مع ذلك يستقرون بهـا على صورة مستعمراته . وقصد الاسكندناويون الى منيسوتا وولايات داكوتا ، وبقى الايطاليون فى الشرق : فى نيو يورك ونيوجرسى وماساشوسيت وكونيكتيكات ؛ ففى سنة ١٩١٠ كان ثلاثة أرباع مهاجرى الايطاليين إلينا أى ٩٩٧,٠٠٠ من الـ ١,٣٤٣,٠٠٠ مهاجر الذين ولدوا فى أيطاليا — يعيشون فى تلك الولايات وفى الينواز . وكان اليهود على نزوحهم إلينا من مختلف الأقطار ومن جميع أنواع المجتمعات يقصدون فى غالب الأحيان المدن ، ولا سيما نيو يورك فان ٩٣,٠٠٠ من الـ ١٤٩,٠٠٠ الذين أتوا فى سنة ١٩٠٧ استقروا بهذه الولاية . كما أن الصقالبة نزلوا بولايات بنسلفانيا ونيوجرسى والينواز بدرجات تتفاوت على حسب ترتيب هذه المدن . ولقد كان هذا النزوح الى مدننا على ما كانت عليه من اكتظاظ بالسكان إحدى النواحى الخطيرة للهجرة فلو أن الوافدين كانوا يذهبون الى جهات الريف لأمكننا أن ندمجهم فى عدادنا . وهم فى المدن الكبيرة يسكنون أشـد الجهات ازدحاما حيث لا يختلطون إلا ببنى جنسهم أو بمهاجرين من جنسيات أخرى ، ويندر أن يتصلوا بالأمريكى الوطنى اتصالا وثيقا . ولذلك كان من الصعب علينا جدا أن ندمجهم فينا . ويصدق هـذا بوجه خاص حين لا تكون لهم حاجة كبيرة أو باعث الى تعلم اللغة الانجليزية ، بله اكتساب تقاليدنا وعاداتنا . ذلك الى أنهم فى تلك المدن قد سقطوا فى درك الفقر ولذلك سهل تدهورهم فى هوة الرذيلة والجريمة ولا سيما بعد مرور جيـل عليهم فى بلادنا . ولم يذهب المهاجر الاوربى الى الجنوب بسبب منافسة الزنوج هناك .

تأثير الهجرة فى الصناعة

إن معظم المهاجرين الينـا عمال غير فنيين . ولو كانوا على درجة عظيمة من المهارة الفنية فى أوطانهم ما كانت تنفعهم مهارتهم هذه فى بلادنا إلا قليلا لاختلاف طرق الإنتاج عندنا فلم يكن فى الـ ٨٥٧,٧٢١ من المهاجرين الذين نزحوا الينا فى سنة ١٩٢١ إلا ١٤,٥٩٢ مهاجر من ذوى المهن الفنية و ١٣١,٧٧٤ فقط أى ١٥ فى المـائة من العمال المهرة . على أن النسبة تختلف اختلافا كبيرا تبعـا للجنسيات ، فكثير من اليهود والبوهيميين كان لهم من الدراية

الفنية ما كان لأولئك النـازحين من أمم الشمال فى أوربا . أما الـ ٢٤٢,٠٠٠ مهاجر الذين أتوا من إيطاليا الجنوبية فى سنة ١٩٠٧ فلم يكن فيهم إلا ٧٠١ من ذوى المهارة الفنيـة ولم يكن من الـ ١٣٨,٠٠٠ بولندى إلا ٢٧٣ فقط من ذوى الحرف . ولقد عاد هذا النزوح على أصحاب رءوس الأموال بعدد عظيم من العمال الرخيصى الأجور ولذلك نهضت الصناعة ولا سيما ما كان منها فى احتياج الى عمال غير مهرة مثل صناعة الفولاذ ومغازل الصوف والقطن ، ومن ثم أمكن إنشاء شركات واحلاف مالية كبيرة فى هذا الضرب من الأعمال . والواقع أنه لولا هـذا المورد من العمال تستخدمه شركات السكك الحديدية لصادفتها عقبات معطلة ، ولظل كثير من الزيادات والإصلاحات غير ميسر لأن استخدام العمال الوطنيين يقتضى نفقة كبيرة . وقصارى القول أن الهجرة كانت نعمة على أصحاب الأموال إذ أمكنتهم من تكديس ملايينهم . والمهاجرون وإن كان عددهم فى البلاد يساوى سبع عدد سكانها جميعـا يبلغون نصف المشتغلين فيهـا بالصناعة ، وربع المشتغلين بالنقل وربع المشتغلين بالتعـدين وربع المشتغلين فى الخدمة المنزلية .

وحينما كان المهاجر يدخل صناعة من الصناعات كان يحل فيها محل عامل وطنى ، ولكن هذا الأمر لم يكن سيئا جدا من جميع وجوهه إذ أنه كان يدفع الوطنى إلى مستوى أرقى . ثم كان المهاجرون الأقدم عهـدا بمجرد اقتباسهم المستوى الأمريكى يأتيهم دورهم فيزيحهم عن أعمالهم المهاجرون الجدد . ومن المفيد أن نذكر بعض أمثلة على ذلك ، فصناعة البنيقات وأساور القمصان كان يقوم بها فى أول الأمر الارلنديون فأزاحهم البولانديون عنها . وهؤلاء أزاحهم الأرمن . وفى صناعة الأصواف وأنسجة الملابس ، والملابس الداخلية حل البولنديون والإيطاليون محل الارلنديين والانجليز . وفى صناعة البضائع القطنية أخلت الشعوب التى تتكلم الانجليزية مكانهـا للايطاليين والبولنديين . وفى صناعة ملابس الرجال والنساء خلف الروس والإيطاليون الألمان . وفى صناعة الورق أخلى الألمـان والانجليز والارلنديون مكانهم للروس والبولنديين . وفى صناعة استخراج الغاز وعمل الأدوات الكهربائية حل الايطاليون والروس محل الألمـان . وفى صناعة الحبـال حل السويديون محل الأرلنديين وهؤلاء حل محلهم الإيطاليون . ومن أفضل الأمثال على هذه الظاهرة ماحدث فى صناعة نسج القطن فى ولاية نيوانجلاند . بدأ هذه الصناعة أبناء الأسر الأمريكية وبناتهـا ، الذين هم الذرية المبـاشرة لمؤسسى هذه الأمة ، ثم استولى الارلنديون على محلهم فيهـا ولكن الإرلنديين اضطروا إن يخلوها للكنديين الفرنسيين . واليوم يضطر هؤلاء الى تركها ليحل محلهم البرتغاليون واليونان والسوريون والبولنديون والإيطاليون . ولقد كان الخياطون فى نيويورك فى أول الأمر من الانجليز والاسكوتلانديين ثم كانو من الارلنديين والألمان ثم صاروا بعد ذلك من يهود الروس ولكن هؤلاء أخذوا يخلون أماكنهم أمام سيل الإيطاليين . وكذلك الحال فى بوستون سوى

ان البرتغاليين هنـاك يشتركون معهم . والحالة فى شيكاجو ممـاثلة لهذه جدا سوى أن إضافة البولنديين والبوهيميين يزيد تنوع هذا المزيج البشرى. " إنه بمجرد أن يرتقى جنس من الأجناس فى مستوى المعيشة فيأخذ بفضل تنظيم صفوفه فى المطالبة بأجور أعلى وفى مقاومة طول ساعات العمل والإجهاد المضنى يحل صاحب العمل جنسا آخر محله وهكذا دواليك" (٦)

ثم إن الهجرة قد ساعدت على تكوين الولايات المتحدة صناعيا ولكنها جرت فى أعقابها أحوالا أخرى ليست مرضية، فان المكاسب العظيمة التى نجمت من هذه الصناعات لم تنصرف الى ترقية الأجور أو تهيئة مساكن أفضل للعمال حتى ولا الى إعداد شوارع أحسن حالا أو عمل إصلاحات أخرى فى البلدان الصناعية، بل ذهبت جميعها الى جيوب أصحاب السهوم. فكانت تدفع أرباحا للسهوم وكثير منها سهوم غير حقيقية ، وكانت تدفع منها مرتبات كبيرة لمديرى الأعمال . حتى ليقال إن الرئيس وود رئيس شركة الصوف الأمريكية كان يتداول مرتبـا قدره خمسون الف ريال فى إبان الإضراب فى لورنس شتاء سنة ١٩١١ — ١٩١٢ فى وقت أن كان متوسط الأجور فى مصانعه دون ستة ريالات فى الأسبوع ، بل كان بعض العمال فيها يتناولون فى الأسبوع ما يصل فى قلته الى ثلاثة ريالات .

تأثير الهجرة فى العمال

كانت الهجرة عونا واضحا لأصحاب رءوس الأموال ولكنها كانت أذى واضحا للعمال . فان فيضان مثل تلك الهجرة من العمال ولا سيما غير الفنيين فى مثل ذلك الوقت القصير وفى مناطق محدودة على هذا النحو ، قد أخل بتوازن العرض والطلب . إذ الواقع أن الأجور تحدد لا بالقوة الإنتاجية للعمل فعلا ، بل بمقدار المعروض من الأيدى العاملة ومقدرتها على المساومة . أما القوة الإنتاجية للعمل فهى لا تعين الا الحد الأعلى للأجور، أى الحد الذى لا يمكن أن تتعداه . وأما الأجرة الفعلية التى تدفع للعامل فكثيرا ما تكون دون ذلك الحد بمدى كبير. ومن ثم منعت الهجرة أجور العمال الامريكيين من الارتفاع الذى لولا الهجرة لوصل اليه لأن المهاجر يأتى الى هـذه البلاد طلبا للثروة ، ويرغب فى الحصول على أعلى أجر ممكن ولكنه لم يكن فى حالة تسمح له بتحقيق هذه الأجور العالية اذ الأجور لا تدفع تبعا لرغبة العامل أو حاجتـه بل على عكس ذلك ، لأنه اذا احتاج الى أجر مرتفع كانت نفس هذه الحاجة عقبة فى سبيل هذه الغـاية اذا حاول الحصول عليها . ذلك لأن حاجة الإنسان تضعف من قوة مقاومته وتحط من مركزه فى المساومة . وصاحب العمل يدفع أدنى أجرة ممكنة. ولمـا كان المهاجر لا يملك إلا قليلا من المـال وكان لا بد له أن يقبل أى عمل يستطيع الحصول عليه لم يستطع أن يساوم لحصول على أجور عالية .

---

(٦) ص ١٥٢ من كتاب Common الموسوم Races and Immigrants in America طبعة ١٩٢٠

والعمال المهاجرون غير منظمين ولا قادرين على أن يواجهوا أصحاب رءوس الأموال بجبهة قوية . فهم لا يساومون إلا فرادى ، ولا يهم صاحب العمل من يقوم له بعمله ، ولذلك لا يكون أمام العامل مجال للمساومة فلا يبقى للمهاجر إلا أن يقبل ما يعرض عليه، وبما أن المهاجر جاهل لتقاليدنا وعاداتنا ولغتنا ، وكذلك بأثمان الأشياء عندنا فهو يظن أن الأجرة المعروضة خير ما يمكن الحصول عليه . وبسبب هذا الجهل يستعصى على المهاجرين المستجدين تنظيم أنفسهم فى نقابات . وفضلا عن هذا فانه بمجرد أن تبلغ طائفة أو جنس من الناس الدرجة التى يستطيعون فيها أن ينظموا صفوفهم يعمل مستخدموهم على أن يحلوا محلهم مهاجرين مستجدين أحدث منهم عهدا بالورود . ولقد كان هذا مفيدا لصاحب العمل ولكنه كان غير مفيد للعامل . لأنه استبقى الأجور منخفضة .

والحاجة الى المال التى حرمت المهاجر القدرة على المساومة لمصلحته فى المدن هى عينها التى حالت دون ذهابه الى الجهات الريفية لأنه لم يكن يملك من المال ما يشترى به أرضا أو يهيىء به مزرعة . وفضلا عن هذا فان الفلاحين أصحاب المزارع لم يرغبوا فى استخدام هؤلاء المهاجرين بسبب اختلاف لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وبسبب كراهية الفلاح رؤية منظرهم الخشن . ولذلك اضطر المهاجر الى التماس العمل فى الصناعات فى المناطق المكتظة بالسكان حيث يرغب فيه صاحب العمل بسبب تقبله العمل على الوجه المرهق، ورضاه بالعمل ساعات أطول مما يرضى به الأمريكى . ومن شأن المهاجر أيضا أنه يعمل أعمالا أشد انطواء على الخطر ولا سيما فى المناجم فيدخل فى مغاراتها الخطرة ويعمل فى أحوال لم يكن يقبل سلفه أن يتحملها . ويصدق هذا بصفة خاصة على الصقلى . ويرجع هذا بعضه الى جهله خطرها الفعلى والى أنه يشتغل ساعات أكثر مما يشتغل غيره . وبهذه الطريقة يستغله صاحب العمل دائما . ومن الحجج التى يدلى بها أحيانا لمقاومة الهجرة أن المهاجرين يرسلون مقادير عظيمة من المال الى أوربا . فقد أرسلوا فى سنة ١٩٠٢، ٢٧٥ مليون ريال ولكن لا بد لنا أن نعترف بأن أوربا هى التى اتحفت هؤلاء المهاجرين وأننا كنا نتكلف ألف ريال لكل فرد على الأقل لو أننا ربيناه حتى يكون رجلا . واذ أننا تلقينا فى تلك السنة (١٩٠٧) فوق المليون وربع المليون من المهاجرين الذين اذا قدرناهم، على اعتباراتهم آلات اقتصادية، كانت قيمتهم لأمريكا ألف مليون من الريالات ، فالفرق الحادث لمصلحتنا ٧٢٥ مليونا وهذه صفقة رابحة .

الآثار الاجتماعية للهجرة — مستوى المعيشة

عند ما تناولنا بالدرس مختلف الجنسيات التى يتألف منها المهاجرون إلينا لاحظنا أن كل جنسية جلبت معها مستوى المعيشة فى القطر الذى هاجرت منه . وقد أكدنا هذا على وجه التخصيص فيما يتعلق بآرائهم فى الأجور وضرورات الحياة — وبعبارة أخرى بمستوياتهم

فى الدخل والنفقة ، وقد ألفينا أن المهاجر كان شرا على العامل الأمريكى الوطنى لأن الأول كان قادرا وقابلا أن يعيش فى مستوى اقتصادى أدنى من الأمريكى . وأنه كان يقنع بربح أقل ، ولا يرغب إلا فى قليل من الإنفاق وليس المستوى المعاشى مقصورا على نوع المطعم والملبس والمسكن بل يتعداه إلى المستوى الأدبى والخلق .

ثم إن المقياس الاقتصادى يؤثر فى جميع مناحى الحياة مدرجة ما بيد أن هناك مقاييس أخرى لا تقل عن تلك أهمية . فالمهاجر يجلب معه آراء تخالف آراءنا فيا يختص بمقام المرأة فهى فى نظرهم إنسان أحط شأنا من الرجل وبعض الأجناس يعاملها معاملة الخادم المرهق ويصدق هذا بوجه خاص على البولانديين فنساؤهم لا يرون أمرا عجبا أن يضربهن أزواجهن بل الواقع انهن يتعجبن إذا لم يضربهن الأزواج . ثم إنه بعد أن يعيش المهاجرون بعض الزمن فى الولايات المتحدة يغيرون من آرائهم بطبيعة الحال ولكن البولانديين دائمو الوقوع تحت يد الشرطة بسبب ضربهم أزواجهم . وللألمان فى المرأة رأى منحط إذ يرون أن عملها هو خدمة الرجل . أما الإيطالى فانه يعامل زوجته معاملة حسنة جدا وإن كان لا يشعر بغضاضة فى أن تعمل معه فى الحقول أو تدخل فى المعامل حتى تحسن حالة المنزل المالية ، فاذا تحسنت فسرعان ما تترك الحقل والمصنع .

وللهاجر آراء مختلفة أيضا فيا يختص بالتربية فهو يعد التعليم الإلزامى نوعا من المضايقة ولا يبعث بأولاده إلى المدرسة إلا اذا أجبر على ذلك . فهو ينظر إلى الأولاد لا على أنه مكلف بالإنفاق عليهم ، بل على أنهم مورد رزق له . ويرى عادة أن التعليم أذى لا بد منه لأنه يضعف من امكان استغلال الأسرة لأطفالها استغلالا مبكرا ، لذلك فانه لا يبلغ الطفل حد السن التى ينتهى فيها دور التعليم الإجبارى حتى يخرجه أبوه من المدرسة ، ويندر أن يتركه حتى يتم السنة الدراسية . هذه الرغبة فى زيادة المكاسب تؤدى إلى نقيصة تشغيل الاحداث والالتجاء الى طرق التزوير لحصول على رخص لمزاولة الأعمال والى طرق أخرى للتهريب من المدرسة ، ولتفادى قوانين استخدام الأحداث . على أن الجيل الثانى من المهاجرين يشعرون بالحاجة الى التعليم وهم فى العادة يعملون على مواظبة أولادهم على الذهاب الى المدرسة .

ويجلب المهاجر معه ، ولا سيما الفرنسى والألمانى والروسى ، آراء خلقية فيا يتعلق بالعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة تختلف عن وجهة النظر الأمريكى . فالقوانين الخلقية ليست شديدة فى أوربا شدتها فى الولايات المتحدة اذ أن فى كثير من أقطارها لوائح تشريعية لتنظيم الرذيلة ، فالعهر معتبر فيها حرفة يبيحها القانون . ولقد كان لهذا الأمر أثر سيء فى مستوانا الخلقى فان معظم من امتلأت بهن مواخيرنا من النساء المهاجرات جلب كثير منهن

خصيصا لهذا الغرض وأغرى بعضهن ، أو حلن على تلك الرذيلة بعد وصولهن الى بلادنا . والمرأة المهاجرة جاهلة عاداتنا وهى لذلك فريسة سهلة الاقتناص . ذلك الى أنهم فى أوربا يفحصون العواهر طبيا وبذلك يبقين الى حد ما خاليات من الامراض . أما فى هذه البلاد فلا يوجد فحص طبى من هـذا النوع . لهذا السبب ينشر المهاجرات الأمراض التناسلية أكثر مما كن يفعلن فى بلادهن الأصلية . ولقد اضطر المهاجر بتأثير الأحوال الاقتصادية أن يعيش بالقرب من مناطق "النور الأحمر" * فى مدننا الكبيرة فكان بهذا أكثر تعرضا للغواية وأكثر استهدافا للاصابة بالأمراض . ولقد كان أثر ذلك سيئا على وجه التخصيص فى الجيل الثـانى .

ولقد جلب كثيرون من المهاجرين معهم عادة شرب الخمر. فالارلنديون مغرمون بالويسكى وكذلك البولانديون كما أن المهاجرين من الألمـان اليد الطولى فى نمو صناعة الجعة وفرط الزيادة فى مقدار ما يستهلك منها . ولقد كان لصاحب الحان "الصالة" بين هؤلاء الأقوام قبل عهد التحريم نفوذ اجتماعى يعتد به كما كان شأن صاحب الحان فى عهد البوريتان (Puritans) الأول .

كذلك فيما يختص بالمحافظة على حرمة يوم الأحد مثل على اختلاف المستويات الخلقية. لقد أتى المهاجر من بلاد لا ترعى فيها حرمة الأحد كثيرا . ولا شك فى أنه كان لذلك بعض الأثر فى اضمحلال عادة الرعاية لحرمة الأحد بيننا. فاذا كانت نتيجة الجمع بين فريقين من الناس تختلف مستوياتهم الخلقية اختلافا بينا، كانت النتيجة أنه بينما ارتفع المستوى الخلقى للمهاجرين وسما منسوب الفضيلة بينهم هبط مستوانا الخلقى هبوطا لاشك فيه . وفضلا عن هـذا نزل المهاجرون بين أحط طبقات الأمريكيين فلم يتصلوا من أجل ذلك بأرقى مستوياتنا ولا أفضلها ، ولذلك لم يكن تأثيرنا فيهم فى أغلب الأحيان بارزا .

الجريمـــة

كثيرا ما قيل إن الهجرة زادت الجـرائم وساعدت على ملء سجوننا واصلاحياتنا ولكن الاحصاءات لا تؤيد هذا أو هى على أقل تقدير لا تدل على أن الزيادة مروعة فإن الأحصاء الخاص الذى صدر عن السجون فى سـنة ١٩٠٤ يدل على أن ٢٣٫٧ فى المـائة من الرجال البيض السجناء فى ذلك الوقت فى الولايات المتحدة كانوا من المهاجرين المـولودين فى خارج الولايات المتحدة وأن ٢٣ فى المـائة من السكان البيض عامة ممن هم فوق الخامسة عشرة من الذكور ، من مواليد الخـارج . وفى سنة ١٩١٠ كانت النسبة المئوية للذكور البيض

* كناية عن الأحياء المستهترة .

فى السجناء ٢٢٫٣ على حين أن نسبة عدد سكاننا زادت زيادة طفيفة . ولقد كانت نسبة أحكام الأدانة أكبر إذ وصلت فى سنة ١٩١٠ إلى ٢٦٫١٪ فى الذكور البيض من السجناء . والسبب فى هذا راجع إلى كثرة عدد الجرائم الصغرى كالسكر والعربدة ، وإذا لاحظنا أن الجريمة إنما يقترفها الرجال فى ريعان حياتهم وأن المهاجر ناء عن وطنه نأيا ربما كان قاطعا لكل أواصر الصلة وأنه يجتاز بالضرورة وقتا عصيبا من أوقات حياته وأنه فضلا عن هذا وذاك واقع فى أسوأ بيئاتنا كان لا بد لنا أن نسلم بأن ما يظهر لنا لا يوجب الذعر البتة . أما الإحصاءات الخاصة بالمولودين فى بلادنا من أبوين أجنبيين فهى أسوأ من هذه التى ذكرناها وفى هذا دلالة على مدى أثرنا فى المهاجرين . لأنه لما كان أولاد المهاجرين يربون غالبا فى أسوأ حياتنا الفقيرة تحت إشراف غير كاف من آبائهم كان من السهل تعليل تلك الحالة . فالآباء بعيدون عن أولادهم يشتغلون طول اليوم ، وكثيرا ما تكون أمهاتهم بعيدات عنهم كذلك فيبقى الأولاد لهذا السبب أحرارا يفعلون ما يشاءون. وعلى فرض بقاء الأبوين فى البيت فان الأولاد كثيرا ما ينظرون اليهما نظرة استهانة بسبب جهلهما وسوء منظرهما ذلك أن الأولاد يستطيعون أن يتكلموا الانجليزية أما الآباء فكثيرا ما يظلون على جهلهم بها ؛ وبسبب هذا الاختلاف كان الولد أرقى من الوالدين فى كثير من المناحى ، فهو بدلا من أن يوقر أباه وأمه تراه يحتقرهما . ومتى فقد الولد دليله فى الحياة انحدر الى عادات من يحيطون به.

وبعض الشعوب أجنح الى الجريمة من سواهم والإرلنديون فى هذه الناحية فى مقدمة جميع الشعوب . ففى سنة ١٩١٠ كان عددهم يعادل ١٠٫١ فى المائة من سكان البلاد المولودين فى الخارج، ومع ذلك كان نصيبهم فى جرائم هذا الفريق ٢٦٫٩ فى المائة . وكانت هذه الجرائم فى أكثرها من الصغائر وأخصها السكر والعربدة . أما الايطاليون فهم على العكس من ذلك يقترفون الجرائم الخطيرة، ويتقدمون جميع الجنسيات فى الاعتداءات. وفى سنة ١٩٠٤ كان ١٤٫٤ فى المائة من كبار المجرمين فى الولايات المتحدة من الايطاليين فى حين أن نسبتهم فى عدد السكان ٤٫٧ فى المائة . وفى مدينة نيو يورك كان ٢٦٫٩ فى المائة من الذين أدينوا سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ فى جرائم الاعتداء على الذات من الايطاليين، على أن نسبتهم من عدد سكان هذه المدينة سبعة فى المائة فقط. " واليد السوداء " مصدر آخر من مصادر الشرور الايطالية . والصقالبة ولا سيما البولنديون يجنحون الى جريمة الاعتداء على الذات ولا سيما اذا كانوا تحت تأثير الخمر . وبالنظر الى كون المهاجر يعيش فى قطر جديد وأنه يجهل قوانينه التى تختلف عما اعتاد فى بلاده وأنه مقطوع الصلة ببلاده الأصلية تماما ، وأنه ليس على قدم المساواة مع غيره فى المحاكم إذ يقف أمام قاض لا يعطف عليه وأنه ليس أمامه من فرص الدفاع إلا قليل ، فهو لهذا أشد تعرضا للإدانة — بالنظر الى كل ذلك لا يمكن إثبات أن المهاجر مجرم بسليقته .

الأميـــة

ساعدت الهجرة كثيرا على زيادة حالة الأمية فى الولايات المتحدة ولا سيما الولايات الشمالية منها ، فقد كان من الـ ٤,٩٣١,٩٠٥ أمى الذين أحصوا فى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٢٠ ، ١,٢٤٢,٥٧٢ من الأهالى البيض و ١,٧٦٣,٧٤٠ من المهاجرين المولودين فى الخارج و ١,٨٤٢,١٦١ من الزنوج . والسبب الأكبر فى زيادة الأمية فى الولايات الجنوبية هو الزنوج ، ولكنها فى الشمال ناشئة برمتها تقريبا من الهجرة كما ترى من الجدول الآتى بعد. ويتضح من احصاء سنة ١٩٢٠ أن ١١ فى المائة من سكان الولايات المتحدة البيض المولودين فى الخارج ، الذين فى سن العاشرة فما فوقها ، لا يتكلمون الانجليزية، يقابلهم ٢٢,٨ فى المائة فى سنة ١٩١٠ . ولعل أهم سبب فى هذا النقصان راجع الى مجهودنا منذ الحرب فى سبيل إعداد مهاجرينا لاكتساب الوطنية الأمريكية ، وإلى تأثير قانون اختبار القراءة والكتابة، إذ أنه يرفض قبول أولئك الذين هم أقل استعدادا لتعلم لغتنا . وتوجد أكبر نسبة فى ولاية اريزونا، إذ هى ٥١,٩ فى المائة، وفى تكساس وهى ٥١,٧ وفى نيومكسيكو ٤٩,٤ بسبب جوارها من بلاد المكسيك . ويتعلم أطفال المهاجرين لغتنا ، بل إن أحفاد هؤلاء المهاجرين يكونون على حد المساواة مع سلالة الأمريكيين الوطنيين . ونجد أنه حيثما تكون نسبة الأميــة بين المهاجرين عالية يكون مقدار المـال الذى يربحونه قليلا ، بل الواقع أننا اذا عكسنا الأرقام الواردة فى الجدول الذى سبقت الإشارة اليه (وهو آت بعد) حصلنا على أحوالهم النسبية من الوجهة الاقتصادية . ونحن نجد أن الأمية أكثر انتشارا بين الإناث نظرا الى مركز المرأة فى أوربا ، كما أن النساء أبطأ فى تعلم لغتنا من الرجال، لأن اختلاط الرجال بالامريكيين أكثر ، وأنهم لهذا مضطرون الى تعلم اللغة . وهذا مشاهد فى الجنوب الغربى حيث تجد الرجال المكسيكيين يتكلمون الانجليزية — أو يعرفون منها ما يكفى ليفهمهم السامع فى حين أن قليلا من النساء هناك يتكلمن الانجليزية أو يفهمنها . والواقع أن الأمية مشكلة خطيرة إذ تجعل اندماج المهاجرين فينا أمرا صعبا . فاذا كان المهاجر يعرف كيف يقرأ ويكتب لغته سهل عليــه أن يتعلم لغتنا ، واذا لم يكن يعرف ذلك كانت معرفته لغتنا من الأمور الشاقة عليه إن لم تكن مستحيلة . واذا لم يتعلم المهاجر قط قراءة الانجليزية أو كتابتها — فمن المستحيل أن يستطيع جرائدنا ومجلاتنا وكتبنا ، ومن ثم تنسد فى وجهه كل مسالك الاتصال بنا . ومن الصعب جدا أن نعلم مثل هذا المهاجر عاداتنا وعرفنا بله مثلنا العليا وسنن حياتنا . هــذه هى الأسباب التى من أجلها ألح إلحاحا شديدا فى اختبار المهاجر فى القراءة والكتابة ، وفى صدور قانون آخر الأمر يحتم هذا الاختبار بالرغم من محاولة الجهات التنفيذية العليا عندنا نقض هذا المشروع .

الأميون فى الوطنيين البيض ، وفى البيض المولودين فى الخارج ، وفى الزنوج ، من سكان البلاد من سن ١٠ سنوات فما فوق تبعا للأقسام الجغرافية والولايات سنة ١٩٢٠

القسم والولاية	الوطنيون البيض			الوطنيون المولودون فى الخارج			الزنوج		
	المجموع	أميون		المجموع	أميون		المجموع	أميون	
		العدد	النسبة المئوية		العدد	النسبة المئوية		العدد	النسبة المئوية
الولايات المتحدة	٦٠,٨٦١,٨٦٣	١,٢٤٢,٥٧٢	٢٫٠	١٣,٤٩٧,٨٨٦	١,٧٦٣,٧٤٠	١٣٫١	٨,٠٥٣,٢٢٥	١,٨٤٢,١٦١	٢٢٫٩
التقسيم الجغرافى									
نيو انجلاند	٤,٠٣٢,٥٤٣	٢٦,٩٤٤	٠٫٧	١,٨٤٣,٠٢٨	٢٥٧,٢٠٧	١٤٫٠	٦٥,٢٨١	٤,٦٠٧	٧٫١
أطلانتا الوسطى	١٢,٢٨٨,١٧١	٧٦,٦٩٢	٠٫٩	٤,٨٠٣,٢٥٦	٧٦٠,٠١٠	١٥٫٧	٥٠٨,٠٣١	٢٥,٥٨٧	٥٫٠
كارولينا الشمالية الشرقيه	١٣,٤١٩,٢٥٩	١١٧,١٨٣	٠٫٩	٣,١٨٣,٧٩٠	٣٤٢,٨٣٢	١٠٫٨	٤٤٠,١٢٩	٣٢,٠٥٢	٧٫٣
كارولينا الشمالية الغربية	٨,٢٦٤,٢٣٥	٧٤,٦٣٢	٠٫٩	١,٣٥٨,٣٢٣	٨٦,٧٦٠	٦٫٤	٢٣٧,٢٧٧	٢٤,٨٨٧	١٠٫٥
أطلانتا الجنوبية	٦,٩٦٨,٨٨١	٣٥٦,٧٨٥	٥٫١	٣١١,٣٨٥	٣٣٩,٧٥٧	١٢٫٨	٣,٢٢١,٦٩٤	٨١٢,٨٤٢	٢٥٫٢
كارولينا الجنوبية الشرقية	٤,٦٧٩,٥٩٦	٣٠١,٦٥١	٦٫٤	٧١,٢١١	٦,٤٥٧	٩٫١	١,٩٢٤,٧١٤	٥٣٦,٥٨٣	٢٧٫٩
كارولينا الجنوبية الغربية	٥,٦٧٨,٤١٢	٢٣٤,٤٢٩	٤٫١	٤٣٠,٠٥٣	١٢٨,٧٢٥	٢٩٫٩	١,٥٨٧,٠٢٠	٤٠٢,٢٣٣	٢٥٫٣
الجبلى	٢,٠٣١,٣٤٦	٤٠,٨٦٠	٢٫٠	٤٣٦,٣٠٤	٥٥,٤٢٢	١٢٫٧	٢٧,٧٤١	١,٤٥٧	٥٫٣
الباسيفيكى...	٣,٤٢٩,٤٢٠	١٣,١١٦	٠٫٤	١,٠١٠,٥٣٦	٨٦,٥٧٠	٨٫٦	٤١,٣٤٨	١,٩١٣	٤٫٦

الفقر

لما كان المهاجر يأتى الى أمريكا فى ريعان الحياة حيث يكون أقدر ما يكون على التكسب ، ولما كان فى العادة أعزب فالمنظور ألا يكون بينهم من المعدمين إلا قليل إذا لم يكن ثمة ما يدعو الى الفاقة من أحوال أخرى . على أن المهاجر يرزح تحت عبء الجهل ، ولا سيما الجهل بلغتنا ، وهو لذلك كثيرا ما يكون فى حاجة الى معونة وقتية . ولما كان مركزه الاقتصادى فى أحط درجاته ، فإنه إذا عجز عن الحصول على عمل ، أو فقد مركزه بعد حصوله على العمل — ساءت حاله فاضطر الى الالتجاء الى إحسان الجمعيات ، أو معونة الأفراد . وإذا كانت له أسرة كان عبؤه أثقل ، بل لو كان مشتغلا لوجد أنه من الصعب أن يعول أسرته بسبب غلو أثماننا ، وبسبب الأجور المنخفضة التى يضطر الى قبولها بسبب جهله ، وعدم استعداده الفنى .

وقد ظهر من تقرير مدير قسم المهاجرة لسنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ أن من الـ ٢٨٨٫٣٩٥ لاجئا الى الملاجئ الخيرية فى الولايات المتحدة كان ٦٠٫٠٢٥ من المولودين فى الخارج أى بنسبة ٢١ فى المائة ، والمولودون فى الخارج لا يكونون إلا ١٥ فى المائة من سكاننا . على أن نسبتهم فى نيويورك لم تكن عالية إلى هذا الحد ، ولم تبلغ نسبة عدد اللاجئين الى الملاجئ الخيرية منهم إلا ١٠٫٤ فى المائة فقط . نعم ليست هذه الأرقام سيئة جدا ، ولكنها لا تكشف عن حقيقة المعضلة بتاتا ، فإن كثيرا من مهاجرينا الذين لا يلجأون الى معونة الجماعات العامة يكونون فى ضنك شديد من العيش ، فكثيرا ما يذهب أولادهم الى المدارس بلا طعام مطلقا وهم على الأكثر غير مزودين بما يكفيهم من الطعام لمزاولة عملهم الدراسى مزاولة ناجحة . وقد قدر فى أوقات مختلفة أن من ٢٥ إلى ٣٠ فى المائة من أطفال المدارس فى أمثال نيويورك وشيكاجو من المدن لا يتناولون من الغذاء ما يحتفظ لهم بالحيوية الى درجة يستطيعون معها أن يقوموا بأعمالهم المدرسية بحالة مرضية . ومن بين هؤلاء نسبة عظيمة من أبناء المهاجرين ، فكثيرا ما يكون الأبوان بعيدين فى أعمالهما فلا يجد الطفل طعام غداء مطلقا وإن وفق لم يكن كافيا . وهذه الحالة أشد خطرا من فقر البالغين ، لأنها تؤدى الى نشوء جيل ضعيف البنية منحط القوى . وهى مثل معضلة الجريمة من وجه واحد وهو أن الجيل الثانى هو الذى ينوء بالخسران . فلما كان الأطفال يتركون فى الشوارع كان لا بد أن يفقدوا استقلالهم ، ولا ينمو فيهم ما لآبائهم من نشاط واقتصاد ويقل شعورهم بضرورة الإنفاق على قدر الدخل ، كما أنهم يصبحون أقزاما منحطين جسمانيا بسبب البيئة التى هم فيها ، وبسبب نقص الطعام المغذى وفقدان الهواء النقى وبالجملة لانتفاء الأحوال الملائمة للصحة . وقد نشأت هذه الأحوال عن جهل الوالدين وفقرهما ، إذ يعيشان معهم فى أسوأ المساكن فى المدن ،

ويغلقون نوافذها بالليل وتزدحم بهم حجراتهم على أسوأ صورة، وإذ أن الجيل الثانى غير صالح من الوجهة البدنية ، وناقص القوة الخلقية ، فهو على تمام الاستعداد للالتجاء الى موارد الإحسان . وهذه مسألة يمكن معالجتها ، إذ يمكن التغلب عليها بوضع قوانين صالحة للبانى تمنع إقامة أو استعمال ما كان منها مانعا من دخول الهواء النقى ، وبوجوب التفتيش فيما يختص بأحوال الازدحام فيها ، وبزيادة الانتباه الى صحة أبدان الأولاد ، وإن سن تشريع واف لمسألة استخدام الأحداث وتنفيذ ذلك التشريع من شأنه أن يزيل شطرا كبيرا من هذه الآفة. كما أن وضع حد أدنى للأجور يمكن الوالدين من زيادة الكسب فيستطيعون بذلك تهيئة طعام ولباس وسكن بصورة أفضل . فالذنب فى الحالة الحاضرة اليوم هو فى أكثر أمره ذنب المدنية لا ذنب المهاجر .

على أننا نلاحظ فرقا ظاهرا فى مسلك المهاجرين حيال الاعتماد على الإحسان تبعا لبلادهم الأصلية التى هاجروا منها إلينا ، من حيث هى فى شمالى أوربا أو فى جنوبيها ، فنجد أن الإيطاليين ولا سيما المهاجرون من جنوبى إيطاليا وبخاصة من نابولى ، ينتظرون الإعانة الى حد ما ، فهم يسمعون عن طرقنا فى توزيع الصدقات ، ويأتون إلينا على أمل الحصول على المعونة ، ولا يكادون يضعون قدما فى البلاد حتى يعرفوا الجمعيات والطوائف التى تشترك فى إعانة الفقراء .

كان المهاجرون فيما سبق ينوون أن يشقوا طريق مستقبلهم بأيديهم وجهودهم ، أما مهاجرو اليوم فهم غير متشبعين بهذا الشعور تشبع أسلافهم . وقصارى القول أن مسألة عدم المهاجرين قد بولغ فيها أيما مبالغة ، على حين أنه لم يعط لمسألة فقر المهاجرين وما تجره من الانحطاط فى الجيل الثانى العناية اللازمة .

آثار اجتماعية متنوعة

ذكرنا مسألة انحلال العاطفة الدينية ، وما يصحبها من عدم رعاية حرمة الأحد . وهناك شيء آخر جدير بالملاحظة ، ألا وهو تغير العقيدة الدينية بتغير مصدر الهجرة، من البروتستانت الى الكاثوليك. فإن مهاجرينا الحديثين يكادون يفدون جميعا من بلاد كاثوليكية، وليس هذا فى ذاته معضلة ، وإن كنا نجد أن المذهب الكاثوليكى فى جملته أشد جمودا من البروتستانتى ، وأشد معارضة لكثير من الاصلاحات عندنا ، ولا سيما فيما يتعلق بحق النساء فى الانتخاب وفى تحريم الخمور . فأتباعه أقل تقديرا للمرأة من البروتستانت بكثير . والكنيسة الكاثوليكية تحث عادة على تكوين أسرة كبيرة العدد كى يزداد عدد ابنائها ، ولكن هذه الأسر الكبيرة تأتى عادة فى الطبقات التى هى أقل اقتدارا على القيام بشؤونها ، فهى لذلك تعمل على زيادة حالة الفقر . ولكن الكنيسة الكاثوليكية من جهة أخرى ذات نظام بديع لإعانة الفقراء .

أشرنا فيما سبق إلى معضلة تعليم المهاجر ، ولا سيما ما يتعلق بتردده فى إرسال أبنائه إلى المدرسة وعادة إخراجهم منها ساعة أن يسمح القانون بذلك . وهناك وجه آخر للمسألة وهو صعوبة الاتصال بالطفل حينما يكون فى المدرسة، فهو لا يألف أحوالنا وتقاليدنا وتاريخنا ، ولذلك يجد المعلم صعوبة عظيمة فى ربط تعاليم المدرسة بحياة الطفل المنزلية. والقائم بالتعليم فى العادة نساء ، ولما كان المهاجر يرى المرأة فى مقام منحط كان ابن المهاجر لا يحترم معلمته إلا قليلا . وعلى الجملة إن طفل المهاجر يعد مشكلة خطيرة. ويزيد المشكلة تعقدا أن سوء التغذية وقلة الكسوة وعدم كفاية الوسائل الصحية يجعل ابن المهاجر غير أهل من الوجهة البدنية للاستفادة من جهود معلمته .

وقد اختلّت الهجرة بالتوازن بين نسبة الجنسين، فقد كان ثلثا المهاجرين منذ سنوات عدة من الذكور، وكانت النسبة فى سنة ١٩٠٧، ٩٢٩,٩٧٦ من الذكور الى ٣٥٥,٢٧٣ من الإناث ويعود الى أوربا من الرجال عدد أكثر من عدد النساء . وفى سنة ١٩٢٠ كان بالبلاد من البيض المهاجرين ٧,٥٢٨,٣٢٢ من الذكور يقابلهم ٦,١٨٤,٤٣٢ من النساء ، وهذا هو السبب الرئيسى فى زيادة عدد الذكور على الإناث فى الولايات المتحدة إذ كانت النسبة فيها ١٠٦ من الذكور إلى ١٠٠ من الإناث فى سنة ١٩١٠ وكانت ١٠٤ من الذكور إلى ١٠٠ من الإناث فى سنة ١٩٢٠. ونحن فى العادة نعد الهجرة من الأسباب فى زيادة عدد سكاننا، ولكن يجدر بنا أن نذكر أن المهاجرين شرعوا يفدون إلينا فى أفواج كبيرة فى السنوات التى بين ١٨٤٠و١٨٥٠ وهو الوقت الذى أخذت بعده نسبة المواليد الوطنيين تنقص باطراد. ويزعم بعض الكتاب بناء على ماتقدم أنه إذا لم يكن قد هاجر إلينا هؤلاء المهاجرون كان عدد سكاننا يزيد بنفس السرعة التى زاد بها، وأن نسبة المواليد الوطنيين إنما نقصت بنسبة زيادة الهجرة، وأنه لما كان الوطنى قد اضطر الى منافسة المهاجر فقد قلت نسبة المواليد عنده لهذا السبب.

على أن نسبة المواليد ربما كانت قد نقصت على أى حال، وأن الهجرة ربما كانت السبب فى الاحتفاظ بالزيادة فى عدد سكاننا . وفى الكتاب من يذهبون الى حد أن يقدموا إحصاءات تدل على أن سكان الجنوب قد زاد عددهم بدون الهجرة بنفس سرعة الزيادة فى سكان الشمال مع الهجرة . ولكن نظرا لما فى الإحصاءات من الأخطاء ، ولما هناك من أسباب أخرى ذات أثر فى الموضوع، قد أهملنا بيان هذه الموازنة هنا. ولما كانت الهجرة قد دفعت بالوطنى إلى الارتقاء فى المعراج الاقتصادى ، ولما كانت الطبقات العليا أقل أولادا فى العادة — فقد تعد الهجرة سببا فى هبوط المواليد بين الوطنيين . ولكن حتى على فرض صدق هذا — فان المؤلف عاجز عن أن يتبين الخسارة التى أصابت هذه البلاد . على أن هذه المسألة برمتها ليست إلا فرضا نظريا، وليس لدينا شئ قاطع يدلنا على أن الهجرة قد أثرت فى نسبة مواليدنا ، وإن كانت وجوه الاحتمال كلها تشعر بذلك .

لا غرو أن نجد الهجرة تسبب اضطرابا اجتماعيا لأن دخول أى عنصر جديد يجلب معه اختلالا فى توازن أى مجتمع ، فلامفر حينئذ من أن تترقب حدوث صعوبات فى اندماج هذه العناصر الجديدة فى المجتمع الأصلى . ولو أن الهجرة كانت موزعة توزيعا معتدلا لكان اندماج المهاجرين أسرع ، ولكن اذا كان المهاجرون يستقرون جماعات تكاد تكون منعزلة ، وكانوا كما هم الآن غير مضطرين الى الاتصال بالأهالى الوطنيين — فان حالة الاندماج تكون أشد صعوبة ، أو أبطأ سيرا .

التأثيرات السياسية للهجرة

أصبح مهاجر الأمس الى حد بعيد وطنى اليوم، وسيكون مهاجر اليوم الى حد بعيد وطنى الغد . ففى سنة ١٩٢٠ تجنس بالجنسية الأمريكية من الـ ٦,٩٢٨,٤٥٢ الذكور البيض المهاجرين الذين هم فى سن الحادية والعشرين فمافوق ٤٧,٨ فى المائة . كما أن ١٦,١ فى المائة منهم أخذوا بالفعل أوراقهم الأولى ، ومن الـ ٥,٥٧٠,٢٦٨ الإناث البيض المهاجرات اللاتى فى هذه السن تجنس ٥٢ فى المائة . كما أن ١,٤ فى المائة منهن أخذن أوراقهن الأولى[٢] . وقد كان ٢٢,٧ فى المائة من مجموع عدد السكان البيض الذين فى الحادية والعشرين من العمر فما فوقها من المهاجرين ، و ١١,٣ فى المائة مهاجرين متجنسين فى سنة ١٩٢٠ . وعليه نرى ١٤٨ مهاجرا أبيض متجنسا لكل ألف وطنى من السكان البيض الذين هم فى سن التصويت . وتختلف نسبة أولئك الذين يتجنسون اختلافا كبيرا تبعا لجنسيتهم الأصلية ، فتتراوح بين ٧٤,٤ فى المائة بين المهاجرين من ويلز و ٥,٥ فى المائة بين المكسيكيين . وقد كانت النسبة المئوية للتجنسين بالجنسية الأمريكية من مهاجرى خمسة الأقطار التى تمدنا بأكبر عدد من المهاجرين كما يأتى :

ألمانيا ٧٣,٦، وارلنده ٦٦,١ ، وروسيا ٤٢,١ ، وايطاليا ٢٩,٦ ، وهولنده ٢٨,٩ . وبصفة عامة نجد أن جميع الأقطار الأوربية الشمالية لها أعلى نسبة فى التجنس ، وتأتى الأمم الصقلبية فى الوسط ، والذين من أوربا الجنوبية فى الآخر . والخطر انما يتأتى من أنه يوم يصبح المهاجر وطنيا لا يستطيع أن يدرك قيمة التصويت لأنه لا يستند الى التقاليد التى يتشبع

---

(٢) السبب فى هذا الفرق يرجع الى القاعدة التى تقتضى أن زوجة المصوت المتجنس تعتبر أيضا متجنسة ، أما زوجة الشخص الذى لم يأخذ الا أوراقه الأولى فانها تظل أجنبية ، واجراءات التجنس الخاصة بالمرأة هى عين الاجراءات الخاصة بالرجل . والأرملة أو الزوجة المطلقة تحتفظ بالجنسية اذا كانت لها فى حالتها السابقة ، ولكن اذا كانت لا تزال أجنبية فان فى استطاعتها أن تتجنس بنفس الطريقة التى يجرى عليها الرجل .

بها الوطنى الأصلى . فإذا أضيف إلى هـذا جهله بأساليب السياسة الأمريكية ، كان سهل الانقياد فى يد السياسى الأمريكى المناضل ومديرى أعمال الأحزاب . وقد كان فى المـاضى إلى حد كبير تحت نفوذ أصحاب الحانات .

وكثيرا ما يكون التصويت مجرد وسيلة لزيادة دخل المصوت كما ورد فى خطاب الايطالى الذى كتب إلى صديق له فى باليرمو (Palermo) وذكره الاستاذ روس[٣] (Prof. Ross) "هلم إلى هذه الديار بالوبجى وأسرع. هذا بلد عجيب. ففى استطاعتك أن تفعل كل ماتريد، وفضلا عن هذا فإنهم يعطونك صوتا تستطيع أن تبيعه بريالين " . هذا أحد الأسباب فى أن بعض الجمعيات السياسية مثل تامانى (Tammar y) فى نيويورك ، وتومسون (Thomson) فى شيكاغو فى استطاعتها أن تسيطر على أصوات الوطنيين المتجنسين وتحركها إلى أى جانب تريد.

نعم إن المدن التى فيها نسبة المهاجرين قليلة كثيرا ما يكون فى حكومتها من الفساد ما فى حكومات المدن التى فيها نسـبة المهاجرين عالية ، ولكن صوت المهاجر على أى حال ليس ناضجا نضوج صوت الوطنى ، ولذلك كان أطوع لوسائل الاستغلال .

وبعض الجنسيات ذات غرام خاص بالسياسة، ويصدق هذا بصفة خاصة على الأرلنديين الذين هم زعماؤنا السياسيون والذين يلقون بصوت جنسيتهم كتلة واحدة تقريبا . ولقد كان فى حكم المستحيل فى الخمس والعشرين أو الثلاثين السنة الماضية أن ينتخب لبوستون محافظ بل أى موظف آخر تقريبا دون أن يكون ارلنديا أو فاميول ارلنـدية . والبولنديون فى شيكاغو يماثلون الارلنديين فى بوستون فى أساليبهم السياسية، وأن لم يكونوا أقوياء مثلهم. وليس من عادة المهاجر أن يهتم كثيرا بمسائلنا أو مبادئنا وإنمـا يصوت أكثر ما يصوت لأصدقائه . وتستطيع الجمعيات السياسـية التى من قبيل تامانى السالفة الذكر أن تستولى عليه لأنها تعمل على اكتساب صداقته يوم يكون فى حاجة . على أن المهاجر مهما يكن أمره غير موجب للذعر ، وإن كان يعد إلى حد ما عنصرا خطرا فى السياسة .

القيود القانونية للهجرة

لم تفطن القوة التشريعية إلى خطورة مشكلة الهجرة حتى سنة ١٨٧٥ ، وإن كان الرأى العام قبل ذلك بوقت طويل كان قد أخذ يشعر أن أمامه فى هـذا الصدد مشكلة . ولكن التشريع دائمـا أبطأ من الرأى العام . ففى سـنة ١٨٧٥ أصدرت السلطة التشريعية قانونا يقضى باستبعاد النساء المجلوبات لأغراض غير شريفة والمجرمين والعمال المستأجرين بعقود .

---

(٣) Century Magazine, January, 1914

وفى سـنة ١٨٨٢ صدر أول قانون عام ينظم المهاجرة وهـذا القانون ينص على استبعاد الأشخاص الذين يحتمل أن يصبحوا عالة على الجمهور ، مثل المجانين ، والمعتوهين ، والذين ليس فى يدهم ما يمكنهم من أن يعولوا أنفسهم . وفرض غرامة على ربان كل سفينة وعلى كل شركة ملاحة تستورد مثل هؤلاء . وحتم على شركة الملاحة التى تنقلهم أن تردهم مجانا الى القطر الذى منه ركبوا .

وأضاف قانون سـنة ١٨٩١ الى هذه الفئات المصابين بالأمراض المنفرة أو المعدية ، ومتعددى الزوجات ، وكل شخص دفع له غيره أجرة السفر إلا إذا ثبت ثبوتا قاطعا أنه ليس هناك من الأسباب الأخرى ما يجعله مبغضا . وحرم ذلك القانون على شركات الملاحة التوسع فى الإعلان ، إذ قصره على نشر قائمة بالأجور ومواعيد السفر . على أن هذا القيد الأخير لم تعد له قيمة بسبب فقدان الوسيلة لتنفيذه من قانون مقابل له فى البلاد الأجنبية . وقد قضى هذا القانون كذلك بأن ينفى من البلاد فى غضون سنة المهاجرين الذين يكونون قد دخلوا البلاد بغير حق قانونى ، والذين أصبحوا عالة على الجمهور لأسباب عرضت لهم قبل وصولهم ، وفرض ضريبة شخصية قدرها نصف ريال لتسد نفقات فحص المهاجر وإعالته وقت نزوله . وأحدث قانون سـنة ١٨٩٣ تعديلات إدارية كما رفع الضريبة الشخصية إلى ريالين . وأضاف إلى قائمة المستبعدين القوادين والفوضيين الذين يعينهم غير أصدقائهم . ووسع سلطة التفتيش لتشمل فحص الركاب الذين يسافرون فى حجرات السفينة . وفى سـنة ١٨٩٧ رفعت تلك الضريبة الشخصية الى أربعة ريالات .

وكان قانون سنة ١٩٠٣ أوسع نطاقا فانه بعـد أن أنزل الضريبة الشخصية إلى ريالين أعاد تعداد الفئات المستبعدة وجعلها كما يلى : (١) المعتوهين ، (٢) المجانين ، (٣) المصروعين ، (٤) الأشخاص الذين أصيبوا بجنون فى مدى السنوات الخمس السابقة على وصولهم ، (٥) الأشخاص الذين أصابتهم نوبتان من الجنون فى أى وقت سابق فى حياتهم ، (٦) المعدمين ، (٧) الأشخاص الذين يحتمل أن يصبحوا عالة على الجمهور ، (٨) محترفى الشحاتة ، (٩) الأشخاص المصابين بأمراض معدية أو منفرة ، (١٠) الأشخاص المحكوم عليهم فى جنح أو أفعال فاضحة تتضمن جرائم أدبية شنيعة (ولا يدخل فى هؤلاء من حكم عليهم فى جرائم سياسـية بحته) (١١) متعددى الزوجات ، (١٢) الفوضيين أو الأشخاص الذين يعتقدون أو يروجون قلب حكومة الولايات المتحدة ، أو قلب جميع الحكومات عامة أو قلب جميع أشكال القانون ، بالقوة أو العنف أو الذين يحبذون قتل الموظفين العموميين ، (١٣) العاهرات ، (١٤) الأشخاص الذين

يقودون أو يحاولون أن يجلبوا عاهرات أونساء للدعارة، (١٥) الذين دفع غيرهم أجرة سفرهم إلا إذا ثبت ثبوتا قاطعا أن الدافعين لا يدخلون فى عداد طائفة أخرى من الطوائف السابقة أو ثبت أن أقاربهم أو أصدقاءهم فى هذه البلاد قد بعثوا فى طلبهم . ولم يرد فى هذا القانون ذكر العمال المستخدمين بعقد لأن قوانين سنة ١٨٨٥ و ١٨٨٨ فى هذا الصدد لاتزال سارية .

وفضلا عن هـذا التشريع فان الاتفاقات التى عقدت مع الصين فى خلال السنين من ١٨٨٠ الى ١٨٩٠ نصت على استبعاد الصينيين .

وقد احتفظ قانون سنة ١٩٠٧ بمعظم معالم قانون سنة ١٩٠٣ سوى أنه زاد قليلا فى تحـديد الفئات المستبعدة ورفع الضريبة الشخصية الى أربعة ريالات وأدرج المـادة الخاصة بالمستأجرين من العمال بعقد، وقضى بأن يعود فى غضون ثلاث سنوات كل أجنبى وجد فى بيت للبغاء أو كان متخذا البغاء حرفة . وكذلك فرض غـرامة قدرها خمسة آلاف ريال أو سجن خمس سـنوات على من يجلب نساء للبغاء وغرامة الف ريال على جلب عمّال بعقد ومثلها على من يحـاول الحصول على إذن بدخول الولايات المتحدة لأى شخص عرضة للاستبعاد، وغرامة مائة ريال على شركة الملاحة عن كل مهاجر يؤبى عليه الدخول وثلثمائة ريال على شركة الملاحة كذلك عن كل مهاجر مردود ترفض إعادته من حيث أتت به . وتضمن القانون أيضـا نصوصا مفصـلة دقيقة عن نظام الفحص عن المهاجرين وتفتيشهم وحجـز من يحتاج أمره الى فحص خاص ونص كذلك على المواد اللازمة لنفى الذين يقرر فيما بعد نفيهم .

وقد أضاف قانون فبراير سنة ١٩١٧ « اختبار القراءة والكتابة » المشهور الذى جرى بشأنه نزاع كبير، إلى عداد المؤهلات اللازمة للدخول فى البلاد. وكان قد سبق للؤتمر أن أقر هذا الشرط مرات عدة، ولكنه كان يصادف فى كل مرة رفضا من رئيس الجمهورية فى أيام كليفلاند (Cleveland) وتافت (Taft) وويلسون (Wilson) وبعدأن رفضه الرئيس ويلسون مرتين أمكن الحصول على ثلثى أصوات المؤتمر اللازمة، وبذلك أصبح هذا الشرط قانونا . وهو يستبعد من الولايات المتحدة جميع الأجانب الذين فوق السادسة عشرة من العمر إذا كانوا لا يستطيعون قراءة اللغة الإنجليزية أو أية لغة أو لهجة أخرى . ولكنه سمح بدخول الزوجة الأمية أو الأب أو الأم أو الجد أو الجدة أو البنت غير المتزوجة أو المترملة لأى أجنبى تنطبق عليه شروط الهجرة. على أنه فى هذه الحالة يجب أن تكون سن الوالد أو الجد خمسا وخمسين سنة على الأقل ويكون فيما عدا ذلك مستوفيا بقيـة الشروط . ثم إن قانون « اختبار القراءة والكتابة » ليس من شأنه اسـتبعاد المجرمين الأشرار ولكن المرجو أن يقف فى وجه جانب كبير من الهجرة غير المرغوب فيها . وكذلك سيكون ظالما فى بعض الأوقات وربما منع عنا كثيرا ممن يمكن أن يصبحوا وطنيين مرغوبا فيهم ولكنه بصفة عامة سـيرد عن البلاد عددا

أكبر من أولئك بكثير ممن تكون هجرتهم إلينا أمراً غير مرغوب فيه. أما قانون مايو سنة ١٩٢١ الذى يقيد الهجرة فى أى شهر بعينه أو سنة بعينها بألا تزيد على ثلاثة فى المائة من عدد السكان المهاجرين اليها من كل جنسية ، طبقاً لإحصاء سنة ١٩١٠ ، فقد تناولناه فيما بعد وقد كان هذا أقوى الوسائل المتخذة حتى اليوم لتقييد الأعداد الحقيقية للمهاجرين وإن كان القانون محلا للانتقاد فى ذاته من حيث صنف الناس الذين يسمح لهم بالدخول .

وفضلا عن هذه القيود فقد وضعت قوانين عدة منذ سنة ١٨١٩ عاملة على حماية المهاجر ومنع ازدحام السفن ، وضرورة تهيئة الفراغ الهوائى الكافى والطعام المناسب ، وحمايته من المحتالين وما إلى ذلك . بل إن بعض القوانين شرعت للحث على الهجرة . ولكن حكومة الاتحاد لم تتول الإشراف على أمر الهجرة إلا منذ سنة ١٨٨٢ إذ كانت متروكة قبل ذلك لحكومة الولايات التى يهاجر اليها المهاجر. على أنه لم تصدر أية ولاية منها قوانين ضد الهجرة الى ذلك التاريخ ، لأنها لم تكن فيما مضى معتبرة ضارة حقيقة ، بل لقد أصدر كثير من الولايات قوانين للحث عليها .

القانون الذهبى

يستحق مشروع القانون الذى قدم فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٢١ دراسة خاصة إذ أنه يتضمن خير ما دبر ه العقول من الاقتراحات الأساسية لتنظيم أمر الهجرة حتى الآن. جاء فى الجزء الثانى منه ما يلى : «يعلن بهذا أن خطة الولايات المتحدة هى ألا تدخل بلادها كل سنة الا عددا محدودا من المهاجرين المطيعين للقانون من أية طائفة وطنية أو جنسية بشرط أن يكون أهلا لأن يستخدم بحيث لا يغير المستويات العادية لأمريكا فى الحياة والعمل والأجور وبحيث يكون أهلا كذلك لأن يندمج فى ذلك النوع من المجتمعات التى تتكلم الإنجليزية وبحيث يمكن أن يندمج أيضا فى كيان الدولة السياسى اندماجا سليما فى مدى مدة معقولة . وتقدر لجنة المهاجرة هذه الأهلية فى العمل وقوة الاندماج مستنيرة بخبرتها عن المهاجرين الآخرين الذين هم من نفس الطوائف الوطنية أو الجنسية أو من الملحقة بها » .

ولقد كانت نتيجة فرض ضرائب ثقيلة على شركات الملاحة أنها أصبحت تجرى فحص ركابها عند ما يستقلون الباخرة ، ولذلك لم يرفض على شواطئنا من طالبى الدخول حديثا الا عدد قليل .

وقد يترتب على بعض هذه القوانين شيء من الظلم أحيانا ولاسيما قوانين العمال المستخدمين بعقود فانها تستبعد الأصلح والأسوأ على حد سواء لأن الذين يكونون فى مراكز جيدة فى أوربا لا يمكن أن يتزلوا عنها حتى يضمنوا لأنفسهم مراكز أحسن فى هذه البلاد . ويصدق هذا بوجه التخصيص على مغنى الاوبرا والمعلمين وغيرهم من المحترفين . ولا بد من استثناء هؤلاء ، ومع ذلك ضييق كثير غيرهم من أولى الحرف ممنوعين بقوة القانون .

التشريع المقترح : زيادة الضريبة الشخصية

أن زيادة قيمة الضريبة الشخصية ممقوتة بوجه عام إذ لا معنى لها الا أنها وسيلة بجعل المهاجر الجديد أفقر مالا وفضلا هذا فأنها تكون ضريبة على أولئك الذين هم اقل من غيرهم قدرة على الدفع وهى سياسة تناقض النظرية الحديثة لفرض الضرائب .

تحتيم وجود مقدار معين من المـال

لو أنه حتم على كل مهاجر أن يكون معه مالا يقل عن حد أدنى من المـال عند وصوله لكان فى ذلك ضمان يقى المهاجر الوقوع فى الضيق مباشرة . ومن شأن هذا التحتيم أن يجعل المجيء الى هذه البلاد أشد صعوبة ، وبذلك يكون عائقا فى وجه الفريق الذى لايرغب فيه . ومع ذلك فالثروة ليست مقياسا للصلاحية فأن مثل هذا الشرط يمكن أن يتخلص منه بسهولة فكثيرا ما يرضى الصديق أن يقرض صديقه المبلغ المطلوب . ومع ذلك فانه اذا كان الإنسان حائزا من الثقة مايسمح باقراضه كان هذا دليلا على حسن خلقه اذ أن القرض لاتمتد به يد الى شخص غير شريف . ثم ان المهاجرين لايتساوون فى مقدار حاجتهم الى المـال لأن أولئك الذين يعيشون مع الأقارب والأصدقاء يكون اسهل عليهم أن يعيشوا وأن يجدوا عملا . ومع ذلك فان مثل هذا الشرط من شأنه أن يمنع كثيرا من الشقاء والضيق

الكشف البدنى

اذا تقرر اجراء كشف بدنى على المهاجر فلا بد أن يكون واحدا فى مشترطاته . ولكن من الصعب وضع مقياس يناسب الأجناس المختلفة إذ يحتاج الأمر فى ذلك الى مقـدار كبير من العمـل على أنه مع ذلك يكون خيرا من الشرط المـالى ، ومن شأنه على كل حال أن يحافظ على الكفاية البدنية فى جنسنا .

التفتيش القنصلى

منذ بضع سنين كانت فكرة اجراء تفتيش قنصلى رائجة وهو نظام يقضى بأن يكون الكشف على المهاجرين بمعرفة القناصل الأمريكية فى الجهات التى هم فيها. ولكن هناك اعتراضات كثيرة على هـذا المشروع ذلك أن التفتيش يتطلب زيادة عظيمة فى أعمالنا القنصلية ويتبع هـذا ازدحام المهاجرين لدى القنصلية قبيل رحيل الباخرة . ويترتب عليه استخدامنا كتبة كثيرين لا يبعد أن يكون بعضهم غير أهل؛ وفرص الرشوة فى هذه الحالة لا حد لها . وفضلا عن هذا فلا يتنظر أن يكون القناصل دائما من الخبرة بدرجة من لنا من الموظفين فى أليس ايلاند (Ellis Island) أضف الى هذا أنه لا بد من اجراء فحص آخر فى ناحيتنا لنتبين أبيد المهاجرين شهادات قنصلية وهل هـذه الشهادات حقيقية أو مزورة . ومعنى هـذا مضاعفة النفقات علينا على أن لهذا المشروع من جهة أخرى مزايا بينة ، فاننا فى بلادنا ليس فى يدنا وسيلة نستقصى بها أخلاق المهاجر ولا سوابقه ولا صحيفة اجرامه ، أما القنصل فيسور له ذلك . وهـذا المشروع لا يزيد شيئا من العوائق على حين أنه فى كثير من الأحوال يريح من يزمع المهاجرة من كثير من المتاعب والزمن والنفقات . على أن شركات الملاحة تقوم فى الوقت الحاضر بفحص المهاجرين حتى لا تنقل إلينا أحدا يحتمل رفضه .

الفحص العقلى

اقترحت عدة فحوص عقلية ولكن هناك اختلافا على الفحوص الواجب اجراؤها وعلى كيفية اجرائها ولا شك أنه يكون من الصعب جدا إن لم يكن من المستحيل أن يتوصل الى فحص يعد عادلا .

تطلب شهادات بحسن السلوك

لا بد أن تؤدى مطالبة المهاجرين بشهادات بحسن السلوك الى التزوير . من ما رأى شخصا مهما كان سيء السمعة عديم الأمانة غير قادر على أن يكون معه ملء الجيب من مثل هذه الشهادات؟ بل الواقع أنه كلما كان الشخص أقل أمانة كانت الشهادات التى يقدمها أفضل .

التمييز بين بعض الشعوب

أقترح أن تحرّم الهجرة الينا على بعض الشعوب كالإيطاليين، والروس وغيرهم من الأجناس الصقلبية كما حرمناها على الصينيين ، ولكن هـذا الاجراء من شأنه أن يؤدى الى مشاكل دولية وما لم يتم هذا الحظر بعقد معاهدات مع البلاد التى لا تريد أن ينزح عنها أبناؤها فان عملنا بهذا الاقتراح يكون سياسة دولية خرقاء .

زيادة عدد الطبقات المستبعدة

إننا لانسمح بالهجرة الينا للفوضيين الذين لا يؤمنون بأى نوع من أنواع الحكومات ، فلماذا لا نحظر هجرة الاشتراكيين الذين يرون أن تتولى الحكومة كل شيء . فاحدى هاتين الفئتين مفرطة فى ناحية والأخرى مفرطة فى الناحية الأخرى . ولكن هذه السياسة لا تجدى اذ أن المبادئ الاشتراكية محدودة فى الجملة أرق من مبادئنا . ونحن اذا عارضنا الاشتراكية فذلك لعدم قدرتنا على الأخذ بها عمليا نظرا لما فى طبيعة الانسان من النقص ، ولذلك يعد منع الاشتراكيين من الهجرة الينا عملا رجعيا .

أنمنع العامل غير الفنى ؟

اننا كثيرا ما نحتاج اليه ، والواقع أن حاجتنا اليه كانت شديدة جدا منذ الحرب . وهو كثيرا مايستحب أن يكون من أهل وطننا . كذلك يقولون امنعوا عنا "الطيور الرحالة" ولكن كيف نستطيع أن نعرف بالضبط مقدار المدة التى ينوى رجل من الرجال أن يقضيها فى بلادنا أو نعرف بأى سرعة سيغير رأيه ؟ و يقولون كذلك أمنعوا أولئك الذين ليست لهم أسرة ، ولكن الذين ليس لهم أسرة أقل الناس تعرضا للالتجاء الى الاعانة ، فهم والحالة هذه أقدر على رعاية أنفسهم . ويقولون أيضا "امنعوا المسنين" ولكن هؤلاء قليلو العدد ولهم فى العادة أقارب يعنون بهم والمسنون فضلا عن هذا لايكون لهم أولاد صغار عمادهم عليهم ويخشى اذا وقع الآباء فى براثن الفاقة أن يصيب الأولاد الضر بسبب فقر آبائهم [1] .

---

(١) يعرف قانون تقييد الهجرة الصادر فى ١٩ من مايو سنة ١٩٢١ والذى جرى العمل به الى ٣٠ من يونيه سنة ١٩٢٤ "الأجنبي" بأنه كل شخص غير وطنى المولد أو غير متجنس بالجنسية الأمريكية ، ما عدا الهنود الحمر الذين ليس عليهم ضريبة ، وسكان الجزائر الخاضعة لسلطة الولايات المتحدة . وهو يقصر عدد الأجانب المسموح لهم بالدخول ، من احدى الجنسيات على ثلاثة فى المائة من عدد المقيمين من تلك الجنسية فى الولايات المتحدة ، طبقا للأرقام التى جاءت فى تعداد سنة ١٩١٠ ، ويستثنى من ذلك الموظفون الحكوميون وأسرهم وخدمهم ورواد البلاد طلبا للترويح . أو الأعمال التجارية وكذلك الذين يمرون بالبلاد استحسانا للطريق وكذلك الذين أقاموا سنة فى كندا أو نيوفوندلاند أو كوبا أو المكسيك أو الولايات الأمريكية الوسطى أو الجنوبية ومن هم دون الثامنة عشرة من العمر من أولاد الوطنيين الأمريكيين أولا يسمح القانون بدخول أكثر من عشرين فى المائة من أى جنسية فى أى شهر ، ويميز بالتفضيل أقارب وطنيي الولايات المتحدة وخطيباتهم ويميز كذلك طالبي التجنس بالجنسية الأمريكية والأشخاص المؤهلين للجنسية الأمريكية لخدمتهم فى القوات البرية أو البحرية للولايات المتحدة فى ٦ أبريل سنة ١٩١٧ و١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ بدخول الحقين

منع الجميع

إن منع الجميع يكون عملا تعسفيا مخالفا كل المخالفة لروح الدستور والمثل العليا للأمة ، فلقد ظلت بلادنا دائمـا مباءة للأحرار وملجأ للضطهدين .

الزام شركات الملاحة بتحسين معدات السفر

يلوح هذا الاقتراح طيبا من الوجهة النظرية ولكن كل ما يتأتى منه فى الواقع هو زيادة نفقات الانتقال وهذا يؤدى الى زيادة العبء على الوافدين إلينا .

الحجج التى تسوغ التقييد :

تدور هذه الحجج حول الاعتبارات الآتية :

١ — اعتبـارات صناعية : يتوقف اعتبارنا الهجرة خيرا أو شرا على كوننا أصحاب أموال أو عمـالا فالهجرة فى نظر من يستخدم العمال خير عظيـم لأنها تهيئ له موردا عظيما من العـمل الرخيص والعمل الذى يسهل ضبطه . وهـذا يعين على تقدم الصناعات العظيمة ، والأعمال التجارية الكبـيرة بوجه عام ، وهى تجعل فى الامكان قيـام صناعات جديدة ، لولا ذلك ما كان فى الميسور قيامها . أما فى نظر العامل فالهجرة شر لا شك فيـه لأنهـا تسبب اضطرابا لميزان العرض والطلب فهى تزيد فى عدد العمال دون أن يقابل ذلك بزيادة فى الطلب لهم . وبذا تمنع الأجور أن ترتفع بالسرعة التى كانت تتم بها لولا ذلك وهى تسبب البطالة وبذلك تؤدى الى الفقر والآلام . ولما عيقت الهجرة فى سـنة ١٩١٥ بسبب الحرب العالميـة لم يصبح لمسألة البطالة فى الولايات المتحدة وجود لأنه بمجرد أن هيأت الاعمال نفسها طبقا للأحوال التى جدت لم يكد يبق فى البلاد شىء من البطالة . فقد استخدم كل العمال الذين كانوا قادرين على العمل . ثم إن الهجرة قد دفعت بالعامل الوطنى فى كل وقت الى الرقى فى مدارج الجهد الصناعى . ولكنها كانت فى بعض الأحوال سببا فى الحيلولة بينه وبين الرقى اذا لم يخلق فيه استعداد للنهوض .

٢ — اعتبارات سياسية : تتلخص مشكلة الهجرة من الوجهة السياسية فيما يأتى : — أزيادة عدد المصوتين من شأنه أن يزيد فى قوة حياتنا السياسية ؟ أم أن هـذه الزيادة ستكون عنصرا يزلزل نظمنا ؟ فالمصوت المتجنس لا يستنـد الى ما يستند إليـه المصوت الوطنى وهو لا ينظر إلى الانتخابات بالعين المجردة التى ينظر بها الوطنى ، ولذا كان عرضة للوقوع فى أيدى المفسدين من دعاة الأحزاب . وهذه الحالة أخطر ما تكون فى المدن العظمى

وان لم تكن بالخطورة التى يصورونها بها أحيانا . ولما كان المهاجر كثيرا ما يأتى من بلاد لم يكن له فيها خبرة بالحكومات الشعبية ، فانه يكون أقل كفاية من الوطنى فى استعمال حق التصويت ، حتى ولو كانت مثله العليا وبواعثه لا تقل عن مثل الوطنى وبواعثه .

٣ — اعتبارات اجتماعية : تتلخص مشكلة الهجرة من الوجهة الاجتماعية فى احتمال أن الهجرة قد تعوق حياتنا الاجتماعية ، وقد تفسد آراءنا فى الفضيلة وتزيد فى عدد الجرائم وتزيد عدد الطبقات التى تعتمد على غيرها فى عيشها ، وتهبط بمستوانا المعاشى . إن دخول أى عنصر جديد فى المجتمع يحدث فيه اضطرابا ، فاذا كان العنصر الجديد عنصرا لا شك فى انحطاطه وقد أصر على بقائه مستقلا بذاته أصبحت المسألة معقدة . وقد كانت الهجرة الأولى تتمثل فينا بلا صعوبة كبيرة أما الهجرة الحديثة فانها تخالفها كل الاختلاف . ثم ان التسهيلات التى تقدمها نحن لتيسير عملية التمثيل قد تغيرت هى أيضا ، فقد نفدت أراضينا الرخيصة وقد صرنا أمة صناعية أكثر من أن نكون أمة زراعية . فاندماج الهجرة الجديدة فينا يتطلب عملا شاقا ، إذ الواقع أن المعضلات الحاضرة هى من صنع يدنا كما أنها من صنع يد المهاجر. فاذا أدركنا هذه الحقيقة ، ووجهنا أنفسنا بنظام، للعمل على تحويل المهاجرين الى وطنيين ، فعندئذ يمكننا أن نأمل الوصول الى نتائج طيبة . ولا شك أن هذا يحتاج الى تعاون مدارسنا وكنائسنا ، وجمعيات الشبان المسيحية ، ومراكز الاجتماع الاصلاحى وكل طوائفنا الاجتماعية — على تحقيق هذا الغرض .

٤ — اعتبارات حيوية (بيولوجية) : من المسائل التى لا تزال موضع البحث ، ادخال دم جديد فينا : أهو فى مصلحة جنسنا من وجهة تركيبنا الحيوى، أم فى غير مصلحته ؟ فالجنس الهجين يعدّ فى العادة أرقى من الجنس الصريح، ولكن يشترط فى ذلك طبعا أن يكون الجنس الهجين مستمدا من خير دماء الأجناس المكونة له . أما إذا كان مستمدا من حثالات مجموعة من الأجناس فلا بد أن تكون النتيجة أسوأ مما ينتجه أى جنس على حدته . ثم أخير الدماء تزج الينا أم شرها ؟ انا إذا حصلنا على خير دم من ايطاليا والنمسا والبلاد الصقلبية فقد يكون ذلك الدم أحط من دم الامريكى الذى مصدره أجود دماء اوربا الشمالية . لذلك يجوز أن يكون اختلاط الأجناس الواردة من اوربا الجنوبية سيئا ولو جاءنا أقوى العناصر منهم . لم يكن نجاح الأمة الأمريكية فى الماضى فى أكثره إلا لأننا نشأنا من أقوى عناصر الأمم الأوربية الشديدة ونحن نكره أن نفقد هذه المزية بأن تقبل حظيرة جنسيتنا أجناسا أحط منا بسبب ما توالى عليهم من ذل وقهر عدة قرون .

السياسة المقبلة

كانت الحرب سببا فى أن كثيرا من الأمريكيين غيروا من رأيهـم حيال الهجرة أو أن الحرب على الأقل سببت تيقظا عاما وادراكا لخطورة المسألة ؛ فبدت رغبة فى أن تكون هناك سياسة أشد تقييدا للهجرة . قامت فى كل وقت معارضة للهجرة من الأفراد والجماعات مثل نقابات العمال ، فدعا بعضهم الى تقييدها لأسباب وجيهة مثل أنها تدعو الى امتلاء أمريكا بالناس واستيلائهم على خير أرضنا. وكان أعظم جانب من المعارضة ناشئا عن أسباب شخصية أو طائفية أكثر من نشوئه عن ادراك لأى خطر وطنى أو اجتماعى عظيم .

دلت الحرب على أن " بوتقتنا " لم تنتج دائما نموذج الوطنى الأمريكى الذى كنا نتخيل أنها تنتجه ؛ فانه لمـا أصبح قانون التجنيد عندنا نافذا وجدنا أن فى معسكرات التدريب ألوفا من الرجال لا يعرفون كيف يقرءون الانجليزية أو يفهمونها، ولا يدركون شيئا من مثلنا العليا. ولم يقتصر أمرهم على جهلهم بأسباب الحرب وأغراضها بل كان كثير منهم لا يعرفون أن هناك حربا البته . ومثل هذه الحالة كان يدركها رجالنا المشتغلون بالاصلاح الاجتماعى . أما الجمهور العام فلم يكن يشعر بها ، ولقد كان هـذا سببا فى أن كثيرين تدبروا الأمر فوجدوا أنه لا بد من زيادة تقييد الهجرة . وقد أظهر الكشف الطبى على المجندين عيوبا جسمية مروعة ، وأبان أن للهجرة أثرا سيئا فى بنية الشعب العامة .

وفضلا عن هذا قد أخلت الحرب بكياننا الاقتصادى والصناعى ، ووجدنا أن الهجرة انما زادت المشكلة تعقدا ، ولا سيما فيا يختص بأمر البطالة . فقد وجد فى البلاد منذ الحرب من ثلاثة ملايين الى خمسة من العمال العاطلين أحيانا . واذا سمحنا بدخول مزيد من العمال الى بلادنا لم يكن لذلك معنى الا زيادة عدد الذين لا عمل لهم .

وليس اهتماما بالهجرة مقصورا على مقدارها بل إن اهتماما بنوع المهاجرين قد أخذ يزداد زيادة عظيمة. فقد أدركنا منذ زمن عدم صلاحية مهاجرى جنوبى أوربا وشرقيها ؛ بيد أن هـذا الأمر أصبح الآن محل النظر الدقيق اذ أن جميع المهاجرين الحاليين تقريبا آتون الينـا من تلك الأصقاع . وبعد انتهاء الحرب ، عادت الهجرة الى تيارها بشدة . واذ أصبح اليوم مؤتمرنا يدرك خطورة المسألة فلنا أن ننتظر صدور قيود فيها شىء من الصرامة لمواجهة الهجرة فى المستقبل .

الفصل الثامن

الهجرة الحضرية

من الظواهر الاجتماعية التى تكاد تكون قديمة قدم تاريخ المدنية نفسه مانراه من نزوح الناس من الريف الى المدن . وأول ما حدث ذلك فيما دوّنه التاريخ من هذه الظواهر كان فى مركزى المدنية العظيمين أى وادى النيل ووادى دجلة والفرات فقد نشأت فيهما مدن ذات شان. ولقد نشأت كذلك مراكز مثلها آهلة بالسكان فى الأودية الغنية فى الهند والصين . وانما عمرت هذه الأماكن بعدد جم من الناس لاقتدارها على إعالة عدد عظيم من السكان . وترتب على تجمع هؤلاء السكان تقدّم الحرف والتجارة ، وقيام المراكز التجارية فيها ، وهذه اجتذبت اليها مزيدا من السكان . ولكن المدينة فى العصور القديمة كانت فى جوهر أمرها معقلا حربيا أو محلا للعبادة ، ولذلك كانوا يختارون لها موقعا مرتفعا أو مكانا يصعب الوصول اليه لكى يكون حصينا محميا . ومن الأمثلة على ذلك أورشليم وأثينا وصور وروما . فاذا لم يتيسر مكان حريز بنيت حول المدينة أسوار عظيمة لحمايتها كما هو الحال فى بابل .

وفى أثناء القرون الوسطى فى عهد الأقطاع ، حين كان البارون يحتفظ بأرضه بقوة السلاح كانت القلاع تبنى على المرتفعات الصخرية ، وكانت تحمى هذه القلاع عصائب مسلحة ترهب ببطشها البقاع المجاورة لها . وحول هذه القلاع كان ينزل الناس للاحتماء بحماها ، ولم يكن هؤلاء القوم من فرسان البارون أو أتباعه ومواليه ، فترتب على هـذا نشوء المدن . وأوربا ملأى بمثل هذه القلاع والمدن . وكذلك نشأت المدن فى القرون الوسطى على امتداد طرق التجارة كنهر الطونه ، قصد المتاجرة وهذه المدن أصبحت مراكز للتجارة والتعامل . ومن الأمثلة على ذلك بودابست وفينا وميونيخ وفرانكفورت وكولونى وأمستردام وروتردام وغنت وهامبورغ وبريمن والمدن الايطالية فلورنسا وجنوه وبيزا والبندقية . أما المدينة التى من النوع الحديث فانها فى الأصل مركز صناعى أو تجارى لم يزدهر الى درجة يعتد بها إلا بعد الانقلاب الصناعى (Industrial Revolultion) فمدنية اليوم انما هى نتيجة ترق صناعى . وقد زاد اتساع المدن العظيمة فى أوربا منذ الانقلاب الصناعى وإن كان عهدها

يرجع الى ما قبل ذلك بقرون كثيرة . وفى الجدول الآتى بيان مقدار هذه الزيادة فى غضون القرن التاسع عشر :

المدينــة	عدد السكان فى سنة ١٨٠٠	عدد السكان فى سنة ١٩٠١
لندن	٨٦٤,٠٠٠	٤,٥٣٦,٠٠٠ [١]
باريس...	٥٤٧,٠٠٠	٢,٧١٤,٠٠٠
برلين	١٧٢,٠٠٠	١,٨٨٨,٠٠٠
فينا	٢٣٢,٠٠٠	١,٦٧٤,٠٠٠

لم يبـــد عظم الزيادة فى عدد السكان الحضريين بالقياس الى النمو الريفى مبكرا فى الولايات المتحدة كما فى أوربا لأن الولايات المتحدة ظلت بلادا زراعية أمدا أطول مما شوهد فى أوربا ولكننا فى مختتم القرن التاسع عشر تنبهنا الى هـــذا الأمر وذعر له كثير ممن يعنون بدرس هـــذه المشاكل . بل الواقع أن منهم من يعده أعظم مشاكلنا الاجتماعية فى الوقت الحاضر . على أن هـــذا الذعر لم يكن أمرا جديدا فى التاريخ . وإنما هو جديد فى نظرنا لأننا أمة حديثة. فقد حزن كزينوفون (Xenophon) فى عهده لحركة شبيهة بهذه. وتوقع الويل من جرائها . وجرى لفارو (Varro) ماجرى لذلك. وفى أوقات مختلفة استيقظ الساســة الأوربيون ولا سيما الفرنسيون . على نذير من هـــذه الظواهر . ولكن حدوث مثل هذه الانتقالات فى المــاضى وما ترتب عليها من المخاوف . لا يهون من حقيقة أن هذا النوع من الهجرة أمر خطير الشأن جدا فى الولايات المتحدة .

فى سنة ١٨٠٠ لم يكن فى الولايات المتحدة إلا ست مدائن يزيد سكان كل منهـا على ٨٠٠٠ ويبلغون فى جملتهم ٤ فى المـائة من عدد السكان فى الولايات جميعها. أما فى سنة ١٩٠٠ فقد كان فى البلاد ٥٤٧ من هذه المدن فيها من السكان من يعادلون ٣٢,٩ فى المائة من عدد سكان القطر جميعه . وفى سنة ١٩٢٠ زاد العدد والنسبة فبلغ عدد المدن ٩٢٤ والنسبة ٤٣,٨ فى المائة على حين لم يزد عدد السكان فى الريف إلا بما يعادل ٨,٥ فى المـائة من سنة ١٩٠٠ الى ســنة ١٩١٠ وزاد عدد السكان فى المدن بما يعادل ٣٤,٨ [٢] ويدل

(١) لندن الكبرى تبلغ ٦,٥٨١,٠٠٠ نسمة

(٢) الأماكن التى يسكنها ٢٥٠٠ نسمة فما فوق أدرجها مكتب تعداد سكان الولايات المتحدة فى عداد "الحضر" .

احصاؤنا فى سنة ١٩٢٠ على أن مدننا يزداد عدد سكانها بسرعة تعادل الزيادة فى عدد سكان الريف سبع مرات ونصف مرة فقد زاد عدد السكان الحضريين بمعدل ٢٥,٢ فى المائة فى حين أن الزيادة فى الجهات الريفية كانت ٣,٤ فى المائة . ويعيش أكثر من نصف مجموع سكاننا (أى ٥١,٤ فى المائة من الـ ١٠٥,٧١٠,٦٢٠ الذين تناولهم الاحصاء) فى بلدان ومدن يزيد عدد السكان فيها على ٢,٥٠٠ نسمة . ومما يزيد فى خطورة هذه المسألة أن هذه الزيادة غير موزعة على القطر برمته بل هى مقصورة فى الغالب على جهات قليلة منه ولا سيما ولاية نيو انجلاند والولايات الأطلنطية الوسطى التى هى مزدحمة من قديم والولايات الوسطى الشمالية . وجميعها كانت فى الماضى زراعية فى جوهرها — بل كانت ولاياتنا الزراعية الرئيسية — وأصبحت الان حضرا . وقد كشف إحصاء سنة ١٩٢٠ عن النسب الآتية فى عدد السكان الحضريين : جزيرة رود ٩٧,٥ وماسا شوسيت ٩٤,٨ ونيو يورك ٨٢,٧ ونيوجرسى ٧٨,٤ وإذا وازنا بين هذا وأميل الأقطار الأروبية الى الحياة الحضرية قبل قيام الحرب العظمى نجد النسبة الآتية : انجلترا ويلس ٧٨,٠ واسكوتلاندا ٧٧,٠ وألمانيا ٥٧,٤ وفرنسا ٤١,٠ وهولانده ٤٠,٥

إننا فى العادة لانعد الولايات المتحدة مزدحمة بالسكان والواقع أنها ليست كذلك . ومع ذلك بها بضعة أصقاع مثل جزيرة رود مزدحمة بالسكان ازدحاما أكثف منه فى أى صقع سياسى فى العالم ففى سنة ١٩٢٠ كان فى جزيرة رود ٥٦٦,٤ نفس لكل ميل مربع وتتلوها ولاية ماساشوسيت بـ ٤٧٩,٢ ونيوجرسى بـ ٤٢٠ فى حين أن قسم كولومبيا كان فيه ٧٢٩٢,٩ ولو أراد الانسان أن يكون فكرة عن نمو المدن فما عليه إلا أن يركب القطار من بوستون الى واشنجتون بطريق بروفيدانس ونيو يورك وفيلادلفيا وبلتيمور — فانه يجد سلسلة لاتنقطع من المدن على مدى ٥٠٠ ميلا بل الواقع أنه قد يصعب على المشاهد فى بعض الأوقات معرفة أين تنتهى المدينة وأين تبتدئ المدينة التى تليها .

على أنه بين سنتى ١٩١٠، ١٩٢٠ نقصت فعلا ولايات ماين (Maine) ونيوهامفشير (New Hampshire) وفرمونت (Vermont) وماساشوسيت ونيو يورك وميشيجان وأنديانا وايلينواز ومسيسبى وميسورى وكنساس ونيفادا فى عدد سكانها الريفيين .

أسباب الهجرة الحضرية

لعل فيما يأتى بيانا للأسباب الرئيسية فى حدوث الهجرة الى المدن :

١ — سرعة النمو الصناعى فى البلاد : المدينة العصرية هى فى أكثر أمرها وليدة الصناعة فإن تأسيس الصناعات قد أحدث زيادة فى الحاجة الى من يعمل فيها ولذلك هرع العمال الى المدينة لأنهم فى المدن لا يقتصر أمرهم على ما يعرضه عليهم أرباب المصانع من أجور أعلى مما يحصلون عليه فى المزارع بل انهم يوعدون باستمرار العمل طول العام وهو ما يكاد يكون مستحيلا فى المزارع بسبب اقتصار العمل فيها على المواسم . ولم يقتصر الأمر على إغراء عمال المزارع على تركها بل تعداه الى ما هو أشد وهو دعوة المهاجر الجديد الى الحلول بالمدينة. فى أوائل عهدنا كانت للهاجر مغريات أوفر تجذبه الى المزارع ، ولكن الارتفاع الحالى فى أثمان الأراضى ودخول الوسائل الزراعية الحديثة المعقدة جعلت المهاجر فى حالة يندر معها ذهابه الى الريف حتى ولو أراد ذلك . نعم إن المزارع قد تهيئ أجورا أعلى وتأتى فى النهاية بنتائج اقتصادية أعظم ولكن من الصعب على العامل الزراعى أو المستأجر أن يدرك هذه الحقيقة .

٢ — النمو التجارى فى البلاد : كان النمو التجارى فى البلاد مماثلا للنمو الصناعى لأن الطرق الحالية للصناعة تتطلب وجود مكاتب للبيع بالجملة فى مدننا كما أنها تتطلب وجود وسطاء وأماكن للبيع بالمفرق ، وهذا يؤدى الى طلب زيادة التسهيلات فى وسائل النقل ومن ثم تنشأ مراكز للسكة الحديدية ولا بد لكل هذا من ازدياد عدد البائعين والمشترين وكتبة الشحن البحرى وموظفى السكة الحديدية وبالجملة . كل ذلك الجيش العرمرم من الرجال والنساء المشتغلين فى الأعمال العصرية . هذه الحالة جذبت الشبان وذوى الأقدام من الجهات الريفية الى المدن لا بسبب ارتفاع الاجور فى المدينة وحده ، بل بسبب ما يؤملونه من التقدم والنجاح فى أعمالهم . نعم إن الشخص المتوسط الكفاية قد تروج حاله فى الأمكنة الصغيرة ولكن القليلين من أصحاب الكفاية الممتازة يجدون أمامهم فرصة للرقى الى قمة أعلى مما يمكن أن يهيأ لهم فى أى مجتمع ريفى . حقيقة إن عدد أوراق التصيب الخاسرة أكثر وأعظم ولكن الكاسبة منها ذات قدر عظيم . فاذا أخفق فى المدن عدد أكثر ممن يخفقون فى الريف فإن النجاح الباهر الذى يناله القليلون فى المدن ينسى الناس ما أصاب المخفقين من الخيبة والخذلان .

٣ — تغير الوسائل الزراعية — لما زاد طلب العمال فى المدينة قلت نسبة الطلب فى الريف لأن اختراع الالات الحديثة ولا سيما المحاريث والحاصلات والرابطات قد ساعد

على أن يقوم شخص واحد بما كان يعمله خمسة أو عشرة من الأشخاص من قبل . ثم زاد الطلب على الغلات الزراعية باطراد ولكن هذه الزيادة لم تكن بنسبة قلة طلب العمال الريفيين فدفعت هذه الحالة العامل الزراعى الى النزوح . زد على ذلك أنه لم يعد هناك أرض رخيصة كما كانت الحال فى أوائل عهد البلاد فزادت قيمة الأرض زيادة بالغة إذ أصبح الفدان من الأرض الزراعية (الايكر) يساوى فى مثل ولايات إنديانا وايلينواز وأيوا وميسورى من ١٠٠ ريال الى ٢٠٠ ريال وأكثر من ذلك أحيانا . فهذا مضافا اليه ارتفاع ثمن الآلات والخيل والماشية يحتاج الى رأس مال يقوم ببضعة آلاف من الريالات ليتيسر للانسان أن يؤسس مزرعة ناجحة . ولو أمكن الحصول على قرض ما أجدى ذلك كثيرا لأن فوائد القرض تتقاضى مقدارا يعادل بضع مئات من الريالات فى كل سنة . هذه الحالة لا تقف عند حد منع المهاجرين وغيرهم من العمال من الاشتغال فى الحقول بل إنها تدفع أولاد الزارع نفسه الى الرحيل من الريف . واذا كان الابن ذا إقدام وميل الى الاستقلال وأراد أن يتزوج ويستقر فانه لا ينتظر حتى يتوفى أبوه وتؤول المزرعة اليه أو تقسم بينه وبين أخوته إن كان له أخوة . وليست كراهية البقاء بمنزل أبيه وحدها هى الدافعة له الى النزوح بل قد يضطر الى الخروج منه لفرط ازدحام البيت بالأسرة .

بسبب هذه الأحوال وتناقص الطلب على العمال فى المزارع يهاجر من الريف كثير من العمال الذين كانوا يفضلون البقاء فيه لو أن الأحوال كانت مسوية أمامهم بين الريف والحضر . على أن حاجة الريف الى نقصان نسبة عدد سكانه ليست فى ذاتها ذات خطر كبير ما لم يجر النقصان بسرعة فائقة . انما يتأتى الخطر من أن يكون المهاجرون أشد أهل الريف اقداما واستقلالا ، فلا يبقى فى الحقول إلا أقلهم نشاطا .

٤ — المدينة أكثر إغراء

المدينة أشد اجتذابا للناس لا لأسباب اقتصادية فقط ، بل لأسباب اجتماعية أيضا ، لأننا إذا حللنا الموضوع تحليلا أوفى تبين لنا أن الدواعى الاجتماعية أهم من الدواعى الاقتصادية واليك بعضا من تلك الدواعى الاجتماعية :

(١) الانعاش والحركة : ان روح المغامرة تجتذب الشباب الى المدينة بنفس الطريقة التى اجتذبت بها الحدود المغامرين والجريئين فى أيامنا الأولى . يومئذ ترك الناس مساكنهم طلبا للغنى واتجهوا نحو جبال الأبالاشيان Appalachian غير مبالين بالأخطار المتأتية من الوحوش والهنود ولا بالمصاعب التى كان عليهم أن يلاقوها . وبمثل ذلك تجتذب المدينة اليوم نفس هذه العناصر من الناس . فان الجلبة والحركة والنشاط يغرى . وفى المدينة

مما يرى ويسمع أكثر مما فى غيرها ، والحياة فيها ليست راكدة ولا على وتيرة واحدة كالحياة فى الريف بل إن الوحدة والعزلة فى الريف يقابلهما الحركة والانتعاش فى المدينة . نعم ان الحياة فى المدن أشق منها فى الريف واكتساب الرزق أصعب فى المدينة منه فى الريف ولكن فى المدينة من فرص التقدم ما هو أكثر سنوحا اذا كان الانسان يقظا ، كما أن النشاط والأمل يدعوان الانسان الى بذل جهود أعظم .

(٢) الملاهى : كانت للجماعات الريفية فى العهد الماضى فرص للتلهى كحفلات الأعمال الزراعية وغيرها من ألعاب الريف ولكن هـذه أصبحت لسوء الحظ من أخبار الماضى ولم يستحدث شيء مكانها . أما المدينة فقد هيأت من أسباب المسرة واللهو ما لا ينقطع كلعبة المضرب والكرة الباسبول Base-ball والتمثيل والمتنزهات العامة والمتاحف والمباريات والمصارعات ولعبة الصوالج والأكر وقاعات اللعب الكثيرة الأنواع والبساتين الكهربائيـة ثم الصور المتحركة فى الأيام الحديثة . لهذه الأسباب كانت الحياة فى المدن أكثر إغراء منها فى الريف . أن الجيل العصرى يحتاج الى التلهى فلا عجب أن تجذبه المدنية بهذه الملاهى .

(٣) المزايا العلمية : ان فى المدينة مدارس أحسن مما فى الريف وأكثر عددا وبها أنواع مختلفة من التهذيب وفيها من دور الكتب ما يعد من المزايا العظيمة وان وجب علينا أن نستثنى من ذلك ولايات نيو انجلاند حيث يوجد فى كل بلدة صغيرة مكتبة عامة من نوع ما يحوى فى العادة خيرما فى الدنيـا من المؤلفات . أما معارض الفنون ومتاحف التاريخ الطبيعى فلا توجد إلا فى الأماكن الكبيرة . حقيقة إن أغلب المجلات والجرائد يمكن الحصول عليها فى معظم جهات الريف ولكنها ليست ميسورة فيه يسرها فى المدن . كما أن منـابر الوعظ فى كنائس المدن تمتاز عنها فى الريف . ذلك لأنها تستطيع أن تستخدم خير أصحاب المواهب على أن هذه الحـالة على ما يظهر ليست ذات أثر مقابل لأن كنائس المدن لا تجتذب اليها من سكان المدن إلا عددا قليلا بالقياس الى كنائس الريف .

(٤) تفوق وسائل الراحة : كثير من وسائل الراحة ميسور الى مدى بعيـد فى المدن مثل التدفئة البخارية والكهربائية والغاز ووسائل الشراء . وهى أمور تجتذب بنوع خاص الفلاحين الذين جمعوا من الثروة ما يمكنهم من الانسحاب من حلبة العمل ، كما تملك أفئدة الشبان ولا سيما الذين يكونون قد ساحوا بعض السياحة ، أو كانوا فى الكليات . وفضلا عن ذلك أن فى المدينة من أحوال العمل ما هو أشد جاذبية سواء للرجال أو للنساء ، إذ عمل الزوجة فى البيت أهون وساعات العمل للرجال أقل بكثير منها فى القرى ، وبهذا تيسر زمن أوفى للرياضة والملاهى .

(٥) الشعور الطائفى : لقد كان هنــاك دائما حد بين سكان المدن وسكان الريف فالفلاح يكاد يعتبر جلفا جاهلا (كذلك كان على الأقل فى المــاضى) وابن المدينة الكبيرة يهزأ بابن البلدة الصغيرة . وهذا بين فى جرائدنا الحضرية وفى مجلاتنا . كما أن تعليمنا المدرسى يعد أبناء البلاد لحياة المدينة لا لحياة الريف . فكأنه انما يعمل بهذا على اخلاء الريف . نعم انا عاملون اليوم على معالجة هذا النقص ولكن فى المــاضى كان الشخص عندما ينال قسطا من التعليم يهاجر الى المدينة لأنه يرى أنه قد تفوق على طبقته .

(٦) جميع قوى النشاط مركزة فى المدينة وحولها : لا يقتصر الأمر على أن الصناعة والتجارة والتعليم قائمة حول المدينــة الكبيرة ، بل ان جميع نواحى نشاطنــا صائرة الى التراكم فى جهة واحدة . فكلياتنا تنشأ فى المدن الكبيرة والمجلات انما تنشر فيهــا ، كما إن جمعياتنا الزراعية نفسها تقيم مكاتبها المركزية فى المدن الكبيرة . فالمدنية أشبه بدردور (دوّامة) تدور حوله جميع حياتنا . وبسبب هذه القوة تجتذب المدينة بل لقد جذبت بالفــعل أكثر الناس مقدرة ونشاطا وهمة من أهل الريف . وهذا الأمر ليس إلا مظهرا للاتجاه الذى يســير فيه العصر الحاضر .

القوى التى تعمل ضد هذه الهجرة الى المدن :

على أن هنــاك عوامل مناهضة بدأت تعمل ضــد العوامل التى سبق ذكرها ، فان السيارات تعمل الآن ما يعد من العجائب إذ تجعل حيــاة الريف أكثر اجتــذابا ، وتجعلها أكثر اتصالا بسائر العالم. ثم ان نظم توزيع بريد الرسائل فى الريف وكذلك توزيع بريد الطرود، والتليفونات الريفية قد قام كل منهــا بنصيبه فى هذه الناحيــة ولكن السيارة ربمــا كانت تفوق هــذه الوسائل جميعها . فقد أخذوا اليوم فى بناء الطرق الجيــدة فى جميع أجزاء القطر وأغلب السبب فى ذلك يرجع الى استعمال السيارات . واليوم تقام كما سنرى بعد مبان للمدارس أصلح من قبل وتوضع طرق حسنة للتعليم كما أن النظام الذى وضع حديثا للسلفيات الحكومية الزراعية يؤمل منه خير كثير من ناحية أنه يساعد الشبان على الأخذ بأعمال الزراعة .

ولعل أعظم هذه العوامل الناهضة هو رخاء الزراع فى غضون السنوات القليلة المــاضية فأثمان الغلال الزراعية اليوم أعلى ممــا كانت فيما سبق . وتدل الدلائل على أنها ستبقى كذلك وأن ازدياد ازدحام المــدن بالسكان يجعل ذلك من الحتم . وكل ذلك معناه زيادة مكاسب الزراع التى تؤدى الى زيادة وسائل الراحة المعيشية ، وزيادة الآلات التى تنقص الاجهاد فى العمل ، وزيادة الكتب والمجلات والســيارات والحواكى والمعازف وتربيــة الأولاد تربية أفضــل والحصول على مقدار أكثر من كماليات الحيــاة . وقد أثرى كثير من الزراع

فى غضون السنوات القليلة الماضية بل الواقع أن الزارع اليوم معدود بين ذوى المكانة فى المجتمع . والمستقبل يبشر أنه سيزيد فى ذلك ويجعل يوم الزارع خيرا من أمسه . وقد كان لكلياتنا الزراعية ومحطات التجارب الزراعية أثر كبير فى تعليم الزراع كيف يستغلون أطيانهم أوفر استغلال . كما أن فى التعاون أكبر أمل فى المستقبل بما يهيء للمنتج من نصيب أكبر فى الربح فقد نجحت الوسائل التعاونية فى أجزاء من أوربا فى تصريف الغلات الزراعية ، ولا سيما الزبدة ولحم الخنزير المقدد والجبنة والبيض . وخلق التعاون فى الدانيمارك من بلاد فقيرة قطرا يعد اليوم من أثرى بلاد العالم . وقد اقتبست الفكرة وأخذ فى العمل بها فى الولايات المتحدة ؛ وكانت حيثما جربت بين الزراع لتصريف غلاتهم تصادف فى كل وقت تقريبا نجاحا باهرا . ويصدق هذا بوجه التخصيص فيما يختص بإدارة آلات روافع الغلال و بيع الألبان ومنتجاتها وبيع الفواكه (كما تفعل جمعية زراع الفواكه بكاليفورنيا) وكانت نتيجة ذلك زيادة الإنتفاع بالتعاون لبيع جميع صنوف غلات الزراع . وهذا الأمر مضافا اليه الوسائل العلمية فى الزراعة سيجعل الزراع فى رخاء مالى وسيترتب على ذلك زوال كثير من أسباب النزوح إلى المدن .

لم يعد عمل الزراع من الأعمال الاتفاقية التى يتيسر النجاح فيها لكل إنسان سواء أكان ذا اقتدار على أن يعمل شيئا أم لم يكن ، بل انه يعد من الاشتغال التى تتطلب الوسائل العلمية الحديثة والادارة العلمية . وقد أخذ اليوم فى تطبيق هذه الوسائل فعلا ، فلم تعد المزرعة بمثابة مكان لمن لايستطيع أن يحسن عملا ، بل مكانا لأشد الناس نشاطا وأعظمهم إجتهادا . وهى اليوم تجتذب اليها هذا الفريق من الناس لما تتضمن من فرص الحصول على رفاهية زائدة . على أن الحالة لم تبلغ قط درجة الكمال ، ولا يزال هناك مشكلات لم تحل . وسنتناول بعض هذه المشكلات على الفور .

مشكلات الريف — ليست مشكلات الريف مما يوقظ الحس أو يجتذب النفس كالمشكلات التى نلقاها فى المدن مثل تشغيل الأحداث والدعارة . فالأحوال فى الريف ليست سيئة سوء الأحياء المزدحمة القذرة من المدن ولا نجد فى الريف شيئا من بيوت الاستغلال أو أماكن العمل المرهق أو من الأحوال الصحية السيئة . كما أن الفقر على وجوده فى الريف فى غالب الأحيان ، لايرى على الصورة المؤلمة التى تبدو فى المدن ، وذلك للسبب الواضح من أن الزارع ينتج حاجته من الطعام ، فلديه ما يكفى لدفع الجوع عن نفسه ، والوقود فى العادة ميسور لديه ولا يقاسى البرد إلا القليل . كما أن عاطفة رعاية الجار لم تذهب من الريف ولذلك فأولو الحاجة يجدون فيه برا . أما فى المدن فالعطلة معناها العدم لأن مورد الرزق إذ ذاك ينقطع . والانسان فى الريف سيد نفسه فى العادة بل لو كان ممن

يعتمدون لتحصيل الرزق على الشغل اليومى فلن يكون مايعانيه فيه شديدا . والاجرام قليل الحدوث فى الريف بسبب قلة أسباب الأغراء أو الفرصة لاقترافه. وإذا حدث أن اقترف شخص جريمة فهو فى العـادة يذهب إلى المدينة تجنبا للقبض عليه . نعم إن المدينة الصـغيرة تنتج نصيبها الكامل من أهل الرذيلة والاجرام إلا أن هـذا الفريق يغلب ألا يبقى بهـا وان أمكن أن يوجد بضعة بلدان صغيرة تعد منبتا للرذيلة والاجرام .

والريف على الجملة أصح من المدن ولكنه ليس بالدرجة التى يجب أن يكون عليهـا . فالريف يجب أن يكون أكثر اجتذابا للسكنى ، لأنه لا يقتصر على كونه أصح الأمكنة وأعظمها منتجا بل أنه ألطفها وأوجبهـا للراحة ولكنه لسوء الحظ بعيد عن ذلك بعدا كبيرا . إن عيوب الريف عيوب سلبية أكثر من كونها إيجـابية ، والزارع فى جوهره شخص من الطبقة المتوسطة إذا كان فى الطاقة أن نبين لمثل هذه الطبقة من الناس طائفة اجتماعية تدرج فيها . فلا يصح لنا أن نرتقب منه صقلا فى آداب سلوكه أو نظافة فى ثيابه أو حرصا فى لغته أو رقيا فى علمه بقدر ما نرى من المحامين أو أرباب المصـارف مثلا ، بل إنه دون الطبقة المتوسطة فى مستوياتها فالمشكلة الريفية ليست بحالى مسألة إحسان بل مسألة تعليم وإيقاظ فكرى . على أن بعض وجوهها يتطلب منا العناية .

١ — مدارس الريف — مدارس الريف بوجه الاجمال ليست مسـاوية لمدارس المدن فلا يقتصر الأمر فيها على أن أدواتها أحط درجة بل يتجاوزه إلى أن معلميها فى أغلب الأحيان عديمو الخبرة أو قليلو التدرب على القيام بعملهم . وهم يتناولون أجورا ضئيلة هى فى الغالب مرتبات لاتستحق الذكر . وهـذه بالطبع لاتجتذب ذوى الكفاية . ومن ثم كان يتولى التدريس فيها فى العـادة أولئك الذين تعوزهم الخبرة أو الذين ليس فى مقدورهم الحصول على وظائف فى مدارس المدن . وقد تكون مبانيها كافية ولكنهـا فى كثير من الأحيان متخربة أو سيئة تصميم البناء من ناحية التهوية والاضاءة والنواحى الصحية الأخرى. وفصول العمل الدراسى فى هـذه المدارس قصيرة الأمد اجمالا . ومن أشـد العيوب فيها خطرا تحميل المعلم الريفى فوق مايطيق من الفرق ، فقد يكلف المعلم أو المعلمة التدريس لجميع سنوات الدراسة . فلن يستطع على هذا أن يبذل العناية الواجبة لأى سـنة منها . والغالب أن يكون عدد التلاميذ فى هـذه المدارس من القلة بحيث لايكفى لانعـاش روح الاجتهاد والمنافسة ولاسيما فى الفصول العليا ، إذ كثيرا مالايزيد تلاميذها على واحد أو اثنين .

وهناك مدارس ريفية كثيرة طلبتها من القلة بحيث لايتيسر فيهـا أى نوع من أنواع الأخذ والعطاء بينهم أو يسمح بشىء من الاستراضة أو اللعب المنظم . ولعل فى توحيد مثل

هذه المدارس الصغيرة حلا لكثير من هذه العيوب . فقد يتسنى أن تؤلف فصول أكبر عددا ويستخدم بها مدرسون أحسن حالا . نعم إن مثل هذا لا يحل جميع الصعوبات القائمة ولكن إذا أحسن تولى هذا العمل كان فيه حل بعيد المدى يقضى على هذه الصعوبات . وإذ أن مدرسة العهد القديم الريفية أصبحت اليوم من أخبار الماضى لأن أحوال الماضى لن تعود فيجب أن تواجه المدرسة الريفية المستقبلة أحوال الغد .

لقد كانت دار المدرسة فى الماضى بمثابة مركز اجتماعى ولكنها لم تعد تستعمل كذلك فى السنوات الأخيرة . شاخت أنواع الملاهى القديمة وحل محلها أنواع جديدة قليلة . والواجب أن يستعمل مكان المدرسة مركزا اجتماعى تعقد فيه حفلات التسلى مثل عرض الصور المتحركة والأسواق وملتق جماعات السباق بالسيارات وما اليها والأندية . بهذه الطريقة يتسنى جعل الريف أدعى الى التسلية وأعون لأهله .

هذا وبرنامج الدراسة فى المدرسة الريفية لا يعطى الطالب فيها التربية الصحيحة اللازمة فى حياته لأنه فى أغلب الأحيان موضوع ليعد الطالب للدخول فى المدرسة الثانوية وهذه تعده للكلية . فالحدث بهذا إما يعلم ويعد ليهجر المزرعة بدلا من أن يلزمها . نعم إن دراسة الزراعة العلمية أدخلت اليوم فى برامج المدارس الريفية ولكن تدريس هذه المادة ضعيف بسبب قلة خبرة المعلمين . وقد أخذ فى إنشاء مدارس ثانوية زراعية ولكنها لا تزال قليلة العدد وغرض هذه المدارس اعداد الطلبة الذين ينوون الاشتغال بالزراعة فى حياتهم ، واعطاؤهم من التعليم ما ينفعهم فى مستقبلهم . هذا والتعليم الذى تقدمه كلياتنا الزراعية آخذ فى التحسن باطراد ، والناس عاملون على الاستفادة منه كثيرا . والواقع أن هذا التعليم أخذ يؤدى للزراع خدمة عظيمة .

وخلاصة القول أن المدرسة الريفية يسار بها الآن على مهل فى سبيل التحسين ، ولكن لا بد للوصول بها الى ما يجب لها أن يتغير الشعور تغيرا كليا فى أكثر المجتمعات فيما يختص بأهمية التعليم للزارع فلا بد من أن تخلق فى النفوس رغبة شديدة فى تحسين كل هذه الوسائل .

٢ — الكنيسة الريفية — لا تقوم الكنيسة الريفية اليوم بالدور الذى كانت تقوم به فى الماضى فى حياة المجتمع الريفى . ومثلها فى ذلك مثل المدرسة الريفية فانها لم تتحسن مع الأحوال المستجدة . ولقد أصابها أذى كبير من هجرة أشد أهل الريف اقداما الى المدينة لأنها بذلك فقدت قادتها . والمرتبات فيها ضئيلة ، والرعاة فقراء لأنهم إما أن يكونوا طلبة لاهوت أو رعاة مسنين متهدمين وليس هؤلاء ولا هؤلاء بقادرين على إيقاظ المجتمع وبث روح حياة جديدة فيه . نعم أن الريف فى العادة غاص بالمبانى والهيئات الكنسية ولكن الكنائس نفسها مهملة فلا اقبال من الناس على غشيانها أو مساعدتها بالمال . ويرى كثير

من الناس أن الكنائس كالمدارس محتاجة والحالة هذه الى الاندماج بعضها فى بعض . ولكن المساعى الاصلاحية التى بذلت فى هذا الصدد لم تصادف من النجاح ما صادفته حركة توحيد المدارس والسبب الأكبر فى ذلك هو التعصب الملى . على أنه قد حدث بعض نجاح فى هذا المنحى ، ويمكننا أن نرتقب حدوث تقدم أوسع .

ليست الكنيسة الريفيــة المركز الاجتماعى الذى كان يجب أن تكونه. ولكى تستطيع أن تحل المقام الذى يجب لها فى المجتمع ، يحتم عليها أن تبلغ منزلة أهم شأنا فى حياة المجتمع الاجتماعية. مع أن هذا هو الحاصل فى بعض الجهات ولكن لا بد من التوسع فى ذلك حتى تستطيع الكنيسة أن تقوم بوظيفتها كما يجب . ان الكنيسة أفضل استعدادا من المدرسة للقيام بهذا العمل من وجوه عدة . وان كانت تعجز عن ذلك من وجوه أخرى . تحتاج الكنيسة الريفية الى قساوسة أصلح . ولا بد لاجتذاب هؤلاء اليها من أن تكون على استعداد لتدفع اليهم المرتبات الكفيلة بمعيشة راع كفء يقيم فى المجتمع الريفى ، لا أن تعتمد على طلبة العلوم الدينيــة للقيام بالوعظ يوما أو يومين من أيام الأحد فى الشهر . أن الذى تحتاج الكنيسة الريفية هو حياة جديدة ، ولكن يصعب أن تعطى الكنيسة هــذه الحياة إذا استمرت هجرة أشــد أهل الريف نشاطا الى المدن . أما إذا عاد الرخاء الى المزارع فربمـا يكون المطلوب أيسر منالا .

٣ — الرياضـــة — افتقار الريف الى الرياضة أمر خطير ، وهو من الأسـباب المهمة فى الهجرة الحضرية . فانه لمـا اضمحلت الألعـاب والملاهى التى كانت فى أيام الاستعمار الأول لبلادنا ، لم تجد أنواع جديدة بدلا منها أو على الأقل لم يجد منهـا ما يكفى لسد الحاجة . ولهذا أصبحت حياة الريف فى غالب أمرها خالية من كل ما يلذ ، وانحطت إلى حالة مضنية مملة أو إلى منافسة خسيسة فى سـبيل المـال . ولقد كان لهـذه الحالة أثرها فى الجيـل الناشىء وكان من نتيجتها نزوح خيرهم فى أكثر الأحيـان عن المزرعة . على أن جمعيـات الشبان المسيحية الريفيــة وغيرها آخذة فى مداواة الحالة بسـد تلك الحاجة ؛ كما أن السيارة تساعد الناس على الانتقال من ديارهم للترويح ، ولكنها كثيرا ما تجعلهم يفضلون أن يبقوا فى المدينة من أجل ما فيها من الحياة الاجتماعيــة والملاهى . على أن تهيئة الريف كما سـبق أن ألمعنا إليه ببريد الطرود والتليفون وتوزيع البريد الريفى مجـانا آخذة فى جعل حياة الريف أقل عزلة ووحدة ممـا كانت . بيد أنه ربمـا كان فى إنشاء مراكز اجتماعية ريفية خير دواء لهذه الحالة ، وإذا زاد الرخاء المـالى فلا بد أن يقوم الريف باعداد هــذه الوسائل الرياضية وغيرها من أسباب الترويح .

٤ — الإهمال والتقصير — من أكبر ما يهيض جناح الزارع اليوم عدم تطبيق الطرق التجارية فى الريف . فهناك تبذير بالغ وتسرب كبير . ذلك لأن الحقل لا يغل كل ما يمكن أن يغله . فنسبة غلة الفدان فى جميع أجزاء البلاد أقل بكثير مما يجب أن تكون؛ وذلك فى أكثره بسبب تقصير الزارع فى استعمال طرق الزراعة الحديثة . على أن الفلاحين أخذوا يخففون من غلوائهم فى عدم العمل بالطرق الحديثة التى يسمونها "البدعة الجديدة" أو الزراعة "الكتبية" وشرعوا يثقون بأن الكليات الزراعية والمحطات التجريبية قمينة بمساعدتهم مساعدة كبيرة واليوم يقبل الزراع على المحاضرين وقطر المعارض التى ترسلها الحكومة لتبصير الزراع وكانوا فى الماضى يستهزئون بذلك ويسخرون .

ولقد كان الزارع فى الماضى كما سبق لنا أن ألمعنا اليه، لا يظفرون من غلة مزرعته بما يجب أن يناله من الكسب لأن الوسطاء كانوا يأخذون نصيبا كبيرا منه . أما اليوم فانه بفضل تنظيم الجهود أخذ على عجل يتعلم أن يأخذ نصيبه وينقص نصيب الوسيط الى حده الواجب . ولكن لا تزال الطرق المنطوية على الإسراف جارية فى المزارع وما على الإنسان إلا أن يسافر الى أى صقع زراعى ليرى آلات زراعيـة ذات قيمة يأكلها الصدأ فى الحقول ويرى حازمات وحاصدات ومحاريث غالية القيمة متروكة حيث كانت تستعمل لآخر مرة ولا شك أن هذا اسراف محض . ولا بد أن يتحمل شخص ما غرم هـذه النفقات لأنها تضاف إلى نفقات الزراعة بسبب هذا التلف .والزراع الأمريكيون متقدون بأنهم يعملون على بوار الأرض لأنهـم لا يزرعون أركان الحقل مطلقا ولأنهم يستغلون مساحات واسعة من الأراضى بطريقة غير منتجة من الوجهة الاقتصادية؛ ومرجع هذا فى أكثره الى أن الزارع المتوسط الحال ولا سيما فى الولايات الغربية يملك من الأرض أكثر مما يستطيع أن يزرعه زراعة مستوفاة . نحن لا نلومه إذا هو اشترى جميع الأرض التى يستطيع الحصول عليها بسبب احتمال زيادة قيمتها والمكسب الذى يعود عليه من استغلال ماله فيها، ولكن اذا نظرنا الى الأمر من الوجهة الوطنية نجد انه اسراف . ونسمع بين آن وآن شيئا كثيرا عن الزراع المستأجرين والملاك الغائبين عن أراضيهم الذين يؤجرون مزارعهم الى غيرهم . وإنه نظرا إلى أن منفعة هؤلاء المستأجرين من الأرض غير دائمة ، تراهم يدعون التربة تنحط ويتبعون الطريقة التى يسمونها طريقة السلخ (Skinning) فيتلفون التربة بذلك ويسلبونها ما فيها من عناصر الخصب الطبيعى . وقد أنهك فى الماضى كثير من أرضنا ولا سيما فى الشرق بنفس هـذه الطرق ولكن الزراع على وجه الإجمال أخـذوا اليوم يعرفون طرق تعويض الأرض ما فقدت من عناصر الخصب وذلك باستعمال دورة زراعية صحيحة وباستعمال المخصبات من الأسمدة . على أنه لا ينتظر من المستأجرين أن يؤدوا هذه الخدمات للأرض

ما لم يجبروا على ذلك . كما أنه لا يرجى ذلك من الزراع الجامدين القصيرى النظر . ولكن لعل هـذه الناحية من مشكلة الريف آخذة اليوم بقسط من العناية أوفر ما يظفر به سواها . ولمـا كانت ذات تأثير مباشر فى ايراد المـالك فقد أخذ يتجه اليها ويعنى بها . هذا وكانت مزارعنا فى المـاضى تجرى على خطة التوسيع أى فى الزمن بين الزرعة والزرعة ، والزمن كفيل بالعدول عن هذه الخطة الى خطة التدارك الزراعى حتى يستطيع القطر أن يموّن عدد السكان الذين ينتظر أن يكونوا فى البلاد فى عشرات السنوات القليلة المقبلة . أما مشكلة الاسراف فلا يمكن أن تحل الا بانتشار التربية والتعليم .

وهنالك وجوه أخرى للشكلة الريفية يمكن ذكرها ولكن ربمـا كان ما سبق الالمـام به منها أشـدها خطورة. مسألة الريف كلها مسألة عزلة تقابلها فى المـدينة مسألة الا كتظاظ بالسكان الذى هو من أخص مظاهرها . ولكن مشا كل المدينة كانت أمامنا منـذ عشرات من السنوات بل كان بعضها كذلك منذ قرون فى حين أن المشكلة الريفيـة لم تجتذب نظرنا إلا منذ عهد قريب ولذلك لم توجه اليها وسائل المعالجة التى وجهت الى مشكلة المدينـة . على أن المنظور أن المشكلة الريفية بالرغم من شدتها التى ترتبت على عدم العناية السابقة بها ستكون أكثر استعدادا للحل من مشكلة المدينة . ولكن لا يمكن فى الوقت الحاضر ان نتجاهلها .

مشا كل المدينة :

أحدث النزوح الى المدينـة مشكلة فى الريف لأنه أفقـده انشط عناصره ، كما أحدث فى المدينة مشكلة ناشئة عن أزدياد الازدحام فيها. هذا النزوح من الجهات الريفية الى المدينة صحبه كما رأينا انصراف تيار المهاجريـن القادمين الى الولايات المتحدة الى المدينـــة ؛ وكذلك النمو الطبيعى فى عدد سكان المدينة نفسها . وقد قدر جيليت (Gillette) نسبة النمو فى سـكان المدن الأمريكية للأسباب السابقة فكانت كما يأتى : ٤١ ٪ بسبب الهجرة الواردة و ٢٩,٨ ٪ بسبب النزوح من الريف و ٢١,٦ ٪ بسبب الزيادة الطبيعية فى عدد سكان المدينة و ٧,٦ ٪ بسبب ادخال أرض جديدة فى نطاق المدينة[٢] وقد جلب هـذا الازدحام عدة من مشا كل كثير منها يناقض ما فى الجهات الريفية ، واليك بعضا منها :

١ — وسائل النقل : أصبح استعمال شوارع المدينة مشكلة فى ذاته . فلا بد من وجود لوائح لتنظيم حركة المرور، لا لتوجيه حركة المرور عند زوايا الشوارع وحدها بل لاستعمال بعض الشوارع لمرور عربات النقل ومنع اسـتعمال بعض أنواع العربات فى بعض الشوارع الأخرى ولتخصيص بعض الشوارع كما هو الحال فى بعض مدننا القديمة مثل بوستون لحركة المرور

(٢) ص ٨٦ من كتابه Constructive Rural Sociology

فى اتجاه واحد . والواقع أن نقل الناس الى محال أعمالهم ومنها الى منازلهم مضافا اليه معالجة جماهير الناس الذاهبين الى الأسواق لقضاء حاجاتهم من أعظم المشكلات ، بل هى أكبر فى بعض مدننا الكبيرة من أن تكفيها السكك الحديدية التى تمرفى الشوارع. ولابدمن أن تضاف اليها خطوط حديدية ترفع عن سطح الأرض أو تجرى من تحتها ، بله استعمال قطر الضواحى على الخطوط البخارية التى تقوم فى كثير من الجهات ولا سيا فى بوستون بجزء كبير من هذه المهمة . ومن أوجه مشكلة النقل ما تدعو الحاجة اليه من وجود محطات نهائية للركاب والطرود فأن هذه تتطلب نفقات باهظة بسبب أرتفاع قيمة الأرض فى المدينة. فمحطات الركاب ، فى مدينة نيويورك ، التابعة لسكة حديد «جراند سنترال أند بنسلفانيان» والطرق المؤدية اليها كلفت شركات السكة الحديدية « نيويورك وبنسلفانيا » فوق الـ ٢٥٠ مليونا من الريالات . نعم إن هذه أكثر محطاتنا نفقات ، ولكن إنشاء محطات نهائية صالحة فى جميع المدن أمر يتطلب نفقة بالغة ومهارة هندسية عظيمة . ولما كانت السكك الحديدية فى الشوارع تحتكر العمل فى هذا النوع من وسائل النقل ، فإنها تخلق مشاكل فيما يختص بمنح الرخص ، وفى تنظيمها والاشراف عليها ، حتى تحسن القيام بخدمة الجمهور وفضلا عن ذلك أن مسألة النقل هذه تؤدى الى مشاكل أخرى متعددة ، مثل ارتفاع أجور المساكن وسوء أحوال السكن .

٢ — الحكومة البلدية

مسألة ادارة المدن مسألة معقدة وقد كان كثير من مدننا الأمريكية فى الماضى مشهورا بعيوبه إلى درجة أن كان يضرب المثل بالحكومة البلدية الأمريكية على أسوأ أشكال الحكومة بين الأمم المتمدينة . وقد اشتهرت الحكومات البلدية فى هذه البلاد بالرشوة . بل الواقع أنها كانت من الرداءة فى معظم المدن الى حدّ جعل كثيرا من المصوتين ينأون عنها أنفة واشمئزازا وصاروا يرون أن كل تغير فى إدارتها ليس معناه إلا إخراج عصبة من المرتشين من كراسى الإدارة لتحل محلها عصبة أخرى لا تقل عنها سوءا على أن كثيرا من المدن قد أخذت فى إصلاح هذه الحالة باتخاذ نظام اللجان فى حكومة المدينة ، وبهذه الوسيلة تركزت المسئولية التى يعدّ فقدانها فى أغلب الحكومات البلدية من النقائص الكبيرة. وكذلك أخذ فى إدخال نظام « مديرى المدن » ولا سيا فى المدن الصغيرة لكى يقيموا الشؤون البلدية على أساس عملى صحيح . وقد كان لهاتين الخطتين أثرهما فى تحسين الحالة ولكن المجال لا يزال متسعا للاصلاح . كما أن زيادة استخدام قوانين الخدمة المدنية كثيرا ما يعود بالفائدة وإن كانت إحدى الإدارات المدنيـة فى شيكاغو قد تجاهلت حديث أولئك الذين يشغلون الوظائف بموجب قوانين الخدمة المدنية وعزلتهم لكى تخلى أماكنهم للأصدقاء والأتباع.

إن حكومة المــدن حتى فى أحسن حالاتها تعد مشكلة صعبة حتى ولو كانت الإدارة فيهـا تحاول فعلا أن تعمل لمصلحة الجمهور . أما إذا كان السياسـيون فيها يتخذون من مراكزهم وسيلة لتحقيق أطماعهم الشخصية فإن الصعوبة تتضـاعف ، ومن هنـا كانت خيبتنا فى المـاضى .

٣ — الصحة

كانت نسبة الوفيات فى المدن عظيمة جدا فيا سبق . نعم ان هـذه الحالة قد تحسنت ولكنها مع ذلك لا تزال فى المتوسط أعلى مما هى عليه فى الريف ، لأن ازدحام السكان يؤدى بطبيعة الحال الى زيادة الاسـتهداف للأمراض المعدية ولا سيا فى المدارس العامة . كما أن الخطر من الحوادث أكثر منه فى الريف بسبب اشتداد الحركة والجلبة فى الحياة المدنيـة . والعناية بالمرضى والمصـابين مهمة عظيمة تحتاج فى المدينـة الى عنـاية أكثر وأعظم . ان المستشفيات الخصوصية لا تستطيع أن تعالج هذه المسألة بسبب فقر كثير من الناس فلا بد والحالة هذه أن يسد عجز العناية الطبية الخصوصية بانشاء مستشفيات ومستوصفات بلدية ، واستخدام زائرات صحيات ، وتقرير التفتيش الطبى فى المدارس وإنشـاء عيادات مجانيـة للجمهور .

وتقاوة المواد الغذائية مشكلة صحية أكثر تعقـدا فى المدن منهـا فى الريف ولا سيا فيا يختص باللبن والخضر لأن المواد الغذائيـة التى تسـتهلك فى المدن تكاد تكون كلها واردة من الريف ولا بد من إجراء تفتيش دقيق عليها سواء فيا يختص بحزمها وتعبئتها ونقلها أو فيا يختص ببيعها وقد اعتنى بهذه المسألة فى المدة الأخيرة اعتناء واسع النطاق . وفى كثير من المدن يعالج هذا الأمر معالجة صحية . وكذلك توريد المياه فانه مسألة تستوجب الاهتمام والمـاء كثيرا ما يستجلب من جهات تبعد عن المدينـة بمئات من الأميال وينفق فى سبيل ذلك ملايين من الريالات فاذا لم يمكن العثور على منبع نقى من المـاء ، تحتم على المدينة ترشيح مياه الشرب وهى عملية شاقة فضلا عما تقتضيه من النفقة الكبيرة .

هذا وتصريف الحثالة ، ولا سيا الفضلات والقمامات وكاسات الشوارع وأقذار المجارى ، مشكلة تحير الخبراء أحيانا بسبب موقع المدينة . وتنظيف الشوارع كذلك مهمة تحتـاج الى نفقة كبيرة وتتطلب دوام العمـل . وفى الواقع إن ما تتطلبه الشؤون الصحية فى المدينة مسألة كبيرة ولكنها لحسن الحظ مما نهتم به اهتماما عظيما حتى لا نجد من أمرها شيئا مهملا . أضف الى ذلك الآفات كالذباب والبعوض والفيران فانها محل عناية الادارات الصحية .

ونظرا الى قلة المساحة الأرضية فى المدينــة أصبحت الأرض المطلوبة للساكن غالية جدا. ومن ثم وجدت فى مدننا مساكن فى الدرجة القصوى من سوء الحالة الصحية ولا سيما تلك المساكن التى من نوع « الدمبل » (Dumb bell) القديم على أن لوائح الأبنيــة الحديثة من شأنها اذا هى نفــذت كما يجب أن تحمى المدينة من هذه الشرور. هــذا والمدينة مصابة بوجود كثير من الأعمال غير الصحية فيها وبوجود أحوال لاتستقيم معها الصحة .

وهذه وتلك مصادر أذى دائم لصحة السكان فى جميع مدننا . ألا إن حالة الصحة جميعها فى المدينة مسألة خطيره بيد أنها فى بضع السنوات الماضية قد نالت قسطا وافرا من العناية وستنال فى المستقبل قسطا أوفر . بل إن المدينة حتى فى وقتنا هــذا تعد من بعض الوجوه أصح من الريف بسبب هذا الاشراف الدقيق .

٤ — الحماية

الجريمة والرذيلة ، كما سترى عند الكلام على سوء الوضع الاجتماعى ، هما كالفقر أشيع فى للمدن منهما فى الريف بسبب مافى المدن من وفرة الفرص ووسائل الاغراء ولذلك كان من الضرورى أن تكون هناك حماية أدق يتولاها رجال الشرطة لصيانة النفس والملك . إن قوات الشرطة فى مدننا كبيرة فى العادة جدا واتصالها بالجرائم والمسائل السياسية وثيق حتى لقــد تصبح فى كثير من الحالات فاسدة عديمة الـكفاءة . ولــكن مسألة تنظيم قوات الشرطة نفسها مهمة كبيرة اذ لابد أن يعطى الجمهور الحماية اللازمة فى كل ركن من أركان الشوارع بواسطة رجال المرور ولا بد من تعقب المجرمين والقبض عليهم . والجمهور بوجه عام تجب حمايته ومساعدته . والخطر من شبوب النار عظيم . وفى مدننا أدارات للطافى عظيمة النفقة وذات كفاية . ومسألة العمال فى المدن أصعب منها فى الريف . وكثيرا ما يحتاج الأمر الى حماية الانفس والمتاع من أعمــال العنف فى أوقات اضطرابات العمال المشتغلين فى أعمال الخدمة العامة ، مثل خطوط السكك الحديدية التى تجرى فى الشوارع .

وتوجد الرذيلة بدرجة يؤسف لها فى كل مدينة من المدن . وكانت عادة إدمان المسكر اشيع فى المدن الكبيرة . وكان تنظيم تجارة الخمور دائما مهمة صعبة ، ومصدرا لكثير من الجرائم والفقر والفساد . حتى ان اقامة العدل نفسه معوقة بسبب عدد القضايا التى تحتاج الى محاكم خاصة ، مثل محاكم الأحداث ومحاكم العلاقات الزوجية . ولابد كذلك من وجود سجون للمدينة لينزل بها الذين يحبسون فى جرائم صغيرة. ألا إنه ليس من هينات الأمور القيام بحماية الأرواح والأملاك والصحة والا داب بين سكان مدينة عظيمة .

٥ — التربية

للمدينة كما للريف مشكلتها التعليمية ، إلا أنها اعقد بسبب أن هناك كثرة فى الأطفال الواجب تربيتهم لاقلة كافى، الريف فكثيرا مايكون عددهم أكثر من أن تستغرق المدارس، ويزيد هذا العدد بأسرع مما تستطيع المدينة أن تهيئه للاطفال من التسهيلات فى سبيل ايوائهم فى دور التعليم حتى لتقضى الضرورة فى بعض الاحوال بتقسيم التلاميذ قسمين . قسم يشتغل صباحا ، وآخر يشتغل بعد الظهر . على أن طريقة « جارى » المؤسسة على عمل دورة للفرق الدراسية يتيسر بها أن يستعمل جميع مافى المدرسة من وسائل التعليم طول الوقت، هى خير طريقة اختطت حتى اليوم لمعالجة هذه الحالة .

وهناك شر يلازم هـذه الحالة ناشئ من اتباع طريقة آلية جدا فى التعليم، ومن السهر على نظام تحكمى جدا فى التربية، مما أدى إلى إخضاع جميع الأطفال على اختلاف ميولهم الى نظام تعليمى واحد. على أن هناك علاجا لهذا فى تنويع الفرق الدراسية، كإيجاد فرق للأغبياء وأخرى لأذكياء التلاميذ، وكذلك للولعين بالحرب وأخرى لذوى العاهات الجسمية . إنه وقلما أعدّ النظام المدرسى طالبا لعمله المستقبل.

ولكنهم أحدثوا اليـوم مدارس خاصة ، ولا سيمـا للحرف والفنون لتزيد فى منافعها . والواقع انه من الصعب أن تدار المدارس فى أية مدينة عظيمة ، وأن يستخدم المعلمون القادرون لها ، وأن يحافظ على النظام فيهـا ، وأن تهيأ المعدات اللازمة لها ، وأن يشرف على الشروط الصحية فيها، وأن يعمل كل ذلك فى حدود المقدار الذى تخصصه المدينة للتربية. على أن هـذه الصعوبات ليست بحال ممـا لايمكن تذليله بل الواقع أنهم يعالجونها بقدر صالح من الكفاية ،ومع ذلك فهى مسائل لن يتيسر حلها حلا نهائيا، إذ لابد من أن تستجد على الدوام أحوال جديدة. ومن ثم كانت مسألة التربية فى أى مدينة نامية محتاجة على الدوام الى اليقظة.

٦ — الرياضة

وللمدينة كذلك مشكلتها الرياضية ، لا من حيث انعدام وسائل الرياضة كما هو الحـال فى الريف ، بل من حيث جعل جميع فرص الرياضة الصحية والمسرات البريئة فى متناول الجميع. ومعنى هذا ضرورة التنظيم والإشراف على جميع أنواع الملاهى التى يتجر بها كدور التمثيل وقاعات الرقص ، وغرف البليارد وألعاب الكرة و إنشاء ساحات للعب الأطفال فى الأحياء المزدحمة ، وتهيئـة المتنزهات العامة ومعارض الفنون وشواطئ السباحة ، والحمامات العامة

والمنتديات الاجتماعية ، فالمسألة مزدوجة: جانب منها خاص بإزالة الأنواع المريبة والمفسدة من وسائل الرياضة ، والآخر خاص بترويج وتهيئة الفرص للأنواع البريئة المهذبة . فالعناية يجب أن تكون بالكيف لا بالكم .

٧ — الملكية البلدية والمراقبة البلدية

بنمو المدن أصبحت الصناعات الخاصة بخدمة الجمهور أوضاعا ذات شأن كبير ولا سيما ما كان منها متعلقا بأجهزة الإنارة، وغاز الاستصباح ومراكب الترام ، وتوريد الغذاء ، والثلج والفحم .والظاهر أن هناك طريقتين لتناول هذه المشروعات هما خير من نظام الملكية الفردية غير المقيدة التى قلما تعمل لخدمة الجمهور خدمة وافية، وهاتان الطريقتان هما : إشراف المدينة على تلك الصناعات، وامتلاكها إياها . وفى العادة يكون الإشراف هو الخطوة الأولى ولكنه كثيرا ما ينتهى بالامتلاك . ولكل من هاتين الطريقتين مايميزها من الحجج ويؤثرها على الأخرى . واختيار احداهما على الأخرى يتوقف فى معظم أمره على المكان والأحوال . ولكن الميل العام متجه فيما نرى الى امتلاك المدينة لتلك الصناعات التى هى حيوية للجمهور والتى من شأنها أن تتحول الى احتكار . وقد استولت المدن على قطر الترام . وقطر الانفاق ومولدات التدفئة والإنارة بطريقة تشبه كثيرا تلك الطريقة التى استولت بها على ملكية رافعات مياه الشرب وكذلك المجارى . على أن هذه السياسة لا يمكن التوسع فيها إلا على مهل بسبب قلة خبرة الأمريكيين بالادارة الحكومية للصناعات وبسبب ما بدا فى هذه البلاد من مناهضة فكرة الملكية العامة . بيد أن هناك فيما يلوح لنا حركة متجهة هذا الاتجاه .

٨ — تخطيط المدن

كانت المدن فى أول الأمر " تنمو " على غير هدى من سابق تخطيط . ولكن لما لم يكن نمو المدن دائما بطريقة تنفع الأجيال المتعاقبة ولما كان السكان قد تضاعف عددهم أضعافا لم يكن يحلم بها أوسعهم خيالا ، فقد صاروا يدركون اليوم أن من الضرورى تخطيط المدن للمستقبل لامن حيث الشوارع وحدها وطرق المواصلات الحديدية،

والمبانى العامة، بل ايضا من حيث جميع صناعات المدينة تقريبا . وهذه الخطة الجديدة يعمل بها اليوم فى غالب المدن مع مراعاة الى نموها المستقبل . كما أن هذه المدن تحاول فى الوقت نفسه أصلاح أغلاط الماضى. على أنه من الصعب جدا أن يقدر الإنسان أى تقـدير صحيح فيما يختص بمستقبل التوسع والنمو فى أية مدينة بعينها . فبعضها مطرد النمو و بعضها ينمو على غير قاعدة مطردة ، بل أن بعضها لا ينمو بتاتا كما أن قليلا منها يهبط عدد سكانه وتنحط أهميته .

ان مشكلة الهجرة إلى المدينة على الرغم مما تحتاج اليه من عناية المجتمع، ليست مدعاة إلى القنوط ، فما على المجتمع إلا أن يعالج الوجوه السيئة ، والتى من قبيل ما ذكرناه . أنها تطور طبيعى ، ووجه من وجوه ترقى المجتمع وما هى الا جزء من حركات السكان التى تعترى العالم ما

الفصل التاسع

المشكلة الجنسية بأمريكا

إن المشكلة الزنجية فى الولايات المتحدة تهيء لنا مثلا للمشاكل الجنسية بنوع عام ولكنا سنبحثها هنا بحثا خاصا ، لاعل أنها مجرد مثل من الأمثلة ، نظرا لما لها من خطورة الشأن من حيث هى مشكلة من المشاكل الأمريكية . يظهر أن الكراهة بين الأجناس المختلفة تكاد تكون غريزة فطرية ، فنحن نعتبر الجنس الأصفر أحط من الأبيض ، ويرى الأصفر مثل ذلك فى الأبيض . والإنجليز يحتقرون الهندوس والهندوس يزدرون الإنجليز . فكل جنس يرى نفسه أرق من سواه . وكل أمة ترى أن بلادها وقومها خير البلاد والأقوام . بل ترى كل ولاية مثل ذلك الرأى ، ويرى الفرد العادى فى كل ولاية أن بلدته خير مكان للعيش . نعم إن هناك استثناءات لهذا الأمر ولكن المبدأ يكاد يكون عاما .

إذا ما اتصل جنسان أو قومان بعضهما ببعض نشأ بينهما احتكاك ينقلب عادة إلى حرب . وتكون النتيجة أن يضطر أحدهما إلى الإذعان للآخر . ولقد قيل ان كل جنس حاول مقاومة الجنس الأبيض كانت عاقبته الهزيمة وأن الجنس الأبيض قد قهر الأجناس جميعها . فانه لما اتصل الرجل الأبيض بالرجل الأحمر أبيد الرجل الأحمر . ولما كان الرجل الأبيض يتصل بالرجل الأصفر كان الأصفر يتقهقر أو يسلم بلاده إلا فى بعض أحوال استثنائية نراها فى تاريخ اليابان الحديث . وعند ما اتصل الجنس الأسود بالجنس الأبيض أذعن الجنس الأسود . على أنه بدلا من اضمحلاله اضمحلالا تاما خضع وأصبح خادم الرجل الأبيض أو عبده . ولا يقتصر صدق هذا على أمريكا وحدها بل يكاد يصدق كذلك على جميع أصقاع الدنيا وفيها غالب الجهات الافريقية التى ذهب اليها البيض فى أعداد عظيمة بل حتى عند ما كان عدد السود يربى على عدد البيض بمعدل عشرين أو مائة إلى واحد كان البيض يتغلبون بسبب سموهم وسبقهم فى المدنية وتفوقهم فى قوة العزيمة وفى الشجاعة والطموح والذكاء .

زيادة عدد السكان الزنوج

يحسن بنا أن نبين درجة المشكلة التى نريد بحثها بأرقام تبين عدد الزنوج بالنسبة إلى سائر السكان ، ومعدل الزيادة فيهم والنسبة المئوية للولدين منهم أى الخلاسيين وتوزعهم فى الولايات التى يعيشون فيها . أول زنوج جلبوا إلى هذه البلاد هم الذين جاءبهم الهولانديون فى سنة ١٦١٩ إذ أنزل وسق منهم عدده عشرون فى جيمستون (Jamestown) بولاية فرجينيا وبيعوا عبيدا لأصحاب المزارع . ومن ذلك الوقت الى أول يناير سنة ١٨٠٩ حينما حظرت الهيئة التشريعية الوطنية جلب العبيد كان الزنوج يؤتى بهم إلى الولايات المتحدة بأعداد مختلفة مما أدى إلى زيادة عددهم فضلا عن الزيادة الطبيعية فيمن كانوا بالبلاد من قبل . وليس هنالك بيانات عن عددهم يمكن الاعتماد عليها قبل سنة ١٧٩٠ . وهى السنة التى جرى فيها أول تعداد لنا ومنذ ذلك الحين كانت زيادة الزنوج بيننا كما يأتى :

سنة التعداد	السكان الزنوج	النسبة المئوية الى مجموع السكان
١٧٩٠	٧٥٧,٢٠٨	١٩,٣
١٨٠٠	١,٠٠٢,٠٣٧	١٨,٩
١٨١٠	١,٣٧٧,٨٠٨	١٩,٠
١٨٢٠	١,٧٧١,٦٥٦	١٨,٤
١٨٣٠	٢,٣٢٨,٦٤٢	١٨,١
١٨٤٠	٢,٨٧٣,٦٤٨	١٦,٨
١٨٥٠	٣,٦٣٠,٨٠٨	١٥,٧
١٨٦٠	٤,٤٤١,٨٣٠	١٤,١
١٨٧٠ [1]	٥,٣٩٢,١٧٢	١٣,٥
١٨٨٠	٦,٥٨٠,٧٩٣	١٣,١
١٨٩٠	٧,٤٨٨,٦٧٦	١١,٩
١٩٠٠	٨,٨٣٣,٩٩٤	١١,٦
١٩١٠	٩,٨٢٧,٧٦٣	١٠,٧
١٩٢٠	١٠,٤٦٣,٠١٣	٩,٩

تدل هذه الاحصاءات على أن السكان الزنوج — وإن كانوا قد زادوا زيادة سريعة الخطى — لم يزيدوا بنسبة ازدياد البيض . ومن ثم أخذ عنصرهم يتضاءل نسبيا بين

(١) بدلا من الأرقام الواردة فى الاحصاء أدرجت الارقام المصححة لسنة ١٨٧٠

مجموع سكاننا . على أننا لاندرى كم من هذا النقص فى السكان الزنوج يرجع إلى هجرة الناس البيض إلى الولايات المتحدة وكم منه يرجع إلى ارتفاع معدّل الوفيات بين الزنوج . ولكن الأرجح أنه يرجع إلى كلا السببين معا .

إذا فحصنا مواطن الزنوج اليوم نجد أنهم لا يزالون فى أغلب الأحوال باقين فى الولايات الجنوبية حيث انتشر الرق فيما مضى ، ومع ذلك فهم حتى فى تلك البقاع غير قادرين على منافسة البيض فى معدّل زيادتهم . فمعدّل المواليد بين الزنوج وان كان أعلى بكثير من معدّل المواليد بين البيض فانه يفقد تفوقه هذا بسبب ارتفاع نسبة الوفيات فيهم . وهذا ظاهر جلى ، لأن الولايات الجنوبية لم يصل اليها شئ من الهجرة الأجنبية تقريبا . ولم يترح اليها من أهل الشمال إلا قليل .

فى الولايات الجنوبية اذن نحو تسعين فى المائة من جميع الزنوج . وهذه هى الولايات التى كانت تبيح الرق . وثمانون فى المائة من هؤلاء يعيشون فى الاحدى عشرة الولاية الواقعة فى الاقليم الممتد من فرجينيا الى تكساس ، والتى تعرف بالمنطقة السوداء (Black Belt) . وإليك بيانا بنسبة الزنوج المئوية الى مجموع سكان الولايات الخمسة العشرة السابقة التى كانت تبيح الرق وذلك عن سنوات ١٨٦٠ و ١٩٠٠ و ١٩٢٠

الولايات	النسبة المئوية الى مجموع السكان بالسنوات		
	١٨٦٠	١٩٠٠	١٩٢٠
الاباما	٤٥,٤	٤٣,٢	٣٨,٣
أركنساس	٢٥,٦	٢٨,٠	٢٦,٩
ديلاوار	١٩,٣	١٦,٦	١٣,٦
فلوريدا	٤٤,٦	٤٣,٦	٣٤,٠
جورجيا	٤٤,٠	٤٦,٧	٤١,٦
كنتاكى	٢٠,٤	١٣,٣	٩,٨
لويزيانا	٤٩,٥	٤٧,١	٣٨,٤
مارى لاند	٢٤,٩	١٩,٨	١٦,٩
ميسيسبى	٥٥,٣	٥٥,٥	٥٢,٢
ميسورى	١٠,٠	٥,٠	٥,٢
كارولينا الشمالية ...	٣٦,٤	٣٣,٠	٢٩,٨
« الجنوبية ...	٥٨,٦	٥٨,٤	٥١,٤
تنيسى	٢٥,٥	٢٣,٨	١٩,٣
تكساس	٣٠,٣	٢٠,٤	١٥,٩
فرجينيا...	٤٢,٠	٣٥,٧	٢٩,٩

وهناك مقاطعات تمتد على نهر المسيسبى يربى عدد الزنوج فيها على عدد البيض بكثير . مثال ذلك أيسيكوينا (Issequena) بولاية المسيسبى فان عدد سكانها من الزنوج ٦٩١٥ على حين أن عدد سكانها البيض ٧٠٢ — أى أن ٩٠,٨ ٪ من سكانها من الزنوج ، ومقاطعة تنساس (Tensas) بولاية لويزيانا فان بها ١٠,٣١٤ من الزنوج و ١٧٦٩ من البيض أى أن ٨٥,٣ ٪ من سكانها من الزنوج ، ومقاطعة تونيكا (Tunica) بولاية مسيسبى فان بها ١٨,٢٠١ من الزنوج و ٢١٥١ من البيض ، أى أن نسبة الزنوج ٨٩,٣ ٪ . وقد كان الزنوج فى سنة ١٧٦٠ يعادلون البيض أو يفوقونهم فى العدد فى ٢٤٤ مقاطعة وفى سنة ١٩١٠ كانت هذه الحال سائدة فى ٢٦٣ مقاطعة منها ١٨٧ من المجموعة السابقة . وقد حدث تغير قليل فى مواطن الزنج ، ولكن الاقليم الذى كان به أكبر عدد من السكان الزنوج ظل كما هو تقريبا ، وهو الاقليم الممتد على جانبى المسيسبى من مصبه الى بلدة ممفيس بولاية تنسى ، والاقليم الممتد عبر ألاباما الوسطى إلى ولاية جورجيا ، وجميع كارولينا الجنوبية تقريبا ومساحة صغيرة فى فرجينيا الجنوبية .

سكان الحضر وسكان الريف

فى الجدول الآتى بيان لسنة ١٩١٠ عن الاعداد النسبية ، والنسب المئوية للزنوج الساكنين فى الحضر وفى الريف فى مختلف الاقسام الجغرافية من الولايات المتحدة [١]

القسم الجغرافى	السكان الزنوج		النسبة المئوية لسكان الزنوج	
	ريفيون	حضريون	ريفيون	حضريون
الولايات المتحدة [٢]	٧,١٣٨,٥٣٤	٢,٦٨٩,٢٢٩	٧٢,٦	٢٧,٤
انكلتره الجديدة	٥,٤٣٩	٦٠,٨٧٧	٨,٢	٩١,٨
الولايات الأطلسية الوسطى	٧٨,٦٢٤	٣٣٩,٢٤٦	١٨,٨	٨١,٢
الولايات الوسطى الشمالية الشرقية	٧٠,٢٩٤	٢٣٠,٥٤٢	٢٣,٤	٧٦,٦
« « « الغربية	٧٨,٣٦١	١٦٤,٣٠١	٣٢,٣	٦٧,٧
الولايات الأطلسية الجنوبية	٣,٢٠٢,٩٦٨	٩٠٩,٥٢٠	٧٧,٩	٢٢,١
الولايات الوسطى الجنوبية الشرقية	٢,١٤٣,٤١٦	٥٠٩,٠٩٧	٨٠,٨	١٩,٢
« « « الغربية	١,٥٤٨,٥٨٨	٤٣٥,٨٣٨	٧٨,٠	٢٢,٠
الولايات الجبلية	٦,٠٢١	١٥,٤٤٦	٢٨,	٧٢,٠
ولايات المحيط الهادى	٤,٨٣٣	٢٤,٣٦٢	١٦,٦	٨٣,٤

(١) نقلا عن الكتاب السنوى عن الزنوج فى ١٩١٦ — ١٩١٧ صفحة ٣٧٣

(٢) ورد فى احصاء الزنوج سنة ١٩٢٠ للولايات المتحدة أن ٣,٠٥٩,٤٧٣ أى ٣٤ ٪ من السكان الزنوج حضريون و ٦,٩٠٣,٦٥٨ أى ٦٦ ٪ ريفيون أما الأرقام الخاصة بمختلف الأقسام الجغرافية فلم تصدر حتى ساعة كتابة هذا الفصل (٢٢ مارس سنة ١٩٢٢) .

فى سنة ١٩١٠ كان هنالك أربع مدن فقط مما يزيد عدد سكانها على ٢٥ الف و يزيد الزنوج فيها على نصف السكان . وهذه المدن هى تشارلستون فى كارولنيا الجنوبية إذ كان معدل الزنوج فيها ٥٢٫٨ ./. وسافانا فى جورجيا إذ كانوا ٥١٫١ ./. وجاكسونفيل فى فلوريدا حيث كانوا ٥٠٫٨ ./. ومونتجومرى فى ألاباما إذ كانوا ٥٠٫٦ ./. . أما فى سنة ١٩٢٠ فان نسبة الزنوج فى تلك المدن كانت قد نقصت الى الحد الآتى :

٤٧٫٦ فى تشارلستون و ٤٧٫١ فى سافانا و ٤٥٫٣ فى جاكسونفيل و ٤٥٫٦ فى مونتجومرى وظهر مثل ذلك النقص كذلك فى جميع المدن الاخرى الموجودة فى الانحاء الجنوبية .

على أن المدن التى تحتوى أكبر نسبة من الزنوج من بين المدن الآهلة بالسكان هى الآتية :

ممفيس ففيها ٤٠ ./. و برمنجهام وفيها ٣٩٫٣ ./. وريتشموند ففيها ٣٦٫٥ ./. و باشفيل وفيها ٣٣٫١ ./. واتلانتا وفيها ٣١٫١ ./. ونيو اورليانس وفيها ٢٦٫١ ./. وواشنجتون العاصمة وفيها ٢٥٫١ ./. . أما فى الشمال فقد نزح الزنجى الى المدن حيث اضطر أن ينزل أفقر الأحياء لأنه فى العادة لا يقدر أن يحصل على عمل إلا فى المهن الحقيرة .

ولقد كان هذا الوسط المزرى من أهم العوامل التى أحدثت للزنوج فى المدن الشمالية مشكلة كانوا هم السبب فى خلقها لأنفسهم . أما فى الجنوب فان الزنجى لم يهرع الى المدن بل بقى فى المزارع بنسبة تكاد تكون ثابتة . ومع أن كثيرا منهم انتقلوا الى البلدان الصغيرة فلم يحدث نزوح كبير منهم الى الحضر . ولقد حدث تناقص طفيف فى الزنوج فى بعض الأزمنة ولكن ظهر فى السنوات الأخيرة عكس ذلك اذ زادت نسبتهم من ٢٫٨ فى المائة فى العشر السنوات الواقعة بين ١٨٩٠ و ١٩٠٠ الى ٤٫٧ فى المائة فى العشر السنوات الواقعة بين ١٩٠٠ و ١٩١٠ ثم الى ٦٫٦ فى العشر السنوات الواقعة بين ١٩١٠ و ١٩٢٠

زيادة السود والخلاسيين وتوزعهم

كلف القائمون بالتعداد أن يدرجوا تحت كلمة "أسود" جميع من كانوا بالبداهة زنوجا صريحى الزنجية وأن يدرجوا تحت كلمة "خلاسى" أولئك الذين يظهر أن فى عروقهم شيئا من الدم الأبيض . وفى تعداد سنة ١٨٩٠ حاولوا أن يدرجوا تحت كلمة "سود" أولئك الذين فى عروقهم ثلاثة أرباع من الدم الزنجى أو أكثر ويدرجوا غيرهم تحت وصف "خلاسى" أو "رباعى" من ربع دمه من الزنجى أو "ثمانى" من ثمن دمه من الزنجى ولكن هذا لم يكد يحدث فرقا حقيقيا فى التعداد أما توزيع السود والخلاسيين فبين فى الجدول الآتى :

نسبة السود والخلاسيين فى الأقسام الجغرافية [٣]

القسم الجغرافى	١٩١٠		١٨٩٠		١٨٧٠	
	أسود	خلاسى	أسود	خلاسى	أسود	خلاسى
الولايات المتحدة	٧٩٫١	٢٠٫٩	٨٤٫٨	١٥٫٢	٨٨٫٠	١٢٫٠
نيو انجلاند	٦٦٫٦	٣٣٫٤	٦٧٫٣	٣٢٫٧	٧١٫٤	٢٨٫٦
مدل اتلانتيك	٨٠٫٤	١٩٫٦	٧٨٫٦	٢١٫٤	٨٥٫١	١٤٫٩
ايست نورث سنترال	٦٦٫٨	٣٣٫٣	٦٢٫٨	٣٧٫٢	٧٠٫٨	٢٩٫٢
وست نورث سنترال	٧١٫٣	٢٨٫٧	٧٤٫٧	٢٥٫٣	٨٤٫٠	١٦٫٠
ساوث اتلانتيك	٧٩٫٢	٢٠٫٨	٨٦٫٦	١٣٫٤	٨٩٫٤	١٠٫٦
وست نورسوث سنترال	٧١٫٣	٢٨٫٧	٧٤٫٧	٢٥٫٣	٨٤٫٠	١٦٫
وست سوث سنترال	٧٩٫٩	٢٠٫١	٨٥٫٥	١٥٫٥	٨٦٫٩	١٣٫١
الجبل	٧١٫٤	٢٨٫٦	٦٤٫٣	٣٥٫٧	٦٩٫٦	٣٠٫٤
الباسفيك	٦٥٫٣	٣٤٫٧	٥٧٫٧	٤٢٫٣	٦٢٫٧	٣٧٫٣

ويدل هذا الجدول على شيئين : أحدهما أن نسبة الخلاسيين متزايدة وثانيهما أنه حيث يقل عدد الزنوج بين السكان تكون نسبة الخلاسيين على أعلاها . والراجح أن هــذه الزيادة فى عدد الخلاسيين ليست راجعة الى قلة العفاف ، بل لعلها راجعة الى تسرب الدم الأبيض تدريجيا الى جميع السكان السود كما أن ازدياد عدد الخلاسيين فى الولايات الشمالية والغربيــة بالقياس الى عدد الزنوج فيها يدل على أن الخلاسى فى الغالب كثير القلق محب للنزوح عن موطنه . ولما كان بعض الدم الأبيض يجرى فى عروقه كان أميل الى التبرم بحاله وبانحطاط مركزه الاجتماعى والى العمل على التخلص منه . والخلاسى هو الذى يذهب عادة الى معاهــد العلم فى الشمال وينال وظائف فى الشمال . ذلك لأنه أشد أقداما وأجرأ على مغادرة موطنه . والأمر الخطير فى هذه الحالة هو رجحان نسبة الخلاسيين على نسبة السود .

على أنه ليس من المحتمل فى الوقت الحاضر أن يلحق الزنجى بالأبيض فى عدد السكان . واذا كان هناك خطر حقيقى فانما هو من زيادة عدد الخلاسيين ومن نزوحهم أخيرا الى المدن .

(٣) نقلا عن الكتاب السنوى الزنوج ١٩١٦ — ١٩١٧ ص ٣٦٦

أثر التاريخ المـاضى فى الزنجى

إذا درسنا الزنجى وجب علينا ألا نغفل فى دراستنا تاريخه المـاضى لا فى أمريكا وحدها فى عهد الرق ، بل وفى أفريقيا فى آلرف السنوات التى مرت عليه قبل أن يجئ الى بلادنا . لا ندرى هل كان الزنجى يختلف عن غيره من الاجناس قبل مهاجرته الى افريقيا ، ولكن المرجح أنه كان له من الخصائص ما كان لغيره من سكان آسـيا الصغرى . وهناك نظرية يقول بها البعض وينكرها البعض الآخر وهى أن الزنجى انما اكتسب سواد جلده وتجعد شعره بتأثير حرارة الشمس وأن الحرارة قد أكسبت البشرة ذلك اللون الأسـود وهى التى كانت سببا فى تجعـد الشعر . وهناك تفسير آخر أكثر قبـولا ، وهو أن الذين كان فيهـم ذلك اللون كانوا أكثر تحملا لحرارة الشمس من الذين لم يكن لهم مثل تلك الوقاية ، ولذا بقوا وزادوا ، أما الذين حرموا هذه الوقاية فـاتوا و بادوا وهكذا نمـا ذلك اللون نموا عاما بين الزنوج بطريقة الانتخاب الطبيعى .

وهناك تعليل شبيه بذلك لبعض خصائص الزنجى الأخرى فمن ذلك مثـلا أن الأفراد الكثيرى النسل هم الذين بقوا ، على حين أن من لم يكونوا كذلك بادوا . والسبب فى ذلك أن كثرة النسل لازمة لكى تتغلب على كثرة الوفيات الناشئة من تأثير المنـاخ ومن اعتداء الوحوش . وكذلك الجماعات التى اعتادت التبكير فى الزواج والاكثار من النسل والتى كانت تحسن معاملة النساء والأطفال كانت هى الأصلح للبقاء . وقد ساعد هذا على تنمية روابط المحبة بين أفراد الأسرة عند الزنوج وعلى الحث على الزواج والنسل الكثير .

كذلك كانت وداعة الزنجى واطمئنان باله فى الحيـاة وكسله وعدم إكتراثه بالمستقبل نتيجة الانتخاب الطبيعى لأن الأفراد الذين كانوا عصبيين وسريعى التأثر كانوا ينظرون إلى الحياة نظرة جدية . لم يستطيعوا أن يتحملوا حرارة المنـاخ وأن يعيشوا . أما الذين كانوا لا يهتمون بالأمور إلى هـــذا الحد فقد عاشوا و بقوا . ولم يكن لدى الزنجى ما يدعوه إلى القلق على طعـامه فقد كانت الطبيعة تجود عليه بخيراتهـا و إن كانت قاسية عليه فى تعريضه للأمراض والوحوش . كان الطعام حوله وفيرا من كل نوع ولذلك لم يكن هناك ما يحفز الزنجى الى أن يدخر للمستقبل بل ولا إلى أن يجهـد نفسه فى العمل. وكذلك لم تكن بهحاجة كبيرة إلى كثير من اللباس فأنه لم يحتج إلا إلى القدر الكافى للزينة و إلى القدر الذى يحافظ به على مظاهر الحشمة . وكلاهما لم يتطلب من اللباس إلا قليلا . وكذلك الحال من حيث المـأوى فلم يكن الأمر يحتاج الى معدات كبيرة . كل ما كان ضروريا له هو أن يحتمى

من المطر والوحوش . وقصارى القول أن حياة الزنجى كانت داعية لأن ينمو فيه خلق الاستهانة وخلو البال . واذ كان الطعام حوله وافرا ، كان جثمانه كبيرا . أما بواعث النمو العقلى فلم يكن لها لديه وجود . فان العقل وليد الضرورة ، والإنسان لايفكر إلا إذا اضطر الى التفكير ؛ والزنجى لم يكن مضطرا أن يستعمل قدرا كبيرا من الذكاء أو يرهق عقله الى أى حد قصد الحصول على المعاش ، ولذلك لم تنم قواه العقلية . والطبيعة لم تنتخب الحازم والماكر كما فعلت فى الأقاليم الأشد برودة . ولذلك نجد أن الزنجى ذو بنية قوية وعقل منحط . على أنا لانقصد بهذا أن عقل الأسود فى جوهره احط من سواه ولكن لما كانت المدنية عبارة عن سلسلة من الأعمال البشرية وكان الزنجى لم يعمل عمل الرجل الأبيض ، لأنه لم يكن مضطرا الى ذلك ، فأنه لم يحصل على مجموعة من الأعمال البشرية التى يمكن أن تقارن بما جمعه الرجل الأبيض ومن ثم كان انحطاط عقليته وتأخره عن الرجل الأبيض فى مدارج التقدم ، ووقوعه فريسته للتفوق الذى امتاز به الرجل الأبيض فى المكر والشجاعة والكفاح. لهذا أصبح الجنس الأسود مستعبدا والأبيض متسلطا. فالواجب علينا فى دراسة حال الزنجى فى أمريكا والحالة هذه أن نتذكر تاريخه الماضى . نعم إنه قد انتقل من البيئة التى سببت هذه الحالة ولكن آثارها لا تزال باقية فيه فقد كان الزنجى فى أفريقيا يعيش وسط ظاهرات طبيعية لم يكن يستطيع تعليلها ، وكانت تبعث الذعر فى نفسه . ولكنها كانت من شدة التعقد بحيث لم يكن يستطيع أن يدرك كنهها . ومن ثم نشأ لديه الاعتقاد بالسحر والخرافات وأعمال الشعوذة . وقد جلب الزنجى معه هذه العقائد الى أمريكا ولا يزال معظم الزنوج يسلم بكثير منها لمجرد كونها انتقلت من جيل الى جيل . أن اتصال الزنجى بالمدنية حديث العهد جدا وكان هذا الاتصال فى ظروف غير طبيعية . ولا بد له أن يقضى أعواما عدة ربما بلغت قرونا لكى يستطيع اللحاق بالأبيض اذا كان مقدرا له ذلك . إن ماضى الزنجى حمل ثقيل يوقره ايقارا شديدا .

تعلم الزنجى وهو عبد أن يشتغل . ولكنه إنما كان يفعل ذلك مكرها وفى ظروف وأحوال جعلته يكره العمل اليدوى . لقد كان يجبر على العمل سواء أراد ذلك أو لم يرده . وفى أيام الرق صار الزنجى برغم كراهيته العمل ماهرا فى الصناعة فقد أصبح كثيرون منهم ميكانيكيين ونجارين وبنائين بالآجر وحدادين وبنائين بالحجارة على درجة من المهارة وأصبح غيرهم طهاة وسائقى عربات وخادمات وغسالات .

كذلك أصبح أولئك الذين كانوا يشتغلون فى مزارع القطن أهل خبرة بزراعة القطن والواقع أن كل طائفة منهم أصبحت منتجة اقتصاديا. وعند ما منح الزنجى حريته كان معدا اعدادا حسنا للدخول فى ميدان الحياة الاقتصادية . فالرق كان من احدى نواحيه مفيدا للزنجى ذلك بأنه علمه أن يعمل وأن كان قد علمه فى نفس الوقت أن يكره العمل .

على أن الرق قد أثر فى الزنجى من نواح أخرى غير الناحية الصناعية فان حياة الأسرة فى عهد الرق لم تكن متيسرة حتى فى أحسن الأحوال . كانت معيشته البيتية غير مضمونة فقلما كان هنا لك زواج ؛ وقلما كانت روابط الزوجية مقدّسة . وكان فى استطاعة السيد أن يبيع الزوجة أو الزوج أو الطفل . وكان فى استطاعته أن يشتت شمل أسرة العبد فى أى وقت يشاء بل كان السادة فضلا عن ذلك لا يرون أن روابط الأسرة لازمة . ولم يقتصر أمر السادة أنفسهم على أنهم لم يحموا الفضيلة فى إناث العبيد بل كثيرا ما كانوا هم أنفسهم الباغين عليها . فلا عجب والحالة هذه إذا كان العبد لم يتعلم الا قليلا من فضائل حياة الأسرة بل أنه لم يعرف كذلك إلا قليلا عن تربية الأولاد . هذا ولما كانت أعمال العبد مما يعدّه له غيره ، فان لم يكتسب فضيلة ضبط النفس والقدرة على تدبير خطط الأمور بنفسه والاستعداد للستقبل . لم تكن عنده هذه الصفات يوم جاء الى امريكا والرق لم يعلمه اياها له . وكل ما علم الرق الزنجى الأمريكى أن يوقر البيض ويرعى حرمتهم . من الجائز أيضا أن يكون الرق قد نماه من الوجهة البدنية لأنه عرضه فى المبدأ لمحنة شاقة فى معترك بقاء الأصلح قبل أن يصل الى هذه البلاد الأضعف فسقط فى الطريق وهو يساق الى الشاطئ أو هلك وهو فى السفينة . وفضلا عن هذا فقد كان النخاسون يستأصلون أحرار النفوس وذوى الكرامة من الزنوج إذا هم قاوموا أو حاولوا الفكاك . وبهذه الوسيلة لم يبق إلا القوى المستسلم .

ولعل أشد العهود اتلافا لخلق الزنجى هو ذلك العهد الشنيع على قصر أمده الذى يدعى عهد الاصلاح (Reconstruction) يوم حاول أولئك السياسيون الأفاقون من أهل الشمال أن ينظموا الزنوج ويعلموهم أنهم معادلون للبيض وحاولوا باستعمال أصوات هؤلاء فى الانتخابات أن يملأوا جيوبهم على حساب البيض من أهل الجنوب .

هؤلاء السياسيون الأفاقون لم يكن يهمهم من أمر الزنوج شيء ؛ وإنما رأوا فيهم وسيلة يجمعون بها المال لأنفسهم . وقد كان لعهد الإصلاح المذكور فى إبقاء نار العداوة بين الجنوب والشمال أكثر مما كان للحرب نفسها . فقد جعل أهل الجنوب يسيئون فهم المقصد الحقيق الذى رمى اليه أهل الشمال بما فعلوا وجعلهم يعتبرون جميع الشماليين أوغادا ، وأدى فى نفس الوقت الى زيادة العداوة الجنسية . فقد كانت العلاقات بين السادة والعبيد أيام الرق ودية فى جملتها ، فلما أخذ أولئك السياسيون ينظمون الزنوج ويثيرون فى نفوسهم مقت سادتهم الأقدمين نمت من فورها أسباب العداوة الجنسية ، وتمخضت مقاومة البيض من أهل الجنوب عن تأليف جماعة كوكلوكس كلان [*] (Ku Klux Klan) ثم عن حرمان الزنوج

[*] هى جمعية سرية تألفت لاضطهاد الزنوج فى الولايات الجنوبية بعد الحرب الأهلية وتطور حالها بعد ذلك .
(المترجم)

عمليا من الحقوق الانتخابية فى معظم الولايات الجنوبية . ولكن ربما كان أنكى ناحية لهذه الحالة الجديدة من وجهة نظر الزنجى أنها أخرجته من عمله وجعلته يترك أعماله فى مزارع القطن وفى مهنه الأخرى ليتسكع فى المدن ويحتقر العمل اليدوى .

وعنـد ما تحرر الزنجى لم يدرب أولاده أو يجعل تعليمهم متجها الى صيرورتهم أكفاء من الوجهة الاقتصادية لأنه لم يشأ أن يرى أولاده مضطرين الى القيام بالأعمال التى كان يقوم بها هو وإنمـا أراد لهم أن يتعلموا لأنه كان يرى أن التعليم مفتاح الحصول على مركز اجتماعى . وبدلا من أن يعلمهم حرفا أخذ يعلمهم تعليما عاما ولا سيما فى مدارس الشمال فترتب على هذا أن الجيل الثانى لم يصل الى درجة الكفاية الاقتصادية التى كانت لآبائهم . هؤلاء دربهم سادتهم البيض، أما أولادهم فلم ينالوا من التدريب إلا قليلا وان شئت فقل إنهم لم ينالوا منه شيئا . وكل ما حدث أنهم نموا وكبروا فأحدثوا مشكلة أخطر مما أحدث الجيل السابق لأنهم إذ كانوا غير أكفاء لم يستطيعوا أن يحصلوا على أجر حسن: لم يستطيعوا أن يكتسبوا رزقا كافيا ، ولذلك سقطوا اقتصاديا . وكان الزنجى بعد مرور ثلاثين سنة على الحرب الأهلية أسوأ حالا مما كان يوم منح حريته ، فقد كان يومئذ ذا كفاية وكان الجترب يحتاج اليه ويريده ، أما بعد ذلك فقد قلت كفايته وصار البعض يسأمونه .

يرى كثير من الثقات أن الخصائص النفسية والجسمية التى تميز الزنجى عن الأبيض فطرية أكثر منها مكتسبة وأن للجنس الملون بعض صفات عقلية وجسمية فطرية ، منها : امتيازه بقوة الذاكرة وشدة الشهوات الجنسية وميله للخضوع أكثر من ميله للخاصمة ، وبأن عاطفة الألفة فيه أشـد ، وبأنه أقدر على معرفة أخلاق النـاس وتفسير ما يجول بخواطرهم من الأفكار وأنه وجدانى فى تدينه وأنه ذو استعداد قليل لتنظيم الجماعة والحكومة وأنه أشد تأثرا بالتقليد وبالعاطفة وبالمنافسة منه بالتفكير المنطق والتماس الغاية بالتدبر. ونحن نقر بأن فيه هذه الصفات حقيقة وأن بعضها قد يرجع الى فطرته على أننا نعتقد أن مؤثرات الانتخاب الطبيعى والبيئة أقوى كثيرا .

تقدم الزنجى اقتصاديا

ليس تقدم الزنجى من الوجهة الاقتصادية صعب التقدير إذا أمكننا الحصول على احصاءات يوثق بها عن الزنجى فى يومنا هذا ، لأنه بدأ حياته الاقتصادية بعد التحرير وهو فى حكم المعدم . نعم ان قليلا منهم كانوا قد ظفروا بالعتق قبل التحرير العام وكانوا قد جمعوا شيئا من الاملاك ومنهم من ساعدهم سادتهم بعد عتقهم باقطاعهم مزارع صغيرة ولكن

الكثرة العظمى من الزنوج بدأوا حياتهم يوم ظفروا بحريتهم وهم عند نقطة الصفر من المقياس الاقتصادى ، وقد عوّلنا فى الاحصاءات الآتية على الكتاب السنوى للزنوج فيما يختص بالتقدم الاقتصادى لهذا الجنس .

	سنة ١٨٦٦	سنة ١٨٨٣	سنة ١٨٣٩	سنة ١٩٠٣	سنة ١٩١٦
مساكن يملكها الزنجى ...	١٢,٠٠٠	١٢٨,٠٠٠	٢١٠,٠٠٠	٩٣٠,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
مزارع يديرها « ...	٢٠,٠٠٠	٣٨٠,٠٠٠	٥٥٠,٠٠٠	٧٩٠,٠٠٠	٩٨١,٠٠٠
أعمال « « ...	٢,١٠٠	١٠,٠٠٠	١٧,٠٠٠	٢٥,٠٠٠	٤٥,٠٠٠
ثروة متجمعة بالريال ...	٢٠,٠٠٠,٠٠٠	٧٥,٠٠٠,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠

تدل هذه الأرقام على أن الزنجى قد زاد رخاؤه الاقتصادى باطراد حتى أصبحت الثروة فى سنة ١٩١٦ فى متوسطها ١٠٠ ريال لكل نفس .

على أنه يجدر بنا لنتعرف مدلول هذه الزيادة على الحقيقة أن نقارنها بزيادة الثروة للبلاد جميعها . كان متوسط ثروة الفرد فى سنة ١٨٦٠ ، ٣٠٨ ريالات وبلغت فى سنة ١٩١٦ ، ٢٠٠٠ ريال . فاذا كان الزنجى قد تحسنت حالته وربما يكون قد تقدم تقدما أعظم نسبيا من تقدم الأبيض بسبب كونه بدأ حياته الاقتصادية وهو معدم تقريبا فان الثروة المتجمعة فى يد الزنجى لم تساير الثروة المتجمعة فى جميع القطر . ولكن ما يدعو حقيقة الى التفاؤل ما لوحظ من الزيادة السريعة فى السنوات القليلة الماضية فقد بلغت أكثر من ثلاثة الأضعاف بين سنتى ١٩٠٣ و ١٩١٦ ومنذ سنة ١٩١٦ زادت أكثر من ذلك بسبب الرخاء الاقتصادى الذى أصابه الجنوب ، والذى كان للزنجى فيه نصيب . واذا استمر الزنجى على هذا المعدّل من سرعة التقدم فلا تنقضى عشرات من السنين حتى تصبح حالته الاقتصادية أحسن منها اليوم عند مقارنتها بحالة الرجل الأبيض .

والأرجح أن من أهم أسباب التقدم الاقتصادى الذى أصابه الزنجى أخيرا انتشار التعليم الصناعى بين السكان السود ، والمنتظر أن تحوّلنا المدارس الصناعية المنشأة لأجل الزنوج أقصى ما نؤمله منها : وهو أن ينتقل الزنجى العادى من حالة يكاد يكون فيها معدما إلى حالة

يسر معتدل . ولن يقتصر أمر الزنجى عندما يكون صاحب ملك ومن دافعى الضرائب على أن يزداد احترام الناس له ، بل يصبح أقدر على الحصول على مدارس أصلح وعلى حل معضلاته الأخرى . وكذلك فانه يوم يكون مثابرا على العمل يقل تعرضه للضيق

ولم تؤثر الهجرة (*) فى الزنجى تأثيرا جديا فى الجنوب ولكنها ربما أثرت فيه فى المستقبل . أما فى الشمال فان المهاجر قد أجلى الزنجى عن كثير من الأعمال بطريقة شبيهة جدا بتلك التى أجلى بها الرجل الأبيض . على أن المهاجر لم يفعل ذلك لأنه عرض نفسه بأجر أقل من أجر الزنجى بل لتفوقه عليه فى الكفاية ، وبهذا زاحم الزنوج حتى أخرجهم من مهن كثيرة كمهنة الحلاقين والندل والبوابين وغلمان الفنادق . وقد اضطر الزنجى اليوم إلى العمل فى الحرف غير الفنية التى لا تحتاج إلا إلى القوة العضلية والتى لا يرغب فيها الرجل الأبيض . ولم تكن هذه النتيجة راجعة إلى العصبية الجنسية بقدر رجوعها إلى تفوق الأبيض على الزنجى فى القيام بعمله إذ هو أسرع وأكثر إتقانا . والواقع أن الرجل الأبيض أدعى أن يعتمد عليه وأعظم كفاية من الزنجى . ولما كان الرجل الأبيض قادرا على تأليف نقابات للعمال كان أقوى من الزنجى من الناحية الاقتصادية .

ولما كانت نقابات العمال — إلا القليل منها — لا تقبل الزنوج فى عضويتها فهم محرومون بذلك من الدخول فى مصاف العمال الفنيين، حتى ولو كان الواحد منهم أهلا للاندماج فيهم . أما المهاجرون فانهم غير ممنوعين من الدخول فى هذه الاتحادات .

لم تؤثر الهجرة حتى الآن فى الجنوب لأن المهاجر لا يهمه أن ينافس الزنجى هناك . وبعض ذلك بسبب انحطاط الأجور فى الجنوب وبعضه بسبب خوفه أن يوضع فى مستوى اجتماعى واحد مع الزنجى . وقد حاولت عدة ولايات جنوبية توجيه جانب من تيار الهجرة إلى الجنوب ولكنها إلى اليوم لم تنجح نجاحا كثيرا . على أن من الواضح أن المهاجرين القليلين الذين نزلوا بالجنوب قد بذوا الزنوج صناعيا .

وقد ذكر ستون (٤) (Stone) تجربة أجريت فى مزرعة قطن باركنساس كان يعمل فيها إيطاليون وزنوج جنبا لجنب فى نفس المزرعة فقال : إن النتيجة كانت أن كل إيطالى أنتج فى المتوسط ٢٥٨٤ رطلا من القطن الشعر يقابلها ١١٧٤ رطلا أنتجها الزنجى ، وأن الايطاليين أنتجوا ٤٠٣ أرطال فى الفدان الواحد فى المتوسط وأنتج الزنجى ٢٣٣ وأن متوسط الثمن لما أنتجه كل إيطالى كان ٢٧٧,٣٢ ريالا يقابله ١٢٨,٤٧ ريالا لكل زنجى ، وأن متوسط الثمن لما أنتجه كل ايطالى من كل فدان ٤٤,٧٠ ريالا يقابله ٢٦,٣٠ ريالا

(*) يعنى هجرة الناس من أوربا وغيرها الى الولايات المتحدة

(٤) كتاب AH. Stone المسمى Studies in the American Race Problem صفحات ١٨٠ — ١٩٥

الزنوج . على أن ظروف الايطاليين فى هذه التجربة كانت أقل ملاءمة من ظروف الزنوج لأن الإيطاليين لم يكونوا معتادين زراعة القطن، بل لقد كانوا فى حاجة إلى من يرشدهم إلى أن هذا النبت قطن وذاك عشب . ولكن بالرغم من ذلك كان كل ايطالى يزرع فى المتوسط ٦,٢ من الأفدنة يقابلهما ٥,١ للزنجى ، وكان محصول فدان الايطالى يزيد ١٧٠ رطلا من القطن الشعر عن محصول فدان الزنجى . على أن الفرق الرئيسى كان فى حساب النفقات فقد كان الايطالى لا يشترى من الأشياء إلا ما لم يكن له مندوحة عن شرائه حين كان الزنجى يشترى كل ما كان يستطيع ان يحصل عليه . وكان من دأب الايطالى أن يجعل نفقاته أقل من دخله ويدخر لكى يدفع إيجار الأرض . أما الزنجى فانه لم يحاول الادخار حتى للحصول على ما تتطلبه الزراعة فى العام التالى معتبرا رصيد حسابه فى آخر العام مالا ينفقه أو بالأحرى يبدده تاركا محصول العام المقبل للقضاء والقدر . وكان الأيطالى يشترى بالنقد الفورى إذا ترتب على ذلك خصم فى الأثمـان ، بل لقد كان يعرض أن يدفع إيجار الأرض مقدما إذا منح " خصما " نظير ذلك. وكان بطبيعة الحال يشترى الأشياء بثمن أقل مما يدفعه الزنجى إذ كان هذا يدفع أعلى الأثمان عادة فى كل شىء يبتاعه .

واذا أجريت تجارب من هذا القبيل فى جميع بقاع الجنوب وكانت نتيجتها مثل هذه النتيجة فلن يلبث المهاجر حتى يصير منافسا خطرا للزنجى فى الجنوب . وقد تكون النتائج أشد نكبة له منها فى الشمال لأن الزنجى الذى يذهب الى الشمال هو أشدهم أقداما . على هذا الاعتبار سيكون الزنجى الجنوبى أقل قدرة على المنافسة حتى من أخيه الشمالى، على الرغم من أن الجو فى الجنوب أنسب للزنجى منه للايطالى، بالرغم من اعتياد سكان الجنوب من البيض استخدام الزنجى وإيثاره .

وأذا اتجهت الهجرة والحالة هـذه الى الجنوب فلا بد أنها تعقد مشكلة الزنجى تعقيدا عظيما ، إذ تجمع للزنوج بين المقاطعة الاجتماعية والمقاطعة الصناعية . والواقع أن عدم امكان التعويل على الزنجى هو عائقه الأعظم ، كما أن جموده وخرقه يفقدانه المدركة كلما وقف أمام المهاجر . وهذا هو السبب الذى يضطره الى أن يدفع أثمانا أعلى ، ويلجئه الى العمل بشروط تعاقد أقسى مما كان فى ميسوره الحصول عليه لولا ذلك .

وحب الزنجى للتنقل مما يعوقه اقتصاديا ، فصاحب المزرعة لا يدرى كم من مستأجرى أرضه فى عامه الحاضر سيبقون للعام التالى، ولا يدرى مستخدم العمال الزنوج كم ممن لديه منهم اليوم سيكونون فى العمل غدا . وقد استفادت شركات السكك الحديدية الجنوبية من هذه الخلة الزنجية فأخذت تنظم الرحلات المتعددة، فكأن الزنوج يساعدون بعادتهم هذه على دفع أرباح سهومها . وتستفيد شركات الملاهى والألعاب البهلوانية كذلك من حب الزنوج للملاهى على أن هناك حركة قائمة للتغيير .

على أن هناك حركة قائمة فى مقابل هذه المنافسة التى يهدد بها المهاجر الزنجى ، وهى حركة تدريب الزنوج تدريبا صناعيا ، وذلك بتعليم رجالهم الحرف والزراعة العلمية ، وتعليم نسائهم التدبير المنزلى والطهى ، وبالاختصار لكى يصبح الزنوج أكفأ من الوجهة الاقتصادية . فإذا نمت هـذه الحركة بسرعة كانت كافية لتثبيط همة الهجرة وكانت عونا على معالجة الموقف الاقتصادى . يومئذ يفضل الرجل الأبيض الجنوبى العامل الزنجى تفضيلا كثيرا على العامل الأبيض اذا كان الزنجى فى درجة كفايته . هذا فضلا عن أن الزنجى أكثر قبولا للأحوال المناخية ، ولاسيما فى منطقة القطن ، فله فى هذا مزية على الأبيض . ولكن الزنجى فى الوقت الحاضر لم يعد محتكرا أنواع العمل ، ولا سيما العمل الفنى ، فى الجنوب على نحو ما كان عليه لمـا انتهت الحرب الأهلية .

وفى الأحوال الراهنة يستأجر الزنجى أرضـه عادة بدلا من أن يمتلكها . وهو يستأجرها بطريق المحاصة مع المـالك . فالرجل الأبيض المـالك يقدم الأرض والآلات والبذور والزنجى يقوم بالعمل . و بعـدئذ يتقاسمان المحصول مناصفة بينهما فى العادة . وفضلا عن ذلك فإن الأبيض يقدم للزنجى ما يحتاج اليه ، ويدفع الزنجى قيمة ذلك من حصته عند الحصاد .

و إذا استأجر الزنجى أرضا غير جارية على نظام المزارعة فالعادة أن يقترض من تاجر أو صاحب مصنع قطن بالقدر و بالشروط التى يسمح بهـا مركزه ودرجة الثقة به . وكثيرا ما يكون الزنجى بسبب جهله وضعف مركزه فى المساومة فريسة التزوير من معامليه لتلاعبهم فى دفاترهم . ولكن معظم الزنوج لا يستغنون عن نظام التسليف العام . والزنجى الممتاز ذو السمعة المـالية الحسنة يستطيع أن يحصل على سلف نقدية أو أن يستأجر أرضا بإيجار نقدى محدود و إذا كان أمينا مثابرا على العمل فإنه يستطيع أن يستقل بعمله فى وقت قصير بسبب خصب الأرض . والواقع أن كثيرا من الأراضى ولا سيما الواقع منهـا على امتداد نهر المسيسيبى من الخصب بحيث تعطى محصولا بالرغم من اهمال الزنجى . ولهذا كان الزنجى قادرا على الحصول على القروض . ولكن الى الآن لم يصبح كثير منهم مستقلا . ذلك لأنهم يفضلون أن ينفقوا أموالهم فى الرحلات والفسح الخلوية والقمار والويسكى والنساء والحلى والبهرج .

هذا هو الحـال فى منطقة القطن وهى السيئات التى يحاول أنصار بوكر واشنجتون (*) (Booker T. Washington) أن يتغلبوا عليها بجعل الزنجى كفئا فى الصناعة .

(*) ولد عام ١٨٥٩ وتوفى عام ١٩١٥ وهو من أشهر الزنوج الذين عملوا على اصلاح حال بنى جنسهم وتحسين مركزهم ماديا فيما بينهم أو فى علاقتهم مع البيض . نشأ نشأة عصامية ونال احترام وتقدير مواطنيه من جميع الأجناس (المترجم) .

تعليم الزنوج

كان التقدم الذى أصابه الزنجى من الوجهة العقلية سريعا وكانت النتائج داعية إلى الارتياح من ناحية تقدمه الاقتصادى . ومع ذلك فلا يزال المجال متسعا جدا للاصلاح والزيادة واليك بيانا إحصائيا نستمده هذه المرة أيضا من الكتاب السنوى للزنوج فيما يختص بتقديمهم التعليمى [٥]

	١٨٦٣	١٨٨٣	١٩٠٣	١٩١٦
نسبة المتعلمين المئوية[١] ...	٥	٣٠	٥٦	٧٥
عدد الكليات ومدارس المعلمين (النورمال) ...	٤	١٢٠	٤٢٥	٥٠٠
عدد الطلبة فى المدارس العامة	١٠٠٬٠٠٠	٨١٧٬٠٠٠	١٬٥٧٧٬٠٠٠	١٬٧٣٦٬٠٠٠
عدد المعلمين فى جميع المدارس	١٥٠	١٦٬٠٠٠	٢٨٬٦٠٠	٣٦٬٩٠٠
قيمة الأملاك الموقوفة على التعليم العالى...	٥٠٠٬٠٠٠	٧٬٠٠٠٬٠٠٠	١٥٬٠٠٠٬٠٠٠	٢١٬٥٠٠٬٠٠٠ ريال
ماينفق على التعليم سنويا	٢٠٠٬٠٠٠	٥٬٥٠٠٬٠٠٠	١٠٬٠٠٠٬٠٠٠	١٤٬٦٠٠٬٠٠٠ «
ماجمعه الزنوج من المال للتعليم	١٠٬٠٠٠	٥٠٠٬٠٠٠	٩٠٠٬٠٠٠	١٬٦٠٠٬٠٠٠ «

(١) احصاء سنة ١٩٢٠ يدل على أن الأمية بين الزنوج تعادل ٩و٢٢٪

وقد كان أظهر وجوه التقدم هو زيادة النسبة المئوية للملمين بالقراءة والكتابة . وقد تمشى مقدار المال المنفق فى تربية الزنجى وكذا مقدار المال المستخدم فى الأملاك المدرسية مع مقدار الزيادة فى عدد التلاميذ . ولكن مقدار المال الذى جمعه الزنوج أنفسهم بالقياس إلى المال الذى جمعه البيض لايزال صغيراً جدا ، وإن كانت نسبة الزيادة فيه مطردة . وفى قليل من جهات الجنوب يعاون السود بالاكتتاب فى زيادة الأموال المخصصة لمدارس الزنوج .

على أننا إذا قارنا مقدار المال الذى ينفق على كل زنجى فى المدارس العامة نجده قليلا بالقياس إلى مقدار ما ينفق على التلميذ الأبيض . بيد أننا لبعض الاعتبارات قد لا نستطيع أن نؤاخذ الناخبين البيض على أنهم لم يخصصوا مبلغا أكثر مما خصصوه لمدارس الزنوج لأن البيض يدفعون ما يعادل ٩٧ ٪ من مجموع الضرائب . على أننا نقول بما قال باج [٦] (Page) من أن الزنجى غير المتعلم معضلة أكبر من معضلة الزنجى المتعلم إذ هو أكثر وقوعا فى الجريمة والرذيلة والفقر .

(٥) الكتاب السنوى سنة ١٩١٣ ، ١٩١٤ ، صفحات ٢ — ٤ وسنة ١٩١٦ — ١٩١٧ ص ١

(٦) كتاب توماس نلسون باج الموسوم The Negro, the Southerner's Problem. ص ٢٩٧

وهناك صعوبتان عظيمتان قائمتان فى سبيل تعليم الزنوج أحداهما قلة المعلمين الأكفاء والأخرى قلة المعدات فإنه من المستحيل استخدام عدد يذكر من المعلمين البيض وذلك بسبب ما يلحقهم من المقاطعة الاجتماعية .

وقد لايكون من المستحسن استخدام معلمين من البيض للتلاميذ السود خشية أن يؤدى هذا إلى المساواة الاجتماعية والى قريب جدا لم يكن فى الزنوج من المعلمين الأكفاء إلا قليل إذ أنه لم يكن فى الزنوج على أثر التحرير العام إلا نسبة مئوية قليلة ممن كانوا يعرفون مجرد القراءة والكتابة . وفى الماضى كان كثير من المعلمين الزنوج لا يعرفون أكثر من مجرد القراءة والكتابة . على أن هذه المشكلة ستحل بمضى الزمن . وهم يعتبرون عادة أى كوخ صالحا لأن يكون مدرسة للزنجى وأن أى مقعد من أى طراز وفى أية حال من القدم صالح لتأثيث المدرسة.

ولقد كانت مرتبات المعلمين من الانحطاط بحيث لم تستهو خير الزنوج كفاية ، وما لم تعالج هذه الحالة فإنه لاينتظر أن يكون فى المدارس معلمون صالحون . ومن العقبات كذلك قصر السنة الدراسية فهى كثيرا ما تكون من القصر بحيث لا تمتد إلا من ثلاثة أشهر إلى خمسة فى السنة. وقد لا تكون فى بعض الأحيان أكثر من بضعة أسابيع . وفى أثناء عهد الرق لم يكن تعليم الزنجى مما يحث عليه ، بل الواقع أن بعض الولايات كانت تمنعه بقوة القانون كولايات ألاباما وجورجيا ولويزيانا وكارولينا الجنوبية . وسائر الولايات تعمل على تثبيط تعليم الزنوج خشية أن يؤدى تعليمهم إيقاظ روح التذمر بينهم وعدم الرضا عن حالتهم . وكثيرا ما لم يكن خدم المنازل يعلمون من مبادئ التعليم ما يكفى إلا لأداء واجبات الخدمة على وجه يرضى. أما عمال الحقول فلم يكن لهم ما كان لأخوانهم من الحظ فقليلا ما كانوا يتعلمون.

أما فى غضون عهد الإصلاح فقد كان المربون ينتقلون إلى الجنوب من الشمال مدفوعين إلى ذلك بباعث التبشير الدينى قصد المساعدة على تعليم الزنجى . على أنهم وإن كانوا قد انساقوا فى ذلك بنفس روح الحماسة التى ساقت المبشرين إلى البلاد الأجنبية فإنهم فى الغالب قد أضروا أكثر مما نفعوا . ذلك بأنهم كانو فى أغلب الأحيان يحاولون تعليم الزنجى معنى المساواة الاجتماعية بل كانوا يمارسونها بأنفسهم باختلاطهم مع الزنوج ومعاشرتهم إياهم . وقد حاولوا أن يعلموا الزنجى كثيرا من نوافل التعليم ، كاللغة اللاتينية والإغريقية بدلا من تلقينه المعلومات التى تنفعه فى حياته .ولقد كان هذا العمل سببا فى تشويه تعليم الزنوج فى نظر البيض من أهل الجنوب الذين كانوا يدفعون الضرائب ولذلك لم يقرروا الأموال اللازمة لمدارس الزنوج . ولم يعد البيض من أهل الجنوب إلى الاهتمام بتعليم الزنوج إلا يوم أن أصبح تعليمهم يجرى على خطة عملية وكانت . الأموال فى مبدأ الأمر تجمع فى الشمال وكانت فى معظمها تجمع باسم التبشير

وفى أثناء السنوات القليلة الماضية أعدت مناهج دراسة عملية لمدارس الزنوج، ولا سيما المدارس الثانوية، تشتمل على العلوم الصناعية والتدبير المنزلى. ولم يقتصر هذا على فن الطهى والخياطة بل تشتمل أيضا على فن حفظ الفواكه والخضروات وتعبئتها فى العلب. هذا، والاتجاه العصرى لتعليم الزنوج منصرف برمته عن التعليم العالى الذى يؤهل لحرف الفنية التى يصعب على الزنجى الدخول فيها إن لم يكن مستحيلا. بل الغرض الذى يرمون اليه بدلا من ذلك هو: إعداد الزنجى لحياة الصناعية الحقيقية، والإدارة المنزلية الصالحة وذلك بتعليمه الحرف والصناعات. وهذه تتضمن التجارة والبناء بالآجر وبالحجارة والصاق الأوراق على جدران الحجرات والحدادة وصناعة مستخرجات الألبان والزراعة. وبذلك يعد الزنجى لحلول من الحياة حيث يستطيع أن يصبح ميسر الحال من الوجهة الإقتصادية. أما الحاجة الى الأطباء الزنوج والى المحامين وأطباء الأسنان وغير ذلك من الاحترافات الفنية فهى آخذة فى الزيادة ببطء لأن الزنوج أنفسهم لايزالون حتى يومنا هذا يفضلون الرجل الأبيض فى هذا الصدد لمالهم من ثقة كبرى بكفايته الفنية. وإذا زادت هذه الحاجة لديهم فستفتح أمام الزنجى أبواب فرص أوسع لاحتراف هذه الأعمال، على أن كثيرين من الزنوج فى الماضى تعلموا تعليما جامعيا وفنيا فى كليات الشمال وجامعاتها ولكنهم لم يستطيعوا أن يستفيدوا من تعلمهم بسبب عدم الحاجة الى خدماتهم.

لم يكن فى الولايات الشمالية مدارس خاصة بالزنوج — إلا فى ولاية أو إثنتين مثل ميسورى وفى بعض البلدان مثل مدينة كنساس بولاية كنساس — وذلك بسبب قلة عدد الزنوج فى ولايات الشمال، وفتور حدة التعصب الجنسى بها. نعم ظفر الزنوج بنفس فرص التعليم التى كانت للبيض فى تلك الولايات ولكنهم لم يظفروا بنفس فرص الاستفادة من هذا التعلم. أما فى الجنوب فتعليم الزنجى مظهر من مظاهر المشكلة الجنسية التى هى مشكلة جد خطيرة، على أنه يظهر أن الحالة تغيرت اذ أصبح الزنجى أكثر اقبالا على التعليم، بل وأصبح الرجل الأبيض أكثر تقديرا للفائدة التى تنجم عن منح الزنجى فرصا للتعليم. وكانت نتيجة ذلك أن أخذ الحال يتحسن تحسنا بينا. وإذا استطاع الزنجى أن يزيد فى يساره الاقتصادى سهل تحسين حالة التعليم بين الزنوج.

الحالة السياسية

فى أيام الرق لم يكن للزنجى بطبيعة الحال حقوق سياسية غير حمايته من سوء المعاملة. على أن حقوقه فى هذا الصدد كانت محدودة جدا. كان من الجرائم أن يقتل العبد عمدا، أما أن يضرب فلا. وفى معظم الولايات لم يكن قتله خطأ أو معاملته معاملة سيئة من الجرائم المعاقب عليها، فكانت حماية القانون له يومئذ شبيهة جدا بحماية القانون للحيوان من القسوة.

ومن حيث حقوق التصويت لم يكن له في الجنوب[٧] حق مطلقا . ولم يكن له إلا قليل من الحق في الشمال . بل الواقع أن ثلاثين ولاية من الولايات الثلاثين والأربع التي كان الاتحاد يتألف منها في عام ١٨٦١، كانت تستثني الزنوج من حقوق الانتخاب بنص دستوري .

أما في الأربع الباقية وهي نيويورك وفرمنت ونيوهمشير وماساشوست فقد كان الزنوج فيها قليلين فضلا عن أنهم كانوا على مستوى راق في التربية والصناعة .

ولعل الشعب الامريكي قد اقترف أسوأ خطأ سياسي في تاريخ هذه البلاد بقبوله التعديل الخامس عشر لدستور الولايات المتحدة. فانه إنما اتخذ هذا التعديل بقصد إعطاء الزنجي حق الدفاع عن نفسه عن طريق الانتخاب . ولكن الزنجي لم يكن قادرا على تقدير قيمة الانتخاب ولا معناه فكانت النتيجة صيرورته آلة صماء في أيدي السياسيين المفسدين . وفي هذا تعليل لما شاع من الفساد الكثير أثناء عهد الاصلاح (Reconstruction)، فقد كانت غالبية البيض قد حرمت حق الانتخاب بسبب اشتراكهم في الحرب الأهلية، التي شهرت ضد حكومة الاتحاد، وأصبح للزنجي حق الانتخاب وهو لا يدري البتة كيف يستعمل هذا الحق . وقد زاد هذا في الخصومة الجنسية ولعله أضر بالزنجي بقدر ما أضر بالأبيض . بل الواقع أنه لايدري بأي الفريقين أضر التعديل الخامس عشر ضررا أكبر . ولقد كانت المشكلة من الحدة وسوء استعمال الزنجي حقه في التصويت من العظم . بحيث اضطر بيض الجنوب الى أن يعملوا على حرمانه هذا الحق، واتخذ هذا الحرمان صورتين : أولاهما استخدام القوة أو الارهاب وثانيتهما سلب حق التصويت السياسي . وفي المبدأ استعملت وسائل العنف والغش علانية لأنه رؤي يومئذ أن الحالة تبرر ذلك . وقد ظلت هذه الحالة كذلك حتى سنة ١٨٩٠ يوم خطت ولاية مسيسبي أول خطوة في سبيل سلب الزنجي حقه في التصويت إذ أوجبت اختبار الناخبين في القراءة والكتابة . نعم كان هذا الشرط يتناول البيض وغير البيض معا ولكن أثره في غير البيض كان أعظم بسبب زيادة الأمية فيهم .

وذهبت بعض الولايات الى أبعد من هذا ، وعلى رأسها لويزيانا ، فاتبعت ما سموه شروط " الجد " فجعلت حق التصويت معلقا على معرفة القراءة والكتابة ما لم يكن الشخص من نسل رجل كان له حق التصويت قبل سنة ١٨٦٧ . ويشترط بعض الولايات دفع الشخص ضريبة . ولعل ولاية جورجيا بوضعها قانونا انتخابيا ذا أثر رجعي يتطلب دفع المتأخر منها، قد استطاعت أن تتخذ أقسى الوسائل وأنجعها لسلب الزنجي حق التصويت

---

(٧) كان هناك بعض استثناءات لهذا فقد كان في استطاعة أحرار الزنوج أن يصوتوا وذلك الى سنة ١٨٣٥ في ولاية كارولينا الشمالية .

وأن لم يكن هناك تمييز بين الأسود والأبيض . وفى ولاية تنيسى يشترط دفع جزية لأجل التصويت . ونتيجة ذلك أن السواد الاعظم من الزنوج لا يصوتون إذ يعتبرون أن هذا التصويت لايستحق دفع الضريبة . وفى تكساس يشترط كذلك دفع ضريبة ، ويطالب الناخب بتقديم إيصال دفعها فى مراكز الانتخاب . وفى تكساس فضلا عن هذا تفضيل للرجل الأبيض

وقد أقرت المحكمة العليا للولايات المتحدة بعض هذه المواد لانها لا تخرق التعديل الخامس عشر قانونا . أما مواد " الجد " الواردة فى دستور أوكلاهوما ومار يلاند فقد حكمت المحكمة بعدم دستوريتها ، كما أن مواد أخرى فى قوانين غيرهما من الولايات وبعض الشروط كذلك قد انتهى أجلها بسبب انقضاء الزمن المحدد لها .

على أن هذه القوانين ، وإن كانت تمنع معظم الزنوج منعا فعالا من التصويت ، فى مقدور الزنجى أن يستوفى شرائطها جميعا ، بل الواقع أنه يكاد يكون مستحيلا أن يوضع شرط تقبله المحكمة العليا ولا يكون الزنجى قادرا على استيفائه

وعلى الجملة فان أثر هذه المواد المقيدة لحق الانتخاب كان حسنا لأنها حرمت الزنجى الجاهل الجامد عديم المسئولية الذى كان اقترانه عنصر إفساد فى السياسة . نعم لا مشاحة فى أنها جرت فى أعقابها حرمان كثيرين ممن يستطيعون أن يصوتوا عن إدراك ودراية ، ولكنها كانت فى جوهر أمرها ذات أثر مفيد . على أن أى قانون لا يطبق على الأبيض والأسود على السواء كما هو الحال فى قانون لويزيانا ، ليس من الصواب والعدل فى شىء . واذا لم يكن بد من تقييد حق الزنجى فى التصويت فلا بد أن يكون هذا بوسيلة يمكن أن تسرى على الجنسين كليهما كاشتراط معرفة القراءة والكتابة ، أو الملكية العقارية ، أودفع قدر معلوم من الضريبة. فان مثل هذه الاشتراطات ذات أثر فعال كبيرها وهى تقصى أصوات الجهلة والجامدين من البيض كما تقصى أصوات الجهلة والجامدين من الزنوج . وإذا أيقنت البلاد أن التعديل الخامس عشر كان خطأ فإن هذا التعديل يجب الغاؤه برمته بدلا من ابطاله بالتشريع المحلى للولايات . وإذا أمكن الزنجى أن يؤهل نفسه للتصويت كما يؤهل نفسه الرجل الأبيض فإنه يدل بهذا على جدارته بأن يكون له حق الانتخاب .

ومن مثالب تطبيق اختبار القراءة والكتابة على الزنجى وحده أنه يهيىء للسياسى من الجنس الأبيض سببا يحمله على ألا يعطى الزنجى من التسهيلات التعليمية الصالحة ما يعطى الأبيض ، وبعبارة أخرى أن يدعو الى تثبيط تعليم الزنوج ، إذ الغرض السياسى الجوهرى ليس مجرد إقصاء صوت الزنجى الجاهل بل اقصاء أصوات الزنوج عامة . وعلى الجملة فقد كان منح

الزنوج حق الانتخاب تجربة محققة تمام الاخفاق فقد كان الواجب أن لا يعطى حق التصويت للزنوج باعتبار كونهم جنسا . وإذا كان لابد من إعطائه فقد كان يجب أن يكون بمثابة تشجيع على التقدم بأن يمنحه تدريجيا أى عند ما يؤهل الزنوج أنفسهم له بأن يكونوا قادرين على القراءة والكتابة أو أن يكونوا مالكين قدرا معينا من العقار أو بأن يكونوا من دافعى الضرائب . فانهم عند ما يؤهلون أنفسهم على هـذا النحو يكونون قد عرفوا كيف يستعملون حق التصويت ولا يكونون اذ ذاك عنصرا خطرا فى السياسة . عندئذ يكونون قد نالوا حق التصويت تدريجيا لا بأعداد كثيرة قادرة على تصريف وجهة السياسة .

مشاكل الزنوج : ١ — الفقر والعدم :

تناولنا تحت موضوع التقدم الاقتصادى حالة الزنجى من الوجهه الاقتصادية والأسباب التى أدت اليها وبعض آثارها فى غيرها من نواحى المسألة الجنسية . فقد رأينا أن الزنوج كطائفة ليس لهم إلا قليل من الملكية العقاريه وأن غالبهم يكادون يكونون عالة على غيرهم . ليس لدينا احصائيات يصح الثقة بها فيما يختص بالقدر الحقيق بل ولا التقريبى من حالة الفقر بين السكان ذوى الألوان ولكن أغلب المعدمين فى الجنوب من الزنوج. وفى بعض الجهات يكاد يكون جميع المعدمين من ذوى الألوان. و يؤكدون أن ٩٦ فى المائة من جنازات المعدمين فى شارلستون هى للزنوج وأن كانت نسبة الزنوج الى سكانها لا تعدو ٥٣./ ولا شك أن هـذه الحالة هى النتيجة الطبيعية الوحيـدة لما عليه الزنجى من الخمول والجمود والجهل وعدم التدرب.هذا وأن حالة الانحطاط فى مستوى معيشة الزنجى هى أخطر مظاهر هذه الحالة أذ ليس العدم سوى وليد تلك الحال. فالزنجى يقنع بأن يعيش فى مستوى أحط بكثير من مستوى الرجل الأبيض لأنه لم يدرك بعد ضرورة العيش فى مستوى أرقى، وليس لديه إلا قليل من البواعث على ولوع تلك الحالة الراقية بسبب قلة ما أمامه من الفرص للتقدم فـلا بد من رفع المستوى الاقتصادى لحياته ليصبح من الممكن معالجة حالة العـدم هذه التى ينوء بها الزنجى. ولكى يتيسر ذلك يجب أن يصبح الزنجى من الوجهة الاقتصاديه اكثر انتاجا وأعلى كفاية .

٢ — الاجرام :

لكى يتيسر أجراء مقارنة بين الميول الاجرامية فى البيض والاجناس الملونة يجدر بنا أن نلق نظرة على الجدول الآتى المبنى على أرقام مستمدة من إدارة أحصاء الولايات المتحدة :

	بيض	زنوج
سجناء فى ٣,١٩٨ سجن فى سنة ١٩١٠	١٧٢,٧٩٧	٣٨,٧٠١
سجناء رهن التحقيق فى هذه السجون سنة ١٩١٠	٣٦٨,٤٦٨	١١٠,٣١٩
سجناء من كل ١٠٠,٠٠٠ ساكن سنة ١٩١٠	٨٩	٣٧٨
سجناء رهن التحقيق فى سنة ١٩١٠	٤٢٥	١,٠٧٩

إن نسبة اجرام الزنوج فى الولايات الشمالية أكبر بكثير منها فى الولايات الجنوبية فقد كان فى سنة ١٩١٠ لكل ١٠٠٠٠٠ من السكان ٧٧٢ سجين زنجى يقابلهم ٣٢٣ من البيض ويرجع بعض السبب فى هذا إلى ما فى الولايات الشمالية من زيادة أسباب الاغراء بسبب المعيشة فى المدن وبسبب المقاطعة الصناعية للزنوج وعظم نسبة الخلاسيين الذين هم أجنح إلى الاجرام من الزنجى الصريح. يضاف إلى ذلك عدم العطف من جانب القاضى الشمالى إذ هو لا يفهم طبيعة الزنجى فلا يميل إلى إطلاق سراحه بكلمة توبيخ يلقيها أو بعهد من الزنجى يقطعه على نفسه بأن ينصرف إلى العمل. أما الابيض الجنوبى فانه أكثر أستعدادا من الشمالى لأن يكفل أتباعه من الزنوج . وقصارى القول أن الجنوبى يعرف مواطن ضعف الزنجى ويعذره بسببها. على أن ارتفاع معدل جرائم الزنوج لا يستوجب الذعر كما قد يبدو لأنها تتضمن قدرا مثوياً كبيرا من الجرائم الصغرى كالسرقات البسيطة والعربدة والصيد المحرم وما إلى ذلك . أما الميل ألى السرقة فانه نتيجة طبيعية لماضى الزنجى فلقد كان على الزنجى أيام الرق اذا أراد الحصول على شئ من الكماليات مثل أطايب الطعام أن يحصل عليه بالسرقة ، فمن الطبيعى والحالة هذه أن يستمر الزنجى على السرقة ، وكذلك فى أفريقيا فانهم لم يعتبروا السرقة قط جريمة خطيرة. على أن فى بعض أصقاع الجنوب ، ولا سيما صقع دلتا المسيسيبى ، واليازو ، نرى الجرائم أخطر شأنا بل الواقع أن الجرائم ضد النفس كالقتل العمد وغير العمد والشروع فى القتل تعادل كما قدرها ستون (Stone) ثمانية فى المائة من مجموع جرائم زنوج هذه الدلتا [٨]

هذه الحالة السيئة من حيث الاجرام ناشئة فى أكثر أمرها من سوء التربية ، ولا سيما تربية الأسرة ، وهذه راجعة كما ذكرنا من قبل الى سابق عهد الزنجى . ذلك إلى أن جانبا منها يمكن أن يعزى الى ما يكتنف الزنجى من فساد البيئة ، ولاسيما فى مدننا ، لأن الزنجى قلما ينزل إلا أسوأ أحياء المدينة لا من حيث الصحة وملاءمة الموضع فقط ، بل ومن حيث قابلية الناحية

---

(٨) من كتابه ص ١٠٦ Studies in the American Race Problem

للتحسين والتجميل. ومن أسبابها أيضا انحطاط التعليم، ولا سيما الصناعي منه. فكأن عوامل البيئة أشد دفعا الى الاجرام في الزنوج منها في البيض، لأن القوى التي تردع الزنجي عن الاجرام أضعف والمغريات أقوى وأعظم؛ فمن المعقول والحالة هذه أن تكون نسبة الاجرام في الرجل الملون أعلى منها في أخيه الأبيض.

لقد كانت عادة الاقتصاص من الزنجي بالطريقة العرفية (Lynching) (*) أمرا أشد تسويئا لسمعة الرجل الأبيض منه لسمعة الزنجي. بدأ هذا النوع من العقاب، قبل عهد التحرير بجلد الزنجي على الجرائم الصغرى كالسرقة والهرب، ولكن منذ ذلك الحين اتخذت لعقابه طرق أشد قسوة حتى أصبح الشنق والاحراق على عمد تنصب من طرق الاعدام المألوفة.

وكثيرا ما يقال إن قتل الزنجي بالطريقة المشار اليها انما كان من أجل جرائم هتك العرض دون سواها. ولكن الواقع غير ذلك، بل إنه قول بعيد عن الحقيقة، فان أقل من ربع أحوال القتل بالطريقة المذكورة كان للاعتداء على النساء. على أن هذا النوع من العقاب غير مقصور على الجنس الملون ولا هو محصور في الولايات الجنوبية فان من السبعة والستين الذين قتلوا بالطريقة المذكورة في سنة ١٩١٥ (منهم ثلاثة عشر من البيض وأربعة وخمسون من الزنوج) أحد عشر (منهم عشرة من الزنوج وواحد من البيض) كانت تهمتهم هتك العرض. وستة عشر (أربعة منهم من البيض واثنا عشر من الزنوج) كانت تهمتهم القتل. وتسعة (ثلاثة منهم من البيض وستة من الملونين) كانت تهمتهم قتل موظفين من رجال الادارة. وثلاثة تهمتهم جرح بعض رجال الادارة. وأسرة من أربعة أشخاص — أب وابن وبنتين — كانت تهمتهم ضرب رجل من رجال الادارة بالهراوات. وثلاثة تهمتهم تسميم بغال واثنان تهمتهما سرقة خنازير. واثنان (من البيض) اتهما بمخالفة أوامر العسس الليلي، وثلاثة باهانة نساء، واثنان بدخول مقصورات النساء، واثنان بجرح أحد الاشخاص وواحد بسرقة لحم، واثنان بالسطو، وواحد بالسرقة وواحد بسرقة قطن، وواحد بسرقة بقرة، واثنان باعطائهما ذخيرة الى رجل كان يقاوم القبض عليه، وواحد (أبيض) بضرب زوجته وولده، وواحد اتهم باشتراكه في حريق جرن [٩]. ولئن كانت كل هذه الجرائم تستوجب العقاب فما كانت تستحق القصاص على الصورة المذكوره.

(*) عادة قبض الجمهور على من يعتقدون أنه مجرم وشنقه على العود بتعليقه على شجرة أو غير ذلك أو ربطه واحراقه أو غير ذلك من وسائل الاعدام والانتقام دون أن ينتظروا محاكمته والتأكد من جريمته. (المترجم)

[٩] الكتاب السنوي الزنوج لسنة ١٩١٦ — ١٩١٧ ص ٣٣٨

وفى جريمة هتك العرض ولا سيما فى الظروف المثيرة التى تصحبها أحيانا يستطيع الانسان أن يفهم — وان لم يوافق — أن يأخذ الانسان القانون فى يده فان الدافع إلى ذلك شديد شدة كبرى . والناس فى مثل هذه الأحوال لا يستطيعون كبح جماح أنفسهم ولكن ليس هناك ما يبرر المعاقبة العرفية على جرائم أقل من تلك . نعم ان القانون بطىء الخطى أحيانا وقد تعجز العدالة عن تحقيق غرضها ولكن يجب أن نعمل إلى اصلاح طرق تنفيذ القانون لا أن نبطلها بوسائل خارجة عن القانون .

ولقد حدثت حالات كان فيها المتهمون قد أدانتهم المحاكم وكانوا فى سجونهم فى انتظار تنفيذ حكم الإعدام فيهم ومع ذلك أخذوا من يد القانون ونفذ فيهم القصاص العرفى . إن أسوأ ما يؤسف له من أمر القصاص العرفى هو أنه لا يزجر عن الجريمة التى يعاقب عليها بل كثيرا ما تزيد الجريمة بالاعلان عنها . وأسوأ من هذا أنه ينزل بالمجتمع الى درجة الوحشية . ورجال الادارة بين عامل الجبن والتحيز لا يقومون بحماية سجنائهم ولذلك فهم يسلمونهم بلا احتجاج ولا دفاع .

وقد أدى الاقتصاص العرفى بالزنوج عادة إلى إخفاء الشخص المذنب والعطف عليه لا إلى تسليمه إلى أولى الأمر . فهم يرون هذا الاقتصاص حربا تشن على جنسهم لا عقابا يراد توقيعه على شخص معين . ومن العلاجات المتعددة المقترحة لمداواة هذا الشر عزل الجنس الملون عن غيره وإجراء المحاكمات على وجه السرعة . وكلا هذين العلاجين مفيد فعلا ولكن المسألة كثيرة التعقد . ولكى يتيسر القضاء تماما على ذلك القصاص العرفى يجب إيقاظ النفوس الى مقته لأنه فضيحة لبلادنا . على أنه وإن كان قد حدثت زيادة موقتة فى عدة أحوال القصاص العرفى المذكور منذ الحرب العالمية فان المسألة ليست من الخطورة بما كانت عليه من قبل فان عدد من يقتص منهم اليوم بذلك القصاص لا يبلغون نصف عدد من كان يقتص منهم منذ خمس وعشرين سنة إذ يتراوح العدد اليوم بين خمسين وخمسة وسبعين فى السنة . أما فى العقد العاشر من القرن الماضى فقد كان المتوسط السنوى ١٦٦٫٦ وكان معظم النقص فى عدد البيض وإن كان عدد الأشخاص الملونين الذين اقتص منهم بالطريقة العرفية قد قل بمقدار ٥٠ فى المائة[10] ولذلك فاننا نرجو أن نعيش حتى يزول هذا الأمر الشنيع الذى هو نتيجة التنافر الجنسى .

---

(١٠) تدل البيانات غير الرسمية على أن عدد الذين اقتص منهم عرفيا فى سنة ١٩٢١ كان ٦٣ منهم ستة من البيض وامرأتان يقابلهم ٦٥ فى ١٩٢٠ ويقدر أن ثمانى عشرة من هذه الحوادث كانت بسبب القتل وأن تسع عشرة منها كانت بسبب الاعتداء على النساء . أما الباقى فكان لأسباب شتى .

٣ — الفسق والرذيلة

لايمكن أن يورد الانسان احصائيات موثوقا بها عن احوال الفسق والرذيلة وإن كان بعض الاحصائيين قد حاولوا أن يبينوا أن عدد الأبناء غير الشرعيين بين الزنوج يتراوح بين ربع عدد للمواليد وخمسهم وأن شيوع الفسق بين السكان الملونين أكثر من شيوعه بين البيض لا يرجع إلى الأحوال التى عاش فيها الزنوج أيام الرق وحدها ولكن إلى تاريخهم الماضى فى افريقيا حيث المناخ يدعو إلى الابقاء على أولئك الذين معدل مواليدهم أعلى، فعمل بذلك على أن يرث الزنجى شهوات أقوى مما فى الرجل الأبيض مضافا إلى هذا ضعف قوة الإرادة فيه وعظم أسباب الاغراء أمامه فى الأحوال الراهنة. كل هذا من شأنه بطبيعة الحال أن يميل بالزنجى عن سبيل الفضيلة، وأن يقوى ميله إلى الفسوق .

٤ — الخلاسى .

إن حالة الخلاسى خطيرة وفى الوقت نفسه محزنة . فالخلاسى هو الذى يسبب أعظم المتاعب . لأن الزنجى الصريح يقبل فى العادة درجته من الانحطاط بغير اعتراض كثير . أما الخلاسى فهو أقل تسليما لانه يجمع فى نفسه عادة النشاط العصبى من أبيه إلى بنية أمه السوداء. وكثيرا ما يجرى فى عروقه دم موروث عن بعض أرقى الأسر الامريكية. والبارزون من الرجال الملونين يجرى غالبا فى عروقهم مقدار ما من الدم الأبيض . والمعروف فى علم الحياة أن خلط السلالات يحدث فى العادة اثرا طيبا . وليس خلط الجنسين الملون والأبيض استثناء من هذه القاعدة، ولكن المشكلة تأتى من جانب مركز الخلاسى من الناحية الاجتماعية لأنه لا يستطيع أن يصل الى مستوى الأبيض فى المجتمع فلا بد له إذن أن يتقبل الأحوال الاجتماعية التى لسلفه الزنجى ولكنه كثيرا ما يكون من عزة النفس بدرجة تجعله يأبى هذه المنزلة ويترتب على ذلك حدوث الاحتكاك . وفضلا عن هذا فإنه العنصر الطائش الفاسق من البيض هو الذى يختلط بالزنوج، إذ أن الخلاسى فى جميع الأحوال تقريبا غير شرعى المولد ولا يكون نتيجة زواج شرعى إلا فيما ندر . ومهما بدا ذلك غريبا فان كثيرا ممن كانوا يملكون العبيد فيما مضى كانوا تيسرون جواريهم . وأغرب منه أن بعض الشبان البيض من جميع طبقات المجتمع فى الولايات الجنوبية لايرون فى هذه العلاقة بأسا حتى فى يومنا هذا على أن هذه العلاقة بطبيعة الحال تحدث فى أغلب الأحيان مع المرأة الملونة التى فيها شيء من الدم الأبيض . ويقال إن الخلاسية الحسنة الطلعة لا تكون فى أمن من مطاردة البيض لها . فالنتيجة الطبيعية لهذا الأمر أن ما يرثه الخلاسى لا يكون باعثا على الفضيلة، وأن كل ما تفعله البيئة هو أن تساعد على تقوية هذه النزعة . ولا يستطيع البيض أن يصدوا الخلاسين منهم

حتى ولو كانوا أدنى إلى البياض لان الزواج المختلط شطط ، وإلا أصبحنا جنسا خلاسيا . ولذلك يجب أن يدرج الخلاسى مع الزنوج . على أن لونه فى هذه الحالة مبعث لمشكلة أخرى بسبب ما يحدثه من الفوارق بين الطبقات والنعرة الطائفية ، وقد يؤدى فى بعض الأحيان إلى المقاطعة الاجتماعية فى دائرة الجنس نفسه فهو والحالة هذه مشكلة للجنسين كليهما .

ومن أسوأ مظاهر هذه الحالة أن نسبة أولئك الذين هم من دم مختلط آخذة فى الزيادة باطراد وقد يكون هـذا ناشئا عن انتشار الدم الأبيض تدريجيا فى جميع الجنس الأسود غير أن اختلاط الجنسين محدود فى الجملة أحد المظاهر الشديدة الخطورة فى المشكلة الزنجيـة برمتها والى اليوم لم نجد وسيلة يمكننا بها أن نصد تياره .

الحلول المقترحة لمشكلة الزنوج

أن محاولة حل معضلة الجنس الزنجى أو وضـع أى خطة عملية معينة لهـا تعد أصعب ما يلقاه الباحثون فى أمور المجتمع الأمريكى. فنحن بناء على ما نرى الآن مضطرون الى التسليم بأن هذه المسألة مستحيلة الحل . وقصارى الجهد العمل على تخفيف وطأتها وجعل الاحتكاك بين الجنسين أقل حدة والاخطار أقل شدة ونقط الخلاف دنى إلى التسوية . ومع ذلك فالآراء مختلفة حتى فى هذا . وتتوقف الاختلافات الى حد كبير على القطر الذى ينتمى اليه الباحث الاجتماعى.

الحلول المستحيلة

قبل أن ننظر فى أى مشروع يستحق منا عناية جديرة بالبحث الجدى ، يجب علينا أن نذكر بعض الخطط المقترحة التى لا نرى أنهـا تؤدى الى سعادتنا الاجتماعية . من بين هــذه الخطط ما يأتى :

١ — الامتصاص

يرى بعض الناس أنه مادام الزنوج لا يزيدون فى عدد سكاننا على العشر فإن فى استطاعتنا بمضى الزمن أن نمتصهم وذلك بطريقة الزواج المختلط. ويزيدون على ذلك أن اختلاط الأجناس مفيد . ونحن قد نسلم بأن الزواج المختلط قـد لا يكون ضـارا من الوجهة الفسيولوجية وإن كنا شخصيا نشك فى صحة ذلك. ولكننا لا نطيق أن نتصور فكرة صيرورتنا أمة خلاسية، بيد أن هذا ما لا بد أن يحصل إذا نحن أتبعنا هذا الرأى. فان كثيرا من الخصائص الزنجية مثل تجعد الشعر وغلظ الشفاه وفطس الأنف من الخصائص السائدة ومن شأنها التغلب والبقاء فاذا جرينا على هذه الخطة فالنتيجة صيرورتنا جنسا خليطا بدرجة تبعث على اليأس .

٢ — المساواة

يتساءل بعض الناس لماذا لا نمنح الزنجي المساواة الاجتماعية والسياسية . والجواب على ذلك أن الجنسين غير متساويين فان لجنس الأبيض تاريخ ألوف من السنين قضاها فى التحصيل والمدنية ولن يستطع أى تشريع أن يجعل الجنسين متساويين وفضلا عن ذلك فان المساواة تؤدى الى الزواج المختلط و إلا فلا مساواه . وفى هـذا نكبة لأننا لا نطيق أن يندمج الزنجى فينا . ومن ثم يجب علينا أن نرفض كل خطة تؤدى الى محاولة ادماجهم فينا . أن هذا الحل لا يعرضه من له أقل إلمـام بالمشكلة الزنجية .

٣ — الاستعمار

حث توماس جفرسن (Thomas Jefferson) على العمل بمشروع استعمارى كثيرا ما حبذه رجال كثيرون منذ اقترحه صاحبه . وقد عورض هذا المشروع فى المـاضى بداعى ما يتطلب تنفيذه من النفقة . أما اليوم فأنه يعد مستحيلا لأننا إذا أردنا تنفيذه لم نجد مكانا نرسل الزنوج اليه فان جميع أجزاء الدنيا الصالحة لذلك قـد استولت عليها الأمم المختلفة وليس لنا من أملاكنا ما يصلح لهذا الغرض على أن هذا المشروع ربمـا كان فى وقت من الأوقات أصلح طريقة لمعالجة المعضلة ولكن هذا الوقت انقضى من زمن بعيد بل لعله كان قد انقضى قبل أن نبحث اقتراح الاستعمار بحثا جديا .

الحلول الممكنة

١ — التعليم الصناعى

أن أوجه حل و بلاشك اصلحه عمليـا إذا صح أن نسمى أى برنامج حلا — هـو التعليم الصناعى الذى ابتكرت خطته فى معهد هامبتون (Hampton Institute) فى فرجينيا ثم روج له المرحوم بوكر ت . واشنجتون (Booker T. Washington) الذى بنى معهد تسكيجى (Tuskegee Institute) فى آلا باما على هـذه الفكرة ونجح فى مسعاه نجـاحا كبيرا . حجة واشنجتون المـذكور أن محاولة اعطاء الزنجى تعليما عاليـا فى الظروف الحالية هى فى الحقيقة جهد موجه توجيها خطأ لأن الزنجى لا يستطيع أن يستفيد من هـذا النوع من التعليم فائدة عملية . وقال أن الطريقة الوحيدة المعقولة لتعليم الزنجى هى تعليم يديه حتى يمكنه أن يصبح كفأ من الوجهة الصناعية ومسـتقلا من الوجهة الاقتصادية . فاذا استقل الزنجى اقتصاديا استوجب احترام الرجل الأبيض فقل الاحتكاك

بين الجنسين . إذا استطاع الزنجى أن ينتج أمكنه أن يحصل على أجرة طيبة وأمكنه بذلك أن يتعهد أسرته تعهدا أفضل . وبهذا يتيسر ارتقاء مستوى المعيشة لدى الزنجى . وقد أنشئت مدارس أخرى على هـذا النمط واليوم اصبح المشروع محل المعونة والمعاضدة . وقد أنشأت أغلب الولايات الجنوبية كليات للتعليم الميكانيكى والصناعى ومدارس للعلمين خاصة بالزنوج وفضلا عن ذلك فان هناك عددا عظيما من المعاهد الصغيرة أنشأها الأفراد لهذا الغرض ولاشك أنه بفضل هذه التربية الصناعية يستطيع الزنوج أن يصبحوا مهرة فى الزراعة والتجارة والحدادة والبناء وصناعة المركبات وطلاء الحيطـان وصناعة الآلات والسباكة والخياطة والطباعة والطهى وهلم جرا وبهذه الطريقة يستطيعون أن يبنوا لأنفسهم أساسا للتقدم فى المستقبل .

٢ — العزل

وهناك اقتراح آخر لحل المشكلة وهو العزل أى الحيلولة بين الزنوج والبيض حتى يستطيع كل جنس منهما أن يعيش آمنا من اعتـــداء الجنس الآخر . على ان هنـاك اختلافا كبيرا فى الرأى أى إشكال هذا العزل أفضـل . أيكون بتخصيص ولايات أم مقاطعات أم مدن أم أحياء مختلفة من نفس المدينـة . لكل من الخطط مزايا وصعوبات خاصـة فاذا كان العزل فى الولايات نشأت الصعوبة الأولى فى اختيار الولاية أو الولايات التى يصح عزلهم فيها ثم ما هى الوسائل التى تتخذ لاستبقاء الزنوج فيها ومنع البيض عنها ؟ على أن هذا المشروع منتقد من حيث أن الزنوج إذا فصلوا عن البيض فقدوا مايستوحونه من وجود البيض معهم وارتدوا الى الهمجية على عجل . ومن البراهين التى يدلى بها لتعزيز هـذا الرأى ما هو مشاهد فى ليبريا وهايتى وسان دومنجو . ويصـدق هذا الرأى أيضا بدرجة أقل فيما يختص بالعزل فى مقاطعات أو مدن . كما أن المزايا التى يمكن تحقيقها بهذا العزل تكون أقل . واذا حشد الزنوج فى بعض أجزاء من المقاطعـة أو أحياء من المدينة تصبح هذه الأجزاء أبغض ما فى المقاطعـة أو المدينة ولا تصيب من التحسين بقدر ما تصيب أحياء البيض وتكون النتيجة المترتبة على هذا نشوء الأحياء القذرة . بل إن هذا يكاد يكون هو السائد اليوم إذ أن الملونين يقطنون عادة فى أجزاء معينة من مدننا و بلادنا وهذه الأجزاء غير متعهدة وغير صحية وغير مأمونة واليها يعزى مقدار ماهو حادث بدرجة شاذة من الفقر والجرائم والفسوق بين الزنوج . بل الواقع ان هذه الحالة هى بذاتها الحالة التى نريد ان نتخلص منها . ويعترض على مقترح العزل بأن الجنوب محتاج الى الزنجى والزنجى محتـاج الى الجنوب ، وأن الرجل الأبيض محتاج الى الزنجى ليعمل له ، والزنجى محتاج الى الرجل الأبيض لمعونته الأدبية . أما أنصار مشروع العزل فيردون على ذلك بأنه لاضرورة لإجراء العزل على خطة الاسراع بل ولا بالاجبار و إنما

يجب أن يستحث الزنوج على ان ينتقلوا الى نواح خاصة بهم وبمحض اختيارهم وأن يستحث البيض على اخلاء هذه النواحى كذلك . على أن الصعوبة القائمة فى وجه هذا الحل هى أن من المشكوك فيه جدا أن يتحقق هذا ما لم يكن بطريق الاجبار . واذا سلكنا هذا الطريق التعسفى فلابد أن يترتب عليه مشاق كثيرة وخصومة شـديدة . نعم قد يكون اقتراح العزل فى نهاية أمره هو الحل الوحيد للمشكلة ولكنه فى الوقت الحاضر لايعدو كونه مسألة نظرية .

٣ — التفريق الطائفى (Caste)

ان إيجاد نظام قوامه التفريق الطائفى هو الرأى السائد بين معظم أهل الجنوب بل هو الأمر المتبع فى الجنوب فعـلا . وهو مؤسس على الاعتقاد بانحطاط الزنجى فى الرتبـــة بين الأجناس ، وبأنه ليس إلا حلقة متوسطة بين الحيوان والرجل الأبيض، وأنه لذلك لم تعده الطبيعة إلا ليكون خادما ويقوم فى الدنيا بالأخشن الأشق من الأعمال، وأنه لن يستطيع أن يدرك شأو الرجل الأبيض . وبسبب هذا يستحيل تحقيق المساواة الاجتماعية المنشــودة أو تحقيق أية سياسة ترمى الى الامتصاص؛ وأنه بناء على هذا تكون الطريقة الوحيدة فى معالجة مسألة الزنجى هى معاملته على أنه شخص أدنى يسمح له ان يختلط بالرجل الأبيض ، ولكن لا مخالطة الند للند، وأن الرجل الأبيض يحتاج اليه لهذا الغرض حتى يستطيع ان يصرف وقته فى أعمال أرقى . ولعل هذه هى الخطة الوحيدة التى نستطيع ان نجرى عليها فى الوقت الحاضر حيـال الزنجى فى الجهات التى يكثر فيهـا عدده ولكنها ليست حلا ، بل هى نفس المشكلة التى نحاول التغلب عليها . لا تفتأ آذاننا تسمع الصيحة "يجب أن يلزم الزنجى مكانه" وهذا المكان بناء على نظرية التفريق الطائفى هو دون مكان الرجل الأبيض . ولمـا كان الامتصاص أو الادماج من أى نوع مستحيلا فان الزنجى يجب أن يبقى فى مكانه حقا، ولكن هذا لا يستلزم أن يكون هذا المكان تحت أقدام الرجل الأبيض . بل أن من حق الزنجى بقدر ما تسمح له كفاياته أن يعد لنفسه مكانه الخاص بشرط أن يكون هـــذا المكان مميزا ومنفصلا عن مكان الرجل الأبيض . إن نظرية التفريق الطائفى ، على شرط أن تكون من طراز معقول وجيه، تكاد تكون الخطة الوحيدة التى نستطيع أن نجرى عليها حيال الزنجى الآن نظرا لما هو عليه الآن من الانحطاط الجنسى فى عقله وخلقه ونشاطه الصناعى . أما اعتبارها حلا دائمـا فباطل لأنها لا تزيل الصعوبات القائمة .

٤ — الاختيار المحلى

وهناك خطة الاختيار المحلى التى عرضها توماس نلسون باج (Thomas Nelson Page) ومؤداها أنه لما كان هناك من المشكلات بقدر ما هنالك من الجماعات فلنترك لكل مجتمع أن يضع لنفسه حلا لمشكلته . وهذه بصفة عامة طريقة رشيدة فى مواجهة الموضوع ولكنا نثير السؤال الآتى :

هل سيحل كل مجتمع مشكلته الجنسية ؟ وهل يستطيع المجتمع العادى أن يقوم بذلك بطريقة رشيدة ؟ لا مشاحة فى أن هذه الخطة غير متطرفة وليس من شأنها أن تحدث اضطرابا ولكن يبقى لنا أن نتساءل هل يتأتى من ورائها شىء ؟

٥ — حل مركب

لايرى المؤلف أن أى حل من هذه الحلول مستقلا بذاته ممكن التطبيق. فلكى تكون أية خطة للعمل فعالة يجب أن تتضمن خيرما فى سائر الحلول التى أوردناها من العناصر الصالحة . ولا شك أن أول خطوة واجبة الأجراء فى ظروفنا الحاضرة هى التربية الصناعية لنستطيع أن نجعل الزنجى أكثر كفاية وأكثر انتاجا من الوجهة الاقتصادية . ويجب علينا الوصول الى هذا أن نزيد فى عدد المدارس المثيلة بمدارس تسكيجى وهامبتون ونضاعف من انتاجها ونذيعها فى جميع أصقاع الجنوب ونلزم أبناء السود الدخول فيها بنفس الطريقة التى نلزم بها أبناء البيض دخول مدارسنا . وبذلك يصبح الزنجى عاملا كفأ فلا يعود يخشى غزوة النازحين الى الجنوب . كما أن هذا يساعده على تنمية ثروته ورفع مستواه فى المعيشة فيحل بذلك كثيرا من معضلاته .

ويجب أن تكون الخطوة الثانية هى الحث على القيام بعزل تدريجى لا يقتصر أمره على المدن والمقاطعات بل يتناول الولايات أيضا. اذا تيسر هذا فالواجب أن يحرض الزنجى رويدا على النزوح الى تلك الأصقاع المعدة له أحسن إعداد مثل صقع دلتا نهرى اليازو والمسيسبى . فاذا أصبح الزنجى كفأ فى عمله ودل على جدارته وازداد عدده فى أى صقع على عدد البيض جاز أن يعطى نصيبا فى ادارة الحكومة وعلى الأقل فى تلك النواحى الحكومية التى تتصل مباشرة بالسكان الزنوج . من شأن هذا أن يعجل بخروج البيض ودخول السود . واذا ازدادت الكفاية والعزة الجنسية رغب الزنجى فى أن يترك لنفسه ويعمل على تنشيط حركة العزل .

ويجب أن يستحث الزنجى على التعليم العالى بمجرد أن يصبح قادرا على الانتفاع به حتى يستطيع أن يعد أطباءه ومحاميه وقسيسيه ومعلميه . ان الطلب اليوم متزايد بين الزنوج على اطباء منهم وعلى أطباء للأسنان والمحامين والمعلمين منهم كذلك . أما حاجتهم الى رجال الدين فكانت ولا تزال موفورة من بين الزنوج أنفسهم ، ولكن المطلوب اليوم هم القسس المدربون . واذا ازداد تيار العزل ازداد الطلب لأمثال هؤلاء . وبهذا يستطيع الزنجى أن يصبح من الوجهة الاقتصادية قادرا على كفاية نفسه ومستقلا فى حرفه الفنية وقادرا على أن يرتقى بمجهوده الخاص. واذا أصبح الزنجى متعلما وذا اعتماد على نفسه وكان له مجال معين من العمل فان أسباب الاحتكاك الجنسى تتناقص لأن الأبيض يومئذ لا يخشاه بل يزداد احتراما له ولا يستشعر الزنجى يومئذ انحطاط ذاتيته بل سيحاول أن يحل مشاكله بيديه . وستنشأ مع هـذه الأحوال عزة جنسية واعتزاز بالخصائص الزنجية فانفصال نهائى بين الأجناس . غير أننا لانعرض هذه الخطة على أنهـا هى الحل الوحيد بل على أنها جزء من هذا الحل . أما المسألة برمتها فهى من التعقد والالتواء بحيث لا تقبل فى الوقت الحاضر حلا حاسما .

الجزء الثالث

الفصل العاشر

تطور الأسرة

الأسرة كوحدة اجتماعية

ان الوظيفة الأولى للأسرة بل السبب الرئيسى فى وجودها — هى أن تأتى الى الدنيا بأطفال ثم تربيهم . على أن حماية الآباء للنسل ليست وظيفة مقصورة على نوع الإنسان ، بل هى أمر مشاهد فى جميع الحيوانات الراقية تقريبا . وفى الحيوانات أنواع كثيرة تدرب صغارها تدريبا يجعلها قادرة على مكافحة الحياة وتولى شؤونها بنفسها . حقيقة إن هذا التدريب لا يتولاه فى العادة إلا أحد الوالدين — وهو الأم — ولكن هذا الأمر يصدق أيضا على الإنسان فى الأطوار المبكرة من حياته . ولكن نشأت من هذه الوظيفة الأساسية ، أى التوالد والحماية ، وظائف أخرى حتى أصبحت الأسرة مركزا اجتماعيا ، وصارت كما يقول بعض الاجتماعيين وحدة المجتمع . ولقد أضحت هذه الصبغة لحياة الأسرة من الأهمية والخطر بحيث بات كثير من الناس ينظرون بقلق شديد إلى ما يبدو فى زمننا هذا من النزعات التى تضعف نظام الأسرة وتفقدها شيئا من أهميتها . وكانت الأسرة كذلك مركزا للتربية العقلية والأدبية ، وكانت هذه الوظيفة فى الماضى أهم شأنا مما هى اليوم ، حيث ألقت الأسرة جانبا كبيرا من هذه المسئولية على هيئات أخرى .

ان ما المجتمع من حاجات وما به من عادات أو مشاكل ، قد نشأ كله أو جله مع نشأة الأسرة . فتقسيم العمل نشأ فى الأسرة مع التخصص فى الواجبات بين الرجل والمرأة ، بل أن العمل الذى يختاره الإنسان لنفسه يتوقف إلى حد كبير حتى فى هذه الأيام على نوع العمل الذى يقوم به أبوه وعلى نوع التربية المنزلية التى يتلقاها . وكذلك الأمر فى الدين ، فالإنسان يميل إلى اتباع عقيدة أبويه . وهكذا كانت الحال دائما . وقد كان هذا فيما مضى أشد أثرا منه فى هذا العصر ، فكان الأب فى الماضى قسيس الأسرة وجاءت تبعا لذلك عبادة الأجداد ثم الاعتقاد بالأرواح . واليوم نرى الملكية تنتقل فى الأسرة وكانت دائما بوجه التقريب تجرى

كذلك ، ولو أنه عرف أنها كانت فى المبدأ تنتقل فى سلك الأنثى دون سلك الذكر . والتزمت الأسرة أيضا بالعناية بالقاصر والمسن والمريض والمصاب . وكذا الأطفال ، ولم يحدث إلا فى السنوات الأخيرة أن حاولت الأسرة نقل هذا العبء عن أكتافها إلى أكتاف الحكومة إلى حد كبير .

ان كثرة مشا كل المجتمع يسهل ردها إلى الأسرة ـ الى التربية الأولى (أو إلى عدم التربية) و كذا إلى الأحوال التى تسببها الوراثة ، إن أقوى بيئة هى بيئة الحيـاة الأولى ، بيئة منزل الأسرة . فالتربية التى ينالها الإنسان فى بيت أبويه هى اليد الكبرى فى تكييف الحياة المستقبلة . ولا يقتصر صدق هذا على المجرمين والفاسقين والمنحطين بل وعلى الفقراء باعتبارهم طبقة من الناس . من أجل هذه الحقائق يصبح درس علم الاجتماع ناقصا ، مهما روعى فيه الاختصار ، ما لم يتناول شيئا من البحث فى الأسرة . ولكى نعرف السبب فى أن الأسرة فى الوقت الحاضر قد اتخذت الصورة التى هى اليوم عليها لا بد لنا أن نتناول بالبحث مختلف الأطوار التى مرت فيها . ويجب علينا أن نستخرج الأسباب التى دعت الى التغيرات ، والعوامل التى أثرت فى الأسرة ، وساعدت على صوغها فى القالب الذى هى فيه . ولا بد أن يشمل درس هذا الموضوع بضرورة الحال عهودا أسبق من العهود المدونة فى التاريخ المسطور ، إذ مما لا شك فيـه أنه كان فى الدنيا نوع من الأسر حتى قبـل أن يكون هناك تاريخ يسطر . نعم أنه من الصعب جدا الادلاء بأى وصف صحيح فعلا للأسرة الأولى بسبب قدمها ولكن فى الامكان ذكر الأطوار المحدودة نوعاما الآتية :

القبيل — (The Horde) — من الكتاب من يرى أن الانسان أتى عليه عهد كان فيـه يطوف فى الأرض فى عصائب متنقلة تعيش عيش الحيوان . ومن الثقاة من يقول ، ومنهم ما كليتان Mc Lennan وموروجان Margan إن هـذه كانت حالته وهو فى أحط أدوار الهمجية ، يوم لم تكن هناك أسرة حقيقية بالمعنى الذى نعرفها به اليوم ، بل كان القبيل بدلا منها . ويرون أنه لم تكن له يومئذ أوضاع مرعية كالزواج ولا تقييد للشهوة الجنسية بل كانت الاستباحة عامة . والقوة البدنية هى القـانون السائد . ويرى هؤلاء الـكتاب أن الطفل كانت تكفل الأم تربيته وحدها . أما الأب فـلم يكن يستشعر نحـوه أقل مسئولية حتى الولد نفسه لم يكن يدرى من أبوه ، بل يذهب بعض الـكتاب الى حد القول بأن الأب ما كان يستشعر أبوة مطلقـا ، وأن التكاثر لم يكن عن نية وعمـد بل كان نتيجة الشهوات الانسانية . ومن ثم كان عبء تربية الطفل بطبيعة الحال واقعا على عاتق الأم . على أن هذه الحالة لم تكن من شدة الارهاق للام بالدرجة التى تكون بها فى أحوال المجتمع الحالية ، لأن ذلك العهد كان عهدا يعيش الانسان فيه من هبات الطبيعة مباشرة .

ليس من شك فى أن الانسان كان يطوف فى الأرض أثنـاء ذلك العهد السابق للعصور التاريخية وأن حياته لم تكن تختلف كثيرا عن حياة الحيوان . ولكن من الثقاة — وعلى رأسهم وسترمارك Westermarck — من يؤكد أن زواج الواحدة كان هو القاعدة وكانت الاباحة هى الاستثناء ، حتى على فرض أن الانسان قد عاش فعلا فى عصائب . وهم يسلمون بطبيعة الحال أن هـذا التوحيد فى الزوجية لابد أن يختلف كثيرا عن فكرتنا فى توحيد الزوجية . ولكنهم يقولون إن الانسان كان يسعى فى الأرض أزواجا لمدة ما من الزمن طويلة أو قصيرة أى على الأقل حتى يولد الطفل ويبلغ من العمر سنا تستطيع الأم عندها أن ترعاه وحدها. وهم يدلون ضد الرأى القائل بالاستباحة بثلاث حجج يلخصها وسترمارك فيما يلى ، ونحن نضيف اليها حجة اربعة :

١ — من الوجهة الزولوجية — يوجد بين الحيوانات الراقية نظام معين الى حد ما للتزاوج ، وتوحيد الزوج بينها هو القـاعدة السائدة ، لا الاستثناء . ويضربون لذلك مثـلا الحيوانات التى من قبيل القـرود الشبيهة بالإنسان ، وبعض أفراد أسرة الهر ، والسنجاب ، وأسد البحر ، والحيتان ، والغزلان ، والوعول ، وجاموس المـاء ، والطيور على التخصيص .

٢ — من الوجهة الفسيولوجية — من شأن الإباحة أحداث العقم . نعم ليست كل طائفة تتزاوج فيما بينها تصبح منحطة ، نظرا الى قوة بعض أفراد الطائفة الأصلية ، ولكن الإنحطاط نتيجة محتمل وقوعها فى التزاوج المحدود بالقرابة وادراك هذه الحقيقة قد أدى الى وضع القوانين التى تحرم الزواج بين الأهل والأقرباء الأدنين .

٣ — من الوجهة السيكولوجية — إن شيوع الغـيرة الجنسية شيوعا شاملا من شأنه أن يساعد على اتخاذ زوجة واحدة . ويرى وسترمارك أن هذه الحجج أقوى الحجج ضد الاباحة . فهو يرى أن التزاوج يكون (حتى فى الظروف السابقة للعصور التاريخية) نتيجة التجاذب المتبادل ، ومن ثم ينتخب كل شخص لنفســه الألف الذى يؤثره على غيره . ومن الطبيعى والحالة هذه ان يميل كل منهما الى البقاء مع صاحبه ، حتى مع انتفاء السلطة التى تجبره على ذلك . وعلى كل حال فأنهما يبقيان معا حتى يحل بينهما السأم ، أو حتى يقابل أحدهما شخصا آخر يكون قد استهواه أكثر من صاحبه . ولمـا كان الانسان على الدوام ميالا الى الاجتماع ويؤثر بطبيعة الحال فى عشرته رفيقـا من الجنس المقابل ، فمن المعقول أن تظل الأزواج التى تألفت على هذا النحو مرتبطة على صورة ما من الدوام .

٤ — الضرورة البيولوجية — المشاهد من أمر الطبيعة أنها تحمى كل نوع من مخلوقاتها . وأنه إذا كان الخطر على أحدها عظيما ، كانت حمايتها له حماية خاصة. فالأسماك وغيرها من صور الحياة المنحطة فى الرتبة تحمية بعظم معدل مواليدها ، فهى تضع ألوفا من البيض فى الدفعة

الواحدة . وكلما أرتقى النوع الحيوانى فى سلم الحياة ، ينقص عدد نسله ، ولكن تزيد عناية الآباء بالنسل الناشئ . واذا كان الحيـوان عند مولده عاجزا كما هو الحـال فى الطيور ، عنى الآباء بالصغار . والإنسان معدل مواليده قليل جدا بالقياس الى غالب أنواع الحيوان وزمن الطفولة لديه ممتـد الآن أمتدادا كبيرا . ولذلك فإن عنـاية الوالدين من الضرورات الحتمية وفضلا عن هذا فإن الأم فى وقت الولادة تكون عاجزة بوجه خاص وتحتاج الى حماية الرجل هذه الحجة التى نسميها الضرورة البيولوجية ، — اذليس لدينا عبارة أصلح منها — تناقض فكرة وجود أية حالة عامة من الإباحة مناقضة قوية . على أننا لا ندرى ، ويحتمل ألا يكون فى المقدور أننا سندرى بالتحقيق، هل مضى على الأنسان عهد كعهد القبيل المذكور شاعت فيه الإباحة أو نوع ما من التوحيد فى الزوج.ومهما يكن من حالة الإنسان يومئذ فأن روابط الأسرة لايمكن أن تكون فى ذلك الوقت شديدة المتانة . وإنمـا أخذت تزداد قوة شيئا فشيئا بتقدم الإنسان ، وأخذ الأب كذلك يزداد شعورا بالواجب الى حدما على الأقل فى تربية الأطفال،وبذا أخذ يشترك اشتراكا متزايدا فى أمر إعالتهم.ولما أخذت الشعوب فى الاستقرار، أخذت هذه النزعات صورة تعرف عادة باسم " الماتريركية " أى "زعامة الأم".على أن هناك اختلافا فى الآراء أيضا فيا يختص بهذا العهد من حيث أمده وأهميته .

نظام الماتركية (Matriarchy) أى زعامة الأم

١ — تختلف الآراء فى هذا الموضوع — يرى باتشوفن (Bachofen) وهو الذى يعزى اليه فضل الأدلاء بهذه النظرية، أنه قد مر على الإنسان عهد غير محدود الأمد كانت المرأة فيه حاكمة . بل امعن بعض الكتاب ومنهم الأستاذ وارد (Prof. Ward) فقال إن المرأة إنما حكمت بسبب أنها كانت أقوى الأبوين جسما ، وأنها استمرت صاحبة السلطة حتى فقدت هذا التفوق الجسمانى . وفى الكتاب آخرون ينكرون وجود عهد من هذا القبيل بتاتا . على أن أعلام الثقاة يقرون كلهم تقريبا وجود نوع ما من الماتريركية ، وإن لم يكن بينهم أثنان متفقان على رأى ، ولا بينهم واحد واضح الرأى فيا يكتبه عن هـذا العهد . يرى بعضهم أن عهدها كان طويلا ربمـا استغرق آلافا من السنين.ويرى غيرهم أنه إنما كان قصيرا بالقياس الى غيره. وفيهم من يرى أنه إنما كان طورا أنتقاليا ، وأن كثيرا من الأجناس قد تخطاه بتاتا.

على كل حال لقد مرت على الإنسان فترة من الزمن كان فيها حق الأم غالبا ، وكانت فيه القرابة ممتدة فى سلك الأنثى . وأكبر السبب فى هـذا أن الأم كانت أشد اتصالا بتربية النسل من الأب. وفضلا عن ذلك فإن الأب لم يكن فى كل حال معروفا،وأذ اعرف كانت علاقته بمولد الطفل غير مفهومة بشكل واضح، بسبب الجهل بقوانين التوالد؛ إذ الحمل فى بعض

الشعوب معزوا الى أثر السحر أو الى قوة غير بشرية. وفضلا عن هذا فقد كان الأب صيادا مطوفا. أما الأم فكان لها مكان مستقر ثابت من نوع ما، ومن الطبيعي أن تحكم أولادها ، وأن تكون لها سلطة على بناتها الكبيرات حتى يتزوجن ، والى حد ما على أولادها الكبـار . ومن ثم نشأ للأنثى مركز يدعو إلى احترامها . ولكن لم ينشأ لها فى ذلك العهد من تاريخ الدنيا شيء من قبيل الحكومة السياسية ولهذا فلا يمكن أن تكون المرأة قد حكمت بالمعنى الذى قصد اليه باشوفن.

٣ — " البوليا ندرية " (Polyandy) أى تعديد البعول — البوليا ندرية هى أنه يكون للمرأة غير زوج واحد وقد نشأت هـذه الظاهرة وأصبحت نظاما مرعيا فى عهد المـاتريركية كما نشأت البوليغينية (Polygyny) وهو زواج الرجل الواحد بغير امرأة واحدة فى العهـد الأخير من " البطريركية " (Patriarchy) أى زعامة الأب .

ذلك أنه قد يكون للمرأة غير واحد من الخطاب ولاسيما فى الأقطار التى كانت تندر فيهـا النساء بسبب شيوع عادة قتل الأطفال أو حيث كانت احوال المعيشة تجعل من المستحيل على رجل واحد أن يعول زوجة بمفرده فهى اذ ذاك تجنح الى تعديد البعول . على أن هـذا النظام ينتشر بسبب تعادل عدد الأفراد تقريبا فى الجنسين؛ اذ الواقع أن حدوثه انمـا كان بمثابة الاستثناء من القاعدة، على أن هذه العادة بقيت حتى الى يومنا هذا بين قليل من الشعوب كما هو الحال فى جزيرة سيلان وفى التبت وأسام .

ويجعل هوارد تعدد البعول على نوعين : (١) نوع النابر (The Nair)(*) الذى بموجبه تعيش الزوجة مع أمها أو أخواتها وتكون حرة فى اختيار أزواجها أو عشاقها . وهؤلاء لا يحتم أن يكونوا أقرباء بعضهم من بعض . وتجرى القرابة فى هـذا النظام على سلك الأنثى وتنتقل الملكية كذلك . قال هوارد[١] " لا يعرف النايرى من أبوه وكل رجل يعتبر أولاد اخته ورثته". وفى طور انتقالى من أطوار هذه العادة كان للزوجة بيت خاص بها تعاشر فيه بعولها تبعا لقواعد ثابته . والعادة أن يعيش معها كل منهم مدة معينة ، فاذا انقضت أخلى مكانه للبعل التالى وهكذا وقد كان هذا الأمر سهل التدبير يوم كان جميع البعول يعيشون فى قرية واحدة وأما اذا كانوا من نواح متعددة فقد كان يحدث التباس فى المواعيد يترتب عليه حدوث متاعب كثيرة . (٢) النوع التبتى (The Tibetan) وهو يعتبر نوعا أرقى من سواه. كانت الزوجة تعيش فى بيوت بعولها. والعادة أن يكونوا إخوة. والمتبع أن يختار الأخ الأكبر الزوجة ويدعى ملكية الأولاد جميعهم .

(*) أى الشائع بين جماعة النايروهم يعيشون على الساحل الجنوبى الغربى من الهند. (المترجم)

(١) نقلا عن كتاب هوارد مقتبسا من بوكانان History of Matrimonial Institutions

التوحيد والتعديد كلاهما منتشر جنبا لجنب بين التوداس (Todas) من أهل الهند . ذلك أن الرجل قد يختار زوجته ويدفع مهرها الى أبويها أو يشترك جميع الاخوة فى هـذا الزواج اذا وافق على ذلك جميع أولى الشأن فيدفع كل منهم نصيبه فى المهر . وفى كلتا الحالتين تكون القرابة وانتقال الملكية بطريق الذكر . ويرى ماكلينان أن شيوع النوع التبتى كان عاما ، بيد أنه أصبح اليوم غير ذلك .

٣ — الوراثة فى عهـد الماتريركية « زعامة الأم » : كانت الوراثة كالقرابة تجرى عادة فى طريق الأنثى ؛ على أن هـذا الأمر لم يكن عاما . بل كان يختلف باختلاف القبائل والظروف . فالمشاهد أنه كلما كانت المدنيـة تتقدم كان الناس أشد ميلا الى جعل الوراثة عن طريق الذكر .

٤ — الحجج الاقتصادية فيما يختص بزعامة الأم : من الأمور التى تلاحظها فى انتشار زعامة الأم أن هذا النظام أقوى مايكون فى الأقطار التى يكون عمل المرأة فيها من الناحيـة الاقتصادية أهم من عمل الرجل — أى فى الأقطار التى تمارس الزراعة أكثر من ممارستها للصيد البرى أو البحرى أو الرعى . ذلك أن المرأة كانت أكثر إنتاجا فى العمل الزراعى المجهد ؛ فهى بطبيعة الحال أهم شأنا من الرجل ؛ ولذلك تكون لها الكلمة العليا فيما يختص بحياة الأسرة ولكن بمجرد أن تمكن الانسان من استخدام الحيوانات فى الزراعة أو إتخاذ العبيد ليقوموا بقسط من العمل فيها انقلبت الحال تماما ، لان الرجل أقدر من المرأة على رياضة الحيوانات وعلى السيطرة على العبيد والخدم . أما فى الأقطار التى تمارس الصيد البرى أو البحرى أو الرعى ، فقد كان الرجل هو الزعيم دائما ؛ إذ أن عمله فى هذا الصدد كان أكثر انتاجا . لهذا السبب نرى أن أمد زعامة الأم كان فى بعض الأقطار طويلا ومهما وفى غيرها قصـيرا وقليل الشأن ، وفى بعض الأحوال ما كان يحدث مطلقا .

وعلى هذا الاعتبار نرى أن تعديد الزوجات يكون أكثر انتشارا فى الأقطار التى يكثر فيها الطعام ، كما أن تعـديد البعول ينتشر حيث لايتيسر العيش إلا بالمشقة الشـديدة . أما فى الأقطار التى لايغلب فيها أحدى هاتين الحالتين المتطرفتين ، وحيث الناس أقرب الى المساواة فى الممتلكات وفى الفرص ، فان زواج الواحدة أدنى الى أن يكون القاعدة العامة .

٥ — الاغتراب والإضواء (*) :

ليس لهاتين العادتين صلة خاصة بزعامة الأم ولكن لـما كان نشوؤهما فى غضون عهد الماتريركية نفسه ، فانا نتناولها بالبحث هنا . أما عادة الإضواء (Endogamy) — أى إجبار

(*) فكرة الأغتراب والاضواء كانت معروفة للعرب وقد جاء فى أقوالهم المشهورة اغتربوا ولا تضووا (المترجم)

الشخص على أن يتزوج من نساء عشيرته أو رهطه فانها ليست ذات أهمية كبرى. وقد كان أشهر أشكالها زواج الطوائف ، إذ تتزوج طائفة أى مجموعة معينة من الرجال طائفة معينة من النساء . وكانت هذه الطوائف تتألف عادة من إخوة أو أخوات ، أو ممن يكونون متصلين بقرابة شديدة . ولقد كان لكل رجل فى هذه الطوائف حق أول على احدى نساء الطائفة ، وحق ثانوى على كل امرأة أخرى فى تلك المجموعة .

على أن العادة التى جرى عليها العمل بوجه عام كانت دائما هى عادة الاغتراب (Exogamy) ومؤداها إجبار الشخص ذكرا كان أو أنثى على أن يبحث عن زوجة فى عشيرة غير عشيرته . وهذا النظام مرعى اليوم بين جميع الأجناس المتمدنة ، حيث يحرم زواج الأقارب الأدنين وهو ناتج من ضرورة العمل لمنع الانحلال ، وكذلك كما قال وستر مارك (Westermarck) من الاستفظاع العام لسفاح الأقرباء . ونظام الاغتراب شائع بين القبائل الهمجية شيوعه فى الطوائف المتحضرة . ففى بعض قبائل استراليا الوسطى، تنقسم القبيلة فرقتين ، ويجبر الرجل عندئذ على أن يختار زوجته من بين نساء الفرقة الأخرى . وقبائل الكاميلا روى (Kamilaroi) وهم من السكان الأصليين فى أستراليا ، ينقسمون ستة بطون ، يسمى كل بطن منها باسم أحد أنواع الحيوانات. وقد كانت العادة فى السابق ألا يتزوج أفراد البطون الثلاثة الأول إلا من الثلاثة الأخر، ولكن شدة العادة تراخت بعد ذلك وأصبح يسمح بالزواج من أى بطن ألا البطن الذى منه طالب الزواج . وتجرى الوراثة عن طريق الأنثى فتلحق الأولاد بالبطن الذى منه أمهم .

وقد وجدت هذه الحالة شائعة بين جميع الهنود الأمريكيين تقريبا ، ولا سيما بين الأيروكواز (Iroquois) الذين يعطوننا خير مثل على هذا النظام . هؤلاء الأيروكواز — أى الأمم الستة ، كما كانوا يسمون فى كثير من الأحيان ، كانوا ينقسمون ثمانية بطون تسمى بأسماء الحيوانات . ولكن لم تكن كل هذه البطون ممثلة فى كل قبيلة من قبائلهم . وكان كل فرد ملزما أن يبحث عن زوجة فى غير البطن الذى هو منه . وكانت سلسلة النسب فى أول الأمر عن طريق الأنثى شأنها لدى الأستراليين. وكان الذكر يذهب ليعيش فى العشيرة التى منها زوجته — حيث كان يعد — إلا فيما ندر غريبا — فى تلك المجموعة. ولم يكن له من السلطة فى تدبير الشؤون إلا قليل . وكان الرئيس هو أخو المرأة الأكبر، اذا كان غير متزوج، فاذا تزوج انتقل شرف الرياسة الى أكبر رجل غير متزوج . ثم تغير هذا النظام بعد ذلك ، وأصبحت الوراثة تنتقل فى الذكور فانتهت زعامة الأم . وقد نشأت عادة الاغتراب الأكسوجامى — فى الغالب من عادة سبى الزوجة ، إذ كان اختطاف النساء من علائم الغلبة الحربية الدالة على الشجاعة . وفضلا عن هذا فقد كانت المرأة التى تنال من هذا الطريق

ذات قيمة اقتصادية، إذ أنها كانت تخدم زوجها لا كزوجة أو سرية . بل كخادمة أو جارية . من هذا شاع الزواج بالغربية حتى أصبح عرفا. ولما كانت القبائل التى اعتادت زواج الاغتراب تبقى وتترعرع على حين أن القبائل التى اعتادت زواج الأضواء تضعف وتفنى صارت عادة الاغتراب قانونا ودينا. على أن هناك أمثلة تاريخية كثيرة على الزواج بالأخوات . منها ما كان عليه البطالسة المصريون وملوك فارس الأقدمون ، إذ كان غرضهم المحافظة على نقاوة السلالة والمحافظة على طهارة الدم الملكى . على أن زواج الأخوات لايزال حتى فى عصرنا هذا معروفا فى سيلان وجزائر ساندوتش . بيد أن زواج الاغتراب كان دائما القاعدة الشائعة سواء أكان ذلك للضرورة أو عن اختيار أو عن هذا وعن ذاك معا .

البطرياركية (Patriarchy) الزعامة الأبوية .

مالت كفة الميزان عن الماترياركية أى زعامة المرأة الى أقصى حدود الطرف الآخر أى الى البطرياركية او زعامة الرجل ، حيث كان الأب هو رئيس البيت لايقتصر على حكم امرأته وأولاده فقط ، بل يحكم كذلك أسرات أولاده . كانت له السلطة العليا مادام حيا وامرأته فى كثير من الأحيان معدودة من عبيده . واذا مات خلفه فى ذلك أكبر أبنائه . وقد أدلى سير هنرى ماين (Sir Henry Maine) فى كتابه المسمى (Ancient Law) أى القانون القديم ، المنشور سنة ١٨٦٧ بأن هذا النوع من الأسرة هو النوع الأول منها ، وأننا كلما رجعنا الى الوراء فى عصور التاريخ وجدنا حالة المرأة أسوأ فأسوأ . على أن عيب نظريته هو أنه لم يرجع الى الوراء فى عصور التاريخ الى مدى بعيد بعدا كافيا ، بل بنى استنتاجاته كلها على الأسرة الرومانية الأولى التى صورها كتابه. حقا كان الأب فى عصور روما الأولى صاحب الحق فى حياة زوجته وأولاده أو موتهم وأن المرأة كانت تحترم لعفتها ، ولكن حياتها كانت شاقة والمعاملة التى كانت تعامل بها قاسية فى أغلب الأحيان .

وكان قدماء الأغريق يستبقون المرأة فى المنزل . ومع أن مقامها كان أحط بكثير من مقام المرأة الرومانية فانها كانت تعامل معاملة أكثر انطباقا على العطف والرحمة . وقد كانت المرأة الأغريقية غير متعلمة ، وكان يحرم عليها الاختلاط بالمجتمع ، وكان كل واجبها أن تربى الأطفال لزوجها . ولم يكن الزوج الاغريقى يسئ معاملة زوجته ، بل الواقع أنه لم يكن له كبير شأن معها ، لأنه كان يقضى أوقاته بعيدا عن بيته مشغولا بالأحاديث السياسية والفلسفية ، أو بممارسة الألعاب الرياضية أو مشاهدتها أو بالاستماع لخطب، واذا اشتهى صحبة الأنثى تلمسها

فى الهيتاراى (Hetairai) "النساء العموميات" اللائى كن فى العادة أجنبيات ، ولهذا كن متعلمات ، ويكدن يعادلنه ذكاء . نعم لم تكن هذه الحالة عامة بين جميع الاغريق ، ولكنها كانت كذلك عند كثرتهم ، ولا سيما الأثينيين والأيونيين الذين كان الرجال منهم على درجة عظيمة من الثقافة ، على حين كان نساؤهم فى جهل مطبق ، إذ كانوا يرونهن غير جديرات بالعلم .

وفى ، سبارطه (Sparta) كانت المساواة بين الرجل والمرأة أكثر من ذلك بكثير . على أن المرأة بين الشعوب الآرية لم تهبط الى درجة الرق مطلقا ، بل كانت فى العادة شريكة الرجل فى الإشراف على الأولاد ، وهؤلاء كانوا يتحررون من السلطة الأبوية يوم يتزوجون ويقيمون لأنفسهم بيوتا خاصة بهم .

وكانت المرأة فى رأى الهندوس غير أهل لأن تملك عقارا . ولذلك لم يكن من حق الزوجة ولا البنات أن يرثن شيئا من الأملاك . على أن العروس مع ذلك كانت تملك أمتعتها الخاصة — فراشها وملابسها وحليها — ولعل حقوق الملكية والوراثة المرعية اليوم قد نشأت عن هذا . وقد ارتفع مقام المرأة رويدا عن المستوى الذى كانت فيه بمثابة قطعة من المتاع والأثاث ، أو سلعة من سلع التجارة فى بيت زوجها الى مستواها اليوم وهو مستوى لا يزال حتى الآن فى أكثر الأقطار دون مستوى الرجل ، وان كان آخذا فى الترقى المستمر . وقد بلغت حالتها فى قليل من الأقطار منزلة تكاد تعادل منزلة الرجل .

تعدد الزوجات ، "البوليجينية" (Polygyny) [٢] فى عهد زعامة الأب تجد البوليجينية — أى زواج الرجل الواحد بغير واحدة من النساء . على أن العادة جرت بأن تكون واحدة منهن فقط ذات الحظوة لدى الرجل . أما غيرها فكثيرا ما كن سرارى أو إماء . وفى الكتاب المقدس أمثلة عدة على هذا التعديد فى قصص يعقوب وداود وفى قصص سليمان على الأخص ، إذ ورد أنه كان له سبعمائة زوجة وثلاثمائة سرية والواقع أن الأمر كان ، كما ذكر وستر مارك ، من الأمور العادية بدرجة أن القانون لم ينظر اليها ولو نظرة استهجان . فقد كان مباحا للرجل أن يحوز من الزوجات قدر ما يستطيع أن يعول . وقد جعل هذه المسألة ميسورة للأغنياء والحكام على الأقل موت كثير من الرجال فى الحروب وشيوع عادة الاسترقاق التى ظهرت حين أخذ الانسان يشتغل بالرعى والزراعة ولا سيما فى الأقطار الشرقية . ولا يزال تعدد الزوجات معروفا فى تركيا وبلاد العرب والهند والصين بل وفى اليابان كما أنه مرعى فى كثير

---

[٢] نلفت نظر القارىء الى الفرق بين البوليجينية (Polygyny) التى هى تعدد الزوجات خاصة والبوليجامية (Polygamy) التى هى تعدد الأزواج ذكورا واناثا ، والتى هى لفظ عام يشمل البوليجينية (تعدد الزوجات) والبولياندرية (تعدد البعول) .

من القبائل الأفريقية. والى عهد قريب جداً كان من الأمور التى يمارسها المورمون (Mormons) (*)علناً فى الولايات المتحدة اذ انهم كانوا يرونها من الأوضاع السماوية التى أمر بها وقصد بها التعجيل فى تعمير الأرض .

على أنه إذا كان تعدد الزوجات جائزاً بين المتبربرين والشعوب الهمجية فإنه لم يكن ولايمكن أن يكون العرف الشائع ، وذلك نظراً إلى تعادل عددى الجنسين تقريبا . ولكن لما كانت زيادة عدد الذكور على عدد الإناث فى بعض الأقطار بسبب عادة قتل البنات والقسوة فى معاملة المرأة قد أدت إلى تعدد البعول فقد أدى الى تعدد الزوجات فى أقطار أخرى زيادة عدد الإناث على الذكور بسبب كثرة الوفيات منهم فى الحروب وكثرة المشاق التى يلقاها الإنسان الوحشى فى صيد فريسته وضعف الحيوية فى الذكور أثناء الطفولة وزيادة نسبة المواليد من الإناث . ولكن نظراً الى عظم مقدار النفقة اللازمة لإعالة « الحريم » كان طبيعيا ألا يملك «حريما» غير الأغنياء والأقوياء الذين يستطيعون الإنفاق . على أن كثيرا من الطبقات السفلى كانوا لايظفرون بزوجة بسبب انتشار الرقيق،وعجز الفقراء عن الانفاق عليهم ومن ثم فان الرجل إذا تعددت زوجاته اضطر رجل آخر أن يعيش بلا زوجة . ولقد كانت أسباب تعدد الزوجات ما يأتى (١) انغماس الذكور فى الاستمتاع (٢) الحاجة الى الايدى العاملة مما جعل الزوجات ذات قيمة اقتصادية (٣) التفوق فى القوى الحربية فى الرجال الذين لهم أكبر عدد من الأولاد والأقرباء ، نظراً الى أنهم يستطيعون أن يجمعوا عصائب من المحاربين أكبر عدداً من سواهم (٤) المجد الذى يناله الرجل لقوته وسعة حيلته ، اللتين يشهد بهما عدد النساء المأسورات (٥) زيادة أبهة الزعماء والقادة، بسبب اضافة زوجات عديدات إلى حاشيتهم. فأصبح الاحتفاظ بالحريم باعثا على ارتقاء المركز الإجتماعى. ومما زاد هذا النظام تأييداً إقرار الدين له .

زواج الواحدة — المونوغامية (Monogamy)

لما تقدمت المدنية ، أخذت زعامة الأب تتلاشى وحلت محلها عادة اتخاذ الرجل زوجة واحدة . لأنه بتقدم المدنية قل الإستعباد وأطردت زيادة المساواة السياسية والاجتماعية والصناعية . وكان من النتائج الطبيعية لنمو الحرية والاستقلال تقرير حق كل انسان فى أن يتزوج وأن يكون له بيته الخاص . ولما كان عدد الرجال والنساء يكاد يكون متعادلا فقد أصبح توحيد الزوجة هو النوع الوحيد من حياة الأسرة الذى أمكن أن يستقر . ولما كانت

(*) مذهب دينى انتشر فى الولايات المتحدة فى القرن الماضى ولا يزال له اتباع ولا سيما فى ولاية أوتا Utah حيث يوجد منهم ما لا يقل عن نصف مليون نسمة (المعرب) .

الحرية قد منحت المرأة كما للرجل ، فقــد تطلبت المرأة أن يكون لها رأى فى تكوين بيتها وأصبحت حالتها على التدريج أحسن من ذى قبل . وقد ساعد هــذا على جعل الزواج بواحدة هو النظام الوحيد الذى تقره المــدنية العصرية وإن كان بعض الأنواع الأخرى لا يزال منتشرا فى بعض نواحى العالم .

والواقع أن الابحاث التى لدينا لا يقتصر أمرها على الدلالة على أن الأنواع الأخرى من الأسرة كانت مؤدية حتما إلى نظام الزوجة الواحدة ، بل إنهــا تدل أكثر فأكثر على أن هذا النظام كان هو القاعدة الأساسية دائما ، وأن العادة العامة كانت أن يعيش رجل واحد مع امرأة واحدة عيشة الزوجية. وأن سائر الأشكال الأخرى لم تكن إلا شذوذا عن هذه القاعدة. وعلى كل حال كان أعظم ما حدث من التغير بتقدم المدنية هو الدقة فى تنفيذ هــذا النظام . نعم كان زواج الواحدة فيما يظهر هو العادة الأصلية ، ولكن لم يكن هنالك قوة المراقبــة والإشراف بل كان الأمر بالعكس. فأن أولى الأمر الذين كانت فى يدهم المقدرة على إيجابها كانوا هم أنفسهم الذين ينتهكون حرمتها ، ولذلك لم يشاءوا أن يجعلوها إلزامية .

تقسيم مورغان (Morgan)

استحدث مورغان فى كتابه المسمى «المجتمع القــديم » (Ancient Society) نظرية على جانب عظيم جدا من الاهمية والبراعة فيما يختص بنشوء الأسرة . فرض سبق وجود حالة من الاختلاط والإباحة ثم استخرج منها خمسة أنواع مختلفة من الأسرة كما يلى :

١ — الأسرة الأخوية (Consanguine Family) أى تزاوج الاخوة والاخوات الذين من جماعة واحدة . وهذا النوع غير موجود اليوم ولكن يظن أنه كان شائعا يوما ما . وقد بنى نظريته فى ذلك على النظام الملائى (Malayan) المعروف بين المــاؤرى (Maoris)(*) وأهــل هوائى (Hawaians) وغيرهم من سكان بولينزيا (Polynesea) والذى هو أساس القرابة بين الصينيين — وهــذا النظام يعترف بخمس قرابات فقط : الوالدين والابن والابنة والجد والجدة والحفيد والحفيدة والأخ والأخت . أما الأعمام أو الأخوال والعمات أو الخالات وأولاد هؤلاء فمن المستحيل الجزم بهم بشئ .

٢ — الأسرة البونالوانية (Punaluan) أى زواج كل أخت من أخوات متعددات فى جماعة ما بأزواج الأخريات أو زواج كل واحد من أخوة متعددين فى جماعة ما بزوجات

(*) هم السكان الأصليون لزيلندة الجديدة (المعرب) .

الآخرين مع تحريم زواج الرجل بأخته . وقد بقى هذا النظام فى أوربا وآسيا وأمريكا إلى العصور التاريخيـة ، وفى بولينزيا إلى القرن الحاضر ولا سيما بين أهل هوائى . فأصبح بذلك لكل رجل زوجة رئيسية ولكل امرأة زوج رئيسى .

٣ — الأسرة السندياسمية (Syndiasmian) : وهو زواج بين رجل وامرأة يكون فى أكثر الأحيان مؤقتا . ولا يراعى فيه استئثار كل من الزوجين بالآخر . وقد وجد هذا النوع بين كثير من القبائل الأمريكية ولا سيما السنيكا (Senecas) و بين بعض شعوب الهند .

٤ — الأسرة البطريركية : وهو ضرب يسمح للرجل الواحد بزوجات عدة يصحبه عادة تحجيب الزوجات . وهو نوع شائع جد الشيوع فى الشرق حتى فى يومنا هذا .

٥ — المونوغامية وهو الاقتصار على زوجة واحدة أى قران زوج بزوجة فردية مع قصر التسرر على الطرفين .

وقد سبق لنا أن تناولنا النوعين الأخيرين بالبحث . وهذا التقسيم على ما تضمنه من الفائدة لم يحز بصفة عامة قبولا لدى علماء الاجتماع .

أشكال الزواج

لا يكمل تاريخ الأسرة مالم يعالج موضوع تطور الزواج يبحث الأشكال التى تشكل بها وذكر أسبابها . ولقد أهمل بحث هذا الموضوع حتى الآن لأنه لم يكن يتفق دائمـا مع تاريخ تطور الأسرة . أما أشكال الزواج المعروفة بصفة عامة فهى الآتية :

١ — الطبيعى أو الانتخاب الجنسى — كان هذا يوم كان الرجل والمرأة ينتخب كل منهما الآخر بالفطرة و يعيشان معا عن إعجاب الواحد بمحاسن الآخر . وإذ لم تكن هناك قوة تلزمهما البقاء معا فقـد كان الاثنان لا يبقيان مرتبطين معا إلا ما دامت عشرة كل منهما لصاحبه لذيذة ومرغوبا فيها من الجانب الآخر . وقد ظلت هذه الحالة سارية على مدى عهد القبل — على فرض أنه قد كان عهد كهذا فعلا — وعلى مدى عهد زعامة الأم . ولكن لمـا أخذ الرجل يدعى لنفسه حق امتلاك عروسه وأخذها الى مسكنه ، انحل هذا الشكل وحل محله زواج السبى وعند ئذ زالت زعامة الأم (المـاتريركية) وخلفتها زعامة الأب (البطريركية).

٢ — زواج السبى — يرى ماكلينان أن زواج السبى إنما نشأ من إلزامية الزواج الأجنبى التى كان الرجل مضطرا بمقتضاها أن يخلى جماعته ويذهب فى طلب زوجته من الخارج. فاذا كانت القبيلة فى حالة حرب أوعلى غير وئام مع جيرانها من القبائل المجاورة كان مضطرا الى أن يحصل على زوجته سبيا أنى استطاع وكيفما شاء . ويرى غيره أن زواج السبى إنما نشأ من عادة

أسر النساء فى الحرب . وهناك آخرون يرون أن الرجال إنما كانوا يسأمون عشرة نساء قريتهم إذ كن أمامهم فى كل وقت، ولهذا كانت تجتذبهم نساء القبائل الأخرى . ويرى المؤلف أن جميع هذه النظريات صواب الى حد ما ، كما يرى أن تفوق الرجل فى القوة البدنية كان ذا أثر فى انتشار هـذه العادة . ولكن مهما يكن منشؤها فقد كان لهـا أثر عظيم فى تاريخ الزواج ولا تزال جارية حتى يومنا هـذا بين بعض القبائل المتوحشة . ويستدل على حالة شيوع هذه العادة فيما مضى أو على الأقل مما يدل عليهـا دلالة قوية ، مظاهر السبى الصورى التى تتجلى فى حفلات الزواج فى كثير من الأقطار . ففى هذه الأقطار ينقض العروس (الزوج) يساعده فى العادة رفقاؤه على مسكن عرسه وفاقا لعادة مرعية ويختطفها بالرغم من مقاومة صورية يقوم بها أصدقاؤها . ولابد للعرس فى هذه المغالبات أن تتظاهر هى أيضا بالتمنع مهما كانت راغبة فى أن يحملوها ويخرجوا بها . ومن الناس من يعتقد أن بعض العادات المرعية فى الزواج كرحلة العروسين ليست إلا بقية من تلك العادة . نعم ليس لدينا بينة ثابتة على أن عادة زواج السبى كانت فى جميع الأجناس ولكن لا مشاحة فى أنها كانت واسعة الانتشار .

٣ — زواج الشراء — حل زواج الشراء محل زواج السبى لمجرد أن الرجل وجد أن شراء الزوجة بالمـال أهون عليه من أن يقاتل فى سبيل الحصول عليها، يضاف إلى هذا رغبة الوالد فى الحصول على ما يعوضه من تربية بناته اللاتى كن يتركن منزله عند ما يصبحن ذوات قيمة اقتصادية ، وكان الزواج بالشراء فى مبدإ الأمر مستحيلا إذ لم تكن هناك ملكية شخصية ولكن لمـا تقدم العالم وانتشرت الملكية بين الناس زالت هذه العقبة . وكانت المـاشية هى أشيع وسائل المبادلة بسبب أنهـا كانت من الحاجات المطلوبة عادة .

وهذا التحول من حالة سبى الزوجة إلى شرائها حط من مقام المرأة لأن الرجل كان أكثر تقديرا لزوجته يوم كان يغامر بنفسه مقاتلا فى سبيل الحصول عليها منه يوم بات يشتريها بعدد معدود من المـاشية . وقد أدى هذا إلى أن تولدت فى نفسه الرغبة فى استغلال ما بذله من المـال من أجلها . ونتج عن ذلك صيرورة المرأة أمة فى بيت زوجها . حتى أنها لمـا لم تنحط الى مستوى الإماء أصبحت سلعة من السلع . وفى بعض الأحيان كانت تعامل معاملة ألطف من المعتاد إذا كانت قد كلفت الزوج قدرا عظيما من المال كدأبه إذ يعتنى بالحيوان ذى الثمن العالى . ولكن هذه المعاملة لم يصحبها أى رفعة لمقامها . وكان للرجل فى بعض الأقطار حق بيع زوجته ثانية وكان له فى بعضها حق إعدامها . وكان هذا حال المرأة فى أول عهد روما حيث كان حظ المرأة سيئا جدا .

ولقد كانت عادة الشراء هذه شائعة فى جميع الأمم القديمة تقريبا وكان معمولا بهـا على الأخص بين الإغريق والهندوس والفنلانديين والاسكندناويين والصقالبة، ولا تزال فى الأزمنة

الحاضرة شائعة بين أقوام شتى منهـا قبائل الهنود الأمريكيين وجميع قبائل افريقيا تقريبـا وفى بلاد التتر وبعض جزائر المحيط الهـادى والهنـدى . ولاتزل بقاياها معروفة بين كثير من الأمم التى لاتمارس هذه العادة اليوم فيا يرى من عادة تقديم العروس هدايا إلى أبوى عرسه كما هو الحال بين اليابانيين. وكثيرا ما كان الرجل يعتاض عن دفع الثمن إذا لم يكن لديه مايكفى لشراء زوجته بأن يشتغل لأبويها مدة معينة من الزمن . وفى التاريخ القديم مثل لذلك إذ اشتغل يعقوب سبع سنوات من أجل ليئة ، وسبعا أخرى من أجل راحيل .

وفى بعض الجهات التى كانت تكثر فيهـا الثروة كروما مثلا ، كان يدفع الوالد مع ابنته مهرا بدلا من أن يتناول هو ثمنها . ولكن لمـا كان هذا المهر يخص الابنة عادة فقد كان هذا المهر يعطيها قسطا أوفر من الحرية ويجعلها مستقلة عن زوجها استقلالا ما. وكان شيوع هذه العادة غالبا فى البلاد التى كان عدد الإناث فيها يربى على عدد الذكور بدرجة يصعب عندها تزويجهن. وبلغت هذه العادة فى بعض الأحيان من الشدة أنه إذا لم يدفع هذا المهر لم يعتبر الزواج شرعيا ولا الأولاد الناتجون منه شرعيين، ولا تكاد تفضل معاملة المرأة فى هذه الحالة معاملة المومس . ولقد كان هـذا هو الحال فى بلاد الإغريق والجرمان الى درجة عظيمة وفى انجلترا الى حد ما .

٤ — الزواج بالتراضى — خلف زواج التراضى زواج الشراء . وكان تراضى الوالدين دون سـواهما هو الضرورى ، وفى بعض الأحيان لم يكونوا يحصلون على رضا العروس نفسه . وهذا هو الجارى فى الصين حتى فى يومنا هذا ، إذ يعقد الوالدن القران عن طريق الخطاب المحترفين وعلى الطرفين اللذين سيقترنان أن يقبلا الأمر بلا اعتراض . ولكن رغبات الرجل فى أغلب البلاد ترعى وهو الذى يتولى الحصول عادة على رضـا والدى العروس . وفى بعض الأحيان يتولى الولدان إجراء مراسم الزواج وإن كان هذا فى الغالب إجابة لرغبة الرجل. ولم تكن رغبات المرأة فى أول الأمر جديرة بالرعاية. وان كان محتملا أنها كانت تتخذ محاسنها وسيلة لاجتذاب انتباه الرجل الذى تؤثره وتحظى بحبه إياها . ورضى الوالدين اليوم معدود من الضرورات فى كثير من البلاد الراقية فى المدنية ولا سيما بين الطبقات العليا فيها على أن المسيحية قد تمسكت بأن المهم فى الأمر هو رضى الطرفين المتعـاقدين . وقد أصبح هذا الأمر هو كل ما يعد ضروريا فى الموضوع من الوجهة الشرعية فى الأمم الكبرى فى العصر الحاضر .

ثلاثة أطوار متميزة للأسرة

لقد مرت الأسرة فى ثلاثة أطوار متميز بعضها عن البعض فى سبيل تقدمها :

أولا — الطور الناقص كما يشاهد فى الأسرة الطبيعية فى أثناء عهد القبيل وعهد زعامة المرأة .

ثانيا — بلوغ الأسرة الطبيعية درجة الكمال فى عهد زعامة الأب يوم أصبح الزوج رأس الأسرة ، ولكن بعد ما أخضع الزوجة وأصبحت أمة فى بيت زوجها .

ثالثا — العهد الذى أصبح فيه الزوج والزوجة على مستوى شرعى وأدبى واحد، وصارت روابط الزوجية ملزمة للزوج إلزامها للزوجة .

نعم إننا لم نبلغ بعد هذا الطور بلوغا تاما ، بيد أننا سائرون فى سبيله بخطوات سريعة . ولقد كان السبب فى قيام هذه الحالة الى درجة عظيمة هو المسيحية و إن كانت هناك فى بعض الأقطار قوى أخرى تعمل من قديم فى هذا السبيل .

تأثير المسيحية

عملت المسيحية على رفع مقام المرأة وترقية مستوى الأسرة أكثر من أى عامل آخر . نقول هذا ولو أن فى الناس من ينكر عليها ذلك . فأول ما فعلت أنها قضت على تعدد الزوجات والأزواج . فقد كان مقام المرأة قبل ظهور المسيحية منحطا حتى فى الأمتين الراقيتين — الإغريق والرومان — فرفعتها المسيحية من حضيض كانت فيه أمة الى مستوى أصبحت فيه شريكة للرجل . نقول هذا و إن كان دو نالدسن (Donaldson) لا يقر هذا الرأى بما أورده فى كتابه « المرأة : مقامها فى اغريقيا وروما القديمتين » (Woman : Her Position in Ancient Greece and Rome) ولقد نادت المسيحية بمستوى واحد للفضيلة وعلمت الناس أن مسئولية الرجل الأدبية هى عين مسئولية المرأة . نعم إن الكنائس لم تتمكن تمام التمكن من هداية الدنيا الى هذا الرأى ولكن نتائج تعاليمها فى هذا الصدد عظيمة

استقرار الزواج

إن متانة الرابطة الزوجية هى مقياس آخر نستطيع أن نفحص به حال الأسرة . فقد كان الطلاق بين المتوحشين أمرا ميسورا عادة ، ولا سيما للرجل ، لأسباب واهية . وفى بعض الأقطار كاد يكون مستحيلا على المرأة أن تطلق زوجها إذ لم تكن لها حقوق شرعية . وكان هذا عاما فى البلاد التى كانت عادة شراء الزوجة سائدة فيها . ولكن الرجل كان فى مقدوره أن يسرح المرأة كلما تراءى له ذلك لأتفه الدواعى ، بل وبدون أن تكون هناك

دواع ألبتة كأن يكون قد سمّ عشرتها . على أن ذلك فى بعض الأحيان لم يكن مسموحا به إذا كان للزوجين أطفال . على أن هنـاك بعض قبائل متوحشة مثل البابيواس (Papuas) من أهل غينا الجديدة والفدّا (Veddas) من أهل سيلان والمـاسر (Massers) من أهل باتو(*) قد ذهبوا الى الغاية القصوى وأصبحت روابط الزوجية فيهم مستحيلة الحل بتاتا .

ولم يكن هناك عادة طلاق رسمى بين المتوحشين، بل كان مدار الأمر أن الزوجة إما أن تترك الزوج أو أن يحملها على ذلك . أما بين الشعوب التى لها قسط أوفر من المدنية فاننا نجد أن الطلاق لا يسمح به إلا لأسباب معينة : أهمها الزنا وخيانة عهد الزوجية والعقم والقسوة فى المعاملة. ولا بد فى هذه الحالة عادة من اتباع نوع ما من الرسميات، وهى عادةً الحصول على رضا القبيلة أو ترخيص الزعيم أو الحاكم . بيد أن حصول الزوج على الطلاق المنشود أسهل بكثير من حصول الزوجة عليه . وفى أغلب الأحيان يسمح لكل منهما أن يتزوج بعد ذلك ولو أن هذا الأمر كان أشق على المرأة منه على الرجل . وبين الهندوس والصينيين حتى فى يوما هذا يكاد يكون من المستحيل على المرأة أن تحصل على الطلاق. والقاعدة المرعية أنه إذا طلقت المرأة أو هجرت زوجها كان عليهـا أن ترجع الى أهلها وأن من واجبهم أن يقبلوها وفى الصين فى الوقت الحاضر لا يمكن تطليق المرأة ما لم تكن أسرتها مستعدة لقبولها . والطلاق هناك حالة نادرة بسبب فقر النـاس وكراهتهم للمرأة ما لم يكن محققا إيجـاد زوج جديد لها على عجل .

والطلاق مباح بين المسلمين . أما المسيحية فقـد ناهضته بكل قواها ، فالكاثوليك يحرمونه ويصفونه بأنه " تمهيد لتعدد الزوجات " والبروتستانت يبيحونه لأسـباب معينة . واليوم نرى الطلاق متزايدا فى الأقطار المسيحية ولا سيـما فى الولايات المتحدة وسبب ذلك فى الغالب تغير فى وجهة نظر البروتستانت حياله .

مقام المرأة فى مختلف الديانات

١ — البرهمية — تجيز الشريعة البرهمية فى الهنـد أن تتزوج المرأة وهى فتاة لم تعـد دور طفولتها . وكثيرا ما يتفاوضون فى شأنها وهى فى المهد . وهى فى العادة تتزوج من رجل أكبر منها بكثير . وكثيرا ما يكون من كبر السن بحيث يعادل أباها والزوجة من الوجهة النظرية، بل وفى كثير من الأحيان من الوجهة العملية خادم أو بالأحرى أمة لزوجها لا يسمح لهـا أن تأكل معه على مائدة أو تطبخ طعامها على النار التى تطبخ عليها طعام زوجها . وهم يستبقونها على مستوى عقلى منحط ؛ فيندر أن يسمح لها بتعلم القراءة والكتابة . زوجها إلهها وكل ما تؤمله فى حياتها أن توفق الى القيام بخدمته . وكان من عادتهم إحراق الزوجة حية لدى

(*) بعض جزر الهند الشرقية (المعرب) .

موت زوجها . ولما أبطلت الحكومة الانجليزية هذه العادة — ويسمونها «سوتى» أصبحت الأرامل محتقرات معزولات محرما عليهن أن يتزوجن . ومنذ بضع سنين كان فى الهند ٢٣ مليونا من هؤلاء الارامل كان كثير منهن لايزلن فى طفولتهن أى فى الثامنة والعاشرة والثانية عشرة من العمر ، أى أصغر من أن يعرفن معنى للزواج . وقد حاولت الحكومة الانجليزية أن تخفف من سوء حظهن فنجحت فى ذلك نوعا ما. وهم يحتفظون بالنساء حتى فى الهيا كل نفسها لأغراض غير شريفة . وكان قتل البنات فى الماضى عادة شائعة جدا وعلى الرغم من تحريم الحكومة لها فانها لا تزال تقترف سرا . والواقع أن فى الهند اليوم نقصا فى عدد الإناث عن الذكور قدره خمسة ملايين . على أن فيما يعانيه النساء من الشقاء وفى فقر تلك البلاد ما يعلل جزئيا من هذا النقص فى عدد النساء .

٢ — البوذية — تتمتع المرأة فى البوذية بمقام أرقى بكثير منه فى البرهمية لأنها وإن كانت معدودة أحط من الرجل فانها تعامل معاملة حسنة ولا سيما فى سيام . هناك يتزوج الغلام عادة وهو فى الرابعة عشرة من العمر والبنت فى الثانية عشرة ؛ واذا لم تتزوج البنت وهى فى الثالثة عشرة بيعت للاسترقاق . والمرأة مستقلة الى حد بعيد وإن كان تعدد الزوجات والطلاق فى بلادها مباحا . وحالة المرأة فى اليابان أحط فى الجملة منها فى سيام، فهى معدودة دون الرجل وواجبها أن تخدم زوجها . وكثيرا ما يتجلى هذا الانحطاط فى عادات القوم ومثلهم العليا. والفسق شائع جدا. والتسرى من العوامل القوية فى تفكيك روابط المعيشة. ومن السهل أن يطلق الرجل زوجته، وهى أيضا تستطيع أن تحصل على الطلاق. ولكن حضانة الأولاد فى هذه الحالة تكون للزوج . وقد عملت المسيحية شيئا كثيرا فى سبيل رفع مقام المرأة فى اليابان فقل الفسق الى حد ما وحرم قتل الأطفال .

٣ — الكونفوشيوسية — حالة المرأة فى الصين فى الكونفوشوسية حالة سيئة جدا . فالفتاة ليست الا أمة؛ وتتزوج وهى صغيرة جدا أو تباع اذا رغب أحد فى شرائها . وهى لا ترى زوجها مطلقا الى يوم حفلة العرس . فتنتقل لتعيش فى أسرة الزوج حيث تكون أمة . ولا تعطى فرصة بتاتا لإنشاء بيت جديد خاص بها . ويحل للرجل طلاقها على شريطة أن يرضى أهلها رجوعها اليهم. ولكن القانون لايعترف لها بمثل ذلك الحق . والفتاة فى شبابها أمة لأبويها وبعد الزواج أمة لحماتها وفى الكبر لأولادها. ونظرا الى حالة الفقر الشائعة يكثر قتل الفتيات. وانتحار النساء أمر شائع وإن كان ارتفاع ثمن السموم المستخرجة من الأفيون وندرة الأفيون الأخضر قد جعل متعة الانتحار هذه تكاد تكون محرمة على الفقير. والمرأة الصينية خادمة ممتهنة دائمة الحمل والوضع ولا ينقطع لها شغل وليس لها أمل ترجوه فى الحياة .

٤ — اليهودية والمسيحية — أول شعب سمح للزواج أن يكون مبنيا على مجرد الاختيار الشخصى هم اليهود وإن كان اليهود الأقدمون قد جروا فى نظام الأسرة على زعامة الأب

وقد نمت عندهم حقوق المرأة وسارت بخطى أوسع من خطاها لدى غيرهم من الشعوب. وقدجاءت المسيحية فضاعفت هذا الترقى معلنةمساواة المرأة بالرجل فى الحقوق(*) فانك لتجد فى الشعوب المسيحية الاحترام والمحبة والمساواة بين الرجل وزوجته وتحريم تعدد الزوجات والتسرى ومناهضة الفسوق والدنس وتقوية رابطة الزواج. وفوق هذا جميعه نمو شخصية المرأة. وهذه بعض العوامل التى جعلت الأمم المسيحية هى الأمم الرئيسية اليوم فى العالم (*) .

الخلاصة :

الشائع فى غالب الأقطار الشرقية اليوم هو نوع الأسرة البطريركية، اذ أنها مؤسسة على وضع كان سائدا منذ قرون عدة . وفى أغريقيا كان النساء محجبات وكانت الزوجة غير متعلمة وهى وإن عوملت معاملة حسنة من الوجهة الحسية، لم تكن تعد رفيقة للرجل بل قهرمانة منزله ومربية أولاده . على إنها ألقت جانبا كبيرا من هذا العمل على عاتق العبيد . وعليه فقد كان مقام المرأة من الزراية بدرجة عظيمة وإن لم يكن من الرداءة بدرجة ما كان عليه الحال بين أمم آسيا . وفى روما فى عهدها الأول كان للمرأة مقام محترم بالرغم مما كانت فيه من شقاء . أمافى الامبراطورية الثانية فقد تحررت المرأة الى حد كبير من قيود العادات البطريركية، ولكن روابط الأسرة أصبحت مفككة الحال جدا وصارت الأسرة غير مستقرة وزاد الفسوق حتى بلغ فى أواخر عهد الامبراطورية درجات مروعة، وكان هذا فى معظمه مسببا عن تهدم كيان الدين القديم وتدفق الثروة الى روما من جميع أجزاء الامبراطورية وتغير الأحوال السياسية . وقد ادى هذا الى انحطاط روما وتهدمها بدلا من ارتقائها وتقدمها .

وفى غضون القرون الوسطى نشأ نظام الإقطاع الذى كان الناس فى عهده يقضون أوقاتهم فى القتال والإغارة واحتساء الخمر تاركين جميع الأعمال للنساء يقمن بها. وتلا هذا العصر عهد الشهامة Chiualry الذى تغنى الناس به كثيرا وكتبوا عنه كثيرا . ولكن هذه الشهامة كانت مصطنعة نمت فى ظلال الفروسية . فقد كان الفارس الذى يحارب مستقلا فى الدفاع

(*) هذا كلام فيه شيء من المبالغة والتعميم الذى يكذبه المشاهد والمأثور والمعروف من تاريخ أممها الماضى والحاضر . وإذ تناول الكاتب الإسلام فلم يذكر إلا سيئة العرف بين الجهلة من أهله فى عصور جهالتهم وأخفى حسنة الشرع ، وما انطوى عليه الاسلام من تسوية المرأة بالرجل وتقرير استقلالها ، وزعم قوامة الرجل على الزوجة والأولاد 'قتالة' وهى أس النظام فى الدنيا ، فقد ضله الهوى وأساء . ولذلك ارتأى المراجعان ووافقتهما أن يهمل ماذكره المؤلف عن ازواج فى الاسلام .

على أنى دهش كيف يعمى كاتب اجتماعى عن الحقيقة التى تبدى للصلحين الاجتماعيين المخلصين النظر وهى أن ماقرره الاسلام لتنظيم العلاقة فى الدنيا بين الرجل والمرأة والزوج والزوجة ، هو عينه ما اهتدوا فى آخر الأمر الى القول به والمطالبة بتقريره ، قولا بأنه الحق والعدل . فقد نقضوا شرعة مسيحيتهم فى تحريم الطلاق وأباحوه كالاسلام لأنه ضرورى للرجل والمرأة فى أحوال فساد الزوجية . وأعلنوا استقلال المرأة بملكيتها كالاسلام وكانت لاتملك فى الزوجية ماملك قبلها فلا تتصرف . وأباحوا الزوجة أن تطلب التطليق فى أحوال الأذى الذى يقع عليها فى الزوجية . وهذا ماقرره الاسلام . فماذا فى الاسلام من العيب ! بل ماذا وراء هذا مما يطلب ! (المعرب) .

عن شرف امرأة كريمة المولد لايتردد فى أن ينتهك حرمات بنات الفقراء، بل الواقع أن بنات الفلاحين والموالى كن صيدا حلالا فى نظر الأشراف وملاك الأرض .

والمرأة اليوم فى أوروبا ذات مقام أقل من مقام الرجل درجات تختلف باختلاف الأقطار فهى حتى فى انجلترا ليست على مستوى واحد مع الرجل أمام القانون . فالطلاق صعب مثلا عليها منه على الرجل . وسيف قانون الزوجية المزدوج أشد وقعا عليها . وهى وإن كان لها حق التصويت فى قطر أو اثنين ذات مقام فى الجملة أحط من مقام المرأة فى الولايات المتحدة .

غير أن المرأة سائرة سيرا حثيثا للوصول الى حالة المساواة بالرجل . والوقت كفيل بتحقيق ذلك المبدأ وتقريره تقريرا كاملا . وأظهر ما نرى من تقدمها هو فى التربية وفى الأعمال وفى الحياة الاجتماعية وفى السياسة .

١ — التربية — لم تمض إلا سنوات قليلة منذ كان الناس يبحثون هل يجـدر بهم أن يعلموا بناتهم شيئا غير القراءة والكتابة . ثم ترقى البحث بعد ذلك فكان مداره هل يجدر أن يبعث بهن الى المدارس الثانوية . وفى بعض أجزاء بلادنا حتى فى يومنا هـذا لايكاد الناس يعترفون بقيمة مثل هذه التربية . والعهد غير بعيد منذ كان النـاس يتنافسون فيما يختص بتعليم النساء علوم الكليات . واليوم يتناولون نفس الموضوع فيما يختص بإعدادهن للحرف الفنيـة كالطب والقانون والهندسة . هذا ولم يدخل النساء كلياتنا إلا منذ أمد قريب . على أنهن لا يزلن حتى فى يومنا هذا محرومات من الدخول فى بعض جامعاتنا الكبيرة ولكنا فى الجملة نقر مبدأ مساواة المرأة بالرجل من حيث التعلم .

٢ — الأعمال — فى غضون السنين الخمس والعشرين أو الثلاثين الأخيرة دخلت المرأة ميدان الأعمال . وقد استطاعت أن تثبت إقدامها فى الوظائف التى تتطلب الدقة والعناية بالتفاصيل كالاختزال وإمساك الدفاتر وأعمال السكرتارية والصيرفة . بل كثيرا ما أثبتت إنها فى ذلك أقدر من الرجل وقد أدت قلة الرجال أثناء الحرب العظمى الى إقبال عظيم من جانب المرأة لا على الصناعات التى لا تتطلب مهارة وحدها ، بل كذلك على الاعمال الراقية التى تتطلب تخصصا . واليوم تحاول المرأة أن تتولى الوظائف الأرقى شأنا كأن تكون رئيسة ادارة أومفوضة فى شراء البضائع بالجملة أو فى الأعمال التنفيذية ، ولكنها تلاقى فى هذه الناحية صعوبة أكبر مما يلاقيه الرجل بسبب ما تتطلبه هذه المهمة من الكفاية العالية ولأن الرجل إنمـا يدخل ميدان الأعمال على أنهـا مرتزق حياته . أما المرأة فالغالب انها انما تدخله دخول الهواة قاصدة أن لا تظل به إلا سنوات قليلة حتى يجيء الزواج لها وسيلة للخلاص منه . وفضلا عن هذا فقد

أبدى الرجل كفاية تنفيذية ممتازة ودل على أنه أكثر استعدادا للادارة والإشراف. وقد أخذ النساء فى هذه الأيام يقمن بالأعمال لحسابهن الخاص ونجحن فى ذلك بعض النجاح ولكن يعوزهن الإقدام وسعة الإدراك اللذان لا بد منهما للنجاح الممتاز.

٣ — الحياة الاجتماعية — أصبح مقام المرأة فى الحياة الاجتماعية أقل تكلفا وأكثر اصطباغا بالصبغة العملية. فلم تعد المرأة توضع على منصة ثم تعبد لغير سبب سوى كونها امرأة بل انها توقر اليوم بقدر ما هى عليه من موجبات التقدير ولم تعد تعتذر اليوم لمجرد كونها من جنس النساء. بل يعدونها مسئولة عن تصرفاتها باعتبارها شخصا قادرا على التفكير فى الأمور والحكم عليها. وقصارى القول أصبحت المرأة تعبد أقل مما كانت وتحترم أكثر. وأخذ النوع القديم من الشهامة التى كان يستشعرها الرجل حيالها يندثر على عجل ويحل محله نوع جديد أرق منه. فالمرأة اليوم ترعى وتكرم أقل مما كان ولكنها تعطى اليوم فى الحياة فرصة أعظم مما كان لها لتنمية مواهبها الى أقصى ما تستطيع.

٤ — السياسة: سخر الناس من فكرة إعطاء المرأة حق الانتخاب النيابى وعبثا عارضوه. واليوم أصبح الباحثون المدققون فى هذا الموضوع يقرونه لا على أنه أمر لا محيص عنه فقط بل وعلى أنه النتيجة المنطقية الوحيدة. المرأة مكلفة باطاعة القانون فلماذا لا يعطى لها صوت فى تشريعه؟ واذا كانت صاحبة أملاك ومفروضا عليها لذلك أن تدفع عنها ضرائب فلماذا لا يعطى لها صوت تقول به ما ينبغى أن تكون عليه تلك الضرائب؟ وهى تزاول الصناعة مختطة طريق حياتها بيدها فى الدنيا مستهدفة فى ذلك لمخاطر الدنيا ومغرياتها وللأمراض ومساوئ الأحوال الصحية وإلى فساد الألبان وسوء أحوال المساكن وما إلى ذلك فهى مضطرة أن تعيش فى وسط هذه الأحوال، فلماذا لا تعطى لها الفرصة لحماية نفسها منها؟. نعم إن منح المرأة حق الانتخاب لن يأتى للعالم بالسعادة القصوى، ولكن لماذا نترقب منه ذلك؟ ما الأمر إصلاح يراد عمله بل هو إقرار المساواة فى الحقوق والمزايا بمنحها لكل من هو أهل لها. لقد انتهت الحرب التى شبت بسبب المطالبة بحق المرأة فى الانتخاب النيابى فى الولايات المتحدة بانتصار النساء فيها وكذلك فى بعض أقطار أوروبا. وأخذ المبدأ الذى قام عليه التسليم بهذا الحق يشيع رويدا رويدا فى جميع العالم.

اتضح الآن من تحليلنا أن الزواج يرتكز على التجاذب المتبادل بين الجنسين، وأنه لكى يكون موفقا يجب أن تكون الزوجة قادرة على ملاقاة الزوج على قدم المساواة وعلى مقاسمته مهامه. ومتى تيسر ذلك أصبحت السعادة أكثر تحققا. يومئذ وليس قبلئذ يكون تطور الأسرة قد بلغ درجة الكمال.

الفصل الحادى عشر

مشاكل الأسرة الحديثة

بالرغم من أن استرقاق الزوجة وكبحها فى المنزل قد بطل أمره وسلطة الاعدام التى كانت للرجل على امرأته قد صارت من أمور الماضى وتحديد الأزواج والزوجات قد قضت عليه غالبية البلاد المتحضرة ، فانه لاتزال هناك مشكلات تتصل بحياة الأسرة . وهى وان كانت تختلف عما كان موجودا منذ ألف سنة بل عما كان منذ خمسين سنة ، فانها مع ذلك لاتزال باقية . وهذه المعضلات تتغير على الدوام تبعا لما يقع فى نظامنا الاجتماعى من التغير . وسنعالج فى هذا الفصل بعضا من أهم المسائل الخاصة بالأسرة فى العصر الحاضر .

الانتحار الجنسى

شغل بالنا فى الأعوام الأخيرة ما هو حادث من النقصان المطرد فى حجم الأسر الأمريكية العريقة . ولقد دلت الاحصاءات التى تناولناها أثناء درسنا مسألة معدل المواليد فى فصل سابق ، على أن هذا النقصان حقيق لاشك فيه ، ولكن ما يروعنا بوجه خاص هو نقص حجم الأسر الأمريكية الأصلية التى استعمرت هذه البلاد والتى يعزى اليها الفضل الأكبر فيما بلغته هذه الأمة من النجاح مثل أنسال الحجاج (Pilgrims) والبيوريتان (Puritans) فى ماساشوسيت والكافاليرى (Cavaliers) فى فرجينيا . وتدل الأرقام فى جميع أنحاء بلادنا على مثل ذلك الاتجاه . فهناك نقصان فى كل مكان فى حجم الأسرة الحديثة ولا سيما بين الطبقات المتعلمة والمثقفة . وقد عالجنا فى الفصل الذى عقدناه على (زيادة عدد السكان) الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التى أدت الى الانحطاط فى معدل المواليد . فى الناس من ينظرون الى هذا النقصان نظرة فزع ، ولكن فيهم من يؤملون منه الخير اذ يرونه وسيلة لاطراد الرقى فى مستوى معيشتنا وزيادة الاعتناء بتربية ما قد يكون لنا من الأبناء ، ذلك لأننا نجد أنه كلما قل حجم الأسرة قل معدل الوفيات ، ولاسيما فى الأطفال اذ يموت من الأطفال عدد أقل لأنهم يلقون عناية أكبر وينالون طعاما أصح وكساء أوفر ورعاية طبية أوفى .

على أن أهم الاعتراضات على هذا الذى يبدو كأنه انتحار للجنس هو أن الناس الذين هم أقل حاجة من سواهم الى تقليل حجم الأسرة ، هم الذين يعمدون الى إحداث هذه القلة . أما الذين هم أقل منهم مقدرة على أن يعولوا أسرة كبيرة فهم الذين لايزال لهم أسرة كبيرة . اما بسبب جهلهم واما لقلة حيلتهم حيال الضرورة القاضية بتقليل عدد أولادهم . فاننا نرى عمالا

لاينالون إلا أجورا ضئيلة جدا ومع ذلك فلهم أسر مؤلفة من ستة أولاد أو ثمانية ، ونجد هؤلاء الأولاد ناقصى التغذية رقيق الثياب سيئ المسكن يدفعون فى سن مبكرة الى العمل فى المصانع ولا يعطون أبدا أية فرصة للنمو كما يجب . هذه الحالة تؤدى الى زيادة الجرائم والرذيلة وإلى تفاقم الفقر. أن أولئك الذين يجب عليهم أن يقللوا حجم أسرتهم يعملون على زيادته وأن من الناس من يقاوم فكرة تحديد حجم الأسرة نزولا على حكم الدين إذ يزعمون أنه فرض علينا العمل على زيادة تعمير الدنيا فلا ينبغى أن نقف فى سبيل تدبير الخالق . على أن هذه الآراء لم تعد سائدة اليوم كعهدها بالأمس لأن فى الدنيا اليوم دلائل على قرب ضيقها بالسكان ولأن الناس أخذوا يرون أن من الجائز أن الله تعالى انما أعطانا العلم بوسيلة تقليل عدد الأبناء لنعمل على ذلك . على أن صيحة " انتحار الجنس " هذه لم تعد تسترعى الأسماع فى يومنا هذا بقدر ما كانت تسترعيها فى السنوات الأخيرة الماضية ، وان كان فى الولايات من لايزال يعمل على منع الأطباء من أن يعلموا مرضاهم طريقة منع الحمل . ولا مشاحة فى أن القوانين التى من هذا القبيل رجعية تعوق تيار التقدم .

حقوق المرأة

نحن عائشون فى زمن تخصص ، فعلى كل شخص أن يكون قادرا على عمل واحد أيا كان وقد امتد أثر هذا التخصص الى المنزل وكان من دواعى تقويض الحياة المنزلية . فالزوج يتغيب عن بيته مدة كبيرة من الزمن والمرأة مضطرة أحيانا أن تشتغل فى الأعمال الخارجية ولهذا فان الأطفال يتركون وشأنهم . والحال فى بيوت الأغنياء لاتقل عن ذلك سوءا فأولادهم كثيرا مايتركون بين أيدى الخدم بينما الوالد مشغول ببناء أعماله ، والأم بالحفلات والزيارات . ولقد بلغ التمادى فى هذه الحالة الى درجة أن بعض الناس قد يذهب الى حد التنبؤ بانهيار بنيان الأسرة فى نهاية الأمر قائلين ان الأسرة أدت وظيفتها فى المدنية وستصبح فى القريب من عاديات الماضى . على أن هذا الرأى بطبيعة الحال مبالغ فيه جدا ولكنا لا نستطيع أن نرتد الى الطراز القديم للأسرة لأننا لانعيش فى مثل الظروف التى عاش فيها آباؤنا وأجدادنا .

وقد كانت البنات فى الماضى مكبوحات فى المنزل وكانت المرأة فى بعض أصقاع بلادنا عرضة لأن تفقد مكانتها فى المجتمع إذا هى جرؤت على السير وحدها فى الخلاء وهذا هو الحال اليوم الى درجة كبيرة فى الولايات الجنوبية . نعم ربما كانت الحاجة داعية فيما مضى الى مثل ذلك بسبب مايكون فى القطر الجديد من المخاطر وربما كانت الحاجة الى ذلك موجودة الى اليوم فى الجنوب ولكن بلادنا فى جملتها قد بلغت من الرقى فى المدنية درجة أصبح عندها مثل هذا القيد غير ضرورى مطلقا ولقد كان بيت المرأة فى الماضى هو مستقرها ولا زلنا

نسمع هذه النغمة يرددها العنصر الرجعي من مواطنينا ولكن التطورات الحديثة مثل إعطاء المرأة حق التصويت والحركات النسائية الحديثة (Feminism) آخذة على عمل فى إقناع العالم بأن للمرأة الحق فى أن يكون لها صوت كالرجل فى كل منحى من مناحى الحياة الاجتماعية ، وأن لها الحق أن تدخل فى ميدان الصناعات والأعمال وأن تحصل على عيشها بنفسها وتختط لنفسها طريق حياتها ويكون لها صوت معادل للرجل لافى ولاية أمر الأطفال وحدها بل كذلك فى كل الشئون التى تتصل بالمنزل . قد تكون هذه الحجج وجيهة لاغبار عليها بل الواقع أنها أصبحت مسلماً بها على وجه العموم ، ولكن هناك صعوبات فى تنفيذ المبدأ فقد نكون ميالين الى التسليم بأن للمرأة الحق فى أن تشم وتشرب الخمر وتدخن كما يفعل الرجل تماما ولكنا مع ذلك نشمئز اذا هى فعلت شيئا من ذلك لأننا لم نتعود أن نراه منها وعندما تطلب المرأة أن يكون لها حق مثل حق الرجل وأن تخرج لتناول العشاء فى بعض الليالى من غير رفيق يحميها أو أن تمشى فى الطريق وحدها فقد يترتب على هذا سوء فهم لغرضها وقد يصادفها من يتحرش بها بل ويعتدى عليها .

على أن هذه ليست إلا صعوبات ناشئة من الانتقال من حالة إلى حالة جديدة ، ونظرا إلى أن النساء اللائى يشتغلن فى الصناعات ربعهن الى ثلثهن متزوج فان مشاكل الأسرة قد أصبحت بهذا أشد تعقدا ، ولكن الأمور ستستقر على مضى الزمن ونعتاد دخول المرأة فى الصناعة واختيارها لحرفتها واصرارها على الاستمرار فى هذه الحرفة بعد الزواج ومطالبتها بدستور للفضيلة يسوى بينها و بين الرجل و إصرارها على أن يكون لها نصيب مساو للرجل فى وضع القوانين وتنفيذها . فاذا وصلنا إلى هذا الطور لم نعد نعتبر حقوق النساء من المشاكل ، بل سنعجب لماذا قضى الناس كل هذا الوقت لكى يفتوا بوجاهة تلك الحقوق . كذلك فيما مضى لم تستطع المرأة بعد الزواج أن تلحق بزوجها فى خطواته بل تقهقرت وراءه تدريجيا وهى على هذا الحال إلى حد ما فى يومنا هذا .

وقد كانت هذه الحالة عقبة فى سبيل أى حركة ترمى إلى إقامة المساواة بين الرجل والمرأة فالرجل يسعى فى مناكب الأرض و يحتك بغيره من الناس . وبهذه الطريقة ستبقى ذكاءه يقظا وافقه دائم الاتساع . أما المرأة فتبقى فى المنزل تقوم بدورة أعمالها المعتادة يوما بعد يوم ولاتقابل إلا نفس العدد القليل من الناس الذين اعتادت مقابلتهم . ولا ينتهى عملها فى الساعة الخامسة أو السادسة بعد ظهر اليوم بل يستمر بعد ذلك مدى طويلا . و بذلك حرمت من أن يكون لديها سعة فى الوقت تقضيه حتى فى قراءة الجرائد اليومية بل الخروج إلى المجتمعات ومقابلة أناس أخر . ومن ثم تقهقرت بالضرورة وتأخرت . وقد شوهد هذا حتى فى خريجات الكليات ، لأن حياة المنزل لايكون فيها فى كل وقت مايعينهن على متابعة الدرس .

على أن مشكلة حقوق النساء فى نظر المؤلف ليست إلا حالة مؤقتة — هى حالة انتقال وتبدل أكثر من أنها حالة مستقرة . وهى علامة من علامات التقدم ، كما أن وسائل التقدم العصرية أخذت تبعد المكاره عن العمل المنزلى ، فالمخترعات الحديثة كالمكنسة الماصة والمكواة الكهربائية والمواقد الغازية ومواقد الطبخ الكهربائية والنور الكهربائى وآلات الغسيل الكهربائية قد جعلت خدمة المنازل أقل صعوبة مما كانت . كما أن المخابز ومعامل الأطعمة المحفوظة فى العلب تقلل من أعمال الخبز والطبخ . وبهذه الوسيلة تيسر للمرأة وقت أكثر لتثقيف نفسها فأصبح فى مكنتها أن تخرج وتتصل بالعالم اتصالا متزايدا . ولئن كانت المرأة بفطرتها أشد من الرجل التزاما للعرف والمحافظة عليه فلا يسعنا إلا أن نرتقب بعينى الأمل طروء تطور مرض فى مكانة المرأة . ولكن الحرب قد عقدت هذه المشكلة بسبب فرط زيادة عنصر النساء فى الصناعات ، بيد أنها مع ذلك ربما كانت من عوامل الإسراع فى حلها إذ زادت فى احترامنا للمرأة وهيأت لها فرصا أكثر وأعظم .

الطلاق

عند ما نتناول موضوع الطلاق نلاقى مشكلة أشد صعوبة مما تناولناه حتى الآن وإن كانت أقل إزعاجا للنفس مما يتخيل كثير من الناس . ليست كل أحوال الطلاق سيئة ، بل كثيرا ما يكون الطلاق أمرا طيبا إذ يكون وسيلة لتخليص الإنسان من حالة أسوأ منه . لأنه إذا كان الزوجان لايستطيعان أن يعيشا معا عيشة سعادة وباتت الحياة لكل منهما عذابا ، فخير لهما أن يفترقا . وإذا كان لهما أطفال زادت الحالة خطورة ، إذ لابد من مراعاة مستقبل الأطفال أكثر من مراعاة مستقبل الوالدين . وإذا أجبر الزوجان على الاستمرار فى معيشة واحدة فربما زادت البلوى تعقدا بولادة أطفال أخر .

ليس الذى يستوجب الذعر وجود الطلاق ، بل المروع هو عظم زيادة حوادث الطلاق فى الولايات المتحدة . فإن عدد أحكام الطلاق فى هذه البلاد أكثر منه لدى جميع أمم العالم المتمدن مجتمعة . وقد وصلت الحالة إلى ذلك منذ سنة ١٨٨٥ كما يستدل من مطالعة الجدول الآتى الذى يتضمن إحصاء عدد أحكام الطلاق الصادرة فى تلك السنة .

الولايات المتحدة	٢٣٤٧٢	سويسرا...	٩٢٠
فرنسا	٦٢٤٥	دينمارك	٦٣٥
ألمانيا	٦١٦١	إيطاليا...	٥٥٦
روسيا	١٧٨٩	بريطانيا العظمى وأرلنده	٥٠٨
النمسا	١٧١٨	رومانيا	٥٤١

هولاندة	٣٣٩	استراليا	١٠٠
بلجيكا	٢٩٠	النرويج	٦٨
السويد	٢٢٩	كندا	١٢

واذا جمعت أرقام جميع الأمم الأخرى وجدت أن أحكام الطلاق فيها جميعا تبلغ ٢٠،١٣١ يقابلها عندنا (فى الولايات المتحدة ٢٣٤٧٢) على أن الأرقام الواردة فى احصاء يتلو السابق بعشرين سنة أى سنة ١٩٠٥ هى أشد إيضاحا لهذه الحقيقة كما يستدل مما يلى :

الولايات المتحدة	٦٧٩٧٦	إيطاليا (١٩٠٤)	٨٥٩
ألمانيا	١١١٤٧	بريطانيا العظمى وأرلنده	٨٢١
فرنسا	١٨٠٦٠	دينمارك	٥٤٩
النمسا والمجر	٥٧٨٥	السويد	٤٤٨
رومانيا	١٧١٨	النرويج	٤٠٨
سويسرة	١٢٠٦	استراليا	٣٣٩
بلجيكا	٩٠١	نيوزيلنده	١٢٦
هولاندة	٩٠٠	كندا	٣٣

ونرى من هذا أن الولايات المتحدة أربت على نسبتها السابقة ، فقد كان عدد أحكام الطلاق فى جميع أقطار العالم المتمدينة أقل من ٤٠،٠٠٠ حين كان عددها فى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٠٧ قرابة ٦٨٠٠٠ ، وكان أعلى معدّل للطلاق فى غير الولايات المتحدة فى سويسرا ، حيث كانت نسبة أحوال الطلاق الى الزواج كنسبة ١ الى ٢٢ ، وكانت النسبة بينهما فى فرنسا ١ الى ٣٠ وفى ألمانيا ١ الى ٤٠ وفى انجلترا ١ الى ٤٠٠

أما فى الولايات المتحدة فكانت ١ الى ١٢ وفى سنة ١٩١٦ زادت هذه النسبة فصارت ١ الى ٩ وقد بلغت النسبة فى بعض ولاياتها ولا سيما الغربية قدرا أكبر من ذلك بكثير فهى فى نيڤادا واحد إلى واحد ونصف . وفى أوريجون واحد إلى اثنين ونصف وفى ويومنج (Wyoming) واحد إلى ثلاثة وفى ولاية واشنجتون واحد إلى أربعة وفى إيداهو وأوكلاهوما ومونتانا وكاليفورنيا واحد الى خمسة أو أكثر قليلا وفى أنديانا ومسورى واريزونا وتكساس ونيوهمشير واحد الى ستة أو أكثر قليلا . وبعض مدننا تعطى نسبا تزيد حتى على هذه ، وقد

كان معدّل الطلاق فى الولايات الغربية فى سـنة ١٩٠٥ أعلى منه فى الولايات الشمالية أكثر من أربع مرات ويكاد يكون أربعة أمثال النسـبة فى الولايات الأطلسية الجنوبية وأكبر سبب فى هذا الفرق يرجع الى زيادة استقلال المرأة فى الولايات الغربية .

سرعة زيادة الطلاق فى الولايات المتحدة

وليس الباعث على القلق أن الولايات المتحدة تعد فى مقدمة العالم من حيث عدد أحكام الطلاق، بل السرعة الهائلة التى تزداد بها حوادث الطلاق فى هذه البلاد ففى سنة ١٨٦٧ وهى أول سنة إحصاؤها فى متناول أيدينا لم يصدر إلا ٩٩٣٧ حكم بالطلاق فى الولايات المتحدة، على حين أن العدد فى سنة ١٩٠٦ بلغ ٧٢,٠٧٢ وفى سنة ١٩١٦ بلغ ١١٢,٠٣٦ وفى العشرين من السنوات التى أولهـا ١٨٦٧ وآخرها ١٨٨٦ كان عدد أحكام الطلاق ٣٢٨,٧١٦ ولكن فى العشرين الثالثة أى من ١٨٨٧ إلى ١٩٠٦ بلغ عدد هذه الأحكام ٩٤٥,٦٢٥ ، ففى الفترة الأولى (١٨٦٧ إلى ١٨٨٦) زاد عدد أحكام الطلاق ١٥٧ فى المـائة، على حين أن زيادة عدد السكان لم تكن إلا ٦٠ فى المـائة وفى الفترة الثانية (١٨٨٦ إلى ١٩٠٦) زاد عدد أحكام الطلاق ١٦٠ فى المـائة ، على حين أن عدد السكان لم يزد على ٥٠ فى المـائة إلا بمقدار طفيف ، وبعبارة أخرى زادت نسبة الطلاق ثلاثة أضعاف نسبة زيادة عدد السكان عندنا ويرى الأستاذ ويلكوكس (Prof. Wilcox) أنه إذا اطردت نسبة الزيادة الحالية على ماهى عليه فلا تأتى سنة ١٩٥٠ إلا وتنتهى ربع زوجياتنا بالطلاق ولا تحل سنة ١٩٩٠ إلا وينتهى النصف بالطلاق . وعندئذ تصبح هذه الحالة شرا على المدنية إذ لا بد أن تدعو إلى إهمال الأولاد وتهدم كيان البيت وإلى شيوع الرذيلة وإلى عدم الاكتراث البتة بالروابط الزوجية .

نعم أن هذه الزيادة التى رتبها الأستاذ ويلكوكس جائزة منطقا ولكنها ليست بحال ما محتملة الحدوث ، فأننا اليوم فى طور انتقال ولا عجب أن يكون معدل الطلاق بطبيعة الحال عاليا وتدل بجميع وجوه الاحتمال على أن الأمر لا يلبث إلا سنوات قليلة حتى نصل إلى نهاية هذه الزيادة وأن كنا لم نبلغ حدودها بعد . وبعد أن نستقر على حالنا الجديد ونصل إلى الوقت الذى يكون للمرأة فيه رأى فى اختيار الزوج وإدارة المنزل مثل ما للرجل فربما جازلنا أن نرتقب نقصانا فى تعداد الطلاق إذ من الطبيعى أن يعقد الزواج يومئذ بحرص أكبر فيتمر سعـادة زوجيه أعظم .

وإذا كان الناس سعداء حقا لم يحتاجوا حتى إلى روابط الزوجية لتربطهم، بل يستمرون على العيش معا ولو لم يكن بينهم أية رابطة .

من الذين يطلقون ؟

(١) من الطبيعى أن نعتقد أن أحكام الطلاق تمنع فى المدن بنسبه أعظم بكثير منها فى الريف نظرا إلى مايتناب حياة الأسرة الحضرية من المرهقات. على أن هذا لا يصدق على بعض المدن التى بها عدد كبير من المهاجرين الذين لم يقتبسوا بعد عاداتنا والذين هم فى الغالب من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . فما يزيد احتمال وقوع المنازعات فى الأسر ضيق المساكن والجهد العصبى والهموم المالية وكثرة وجوه انفاق المال والميل إلى التماس الملاهى خارج حظيرة الأسرة والافراط فى السهر خارج البيت والاقتراق فى أكثر ساعات النهار واستئجار المساكن بدلا من امتلاكها ولاسيما استئجار الحجرات المفروشة وشراء الطعام والحلوى من المطاعم بدلا من صنعها فى البيوت . هذه وغيرها من أحوال المدنية تجعل الطلاق بطبيعة الحال أشيع فى المدن منه فى الريف .

(٢) تدل الاحصاءات على أن الطلاق تكاد تكون نسبته فى البيوت التى ليس بها أطفال مثلى نسبته فى الأسر التى بها أطفال إذ الأطفال يعطون الأبوين من أنفسهم شيئا يجتمعان عليه ، شيئا يحبانه . شخصا يعملان من أجله فهم لهذا يشغلون ذهن الوالدين عن نفسيهما ويعملون على نمو عاطفة الإيثار . والواقع أن حيازة الأولاد تنمى أفضل الصفات النفسية فالوالدان يحتملان أصعب الأمور — حتى الشقاوة نفسها — فى سبيل أولادهما ؛ إذ أنهما يكرهان أن يفسدا مستقبلهم . كما أن عدم الأولاد (وإن قل من يعترف بهذه الحقيقة) قد يكون علامة على سوء سلوك سابق وعلى سبق الانغماس فى الرذيلة مما يجعل الزوجين غير قادرين على انتاج الأطفال . وهذا كاف لجلب الشقاء الزوجى . وإذا وجدت الزوجة أنها لا تستطيع أن تلد أطفالا بسبب أن زوجها قد أسرف على نفسه فيما مضى زالت محبته من قلبها بطبيعة الحال . فى الماضى كانوا يلقون تبعة العقم على المرأة أما اليوم فهى قادرة على إظهار السبب الحقيقى فيه والمتزوجون الذين تبلغ بهم الأثرة أن يحجموا عن انتاج الأولاد هم الأزواج الذين تبلغ بهم أثرتهم أن يرغبوا عن أن يعيشوا معا حياة سعيدة . فما الحالة إذن إلا نتيجة طبيعية منطقية لظروف المعيشة فى الوقت الحاضر .

٣ — وللدين دور مهم فى الطلاق . فأحوال الطلاق بطبيعة الحال أقل عددا بين أتباع الكنيسة الرومانية لأن عقيدتها تحرم الطلاق. أما البروتستانت فاعتراضهم عليه قليل. بل يكاد ألا يكون لديهم أى تشريع كنسى لتحريمه . ولذلك نراهم على رأس قائمة المطلقين . واليهود يتلون البروتستانت فى ذلك . ومن الطبيعى أن يكون التطليق فى الجهات التى للدين هيمنة عليها أقل نسبة منه فى سواها . على أن أثر الدين فى هذه المسألة أقل شأنا اليوم منه فيما مضى.

٤ — والطلاق أكثر شيوعا بين الوطنيين البيض منه بين البيض المولودين فى الخارج وذلك لعظم نسبة الكاثوليكيين الرومانيين فى المهاجرين لأن المهاجرين حديثا لم يقتبسوا بعد عاداتنا ولم ينطبعوا بأفكارنا والمرأة من المهاجرات تحتمل أشياء لا تخطر ببال المرأة الأمريكية الوطنية أن تحملها .

٥ — وفى الأربعين الماضية من السنين كان ثلثا أحكام الطلاق انما صدرت فى قضايا رفعتها الزوجات . أما فى السابق فقد كان الزوج هو الذى يرفع دعوى الطلاق . وليس معنى ذلك أن ثلثى الخطأ الذى أدى الى الطلاق كان مصدره الزوج فانه اذا اتفق زوجان على الطلاق فالعادة أن تتولى الزوجة رفع دعواه بسبب زيادة احتمال حصوله على يدها . وفضلا عن هذا فان القوانين العصرية فى الولايات المتحدة تشايع الزوجة أكثر مما تشايع الرجل فتسمح لها بالطلاق بسبب استعمال القسوة و بسبب الادمان والزنا والهجر وحبس النفقة وما الى ذلك ولذلك يشق على الرجل أن يحصل على الطلاق اذا هو طلبه . كما أنه مما يشين المرأة أكثر أن يكون الزوج هو طالب الطلاق والمحاكم أرحم بالمرأة منها بالرجل لأنه لما كان الرجل هو الأقوى كان فى استطاعته أن يكون قاسيا على المرأة اذا أراد . أما المرأة فلا يسهل عليها أن تكون قاسية على الرجل . كما أن هجران المنزل أسهل على الرجل منه على المرأة . كذلك وسائل الاغراء على الزنا والادمان أوفر بالنسبة للرجل منها بالنسبة للمرأة . فلا عجب أن يكون الرجل هو المدين فى غالب قضايا الطلاق . واذا كانت عيشة المنزل قاسية كان وقع شقائها على المرأة أشد منه على الرجل اذ هى مضطرة أن تظل فيه ، أما الزوج فله أن يغيب عنه جانبا كبيرا من الزمن .

٦ — وفى الولايات المتحدة ثلاثة مراكز هامة للطلاق : الولايات الغربيـة ومنطقة ولايات الجبال الصخرية (Rocky Mountains) والولايات الشمالية الوسطى ثم ولايات انكلترة الجديدة .

والسبب فى تفوق هـذه البقاع على غيرها فى أحـوال الطلاق هو التفوق فى نمو الروح الاستقلالية وفى حقوق النساء فى تلك الأصقاع و كذا عظم استقلال المـرأة الاقتصادى فى تلك الجهات . على أن فى السنوات القليلة الماضية قد حدثت زيادة عظيمة فى حوادث الطلاق فى الولايات الجنوبية والمنتظر أن تزيد .

٧ — ومن حيث الحرفة : نجد أن معدل الطلاق بين المزارعين دون الحد المعتاد . أما الطلاق بين الممثلين والوسطاء التجاريين الجوالين ورجال معارض الألعاب وأصحاب الحانات والموسيقيين والأطباء وعمال التليفون والتلغرافات فهو فوق المتوسط بمدى كبير .

فالحرف التي تسبب للأسر زيادة فى أعبائها ومتاعبها عرضة لازدياد معدل الطلاق فيها . كما أن تلك الحرف التي تجتذب ذوى المزاج الوجدانى من الناس كالممثلين والموسيقيين من شأنها بطبيعة الحال أن تجعل معدل الطلاق بين أهلها كبيرا .

المبررات القانونية للطلاق

لا بد أن يتنبه القارئ الى أن هناك فرقا بين مبررات الطلاق وأسباب الطلاق فمقصودنا بكلمة المبررات الحيثيات القانونيـة ما يمكن به الحصول على الطلاق وليس من الضرورى ان تكون هذه الحيثيات هى الأسباب الداعية اليه فى الواقع فان الأسباب الحقيقية قد لا يباح بها مطلقا فى المحكمة بل الغالب أنها لا تذكر .

أما هذه المبررات المرعية فى قوانين الولايات المختلفة فعـدتها ستة وثلاثون ويتفاوت عددها فى مختلف الولايات من واحد (وهو الزنا) كما فى نيويورك إلى أربعة كما فى نيوهامشير واذا كان بين الولايات من يبيح الطلاق لمبررات تافهة مثل عدم توافق الطباع فان خمسا وتسعين فى المـائة من أحكام الطلاق انما تمنح لأسباب خطيرة الشأن مثل الزنا والقسوة والسجن فى الجرائم وادمان السكر وحبس النفقة . وفى الاحصاء الآتى بيـان أدل على أهمية المبررات القانونية المختلفة وهذا الاحصاء هو عن سنة ١٩١٦

مبررات الطلاق	فى المائة	فى المائة للرجال	فى المائة للنساء
الهجر	٣٦٫٨	٥٠٫	٣٠٫٨
القسوة	٢٨٫٣	١٧٫٤	٣٣٫٢
خيانة العهد الزوجى	١١٫٥	٢٠٫٣	٧٫٥
ادمان السكر	٣٫٤	٠٫٨	٤٫٥
حبس النفقة	٤٫٧	...	٦٫٩
بعض المبررات السابقة مجتمعة	٨٫٦	٤٫٣	١٠٫٥
ما عدا ذلك من المبررات	٦٫٨	٧٫٢	٦٫٥

من هذه البيانات يسهل على الانسان أن يرى أن العيب ليس ناشئاً من تساهل فى القانون بقدر ما هو ناشئ من انحلال حياة الأسرة . وفى حين ان ادمان المسكر مذكور اليوم فى قليل من الحوادث فقد كان فى السابق من الأسباب المساعدة فى ثلث أحكام الطلاق الممنوحة الى الزوجة بسبب القسوة . وفى خمس أحوال حبس النفقة وكسبب غير مباشر فى ١٨٫٣٪ من أحكام الطلاق الممنوحة للزوجة.والسبب فى أن الرجل يدلى بخيانة العهد الزوجى فى قضايا الطلاق أكثر من أدلاء الزوجة به راجع الى أن ما لنا من مستويين أخلاقيين يجعل الحصول على أدلة الاثبات ضد الرجل أصعب من الحصول عليها ضد المرأة . ومن جهة أخرى تضاعفت أحكام الطلاق الممنوحة بسبب القسوة وحبس النفقة . وازدياد الطلاق لا يستلزم أن حياة الأسرة اليوم أقل سعادة أو أقل توفقا مما كانت فى أى وقت مضى بل أنها على الأحرى تفيد زيادة التطلع الى قسط أوفر ولا سيا من جانب الزوجة فالسلوك الذى كان يغضى عنه فيا مضى أصبح الآن مبررا كافيا للطلاق .

فالمرأة لاتكتفى بمطالبة الزوج بالعفة والاعتدال فى معاملتها بل تطالب أيضا لنفسها بنصيب الشريك فى الأسرة . والزوج كذلك يطالب الزوجة بالتضحية والولاء . فبينما كان الرجل والزوجة فى الماضى يقنعان من الحياة الزوجية بالعيش معا اصبحا اليوم يتطلبان العيش معا فى جو السعادة . وقد أدى ازدياد التربية والتعليم بصفة عامة إلى جعل هذا المطلب أكثر أهمية . فنحن اليوم نعيش فى مستوى خلق أرقى مما كان عليه الحال فى الماضى وليس ازدياد أحوال الطلاق إلا دليلا على ذلك .

أسباب زيادة الطلاق

يتساءل الانسان لماذا كانت نسبة الطلاق فى الولايات المتحدة بهذه الدرجة العاليه ؟ وما هذا العامل الذى انطوت عليه مدنيتنا ففك عرى أسرنا ؟ ولا مشاحة فى أن الأسباب الآتية هى بعض ما هنالك :

١ — ان الرغبة فى الحصول لا على ضرورات المعيشة وحدها بل وعلى الكماليات أيضا من شأنها أن تؤدى إلى المشاحنة فهى من الدواعى الباعثة على تحديد حجم الأسرات ومن ثم تصبح سببا فى نقص سعادتها . والنساء اليوم لايرضين فى حياتهن أن تتوفر أسباب الراحة بل أنهن ليتطلبن أسباب الترف والرفاهية فيها .

فاذا تعذر ذلك خابت آمالهن وكثيرا ما انتهى بهن ذلك إلى محاكم الطلاق . كما أن ارتقاء مستوى الأخلاق والحياة المنزلية بوجه عام قد يؤدى أيضا إلى شىء كثير من التبرم بالحياة .

٢ — زيادة نفقات المعيشة . ان زيادة العبء المالى متصل اتصالا وثيقا بمستوى المعيشة العالى الذى تتطلبه الحياة اليوم . ولا شك أن القلق بسبب الأمور المالية مدعاة إلى تكدير صفو الأسرة . وإذ أن الأجور أبطأ فى ارتفاعها من أسعار الحاجات كثر أن تزداد نفقات العيش مع بقاء الدخل على ما هو عليه . وتزداد الصعوبة خطورة إذا لم يشرك الرجل زوجته فى العلم بحالته المالية فتصبح الزوجة جاهلة مصدر هذه الضائقة المالية ولا يمكنها والحالة هذه أن تقدر هم الزوج . وقد يحدث أحيانا كثيرة أن تكون الزوجة جاهلة حقيقة قيم الأشياء فتكون مسرفة تبعا لذلك وغير جديرة أن يشركها الرجل فى أمره حتى ولو شاء ذلك . والمشاهد أن البنات لا يدربن التدريب الكافى على ادراك القيم الحقيقية للمال لأنهن لما كن غير مكلفات باكتسابه كن لا يعرفن كيف ينفقنه . وكانت الزوجة فيما مضى تترك الأمور المالية للزوج أما اليوم فهى تطالب بقسط مساو من الحق فى تدبير الشؤون المالية ولكنها فى كثير من الأحيان لاتكون قادرة على القيام على المال بالحكمة الواجبة . وهذا يؤدى الى المشاحنة بين الزوجين ويعد سببا من أسباب زيادة عدد أحكام الطلاق المبنية على العجز عن النفقة وعلى الهجر .

٣ — نمو الروح الصناعية العصرية

قد مكن النظام الصناعى الحديث النساء من الحصول على وظائف وصيرورتهن بهذا مستقلات . وقد كانت هذه الحالة مدعاة إلى تقويض دعائم البيت . فانه إذا دخلت الزوجة ميدان العمل تصدّع بنيان الأسرة وقل الاهتمام بشؤون المعيشة فيها . ذلك بأن الزوجة لا يكون أمامها متسع من الوقت لإعداد الطعام أو تنظيم المنزل ولذلك يفقد البيت ماله من جاذبية . وفضلا عن هذا فان الفتيات بدخولهن ميدان العمل الخارجى يهملن تعلم الفنون المنزلية ولذلك فانهن عندما يتزوجن يكن جاهلات بالطهى والخياطة والعناية بالأطفال وبادارة المنزل . ومن ثم يصبح المنزل مكانا غير محبوب ، والحياة الزوجية تبعا لذلك غير موفقة .

٤ — نمو الروح الاستقلالية فى المرأة

ان ازدياد استقلال المرأة الذى سبق لنا تناوله على أنه معضلة من معضلات الأسرة قد عمل على زيادة الغيرة فى الأسرة ، ولا سيما إذا كانت الزوجة هى أيضا ذات دخل وكانت مستقلة عن الزوج استقلالا اقتصاديا . ومن العوامل المؤثرة فى هذا الموضوع . الحركات النسائية والمطالبة بحق النساء فى الانتخاب وهذه دلائل على تغير لم تعد أنفسنا بعد اعدادا يتناسب معه .

٥ — سرعة نمو المدن

ان حركة نزوح السكان إلى المدن كما ذكرنا كانت من الأسباب الداعية بلا شك إلى زيادة أحوال الطلاق لأنها زادت تكاثف السكان وضاعفت عوامل الإقلاق وعملت على تصديع أركان المعيشة المنزلية .

٦ — الزواج المتأخر

تأخير الزواج يجعل السعادة الزوجية أقل تيسرا إذ لا يقتصر هذا التأخير على تمكين المرأة من أن تصير قادرة على إعالة نفسها فستقلة استقلالا اقتصاديا تبعا لذلك بل أن أولئك اللائى يتزوجن فى سن متأخرة فى الحياة يجدن أن من الصعب عليهن أن يلائمن بين أنفسهن وبين ما استجد عليهن من العلاقات . والواقع أن الذين يتجاوزون الثلاثين من العمر ترسخ عاداتهم فمن الصعب عليهم جد الصعوبة أن يغيروا من آرائهم وطرق حياتهم . ذلك لأنهم يصبحون وقد اعتادوا أن يحصلوا على الحاجات على وجه خاص ويرون أن سعادتهم تتوقف على نيلهم إياها كذلك . ولو أنهم تزوجوا قبل أن تثبت فيهم الطباع لكان أسهل على الرجل والمرأة أن يلائم كل منهما بينه و بين صاحبه . على أنه يخيل الينا أن سوء هذه الحالة سيزداد باطراد، لأن الوقت الذى يلزم لإعداد النفس لحرفة فنية لايفتأ يزداد ، فالطالب بعد أن يقضى أربع سنوات فى مدرسة ثانوية يحتاج إلى قضاء أربع مثلها فى الكلية ثم إلى ثلاث سنوات او أربع فى المدرسة الفنية الخاصة ، بل حتى إذا جمع بين هاتين المرحلتين بالتحاقه بالجامعة ذات النظام الحديث احتاج الأمر إلى ست سنوات لدراسة القانون وسبع أو ثمان لدراسة الطب. ولايقف الأمر عند ذلك إذيحتاج الأمر بعد ذلك إلى ثلاث أخرى لاستقرار الإنسان فى عمله . وفى الطب يحتاج الخريج عادة إلى سنة أو اثنتين للتمرن فى المستشفيات ثم إلى سنة أخرى أو اثنين لافتتاح عيادة ، فمجموع هذه السنوات يوصل الرجل الفنى المحترف إلى الثلاثين تقريبا قبل أن يقدر على التفكير فى أن يتزوج وهو أمر يقلل فرص السعادة . وليس لدينا اليوم علاج لهذه الحالة ، ولكن ربما استطاع المستقبل أن يهيئ لنا خطة عملية يستطيع بها الرجل والمرأة ان يتزوجا ومع ذلك يواصل كل منهما خطته فى الاستعداد للحياة .

٧ — ضعف السلطان الدينى

إن الدين فى اعتقاد المؤلف غير آخذ فى التدهور بل إنه على العكس يزداد نقاء ونبلا ولكن سلطة الكنيسة آخذة فى النقصان، واعتبار الناس أن الدين مسألة شخصية آخذ فى الزيادة كما أن الزواج قلت صبغته الدينية .

واليوم نرى الكنائس قد قللت من غلوائها فى السخط على الطلاق فلم تعد ترى فيه الآن مخالفة للأمر الربانى كما كان الشأن من قبل .

٨ — زيادة الالمام بالقانون

كان الناس فيما مضى يجهلون أنهم يقدرون على التحرر من ربقة الزوجية . أما اليوم فانهم يعرفون أنهم يقدرون على ذلك . ومن ثم فان كثيرا ممن كان الطلاق لايخطر ببال أمثالهم منذ بضعة أجيال صاروا يلتمسون اليوم وسيلة الافتراق . ولقد قلت اليوم رهبة الناس أو ذعرهم من المحاكم عنها فيما مضى إذ كانت الجرائد ومجلات الجمهور عاملا كبيرا فى جعل الاجراءات القانونية معلومة لعامة الشعب ومن هنا كانت حوادث التماس الطلاق أكثر .

٩ — منح الطلاق لمبررات تافهة

ان ازالة الموانع القانونية من طريق الطلاق وتغير الرأى العام فيما يختص بخطورة الزواج والطلاق معدودة لدى كثير من الناس من الأسباب البارزة فى زيادة الطلاق . وهم يضربون بكندا وانجلترا مثلا للبلاد التى فيها القوانين الخاصة بالطلاق شديدة والتى لا يحدث فيها بسبب هذه الدقة إلا قليل من حوادث الطلاق . على أنه يظهر أن هذه الناحية من الموضوع قد بولغ فيها كثيرا فان زيادة معدل الطلاق ناشئة فى أكثر الأحوال عن تصدع بنيان المعيشة البيتية لا عن تساهل القوانين عندنا . وفى الناس من يستشهد بالقوانين الهينة التى يعمل بها فى قليل من الولايات ولا سيما فى " نيفادا " ويقرر أن الناس تهرع الى تلك الولايات طلبا للطلاق . على أنهم يبالغون فى تقدير هذه الحالة لأن الذين يخرجون من دائرة ولايتهم للحصول على الطلاق فى ولاية أخرى قليلون . اذ الواقع أن عدد أحكام الطلاق التى تمنح خارج الولاية التى جرى فيها الزواج لا يزيد على الخمس . واذا كانت المحاكم متساهلة فذلك لأن الرأى العام الى حد بعيد يطلب او على الأقل يسمح بهذا التساهل . أن محاكمنا فى غالب الأحيان مثقلة بالأعمال ولا تستطيع ان تعطى قضية الطلاق ما يجب أن تعطاه من العناية كما يستدل على ذلك من أن متوسط الزمن التى تستغرقه قضية الطلاق حوالى خمس عشرة دقيقة . وعلى كل حال فان الحصول على الطلاق فى الدرجة القصوى من السهولة .

وبوجه عام نرى الولايات المتحدة بسبب تنوع الحياة فيها وما فيها من الهرج والمرج وتوتر الأعصاب وتقلبات مناخها وسرعة نمو مدنها وصناعتها هى القطر الذى يتوقع الانسان فيه ارتفاع معدل الطلاق بطبيعة الحال . على أن حالتنا هذه قد لا تعد شاذة بالدرجة التى يراها الانسان لأول وهلة . واذ أننا فى طور الانتقال فلا يصح ان يتذعر الانسان بسبب زيادة معدل

الطلاق. إنما الذى يوجب النصر أن يستمر الطلاق على هذه الزيادة، ولا سيا إذا بلغ حد النسبة التى ذكرها الأستاذ ويلكوكس واذا جرت هـذه الزيادة معها زيادة فى الرذيلة كما حصل فى روما القديمة واذا أصبحت الروابط العائلية رخوة تبعا لذلك فهناك الخطر؛ ولكن هـذه الحال لم تظهر الى اليوم فى هذه البلاد فالرذيلة اليوم فيها ليست بدرجتها التى كانت بهـا منذ خمسين سنة يوم لم يكن عندنا من حوادث الطلاق إلا القليل بل الواقع أن الحالة الأخلاقية فى هذه البلاد تتحسن باطراد .

نتائج الطلاق

بعض نتائج الطلاق بين وظاهر . فنها ازدياد جرائم الأحداث . فالحدث فى حاجة الى عناية والديه كليهما به واهتمامهما بأمره . واذا انحلت روابط الأسرة لم يكن له من ذلك نصيب. نعم قد يكون خيرا للأولاد فى بعض الأحوال أن يفترق أبواهم من أن يعيشا فى شجار ونزاع مستمر . ولكنا اذا فحصنا عن أحوال الأسر التى ينتمى اليها تلاميـذ اصلاحياتنا والذين يقدمون لمحاكم الأحداث نجد غالبية هؤلاء المساكين من البيوت التى تهدمت دعائمها. وقد وجد الأستاذ ألوود فى بحث أجراه فى سـنة ١٩٠٩ أن من بين الـ ٧,٥٧٥ حدث الموجودين فى ٣٤ اصلاحية من الاصلاحيات الأميرية ٢٩,٦ فى المـائة ينتمون الى بيوت قد تصدعت اما بالطلاق أو الفراق و٣٣ فى المـائة من أسر مات عنهـا أحد الأبوين و ٣٨ فى المـائة من أسر أفسدتها الخمر أو الرذيلة أو الجريمة وقليلا فقط من بيوت عادية بالمعنى الصحيح وكذلك من ٤,٢٧٨ حدثا فحصت حالتهم فى أربع محاكم للأحداث وجد أن ٢٣,٧ فى المـائة منهم كانوا من أسر تصدعت بسبب الطلاق أو الفراق بين الوالدين حين أن ٢٧,٨ فى المـائة منهم كانوا من أسر مات عنها أحد الأبوين أو كلاهما . وكذلك الأمر فى البيوت المعـدة للأحداث المحتاجين . فقد وجد أن فى الملاجئ الاثنين والثلاثين التى تناولها الفحص ٢٤,٧ فى المـائة من نزلائها كانوا من بيوت حدث فيها طلاق أو فراق و ٤٧,٥ فى المـائة من بيوت مات عنها أحد الوالدين أو كلاهما .

وقصارى الأمر أن الطفل محتاج الى عناية الوالدين كليهما لتربيته وتكوينه ليصير شابا سليما من جميع النواحى . فاذا تداعت الأسرة عجزت على أن تقوم بوظائفها ولا بد فى هـذه الحالة من تدخل هيئة أخرى غير الأسرة مثل محكمة الأحداث للقيام بما تعذر على الأسرة .

واذا لم تفلح محـكمة الأحداث أو هيئة أخرى غيرها فى اصـلاح الاعوجاج الذى خلفه تقطع روابط الأسرة ترتب على ذلك ازدياد تدهور الطفل الى حضيض الضـلالة وبدل أن يقف أمام محكمة الأحداث اليوم فانه يقف فى الغد أمام محاكم البالغين ليزج به فى السجون .

ولقد دل التاريخ على أن الرذيلة وليدة تفكك أو أصر الأسرة . نعم ان الرذيلة آخذة فى القلة فى الولايات المتحدة ولكن سير هذه القلة يكون بخطوات أوسع اذا نحن استبقينا أنفسنا على مستوى عال من الفضيلة داخل الأسرة .

العلاجات المقترحة

لما كانت هذه المساوئ ناشئة من الانحلال فى حياة الأسرة كان من الصعب على الانسان أن يصف لذلك علاجا . فليس هناك سبب واحد بعينه يعد بمفرده الأصل فى هذه المساوئ، بل الأسباب عديدة، والشر ضارب بجذوره الى عمق بعيد لا يتيسر معه استئصاله بأى عمل تشريعى أو بأية خطة واحدة للعمل . بل يذهب بعض الناس الى نقيض ذلك تماما فيقولون إن الأصل فيما نحن فيه لا يرجع الى الطلاق مطلقا ، بل الى الأسرة من حيث هى وضع اجتماعى وأنه يجب علينا أن نجعل الطلاق مباحا وحرا من كل قيد ونسمح للزوجين أن يفترقا اذا أرادا ذلك . وأن فى الزام الزوجين معاشرة بعضهما بعضا معاشرة لا أثر للسعادة فيها جريمة أكبر من السماح لها بالفراق . ونحن نرى أن وجهة النظر هذه على ما فيها من بعض الصحة تعد الدعوة اليها عملا محفوفا بالشر إذ أن ذيوعها لا يكون إلا سترا للرذيلة والاباحة الجنسية بالباسهما ثوب الفضيلة والقانون وسلبا لقدسية الروابط الزوجية. والواقع أن منشأ الشر كما سبق لنا ذكره ليس كله من قوانيننا القائمة أو من قلة هذه القوانين على أن بعض الاجراءات القانونية قد يأتى ببعض الفائدة فى هذا الصدد وان لم يتسر له حل المعضلة . ومن القوانين التى يقترحون سنها فى هذا الصدد ما يأتى :

١ — قانون عام للزواج والطلاق

يجب أن يكون لجميع ولايات القطر قانون وطنى واحد للزواج والطلاق يسرى مفعوله فى جميع أنحاء البلاد بدلا من أن يكون لكل ولاية قانون خاص بها . ففى الحالة الراهنة إذا لم يستطع زوجان أن يحصلا على حكم بالطلاق فى احدى الولايات قصدا الى ولاية أخرى واذا لم يستطيعا أن يتزوجا فى الولاية التى هما منها لم يحتج الأمر منهما الا أن يتخطيا حدودها الى أخرى . ويحدث هذا على الأخص فى أحوال الزواج قبل بلوغ السن القانونية وأحوال الزواج بعد الطلاق . فان بعض الولايات يحرّم الزواج قبل مرور عام أو عامين بعد الطلاق ففى هذه الأحوال يذهب الخاطبان الى ولاية أخرى لا تضع مثل هذه العقبات فى سبيل المحبين . ولا مشاحة فى أن هذا العمل يحط من هيبة القانون فضلا عن المساس بقدسية الزواج ويقول أنصار وضع قانون عام للزواج والطلاق أن مسألة الزواج والطلاق مسألة وطنية عامة

لامسألة خاصة لكل ولاية على حدتها . ومع هذا فهناك اعتراضات على توحيد القانون . يقولون إن الأحوال تختلف تبعاً لاختلاف الولايات فما يكون حقاً وعدلاً فى فرجينيا الغربية ربما لا يكون كذلك فى ماساشوسيت وما يتطلبه الحال فى ولاية نيويورك قد يكون عكس ما يحتاج اليه الأمر فى نيومكسيكو . وفضلا عن هذا فانه اذا وضع قانون عام كان أقصى مايصبو اليه واضعوه أن يكون قانونا وسطا فان لبعض الولايات قوانين صارمة و بعضها ليس لها قانون ولذلك فالقانون العام الذى يمكن أن تقبله غالبية الولايات لا بد أن يكون قانونا وسطا من هذه القوانين وهذا من شأنه أن يحط المستوى المرعى فى بعض الولايات . أما اذا أمكن وضع قانون واحد للزواج والطلاق وكان هذا القانون راقيا فعلا فقد يكون فى هذا خطوة فى الطريق السوى . على أن وضع قانون كهذا وحمل جميع الولايات على الأخذ به يكون من أصعب الأمور حقا لأنه ليس مسألة نظرية بل مسألة مناطها الحاجة والضرورة .

٢ — انشاء محكمة للعلاقات المنزلية

وهناك وسيلة اصلاح قد أخذت تقابل بارتياح عام كما أخذت بعض مدننا الكبرى فى اتباعها ألا وهى ايجاد محكمة للعلاقات البيتية يكون لها قاض خاص يكرس كل وقته — أو تكرس كل وقتها اذ كثيرا ما يتولى القضاء فيها امرأة — لقضايا الزوجية وتعرض جميع دعاوى الطلاق وقضايا مشاكل الأسرة عليها ويكون همها متجها بصفة خاصة الى هذا النوع من الاختصاص فتستطيع هذه المحاكم أن تعطى القضايا المطروحة أمامها ما تحتاج اليه من وقت وتعمل على مداواة العلة والاصلاح بين الزوجين ان وجدت الى ذلك سبيلا وحملهما على المعيشة معا ، لا أن تتخلص من القضايا بأسرع طريقة ممكنة أى بالتعجيل فى منح الطلاق الى طالبيه . فكثيرا ما يكون الأصل فى النزاع تافها ومن السهل اصلاحه . بل الواقع أن نسبة كبيرة من القضايا التى ترفع أمام محكمة العلاقات البيتية فى تشيكاغو تسوى خارج المحكمة اذ تشطب هذه القضايا بعد اقامتها .

ومن الاعتراضات على هذا العلاج أنه كثيرا ما يأتى الدواء متأخرا عن أوانه فلا ينجع اذ لا تقدم القضية الى المحكمة الا بعد اتساع مسافة الخلف بين الزوجين لدرجة تجعل التوفيق بينهما أمرا مستحيلا . وقد نشأت مع هذه المحكمة عادة استخدام نائب (Proctor) الطلاق مهمته أن يفحص بدقة شئون الحياه البيتيه بين طالبى الطلاق ليتبين هل هناك تزوير ويتحقق من أن الأسباب التى وردت فى الطلب هى الأسباب الحقيقية فعلا وليبحث هل يوجد بين الزوج والزوجة تواطؤ كأن يهجر الزوج مثلا بيتــه هجرا صوريا مدة تكفى لأن تكون سببا مشروعا للتفريق بينهما بسبب الهجر . ففى مدينة كنساس أفاد هذا النائب

فى انقاص أحكام الطلاق بمقدار ٣٠ فى المائة . والواقع أن هذا العمل كثير الخير لأنه يمنع الحكم بالطلاق لأسباب تافهة ويحول دون قطع أواصر الأسرة من غير ضرورة، ولكنه مع ذلك لا يعالج المعضلة من أساسها ولا يوقف أسباب الشقاء الزوجى الذى هو المشكلة الحقيقية فان الوسائل التى تخفف من وطأة المرض لا تستأصل العلل التى هى أصل البلاء . نعم يجب توسيع نطاق هذه الوسائل ولكن لا يصح التعويل عليها فى حل المشكلة من أساسها .

٣ — تقليل مبررات الطلاق

ان الذين يقولون بتقليل مبررات الطلاق يرمون الى تصعيب وسيلة الحصول على الطلاق بقصره على المبررات الخمسة أو الستة الخطيرة أى — الزنا والاجرام والقسوة وادمان السكر والهجر والعجز عن النفقة . نعم أن هذا التقييد قد يقلل عدد أحكام الطلاق ولكنه لا يحل المشكلة بل يخفى معالمها فقط، مثله مثل من يخفف ألم ساق مكسورة دون أن يعمل على جبر عظامها .

٤ — اشتراط مرور مدة معينة قبل معاودة الزواج

اشتراط مرور مدة معينة كسنة أو اثنين بعد الطلاق قبل الزواج ثانية من شأنه وضع الحواجز فى سبيل من يطلبون الطلاق ليتزوجوا من شخص آخر. واذا أمكن فضلا عن هذا أن يقيد الطلاق بأن لا يصبح سارى المفعول تماما الا بعد مرور سنة أو اثنتين من تاريخ منحه ، بحيث يصبح ملغى عديم المفعول اذا شاء الزوجان أن يعاودا العيش معا ، كان فى هذا فرصة للزوجين يستطيعان فى غضونها تدبير أمر العود الى الحياة الزوجية ويجعل هذا العود أقل مشقة وأقل علانية .

على أن هذه الاشتراطات كلها طيبة ولكنها لا تمس المسألة بل تخفف من وطأتها فقط . نعم أنها تداوى من غير شك قليلا من الحالات ولكنها لا تفيد الكثير منها .

٥ — وضع قيود للزواج

ان تحريم الزواج على المصابين بأمراض تناسلية وعلى ذوى العاهات وعلى من كان بينهم تباين عظيم فى السن أو الجنس البشرى الذى ينتمى اليه كل منهما وعلى غير البالغين رشدهم وعلى الذين لا تكفيهم موارد رزقهم كل ذلك من شأنه أن يعالج مصادر الشر الخفية أى مسألة الزواج بين من لا يصلح بعضهم لبعض . هذا الحل يدور حول منع كل زواج غير صالح

أكثر مما يدور حول الفريقين بين من تزاوجوا فعلا . وقد سن بعض الولايات قوانين من هذا القبيل ولا سيما ما يتطلب منها اجراء كشف طبي على طالبي الزواج قبل عقد الزواج وما يحرم الزواج على المجانين وضعفاء العقول . وأغلب الولايات يمنع زواج الصغار جدا بغير موافقة من الآباء . ولذلك إذا كنا نروم بلوغ درجة عالية فى الاصلاح وجب علينا أن نتطلع الى توسيع نطاق هذه القوانين . ولكن الرأى العام أقوى فى هذا الصدد من القانون فاذا كانت عندنا قوانين لا يعززها الرأى العام أصبحت حبرا على ورق . أما اذا طالب الرأى العام بهذه الوسائل بقوة كافية فلا تكون هناك حاجة كبيرة الى مثل هذه القوانين . فالرأى العام اذن هو الذى يجب علينا أن نهتم بأمره ونعمل على تهذيبه . اذ الواقع اننا لا نعطى الزواج الآن ما يجب له من حيث أهميته وحقيقته أمره . فنحن نقدم عليه عجلين دون أن نفكر أقل تفكير فى المستقبل بل مأخوذين اما بملاحة الوجه أو بعظم الثروة أو بخصلة الجرأة والاقدام . ولو أن الناس قصدوا الى الزواج بخطا أبطأ ووضعوا للمستقبل خطة أحكم وأدركوا حقيقة من يريدون أن يتخذوهم شركاء لأنفسهم طول حياتهم لقل عدد من يهرعون الى محاكم الطلاق .

٦ — التربية الخلقية

اذا تطلب الانسان العلاج الجوهرى لأدنى الطلاق وجب عليه أن يولى عنايته الى التربية الخلقية . ان العادات والسجايا والمثل العليا كلها وليدة الرأى العام . والرأى العام ممكن تكييفه لا بالقوانين لها القوانين الا صدى الرأى العام لا الأصل فيه واذا أريد تمهيد الميول العامة تطلب الأمر زمنا طويلا ودعاية واسعة ولا بد من استخدام الجرائد والمجلات والمحاضرات والكتب والكنائس والمدارس فى سبيل ذلك . وبهذه الوسائل يمكننا أن نؤمل حل هذه المعضلة كما هو الحال فى غيرها من المعضلات. واذ أن لكل معضلة أسبابا فلا بد من بحث أسباب هذه ومعالجتها. وليس شر الطلاق الموجود اليوم الا مظهرا لسوء النظام فى كيان الأسرة الناشئ فى الغالب من الانتقال من حالة الى حالة أخرى أى الانتقال من بقايا حالته القائمة على زعامة الأب الى حالة الأسرة القائمة على المشاركة والمحبة والتعاون. ومتى تدرب الجمهور على هـذا الانتقال وتعوده وآثره على كل حالة أخرى ترى مشكلة الطلاق قد زالت . واذا قام الزواج على المحبة المتبادلة والتقدير من جانب الزوجين وارتبط البيت برباط العطف والتعاون قلت أسباب الرغبة فى الافتراق . على أن الطلاق فى ظروفنا الحاضرة ليس بالضرورة أمرا سيئا لأنه اذا كان منزل الزوجية غير سعيد وعجزت الأسرة بسبب ذلك عن تأدية وظائفها الحقيقية كان خيرا لها فى كثير من الأحيان أن تنحل . نعم وجود الأولاد يزيد الموقف تعقدا ، ولكن من المستحيل أن نحرم الطلاق على من كان لهم أولاد لأنه يكون من الخطل أن تكون هناك قاعدة لذوى الأولاد وأخرى لغير ذوى الأولاد فان تقرير مثل هذا التمييز من شأنه الحث على عدم النسل .

فالواجب اذن أن نعمل على قصر الطلاق على الأحوال التى تكون فيها أواصر الزوجية قد تقطعت تقطعا لا يرجى معه وصلها . والواجب أن نعمل على تقليل الطلاق لا على الحث عليه . كذلك يجب نشر علوم التدبير المنزلى والتربية الخاصة برعاية الأولاد فى مدارسنا العامة . والواجب على الكنيسة كذلك أن تبذل همتها فى معالجة أسباب الطلاق بدلا من التشهير بخطاياه . ان العمل على نشر المعرفة بالأمراض التناسلية وعلى محو الرذيلة والغاء تجارة الخمور وتوسيع نطاق أعمال الزائرات الصحيات ومعالجة أسباب الفقر والإجرام وفى الواقع توسيع نطاق جميع العوامل التى تعمل على ايجاد حياة أطهر وأنبل ومدنية أرقى وأمثل — ذلك هو المنهج الذى يجب أن ينهجه جميع من يرومون تحسين العلاقات الزوجية . والواجب على الكنائس والمدارس وجميع المعاهد والهيئات الخيرية أن تجاهد فى سبيل تحقيق هذا المنهج بدلا من قصر جهدها على ادخال الاصلاحات من طريق التشريع . فليبعثوا فى الرأى العام روح الايثار والخير فانهم ان فعلوا ذلك انحلت المعضلة من تلقاء نفسها .

دخل الأسرة

وجدنا فى غضون بحثنا مسألة الطلاق أن الصعوبات المتأتية من قلة دخل الأسرة من الأسباب الرئيسية المؤدية الى الطلاق . وستجد أن دخل الأسرة ذو أثر فى مسائل أخرى كالفقر والإجرام والرذيلة وإدمان السكر والمرض . فهو يحدد مستوى المعيشة ويؤثر فى صحة الأسرة برمتها ويحدد حجم المنزل الذى تعيش فيه ولياقته وشروطه الصحية وموقعه وكذلك يحدد مقدار الطعام ونوعه ولهذا فهو يؤثر فى البنية وفى نوع اللباس الذى يرتديه الأنسان لا من حيث طرازه وتفصيله فقط بل ومن حيث كفايته وإراحته للبدن كذلك . ومقدار الدخل يحدد مقدار التعليم الذى يناله الأطفال وهل يرسلون إلى المدارس الثانوية أو إلى الكليات أو إلى مدرسة صناعية أو لا يرسلون إلى مدرسة بتاتا أو يزج بهم فى المعامل لكى تساعد أجورهم على نفقة الأسرة . ومقداره كذلك يعين للمرأة عملها وهل تبقى فى المنزل أو تضطر إلى العمل فى الخارج لتكمل بذلك نقص إيراد الزوج . وهو الذى يمنح أو يمنع الصحة والثروة والمسرات والرفاهية والمقدرة لا للجيل الحاضر وحده بل للأجيال المقبلة كذلك . وهو الذى يقرر هل يكون الجيل المقبل شيئا ضئيلا فى بدنه وعقله وخلقه . فاذا لم يستطع الوالد أن يكسب لأسرته كفايتها وإذا اضطرت الزوجة وصغارها إلى مزاولة الأعمال الخارجية فقد المنزل وظيفته الأساسية .

ولقد وضعت تقديرات شتى عن مبلغ الدخل الضرورى للاحتفاظ بمستوى لائق بالأسرة المتوسطة فى أجزاء مختلفة من الولايات المتحدة فقدروا فى سنة ١٩١٣ أن الأمر يحتاج إلى إيراد مقداره ٨٠٠ ريال سنويا لتستطيع أسرة أن تعيش فى حى الزرائب فى شيكاغو وقدر قسم

نظافة الشوارع فى نيو يورك بعد ذلك بقليل أن أقل ما يحتاج اليه العامل فى ذلك القسم ليعول أسرة متوسطة مؤلفة من خمسة أشخاص هو ٨٤٠ ريالا فى السنة . كذلك قدر أنه لكى تستطيع أسرة أن تعيش قبل الحرب فى بلدة صغيرة عادية سكانها حوالى ٥٠٠٠ نسمة كان يلزمها ٦٠٠ ريال سنويا . وقد كانت هذه التقديرات جميعها فيما يبدو لنا صحيحة على وجه الإجمال ومع ذلك فأى العمال غير الفنيين استطاع أن يحصل حتى على مقدار الستمائة الريال اللازمة للعيش فى بلدة صغيرة عادية ؟ لقد كانت الأجرة العادية لعمال المياومة تتراوح ما بين ريال وربع وريالين ونصف فى اليوم وكانت فى المتوسط ريالين إلا ربعا أو ريالين فى اليوم تبعا للطلب . فإذا كان ما يتناوله العامل ريالين فى اليوم وكان متوسط شغله فى السنة ٢٥٠ يوما وهو متوسط عال جدا لم يستطع أن يبلغ الستمائة الريال المطلوبة واحتاج الأمر بذلك أما الى الحصول على المائة الريال الباقية بأن تشتغل الزوجة أو الأولاد وأما أن تعيش الأسرة بدونها اللهم إلا إذا استطاع الزوج تحصيل جزء منها بأن يزرع حديقة منزله أو يقوم بشىء من الصناعات المنزلية . والمعلوم أن متوسط الأجرة فى حى الزرائب فى تشيكاغو لم يبعد كثيرا عن سبع ريالات ونصف فى الأسبوع فاذا اشتغل العامل أربعين أسبوعا فى السنة وهو يعد متوسطا عاليا فانه لايستطيع أن يحصل فى العام إلا على ٣٠٠ ريال من الـ ٨٠٠ ريال اللازمة. وهذه الأمثلة إنما أخذت عفوا وبلا تخير إذ أن هذه الحالة كانت سائدة فى كل مكان فالرجل الأبيض فى الجنوب لم يكن فى مكنته أن يحصل على أجر يكفى حاجاته المعيشية. هذا والسكك الحديدية فى بلادنا لم تكن تدفع لعمالها قبل الحرب ما يكفى لمعاشهم . ومعامل مدننا الصناعية لم تكن تدفع للعمال العاديين ما يكفى لاعالة أسرهم . وإدارات المخازن التجارية لم تكن تعطى كتبتها ما يكفى حتى لإعالة أشخاصهم. ولذلك كانت زوجة العامل المتوسط الحال كانت مضطرة الى تكملة إيراد زوجها بالاشتغال فى المعامل أو بالخدمة فى بيوت جيرانها أو بالغسل فى بيتها نظير أجر معلوم أو ما شابه ذلك من وسائل الارتزاق . ومعنى هذا عجزها عن القيام بواجباتها المنزلية كما يجب واهمال أولادها . ومعنى هذا أيضا أن الأولاد لم تكن تتيسر لهم الفرصة اللازمة لتحسين حالهم . فلا شك والحالة هذه أن فى نظامنا الصناعى بجملته عيبا أساسيا ما دمنا لا نسمح للرجل العادى أن يكتسب ما يكفى لإعالة أسرته على الوجه اللائق . بيد أن الحالة السائدة فى الأوقات العادية هى هذه .

ولا يقتصر أمر مسألة العيش على العامل البسيط بل هى تشمل جميع الطبقات الأخرى أيضا . فكثيرا ما يصعب على صاحب الحرفة الراقية أن يوفق بين دخله ونفقته وفاقا للمستوى الذى يتطلبه مركزه فى الحياة بقدر ما يصعب ذلك على العامل سواء بسواء . فأن القسيس الذى يتناول ٦٠٠ ريال فى العام أو المدرس فى الجامعة الذى لا يتناول إلا ١٠٠٠ ريال كان يلاقى

من المشقة فى حياته ما يلاقى العامل الذى يكتسب ريالين فى اليوم ومع ذلك فقد كانت هذه المرتبات عادية جدا . بل كان هناك كثيرون من رجال الدين مرتبهم دون الستمائة كما أن كثيرا من جامعاتنا كانت من قصر النظر بحيث لم تكن تعطى مدرسيها إلا ٩٠٠ ريال أو ١٠٠٠ ريال فى العام فالجأت خيرة رجالها وأكثرهم مرانا أن يهجروها ليشتغلوا فى معاهد أقل شأنا منها أو فى أعمال أخرى . ولعمرى أن إعطاء القسيس ٥٠٠ ريال أو ٦٠٠ فى العام والمعلم فى الجامعة من ٩٠٠ ريال إلى ١٠٠٠ ريال فى العام ، لعلى مستوى أدنى واحد مع ما يفعله رئيس المخزن التجارى الذى يعطى الفتاة الموكلة بالبيع خمسة ريالات أو ستة فى الأسبوع فاذا شكت من أنها لا تستطيع أن تعيش بهذا القدر سألها مدير المحل "أليس لها فى الرجال صديق يعينها على تكاليف المعيشة" أو كسياسة ذلك المدير الذى يفخر بأن محله لا يستخدم الا فتيات يعشن فى منازل أهلهن ، لأن مثل هذه المرتبات لا تمكن صاحب الحرفة بتاتا من أن يعول أسرة بالصورة التى يتطلبها مركزه فى الحياة . ويكون معنى ذلك أنه محرم عليه أن يتزوج فيكون محروما من نعمة البنين . المفروض فى كنائسنا وجامعاتنا أن تعلم الناس الفضائل والأخلاق ولكنها فى نفس الوقت تعمل على زيادة بعض المعضلات التى يحاول المجتمع أن يحلها .

جميع التقديرات التى أوردناها عملت فى أوقات عادية قبل الحرب العظمى . وقد ارتفعت فى أثناء الحرب أثمان جميع الحاجات تقريبا وكان ارتفاع بعضها بطبيعة الحال أكثر من البعض الآخر ولكن تكاليف المعيشة تضاعفت مثلين بل لقد أربت فى بعض الجهات على ذلك . ولذلك فإنه اذا ضوعفت التقديرات السابقة التى تعرض الحد الأدنى لتكاليف المعيشة فى الجهات المختلفة من القطر وفى الصناعات المتعددة فإن هذه المضاعفة لا تكون بعيدة عما كانت عليه حالة البلاد فى أواخر سنة ١٩١٩ وأوائل سنة ١٩٢٠ فى ذلك الوقت ربما كان مبلغ ١٧٠٠ ريال الحد الأدنى لتكاليف المعيشة اللازمة لأسرة العامل فى بلدة وسط من بلاد الولايات المتحدة . نعم ربما كان فى استطاعة من يعيش فى الجهات التى تكثر فيها مواد الغذاء ولم ترتفع أجور المساكن فيها ارتفاعها فى غيرها أن يعول أسرة بمبلغ دون هذا الحد ولكن فى جهات كثيرة كان يتطلب الأمر زيادة عن هذا الحد . وربما كان تقدير ١٨٠٠ ريال كمرتب لرجل من ذوى الحرف الراقية أو أى شخص يمثل الطبقة المتوسطة ، تقديرا وجيها للحد الأدنى اللازم .

وإليك بعض ميزانيات عملت بمراعاة هذه التغيرات فى الأثمان :

التقدير الأولى لميزانية عمال الساحل الباسيفيكى فى سنة ١٩١٧ : ١٤٧٦,٤٠ ريال ومقدر الميزانية التى قررت فى تحكيم شركة سكة حديد سيتل وتاكوماستريت (Seatle and Tacoma Street Rlys) فى سنة ١٩١٧ ١٥٠٥,٦٠ ريال ، والميزانية المقدمة للجنة الحرب الوطنية

العمال (National War Labor Board) من المستر أوجبارن (W. F. Ogburn) فى سنة ١٩١٨ : ١٧٦٠,٥٠ ومقـدار ميزانية أسرة موظف الحكومة فى واشنجتون العاصمة سنة ١٩١٩ : ٢٢٦٢,٤٧ ريال إذا روعى فى هذا أسعار السوق و ٢٠١٥,٥٦ ريال على احتمال مكان التوفير بسبب الافراط فى الاقتصاد وشدة الذكاء وكثرة الجد والاجتهاد وحسن الحظ فى الشراء بأقل الأسعار وقيام الزوجة بأقصى ما تستطيع من العمل فى المنزل . ومقدار ميزانية أهل الأجور اليومية فى فول ريفر (Fall River) بمـا ساشوست على تقدير أقل حد أدنى ١٢٦٧,٧٦ ريال وبتقـدير فيه شىء من التسامح ١٥٧٣,٩٠ وبتقدير ميزانيـة للعيشة فى لورانس (Lawrance) بما ساتشوسيت على الطريقة السالفة ١٣٨٥,٧٩ ريال و ١٦٥٨,٠٤ ريال وهذان التقديران وضعا فى أكتوبر ونوفبر سنة ١٩١٩ على التوالى . وآخر تقدير وأحسنه فيما نرى هو الميزانية الدقيقة التى استخرجت عن المواد اللازمة لإعالة أسرة مركبة من خمسة أشخاص فى حال صحية ودرجة اجتماعيـة لائقة وهو التقدير الذى عمـله مكتب إحصاءات العمال فى الولايات المتحدة سنة ١٩٢٠ إذ جعله ١٥٠٠ ريال الى ٢١٠٠ ريال تبعا للجهـة التى يعيش فيها الانسان .

ولتعويض ارتفاع أسـعار الحاجات رفعت الأجور فى كثير من الصناعات بنسبة ذلك ففى بعض الفروع ولا سيما صناعة الذخائر وغيرها من الأشغال المتصلة بأعمال الحرب زادت الأجور بنسبة أعلى من نسبة الزيادة فى الأسعار . وفى بعضها كانت الأجور أبطأ فى التمشى مع ارتفاع الأسعار . وفى بعض الأعمال لم ترتفع مطلقا . وقد انتهز رجال الأعمال فرصة قلة السلع وزيادة الطلب عليها فزادوا فى مكاسبهم زيادة كانت فى بعض الأحوال جسيمة .

على أن أهل الحرف الفنية ولا سيما المستخدمون منهم بمرتبات ثابتة ربمـا كانوا أشد النـاس تأثرا بوطأة الغلاء لأن مرتباتهم لم تزد بمقـدار يتناسب مع ارتفاع الأسـعار بل فى بعض الأعمال لم تزد مرتباتهم بتاتا . وكان هـذا على الأخص حال المعلمين بسـبب نقص الحاجة اليهم حتى انتهت الحرب . وفى بعض الحرف الفنية زادت المرتبات ولكن بقـدر طفيف إلى قبيل انتهاء الحرب أو بعدها . وعلى الجملة فإن أجور العمال فى المعامل وفى الصناعة لم تزد على أن سايرت ارتفاع الأسعار . أما المرتبات الثابتة فلم تفعل كذلك .

وستصل بعد أن نعود إلى حالة عادية مستقرة إلى شىء من التوازن ولكنه سيكون توازنا من نوع جديد فستكون بعض الأثمان على ما كانت وأخرى فيما يحتمل أدنى ولكن حال الإيراد سيختلف عن ذلك اذ يتوقف أمره على التقدير الجديد الذى يضعه المجتمع لأنواع الأعمال المختلفة . ففى غضون الحرب كان الشأن الأعلى للأعمال الميكانيكيـة أما الحرف

الفنية فلم يكن لها ذلك الشأن . ولكن إذا رجعت الأوقات العادية فلا بد أن توضع طائفة جديدة من التقديرات وستستقر النفقات والإيرادات فى الجملة على حال . ولكن المحتمل أنها لن تبلغ المستوى الذى كانت عليه فيما مضى فقد أخذت الأسعار من الشطر الأخير من سنة ١٩٢٠ فى الهبوط واستمرت تهبط فى غضون سنة ١٩٢١ إلا فى بعض فترات انتكاس قصيرة حتى لم تبلغ فى مفتتح سنة ١٩٢٢ ما يعادل ٧٥ ٪ فوق معدلها قبل الحرب . وعلى الجملة فهى لا تزال آخذة فى الهبوط بيد أن هـذا الهبوط أشد تباطؤا ولا يدرى أحد متى تصـل إلى حالة التوازن الجـديدة فقد يستمر الهبوط وقد يحـدث رد فعل تعود الأثمـان بسببه إلى الارتفاع ثانية .

وبينما كانت الأجور تتبع الأثمان فى ارتفاعها كانت دائما أقل منها بمعدل يتراوح بين ٢ وعشرين فى المـائة ولكن بعد الحرب لمـا أخذت الأسعار تهبط لم تهبط الأجور بسرعة تراجع الأسعار بل ظلت مدة ما أعلى من الأسعار نسبيا ولكن العامل لم يكن مع ذلك أسعد بوجه عام إذ كان العمل نادرا والبطالة آخذة فى الظهور . واليوم أصبحت المشكلة منحصرة فى أن يجد العامل عملا أكثر مما هى فى مقدار الأجور . ولا بد على مضى الزمن من الوصول إلى مستوى جديد للأجور سيطابق بطبيعة الحال مستوى الأثمان . ومع ذلك فلن يكون أحد المستويين كالمستويات السابقة إذ لا بد أن المجتمع سيضع قيما جديدة لبعض السلع والأعمال المختلفة .

وبينما كان من الجائز أن الأعمال الفنية فى أثناء الحرب كانت أوفر الأعمال حظا فإن هناك اليوم فيما يظهر ميلا إلى تحسين حال المشتغلين ببعض الحرف الراقية كالتعليم ووظائف الكنائس والخدمة العامة . ولكن لا يمكن القطع بأن هذه الأعمال ستنال مكافأة تعادل ما يلزمها من الاستعداد وما تقدمه من خدمات .

إنفـاق الدخل

إن انفـاق الدخل فى كثير من الأحيان لأهم شأنا من كسـبه فكثير من الأسر تكسب كفايتها ولكنها لا تعرف كيف تنفق بالحكمة ما تكسبه فهى تضيع أكثر مما ينبغى فى مشترى ما ليس بنافع كالخمور والتبغ ومشترى ما لا تكون فى حاجة إليه إبان مواسم تخفيض الأسعار فى المحال التجارية وفى السلع الباهظة . والمشاهد أن فى الناس من يصـلون دائما إلى الظفر بمـائة فى المـائة لكل ريال ينفقونه وفيهم من لا ينالون إلا خمسـين فى المـائة أو ستين وفيهم من يدفعون دائما فى الشىء أكثر مما يدفعه غيرهم . ولو ان مدارسنا عنيت بتدريس القيم الحقيقية والأثمان المناسبة للحاجات العادية ، فربما كان فى ذلك فائدة كبيرة . على أن مراكز الاصلاح عندنا آخذة فى القيام بهذه المهمة واليوم تعمل الزائرات الصحيات على تعليم

الأمر كيف تنفق دخلها . وتلك الفروق بين النـاس فى المهارة فى الشراء مشاهدة فى جميع مناحى الحياة . وربمـا كان فى مجتمع الكليات صدنا مثل لذلك لا يقل وضوحا عن سواه . فبعض الطلبـة يستطيعون أن يقطعوا مراحل الكلية بنصف أو ثلث مقـدار المـال الذى يحتـاج اليه غيرهم وهم مع هذا يظهرون بمـا يظهر به غيرهم إن لم يفوقوهم فيما يفيدونه من الانفاق . على أنه يقل فى طلبة الكليات من يعرف كيف ينفق المـال بحكمة ولا سيما اذا كان ميسورا لهم أن يحصلوا منه على مدد كاف من أسرتهم من غير أن يكون عليهم عبء اكتسابه .

ميزانيات الأسرة

اتبعت عدة طرق مختلفة لفحص نفقات الأسرة وقد نجحت هذه الطرق نجاحا مختلف الدرجة واليك بعض هذه :

١ — طريقة لوبلاى (The Le Play Method) ابتـدعها عالم اجتماعى فرنسى بأن كان يذهب الى المجتمع المقصود بالدرس و يعيش فى أسرة يختارها على تقدير أنها نموذج لهذا المجتمع . وفى أثنـاء معيشته معهم يستطيع بسؤال الأسرة وجيرانها أن يعرف على وجه التقريب مبلغ ما تنفقه هـذه الأسرة فيعرف ثمن كل قطعة من الأثاث وثمن كل مشترى من مشتريات الطعام والكساء والوقود ومقدار ما أنفق فى سبيل الملاهى والتبغ والمخدرات وغير ذلك من المصروفات النثرية . ويتطلب هذا الأمر عادة شهرا لمعرفة كل هذه الأمور . على أن هـذه الطريقة على عمقها [illegible] قد لا تكون جديرة بأن يعتمد عليها إذ قد لا تكون الأسرة نموذجية كما قد تكون [illegible] التى [illegible] عليها غير صحيحة كما أنها تحتاج الى وقت طويل جدا .

٢ — طريقة [illegible] (The [illegible] Method) [illegible] وهو عالم اجتماعى [illegible] [illegible] باتفاق [illegible] وبين [illegible] مسلمة من [illegible] . ثم [illegible] منها وشفى [illegible] . ومما يعترض [illegible] هذه الطريقة [illegible] الأسر [illegible] القادرة على تدوين حساب صحيح [illegible] يقاس [illegible] .

٣ — خطة جامعة شيكاغو .

تبعت الطريقة المعروفة باسم خطة جامعة شيكاغو (The University of Chicago Plan) فى حى الزرائب بشيكاغو . وهى طريقة دقيقة فى تناولها للتفاصيل وبها يحاول أن يعرف بالضبط ما ينفق فعلا فى كل مادة من مواد الغـذاء والكساء . وكل شىء

تشتريه الأسرة . يدرج تحت عنوان مستقل ثمن الملابس التى يحتاج اليها كل فرد فى البيت ومقدار اللحم الذى أكل وثمنه ومقدار ما أنفق فى أجور الانتقال وفى الملاهى وأدوات المطبخ وغير ذلك . ولا شك أن هذا العمل يتطلب جهد باحث مدرب . ولقد نجحت هذه الطريقة نجاحا باهرا فى شيكاغو بفضل معونة مركز الاصلاح بجامعة شيكاغو إذ انتخبت مائة أسرة نموذجية للدراسة فى وقت واحد وطلب اليهم أن يدونوا حساب بيوتهم بطريقة معينة مدة من الزمن ونظرا لاحترام الأسر لذلك المركز الاصلاحى واكراما لمس ماك دويل (Miss Mc Dowell) رئيسة هذا المركز قاموا بارتياح بما طلب اليهم . وأن هذه الخطة لصالحة حيث الظروف ملائمة ومعاونة الأسر ممكنة والباحثون المحنكون يتولون الأمر بأنفسهم . وحكومة الولايات المتحدة تستخدم طريقة كثيرة الشبه بهذه الطريقة لولا أنها أقل تعمقا وأوسع نطاقا .

ولا شك أن مثل هذه الميزانيات ضرورية لإمكان الوصول الى أمر مقطوع به فيما يختص بمستوى المعيشة واليك جدولا يتضمن ضرورات الحياة التى يجب أن تتضمنها ميزانية كل أسرة تعيش عيشة لائقة .

(أ) الحاجات البدنية :

١ — طعام كاف فى مقداره ونوعه للمحافظة على القدرة والكفاية الجثمانية .

٢ — ملابس كافية لاحداث الدفء المطلوب وافية بمطالب الحشمة والمظهر اللازم لاستبقاء الانسان منزلته فى مجتمعه .

٣ — المخصصات اللازمة لايجار مسكن ذى سعة كافية لانفصال الجنسين ولنقاوة الهواء وحسن التهوية وليكون فى موقع صالح من حيث تصريف المجارى والنظافة الصحية والبيئة الصحية .

٤ — الوقود اللازم لإحداث الدفء المطلوب .

٥ — النور اللازم للقراءة .

٦ — الاستشارة الطبية بما فى ذلك استشارة أطباء الاسنان والعيون إذا استلزم الأمر — لا لمعالجة أحوال المرض فقط بل وللوقاية منه . وكلما تقدمت الصحة قلت النفقة اللازمة لهذا الغرض .

٧ — الرياضة البدنية المختلفة المقدار والنوع والكافية للاستجمام .

٨ — مخصصات التأمين ، لا على أنها من الكماليات بل من الضروريات . ويجب أن يدخل فى هذا الصدد التأمين لأحوال المرض والكوارث والبطالة. وهناك طريقتان تحققان هذا الغرض : مصارف الادخار (التوفير) وعقود التأمين .

(ب) حاجات التثقيف الكافية للاعداد للحياة .

١ — التربية لكل طفل فى سن التلمذة على أقل تقدير .

٢ — التربية الفنية لتعلم صناعة أو حرفة فنية .

٣ — تثقيف البالغين لتسهل للمرء المحافظة على مقامه فى الحياة الاجتماعية والعقلية

يقل فى الناس من يقدرون قبل زواجهم للميزانيات أهميتها وربما كان هذا خيرا لأنه اذا تعمق الناس فى فحص معضلات المعيشة تخلى كثير منهم عن الزواج . على أنه إذا كانت العناية بالميزانيـة أكثر مما هى الآن قل الفقر والشقاء وقل الطلاق أيضا . ولكن الذين هم بطبيعـة الحال أحق الناس بالاهتمام بالميزانيات لا يعنون بها على حين أن الذين يمكنهم أن يعيشوا عيشة هنيئة على أى حال هم الذين يعنون بها أعظم عناية . بيد أن هـذه الحالة تنطبق على كل وجه من وجوه الحياة فالذين هم فى حاجة الى التحذير هم عينهم الذين لا يستمعون له .

وقد نشرت فى سنة ١٩١٤ المجلة المنزلية النسوية (The Ladies Home Journal) الميزانيات الشائقة الآتية لأسرة مركبة من زوج وزوجته وولدين دون العاشرة فى العمر .

بدخل قدره ٦٠٠ ريال فى السنة :

البند	ريال
ايجار مسكن بمعدل ٩ ريالات شهريا	١٠٨
وسائل التدفئة	٥٠
طعام وغاز ولوازم الغسل	٢٨٦
ملابس	٩٤,٥٠
ادخار وتأمين	٢٠
للتوسع	٢٠
المصروفات النثرية	٢١,٥٠
	٦٠٠,٠٠

بدخل قدره ٩٠٠ ريال فى السنة .	ريال
ايجار مسكن بمعدل ١٥ ريالا فى الشهر	١٨٠
وسائل التدفئة	٦٥
نور بمعدل ريال فى الشهر...	١٢
طعام ولوازم غسل بمعدل ½ ٦ ريال فى الاسبوع...	٣٣٨
ملابس	١٥٠
ادخار وتأمين	٧٥
للتوسع فى المعيشة	٥٠
للمصروفات النثرية	٣٠
	٩٠٠

بدخل قدره ١٢٠٠ ريال فى السنة	
إيجار مسكن بمعدل ٢٠ ريالا فى الشهر	٢٤٠
وسائل التدفئة	٧٥
نور بمعدل ريال ونصف فى الشهر	١٨
طعام ولوازم غسيل بمعدل ٧ ريال فى الأسبوع	٣٦٤
ملابس	٢٢٥
ادخار وتأمين	١٢٥
للتوسع	١٠٠
للمصروفات النثرية	٥٣
	١٢٠٠

بدخل قدره ١٥٠٠ ريال فى السنة	
ايجار مسكن بمعدل ٢٢ ريالا فى الشهر	٢٦٤
وسائل التدفئة	٨٠
نور بمعدل ١,٧٥ فى الشهر	٢١
طعام وأدوات غسيل بمعدل ٨ ريالات فى الأسبوع	٤١٦
ملابس	٢٥٠
ادخار وتأمين	٢٠٠
للتوسع	٥٠
للمصروفات النثرية	١١٩
	١٥٠٠

بدخل قدره ١٨٠٠ ريال فى السنة .

ايجار مسكن بمعدل ٢٥ ريال فى الشهر	٣٠٠
وسائل التدفئة	٨٥
نور بمعدل ١,٧٥ ريال فى الشهر	٢١
طعام ولوازم غسيل بمعدل ٩ ريالات فى الأسبوع	٤٦٨
ملابس	٢٥٠
ادخار وتأمين	٢٠٠
للتوسع	٢٠٠
المصروفات النثرية	١٧٦
	١٨٠٠

بدخل قدره ٢٤٠٠ ريال فى السنة .

ايجار مسكن بمعدل ٣٠ ريال فى الشهر	٣٦٠
وسائل التدفئة	٨٥
نور بمعدل ٢, ريال فى الشهر	٢٤
طعام ولوازم غسيل بمعدل ٩ ريالات فى الأسبوع	٤٦٨
ملابس	٤٠٠
ادخار وتأمين	٤٠٠
للتوسع	٣٠٠
المصروفات النثرية	٣٦٣
	٢٤٠٠

عيب هذه الميزانية أن الرجل الذى دخله ٦٠٠ ريال أو ٩٠٠ ريال يكون له فى العادة أكثر من ولدين كما أن كثيرا جدا من الأسر قبل الحرب لم يكن يبلغ دخلها ٦٠٠ ريالا . وزيادة على ذلك فإن هذه الميزانيات تبين ما ينبغى أن يكون عليه الإنفاق أكثر مما تبين ما هو عليه بالفعل . إذ القليل من الأسر هو الذى يستطيع أن يضبط نفقاته ذلك الضبط العلمى على أن الجداول المذكورة إنما ذكرت لا لقيمتها العلمية بل لما تتضمن من قوة الإرشاد وما يمكن أن يكون فيها من الفائدة للطالب . وأن زيادة الأثمان بسبب الحرب قد أخلت ولو

بصحة هذه الميزانيات لأن أثمان جميع الحاجات المعيشية لم ترتفع بنسبة واحدة كلها . ففى حين أن إحصاءات مكتب العمل تدل على أن متوسط أثمان جميع السلع زاد ١٣٨ فى المائة من سنة ١٩١٣ إلى ديسمبر سنة ١٩١٩ نجد أن المواد المختلفة كانت زيادتها متباينة والطعام ارتفع ثمنه ١٣٤ فى المائة والأخشاب وأدوات العمارة ١٥٣ فى المائة وأثاث المنازل ٢٠٣ فى المائة ومنتجات الزراعة ١٤٤ فى المائة . بل كان التباين كبيرا حتى فى أثمان مواد الطعام فقد ارتفع ثمن اللحم ارتفاعا يتراوح بين ٥٠ فى المائة و ٨٠ فى المائة والزبدة ١٠٤ فى المائة والبيض ١٦١ فى المائة ودهن الخنزير ١٢١ فى المائة والدقيق ١٣٣ فى المائة والخبز ١٧٩ فى المائة والأرز ١٠٣ فى المائة والبطاطس ١٥٣ فى المائة والبن والشاى والسكر ٦٤ فى المائة و ٢٧ فى المائة و ١٦٤ فى المائة على التوالى . كما أن الاثمان عند هبوطها لم تتراجع كلها بنسبة واحدة . وعليه فالنسب المختلفة فى الميزانية التى توضع للوقت الحاضر لا بد أن تختلف اختلافا عظيما عنها فى ميزانية سنة ١٩١٣ . على أن أغلب الظن أن الاثمان التى بلغت أقصى درجة للارتفاع ستعود إلى حد يقارب مستواها العادى . ومع أنه لا شك فى أن الاثمان ستكون يوم نعود إلى حالتنا العادية المستقرة أعلى مما كانت عليه قبل الحرب فإنها ستظل محتفظة بقيمتها النسبية بعضها إلى بعض . وعليه فإن أهم وجوه نقدنا هو أن دخل الستمائة الريال قد مضى عهده ولا بد من وضع ميزانيات اخرى لمقادير من الدخل أكبر من ٢٤٠٠ ريال فى السنة . وإذا فرضناه على سبيل التمثيل ٣٠٠٠ ريال فى السنة كان ذلك هو الدخل المحتمل شيوعه فى المستقبل .

قوانين انجل (Engel's Laws)

وفى هذا الصدد نرى أن القوانين التى وضعها انجل فيما يختص بنفقات الأسرة ذات مائدة . وقد جازت هذه القوانين مرحلة الاختبار مكانت ولا شك صحيحة على مضى الزمن . وهذه القوانين كما يلى :

(١) كلما كانت الأسرة أفقر كانت نسبة ما تنفق من الدخل على الطعام أكبر

(٢) تظل نفقة الملابس على حالتها النسبية تقريبا مهما كان الدخل . على أن الامريكيين يميلون إلى زيادة نسبة ما ينفق على الملابس كلما زاد الدخل .

(٣) تظل نسبة النفقة فى إيجار المسكن وفى الوقود والنور على حالتها تقريبا بصرف النظر عن قيمة الدخل (يرى شواب (Schwabe) أن نسبة الإيجار تقل بزيادة الإيراد) ويميل الامريكيون إلى نقص النسبة المخصصة لإيجار المسكن .

(٤) كلما زاد الدخل زادت نسبة ما ينفق فى المتفرقات .

وعلى الجملة فان زيادة ما يدفع من أجرة المنزل تدل على زيادة فى الدخل لأن من اوائل الأمور المطلوبة بيتا اكبر وأحب الى النفس ومع ذلك فان الفقراء كما سنرى عند ما نتناول موضوع الفقر، يدفعون ايجارا اكبر بالنسبة الى المساحة التى يشغلونها . فالمأوى لا بد منه ، وعند ما تزيد سعة المنزل على الحد الأدنى اللازم للايواء تأخذ قيمة ما يربى على هذا الحد فى النقصان .

وفيات الأطفــال .

ومن معضلات الأسرة غير ما ذكرنا وان كان أقل خطورة فى الولايات المتحدة منه فى غالب الأقطار ، مسألة ارتفاع معدل الوفيات فى الاطفال . لقد كان هذا الأمر فى المـاضى أشد خطورة منه اليوم أذ لم يكن يتجاوز سن الطفولة فى تلك الأقطار إلا عدد قليل من المواليد بالنسبة الى مجموعهم . بل لقد كان هذا هو الواقع حتى فى بلادنا هذه فى أوائل عصر استعمارها . وهو الحاصل فى يومنا هذا فى كثير من الأمم حتى فى بلاد مثل ايطاليا والنمسا واسبانيا وروسيا فى الأوقات العادية . ولقد بلغت وفيات الاطفال فى غضون الحرب ومنذ الحرب حدا مروعا اذ كان الأطفــال يموتون فى الاصقاع التى خربتهـا الحرب بالملايين . والعـادة أن البلاد التى يكون فيها مستوى المعيشة منحطا هى البلاد التى يكون فيها معدل الوفيات عاليا . على أن هذا الارتفاع فى معدل وفيات الاطفال يعوضه ارتفـاع فى معدل المواليد . ولكن هذه الحالة ممـا يؤسف له أذ أنهـا تساعد على بقاء هؤلاء القوم فى حالة منحطة من المدنية . فانه لخير للانسان أن يكون له من الأولاد عدد قليـل يحسن تربيتهم حتى يصـل بهم الى سن الرشد رجالا ونساء من أن يلد عددا كبيرا من الأطفـال ثم لا يعيش منهم الا قليل .

وقد دلت الابحاث فى مدن أمريكا على أن معدل الوفيات يسير بنسبة عكسية مع مقدار الدخل . فالذين لهم دخل معتدل يفقدون عددا قليلا من الاطفال أما من كان دخلهم دون الحد الأدنى لمستوى الحياة فمعدل الوفيـات بينهم يصل الى نسبة كبيرة جدا ومن أسباب وفيات الاطفال ما يلى :

١ — حرارة الجو — هذه حالة يصعب ضبطها ولكن يمكن تلطيف تأثيرها .

٢ — التغذية الصناعية — ان احتمال الموت فى الاطفال الذين يتغذون بغذاء صناعى اكثر بخمس مرات أو ست منه فى الاطفال الذين يتغذون من الثدى .

٣ — الذباب الذى يحمل جراثيم الأمراض الى الاطفال ولا سيما عن طريق طعامهم وقد أخذت الحملات الحالية الموجهة لإبادة الذباب وأهم من ذلك ازالة الأماكن التى يتوالد فيها الذباب كصناديق القمامات واكوام الزبالة والفضلات والحثالات على أنواعها — قد أخذ كل ذلك فى المساعدة على تخليص البلاد من هذه الآفة .

٤ — الجهل وعدم مراعاة النظافة فى تحضير الأطعمة الصناعية .

٥ — حالة الوالدين ، كالتى تنشأ عن أمراض الزهرى والسيلان والتسمم بالرصاص والكحول والافراط فى الجهد العملى .

٦ — دخول المرأة فى الأعمال الصناعية وما يترتب عليه من نقص وقت الراحة قبل الولادة وبعدها واهمال الطفل بعد الوضع .

٧ — الجهل والاهمال من القابلات والقائمات على شئون الوالدات مما يؤدى إلى تطرق العدوى وتسمم الدم .

٨ — الأدوية المجهزة

والواقع أن مسألة وفاة الأطفال يمكن نقصها بل هى قد أخذت فعلا تتناقص بازالة الأحوال التى تسببها وبالعمل الذى تقوم به الزائرات الصحيات وبزيادة التربية العامة فيما يختص بالعناية بالاطفال . على أن علم الطب لا يزال يكشف عن أسباب أخرى لأمراض الأطفال ويصف الدواء للشفاء من الأمراض . وعلى الجملة فان هذه المسألة من المسائل التى تكافحها الولايات المتحدة بنجاح مطرد . وقد دل احصاء سنة ١٩٢٠ على أكبر نقص فى الوفيات من جميع الأسنان وقد نقصت نسبة وفيات الأطفال الذين دون السنة الأولى من السن من ١٣ فى المائة فى سنة ١٩١٠ الى ٩,٦٦ فى المائة فى سنة ١٩٢٠

ونحن وأن كنا نرى أن هذا التقدم باهر فان هناك بلادا تفوقنا فيه فنسبة وفيات الأطفال فى سويسرا أقل من ٨ فى المائة والسويد فوق ٧,٥ فى المائة بقليل وفى الدانيمرك أقل من ٧,٥ وفى بلاد النرويج ٦ فى المائة وفى استراليا أقل من ٦ فى المائة وفى نيوزيلاند وهى فيما نظهر آمن صقع يولد فيه الانسان ٤,٥ فى المائة .

هذا ونحن فى غنى عن القول أن هناك معضلات أخرى تتصل بالأسرة ولكنا انما حاولنا أن نبحث هنا أهم تلك المعضلات .

الفصل الثانى عشر

التحصيل الاجتماعى

التحصيل الاجتماعى ناحية من علم الاجتماع قد يتجاهلونها أحيانا تجاهلا تاما أو يقدرونها فوق قدرها فالأستاذ وارد مثلا (Prof. Ward) يعالج علم الاجتماع على أنه دراسة التحصيل الاجتماعى فقط ويقصر مدى هذا العلم على هذا الفرع وحده . فهو يتناول بالبحث مختلف الأوضاع الاجتماعية وبين أطوار ترقى المجتمع . على أن غيره من الاجتماعيين يكادون يتجاهلون أطوار ترقى المجتمع برمتها ويحبسون جهودهم على تحليل المجتمع الحالى .

أما فى هذا الكتاب فاننا سنتناول نشوء المجتمع وتطوره باحثين فى أصل الأوضاع الاجتماعية اذ يجب لإمكان درس المجتمع الحاضر أن تتعرف الأطوار التى مرت فيها الأوضاع الاجتماعية وقد وجدنا من المفيد لنا عند ما كنا ندرس الأسرة أن نعرض تاريخها قبل أن نتناولها بالبحث من وجهة كونها وضعا أولا لأنها سبقت جميع الأوضاع الأخرى فى الوجود ولأن نشوءها وترقيها أثرا فى جميع نواحى التطور الاجتماعى الأخرى .

المراتب المختلفة فى التطور الاجتماعى

ابتدع الكتاب طرقا عدة لتقسيم التقدم العالمى الى أطوار وترتيب شعوب العالم المختلفة تبعا لذلك . وأشيع هـذه الطرق هى التى تقسم الماضى الى : العصر الحجرى والعصر البرنزى والعصر الحديدى تبعا لنوع المواد التى كانت تصنع منها الأوانى والأسلحة . على أن هـذا التقسيم بطبيعة الحال غير محدود فضلا عن فرط حدوده وأنه يعتمد على وسائل غير كافية للمقارنة . وهناك طريقة تقسيم كثيرا ما يستعملونها ونراها كثيرة الفائدة وهى الآتية :

(١) عهد الصيد برا وبحرا وذلك يوم كان الانسان يعش مباشرة على طعام مما يتصيده من الحيوانات المتوحشة . ومع ذلك فلا بد أن كان هناك عصر سابق لهـذا قبل أن يتعلم الإنسان كيف يحصل على صيد البر والبحر .

(٢) عهد الرعى وذلك يوم كان الإنسان يعيش من قطعانه وأسرابه التى تعلم أن يستألفها .

(٣) عهد الزراعة وذلك بعد أن اكتسب الإنسان القدرة على فلاحة الأرض وصار فى مقدوره أن يضيف غلات الزراعة إلى موارد الطبيعة .

(٤) عهد التجارة حين كثر التبادل ونمت التجارة .

(٥) عهد الصناعة وهو الذى نشأ باختراع الآلات .

(٦) عهد الرقى الفكرى وهو أقل تحددا ودقة من الأطوار السابقة .

ولا بأس بهذا التقسيم بتاتا ولكنه لا يبين الحدود الزمنية ولا يمكن أن يستقصى بأى درجة من الدقة . فكثيرا ما وجدت جماعات كانت فيها المرأة تقوم بعمل الزراعة فى حين كان رجال القبيلة لا يزالون يصطادون برا وبحرا كما كان حال أغلب الهنود الأمريكيين . ولربما ظلت المرأة تقوم بالزراعة فى حين أن الرجل كان مشتغلا بالتجارة . وفضلا عن هذا فقد حدث كثيرا أن تخطت بعض الشعوب بعض هذه الأطوار كطور الرعى مثلا بسبب فقدان الحيوانات الصالحة للاستئلاف وكطور الزراعة بسبب فقدان الأرض الخصبة كما هو الحال فى بلاد العرب وصقع الصحراء الكبرى . ولذلك يتعذر على الانسان أن يعتقد أن كل جنس مر فى جميع هــذه المراتب التطورية . ولعل خير تقسيم مستقل وضع حتى اليوم هو ما اقترحه لويس هـ مورغان (Lewis H. Morgan) وهو كما يلى [1] :

١ — حالة الوحشية

(١) الفترة الدنيا مبتدئة بطفولة الجنس البشرى وفى أثناء هــذه الفترة نمت فى الانسان ملكة الكلام المفصل وكان الانسان يعيش على أنواع الثمار وأنواع النقل . ولم نشاهد فى عصرنا أمة وهى تجتاز مثل هذه الفترة .

(٢) الفترة الوسطى وهى المدة التى ابتدأت بالعيش على الأسماك واستعمال النار والتى فى غضونها انتشر الإنسان على سطح الارض جميعا . وقد وجد الاستراليون والبولينيزيون على هذه الحالة يوم كشفت بلادهم .

(٣) الفترة العليا وهى المــدة التى ابتدأت باستعمال القوس والسهم وانتهت باستعمال الفخار . ويرى مورغان أن صناعة الفخار هذه هى الحد الفاصل بين الوحشية والبربرية . ويمثل هذه الفترة بعض قبائل أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ولا سيما قبائل أصقاع خليج هدسون ونهر كولمبيا .

٢ — حالة البربرية

(١) الفترة السفلى وهى التى ابتدأت باستعمال صناعة الفخار وتشمل غالب القبائل الهندية الأمريكية النازلة شرق نهر المسورى .

---

[1] من كتاب (Ancient Society) صفحات ٩ — ١٢

(٢) الفترة الوسطى وهى تبتدئ باستئلاف الحيوانات فى الدنيا القديمة وبالزراعة فى الدنيا الجديدة وهى تشمل هنود القرى فى مكسيكو الجديدة وأمريكا الوسطى و بيرو .

(٣) الفترة العليا وهى تبتدئ بصهر معدن الحديد وتنتهى باستعمال الحروف الابجدية . واستنباط هذه الحروف هو الحد الفاصل بين البربرية والمدنية . وهذه الفترة تشمل فى رأى مورغان القبائل الأغريقية فى العهد الهوميرى (The Homeric Age) والقبائل الايطالية قبل تأسيس روما والقبائل الجرمانية فى أيام قيصر .

(٣) حالة المدنية : وهى تبتدئ من تاريخ استنباط الحروف الأبجدية وتمتد إلى الوقت الحاضر والمستقبل .

و إذا نحن لم نحاول أن نضع تواريخ لهذه الفترات المختلفة فسنجد هذا التقسيم مفيدا جدا على أنه ليس تحكميا بحال ما لأنه يقبل الاستثناء . إذ من المستحيل أن يعرف الإنسان هل تعد القبيلة متوحشة أو متبربرة بمجرد كونها تستعمل الفخار أو لا تستعمله . فقد لا يكون لدى القبيلة صلصال تصنع منه الفخار حين يكون لدى غيرها منه شيء كثير وهى دونها بمدى كبير كما أن اتخاذ القوس والسهم حكما أو مقياسا لا يقل عن ذلك خطأ فقد تكون الضرورة الملجئة معدومة بتاتا إذ ربما كانت القبيلة المفروضة ساكنة على شواطئ البحار وتتخذ السمك طعاما لها ولذلك لا يكون لها داع ولا فرصة للصيد البرى حين تكون غيرها مضطرة إلى اختراع طريقة ما للحصول على القنائص . ولهذا فإن الإغراق فى تطبيق تقسيم على هذا الأساس من شأنه أن يضع كثيرا من القبائل المتأخرة فوق غيرها ممن هم فى الحقيقة أرقى منها رقيا كثيرا فى المدنية . والواقع أنه يجب علينا — قبل ان نحاول تقسيما مبنيا على هذا الأساس — أن نقدر تأثير البيئة . فالأثر الذى يكون لأرض المراعى فى إطالة عهد الرعى وكتأثير خصب التربة فى التعجيل بنشأة الزراعة و إطالة عهدها وكتأثير وجود الفلزات أو فقدانها فى اكتشاف المعادن واستخدامها . إن تربية الحيوانات تسمح باجتماع الناس فى صعيد واحد بدرجة أكثر مما تسمح به حالة الصيد وهى تؤدى فى كثير من الآحيان إلى الأخذ بالزراعة وهذا يساعد على ازدحام عدد السكان و يعجل بدخول التجارة والتعامل . على أن تربية الحيوانات ربما عاقت نمو الزراعة . وقصارى القول أن من الصعب جدا أن يحاول الانسان وضع تقسيم دقيق ثابت لأطوار النشوء الاجتماعى وترقيه وإذا وضع أى تقسيم من قبيل ذلك فقصارى أمره أن يكون بمثابة معين لنا على الدراسة ولا يصح بحال ما أن تتخذه قاعدة ثابتة .

ويعطى مورغان أيضا [٢] تقسيما شائقا جدا لوسائل المعيشة مبينا فيه الأطوار المتتابعة لمحاولة الإنسان التسلط على موارد الطبيعة و بهذا يرينا إلى حد بعيد مبلغ تقدم الإنسان لأن

(٢) فى الفصل الثانى من كتابه (Ancient Society) ص ١٩ — ٢٨

كل مرحلة يقطعها فى هذا السبيل قد هيأت له وقتا أكثر للترقى الذهنى كما هيأت له غذاء منوعا ثابت المورد . فلم يقتصر أمره والحالة هذه على وقاية نفسه من الجوع والموت بسببه بل هيأت له فرصة للترقى أيضا . وتقسيم مورغان هو كما يلى :

(١) الحصول على ما هيأته الطبيعة يوم كان الإنسان يعيش على ما كان قادرا أن يجمعه من الثمار وأنواع البندق وجذور النبات .

(٢) العيش على السمك فى العهد الذى سبق عهد القنص لأن أسلحة الإنسان كانت بسيطة وقاصرة لا تفيد فى مطاردة الحيوانات البرية . والسمك كان أسهل اقتناصا . وإلى هـذا الغذاء أضيف اللحم الذى كان يحصل عليه بعـد ذلك من طريق الصيد . وكثير ما كانت بعض الشعوب تتخطى هذه الفترة تخطيا بسبب موقعها الجغرافى .

(٣) الغذاء الدقيق وكان يتألف من الحبوب التى كانوا فى أول الأمر يجمعونها فى حالتها البرية وبعد ذلك زرعوها . ثم أضيفت الخضر بعد تذ إلى هذا الغذاء .

(٤) غذاء اللحم واللبن الذى كان يحصل عليه من الحيوانات الأليفة ولا سيما البقر واللاما والإبل والخيل والمعيز والغنم والغزلان .

(٥) التغذية الغير المحدودة وذلك بزراعة الأرض ودوام إضافة خضر جديدة وحبوب وثمار مثل البطاطس والذرة .

على أنه لم يكن هناك تغير فجائى حاسم من طور إلى طور وإنما الذى جرى هو إضافة مادة جديدة إلى المورد السابق وهكذا . وبهذا زادت موارد الإنسان تدريجا وازداد تمتعه بها .

حقل الأنسان وهو فى حالة الفطرة

إن السؤال الذى يتردد دائما فى ذهن الطالب الذى يدرس النشوء الاجتماعى هو : كيف كان نوع الأنسان الأول ؟ أما من حيث جسمه فليس لدينا من العلم المقطوع به إلا الشئ القليل جدا إذ أن بقية العظام التى وجدت مدفونة من ذلك العهد ليست سوى أجزاء ناقصة لا تزيد عادة عن عظمة أو اثنتين ولكنا نستطيع من هذه وباستعمال قوة تصورنا معززة بالتاريخ وبالآثار التى تركها أن نعتبره فى جوهره شبيها بابنائه فى الوقت الحاضر ، وإنما يختلف هنا وهناك تبعا للظروف المناخية والبيئة التى أثرت تأثيرا عظيما فى أسلوب حياته على النحو المشار إليه فى الفصلين الثانى والثالث .

ولكن الذى يهمنا أكثر من ذلك فى علم الاجتماع هو نوع العقل الذى كان للانسان الأول أكان عقله نصف إنسانى أم كان مساويا فعلا أو مساويا تقريبا من حيث الكفاية

العقلية لعقل الانسان فى يومنا هــذا ؟ إن من حسن الحظ أن لدينا من البينات التى نستطيع بفضلها أن تقارن بين عقل الانسان الأول وعقل الانسان الحديث أكثر مما لدينا للمقارنة بين جسميهما أو أن لدينا الأوضاع التى أنشأها و بعضا من مخترعاته لأنه ترك وراءه بقايا من عدده وآلاته وأسلحته وحليه ويجمع الانتروبولوجيون (الباحثون فى أصل الانسان) فيما بينهم بوجه الاجمال استنادا إلى هذه البينات على أن الانسان الأول كان له بالتقريب نفس الجهاز الذهنى الذى لانسان اليوم وأنه كان يستخدم فى معالجة مصاعبه وحل مسائله نفس الكفاية الذهنية التى يستخدمها انسان اليوم .

وهــذا الأمر يثير فى نفسنا السؤال الآتى : لمــاذا نرى بعض الشعوب اليوم أرقى من غيرها ؟ وكذلك لمــاذا نرى بعض الشعوب تقدمت وبعضها لم يتحرك؟ والجواب على ذلك أن بعض الشعوب قد حصّلت أكثر من غيرها لا لأن الطبيعة قد حابتها من الوجهة العقلية بل لأنها كانت نازلة منازل جغرافية أليق وأصلح واتصلت لهــذا بموقظات و بواعث أكثر وأفعل . ولذلك تقدمت بسرعة أكثر من سواها . فاذا راعينا هذا لم يجز لنا أن ندعى أن الجنس الأبيض أرقى ذهنا من غيره استنادا الى كثرة ما حصّله . فالمؤثرات الجغرافية والتاريخيــة هى الأصل فى تفوق الشعوب الأوربية وسيادتها لا الكفايه الذهنية الفطرية .

تنتقد الشعوب الأولية لفقدانها خلة ضبط النفس ولكنا اذا فحصنا الأمر بعناية نجد أن الانسان فى حالة الفطرة يضبط نفسه فى بعض الظروف التى يرى فيها هــذا الضبط ضروريا كصبره الجسمانى على الألم والتعذيب وتحمله الجوع والعطش وغير ذلك من المكاره . ويقولون إن الانسان الفطرى تعوزه قوة تركيز انتباهه . ولكن هذا القول منقوض بأن الذى يراه الرجل الأبيض جديرا بالانتباه لا يراه الانسان الفطرى كذلك وأنه يبدى ما يبدى الرجل الأبيض من القدرة على تركيز التفاته الى الأمور التى يراها ذات أهمية مثل إتقان الأسلحة التى يستعملها للصيد أو مراقبة عادات الحيوانات التى يقتنصها . وقيل أيضا أن رجل الفطرة عديم الآراء المجردة . ولكن لمــا كان فى غير حاجة لازمة إلى مثل ذلك فانه لا يكلف نفسه تنميتها فى عقله ؛ أما الرجل المتمدين فهو فى أشد الحاجة إليها .

" ليس بمستحيل أن تختلف درجة نمو هذه الوظائف نوعا ما بين أجناس الانسان ولكنى لا أعتقد أن فى استطاعتنا فى الوقت الحاضر أن نضع تقــديرا عادلا للقوى العقلية الموروثة فى الأجناس المختلفة . نعم أن مقارنة لغاتهم وعاداتهم وأعمالهم تدل على أن قواهم الذهنيــة ربما لم تكن متساوية فى درجة النمو ولكن الاختلافات ليست من الكفاية بدرجة تبرر لنا أن نلحق بعض الشعوب بأطوار منحطة انحطاطا جوهريا ، وأن نلحق غيرها بأطوار أرقى . ولهذا فالنتائج التى نحصل عليها من هذه الاعتبارات هى على وجه الإجمال سلبية . ونحن لا نميل إلى اعتبار الجهاز الذهنى فى الشعوب المختلفة متباينا فى عناصره الأساسية . اذن فإن توزيع القوى

الفكرية بين أجناس الانسان أمر لا نستطيع ادراكه . ولكنا نستطيع أن نقول هذا : إن متوسط القوى الفكرية التى للجنس الأبيض موجود بدرجته فى جزء عظيم من أفراد سائر الشعوب وأنه وإن كان يحتمل أن لا يكون بعض هذه الشعوب قادرا على انتاج نسبة كبيرة من عظماء الرجال كما يقدر جنسنا على ذلك فليس هناك سبب يدعونا الى أن نظن أن هذه الشعوب لا تقدر أن تبلغ مستوى المدنية الذى يمثله جمهرة شعبنا[٣] وقال بواز (Boas) أن نمو الثقافة بين جميع أجناس البشر المختلفة وبين وحدات القبيلة نموا متشابها متماثلا أمر صحيح ، ولكن الى درجة محدودة فقط . أما الزعم أنه يجب بالضرورة أن تنشأ الأشكال بعينها فى كل وحدة اجتماعية مستقلة فأمر لا يمكن التسليم به . أما إن ممثلى الأجناس المختلفة قد تطور كل منهم مستقلا بحيث صار ممثلو بعض الأجناس على مستويات منحطة من الثقافة حين أصبح غيرهم على مستويات عالية فأمر يمكن الاجابة عليه بالسلب. واذا حاول انسان أن يرتب مختلف الأجناس البشرية تبعا لرقيهم الثقافى نجد هناك ممثلين لأجناس مختلفة جد الاختلاف مثل البوشمان (Bushmen) فى أفريقيا الجنوبيـة والفدا (Veddah) فى سيلان والاستراليين وهنود بلاد النار (Tierra del Fuego) على نفس المستوى الأحط كذلك نجد ممثلين لأجناس مختلفة على مستويات أرقى مثل زنوج أفريقيا الوسطى وهنود بويلوس (Pueblos) الجنوبية الغربية والبوليتيزيين وقد نجد فى عهدنا الحاضر ممثلين لأجناس مختلفة جد الاختلاف مشتركين فى أرقى نماذج المدنيه .

من هذا يرى ان ليست هناك علاقة وثيقة بين الجنس والثقافة [٤] .

ولا بد لنا أن نقبل بوجه عام الحكم القاضى بأن تدريب العقل هو فى غالب أمره كنشوء المخترعات وليد الضرورة وأن الرجل المتوحش هو إنسان مفكر بقدر ما تضطره البيئة إلى التفكير . وفى الفقرة التالية المقتبسة من كتاب توماس (Thomas) خلاصة حسنة جدا لمجمل ما استنتجناه فيما يختص بمقارنة الرقى الفكرى بين الشعوب .

" إن اتجاهات الانتباه الفكرى وبساطة أو تعقد العمليات الفكرية تتوقف على حالة الظرف الخارجى الذى يجب على العقل أن يتأمله . فاذا كانت الأعمال اللازمة بسيطة كان العقل بسيطا وإذا كانت الأعمال معدومة كان العقل معدوما . ليس العقل إلا واسطة لتناول العالم الخارجى ويصبح ادراك العدد والزمن والمسافات كما تصبح أنظمتها أرقى وأدق

---

(٣) ص ١٢٢ — ١٢٣ من كتاب بواز (Mind of Primitive Man)

(٤) كتاب بواز السالف الذكر ص ١٩٥ — ١٩٦

لا بازدياد نمو الذهن الانسانى فى الكفاية بل بكون الأعمال أكثر تنوعا وأشد تطلبا لنظم قيد وقياس أوسع مدى وأكثر دقة» [٥] .

فالتقدم إذن نتيجة البيئة والخبرة وهو مجموع المعارف والتحصيل الدائم على مضى الزمن وقد كان لبعض الشعوب اتصال بظروف وأحوال متغايرة أكثر من سواهم ومن ثم تقدموا بخطى أوسع . والمخترعات التى كانت سببا فى الاحتفاظ بالمعرفة والتحصيل وتسليمها إلى الخلف مثل اختراع الحروف الأبجدية والطباعة ووسائل المواصلات ساعدت كلها على تقدم الانسان بسرعة أكثر وأعجل . هذه النتيجة الخاصة بالمواهب والقدرة الفكرية صحيحة فى تطبيقها على الأجناس لا على الأفراد فى تلك الأجناس .

تطوّر اللغة

اللغة من الخصائص المكتسبة التى يجب أن يتعلمها كل فرد وكانت من أوائل الأوضاع الانسانية. والمراد باللغة قوة الاتصال العقلى بجميع أشكاله سواء أكان الاتصال شفويا أم كتابة أم بالاشارة أو الايماء فهى أعم من الكلام الشفوى كثيرا . والواقع أن استخدام اللغة هو من أخص الأعمال الانسانية إذ تحتاج إلى كفاية عقلية ليست فى الحيوان . واللغة نتيجة محاولة بنى الانسان أن يفهم بعضهم بعضا . هى وليدة العقل بيد أنها تعين على نمو العقل . وهى نتيجة الفكر ومحاولة التعبير عن الفكر . وفضلا عن هذا فانها تنبه الفكر . وبهذا تؤدى إلى تحصيل أعظم . واللغة والشعور الاجتماعى يتمشيان معا .

وما يسمى لغة الحيوانات ما هو فى جوهره سوى صيحات . ولقد كانت لغة الإنسان فى أول عهده من هذا القبيل أى انها متركبة من أصوات متقطعة تعبر عن الانفعالات النفسية كالفرح والكراهة والدهشة والخوف والحب أو الارتياح . على أن هذا لا يعد من اللغة بمدلول لفظها اليوم لأنها لا تعبر عن الفكر بل تدل على الانفعالات فقط . وكانت الأسماء أول ما اخترع من مبانى الكلام بعد أصوات الانفعال نتيجة لمحاولة الانسان تعريف الأشياء . ولقد كانت التسمية فى الجملة تبعا لخصيصة ما من خصائص الشىء بيد أنه لا يحتم ذلك فى كل حال . فكثيرا ما يحدث أن يتأثر أشخاص مختلفون فى جهات متباينة مترامية أو أزمنة بعيدة بأوجه مختلفة للشىء الواحد ويحدث اختلاف فى تسميتها تبعا لذلك. وفى بعض الأحيان لم يكن هناك ارتباط ظاهر بين الشىء واسمه وانما كان الاسم نتيجة جهد بذله الانسان لتمييز الشىء . ثم أتت الأفعال بعد الأسماء للدلالة على الحدث وبعد ذلك أتت الكلمات الدالة على

---

(٥) كتاب توماس (Thomas) باب عقل المتوحش فى كتابه المسمى (Source Book for Social Origins ص ١٦٣

أجزاء الكلام الأخرى كما نعرفها الآن . ولقد نمت اللغة الكلامية تدريجيا ولكن الأرجح أنها سارت بسرعة عظيمة بعد أن بدأ الانسان يمارسها . ولما شرع الانسان يتخذ لنفسه مكانا مستقرا وأصبح اتصاله بأضرابه من بنى الانسان اتصالا مستمرا أكثر مما كان ظهرت له حاجة كبيرة الى استعمال وسائل أفضل للواصلة وكانت نتيجة هذه الحالة نزوع اللغة الى الاستقرار على صورة محدودة وزاد مجموع كلمات الانسان بالتدريج تبعا لذلك . ولم يكن الاتصال بالحاضرين كافيا بل ولا ميسورا فى كل وقت حتى باللغة الكلامية لأن اللغات كانت مختلفة ولذلك كان الانسان مضطرا الى ابتداع وسيلة أخرى ألا وهى اللغة الرمزية التى أصبحت عامة والتى يرجح أنها سبقت اللغة الكلامية . وفضلا عن هذا فقد استشعر الانسان حاجة الى الأتصال بمن كانوا منه على بعد فى المسافة أو الزمن . ولذلك كان لا بد من توسيع نطاق اللغة لتشمل ذلك كله فاستنبط الانسان اللغة الرمزية التى تعتمد على الإشارات الدخانية أو دق الطبل كدأب أهالى أفريقيا اليوم وهنود أمريكا فيما مضى ليتغلب على المسافات. وقد اخترعت اللغة الكتابية لتمكين البعيدين بعدا مكانيا أو زمنيا من الحصول على الأخبار . وقد كانت اللغة الكتابية الأولى على صورة موقظات للذاكرة مثل عمل فاول فى العصى التى يحملها الرسل بين سكان أستراليا لكى لا ينسوا ما أرسلوا فيه . وكانت الخطوة الثانية فى سبيل ذلك هى اللغة الصورية أو الرمزية إذ يرسمون صور الأشياء أو يستعملون رموزا للدلالة عليها . ولقد كانت الكتابة المصرية الأولى على هذا الشكل . وجاءت الخطوة التالية بالحروف الأبجدية الصوتية التى تمثل فيها الرموز أو الحروف أصواتا كالتى يستعملها الرجل المتمدين فى هذه الأيام . وهناك خطوة عظيمة أخرى هى اختراع الطباعة التى قد تعد وسيلة من وسائل المدنية تعادل فى أهميتها فن الكتابة . فإن الكتابة قد أتاحت تدوين الماضى ولكن الطباعة قربته من متناول الناس جميعا . فلقد كان كل التاريخ والاستكشافات والمعلومات قبل اختراع الكتابة ينتقل إلى الخلف بالكلام الشفوى الذى لا يؤمن حدوث التبديل فيه أو ضياعه . ولقد كانت المدونات قبل اختراع الطباعة تنسخ باليد بمشقة كبرى ولذلك كانت غالية القيمة ولا تصل إلا إلى عدد قليل من الناس . هذا وقد جعلت الطباعة العلم ديموقراطيا . فالتحسينات التى أدخلت على وسائل الطباعة التى بلغت فى المطابع الحديثة وآلات اللينوتيب (Linotype) والمونوتيب (Monotype) درجة راقية عالية قد ساعدت مساعدة عظيمة على نشر العلم بين جماهير الناس . على أن اللغة ليست بحال ما فى درجة الكمال . فإننا لا نزال نضيف إلى مجموع الكلمات شيئا جديدا ونغير أشكالها من حيث الهجاء وقواعد اللغة ولا نفتر عن اطراح الاختلافات فى التصريف وتغيير أواخر الكلمات بحسب الأحوال مكثرين من استعمال المقاطع المعدلة للمعنى والتعبير عن

المعانى التى تريدها . ولا ينقطع ظهور كلمات جديدة وبعضها يتكون بتركيب كلمات قديمة لتسمية أشياء جديدة أو للإدلاء بمعنى جديد وبعضها يقتبس من لغات أخرى لهذه الأغراض — وهو ما يشاهد فى اللغة الانجليزية إذ أخذت مقادير عظيمة من اللغات اللاتينية والإغريقية والرومانية (أى اللغات الأوربية الجنوبية المولدة من اللاتينية) . وهناك أيضا كلمات جديدة تصاغ صياغة كلية ومن هذه الكلمات ما يرفض قبوله فى أول الأمر ولا سيما الكلمات " السوقية " فاذا مضى عليها وقت تطرق بعضها الى قواميسنا وأساغتها اللغة . هذا ومن شأن الظروف والتجارب التى تستجد أن تأتى بألفاظ جديدة كما فعلت الحرب الأخيرة . ولهذا فاللغة وان كانت نتيجة من نتائج الرقى الاجتماعى للإنسان فإنها جعلت الرقى الاجتماعى للإنسان ممكنا وبدونها تصبح المدنية العصرية مستحيلة تماما . وهى نتيجة من نتائج العقل غير أنها فى نفس الوقت بمثابة أقوى منبهات العقل. ولعلها أرقى عمل اجتماعى عمله الإنسان .

الاختراعات

من منتجات عقل الإنسان أمر يعد دليلا بالغا يعرف به سبيل التطور الاجتماعى الذى سلكه الإنسان ألا وهو الاختراع . فبه يتيسر لنا أن نقارن بين الانسانين الأول والحاضر مقارنة دقيقة . على أن البيئة الجغرافية كانت من دواعى الاختراع ومن أكبر الدوافع اليه لأن المخترعات ليست سوى نتائج جهود الإنسان فى سبيل الحصول على حاجاته فهى وليدة الضرورة وتقوم الطبيعة بعمل المستحث فى هذا الصدد فاذا كانت هناك حيوانات برية كان وجودها مغريا باختراع الأسلحة كالقوس والسهم والفخاخ والشراك . واذا كان الناس يحصلون على طعامهم من الماء وجهوا قواهم العقلية بعينها صوب اختراع الشباك والشصوص والجوابى والقوارب. واذا كانت الزراعة هى وسيلة المعيشة اتجهت القدرة الاختراعية الى عمل الفئوس والمحاريث ووسائل الرى . واذا كان الطعام نادرا فى الشتاء اخترعت وسائل حفظه كالتبريد والتدخين والتجفيف ومعالجة اللحم والسمك بالتتبيل والتمليح ، وتجفيف الثمار وخزن الحبوب . وكما حدث بعد ذلك فى أيام المدنية من تعبئة جميع أنواع الطعام فى العلب . وإذا كان الانسان يعيش فى جوار الماء فإنه يخترع القوارب يصنعها من أى مادة تتيسر له ولا سيما جذوع الأشجار أو لحائها أو من الجلود ويصدق هذا القول على جميع الاختراعات . أى أن البيئة والضرورة كانتا أكبر معين على العمل اللعقى: الأولى توحى وتشير والثانية تلزم وتوجب . قيل إن الانسان إنما اقتبس فكرة كثير من أسلحته مما حوله من الحيوانات فأخذ صورة الحربة عن ذوات القرون أو الأنياب وأخذ فكرة القوس عن الفرع المنحنى أو الشجيرة المقوسة فى الغابة وأخذ فكرة المدية والخنجر والأسلحة المسننة من أسنان الحيوانات واستعمال السموم من الحشرات السامة والزواحف. واستعمال الأسلحة الدفاعية ولاسيما الدروع واللامات

من الجلود القاسية أشباه جلود الخرتيت والجاموس والدروع التى على شـكل الصفائح والحراشيف من التمساح . نعم كانت هذه ولاشك منبهة له إذ أن الإنسان كان أضعف بدنا من كثير من الحيوانات التى حوله اضطر إلى أن يخترع وسائل تعينه على الحياة. ولعل الهراوة كانت أول اختراع وفق اليه لاستشعاره على الأخص حاجة شديدة الى وسـيلة يضرب بها ضربا أشـد وقعا من قبضته وأبعد من ذراعه . وكانت الحراب والمقاليع بمثابة خطوة تهذيب وتحسين للهراوة. وكانت القوس والنبل خطوة أخرى بعد ذلك . وعلى مضى الزمن حلت البندقية والمدفع الذى يطلق بالبارود محلها . هـذا وقد كان كفاح الإنسان مع الحيوانات ومع غيره من بنى الانسان ملزما له أن يهذب سلاحه فقـد كانت الغلبة فى القتـال للقبيلة أو العصابة التى فى يدها أحسن الأسلحة . أما التى كانت أسلحتها أضعف فكان نصيبهـا الهزيمة . ولذلك كان الانسان مضطرا أن يتخذ خير سلاح تصل اليه يده . والأفراد أو الجماعات التى لم تعن بذلك فنيت و بادت وهذا ما دلت عليه الحرب الأخيرة دلالة كبرى

ولقد دلت الاختراعات الأولية على مقدرة ذهنية وذكاء لا يقلان عما هو مشاهد اليوم . بل أنا لنرى أحيـانا أنها كانت فى الواقع منتجات أعظم . ولقـد كان تطور استخدام النار عملا عظيما لا يقل عن استكشاف الكهرباء وكان أثره فى المجتمع أقوى وأبعد . وليس اختراع المدفع الحديث الذى قطره ٤٢ سنتيمترا والبندقية البعيدة المرمى والمدفع الرشاش أعظم من صنع أول قوس وسهم اللذين تعـد تلك المخترعات الحديثة مجرد تحسينات فيهمـا . فالفكرة واحدة وهى إلقاء قذيفة . وكان استنباط الحروف الأبجدية من بعض الوجوه عملا أعظم من اختراع آلة الطباعة . إذ ما كان يمكن اختراع هذه الآلة بدون الحروف الأبجـدية . كذلك المواعين الزجاجية والصينية فأنها ليست إلا تقصيا للفكرة التى أنتجت الفخار. وقصارى القول أن جميع الاختراعات الحديثة تعتبر فى غالب الأحوال مجرد تحسينات فى الاختراعات الأولية . وتكاد تكون كل وسيلة أو آلة مستحدثة اليوم مجرد تحسين لوسيلة أو آلة سابقة .

ومن المدهش أننا نجد أن كثيرا من عددنا وحيلنا الميكانيكية الحديثة كان معروفا للإنسان الأولى لا فى صورته التى هو عليها من الكمال بطبيعة الحال بل فى صورة أبطأ وأقل صلاحية . فقد كان عند الانسان الأولى فكرة الشىء وطريقة صنعه ونحن أدخلنا عليه تحسينا . كان لدى الانسان الأولى من عدد القطع السكاكين والمجزات والمساحج والفئوس والأزاميل والمساحل والمقشرات والمصاقل والمناشـير . نعم كان يصنعها من الحجر والعظام والأصداف والأسنان وقطع الخشب ولكنه كان يبدى ذكاء عظيما فى تركيب الأيدى اللازمة لهـا بعمل القنوات وعمل الثقوب وفى البرشمة اللازمة والتخرية والكرب . وكان يصنع أيضا عددا تخرز مثل المثقب والمخرز والابرة وكان يستخدم الكماشات والملاقط والمناجل والكماسات وجميع الوسائل المنطوية على الذكاء فى ربط العقد وزم الأشياء بعضها الى بعض .

وربما كان من أعظم ذلك شأنا استخدامه كثيرا من الحيل الميكانيكية وقوانين علم الفوسيق ولا سيما ما ينطوى عليه استعمال الرافعة والخابور والعجلة والمحور والبكرة والبريمة والسطح المائل والمحلة وكلها من مخترعات الانسان الأولى ومستعملاته فى أعمال حياته اليومية فقد كان يتخذ الخابور لشق الأشجار والبكرة لرفع الأثقال العظيمة والرافعة لزحزحة الأجسام الثقيلة والسطح المائل لينقل الجرم الثقيل الى مكان أعلا . ولقد كانت الكفات والموازين مستعملة أيضا فى عهد الانسان الأولى . ومن الجائز أن لا يكون المتوحش قد فهم القوانين الضابطة لهذه العدد بل المرجح أنه لم يدرك أن هناك شيئا اسمه قانون ولكن استعمال هذه الحيل يدل على أن المتوحش كان له عقل لا يقل جودة عن عقل الرجل المتمدين حتى وأن لم يكن قد تمرن مثله . وما المدنية إلا اجتماع المعرفة . وما التقدم إلا تراكم ما حصله الانسان بعضه فوق بعض .

أثبت الانسان فى مكافحة الطبيعة تفوقه عليها وأخضعها لإرادته فقد غيرت بيئة الحيوان من صورته وشكله أما الانسان فأثبت سيادته على البيئة . نعم أثرت فيه الطبيعة تأثيرها ولكنه لم يكن يوما ما عبدا لها ، بل ألزمها أن تخدمه ويجوز أن يكون تقدم الانسان قد حدث فى أول الأمر مصادفة بيد أن هذا التقدم صار بعد ذلك عن قصد ولغرض. لم يرض الانسان أن يترك الأمر الذى لا بأس به عند درجته بل كان دأبه العمل على استكماله ولقد أبى مصرا أن تقهره الطبيعة أو تحبط عمله فأخذ بلا انقطاع يكسر نيرها وقيودها ويعمل حتى أصبح سيدها . المادة والحركة لا يمكن اعدامهما بل الممكن هو تغيير صورتهما وتسييرهما فى مجرى ينفع الانسان ولا مشاحة فى أن هذا التحويل الشكلى تنتجه أفكار جديدة . ولم تكن الاختراعات بحال ما استكشافات بخائية بل هى مولدات نمت فى بطء أو مجموعات من الآراء تراكم بعضها فوق بعض . ولقد كان الاختراع فى المبدأ بطيئا جدا ثم أصبح بتقدم الانسان أسرع خطوا وبفضل تحسن حال المواصلات أصبح اختراع الشىء مؤديا الى ظهور غيره وغيره . وكذلك كان الاختراع والاستكشاف مترابطين فالاختراع يؤدى الى الاستكشاف وهذا يؤدى الى الاختراع . فلقد كان علينا أن نستكشف قوى البخار والكهرباء قبل أن نتمكن من اختراع الآلة البخارية والتلغراف وقد أدى هذان الاختراعان الى أنواع أخرى من الاستكشافات يسرت هى أيضا فى دورها اختراعات أخرى . ولقد ساعدت الاختراعات الانسان على أن يستخدم خيرات الطبيعة على صورة أفضل، وكانت أيضا بمثابة صوى قائمة فى طريق التقدم تؤذن بعهود أجل وأرق . فهى مدركات بشرية لم يبلغها الانسان إلا بتفوق فى مقدرته العقلية .

تطور الملكية

في المبدأ لم يكن للانسان ما يملك ما لم يسم الطعام الذى لم يستنفده بعد ملكا . ونظرا لأن الملكية تتوقف على اختراع شيء فلعل أول نوع محدود من الملكية هو الهراوة ثم أضيف اليها كل سلاح آخر بمجرد صنعه، ثم دخلت الادوات الخاصة بالشخص في عداد ما يملك كأدوات الطبخ والمصائد والشصوص والشباك بل وجميع ما يستخدمه الانسان المتوحش عونا له في مكافحته الطبيعة . أما الملابس والحلي فقد أضيفت بعد ذلك لأن الانسان في مبدأ أمره لم يكن يلبس ثيابا . وانما نشأت الملابس في أول العهد بمثابة حلي ولم تتخذ إذ ذاك للحشمة أو للتدفئة . ولكن هذين الغرضين وجدا على مضي الزمن . فانه بعد أن اعتاد لبس الثياب نشأت لديه خلة الاحتشام فصار يستحي أن يسير بدونهـا عاريا . كما أن استعمال الملابس للتدفئة نتيجة العادة . وكانت الثياب تصنع من جلد الحيوانات ولحاء الشجر وأوراقه ومن الحشائش مضفورة . أما الحلي فقد اتخذ منها كل ما راق له مبتدئا بمحاولاته الأولى في التزين ومتطرقا الى الجواهر الثمينة والأردية المستحدثة في غضون عهود الترف . ولما انتقل الانسان الى حياة الرعي نشأت ملكية الأسراب والقطعان . وكذلك نشأت في هـذه الحقبة بل وعلى الأخص في الحقبة الزراعية ملكية الأرض التي كانت صالحة للرعي والزراعة أي الأرض التي كان ريها سهلا وتربتها خصبة أو التي كانت قريبة من عين ماء . وقبل هذا كانت الأرض التي تشتمل على مغارة أو محل صالح للسكنى ، معدودة من الممتلكات بشرط أن يكون الشخص النازل بها من القوة بحيث يستطيع أن يستولي عليها .

كانت الحياة الأولى شيوعية الى حد كبير سوى أن أقوى أفراد الطائفة وأسرعها كان المميز فيها وكان الفرد يستبقي ما يملكه بقوة ذراعه ويفقده اذا هو عدم هذه القوة . ولكن لما كانت الاختراعات قـد أحدثت الملكية نشأت الحكومة شيئا فشيئا (كما سنرى في الفصل التالي) ووضعت قواعد لحيازتها فاعترفت بحق الملكية الشخصية . والواقع أن الملكية الشخصية كانت من البواعث على نشوء الحكومة اذ كانت تتطلب قواعد ثابتة لجري عليها وقوى ادارية لتنفيذها وقضاة للفصل في المنازعات . وبترقي فكرة الملكية نشأت وسائل المبادلة . وفي أول العهد كانت الأدوات تتبادل بالمقايضة . وكان الانسان الذي يملك أشياء يريد أن يستبدل بها أشياء أخرى مضطرا أن يبحث عن شخص تكون عنده هـذه الأشياء الأخرى ويكون مستعدا أن يبادله إياها . ولقد كانت هذه طريقة ثقيلة جدا ولذلك نشأت بالتدريج فكرة أن يستبـدل بالأشياء شيء مطلوب بصفة عامة أي شيء يمكن أن يعطى بسهولة عوضا عن الشيء الذي قد يرغب فيـه المرء . ولقد استعملوا مواد طعام عامة وسائط للمبادلة كالأرز مثلا والحنطة والذرة والسمك والفول والبندق والتين والبلح والملح والجوز الهندي والشاي

والبن أو مادة من مواد الكساء كالفراء والقطن والحرير أو الحيوانات المنزلية ولا سيما الماشية أو مواد الزينة كالخرز والودع والريش والأصباغ ومنها العبيد بل والنساء وأخيرا استخدمت المعادن الكريمة . وكان لابد لهم أن يختاروا المواد التى كان يحتاج إليها كل الناس أو كثير منهم أى المواد التى كانت لها قيمة أساسية بصورة ما والتى كان يسهل نقلها . ولقد نشأت الأسواق بعد ذلك بل لقد كانت فى بعض الأحيان راقية جدا حتى بين المتوحشين فقد كانوا يتخذون لها أماكن خاصة فى الغابة ويضعون قواعد لحماية من يذهبون إليها أو يعودون منها . ولقد كانت المعاوضة فى أول الأمر هى الوسيلة الوحيدة المتاجرة فى تلك الأسواق ، ولكنهم بعد ذلك استخدموا وسائط المبادلة العامة التى كانت شائعة يومئذ . ولقد اطردت الزيادة فى ترقى الملكية بتقدم المدنية فوضعت القوانين لحماية الملكية وكانت فى بعض الأوقات بالغة حدا أصبحت فيه ملكية الإنسان محمية أكثر من حياة الإنسان نفسه . على أن الاتجاه فى الوقت الحاضر هو بخلاف ذلك .

تطور الصناعة :

أدت الملكية إلى نشوء الصناعة ولقد كان من الضرورى لترقية الصناعة تقسيم العمل . وكان أول مظاهر تقسيم العمل تقسيمه بين الرجل والمرأة فكان الرجل يقوم بصيد الحيوان وصيد السمك ونصب الفخاخ ورعاية القطيع والقتال حين كانت المرأة تتولى شئون الأطفال واعداد الطعام والعمل فيما حول المنزل وفى ذلك أعمال الزراعة عادة . ثم حدث بعد ذلك أن وجد بعض أناس أنهم أقدر على القيام بعمل بعينه من قيامهم بغيره ولذلك اقتصروا على هذا العمل واستبدلوا بمنتجاتهم منتجات غيرهم . وجد بعضهم أنهم كانوا ماهرين بصفة خاصة فى صناعة القسى والنبال أو نظم عقود الودع أو أدركوا أنهم يستطيعون أن يحتوا قوارب ممتازة النوع عن سواها . ويصدق هذا بوجه خاص فى هنود أمريكا . وفى القبائل الافريقية نجد الحدادة حرفة للبعض . يقصدهم الآخرون فيما يحتاجون اليه من الأعمال الحديدية . ولقد مهدت المعاوضة والمبادلة طريق التخصص وبارتقاء حالة المبادلة والتجارة زاد هذا التخصص. ونشأت الحرف اليدوية فى أيام الأقطاع ونشأت فى بعض البلاد صناعات خاصة كان يتوارث الأبناء أسرارها عن الآباء . وفى الأقطار التى كانت فيها عادة الرق نامية نموا عظيما كان عمل الرقيق منظما على هذه الخطة اذ كان الأرقاء يعملون الصناعات المختلفة وكان كثير من الضياع منظما تنظيما عاليا اذ كان بها مئات وألوف من العبيد يقومون بكثير من الصناعات المختلفة وفيما بعد ذلك نشأت نقابات العمال (Guilds) ولا سيما فى بلدان ألمانيا وكانت هذه فى الحقيقة نقابات موصدة الأبواب تحتفظ بأسرار صناعتها المختلفة فلا تخرج عنها ولا تقبل الا عددا محدودا من التلاميذ .

ولكن ظهور طبقة التجار وانحطاط النقابات كان سببا فى ظهور الصناعات البيتية — المعروفة بالنظام المنزلى — ثم باختراع الآلة البخارية والنول المدار بقوتها وكثير غيره من الآلات حبطت الصناعة المنزليــة بتأثير المقدرة الإنتاجية الهائلة للآلات الصناعية وعبد السبيل لعصر المعامل (Factory Age) ولقد ترتب على هــذا التغير حدوث آلام مبرحة للناس وفقر شنيع كما أنه زاد فى أثقال العامل ولكنه أدى بطبيعة الحــال إلى زيادة الإنتاج وكان فى نهاية الأمر خيرا وبركة . على أن هذا النظام لا يزال آخذا فى التغــير فهو سائر إلى ما يسمونه " العمل الواسع النطاق " أى تركيز رأس المــال فى الصناعات الكبيرة وهى خطة أحدثت فى دورها اضطرابا عظيما إذ أنها ضيقت الخناق على أصحاب الصناعات الصغيرة .

وبزيادة مدى الصناعة حدث تقسيم أكبر فى العمــل . كان الرجل فى نظام الحرفة اليدوية يقوم عادة بعمــل الشئ برمته ، كأن يصنع زوجا من الأحذية أو كرسيا أو مركبة أما اليوم فتبعا لتقسيم العمل فى المصنع الحديث لا يقوم إلا بصناعة جزء واحد فقط ويسلم الشئ الذى لم يتم إلى شخص آخر خلافه وهذا يعمل فيه عملا ما ثم يسلمه إلى يد أخرى . وقد ارتقى هذا النظام رقيا كبيرا باختراع الآلات العصرية بحيث أصبح الشئ العادى كالحذاء أو القبعة يمر فى أيدى مئات من الأيدى فى المصنع ذاته بله أولئك الذين يتناولون المــادة الغفل قبل أن تصل إلى المصنع وأولئك الذين ينقلون ويبيعون الشيء التام الصنع . ولقد أصبح الأنسان بهذا التقسيم عظيم الحذق والاتقان قادرا على أن ينتج مقادير كبيرة وبذلك ساعد المجتمع على الحصول على مقدار أكبر من السلع ما كان يستطيع الحصول عليه لولا ذلك . ولكن هذه الحالة جلبت معها مشاكلها كما سنرى فيما بعد .

الآثار الاجتماعية للرقى الصناعى

ان أول فائدة عظيمة استفادها المجتمع من الرقى الصناعى هى بطبيعة الحال زيادة الأنتاج أذ أن هذا الرقى الصناعى يخرج مقدارا أكبر من السلع التى تسد بها الرغبات الأنسانية وتسمح للانسان بدوام التقدم . ولكن نفس هذا التجميع للثروة قد زاد مشكلة التوزيع صعوبة فانه لم يحدث مطلقا فى تاريخ الدنيا أن وزعت الثروة توزيعا عادلا ، بل كان القوى هو صاحب الاحتكار دائما. وليس العامل الفاصل فى يومنا هذا هو القوة البدنية وأنما هو الاقتدار الذهنى وقد أدى سوء التوزيع — وأن كان ضروريا وفى كثير من الأحيان عدلا — الى منازعات لا حد لهــا والى عداء بين الطبقات والى الخصومة والمعارضة . لقد كان العامل فى عصر الأحتراف اليدوى هو صاحب المحل أيضا وكان يملك ما ينتج، أما فى النظام الصناعى الحاضر فإنه يشتغل بالأجرة التى يحددها العرض والطلب للعمل، وهى غير تابعة لمقدار الإنتاج العملى

إلا فيا يختص بالحــد الأعلى . وبهذه الطريقة أصبح العمال عرضة للاستغلال . وأشهر ما كان من أمر ذلك فى مفتتح عهــد الانقلاب الصناعى فى انجلترا وذلك فى الأعوام الأولى من القرن التاسع عشر يوم كان صاحب المعمــل يدفع أقل ما يستطاع من الأجور . فدفع هــذا الأمر جمعيات العمال إلى مقاومة الاستغلال وإلى نشوب خلاف شديد بين العمال وأصحاب رأس المــال تتخلله حوادث إضراب وطرد وكانت هذه الخلافات تؤدى فى غالب الأحيان إلى استعمال الشدة القصوى من جانبى المتنــازعين . أما الروح السائدة اليوم فهى تميل إلى التحكيم فى منازعات العمال كما جرى عليها الحال فى بعض الأقطار ولا سيما زيلاندة الجديدة . على أن أصحاب رءوس الأموال والعمال جميعا يقاومون هذه الحركة إذ يفضلون أن يفضوا ما بينهم من نزاع من غير أن تتدخل بينهم سلطة خارجية .

ولم تكن نتيجة التقدم الصناعى زيادة إنتاج العامل فحسب بل جعلته قادرا على أن ينجز العمل فى وقت أقصر فساعات العمل فى المصانع الحديثة أقصر بكثير منها فى عصر الحرف اليدوية وقلق العامل فيها فيا يختص بالحصول على الطعام واللباس والمأوى لنفسه ولأسرته أقل من قلق الانسان فى عهد الفطرة اذ كان كل اعتماده على جهوده فى هذا الصدد . ولكن بناء المدن الصناعية قد جرّ معه اهمال راحة العمال اذ يصحب ذلك فى كثير من الأحيان سوء المساكن واهمال العناية بالشئون الصحية وفساد المناطق المجاورة وخلو الحياة المنزلية من أسباب السرور . هذا ولم تكن ظروف المصانع منطبقة دائمــا على الأصول الصحية بل الغالب أنها كانت على نقيض ذلك . وقد اضطر المجتمع ازاء هذا الاهمــال أن يتدخل فى الأمر ويلزم أصحاب المصانع اما بقوة الرأى العام أو باصدار تشريع بأن يعنوا بمصلحة عمالهم . ولقد أحدث الترقى الصناعى نظاما مشتبكا من التعاون على أن العامل أصبح فى هذا النظام بمثابة قطعة من آلة فقد أخمدت شخصيته وأهملت راحته وسعادته فان العمل على الطريقة الحديثة التى لا يطلب من العامل فيها الا أن يعطى المــادة المراد صنعها لمسة ثم يناولهــا لمن بعده ويأخذ بدلهــا ليعطيها لمسة كما فعل بسابقتها وهكذا من شأنه اماتة أعصابه واخماد نشاطه البدنى والعقلى أو يصبح تبعا لذلك مجرد قطعة من الجهاز الآلى الذى يدور به المصنع .

كان اختراع الآلات سببا فى أن يكون المجهود الجسدى للعامل أقل شدة من قبل بيد أن هــذا كان مؤذنا بدخول الأطفال والنساء فى العمل إذ فى استطاعة الطفل أو المرأة أن تقوم بمطالب الآلة بسهولة كما يقوم الرجل . ولقد أدى هذا التنافس إلى سقوط معدل أجور الرجال . كما أن الترقى الصناعى قد أتاح للرجل متسعا من الوقت للفراغ والراحة والرياضة والتعلم . ولكن العامل لم يستطع فى كل وقت أن يستفيد من هذا الأمر إذ يحتكر صاحب المصنع

هـذه الفرصة فى أكثر الأحيان ويستخدمها فى جمع ثروة عظيمة لا لشىء الا ليبعثرها أفراد أسرته فى وجوه الترف . على أن خطورة الحالة آخذة فى الخفة لأن العامل يطلب اليوم نقص ساعات العمل وزيادة الأجر وقد أخذ يحصل على هذه المطالب حتى تملك الذعر بعض الناس بسبب ذلك . ولكن الأجور كانت فى أول عهد الانقلاب الصناعى وفى عشرات السنين الأولى من القرن المـاضى من الانحطاط والقـلة بحيث كادت لا تسد الرمق وكان يوم العمل من اثنى عشرة ساعة الى ست عشرة ساعة . وكانت الأحوال شنيعة بل كانت فى الواقع بحيث لا يكاد يصدقها العقل فقد كان الأطفال يعاملون بمـا هو أشنع من معاملة الأرقاء ولا سيما فى المصانع الانجليزية وكان أصحـاب المصانع فى الوقت نفسـه يكدسون ثروات جسيمة وينهمكون فى الترف والنعيم .

لم تكن هذه الأحوال ممـا يمكن أن يدوم اذا كان للدنية أن تتقدم . ومن حسن الحظ أنها قد أصبحت اليوم من أمور المـاضى فى أكثر الأقطار . وبسبب الرق الصناعى أصبح الانسان أكثر وثوقا واطمئنانا فى الحياة وذلك بأن ضمن له وسيلة لا كتساب الرزق . ولكن هذا الرق الصناعى قد جعل الصانع يعتمد فى حياته على المصنع وجعل فرصة الحصول على العمل فى يد الغير . فعندما يقرر مجلس الإدارة أن أرباح المصنع غير وافية بدفع أنصبة المساهمين فانه يعطل العمل باغلاق أبوابه حتى تتغـير أحوال السوق وفى غضون هـذا التعطيل يظل العامل محروما فرصة الحصول على مقومات معيشته وبعبارة أخرى تصبح أرباح الأسهم أهم من حياة العمال بكثير . على أن هذا الرق قد جعل حياة العامل أقل تعرضا للخطر ممـا كان عليه الأمر فيما سبق ولكنه جعل هذا الأمر فى يد الغير كذلك غير أننا آخذون فى معالجة هذا الحال بنظام التأمين ضد المرض والحوادث والعطالة . وقصارى القول أن الرق الصناعى كان سببا فى ازدياد السعادة والرفاهيـة ولكنه استحدث عقدا ومسائل خاصة به كلما عالجناها نشأت بعدها مسائل تتطلب المعالجة .

الفصل الثالث عشر

الدولة

المراد بقولنا الدولة هو تنظيم الأفراد سياسيا فى بقعة من الأرض ذات حدود معينة لحماية المجموعة أو المحافظة عليها . وهى تختلف اختلافا طفيفا عن « الحكومة » ، اذ الحكومة هى الأداة التى تعبر بها الدولة عن نفسها أو الصورة التى تتخذها الدولة فى استعمال سلطتها ولفظ « الدولة » أوسع بكثير من لفظ « الحكومة » لانه يشمل الأفراد الذين يعيشون فى بقعة معينة من الأرض، أما الحكومة فتنصرف فقط الى الأفراد الذين يقومون فعلا بالتنظيم السياسى . ولا تقتصر كلمة الدولة فى مضمونها على الأرض والمكان وحدهما بل تتضمن كذلك الوحدة والنظام، فهى تتضمن الهيئة السياسية بقوانينها وموظفيها ودولاب الحكم فيها كما تتضمن نوعا من التعاون بين أعضائها . على انا لن نحاول فى بحثنا هذا أن نتناول بالدرس نواحى العلم السياسى أو الحكومة ، بل سنكتفى بمعالجة الدولة من حيث هى هيئة اجتماعية ، ونلاحظ منشأها وتطورها . و فى فصل آخر سنتناول القانون باعتباره واسطة لضبط الهيئة الاجتماعية .

أصل الدولة — النظريات المختلفة

لما كانت الدولة قد وجدت قبل التاريخ بمدى طويل فاننا لا نعرف بالضبط حقيقة أصلها أو أصولها، بل إن ذلك فى أكثر أمره تخمينى أو نظرى، على أن وقائع التاريخ والأحوال التى نراها اليوم بين الشعوب الأولية تشير الى بعض الأشكال والخصائص التى كانت للدولة الأولية . ومن هذه استخرج الباحثون بعض نتائج تكاد تكون ثابتة . ومن النظريات التى كان لها شأن فى هذا الموضوع ما يأتى :

(١) نظرية الحق الإلهى .

مؤدى هذه النظرية أن الكائن الأعلى قد اختار بعض أفراد معينين وقضى أن يحكموا ويسوسوا الباقين . وقد أستغل ملوك أوربا الضعفاء هذه النظرية استغلالا واسع النطاق ولا سيما الملوك من أسرة الأستيوارت (Stuarts) والبربون (Bourbons) ليستوجبوا الاحترام لأنفسهم ويستطيعوا أن يستبقوا لأنفسهم السلطة التى لولا ذلك لما كانوا أهلا

لها . وفى عصر أحدث من ذلك أدلى آل هوهنزولرن (Hohenzollerns) بهذه النظرية ليبرروا مقاصدهم المبنية على الأنانية . على أن هـــذه النظرية قد أدت فى بعض الأحيان خدمة اجتماعية ذات قيمة بمـا استوجبت من الاحترام للحكومات وبذلك كانت عونا على تقدم المدنية . ولا حاجة بنـا الى القول بأن هذه النظرية التى تسمى عادة « حق الملوك الإلهى » قد فقدت اليوم مكانتها وأهميتها على الرغم مما كتب فى الماضى من الأسفار دفاعا عنها .

(١) العقد الاجتماعى .

نظرية العـقد الاجتماعى التى روجهـا بعض المؤلفيـن مثل هوبز (Hobbes) ولوك (Locke) وروسو (Rousseau) تتضمن من الوجاهة أكثر ممـا تتضمن نظرية الحق الالهى . ومؤدى هـذه النظرية أن الدولة نتيجة اتفاق اختيارى بين أفراد الدولة ، اذ يجتمع هؤلاء الأفراد ويتعاقدون على إحداث نوع معين من النظام . وقد قيـل إن هذا الاتفاق تأتى من شعور الأفراد بالحاجة الى طريقة لتنظيمهم والهيمنة على شؤونهم .

ويقدمون دليـلا على هذه النظرية اتحاد الولايات السويسرية واتحـاد المستعمرات الأمريكية ، وتكوينها جمهوريات منها . نعم إن تكوين هذه الدول وغيرها فى المـاضى يحمل لهذه النظرية شيئا من الوزن ، ولكنا لا نستطيع أن نقبلهـا لأن الدولة ظهرت فى الوجود قبل أن يصبح تكوين الدولة على هذه الصورة ممكنا . أما فى الدول الحديثـة أو فى الدول التى تكونت بعد ما وصل الناس الى درجة من الثقافة عاليـة نسبيا فقد كان لنظرية التعاقد بعض الأثر ، ولكنها ليست مع ذلك الا أحد العوامل المختلفة التى تعين منشأ الدولة ولذلك فاننـا اذا اضطررنا الى التسليم لهذه النظرية ببعض الوجاهة ، لا نرى بدا من رفضها على تقدير أنهـا النظرية التى تعلل منشأ الدولة تعليلا تاما .

(٣) نشوء الدولة عن التنازع .

وهنـاك رأى آخر مؤداه أن الدولة هى نتيجة مباشرة للنزاع بين الأقوام ، اذ تتغلب العصابة القوية على الضعيفة وينشأ من اتحادهما دولة . ولعل الأستاذ وارد (Prof. Ward) خير مروج لهذه النظرية ، وقد بنى نظريته على الخطوات أو المراحل الآتية :

(١) إخضاع جنس جنسا آخر ، من الجائز أن بعض العصابات المتجولة لاقت وهى فى تجوالها على شاطئ نهر أو بحر أو خلال بعض الأودية عصابة أخرى تسير فى طريق مضاد لخط سيرها . و بعد محاولات غير مجدية فى التفاهم بينهما عدّت كل منهما الأخرى عدوة لها .

وشرعت تبيدها على الفور . ولقد يستمر القتال بينهما حتى تبيد إحدى العصابتين أو تخلى عن الميدان.وقد يذهب الفائزون بالغلبة على أثر انتهاء المعركة إلى أكل جثث القتلى من أعدائهم، وبهذه الطريقة تنشأ عادة أكل لحوم البشر .

ولكن سرعان ما يتبينون أنه خير لهم أن يستعبدوا أسراهم من أن يأكلوهم . فعمدوا فى فى المبدإ إلى استرقاق النساء وحملهن على الخدمة كزوجات أو سرارى . و بعد ذلك استعبدوا الرجال واستمر الاستعباد حتى رأى الغالبون أنه خير لهم وأكسب أن يعطوا المغلوبين حريتهم ويسمحوا لهم بأن يعيشوا فى بيوتهم الخاصة ويتولوا شؤون حياتهم بأنفسهم ولكنهم ظلوا يعتبرونهم فئةمنحطة عنهم فى المرتبة خاضعة لسلطانهم . وكان هذا سببا فى حدوث الطور الثانى.

(ب) منشأ تقسيم الناس إلى طبقات

وبعــد ما ظهر أن الرق ثقيل الكلفة حلت الجزية محله . و إذ كان فى ذلك ما يغرى فقد كانت تتألف من المقاتلين الذين كانوا يتغلبون بفضل تفوقهم فى نوع السلاح أو النظام عصائب للسلب . وقد كانوا يغزون فى بعض الأحيان صقعا فيؤثرونه على بلادهم ويستقر رأيهم على الاستقرار به بين الشعب الذى يقهرونه ويفرضون عليه جزية يدفعها . وقد كانت كل من طبقتى الغالبين والمغلوبين فى المبدأ تحتقر الأخرى ، كما أن الغالبين بفضل تفوقهم كانوا يدفعون المغلوبين إلى منزلة دون منزلتهم فلا يسمحون لهم بشىء من الحقوق . ومن ثم نشأ نظام الطبقات (Caste) على نحو ما نرى فى بعض البلاد فى الوقت الحاضر . والهنــد مثل حسن على هــذه الحالة . وقد كانت تنشأ طبقة وسطى تكون فى العادة طبقة متاجرة تعمل بمثابة وسيط بين هاتين الطبقتين . وفضلا عن هذا فقد كانت تنشأ على التدريج حالة يسببها نمو أواصر الصلات .

(ج) تلطف حالة اختلاف الطبقات تدريجا

بعد أن تعيش الطبقة فى جوار الطبقة الأخرى مدّة طويلة تحسن الحال بينهما فى النهاية فقد يرى الغالبون شيئا من الخير فى الشعب المغلوب الذى احتقروه كما تقل استهانة المغلوب بالغالبين . و إذ أنهم مضطرون دائما إلى الاتصال بعضهم ببعض فلا بد من نقصان عداوتهم الجنسية بعضهم لبعض . ثم يحدث بعد ذلك أن يتزاوجوا فيتخذ الغالبون أجمل نساء المغلوبين زوجات لهم ، وقلما كان يكره المغلوبون ذلك، ومن ثم يأخذ الحكام فى اعتبار أرقائهم كائنات إنسانية مثلهم و يحدث تلطف فى حالة الحكم الاستبدادى الأنانى من ناحية الطبقة القوية تبعا لذلك . ولا مشاحة فى أنه كانت تبقى مع ذلك حالة بينة من عدم التساوى بينهما سواء من الوجهة الفردية أو الاجتماعية أو السياسية ولكن لا بد أن يترتب على ما حدث تحسن عظيم يؤدى بسهولة إلى حدوث طور آخر بعد ذلك .

(د) الاستعاضة بنوع من القانون يتضمن مبدأ الحق الشرعى
عن الحكم العسكرى الخالص الذى باشره الغالبون

كان العقاب على الجرائم، قبل أن يتمو شيء من الشعور بالحق الشرعى، يتوقف كله على هوى الغالبين الذين كان حكمهم إذ ذاك مطلقا . ولكن لما أخذ الغالبون يشعرون بأن الطبقة السفلى مؤلفة من أناس يعملون ويحيون كما يعمل ويحيا الغالبون أنفسهم أخذوا يدركون أن لهؤلاء الناس حقوقا.ونمّى هـذه الفكرة عندهم ما حدث من التزاوج بينهم . وترتب على ذلك تقرير الغالبين أوضاعا أو دساتير من الشرائع كانت فى أول أمرها قواعد شفوية ثم أصبحت قوانين مدونة ، لضبط أعمال الطبقة السفلى وتنظيم معاملتهم على أيدى الطبقة العليا . ولقد تنـاول التقنين حقوق الملكية أيضا إذ كانت جميع الأملاك فى أول الأمر تابعة للغالبين ثم سمح بها بعد ذلك للطبقة السفلى أيضا .

(هـ) منشأ الدولة

ولما بلغ التنظيم حد الطور الذى يعرف بالدولة ، كان لجميع الطبقات حقوق وعليهم واجبات معا . ولقد تطلب نشوء القانون نوعا من النظام لتنفيذه . ولهذا نشأ شكل ما من الحكومة . وكانت أشكال الحكومة تتوقف على الشعب وعلى ظروف البيئة التى هو فيها . كان شـكلها فى العادة ملكيا يتولى الحكم فيـه زعماء ، إما أن يكون الشـعب هو الذى اختارهم أو يكونوا هم الذين نصبوا أنفسهم ملوكا ينتقل الحكم منهم إلى أعقابهم . ولما كثر عدد السكان دخل غير هؤلاء فى الحكومة . وبهـذه الطريقة نشأت أشكال الحكومة على اختلافها .

(و) اندماج كل هذة العناصر المتباينة وتكوين شعب متجانس إطلاقا

عند ما خفت وطأة العداوة الطائفيـة وتراخى الحكم الاستبدادى الذى تباشره الطبقة العليا ونشأت روح التعاون بين الطبقات واعتماد بعضها على بعض امتزجت الطبقات بعضها ببعض . فالطبقة العليا اعتمدت على أفراد الطبقة السفلى لأنهـا تريد من رجالهم جنودا ، ويريد التجار منهم زبائن ، وتريد الصناعة والأعمال منهم عمالا . وأما الطبقة السفلى فإنها اعتمدت على العليا ، لأنها كانت تتطلب منها القانون والحماية والقيادة . ومن ثم كان البقاء لأصلح العناصر فى جميع أقسام المجتمع. واستقر من العادات والتقاليد والديانات والأنظمة ما كان أرقى حالا أو أكثر ملاءمة للظروف وبهذه الطريقة اندمجت جميع العناصر بعضها فى بعض وكانت النظم المتأتية من هذا الاندماج أرقى من النظم التى كانت لأى فئة من الفئتين على حدة قبل وقوع الغزو .

(ز) نشأة العاطفة الوطنية وترقيها وتكوين الأمة

وعند ما كان يلم بهم خطر عظيم ، كغزوة من عدو أجنبي ، كان ينشأ الشعور بالوطنية وتنهض عاطفة التعلق بالدار والإحساس بالمصالح المشتركة . وكان الجميـع يتحدون لدفع الخطر عنهم بل كان يحدث ما هو أهم من ذلك ، وهو أن الشعب المختلفة كانت تندمج بعضها في بعض وتتكون منها أمة .

نعم إن نظرية التنازع هـذه قد تم بالاندماج السلمي ، ولكن تكوين الدولة كتكوين غالب النظم يكون في مبدئه نتيجة التنازع أو التنافس . ولا بد لنا أن نسير على هذه الطريقة فيما نحن بصدده . لامشاحة في أن كثيرا من الدول نشأ بهذه الطريقة ولكن نظرية التنازع من الضيق بحيث لا تسمح بتعليل نشأة جميع الدول . فقد كان كثير من الدول نتيجة عمليات أخرى غير التنازع وإن كان من الجـائز أنه لم تنشأ دولة من الدول بغير شيء من التنافس والتنازع . ومما لا شك فيه أن هذا التنازع كان أقوى عنصر في تكوينها على أن شأنه قد صغر في العصور الحديثة وتخطت بعض الدول كثيرا من الأطوار الأولى في تكوينها . ومع كل ذلك فلو أخذنا التنازع بمفرده على أنه تعليل لأصـل الدولة ، لكان أوجه ما أدلى به حتى الآن وإن كان لا يتضمن تعليلا كاملا شاملا .

(٤) نشوء الدولة عن طريق الأسرة .

وهناك نظرية كثيرا ما يدلى بها (ويعززها كثير من الشواهد التاريخية) وهي أن الدولة وليدة الأسرة مباشرة ولا سيما الأسرة القائمة على الزعامة الأبوية (Patriarchy) التي كان فيها الأب رئيس جماعة الأسرة مادام حيا . ولم يقتصر أمره على رياستها ، بل إنه كان قاضيها وكاهنها ومشترعها معا . ولم تكن رياسته مقصورة على أسرة دون سواها بل تعدتها إلى رياسة جميع الأقرباء . وباتساع دائرة هذه المجموعة ظل هـذا الزعيم الأبوى حاكما عليها ثم أورث سلطانه أكبر أولاده وبهـذه الطريقة نشأت أسرة حاكمة . وبازدياد المسائل والمشاكل التي كانت تتطلب العناية عمد الحاكم إلى توزيع الأعمال أو عين غيره لمساعدته على أداء واجباته الكثيرة ، وخص كل واحد منهم بنوع من العمل [1] وقد استقصى مورغان [2] سيرا على هذه النظرية ، ترقى الدولة من الأسرة إلى الرهط (Gens) وهي مجموعة من الأسر ذات القرابة ثم العشيرة (Phratry) وهي مجموعة رهوط متصاهرة يربطها بعضها ببعض قرابة أو تحالف ، ثم القبيلة وهي مجموعة من عشائر متصاهرة ثم الأمة أو الدولة وهي مجموعة

---

(١) راجع سفر الخروج ١٨ ، ١٣ — ٢٦

(٢) الجزء الثاني من كتاب مورغان "المجتمع القديم"

منظمة من القبائل وهو يبنى نظريتـه على ما شوهد بين الهنود الأيروكواز والأزتيـك (Iroquois & Aztecs) وبين الإغريق والرومان فى أول عهدهم. ولا شك أن الهيئات الأولى كانت متفرعة على الأسرة وفى كثير من الجهات يمكن الرجوع بالدولة إلى الأسرة مباشرة. ولكن عندما نحاول أن نقول إن الدولة باعتبارها هيئة من الهيئات ليست إلا مجرد حالة وليدة من القبيلة نجد نفس القصور الذى وجدناه فى النظريات السابقة، أى أنها أساس متين لأصل الدولة إذ هناك من العوامل الواقعة خارج نطاق القبيلة ما كان له أثر فى تكوين الدولة. نعم كانت القبيلة أحد مصادر نشأة الدولة بل هى فى الواقع أحد مصادرها الرئيسية ولكنها لم تكن بحال ما الأصل الوحيد لها .

(٥) المنشأ التطورى

إن النظرية المسلم بها بين علماء النظريات السياسية بوجه عام فى أصل الدولة هى النظرية التاريخيـة أو التطورية وهذه النظرية تقوم على أنه ليس فى مقدورنا أن نرجع نشأة الدولة إلى أصل واحد معين وأن الدولة لم تكن اختراعا بل نموا وتطورا وأن نموها إنما كان عملية تدرجية وأنها حاصل عوامل عديدة وأنها تطورت فى أقطار مختلفة بطرق مختلفة تبعا للعوامل المؤثرة فيها . ولا تقتصر هـذه العوامل على التنازع الجنسى والقرابة والحاجة إلى الحمـاية ، بل إن منها الدين والمناخ والموقع الجغرافى والنمو الصـناعى . وقصارى الأمر أن الدولة من نتـائج المجتمع تحسن بتحسن المجتمع . ولقـد كان نمو الدولة أسرع فى بعض الأصقاع منه فى غيرها لأن ظروفها كانت أكثر ملاءمة لهذا النمو ومن ثم أخذ الإنسان يتقدم فى تلك الأصقاع بخطى أوسع . من أجل هـذا نرى الدولة أنضج فى أوربا وأمريكا منها فى آسيا وأفريقيا . على أن هذه الظروف نفسها ليست ملائمة بدرجة واحدة لجميع وجوه التقدم ، فمـا كان منها ملائما لتقدم الدولة مثلا قد لا يكون مؤديا إلى تقدم الديانة وما يكون منها مفيدا للصناعة قد لا يكون باعثا على الفنون الجميلة . ولكن الدولة كانت تتأثر دائما بمـا تأثر به غيرها من النظم وكانت تنمو بسرعة حيث تكون الظروف ملائمة وببطء حيث تكون الظروف غير ملائمة . ويجدر بنا لكى نلم إلمـاما واضحا بتطور الدولة أن نعالج بعض العوامل التى كان لها أثر فى تطورها .

العوامل التى دخلت فى نمو الدولة

لا يتم درس نمو الدولة بغير بحث العوامل التى دخلت فى تكوينها، بيد أننا لا نستطيع أن نذكر من هذه العوامل إلا عددا قليلا لأن درسها برمتها يتضمن بحث جميع المؤثرات العاملة فى المجتمع على وجه الإجمال. وقد سبق لنا أن تناولنا عامل القرابة ووجدنا أنها من الأهمية بحيث أدى الأمر ببعض الكتاب إلى اعتبار الأسرة أصل الدولة .

وبينا كذلك فى الفصل الذى عقدناه على المؤثرات الجغرافية تأثير الموقع فى تطور المجتمع ورأينا أن الظروف الجغرافية تعين إلى حد كبير طبيعة الحكومة وحجم الدولة وأهميتها وصفتها ورأينا أنه إذا كانت الدولة واقعة فى طريق المدنية ، كان رقيها سريعا . وأنها إذا كانت بعيدة عن هذا الطريق فربما بقيت ضئيلة أولية التكون. كذلك وجود حدود طبيعية فانه قد يجعل قيام حكومة قوية فى الدولة أمرا غير ضرورى على حين أن الحدود التى لا تكون محمية بطبيعتها قد تستلزم قيام حكومة قوية . والموقع الطبيعى يساعد أيضا على تعيين شكل الحكومة كما أن جيران الدولة يؤثرون فى رقيها . فإذا كانوا أهل حرب كان ذلك داعيا إلى تقوية سلطة الحكومة فى تلك الدولة وتركز السلطة فى أيدى عدد قليل من الناس وتنظيم دفاع برى أو بحرى . وصفات الجيران تعين هل ينتظر أن تغزى البلاد أو أن أهلها أنفسهم سيتقلبون فاتحين وغزاة . ولا شك أن وفرة الموارد الطبيعية من شأنها أن تغرى بالفتح كما أن فى قلة الجيران ضمانا من الغزو. وعزلة الأمة مدعاة الى الركود إذ أنها لا تهيئ لها مايدفعها إلى التقدم. وقصارى القول أن الموقع الجغرافى والبيئة هما من العوامل المهمة جدا ولايصح إغفالها عندما نحاول أن نتقصى نشوء الدولة وتطورها فلقد كان إهمال هذا العامل من الأسباب التى جعلت أمثال نظرية العقد الاجتماعى ونظرية الغلبة عرضة للنقد الشديد والرفض . هـذا والثروة والصناعة من العوامل المهمة فى تطور الدولة. فإنه بمجرد أن اعترف بحقوق الملكية الفردية نشأت الحاجة إلى وجود وسائل لحـماية الأملاك وإلى قواعد فيا يختص بملكيتها وإلى سلطة لتنفيذ هذه القواعد .

ولقد كانت هذه الأمور من الدواعى التى استحثت الناس على تنظيم الحكومات ونشأت شتى أنواع الصناعة من الحاجات التى كان لا بد من سدها . ولـما تقدمت الملكية خطوات أخرى زادت الحاجة الى الحماية واتخذت إجراءات إضافية لضماناتها . وكان ذلك الأمر سببا فى ازدياد الاهتمام بالحكومة من جانب من يملكون ثروة ومحاولتهم جعلها فى يدهم . ولذلك ففى البـلاد التى بلغت فيها الصناعة أقصى حدود النمو تجد للطبقات الغنيـة أقوى نفوذ ولا سيما اذ كانت الهيمنة على الصناعة متركزة فى أيدى نفر قليل . أما اذا كانت الثروة موزعة بين الناس توزيعا عادلا فان حكومة البلاد تكون ديموقراطية. ولابد كذلك من مراعاة طبيعة العمل القائم فى البلاد فحياة الرعى جنحت الى النظام البطريركى أى ذى الزعامة الأبوية وجرت فى أعقابها الرق والطاعة التامة للحكام. وأما الحياة الزراعية فقد كان من شأنها إثارة التنازع على الحـدود وعيون المـاء ، وهذا استدعى وضع قواعد خاصة بها . وأما حياة الصيدين البرى والبحرى فانها تطلبت قواعد لتقسيم الغنيمة . ولما كان تجمع الثروة هو الى حد كبير أساس تقسيم المجتمع ومن شأنه أن يحدث تفريقا بين الناس ، فسيد وعبد ورب مالك وخادم طائع ، ومستأجر للعمال وأجير ، وممول وعامل ، فقد نشأت الطبقات بهذه الطريقة ، والأساس الى حد كبير هو حيازة الثروة .

والدين عامل قلما يحسنون تقدير أثره فهو إما مهمل أو مبالغ فى تقديره . والواقع أن الدين هو الذى أحدث النظام الاجتماعى بين الناس لأنه كان قوة تربط المجموعة وتبقيها متماسكة وتكبح جماح الشارد والمتطرف وكان ذا فضل فى تعليم الناس احترام أولى الأمر . فقد كان قادة الدين فى أول الأمر هم بعينهم الحكام السياسيين ، ثم صار الحكام ورجال الدين حلفاء ، وبهذه الطريقة عمل الدين على ترقية النظام السياسى ترقية أكبر مما كان يتيسر بدونه . كان الدين فى مبدإ الأمر شأناً من شؤون القبيلة لا أمراً من أمور الفرد . وكان مسلماً أن الزعيم يملك سلطة إلهية ، فزاد هذا من نفوذه . وبعد ذلك أدمجت الدول دياناتها فى الحكومة كما فعل العبرانيون على وجه التخصيص وكما فعل الرومان بدرجات مختلفة ، وكذا الاسبانيون والفرنسيون والانكليز والصينيون والروسيون . كما أن الدين من جهة أخرى قد أوجب على الحكومة أن تقيم حدوده وتوسع مدى سلطته . ومن الأمثلة على ذلك على وجه التخصيص الدين الرومانى الكاثوليكى والإسلام ، وكذلك كنيسة انجلترا ومذهب البيوريتان . ولقد أوجب الدين على الدولة أن تجعل قوانينها فى مصلحته ولا سيما ما كان منها مختصاً بانتهاك حرمة الأشياء المقدسة ، وإهمال رعاية يوم العطلة ، ومخالفة العادات الدينية . ولكنا فى السنوات الحديثة أسقطنا فكرة ربط الدين بالدولة وأدركنا أنه يجب الفصل بين الاثنين . ولكن جاء يوم من الأيام ، كانت فيه كثير من الشعوب إن لم تقل غالبيتها تعتقد أن الدين والدولة أمران مترادفان ، أو انهما زميلان يسيران معاً . هذا ولا يجمل بنا أن نهمل من تقديرنا بتاتاً ما كان للأفراد من الأثر فى هذا الصدد وإن كان التاريخ الحديث قد أخذ فى العهد الأخير يحفل بصفحاته على أعمال الأبطال الحربيين والملوك العظام أكثر منه فيما سبق ، لان الفتوحات كثيراً ما كانت نتيجة مطمع فردى تؤيده القوة الحربية . ونجد على ذلك أمثلة فى بابل وأشور وفارس وفى أفريقيا تحت حكم الاسكندر وفى غالب الفتوحات الرومانية وفتوحات كثير من حكام أوربا أثناء القرون الوسطى وفى الأزمنة القريبة فى حروب نابليون وفى محاولة ألمانيا سنة ١٩١٤ أن تكون لها السلطة العليا فى الدنيا . وقد كان القصد من الفتوحات توسيع الحدود بابتلاع دول أصغر حجماً وأقل قوة إما بوسائل سلمية اطلاقاً كما حدث فى تكوين الامبراطورية الألمانية الأخيرة أو بوسائل حربية وهى الغالب . وفى فتح بولاندا والمجر وفنلاندا والهند أمثلة على ذلك .

وقد تتصدع الدول بعد موت مؤسسها وينهار بناؤها كما حدث لأمبراطورية الاسكندر وكذلك الأمر يوم تضعف السلطة المركزية ، فان الدولة إما أن تتمزق أو تفقد املاكها المتطرفة . فقد تمزقت بهذه الطريقة الامبراطورية الرومانية وفقدت أسبانيا جميع ممتلكاتها . وكثيراً ما يعمد أولاد الملك بعد موته الى اقتسام ملكه كما حدث لأمبراطورية شارلمان . وكذلك الأمر اذا لم تكن العناصر المكونة للدولة مندمجة بعضها فى بعض اندماجاً

متينا وممتزجة امتزاجا تمثيليا ، فان هذه العناصر كثيرا ما تنشق عن الدولة وقد تنشق عنها أحيانا بعد جهاد كما حدث حين انشقت اليونان والولايات البلقانية عن تركيا ، وأحيانا أخرى بسلام كما انفصلت النرويج عن أسوج فى سنة ١٩٠٥ . وقد تنشئ بعض الولايات مستعمرات من آن لآن لتكون عونا لها ثم كثيرا ما تتغير مصالح هذه المستعمرات وعواطفها وينتهى بها الأمر الى الانفصال عن البلد الأصيل إما بسبب الظلم وسوء الحكم أو لمجرد نشوء مصالح تخالف مصالح البلد الأصيل . ومن الأمثلة على ذلك المستعمرات الأغريقية والممتلكات الأسبانية فى أمريكا والمستعمرات الأمريكية . ولكن جرت العادة أن يكون الجنوح صوب الاتحاد ليبتلع القوى الضعيف . ولقد جرت هذه العملية ألوفا من السنين ولا تزال جارية أحيانا بالاتحاد السلمى ولكن الأغلب فيها أن يكون بالقهر أو تخضع الوحدة القوية الوحدة الضعيفة أو تجبرها على الدخول فى الاتحاد .

والواقع أن الدولة الحديثة كثيرا ما تكون متألفة من عناصر مختلفة فهى وليدة الفتوحات والمتاجرة والمعاهدات . وفى خريطة أوربا قبل الحرب العظمى برهان على ذلك ولعل أوضح صورة لذلك أمبراطورية النمسا والمجر . ولقد كانت حالة ابتلاع القوى للضعيف من العظم بدرجة وجد مؤتمر الصلح عندها أنه يكاد يكون من المستحيل أن يرد الى القوميات الصغيرة حرياتها الماضية .

وظائف الدولة

ما من كاتب فى السياسة إلا ويعمد إلى تعريف وظائف الدولة بطريقة ما . هذه التعاريف مختلفة كلها فى تفاصيلها وان كان أغلبها اليوم متفقا فى المبادئ الأساسية . وكلما جرى الزمن ونمت الدولة أخذت تتولى وظائف كان أمرها معهودا الى هيئات أخرى . فقد أخذت من الدين كثيرا من الوظائف مثل رعاية القصر ومن الأسرة وظائف أخصها تربية الأولاد ومن الفرد وظائف منها المعاقبة على الإجرام . ولا تزال الدولة تزيد فى واجباتها وتوسع من سلطانها باطراد ولكن لعل فيما يأتى بيانا للوظائف الرئيسية التى للدولة كما يتراءى لنا اليوم .

١ — حماية الكيان القومى وصيانته

لابد للدولة قبل أن يتيسر لها القيام بجانب كبير فى أى ناحية أن تكون مطمئنة إلى بقائها هى نفسها ، فلا بد لها أن تحمى نفسها من أعدائها الأجانب ومن تعدى الدول الأخرى عليها . ولا بد لها أيضا أن تقى نفسها قيام أهلها بالثورة عليها. وعليها لتحقيق ذلك أن تعد له عدته من جيوش وأساطيل وشرطة وما يلحق بها من المعاقل والجواسيس والمخبرين .

٢ — حماية حياة أهلها وأملاكهم — بما فى ذلك حق نقل الملكية ووراثتها

كانت إحدى الوظائف الأولى — ولا تزال من الوظائف الأساسية التى للدولة — حماية أهلها من التعدى عليهم سواء أمن أعدائهم الأجانب أم من أفراد الدولة نفسها . إذ يجب عليها دائما أن تكبح جماح العناصر الخارجة على القانون . ومقدرتها على القيام بهذه المهمة هى أول محك للدولة لأنه اذا كانت الحياة والملكية غير آمنتين لم يتيسر للبلد أن يتقدم ، وإذا لم تستطع الدولة أن تحمى الحياة والملكية كانت دولة ضعيفة وسرعان ما تقع فريسة لدولة أقوى منها .

٣ — وضع القوانين وتنفيذها وما يتضمنه ذلك من تحديد الجريمة وجزائها

تتضمن هذه الوظيفة فى الواقع عدة من وظائف أخرى ولكن لما كانت هذه الوظيفة من أولى الوظائف التى تتقلدها الدولة وكانت الأخرى آتية بعدها كتفريعات عليها فقد ذكرناها على انفراد . كانت هذه الوظيفة مما تولاه الحكام الأقدمون والزعماء الأول الذين كانوا يحكمون بفضل قوة الذراع كما تولاها زعماء الأسر . ولم تتضاءل هذه الوظيفة مطلقا ، بل إنها على العكس رادت زيادة كبيرة . على أن عقاب الإجرام كان فى الأصل واجبا يعد فى أغلب أمره من واجبات الأسرة أو الفرد ولكنه أصبح الآن برمته من وظائف الدولة . وقد كانت القوانين فى المبدأ مجرد قواعد عرفية وضعها الحكام على هواهم ، ولكن حتى فى تلك الحال لم تهمل حماية المجموعة وإلى حد ما حماية أفراد المجموعة . ولكن كان الميل السائد صوب زيادة الاهتمام بما فيه خير مصلحة المجتمع . ولا بد للدولة ، لكى تحمى نفسها هى وأعضاءها ، أن تحدد الجريمة وتضع عقوبات لمخالفة القوانين ؛ ولا شك أن أداء هذه الوظائف يتطلب أداة تشريعية .

٤ — تصريف العدالة لا بين الدولة فقط بل وبين الأفراد فى علاقتهم بعضهم ببعض

من أجل هذا الغرض أقيم القضاة وأنشئت المحاكم للنظر فى المظالم وإقامة العدل .

٥ — تحديد العلاقات والواجبات والالتزامات ، والامتيازات داخل الدولة

يتضمن هذا تحديد العلاقات بين أفراد الأسر وتحديد حقوق الأفراد وحقوق الهيئات القائمة داخل الدوله .

٦ — تنظيم العقود بما فيها الديون والالتزامات الخ

الدولة ملزمة — لإقرار الحرية على أتمها وللقيام بواجب تصريف العدالة — أن تتبين شرعية العقود وصحتها وهـذا العمل ضرورى لضمانة استقرار الأعمال التجارية ورقى الصناعة وكذلك حماية الفرد .

هذه وظائف الدولة الرئيسيـة المتفق عليها بوجه عام ولكن هناك وظائف أخرى آخذة فى الظهور لم تكن معتبرة فيما مضى من وظائف الدولة ، بل كانت متروكة برمتها لهيئـات أخرى . على أنه فى يومنا هذا ليس هناك اتفاق فى الرأى دائمـا فى هل يجب أن تكون هذه الوظائف الجـديدة من أعمال الدولة أو من أعمال الأشخاص ولكنا سنكتفى بمعالجتها على أنها واجبات مفروضة على الدولة الحديثة .

٧ — تنظيم الصناعة والتجارة وشؤون العمال

تحـاول الدولة اليوم تنظيم الصناعة فتعنى بردع أصحاب المصانع العظيمة وحماية المنافسة والمحافظة على الأمانة فى العلاقات التجارية والمـالية والاشراف على منازعات العمال بما يكفى على الأقل لضمان حماية الجمهور فى أحوال الإضراب والطرد . ومن الأمثلة على ذلك التحكيم الإجبارى ، والقوانين الخاصـة بالحد الأدنى للأجور وعدم زيادة سـاعات العمل اليومى عن ثمـان ، واللجان الحكومية المختلفة . هذه الوظيفـة آخذة فى الازدياد باطراد ولا تفتأ تنضم اليها مظاهر جديدة مثل التأمين الاجتماعى من العطالة والمرض والحوادث ، وهى أمور كانت فيما سبق معـــدودة من المسائل الخاصة ولكنها أصبحت اليوم فى عداد الوظائف الشرعية التى للدولة .

٨ — حماية الصحة العامة

اتخـاذ الوسائل الصحية ، والحماية من الأمراض المعدية والتفتيش على المصانع وإلزام أصحاب المصانع إيجاد وسائل للوقاية من خطر الآلات ، ولوائح البنـاء والتفتيش على اللبن ونظافة الشوارع ، والقوانين التى تحرم البصق ، وإنشاء المجارى وإزالة القمامات، والقوانين التى تحرم غش الأطعمة ، كل هذه أمثلة جيدة على وظيفة الدولة لحـماية صحة الجمهور وهى مهمة يتسع مداها يوما بعد يوم .

التربية

كانت التربية الى عهد قريب من المسائل الخاصة، بل الواقع أنه لما أخذ الاشتراكيون ينادون بضرورة التربية العامة عدت المناداة بذلك من النظريات المتطرفة إن لم تكن من النظريات الخطرة . أما اليوم فنحن نتقبلها بلا مشاحة إلا فيما يختص بمدى هذه التربية العامة . وقد كان المفهوم من التربية العامة فى أول العهد بالقول بها التعليم الأولى ، ثم امتدت من ذلك الى التعليم الثانوى ، مثل المدرسة التى نسميها "عالية" (High School) وتعدت ذلك فى نهاية الامر الى التربية فى الكليات والجامعات . والآن تشمل التعليم الصناعى والفنى . على أن التعليم الخاص لم ينقرض بل الواقع أنه لا يزال يحتفظ بمركزه فى الفروع العليا ويعاون التربية العامة المعاونة القيمة . وقد أخذ اليوم يبدو جليا أن من واجب الدولة تعليم أبنائها أى حرفة أو مهنة مشروعة ، الى الحد الذى يستطيعون البلوغ اليه . ويحق لنا أن نتطلع فى المستقبل القريب الى اتساع وظيفة الدولة فى هذا الصدد ولا سيما فى ناحية التعليم الصناعى والفنى .

١٠ — العناية بمن ليس لهم عائل وبذوى العاهات

لقد رفع عبء العناية بالمساكين عن عاتق الفرد والكنيسة وإن لم تثبط همة أحد منهما عن المساعدة فى هذا الصدد . واليوم تعنى الدولة بالمرضى العاجزين عن العناية بأنفسهم ونضيف الى ذلك حماية الفرد من المرض بطريقة التأمين على الصحة . وأخذ الناس يدركون أن واجب الدولة العناية بالمسنين وأن تعمل على الأقل على صيانتهم من الفاقة وأن تعنى بهم عناية لا يقتصر أمرها على منع آلام الحياة عنهم بل تكفل لهم قسطا من النعمى ولا سيما اذا كانوا قد قضوا حياة كلها جد وكد . وأخذ اليوم يصبح من وظائف الدولة كذلك منع الفقر ، بقدر الطاقة ، بتنظيم الصناعة وبتأمين العمال من انحطاط الأجور ومن سوء الأحوال الصناعية . واليوم أخذ الاهتمام ينصرف من مجرد التخفيف والتفريج الى ضرورة المنع والوقاية ؛ فلم يصبح الغرض مقصورا على العناية بمن هم فى حاجة الى الرعاية وبطبقات ضعفاء العقول بل ولمنع تكوّن مثل هؤلاء الطبقات فى المستقبل .

١١ — تنظيم وتحريم الصناعات والأعمال المعدودة مضرة بالجمهور

إن تنظيم أو منع صناعة تجارة الخمور، والإشراف على بيع العقاقير، ومراقبة دور التمثيل، وتحريم استعمال الفوسفور فى صناعة أعواد الثقاب، وتطلب رخص لأندية المراهنة، وإبطال القمار ، وبالاختصار ردع أو منع أى شىء يعد مضرا بمصلحة الجمهور — كل هذا أصبح بعد الآن مما يدخل فى وظائف الدولة .

١٢ — حق الدولة فى القيام بالصناعات

كان يسمح للدولة فيما مضى بالاحتكارات على اعتبارها ناحية من نواحى الإيراد . أما اليوم فقد أخذ الناس يدركون أنه اذا استطاعت الدولة أن تقوم بعمل مالى أو بصناعة خيرا من قيام الفرد بها ، كان من حق الدولة وواجبها أن تتولى هذه المهمة . فالدنيا على هـذا الاعتبار صائرة أكثر اشتراكية.على أن هذه الفكرة لم تصادف قبولا كبيرا فى الولايات المتحدة حتى دخلت البلاد فى الحرب العظمى . ومنذ ذلك الوقت حدثت فى هذه البلاد مقاومة لهذه النظرية . ولكن البراهين التى أدلى بها سواء أكانت مؤيدة لهـا أم مبطلة تدور كلها حول التساؤل : هل تستطيع الحكومة أن تقوم بالعمل لمصلحة الجمهور خيرا من قيـام الأفراد به لا حول هل للحكومة الحق فى هذا العمل .

تطور أشكال الحكومة

فى الأيام الاولى من حياة المجتمع الإنسانى لم يكن للانسان من مظاهر الحكومة إلا قليل جدا لأن حالة الفوضى هى التى كانت سائدة أيام عهود القبيل والزعامة الأموية (المـاتريركية) ثم لمـا قامت الحكومة ظهرت فى العادة على صورة من حكم عدد قليل من الأفراد — وهو حكم كان يستند الى القوة والغلبة . وبعـد ذلك أخذت الحكومة صورة الملكية أو الأوليغاركية . وكان القـانون السائد هو الإرادة الاستبدادية لهؤلاء الحكام ؛ ولكن لمـا تقدمت المدنية نشأت الحاجة الى توزع السلطة الحكومية واتساع نطاق الحدود الدستورية تدريجيا ثم نمت على مهل دساتير مثل الدستور الانجليزى .

ونشأت على أثر ذلك ملكيات دستورية وديموقراطيات وجمهوريات . على أننا بطبيعة الحال لا نستطيع أن نعين تاريخا لأى طور من هـذه الأطوار لأننا نجد ديموقراطيات يرجع عهدها إلى العصور الأولى من تاريخ الإنسان ، بل الواقع أن كثيرا من القبائل الأولية جدا ذات نوع من أنواع الحكومة الديموقراطية. على أن كثيرا مما يسمى بالديموقراطيات الأولى ، ولا سيما الدول الأغريقية الأولى، لم تكن ديموقراطيات بالمعنى الذى نفهمه من الديموقراطية اليوم لأن حق التمتع بالمزايا السياسية كان وقفا على نفر قليل فيها . وليست جمهورية الوقت الحاضر إلا الطريقـة الحديثة لتحقيق ما يتطلبه الشعب من ضرورة اشتراكه فى الحكم ومع ذلك فإن كثيرا من الملكيات الدستورية يعطى من الحقوق الشعبية قدر ماتعطى الجمهوريات بل وكثيرا ما تعطى أكثر ممـا تعطيه الجمهوريات من هذه الحقوق .

لايمكن هنا أن نتناول بالبحث موضوع الحكومة ، والأشكال التى تشكلت بها ونجرى تحليلا لكل منها ، لأن هذا البحث من شؤون العلم السياسى وإنما بحثنا يقتصر على تطور الحكومة باعتبارها وضعا اجتماعيا وعلى وظائفها الاجتماعية ولايتضمن درس دولاب الحكومة على ما فى هـذا الموضوع من الأهمية . ولقد كان الاتجاه حتى اليوم منصرفا إلى منح الأفراد فى الدولة قسطا أكبر فى إدارة الحكومة ومنحهم كذلك حقوقا ومزايا متساوية . وهناك ميل آخر أكثر أخذا بالمبادئ العصرية وذلك نحو تركيز السلطة فى الحكومة وتوسيع مدى واجبات الدولة ووظائفها . وقصارى القول أن العالم آخذ الآن لا فى أن يصبح أشد ديموقراطية فقط بل وأشد اشتراكية كذلك . ولقد كان هذا التطور مستحيل التحقق حتى بلغ جمهور الإنسانية طورا فى المدنية استطاع أن يقوم فيه بالواجبات ويتمتع بالمزايا السياسية على وجه صحيح . بهذه الطريقة ترقت الدولة بقدر ما سمح لها المجتمع أن ترقى . فهى وليدة المجتمع خطت فى تطورها بقدر حاجة المجتمع إلى ذلك .

الفصل الرابع عشر

الدين والأخلاق

من الصعب أن يعالج الإنسان موضوع الدين بطريقة علمية وذلك لما للدين من الحرمة والقداسة عند الناس. فلا يكاد الكاتب يحاول ذلك حتى يوصم بأنه ملحد أو مشكك أو أنه مادى أو هرطيق مهما كان الباعث له على البحث ساميا خالصا أو كانت نتيجة بحثه متقنة مهذبة . والظاهر أن الدين من الأمور التى يقرها الإنسان من جهته إقرارا نهائيا فهو لايطيق أن يدلى أحد من الناس برأى يخالف رأيه أو يعرض أى شرح أو تفسير يباين ماعرفه وألفه ويكاد أن يكون لكل فرد تفسيره الخاص للانجيل (وفى غالب الأحوال يكون هذا التفسير معطى له من شخص آخر) فهو يسم كل تفسير سواه بميسم الخطأ وكذلك الأمر فيما يختص بكل دين آخر فكل امرئ يعتقد أنه وحده صاحب الرأى الحق فيه .

نعم إننا آخذون فى العدول عن هذا الرأى شيئا فشيئا ولكنه لا يزال سائدا كما أن هناك اختلافا عظيما فيما يختص بأثر الدين فى المجتمع، فأن فى الناس من يعزون اليه كل فضل فيما حدث من التقدم الاجتماعى على أن فيهم من يعتقدون أن الدين كان عقبة فى سبيل التقدم ولا يجد أنصار كل رأى من هذين صعوبة فى تقديم البراهين الوفيرة على ما يقولون به فيذكر هذا فضل الدين فى إصلاح الحكومة والتربية والأسرة والحياة الاجتماعية ويذكر ذاك فظائع محاكم التفتيش الاسبانى (Inquisition) وتعذيب المسيحيين فى الملاعب الرومانية وفظائع العبادة الدرويدية (Druid Worship) فى بريطانيا والضحايا الإنسانية التى كانت تتطلبها عبادة الأزتك من أهل المكسيك؛ ويدلى فوق هذا صادقا فى ذلك صدقا كبيرا بأن من أعظم الفظائع وأنكاها فى تاريخ الانسان ما كان اقترافه باسم الدين . وحقيقة الأمر أن كليهما صادق فى دعواه إذ أن تأثير النشاط الدينى يتوقف على الزمان والمكان وعلى طبيعة الدين الذى يعرض على بساط البحث .

لا يمكن أن يتجاهل أحد أهمية الدين من حيث أنه إحدى القوى الخطيرة جدا فى أحداث المدنية وترقيتها ؛ نعم ان علم الاجتماع لايحاول أن يبحث موضوع الإيمان أو التعاليم اللاهوتية ولكنه يعتبر الميل الدينى فى الإنسان إحدى الخصائص الإنسانية الفطرية المؤثرة فى حياته . وهو يبحث فى نمو الدين باعتباره وضعا من الأوضاع ويلاحظ أثره فى التقدم الإنسانى . وأهم ما يعنى به علم الاجتماع من الدين هو من حيث كونه وضعا اجتماعيا وعنصرا من عناصر السلطة الاجتماعية وسنبحث الركن الأول من هذين الآن :

تطور الدين

هناك اختلاف كثير فى الرأى حتى من حيث مايجب أن يدرج تحت اسم الدين . ومن ثم كان عندنا عدد من التعريفات لا حصر لها . بل الواقع إنه يكاد يكون لكل كاتب عن الدين تعريف وتصور فى الموضوع يختلفان عما لسواه . ولكن لعل تعريف منزيز[1] (Menzies) أنسب التعاريف كلها من وجهة علم الاجتماع فهو يسميه "عبادة قوى عليا عن شعور بالحاجة" أى الاعتقاد بقوة ما أو قوى أقدر من الفرد . وهو يتضمن الشعور بالعجز و بالحاجة وهو شعور يبدو فى أعمال العبادة . والعاطفة الدينية مهما تعددت صورها موجودة فى جميع الأجناس ومسلم بأنها خصيصة فطرية فى الجنس الانسانى .

ولقد تقدم الدين والمدنية فى سبيل الرقى جنبا إلى جنب ، فالدين من هذه الوجهة يشابه غيره من الأوضاع الاجتماعية ولهذا لا يرجى وجود دين راق بين شعب عاش فى الهمجية أو البربرية لأنه لا يستطيع أن يدرك سمو أى تصور دينى كما أنه لا يرجى أن يستمر فى الوجود دين تابع لعهد منحط فى المدنيـة بعد أن يخرج الشعب من هـذه الحالة لأنه لن يكون راضيا عنه بل لا بد أن يتطلب تصورا أرقى . لهـذا كان الدين كغيره من الأوضاع الاجتماعية الأخرى يدل على طور الرقى الذى بلغه الشعب . على أن القوى التى تؤثر فى دين شعب من الشعوب قد لا تكون مثيلة للقوى التى تعين أشـكال حكومتهم أو رقيهم الصناعى ومن ثم قد نجد الدين متقدما عن سائر الأوضاع الأخرى أو متأخرا عنها . ولقد تثير البيئة الجغرافية التى من قبيل ما بفلسطين وما يحيط بها من الأقطار ، الآراء الدينية . وهى مع ذلك تعوق الترقى الاقتصادى . ولذلك لايصح لنا أن نرتقب وجود درجة سواء فى الرقى بين جميع الأجناس ، ولكنا سنجد أنه قد كان هناك تقدم مطرد بل منتظم ، وأن الدين الأرقى من شأنه أن يقتلع الأدنى . وفضلا عن هذا فان الأديان المختلفة نفسهـا لاتنقطع عن التغير وهى وإن كان بعضهـا منصرفا بهذا التغير إلى الانحطاط ، فانها منصرفة إجمـالا إلى الرقى إذ تجد التصورات الدينية مطردة السير فى سبيل النقاء والسمو . وإذا عالجنا موضوع الدين وجب علينا أن نتناول جميع الأديان ، الوضيع منها والرفيع على حد السواء . وسنحاول أيضا أن نستقصى آثار التقدم المطرد الذى حدث .

من الصعب جدا أن يصف الإنسان الدين الأولى لأن دين الرجل الوحشى فيما يخيل إلينا خليط محير من صنوف شتى من العقائد بعثتها مؤثرات لاحصر لعددها ويتضمن أنواعا شتى من الظاهرات الغريبة . ولذلك يصعب جدا أن يرد نشوء الدين الى نظام معين . ولابد فى

---

(١) ص ١٢ من كتاب آلان منزيز المسمى (History of Religion)

استعراض شيء من هذا القبيل أن يتجاوز الكاتب عن كثير مما يصادف من الشواذ والاستثناءات وأن يكتفي بتحديد القليل من التواريخ والعهود الزمنية . ولكن يلوح لنا في الجملة أن فيما يلي بيانا للخطة التقريبية التي جرى عليها نمو الدين[٢] .

١ — عبادة الطبيعة

في الأبحاث المتعلقة بالدين الأولى يفرق الكتاب أحيانا بين عبادة الحيوان وعبادة غيره من عناصر الطبيعة مثل الصخور والجبال والشمس والقمر والنجوم والأشجار ومساقط المياه وما إلى ذلك . ولكنا سنتناول هذا وذاك في هــذا البحث لأن نظريات العبادة في كل منها كانت متماثلة تقريبا ولأن عهود الزمن الذي حدثت فيه واحدة والآثار متجانسة جد التجانس .

عاش الإنسان الأولى في دنيا لم يكن يفهمها وكان يحيط به فيها جميع صنوف الأخطار التي كان الكثير منها محجوبا عنه بحيث لا يستطيع أن يراه أو يدركه بتصوره . فلا عجب، والحالة هذه، أن تستشعر الخوف من الطبيعة . ولما لم يستطع أن يعلل كثيرا من ظاهراتها المحيطة به كان من البديهي أن يعتبر أنها ذات حياة مثله وإذا اعتقد ذلك وتصور أنها أشد قوة منه كان من الطبيعي أن يحاول أن يسترضيها بحيث يحصل على معونتها له أو بحيث تمتنع على الأقل عن أذاه .

ومن ثم أخذ الإنسان الأولى في عبادة ظاهرات الطبيعة التي أخذت بلبه أعظم مأخذ أو التي خشيها أشد خشية، فإذا كانت حياته في بلاد تستحجب فيها أشعة الشمس ترتب على ذلك أنه يعبد الشمس. ولعل الشمس أشيع ما عبده الناس من عناصر الطبيعة. وإذا كانت حياته على مقربة من بركان أو مسقط ماء عظيم تأثر الانسان الأولى به فعبده. ويصدق هذا أيضا على أي جبل عال أو نهر كبير أو شجرة جسيمة . أو صخرة عظيمة أو أي حيوان يخشى أذاه كالنمر أو الأسد أو التمساح أو أفعى سامة كالكبرة أو أي حيوان مما يعول عليه الإنسان لطعامه أو كسائه كالبقر والدب والجاموس . وإذا كان المطر الساقط مما يأتي بالخير له فربما عبده وقد يعبد على عكس ذلك الرعد والبرق والزوابع لخوف منها وقد كان البحر والنار من المعبودات الشائعة في حقبة متأخرة عبد الإنسان الحيوانات وغيرها من عناصر الطبيعة إذ كان يعدها مساكن للأرواح ولا سيما أرواح الأسلاف . على أن هذا لم يكن المثال الأصلي لعبادة الطبيعه بل كان حدوثه بعد ذلك العهد .

---

(٢) لا يفهم القارىء أننا لا نعني أن كل شكل من أشكال الدين إجمالا أو أي دين معين قد مر بالعهود التي سنوردها فيما يلي ولكن المقصود أن الخطة التي وضعناها خطة اجتهادية نحاول بها وضع الشيء بترتيب التقدم وأن النمو والرقي إنما يجريا إجمالا على ذلك النحو .

٢ — عبادة الأرواح والأسلاف — "نظرية الروح" لسبنسر (Spencer)

لم يكن الإنسان الأولى يستطيع أن يدرك تمام الإدراك معنى الموت ولم يكن يتصور أن الشخص الذى يموت إنما يترك هذه الدنيا تركا باتا . و إنما زعم أن الروح لا بد أن تكون قد غادرت الجسم مجرد مغادرة أو أنها ذاهبة فى رحلة ولا بدلها من العودة . وربما كانت الأحلام قد وطنت الاعتقاد بالأرواح فى نفسه بل يرى سبنسر (Spencer) أن الاعتقاد بالأرواح إنما تأتى من الأحلام . ولقد أدى هذا التصور الذى قام فى نفس الإنسان الأولى عن الموت وما عززته به الأحلام إلى الاعتقاد بأن الروح قادرة على أن تترك الجسد وتسكن منه على مسافة ما أو أنها تعود عند الموت وتحل فى جسم من الأجسام الطبيعية مثل شجرة أو حيوان أو تعود الى كوخها الذى كانت فيه . ولقد كان للإنسان المتوحش من ظله ومن منعكس صورته فى المـاء ومن صدى صوته إذا صات ما يثبت له صواب اعتقاده بالأرواح . وقد كان يرى الانسان أحيانا أن هذه الروح أو تلك صديقة أو عدوة تبعا لحبه لها فى حياته أو خشيته منها . وكان يلجأ إلى دفع إرادة السوء من الروح أو اكتساب إرادة الخير منهـا بالصلاة والقرابين والثناء عليهـا و بالتملق . وكذلك كان يحاول أن يرد سوء آثارها أو يحمى نفسه منها برموز سحرية وتعاويذ وأحيانا بطرق أخرى كأن يغرس فى الأرض رمحا عندما يهم بالرقاد .

نعم إن كثيرا من هـذه العادات والأفعال تلوح غريبة فى أعيننا ولكن النظرية فى ذاتها منطقية الى حد كبير . فالظاهر أن الاعتقاد بالأرواح كان شائعا على وجه عام تقريبا أو على الأقل الاعتقاد بحيـاة الروح بعد فناء الجسد .

وكان هذا الرأى أساسا لمـا جاء بعد ذلك من التصورات الدينية الأرقى . ولا مشاحة فى أن هذا الاعتقاد بخلود الروح لم يأخذ فى كل وقت صورة عبادة الاسلاف و إن كان هذا ما قد حدث فعـلا فى كثير من الجهات . وما عادات دفن السلاح والطعام والكساء والأدوات التى يحتاج اليها كل يوم مع الجثة وكذا قتل العبيد أو الزوجات قصد القيام بخدمة الميت فى العـالم الآخر إلا عادات نشأت من الاعتقاد بحياة مستقبلة .

ولمـا كان هربرت سبنسر يرى أن الدين إنمـا نشأ من هذا الاعتقاد فقد وضع نظريته الشهيرة المعروفة "بنظرية الروح" عن أصل العقيدة الدينية . وهى تتلخص فى أن المتوحش بسبب الإفراط فى الأكل أو لسبب من هذا القبيل قد يرى رؤيا يتمثل نفسه فيها قد ذهب للصيد فاذا جاء الصباح خبرته زوجته أو غيرها أنه لم يخرج من كوخه و إنمـا كان يتقلب على جنبه طول الليل . وقد يرى صورته فى بركة من المـاء أو يذهب الى بعض الخلجان العميقة

وينادى فيسمع صوته مرتدا اليه من جوانبها ومن ثم يستنتج طبيعة أن له مثلا قرينا قادرا على أن يتركه متى شاء ولا سيما وهو نائم . ولا شك أن حالات السير أثناء النوم والهذيان والإغماء مما يوقر هذا الاعتقاد فى عقل الرجل المتوحش .

من هذا الاعتقاد بالشخصية المزدوجة نشأت عبادة الأسلاف اذ أنها مؤسسة على الشعور بأن أرواح السلف تحوم حول الناس . ونشأت كذلك فكرة انتقال الأرواح أى دخول روح الشخص الميت فى جسد من الحيوان أو شىء من الأشياء المعبودة . فاذا كان هناك حيوان به ندبة تشبه ندبة كانت فى جسد شخص قبل مماته عد هذا الحيوان بطبيعة الحال مأوى نفس الشخص الميت .

ولقد نشأت عبادة الحيوان والطبيعة بهذه الطريقة فى رأى سبنسر كتفريع على عبادة الأسلاف . بل الواقع أن سبنسر حاول أن يوضح لنا أن جميع الاديان نشأت بهذا الأسلوب على أن نظريته مبنية على أساس ضيق جدا ، لأنه اذا صح أن بعض الأديان قد نشأ بهذه الطريقة فان من الغلو الكثير أن يقال إن جميع الأديان قد نشأت كذلك . ولا تزال عبادة الأسلاف شائعة فى كثير من الأقطار ولاسيا الصين . وما ذلك إلا لأن الناس فيها لم يخرجوا بعد من ذلك الطور . وفى بعض الأقطار تسبق عبادة الأسلاف عبادة الطبيعة فى بعض أشكالها على الاقل. ولكن المعروف عادة أنعبادة الأسلاف أتت بعد عبادة الطبيعة، اذ هى فى الواقع تعديل فيها . وهذه فى دورها أخلت مكانها لأشكال من العبادة أرقى مما سبقها وإن كان قد بقى كثير من العناصر الهامة من عبادة الأسلاف وانتقلت الى بعض الأديان الأرقى . ولقد كانت عبادة الأرواح والأسلاف مثل عبادة الطبيعة تصاحبها دائما تقاليد كثيرة غريبة و تخللها ضروب من السحر والخرافة .

٣ — عبادة النصب — الفتيش (Fetish)

فى عبادة الفتيش يقام الشىء و يعبد لا على أن الشئ نفسه آله بل على زعم انه مستقر لروح أو آله . وقد يعبد الإنسان أى شىء أدهشه فى الطبيعة أو أى شىء غير عادى وقد يحمل هذا الشىء من مكان الى مكان على انه طلسم . ولهذا فقد يعد هذا الضرب من الدين خليطا من الدينين السابقين لأنه فى الواقع مولد منهما وكثيرا مما نسميه أصناما لم تكن الا نصبا فتيشية .

٤ — عبادة كائن أعلى .

إن عبادة كائن أعلى مهيمن على كل شىء أمر متأخر الحدوث عادة ولكنها وجدت فى بعض الأحيان بين الناس الأولين وكانت فى مبدئها تتناول عبادة آلهة شتى ثم تحولت بالتدريج الى التوحيد باستبعاد الآلهة الصغرى أى أقلها خطرا . ولم يكن هذا الكائن الأعلى فى بعض

الأحيان الا جبــلا أو شجرة أو الشمس ولكنه مع ذلك ظل متفوقا على جميع الآلهة ثم أخذ هذا الاعتقاد يرقى و ينقى شيئا فشيئا بترك عبادة الآلهة القليلة الخطر . وكان فى هذا أســاس لأرقى أشكال الدين الذى عندنا اليوم .

ولكل معتقد من تلك المعتقدات أناس يزعمون أنه الشكل الأصلى للدين ولا مشاحة فى أن كلا منها — اذا استثنينا عبادة الفتيش التى هى فى الواقع ناتجة من أشكال أخرى — كان فى بعض الجهات أصلا فى دينها . على أنه يجدر بنــا أن نعد عبــادة الطبيعة أحط الأشكال اذ أنها الشكل الذى يوجد عادة بين أشد بنى الانسان وحشية . ولذلك فانا نتخذه نقطة البداية فى تقصينا مدارج الرقى الدينى و إن كان يجدر بنا أن نعير الاعتقاد بالحياة بعد الموت شيئا من تقديرنا .

خصائص الدين الأولى — القرابين

لــا كان آله المتوحش فى نظره شخصا كان من الطبيعى أن يحتاج هذا الإله الى الطعام وغير الطعام من لوازم الحياة . ولذلك كان يقدم هذه الاشياء اليه . ولقد كانت هذه القرابين أحيانا تعدم إعداما تاما بحيث لا يبقى لها أثر . وربما أصبحت الأسرفى بعض القبائل وهى فى حالة الفقر المدقع بسبب تضحيتها لجميع ما فى يدها مما يستخدم فى هذه القرابين . وفى أحيان أخرى لم تكن هذه القرابين تعدم ، بل ترد الى الناس طعاما وغذاء . ولهذا قلما كانت تضيع هباء . وقد تكون هذه القرابين من بنى الإنسان فى الأقطار التى اعتادت أو كان من عاداتها من قبل أن تأكل لحوم البشر . وكان أولئك الضحايا فى العادة من العبيد والأطفال بل كثيرا ما يشاهد فى الأمهات الهندوسيات حتى اليوم من تلقى بولدها فى نهر الكنج تضحية وقربانا . ولقد كان الإغريق الأول قبل إزماعهم غارة من الغارات الكبرى يضحون بفتاة جميلة . وكان أهل اسـبارطة يسمحون بضرب أولادهم أمام هيكل ديانا حتى يموتوا . وجاءت التضحية بالحيوان بعد التضحية بالإنسان وكانت دائمــا اشيع أنواع القرابين . وبهذه الطريقة صارت التضحيات ، ولا سيما بين اليهود ، مظهرا من مظاهر التكفير عن الذنوب أو وســيلة لرفع العقاب عليها .

الصلاة

الصلاة هى الطريقة المعتادة فى الزلفى الى الإله وهى مظهر طبيعى من مظاهر الدين ولا سيما عبادة الأوثان . ومن الطبيعى أن يصحب تقديم القرابين صلاة ودعاء إذ الواقع أنها طريقة الإخبار عن المقصود من تقديم القربان وهى تتضمن سؤال المصلى من الإله . وهى وان كانت موجودة فى غالب الأديان بقدر ما إلا أن أهميتها إنما تزيد بارتقاء الدين .

القداسة

كل شيء له صلة بالعبادة يكتسب بحكم هـذه الصلة صفة القداسـة ولا سيما النصب والهيا كل وأماكن العبادة . فكل أداة أو احتفال أو شعار متصل بالدين يصبح ذا قداسة. ولا يزال هذا الامر على ما كان عليـه . بل انه يصبح فى بعض الاحيـان بتقدم الدين أقوى وأشد .

السحر

كان السحر من الأمور المتصلة بالأديان الأولى اتصالا حيويا ممتزجا بها امتزاجا شديدا ويرى الأستاذ توماس أن السحر كان فى نظر الإنسان المتوحش أهم وأخطر من الدين لأنه يتخذ صفة العلم اذ يحاول به تفسير الظاهرات فصار بذلك طليعة للعلم الحديث . ولقد كان فى كل قبيلة تقريبا شخص أو أشخاص شبيهون برجال الطب بين الهنود الأمريكيين الذين كانت مهمتهم تعليـل الظاهرات والتنبؤ بالمستقبل والتغلب على الأرواح إما بدفع الشر أو فى جلب الخير المطلوب وشفاء المريض وعمل ما ليس فى مقدور عامة النـاس . ولقد كان من دأب هذا الشخص — الطبيب الساحر — أن يلجأ الى السحر للقيام بهذه المطالب وبهذه الطريقة صار للسحر هو والخرافات شأن مهم فى ديانة المتوحشين . فلما أخذ الدين فى الرقى ألتى هذه الحثالات شيئا فشيئا وإن لم تخل غالب الأديان منها حتى اليوم خلوا تاما .

أهمية الدين عند الشعوب الأولية

كان للدين فيما سبق أهمية اجتماعية أكبر مما له الآن وإن لم تكن أهميته الدنية أكبر مما هى اليوم ولكنه كان يستغرق مقدارا أكبر من حياة الإنسان الهمجى . فلقد كان دينه يتدخل فى كل عمل من أعمال حياته إذ لم يكن بد من استشارة الآلهة قبل أن يحدث أمر من الأمور المهمة حتى بعـد أن انقضى طور الهمجية . فلقد كان الرومان لا يزاولون قتـالا أو يخرجون لحملة حربية أو يدخلون موقعة ما لم تكن آيات الآلهة مبشرة بالنصر . ولقد كان الملك فى أول الأمر هو الكاهن أيضا . وقد رأينا فى الفصل السابق أن الدولة والكنيسة كانتا شيئا واحدا وأنهما لم تفترقا إلا منذ عهد قريب جدا . وكان الدين أمرا من أمور القبيلة وكان على كل عضو فى القبيلة ألا يقتصر على اعتناق دينهـا بل كان واجبا عليه — ذكرا كان أو أنثى — أن يشترك فى شعائرها وحفلاتها الدينية . وكانت حفلات الرقص الدينيـة مظهرا هاما فى الدين . كما أن الرقص كان ذا أثر هام فى أطوار حياة الإنسان الهمجى جميعها وكانت الأعياد الدينية تقام أيام الحصاد وكذلك فى ظروف أخرى ذات شأن خاص .

والأثر الأدبى الذى أحدثه الدين يحصر فى إحداثه الوحدة القبلية وفى كبحه ميول الناس إلى الإفراط. فهو يبيح ما كان فيه خير القبيلة ويحرم ما يعود عليها بالضرر. ولقد أدى إلى تنمية الولاء القبلى وإطاعة الزعيم ورعاية تقاليد القبلية وتضحية المصلحة الفردية فى سبيل مصلحة القبيلة. ولكنه من ناحية الواقع كان قوة محافظة عظيمة تكبح روح الابتكار والاستقلال الفردى وتثبطه. كما أنه كان من الناحية الأخرى عقبة فى سبيل الإصلاح ولم يعط للناس إلا فرصا قليلة ليفكروا من تلقاء أنفسهم. بل الواقع أنه كان يحول دون ذلك. على أن جميع الأديان قد اتبعت هذه الخطة لزاما وهى من الأمور التى تحاول حتى فى يومنا هذا أن تتغلب عليها. وخلاصة القول أن الدين الأولى ساعد على كبح جماح الأفراد ولكنه كان أغلب الأحيان عقبة فى سبيل التقدم.

ولا بد لنا للحصول على صورة صحيحة حقيقية عن نشوء الدين أن نبحث فى ترقى الأديان القومية ونتناول الأديان الرئيسية الحاضرة بالدرس لا من الوجهة اللاهوتية على التخصيص بل من الوجهة التاريخية.

نمو الدين القومى من الدين القبلى

إذا أصبح إله من الآلهة فى نظر الناس أهم من سواه انتشرت عبادته وإذا حث الناس عليه شخص ذو مكانة عالية بينهم ذاع صيته وكبر شأنه. نعم كانت كل قبيلة تميل إلى المحافظة على معبوداتها ما لم تتغلب عليها قبيلة أخرى، ولكن آلهة القبائل الأقوى ذات الشأن الأهم كانت تحل محل آلهة الشعوب الأضعف بسبب زيادة ثقة الناس بها. وكان الدين الذى يستريح له العقل الاولى أدنى إلى البقاء. ولكن الإنسان أخذ يعلو شيئا فشيئا فى مدارج المدنية ولذلك كانت الأديان المنطوية على تصورات لاهوتية أرقى من سواها والتى تعاليمها أسمى وأجل تنمو وتنتشر على حساب ما هو أقل وأحط. وكذلك الأديان التى كانت تنطوى على مضرة للناس مثل التى تجيز أو تطلب إلى الناس تضحيات بشرية فتعمل بهذا مباشرة على فناء مجموعهم قتلا أو فنائهم بطريق غير مباشر فى الجهاد للحصول على أسرى لتقديمهم قرابين للآلهة، هذه الأديان كانت تقتلع وتندثر وكانت القبائل التى أديانها على هذا الحال تندحر فى ميدان تنازع البقاء ويبيد دينها بطبيعة الحال. أما الأديان التى كانت تقاليدها وعاداتها مؤدية إلى نفع المجموع مثل التى تقول بتوحيد الزوجة وحسن معاملة النساء وتحرم قتل الأطفال والرق فقد كانت تزداد قوة لأن شعوبها كانت تزداد عددا وقوة. وبهذه الطريقة استطاعت الأديان العالية أن تفوز على الأديان المنحطة. ثم إذا أصبحت القبائل أشد بأسا أجبرت القبائل الأخرى على اتخاذ آلهتها آلهة لهم إما بقوة السلاح أو بالقدوة. وكانت القبائل الضعيفة مستعدة فى العادة

للتزول على تلك الإرادة لأنها كانت محتاجة إلى رضا الآلهة التى ثبت لهم أنهـا أقوى وأقدر من آلهتهم. وبهذا الأسلوب خلف الدين القومى الدين القبلى . على أن هذه الخلافة لم تكن إلا توسيعا لمدى العقائد التى كانت يومئذ أرق من سواها وزيادة فى مساحة الأرض التى تسود فيها . بيد أن الأديان الأرقى نفسها كانت هى كذلك تحسن يوم تتصل بغيرها من الأديان الأخرى إذ كانت تقتبس فى كثير من الأحوال ما فى العقائد المنافسة من العناصر القوية . ومن ثم كانت الأديان نفسها تزداد رقيا باتساع نطاقها وقوتها .

ديانة بابل ومصر القديمتين :

مراكز الثقافة الأولى ثلاثة : الكلدان (بابل القديمة) ومصر والصين . ولكن لعل بلاد الكلدان كانت أولى هذه الثلاث بل المشرع الذى صدر عنه الاثنان الأخيران فقد اقتبست شعوب أخرى ولا سيما العبرانيون شيئا كثيرا جدا من بابل القديمة فقـد وجد أن القانون اليهودى يرجع فى كثير من مواده وتفاصيله الى قانون حورابى الذى سبق قوانين اليهود بقرون عدة . كان أهل بابل الأولى خليطا. والواقع أن حورابى وهو أول ملك عظيم ، كان يحكم مجموعة من شعوب عدة يتكلمون لغات شتى مترتب على ذلك أن دينهم لم يكن دينا خالصا بل خليطا من عقائد كثيرة . كانوا يعتقدون بالأرواح وأن هذه لايمكن كبحها إلا بالسحر والرق وكانوا يعتقدون أن هذه الأرواح هى المسببة لكل الآلام والأمراض وكذلك لكل المصائب وفى هذا تعليل الى حد ما لقسوة البـابليين وخرافاتهم . وكانت عبادة الطبيعـة أيضا مندمجة فى عبادة الأرواح . وكان لديهم عدد كبير من الآلهة مابين عظيم فى شأنه وصغير ، يعبد أحدها فى بلد وآخر فى بلد آخر . ومن ثم لم يكن لهم نظام واحد. وكانت الآلهة فى معظمها ممثلة برموز حيوانية. وكان الدين من التعقيد بحيث لم يكن من الممكن أن يصبح دينا خالصا للدولة . نعم إن الدين الأرقى فى بابل كان عبادة من عبادة سـيد بشرى أعلى يتولى شؤون العالم ولكنه لم يستطع أن يمحو اعتقاد النـاس فى الأرواح ولم يبطل سنة تقديم القرابين اليها . على أن دين بابل وإن كان خليطا من المعتقدات ومتضمنا أنواعا شتى من المذاهب ولم يستطع أن يدنو من التوحيد فانه رغم هذا يعد خطوة واسعة انتقل النـاس بها من خطة العجز والجبن التى جروا عليها من قبل فى عبادة الأرواح خشية منها ، الى عبادة آلهة كانوا يرونهـا محبة للانسان . ولمـا دخلت بابل فى الامبراطورية الفارسية فقدت دينها لأنه لم يكن قد تكوّن تكوّنا كافيا لضمان بقائه .

مصر قطر كان محوطا على الدوام بعاطفـة احترام ومكتنفا بشعور الإبهـام حتى قبيل ما ذهب العبرانيون اليهـا واتخذوها موطنا ، لأن الملوك الرعاة الذين حكموها فى ذلك الوقت تغلبوا فيها على مدنية كانت أقدم عهدا . ولقد كان جانب من هذه المدنية يتضمن دينـا

ذا نواح كثيرة معقدة . دينا كان مشتملا على عقائد عدة ونتيجة لعوامل كثيرة فان مصر قطر غزى غير مرة وكانت كل غزوة تترك فيه طابعها . وأقدم دين أمكننا العثور عليه فى مصر هو نتاج لكثير من أديان أخرى أسبق منه عهدا . فهو يتضمن مخلفات عبادة الحيوان كما يستدل من الهياكل العظيمة التى أقيمت للحيوانات المقدسة ، ولا سيما للكركى والبقرة والهرة ، ومن أن هذه الحيوانات كانت مقدسة فى الأقاليم التى كانت تعبد فيها . وكانت عبادة آلهة أخرى أرقى شأنا قائمة بجوار تلك مثل عبادة الشمس والقمر والسماء، وكان رأس هذه المعبودات هو رع أى الشمس الذى كانوا يمثلونه ملكا كبير السن كريما وبطلا محاربا ودليلا للروح فى العالم السفلى الذى كان رع ملكا عليه أيضا وقد صيغ حول شخصه شىء كثير من الميثولوجيا. وكانت هناك أسرة من الآلهة شبيهة بأسرة الآلهة لدى الإغريق تتألف من أوزيريس (Osiris) وهو إله الشمس فى ابيدوس ومن زوجته التى هى أخته أيزيس ، (Isis) وأخيه ست . وكان أوزيريس يمثل الضياء والطهارة حين أن أخاه ست مثل ضد ذلك . فقد كان مثال الشر ولا سيما الصحراء والظلام وريح السموم والمرض، وكذلك يمثل — وهو ما نعده أمرا غريبا — الشعر الأحمر . وكان بين أوزيريس وست عداء مستمر ولدينا على ذلك قصة موت أوزيريس وبحث ايزيس عن جثته والانتقام لموته على يد ولده حورس . ثم إن الديانة المصرية لم تكن توحيدية ولكنها فى الواقع كانت قريبة من ذلك بتغلب الآلهة الأقوى وسيادة إله واحد فى كل مدينة أو إقليم ، فقد كان لكل محل إلها يخصه بحبه وكان كهنته يعملون على جعل هذا الاله هو الأعلى ولكن لم تكن هناك أى وحدة فى الاعتقاد بآله واحد معين ولو أن جميع الآلهة كانوا فيما يظهر آلهة تمثل الشمس ولذلك يعد دين المصريين ضروبا من عبادة الشمس .

كانت الهياكل المصرية ديار إقامة للآلهة اكثر من أنها كانت أماكن للعبادة اذ كانت توضع صورها فى الهياكل كل عسى أن تحل بها الآلهة نفسها . وكانوا يحيون عبادة الآلهة بأعياد عظيمة ومواكب اذ كانت العبادة شأنا شعبيا عاما أكثر من كونها شأنا فرديا خاصا . وكانوا يعتقدون أن الملوك متناسلون من الآلهة وكان من أهم مايعنون به أن يقيموا للمعبودات مساكن فخمة .

كان دين المصريين يتضمن الاعتقاد بحياة مستقبلة وكان هذا الاعتقاد سببا داعيا الى العناية بالميت بتحنيط جسده وموحيا بالرأى السائد من حيث وجوب التزوج ليتيسر للإنسان أن يأتى فى الدنيا بأولاد كى يعنوا بالجسد بعد الموت . وقد أقيمت الاهرام لتكون قبورا للملوك . وكان الاعتقاد السائد هو أن الروح ترافق الإله الشمسى فى العالم السفلى وهناك يتوقف مصيرها على الحالة التى كان يعيش عليها صاحبها أو على نوع معاملته الإله اثناء الحياة .

على أنه إذا كان الدين المصرى أرقى مما سبقه و إذا كان قد تضمن مبادئ كانت تصيره عقيدة روحيــة أنقى وأرقى و إذا كان يشتمل على كثير من المبادئ الكفيلة بالاستقامة فى الحياة ورعاية الجار فقد انحط بعـد ذلك وفسد بانحطاط المدنية المصرية وتهدم كيان الأمة من الناحية السياسية ، إذ زاد اعتماد الناس على السحر وأخذت العقائد الحلولية تزداد وتقوى وصار الكهنة على جانب عظيـم من الجشع والفساد والظلم والاستبداد . و إذا كان قد نفع لأديان التى جاءت بعده بقدر ما فإن أثره لا يعد شيئا يذكر إلى جانب ما كان من الأثر لأديان أمم أخرى ولا سيما اليهود .

وتدلنا الديانتان البابلية والمصرية كيف أن الأديان تمو وتهذب باتصـال أديان عدة بعضهـا ببعض إذ يترتب على محاولة الناس الحصـول على منهج عبادة مركز أن يمو الدين وينق و يزدهر ثم يدركه الانحطاط بعد ذلك تاركا مكانه لدين أسمى . لقد كان دينا البابليين والمصريين من الجمود والتزام الرسميات بدرجة يتعذر عندها أن يصبحا دينين عظيمين و إن كانا قد أثرا بدرجة ما فى نشوء العقائد الدينية التى ظهرت بعدهما .

دين الإغريق والرومان الأقدمين

مرّ دين الإغريق فى نفس الأطوار التى مرت فيها الأديان الأخرى . على أن دينهم بسبب درجة الثقافة العالية التى وصلوا اليها وسرعة نمو المدنية عندهم وملاءمة البيئة التى كانت داعية إلى إيقاظ قوة وسرعة التصـور و إلى الرقى الفلسفى والديني — قد جرى فى مضمار الرقى بخطى أسرع من خطى الأديان الأخرى . إن تاريخهم القديم ممتزج بالميثولوجيا : تختلط فيه أعمال الإنسان بأعمال الآلهة إلى حد يتعذر عنده التفريق بين الحقيقة والخيال فيهـا . نعم وجدت عبادة الطبيعة والأرواح فى وقت من الأوقات ولكنهم أهملوها من زمن بعيد جداً وكانت آلهتهم آلهة وظائف ولها صفات إنسانية بارزة. ولم يقتصر الاعتقاد بها على أنهـا ذات أجسام انسانية ، بل كانوا يرونها مثال الكمال للصورة البشرية . ولم يقتصر الأمر أيضا على الاعتقاد بأنها ذات أجسام إنسانية بل كانوا يرونها كذلك ذات شهوات إنسانية فهى تكره وتحب وتغار ، بل وتسرف أيضا كما يسرف بنو الإنسان بالرغم من اعتقادهم أنها ذات قوى فوق الطبيعة البشرية . وكانت الآلهة الإغريقية أسرة : زيوس (Zeus) فيها هو الأب وهيرا (Hera) هى الأم . على أن عدد الآلهة والآلهات كان يزداد بلا رابط حتى إن الاثينيين بعد أن أقاموا عددا عظيما من الهياكل والمزارات بنوا هيكلا باسم " الإله المجهول " خشية أن يكونوا قد نسوا منها واحدا: وكان لكل مدينة إلهها الحارس أو آلهتها الحارسة وكذلك كان كل إله يمثل عملا معينا .

كان الدين الإغريق يتضمن الاعتقاد بعالم آخر تسكنه أرواح تلق فيه جزاءها من خير أو شر ولا سيما من الشر، ولعل أعظم ما كان للدين الإغريق من الأثر هو ما أوحى به إلى الناس فى عالم الفنون ولا سيما النحت والشعر. وكانت الحفلات والألعاب الدينية داعية إلى تقويم الأبدان . ولقد كانت الآلهة مفروضا فيها حماية العدل وتقويم العوج وتقرير العقاب فى هذا العالم والعالم الآخر. وبهذه الطريقة تكبح جماح الناس لخوفهم من العقاب. ولكن الواقع أن تأثيرها الأدبى كان معدوما تقريبا لأن الآلهة كانت فى حقيقة الأمر تمثل دساتير الآداب السائدة ولم تكن الآلهة طيبة أو شريرة بصورة معينة ، حتى لقد كانت تتقاتل بعضها مع بعض ، وإنما كان يلجأ اليها فى وقت الحاجة أو الخطر . ولم يكن للدين الإغريق غرض يرمى اليه مثل نرفانا (Nirvana) البوذية أو سماء المسيحية . على أنه قد مهد السبيل للمسيحية إذ استطاعت أن تخلف الدين الإغريق بسهولة يوم أذاع الرسل المسيحيون الأول دينهم الجديد .

ولعل روما تعطى خير مثل على بقاء الأصلح فيما يختص بالدين فقد كان دين روما الأول دين أرواح إذ الواقع أنه لم تكن هناك آلهة حقيقية بل حفل من الأرواح تسكن الطبيعة. وكانت هذه الأرواح الطبيعية تعبد أو يفزع اليها لا عن محبة لها بل عن مساومة أو تعاقد اذ كانت تقدم لها القرابين فى مقابل حمايتها ومعونتها . وكانت لديهم عبادة الآلهة المنزلية (Lares) وهى أرواح الجدود الذين كان الناس يقدمون اليهم القرابين والصلوات لأنهم كانوا يعتقدون أنهم يمنحون السعادة أو يمنعونها . وقد أدى هذا الى عبادة أشخاص مؤلهة مثل روميولوس (Romulus) ثم يوليوس قيصر . ومن ثم أضيف هذا النوع من العبادة الى الدين السابق وصار الدين الرومانى جزءا من الدولة فلم يكونوا يهمون بحرب أو مشروع خطير بغير استشارة الآلهة ثم لا يشرعون فى العمل ما لم تأتهم الآيات بفأل حسن .

ولقد كان الدين من التعقد بحيث تطلب الأمر وجود طبقة كهنوتية لإيضاح إرادة الآلهة أو رغبات الأرواح، وهذا أمر كانوا يفعلونه بفحص أحشاء الحيوانات التى تقدم قرابين وكذلك بتفسير طيران الطيور ولم يكن الرومان يناهضون عقائد الشعوب التى كانوا يغزونها أو يهزمون بها، بل كانوا يوقرونها اذ يعتبرون آلهتها أشخاصا حقيقيين يجدر بهم هم أنفسهم أن يكونوا معها على وفاق تام بجروا بذلك على خطة التسامح بدلا من الزراية بها أو الرغبة فى تعطيلها كما كان شأن معظم الأمم الغازية الى يومنا هذا . والواقع أنه لما وصل الرومان الى بلاد الإغريق ثم بعد ذلك أخضعوها واستولوا عليها اقتبسوا ديانة الإغريق برمتها تقريبا ولا سيما تصورهم للآلهة سوى أنهم أعطوا الآلهة أسماء لاتينية وجروا فى عبادتها الى حد بعيد حتى ليرى كثير من الناس أن الدين الرومانى ليس إلا وليدا للدين الإغريق .

على أن مبدأ التسامح الذى جروا عليه قد بطل بعد ما غزت المسيحية بلاد إيطاليا وخشى أن تحل محل العبادة القائمة فقد عملت الحكومة يومئذ على إبادة المسيحية من أرضها بوسائل الاضطهاد ولكنها بفعلها هذا قد نشرتها وعجلت باعتناق جميع الناس إياها نهائيا . فقد أدى التنافس الى بقاء خير العناصر فى الأديان المختلفة ومن ثم تغلبت المسيحية فى النهاية على جميع الديانات المنافسة وأصبحت الدين السائد . ثم تزايدت قوة المسيحية بعد سقوط روما من عداد دول العالم فأصبحت جزءا من الحكومة وحكمت أوربا عهدا طويلا حكما سياسيا واجتماعيا وأخلاقيا ودينيا على يد الكنيسة الكاثوليكية التى انقسمت بعد ذلك الى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية الإغريقية .

الأديان العالمية الكبرى فى الوقت الحاضر

هذا التطور المستمر الذى يعتور الدين مشاهد فى أديان الوقت الحاضر وكذلك فى أديان العصور القديمة لأن تطورها لا يزال مستمرا . فالأديان التى تنفع الجنس الإنسانى وتساعده أكثر من سواها هى الأديان الآخذة فى التزايد وفى اقتلاع تلك التى لا تحقق هذا الغرض . ثم إن فى الدنيا أديانا كثيرة ولكن منها خمسة فقط تعد فوق الجميع لا من حيث عدد اتباعها فقط بل ومن حيث أثرها الاجتماعى . ويجدر بنا لكى نتم درسنا لموضوع تطور الدين أن ننظر نظرة عاجلة الى الوجوه الجوهرية فى الكونفوشيوسية والبوهيمية والبوذية والإسلام والمسيحية متناولين كلا منها تبعا لمقدار أهميته الاجتماعية ونحوه وإن لم يتفق مع الترتيب التاريخى وجوده .

١ — الكونفوشيوسية (Confucianism)

تعد الكونفوشيوسية ذات السلطان الأكبر بين أديان الصين الثلاثة : الكونفوشيوسية والطاوية (Taoism) والبوذية (Buddhism) — فهى جزء لا يتجزأ من المدنيـة الصينية التى يرجع عهـدها الى قرون عديدة . وهى وإن كانت منسوبة فى التسمية الى كونفوشيوس وهو حكيم صينى وفيلسوف يزعمون أنه عاش بين سنتى ٥٥٠ و٤٧٨ قبل ميلاد المسيح فانها وجدت من قبله بقرون عدة لأن كونفوشيوس لم يكن إلا جماعا وحافظا لحكمة القدماء وإن كان قد زاد عليها قدرا ما من عنده . جمع كونفوشيوس تلك المعارف وسلمها من بعده مقيدة فى كتب بقى منها الى اليوم خمسة أو ستة . يضاف الى هذه الكتب طائفة أخرى من المأثورات المدونة تولى تحريرها تلاميذ لكونفوشيوس ولاسيما منسيوس (Mencius). ويقال إن هذه الكتب تتضمن تعاليم كونفوشيوس . وعبادة كونفوشيوس نفسه هى أهم ما أضيف

الى العبادة التى كانت سائدة قبل عهـده . وليست الكونفوشيوسية فى الواقع دينـا بالمعنى الذى نفهمه من الدين اذ هى أقرب إلى كونها مذهبا فلسفيا . وليس فى طقوس عبادتها شىء من القسوة أو ما يبعث على النفور والاشمئزاز أو ما يؤدى الى السقوط والانحطاط . وهى لا تتضمن ميثولوجيا ولا أصناما ولا طبقة قساوسـة بل كل شىء فيها كريم حسن التنظيم وهى فى جوهرها دين شكلى ليس للعقيدة فيه كبير شأن ولا الانفعـال ضابط من أى قانون خلق (إيثيق) وإنما الأمر الجوهرى فيها وجوب أن يفعل الإنسان الشئ اللائق فى الوقت المنـاسب وبالطريقة الصحيحة . والأشياء التى تعبد فيها ثلاثة — (ا) السماء وهى أهم إله صينى — ويعنون بها قبة الأفق ، أو الهواء الأزرق ، وهذه (أى السماء) يزعمون أنهـا قوة حية وتعبد لذاتهـا لا على أنها مسكن أى قوة أخرى . ثم (ب) الأرواح وجميعها خيرة ويتكلمون عنها عادة بصيغة الجمع اذ يزعمون أن لكل شئ فى الطبيعة روحا وهم لا يتخيلونهـا متحركة حائمة بل منظمة على هيئة اكليروس ويعبدونها بجملة ثم (ج) الأسلاف الذين عبادتهم هى الفرض الدينى الواجب على كل فرد . واعتقادهم بعـالم آخر مرتكز على فكرة استمرار الأسرة . وهم يرون أن من واجب كل إنسـان أن يتزوج ويربى له عقبا لكى يوالى عبادة الأسلاف وتجد فى بيوتهم ألواحا تخليدا لذكرى هؤلاء الأسلاف . ويزعمون أن أرواح أسلافهم تأتى الى هذه الألواح حين يتضرع اليها بالطريقـــة الصحيحة . ومفروض على الأمبراطور أن يقرب قربانا لجميع القياصرة الذين تقدموه والقضاة يقربون لجميع من تولوا مناصب القضاء قبلهم؛ على أنهم لا يبدون هذا الإجلال التمـاسا للسلام أو المعونة ، بل عن شكر وإخلاص وولاء . والشخص الذى يقدم القربان يصلى داعيا أن يكون جديرا بتقديمه وليس فى دينهم شئ من التذلل اذ الصينى يمارس دينه راضيا مسرورا .

والدين فى الكونفوشيوسية غير منفصل عن حياة النـاس اليومية ، فهو طقوس تمليهـا التقاليد وينفذها العرف والعادة . وهذا الدين — على نحو ما جاء به صاحبه — هو نظرية فى الحكومة والآداب . وهو من حيث أثره الاجتماعى سبب كبير فى سماحة الصينى وهو أيضا أحد الأسباب فى تأخر الصين .

وتتصل الطاوية (Taoism) بالكونفوشيوسية اتصال قرابة وهو مذهب وضعه "لاوطزه" (Lao-tsze) وكان فى أوائل عهده ينطوى على قانون للآداب ورياضة للنفس أرقى من الكونفوشيوسية ، على أنه انحط الى مستوى السحر . وعلى الرغم من أنه اقتبس بعد ذلك نظام الدين وجهازه من البوذية وأصبح معترفا به دينـا ، فانه لم يستطع أن يتملك نفوس الناس تملكا حيويا . هذا ، ولم تتدخل الكونفوشيوسية البتة فى المسائل الاجتماعية القائمة أو تحاول

إصلاح الأمور بل عملت على بقائها على حالها وكان من أثرها أن منعت أتباعها من التقدم .
وقد امتازت الكونفوشيوسية عن غيرها بأنها لم تنحط أو يعتورها الفساد بل بقيت كما كانت تقريبا منذ ألفين من السنين فلم تتقدم ولم تتأخر .

٢ — البرهمية (Brahmanism)

تعد البرهمية وليدة مباشرة للدين الفيدى (Vedic) السابق لها الذى دخل الهند مع غزاتها . ولقد كان الدين الفيدى أرقى من دين بابل السابق ولكنه كان خليطا من عبادة الأرواح والطبيعة ، وخطاه فى درجة دنوه من التوحيد باعلائه مكانة إله واحد على غيره من الآلهه لوقت معين على أن يأخذ كل اله آخر دوره فى السيادة . وهم يرون أن جميع الآلهة تمثل مظاهر مختلفة لكائن واحد أعلى فارتفع هذا الدين بذلك عن عبادة الأصنام أو النصب وأحدث بذلك تصورات أرقى مما كان شائعا من قبله . على هذه العقيدة الفيدية تأسست البرهمية اذ طرحت آراء عبادة الطبيعة العتيقة وأحلت مكانها شعورا باطنيا ذاتيا .

ولقد استحدثت آلهة جديدة أهمها برهمة (Brahmah) الذى هو رأس ثالوث مؤلف من برهمة الخالق وفيشنو (Vishnu) الحافظ وسيفا المهلك (Siva) وليس تصورهم لبرهمة ببعيد عن تصورا يهوه (Jehovah) إذ لا يقتصر الأمر فيه على أنه إله ظاهرى بل إنه موجود أيضا فى إدراك الانسان الذاتى . ولكن فى حين أن المسيحية تقول إننا إنما نخدم الله بخدمتنا إخواننا بنى الإنسان تقول البرهمة إن هذا إنما يتم بالبعد عن الناس وبالعزلة التامة والتفريق بين الشخص وبين خطيئة الدنيا . وليس فيها تمييز بين الأعمال خيرها وشرها إذ لا بد ليكون الانسان مطهرا من الابتعاد عن كل ما يحط أو يربك . والخلاص شأن من شؤون الفرد إذ لا رغبة هناك فى نشر النور أو تخليص الغير وإنما تكتسب فضيلة الدين بالاعتزال وعندهم أن الإنسان لن يكتسب القدسية إلا بأن يعيش وحده فى عزلة .

ويتصل بالدين البرهمى كتب مقدسة منها المسطورات الفيدية المقدسة وكتابات مفروض فيها أنها منزلة وتراتيل ورسائل وكتب تشريعية . وهناك أيضا قوانين مانو Manu الشهيرة المدونة حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل المسيح وهى عبارة عن مجموعة قواعد وضعت لسياسة جميع الهندوس . وفضلا عن هذا فإن البرهمية تتطلب من أتباعها قرابين معقدة المراسم أصبحت اليوم شكلية . ولقد كان تأثيرها الاجتماعى عظيما ولكن لما كان الفرد هو المعنى فقد أهملت العناية بما يجب للجموع من فضائل وآداب ولم تحاول البرهمية أن تخفف آلام الشعب أو تتولى مسائل المجتمع بل سمحت لأهل الهند أن يعيشوا فى الفاقة والشقاء ولم تحاول أن تهدم نظام الطبقات بل عملت على نقيض ذلك إذ عززته لأن طبقة الكهنوت عندهم هى أسمى الطبقات . ولم تحاول أيضا أن ترفع مقام المرأة بل عملت على الحط منه .

وهذه العيوب تدلنا على سر ضعف البرهمية العظيم لأن نجاح الدين إنما يتوقف على عمله فى مساعدة الإنسانية والبرهمية لم تعمل هذا لأن لحمتها العزلة عن الناس وسداها تخليص النفس فقط . على أنها قد مهدت الطريق للبوذية التى هى وليدة منها والتى هى أعلى نقطة وصل إليها الدين الهندى .

٣ — البوذية

إن تكن البوذية قد نشأت فى الهند فقد نفيت من تلك البلاد. واليوم لا أثر لها هناك بل هى فى الصين واليابان والتبت وجاوة وسومطره وسيام و برمة وسيلان وتتفرع فرعين : شمالى وجنوبى . وهى وإن كانت معدودة ثورة خارجة على البرهمية فإنها فى الواقع تطور منها إلى شكل أرقى .

البوذية دين بلا إله ولا صلاة ولا كهنوت ولا عبادة؛ هى دين يرجع الفضل فى نجاحه لا إلى لاهوته أو إلى طقوسه إذ لا شىء له منها بل إلى عاطفته الأخلاقية ونظامه الخارجى ولفظ بوذا معناه " الواحد المستنير " أو " المستنير " . والمفروض أنه كان هناك أربعة وعشرون من هؤلاء الآحاد المستنيرين وجدوا قبل ظهور غوتاما (Gautama) مؤسس البوذية . كانوا بشرا ولكن يقال إنهم بلغوا درجة فوق البشرية بانقطاعهم زمنا فى الزهد والتألم لآلام الإنسان وأنهم دخلوا حظيرة الحياة الإنسانية بعد ذلك وتحملوا أعباء آلام الإنسان . وليس هذا الدين سلبيا كالبرهمية بل هو إيجابى وإنشائى . فالإنسان فيه يبلغ السعادة بأن يعيش عيش صلاح ومن ثم كان لهذا الدين قانون فضائل وأخلاق يعد فى الدرجة القصوى من السمو وهو يكافىء أتباعه " بالنرفانة " (Nirvara) مكان الخلاص أى جنة البوذية . والنرفانة، مكان العتق والحرية، يستطيع أن يبلغه الإنسان حتى قبل الوفاة . وطريق البلوغ إليها هى أن يعيش الإنسان عيش الزهد وترك الرغائب والشهوات والتعاليم الأخلاقية البوذية تنادى بالتسوية بين الناس أجمعين واحترام كل كائن حى . وهنالك خمس قواعد للصلاح والاستقامة تشبه الوصايا العشر وتجب مراعاتها على كل بوذى وهى :

(١) ألا تقتل أى كائن حىّ و (٢) ألا تأخذ ما لم يعط اليك و (٣) أن تجتنب الزنا و (٤) ألا تنطق بما هو غير حق و (٥) أن تمتنع عن كل شراب مسكر . ويضيف بعض الأتقياء البوذيين ما يأتى :

(١) ألا تأكل بعد منتصف النهار و (٢) ألا تحضر حفلات الرقص أو الغناء أو الموسيقى أو التمثيل (٣) ألا تستعمل أكاليل الرأس أو الدهون أو العطور أو الزينة الشخصية (٤) ألا تستعمل فراشا عاليا أو عريضا (٥) ألا تقتنى فضة أو ذهبا .

و إذ ليس فى البوذية إله ولا صلاة ولا قرابين لم يكن هناك حاجة إلى قساوسة . على أنه إذا لم يكن فى البوذية قساوسة فإن هناك دراويش من دأبهم ترك منازلهم والتنقل فى البلاد قصد تعليم الدين وممارسته وهم يشبهون النساك والرهبان المتجولين فى الكنيسة الكاثوليكية .

ولقد شاعت البوذية شيوعا باهرا لبساطتها وآدابها ولعظم العاطفة الإنسانية التى تنطوى عليها ولكنها بسبب صراحتها وحريتها قد انحطت وتلوثت بالسحر و بالخرافة فى كل أرض هبطت بها . ولقد كانت هذه الديانة من العلو بحيث عجز الناس عن تقديرها ولذلك لم تكن أهلا لأن تصبح دينا عمليا لمن اتصلت بهم من الناس . وهى وإن كانت دينا ساميا ، تعد حتى فى خير أحوالها دين حزن واكتئاب اذ ترى أن الحياة الانسانية شر على كل حال . وبرغم أنها تعطف أشد العطف على آلام الانسان فانها لا تعمل عملا ما لإصلاح العالم وإنما تقصر همها على اكتساب أفراد من الاتباع والأنصار . ومن ثم لم يكن لها فى المجتمع إلا أثر قليل ، وإن لم تكن دينا قهقريا كالبرهمية . وعلى الجملة فالبوذية دين بالغ درجة قصوى فى الحرية اذ يسمح لأتباعه أن يتعبدوا كما يشاءون أو ألا يعبدوا إطلاقا ولعله فى سمو مبادئه يأتى فى الترتيب بعد المسيحية التى تنازعها السيادة فى الشرق .

٤ — الاسلام

الدين الإسلامى هو آخر الأديان العظمى مولدا اذ ظهر بعد المسيحية بستة قرون .

وقد دعا اليه فى بلاد العرب محمد (عليه السلام) الذى ولد حوالى سنة ٥٧٠ من الميلاد. و بلاد العرب صحراء تسكنها قبائل متنقلة تربطهم أواصر القرابة . ولم يكن لبلاد العرب فى عهد محمد (عليه السلام) دين مستقر ، بل كان فيها خليط من عبادة الطبيعة والأرواح وكان لكل قبيلة معتقدها الخاص . على أن الناس أنفسهم لم يكونوا يؤمنون بآلهة كثيرة ولا سيما الصغرى منها ، ولذلك كانت البلاد على استعداد لقبول دين جديد . ثم كانت المسيحية واليهودية معروفتين ومحترمتين فى بلاد العرب ولكن الناس لم يعتنقوهما الى أى حد بسبب شيوع الكراهية للعبرانيين اذ كانوا يمقتونهم لصلفهم وازورارهم ونجاحهم فى اشتغالهم بإقراض المال . والمعروف عن محمد (عليه السلام) أنه ساح كثيرا فكان له من هذا عون على الاتصال بهذين الدينين وكذلك تهيأت له أسباب التفكير والدرس أيام كان يرعى الغنم فى البادية . ولما أخذ يهدى الناس فى أول أمره كذبه الناس وحقروا منه فى مكة ولكنهم عادوا بعد ذلك فتقبلوه بل رحبوا به فى المدينة وهى بلدة سكانها أكثر تنوعا وأجناسا من سكان مكة

ولقد أبدى كذلك من عظم السياسة والمقدرة التنفيذية ما ظهر فى إندماج تلك القبائل بعضها فى بعض .

وبعد فتح مكة أبق عليها وجعلها عاصمته . وقبل وفاته (عليه السلام) عمد الى غزو العالم ولكنه قضى قبل أن يمضى فيها تاركا تحقيق مشروعه بين أيدى أتباعه فنفذوه الى أبعد ما استطاعوا ، اذ اكتسحوا أسيا الصغرى برمتها وكذلك أفريقيا الشمالية ودخلوا أوروبا من طريق أسبانيا والبلقان ولم يقفوا عن التوغل وغزو أوروبا بأجمعها إلا بعد موقعة تور (Tours) فى سنة ٧٣٢ ميلادية .

ويقول الإسلام بأله واحد يسمونه "الله" وبالملائكة وبالأرواح الخيرة والشريرة وبالنبوة وبيوم البعث والحساب وكذلك بالجنة والنار . ومن صفات الله عندهم القدرة المطلقة والعدل المطلق وقد قال محمد عن نفسه إنه نبى الله ، وشعارهم الشهادة بأن "لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" ويؤمنون بنبوة آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى وسائر الرسل . وعندهم أن جهنم مكان تعذيب والجنة مكان نعيم حسى . ومما فرض على المسلم زيادة على الشهادة ، الصلاة والزكاة والصوم والحج . وعلى كل مؤمن أن يؤدى فريضة الصلاة خمس مرات فى اليوم وأن يحج الى مكة مرة على الأقل فى حياته . والخمر والميسر من المحرمات والجهاد فى سبيل الله من الفروض كذلك ، والواقع أن هذا الدين يشبه دين اليهود من وجوه سوى أنه مهيىء تهيؤا أفضل لأن يكون دينا عالميا .

هذا ، ونظرا الى مرونة الإسلام واستعداد الناس له واقتدار صاحبه عما وانتشر انتشارا يعد لسرعته رائعا . ولا يزال ينتشر اليوم بسرعة فى أسيا وأفريقيا وهو أعظم منافس للمسيحية فى أفريقيا وآسيا الغربية ويرى فى كثير من الأصقاع أكثر نجاحا من المسيحية لأنه أقرب الى الفهم . وهو وإن كان دينا راقيا جدا الا أنه يعوزه ما فى اليهودية من الآداب السامية وما فى المسيحية من مبادئ الحب والعطف . على أنه مع ذلك يعد خطوة رائعة رقى بها على الأديان التى كانت للشعوب التى تدين به اليوم . ويجب أن يعد أحد الأديان العالمية من حيث عدد أتباعه وسمو مبادئه .

٥ — المسيحية

لا بد للكلام عن المسيحية من التوطئة بالكلام على اليهودية التى تعد المسيحية وليدة منها ولكن نظرا الى ضيق المكان والى دراية الناس بمبادئ اليهودية يمكن التجاوز عن هذا الأمر . كانت اليهودية أيام ظهر المسيح قد أصبحت جامدة حتى اقتصرت أمورها على الشكليات وأصبحت تحتاج الى ما يبعثها وقد سدت المسيحية هذه الحاجة اذا استبدلت بدين الشكل دين المحبة .

وليست المسيحية دين خوف — وإن كان قد حاول كثيرون أن يجعلوها كذلك — وإنما هى دين وحى نفسى — دين يهدى لا دين يسوق ؛ فما هى دين قواعد جامدة بل دين حرية

وهداية باطنية أكثر مما هى دين قانون ونظم خارجية . ولما ظهرت المسيحية كانت الدنيا فى حاجة الى دين أرقى مما كان لديها وفى هذا تعليل لما نالته من النهضة السريعة والتأثير الرائع . على أنها جمدت بعد ذلك فأصبحت خطة محدودة فى عهد الكنيستين الكاثوليكيتين الرومانية والإغريقية وبعد ذلك فى عهد عدة طوائف بروتستانية ، وربما كان هذا أكثر ظهورا فى أيام "البيوريتان" والكنيسة الانجليزية ، ولكن رأيها الدائم متجه الى اطراح سلطة الأفراد ورأى القلة وإباحة قسط كبير فأكبر من الحرية الفردية ولا سيما فى التعاليم البروتستانية ويقل الآن التنازع بسبب اختلاف الرأى وتشتد الرغبة فى التماس الأفكار الدينية السامية وتوسيع مجال الانتفاع منها . ولما كانت المسيحية دين حرية وأمل ومحبة فانها مهيأة إلى حد كبير لأن تكون دينا عالميا وهى وإن كانت بلا شك أسمى الأديان وتعد اليوم أقصى ما وصل اليه التطور الدينى لم تصل بعد الى الدرجة القصوى فى الرقى أو الإفادة ولكنها مستمرة فى سبيل تقدمها بقدر ما تستطيع الإنسانية أدراكه منها [1]

تطور الأدثيقا (علم الأخلاق)

الأثيقا أى علم الفضائل هو علم مستقل وله فروع مثل علم الاجتماع . فعلم الأخلاق النظرى يتناول نظريات الفضائل وعلم الأخلاق العملى يتناول السلوك الإنسانى . وعلم الاجتماع متصل اتصالا وثيقا بعلم الأخلاق ولا سيما بما يسمى علم الأخلاق الاجتماعى. ولكن الواقع أن علم الاجتماع إنما يعنى بالقوانين الأدبية وتأثيرها من حيث ضبطها للمجتمع ومنشئها وتطورها. ونحن نتقبل هذه القوانين كما هى وإن لم يكن الحال كذلك دائما فيما مضى بل إنها حتى اليوم تختلف باختلاف الزمن والمكان والظروف ولدينا قوانين للسلوك فيما يختص بتناول المملوكات مثل القوانين التى تحرم السرقة . ولكن تفسيرنا لمعنى السرقة بالدقة

---

(١) وردت التقديرات الآتية فى التقويم الذى يسمى The World Almanac لسنة ١٩٢٢ لعدد اتباع الأديان الكبرى .

كنفوشيوسيون وطاوتسيون	٣١٠,٩٢٥,٠٠٠
برهانيون...	٢١٥,٥١٢,٠٠٠
بوذيون	١٤٠,٠٤٧,٠٠٠
مسلمون	٢٢٧,٠٤٠,٠٠٠
مسيحيون	٥٧٦,٠٠٠,٠٠٠
منهم الروم الكاثوليك	٢٨٨,٠٠٠,٠٠٠
البروتستانيون	١٦٧,٠٠٠,٠٠٠
الكاثوليك الإغريق (الأرثوذكس)	١٢١,٠٠٠,٠٠٠
يهود	١٤,٩٧٢,٠٠٠
شنتويون...	٢٥,٠١٥,٠٠٠

ولاستعمال الملك بطريقة تنافى الآداب أمر دائم التغيير . ولدينا قوانين فيما يختص بقول الصدق ولكن للصيني والأفريقي قوانين تختلف عنها عندنا . وهناك قوانين لآداب الأسرة لا تزال تنشأ وتتطور . وكذلك الأمر فى القوانين الدينية فانها تختلف باختلاف الدين والزمن فقد كان الشغل والرياضة من المحرمات أيام الآحاد فى عهد البيوريتانية ولكنا اليوم متبعون قوانين مخالفة لذلك فيما يختص برعاية حرمة يوم الأحد . ولدينا قوانين خاصة بأذية الناس فالتعدى ممنوع مثلا ولدينا أيضا قوانين خاصة بلبس الثياب ولكن مقدار هذه الثياب ونوعها يختلفان باختلاف الزمان والمكان والزى .

ولا يسعنا أن نتناول بالدرس هذه القوانين غير أننا نذكرها هنا باعتبارها جزءا من تطورنا الاجتماعى . على أنها لم تنشأ كلها بطريقة واحدة إذ هى تتأثر بفعل البيئة الجغرافية وغيرها من الظروف بطريقة مشابهة لما تتأثر به الأوضاع الاجتماعية الأخرى . ولقد كان الدين أحد العوامل العظيمة فى تطور هذه القوانين كما أن التقدم الاقتصادى والصناعى قد رسم طريق نموها إذ لم يكن فى استطاعتنا أن نسن قوانين خاصة بالملكية حتى تكون هناك أملاك ولا أن نضع منها ما يعنى بالنظم الصناعية حتى يكون لدينا أوضاع من هذا القبيل . وسنرى عندما نتناول " الجماعة " بالبحث أن الجماعة تمقت الأشياء التى تبدو غير نافعة لها وتقر الأشياء التى تبدو فائدتها لها . وبهذه الطريقة تطورت آداب الجماعة . بل الواقع أن أغلب القوانين نشأت كقوانين خاصة بجماعة والقوانين الأدبية لا يمكن أن تستقر مطلقا إذ أن الأحوال الحديدة تخلق على الدوام مسائل جديدة تتطلب الحل . خذ مسألة العدل مثلا فان كل اختراع جديد ينقض إلى حد ما قانون العدل السائد ولا بد لنا أزاء هذا أن نوفق بين قانوننا وما جد علينا من الظروف . وقصارى القول إن القوانين الأدبية هى وليدة المجتمع وهى مرتبطة بأحوال التقدم الاجتماعى وإنها تساعد أيضا على صوغ المجتمع وتساعد على زيادة التقدم أو تعوقه . وأشكال الفضيلة إنما تحددها أحوال المجتمع وان كانت جذورها تستمد ماءها من معين الطبيعة الانسانية . وهى كغيرها من الأوضاع الاجتماعية وليدة المجتمع .

الفصل الخامس عشر

التربية

سنعالج فى هذا الفصل موضوع التربية باعتبارها وضعا من أوضاع المجتمع وسنحاول أن نبين كيفية نشوئها وتطورها بطريقة إجماليـة ونعنى عناية خاصة بالنظم المدرسية إذ أنهـا تمثل فى صورة ملموسة مختلف أشـكال التربية و إن كنا سننظر إلى موضوعها نظرة واسعة المجال .

التربية فى حالة الفطرة

يجد الإنسان أبسط أشكال التربية بين الشعوب التى على الفطرة؛ فالمدرسة معدومة ومدار التربية على التقليد . إذ هى إلى حد كبير غير مقصودة . على أن غرض التربية لديهم هو عين الغرض الذى نتبينه فى أرقى أشكال نظمنا المدرسـية ألا وهو إعداد الحدث للحياة . فالمعرفة لدى الإنسان الأولى كالمعرفة لدى الأنسان العصرى من الأمور الضرورية لصيانة الحياة ، فأنه لا بد للانسان الأولى أن يفهم الطبيعة ليتيسر له أن يبق حيا . ويحتاج الطفل الأولى إلى أن يتدرب على فن تحصـيل الغذاء والملبس والمأوى ولا بد له أن يعرف كيف يتجنب الحيوانات المتوحشة وكيف يقتنص الحيوان ويصطاد الأسماك ولا بد لحدوث التقدم من أن ينتفع كل جيل بتجاريب الأجيال السالفة .

نعم إن الجانب الأعظم من التربية الفطرية الأولية مستمد من الملاحظة والتقليد ولـكن هناك طرقا شتى للتدريب والتعليم فى أشياء معينة .ومن أشهر هذه الطرق احتفال التدريب أو التنشئة ، لدى معظم الشعوب الهمجية يلزم كل صبى قبـل أن يضطلع بواجبات الرجولة ويحمل كرامتها أن يتجشم محنة تجارب بها يفشأ . وفى كثير من القبـائل يلزمون الفتيات أن يؤدين مثل هذه الفرائض قبل أن يعترف بأنهن نساء.وتكون هذه التنشئة فى العادة فى غضون عهد البلوغ وتستمر بضعة أيام وقد تستمر فى بعض الأحيان أسابيع وشهورا . ويلزم الحدث فى كثير من الأحيان أن يقوم بشـعائر رمزية أو دينية . وفى أثناء هذه الشعائر يلقن الحدث أساطير القبيلة وتاريخها ، ويفهم معنى الاحتفالات المختلفة والأغانى والمراقص والشعائر . كما أنهم يعلمونه أمور الدين ، وواجباته نحو القبيلة والأسرة . وتنطبع أهمية هذا الحادث وخطورة شأن التعليم فى فؤاد الحدث بقوة جد المعلمين وهيبة الاحتفال والوقار الذى يلازم القيام بتلك الطقوس . والواقع أن حياة الإنسان الأولى فى العادة حياة شاقة يحتم عليه فيهـا أن يصبر على

الجوع والبرد والألم . فلكي يعدوا الحدث لمثل هـذه الحياة جرت عادتهم أن يمتحنوه امتحانا عسيرا فيلزم عادة أن يتحمل الآلام دون أن يتململ ، كأن تنتزع له أسنان أو يتحمل الاختناق بدخان النار أو أن يصلى بها أو أن يضرب بالسوط . وكثيرا ما يحمل الصبي الى قبره ما تكون هذه الحملات قد تركته في جسمه من القروح ، وكثيرا ما يكلف أن يصوم عن الطعام مدة ما أو يحصل طعامه بغير معونة من أحد أو يكلف الامتناع عن تناول أطعمة معينة . وقد تكون هذه التكاليف من الشدة والقسوة في بعض القبائل بحيث لا يكون من النادر أن يموت الأحداث في غضونها . أما ما يجرى في شأن الفتيات من شعائر التنشئة فهو في الغالب غير عسير عسره على الفتيان كما أنهـا لا تنفذ بمثل ذلك الحرص والتشدد وذلك بسبب قلة أهمية الإناث في نظر المجتمع .

بمثل هذه التنشئة يعلم الفتيان طاعة من هم أكبر منهم واحترامهم . وهم كذلك يدربونه على اقتناص أنواع معينة من الحيوانات وعلى فنون إشعال النار . كذا فيما يختص بأهمية الزواج وواجب القيام بأود الأسرة . على أنهم يعلمونه كثيرا من الخرافات والسحر كالاعتقاد بالأرواح وعبادة الحيوان . لهذا لم يكن في التربية عند الإنسان الأول ما يبعث على الرقي إلا ما كان من إعداد الشخص لبيئته . نعم كانت لها قيمة من حيث عملها على اتحاد القبيلة واشتراكها بهذا في بقاء الإنسان واستمرار الشعوب ولكن لمـّا تقدم المجتمع وتغيرت حاجات الإنسان حلت محلها طرق أخرى في التربية .

التربية الشرقية : التربية الصينية

بقى الطور الثاني من أطوار التربية الى يومنا هذا تقريبا في كثير من الأمم الشرقية ولاسيما الصين إذ أبقت نظامها القديم على ما هو الى مفتتح القرن العشرين . فالتربية الأساسية عند الصينيين قائمة على التمكن من اللغة والآداب . ولما كانت اللغة الصينية تصويرية لا صوتية فأن لديهم لكل معنى رسما مستقلا . نعم إن الشائع من كتابتهم يشتمل على ٥٠٠٠ حرف تقريبا ولكنه إذا استثنينا المترادفات والكلمات المهملة وجدنا لها في الواقع ٢٥٠٠٠ حرفا . و إذا أدخلنا جميع الأشكال فعدتها ٢٦٠,٠٠٠ حرف يتطلب الأمر حفظهـا عن ظهر قلب . وتتضمن التربية الصينية : (١) إتقان هذه الأشكال (٢) حفظ النصوص المقدسة عن ظهر قلب (٣) دراسة الشروح على هـذه المتون قصد ا كتساب الأسلوب الأدبي الدقيق . ولقد كان لهم لتحقيق هذا الغرض نظام من المدارس يؤدى ويعدّ إلى سلسلة من الامتحانات الحكومية فكان لكل قرية أو جماعة مدرسة أولية يتولى التعليم فيها واحد ممن لم يفلحوا في الحصول على الدرجات العلمية أو واحد من حملة الدرجات الصغرى الذين لم يظفروا بوظيفة . في هـذه المدرسة يتعلم التلميذ بطريق التقليد والحفظ قراءة الأشكال المختلفة وكتابتها و إن لم تكن هناك

علاقة كبيرة بين العملين (القراءة والكتابة) إذ يغلب ألا يكون الطفل عارفا معنى هــذا أو ذاك . ولمــا كان الناس فقراء فانه لا يحضر المدارس منهم إلا قليل ولا يتخطى درجة المدرسة الأولية ممن يتعلمون بها إلا نحو واحد من كل عشرين . أما ما فوق هذا من التعليم فانه يحصر فى تحفيظ الكتب المقدسة التسعة وشروحها . ومن أثر التعليم عندهم أن الذين يخفقون فى الامتحانات أو فى الحصول على وظيفــة — وأغلبهم يخفقون — يجدون ما نالوه من التعليم سببا لإتلافهم إذ يعجزهم عن تناول الأعمال العادية بدلا من أن يعدهم للحياة. لأن من شأن تناول هذه الأعمــال فى نظرهم ضياع الكرامة بين الناس . فيضطر كثير منهم أن ينصرفوا إلى التعليم ولهذا تزدحم بهم هذه الحرفة .

وكان نظام التعليم الصينى يدور حول ثلاثة امتحانات تعقد لنيل الدرجات والوظائف وكانت هــذه الامتحانات تتطلب كتابة مقالات بالشعر والنثر عن موضوعات مأخوذة من الكتب المقدســة ؛ ومن الذين يجوزون الامتحانات الصغرى كانت الحكومة تختار صغار موظفيهــا وممن يجوزون الامتحانات العليا تنتخب كبار موظفى الدولة . وكان ينتخب عدد قليل منهم باجراء امتحان خاص يعقد لهم فى حضرة الامبراطور لانتقاب وزرائه . ولقد كانت التربية بمثابة الطريق الممهد لطالبى الحظوة والرقى . فكل درجة تحمل جزاءها معها كما أنها تفتح طريق الرقى إلى ماوراء ذلك . من أجل هذا كان كثيرون يقضون حياتهم فى محاولة اجتياز هذه الامتحانات . بل الواقع أن نظام التعليم عندهم من أوله إلى آخره كان يؤدى إلى هذه الغاية. وتدور خطة التعليم الصينى حول الحفظ والتقليد وليس فيها ما يساعدنا على تنمية قوة الابتكار أو الخلق، بل إنها تعمل على إخمادها . ولكن هذا النظام آخذ فى الزوال على عجل وحلول الطرق الغربية مكانه . نعم إنه احتفظ بالمــاضى ولكنه كان سببا فى تقييد الصينى عن النهوض والتقدم .

التربية الهندية

كانت التربيــة فى الهند شبيهة جد المشابهة بالتربية فى الصين إذ كان أساسها المدونات الفيدية المقدسة والتدريب على القوانين والتقاليد. وكان يشتمل جانب كبير منها على دراسة الدين البرهمى التصوفى والفلسفة الهندية فى الزهد والاعتزال . وكان لهم مدارس لا يقصدها البرهميون وحدهم بل يشترك معهم أفراد من طبقات المحاربين وأولى الأعمــال الصناعية ، و إن كان لا يحصر من هؤلاء إلا عدد قليل . أما العمال والمنبوذون فقد كانوا محرومين من حقوق التربيه لهذا كانت التربية فى الواقع أمرا من خصائص ذوى الامتياز الطائفى وكانت مقصورة تقريبا على البرهمى الذى من الطائفة الكهنوتية. نعم إن التربية عند الهنود لم تكن من القسوة والتعقد فى درجة التربية الصينية ولكنها لم تكن داعية الى الرقى . فهى لم تحاول أن تعد الانسان للأعمال

الماشية اذ أنها إنما كانت تشتمل على تحفيظ السنن القديمة وتراث الماضى . وقد حرم فيها إدخال طرق جديدة أو دراسات مستحدثة ؛ بل لقد كانت أشد ضيقا وتحديدا من النظام الصينى اذ أن خمسة وتسعين فى المائة على الأقل من البرهميين محرومون منها . والنساء فى الصين والهند محظور عليهن التعلم بل هن بالأحرى فى نظرهم غير جديرات بالتربية .

التربية اليهودية

قد تسمى التربية اليهودية حلقة الاتصال بين نظامى التربيتين الشرقية والغربية . نعم إنها تنحصر فى غالب أمرها فى دراسة المدونات المقدسة — أى العهد القديم — الذى كان قانون اليهود ولكنها أتاحت فرصة لتنمية الشخصية أوسع مما فعلت نظم الصين والهند وأمثالها . على أنها لم تكن داعية الى التقدم ولا قابلة لدخول نظريات جديدة أو طرق حديثة فى نظامها ولم تكن تسمح بما يساعد على رقى العلوم أو الفنون . كما أنها كانت كالتربية عند الهنود من حيث اقتصارها على طبقة الكهنوت وكونها كانت غير مفتحة الأبواب لجمهور الناس . ولم تكن المدارس اليهودية بدرجة المدارس الصينية من عظم التهذب والرقى اذ كان فى الصين نظام مرتب للمدارس . وأغلب ما كان التعليم عند اليهود فى الهياكل ولم تنشأ مدارس منتظمة حتى دالت أيام اليهود القومية .

التربية الإغريقية

ظهر التقدم الحقيقى فى التربية بظهور الإغريق فهم لم يعبدوا الماضى كما حدث فى الشرق . ومن ثم حدث تقدم . على أن طرق التربية قد اختلفت اذ ذاك باختلاف المثل العليا التى كانت لكل ولاية وكانت أثينا واسبارطة على طرفى نقيض فى هذا الصدد .

التربية الاسبارطية

كانت التربية فى اسبارطة بدنية كلها تقريبا ، وكانت فى الواقع إعدادا لخدمة الدولة وكانت قاسية عنيفة بل وجائرة فى بعض الأحيان وكانت فرضا على جميع الاسبارطيين ولو أن هؤلاء لم يكونوا سوى واحد من عشرين من سكان البلاد . ولقد كان الاسبارطيون بسبب هذه القلة العددية مضطرين أن يكونوا من أنفسهم جنسا حربيا ممتازا ومن ثم كان هذا الأمر غرض التربية عندهم . ولذلك كانوا يفحصون الطفل يوم يولد فاذا وجدوه ضعيفا أو مشوها تركوه فى الجبال عرضة للموت ؛ وإن كان صحيحا سمحوا له بالبقاء مع أمه حتى يبلغ السابعة من عمره ثم يأخذونه ليضموه فى الثكنات حيث تتولى الدولة تدريبه . هناك يخضع الحدث للنظام الجندى ويقضى أيامه فى التمرن على الحركات الرياضية والعسكرية . وقد كانوا

يعلمون الصبيان حياة البساطة والخشونة وذلك بأن يكون فراشهم صلبا ولباسهم وطعامهم قليلا . ولم يكن يعطى لهم من التربية العقلية إلا الطفيف. وكان هذا القدر ينحصر فى تحفيظهم قوانين ليكرجوس (Lycurqus) ومختارات من شعر هوميروس . وقد كان لكل صبي مرشد من البالغين . وإذا بلغ الثامنة عشرة من العمر أخذوا فى تدريبه على حمل السلاح وأساليب القتال وينوعون التدريب بضرب الحدث بالسوط كل عشرة أيام أمام هيكل ارتميس (Artemis) وكان هذا يستمر مدى سنتين ثم يدخل الفتى الجيش النظامى ويرسل الى أحد معاقل الحدود حيث يعيش على أخشن حال . واذا بلغ الثلاثين ألزم بالزواج ، على أنه لم يكن يستطيع أن يعيش مع زوجته إلا سرا لأنه كان ملزما أن يبقى فى المعسكر ليعلم الصبيان . وكان الفتيات يجرين على نظام مثل هذا حتى يصبحن أمهات صالحات لولادة أبناء أقوياء سوى أنهن كن يبقين فى البيوت . ولقد كان كل القصد من نظامهم هذا تكوين شعب محارب قوى . وقد حقق هذا الغرض تحقيقا رائعا . على أن اسبارطة لم تستطع أن تبلغ فى الفنون أو الآداب أو الفلسفة شيئا ما ولم يكن لها فى المدنية من الأثر إلا قليل جدا أولا شيء على الإطلاق سوى ما قدمت من الأمثلة فى أعمال البطولة والجلد وعدم الاكتراث بالألم والمشقة .

التربية الأثينية

فى أثينا الأولى انحصرت التربية فى الإعداد لخدمة الدولة كما فى اسبارطة . وكان هذا الإعداد يبدأ فى السابعة من العمر ولكنه لم يكن مقصورا على التمرين البدنى العسكرى فقد كان يصحب هذه التمرينات البدنية — وكانت خالية من القسوة الأسبارطية — تعليم فى الموسيقى والقراءة والكتابة . وكان يتولى التربية الخلقية والنظام عبد يسمى بيدا جوج " Pedagogue " أى معلم الأحداث . واذا بلغ الحدث الأثينى سن الخامسة عشرة أعطى تمرينا أرقى فى الجمنازيا (Gymnasia) أى ساحة التمرين الرياضى وسمح له أن يروح ويجئ كما شاء . وفى الثامنة عشرة كان يقسم يمين الولاء لأثينا ثم يدرب سنتين على الأعمال العسكرية أولاهما فى أثينا والأخرى فى أحد معاقل الحدود. وفى سن العشرين يصبح "مواطنا" ولكن لا ينقطع تعليمه عن ذلك بل يستمر، اذ يعلمونه أدب التمثيل والهندسة المعمارية والنحت والفنون . بيد أن عيب النظام الأثينى كان فى إهمال المرأة إهمالا تاما فيما عدا ما كانت تتعلمه من واجبات إدارة المنزل . على أن التربية الأثينية اذا استثنينا منها هذا العيب كانت أرقى من التربية الاسبارطية اذ أنها كانت تنتج رجلا أحسن استعدادا لخدمة وطنه .

وبعد ذلك العهد تدرج هذا النوع من التربية الى نوع آخر قوامه الإفراط فى العناية بالفرد . فقد كانت سعادة الفرد بموجب هذا النظام فى مقام من الاعتبار مقدم على مصلحة الدولة. وكانوا يعلمونه النحو والبلاغة ويهتمون بهما بصورة خاصة بسبب شدة رغبة الناس

فى الدخول فى الحياة السياسية ويهملون التدريب الرياضى. وبحدوث هذا التغيير نشأت طبقة من المعلمين يعرفون بالسفسطائيين (Sophists) وكان كثير منهم أولى مهارة فى فن التعليم وغيرهم مشهورين بقدرتهم فى الجدل والمحاجة واستعدادهم لأخذ أى جانب فيها. وقد عاش الفلاسفة الإغريق الثلاثة سقراط وأفلاطون وأرسطو فى ذلك الزمن، وحاولوا أن يوفقوا بين أوضاع التربية القديمة والحديثة وأن يضعوا نظما للتربية والتفكير للأجيال المقبلة. على انهم لم يستطيعوا أن يؤثروا فى زمنهم الا قليلا وإن كانوا قد أثروا بتعاليمهم فى جميع الأجيال التى تلتهم اذ أخذت وجهة نظرهم بزمام الفكر فى أوروبا قرونا عديدة. وبعد هؤلاء نشأت مدارس للبلاغة والفلسفة تولدت منها الجامعات مثل جامعة أثينا التى ازدهرت منذ القرن الرابع قبل المسيح وتبعتها جامعات أخرى أهم المعروف منها جامعة برغامون (Pergamon) وردس والاسكندرية وروما، ولكن ظلت أثينا المركز الفكرى للعالم حتى حوالى سنة ٣٠٠ بعد المسيح ثم أخذت مكانها هذا الاسكندرية. وفى غضون تلك المدة هرع الطلاب الى أثينا من جميع جهات الامبراطورية الرومانية. أما التفوق العقلى الذى اختصت به الاسكندرية بعد ذلك فقد كان نتيجة ترقى النظام الفلكى البطليموسى وشهرة جماعة من البحاث أمثال إقليدس (Euclid) فى الهندسة وأرخميدس (Archemides) فى الفوسيقى (Physics) وأراتوثينس (Eratosthenes) فى الفلك وديافونتوس (Deaphontuss) فى الجبر. وفضلا عن المراكز الجامعية نشأت فى أصقاع شتى من العالم الإغريقى جماعات مختلفة من الفلاسفة لكل منهم منحى خاص.

وقد امتدت مذاهب التفكير والمدنية الإغريقية فى الشرق ودخلت فى كل جزء من أجزاء العالم الرومانى وكان لها أثر فى كل عصر من العصور من يومها ذاك الى يومنا هذا. وخلاصة القول أن ما جاد به الإغريق على العالم هو المدنية فى أرقى صورها وأسماها.

التربية الرومانية

كانت التربية فى أيام روما الأولى فى غالب أمرها شأنا من شؤون الأسرة. وإذا استثنينا بعض مدارس أولية مع القول بأنه لم يكن لهم نظام للتربية. كان الأطفال يعلمهم آباؤهم ولكن نظرا الى فرط وطنية الرومان والسياسة العسكرية النشيطة التى جروا عليها كان غرض كل تعليم منحصرا فى خدمة الدولة. وكان الصبية يعلمهم آباؤهم والبنات تعلمهن أمهاتهن وإن كان تعليم الجنسين فى أوائل عهد الطفولة موكولا الى الأمهات وحدهن. وكانوا يدربون الصبيان تدريبا بدنيا وخلقيا وكانت مبادؤهم المثلى عسيرة ونظامهم قاسيا. وإذا كبر الصبى صحب والده وبهذا يتيسر له اكتساب الكفاية العملية فى الحياة بفضل القدوة. وإذا كان الولد من طبقة الأعيان (Patricians) البطارقة فربما علموه حرفة كأن يكون جنديا أو قانونيا أو سياسيا. وإذا

كان من طبقة العامة (Plebians) كانت العادة أن يتعلم عمل أبيه أو صناعته . وكانت الفتاة بصرف النظر عن طبقتها تتعلم الفنون المنزلية ولا سيما غزل الصوف ونسجه . وكانت العادة أن يتعلم الأولاد على يد والدتهم القراءة والكتابة وحفظ الأساطير والأغانى والأناشيد الحربية والدينية عن ظهر قلب . وكانوا يكلفون الإلمام التام بالألواح الاثنى عشر أى القوانين القومية. وكانت التربية فى غضون هذه المدة فى جوهر أمرها عملية والمقصود منها إنتاج آباء صالحين ومواطنين وجنودا قادرين. وقد استطاعت أن تحقق هذا القصد؛ ذلك أنها عملت على تمرين الشبان ليصبحوا أقوياء العقل والبدن آخذين بسنة البساطة فى العيش مكرمين للآلهة وللآباء وللقوانين وللتقاليد القومية. وقد أنجبت أمة محاربين ولكنها لم تنتج أهل مثل عليا ولا فلاسفة. ومن ثم كانت مبادئهم المثلى ضيقة أنانية ومنحطة . وقد نفع هذا النوع من التربية وروما صغيرة ولكن لما أصبحت روما دولة عالمية أصبح من الضرورى تكميله .

صبغ التربية الرومانية بالصبغة الإغريقية

فى سنة ١٦٨ قبل المسيح فتحت روما مقدونيا التى سبق لها بقيادة فيليب واسكندر الأكبر أن ابتلعت بلاد الإغريق. ولكن الرومان لم يلزموا الإغريق الجرى على خطة التربية التى جروا عليها بل عمدوا إلى الثقافة الإغريقية والمدنية الإغريقية وما تضمنت من خطة التربية فاقتبسوها وجروا عليها . على أنهم لم يأخذوها بثوبها الإغريقى البحت وإنما أضافوها شيئا فشيئا إلى التربية الرومانية فكانت نتيجة ذلك اندماج هذه فى تلك . ونشأ على أثر ذلك نظام من ثلاث درجات (١) المدرسة الأولية (Ludus) و(٢) المدرسة النحوية (Grammar) و(٣) المدرسة البيانية (Rhetoric) .

أما المدرسة الأولية ، أى أدنى مراتب المدارس، فلعلها كانت لدى الرومان قبل أن يفتحوا بلاد الإغريق بمثابة ملحق للتربية المنزلية ولكنها لم تهذب تمام التهذيب إلا بعد إدخال الخطط الإغريقية عليها . وكانوا يعلمون فيها القراءة والكتابة ومبادئ الحساب معتمدين فى ذلك على ملكة التقليد وعلى الذاكرة . ولم يكونوا ليبذلوا من جهودهم شيئا البتة أو كانوا لا يبذلون إلا القليل لتفهيم الأحداث معانى الأشياء التى يعلمونها ؛ فكان العمل بطبيعة الحال شاقا خاليا من كل مشوق. وكان النظام شديدا ينفذونه بالمجلدة والعصا والسوط. وكان المعلمون بطبيعة الحال محل الخوف والكراهية من تلاميذهم.وأخذ الرومان عن الإغريق عادة أن يصحب أحد العبيد الطفل إلى المدرسة .

وأما المدرسة النحوية الثانوية فقد نشأت على أثر ازدياد الحاجة الى التعليم . وكانوا يعلمون فيها نحو اللغة وآدابها على وجه التخصيص، وفى ذلك دراسة الشعراء والكتاب الناثرين ويدرسون أيضا شيئا من الحساب والهندسة والفلك والجغرافيا والموسيقى . وقد كانوا

يضيفون إلى ذلك تمرينات بدنية فى كثير من الأحيان. على أنه لم يحدث تحسين كبير فى وسائل النظام وإن كانت المدارس قد أثثت بالقماطر وببعض وسائل الزينة وجعلت لها أماكن مستقلة . أما المدارس الأولية فقد كانت العادة أن يقيموها فى سقائف وأخصاص .
وأما المدارس البيانية فقد كانت فى الواقع مدارس فنية تعد الطالب لوظائف السياسة والإدارة . وكان أهم ما يعلمونه الخطابة والقانون والتاريخ . ثم وسعت المناهج بإدخالهم عليها التربية اللغوية والأدبية . وكان من عادتهم اذا أتم الطالب منهج دراسة فى مدرسة بيانية أن يكمل تربيته اذا أراد بالالتحاق باحدى الجامعات الشهيرة وكان أهمها يومئذ جامعة أثينا ورودس والاسكندرية ثم جامعة روما التى وجدت بعدئذ .

فى بادئ الأمر لم يكن هنالك نظام عام للتربية، بل كان إنشاء المدارس من أعمال الأفراد . ولكن فى أيام الأمبراطورية الثانية أخذت الحكومة تعين المدارس بمنحها إعانات مالية إذ كانت تدفع مرتبات بعض المعلمين وتعفى الطلبة من الضرائب والخدمة العسكرية ثم تمنحهم جوائز . فلما كثر إنشاء المدارس بسبب رغبة الناس فى الانتفاع بهذه المزايا — لا فى التعلم لذاته ، ولكى تصلح هذه العيوب وغيرها مما له اتصال بالمدارس — أصدر الأمبراطور مرسوما بجعل إنشاء المدارس فى يده وحده وجعلها كلها تحت إشراف الحكومة . وبهذه الطريقة وضع أساس التربية العامة وهى أول ما عرف فى التاريخ من نوعه . على أنه إن كانت المدارس قد انحطت فى صفتها وأثرها فى أواخر أيام الأمبراطورية فقد تركت التربية الرومانيه طابعها فى العالم . كانت فى جوهرها عملية وساعدت على صوغ كيان الأوضاع التى أخذت بيد الحضارة . ذلك بأنها جعلت تربية الإغريق أساسا لها وأضافت إليها وجوها عملية وبهذا هيأت الدنيا للاستمرار فى التقدم كما أنها مهدت الطريق لاستقرار نظام التربية الحديث الذى أدخلته الكنيسة المسيحية والذى حل محل المدرسة الرومانية الى حد كبير .
ولعل أهم عيب يؤخذ على التربية الرومانية أنها كانت كالتربية الإغريقية مقصورة على طبقات الأعيان ولذلك لم تكن ديمقراطية .

التربية المسيحية الأولى

لما أخذت روما فى الانحطاط ظهرت المسيحية وانتشرت سريعا بالرغم من كل الوسائل التى اتخذت لمنعها . وكان معتنقو هذا الدين الجديد فى بادئ الأمر من الطبقات الدنيا من الشعب كالعبيد والفقراء . وكانت غالبية هؤلاء غير متعلمين ولا أذكياء بخامهم الدين الجديد بشىء من التربية الخلقية العالية . ولقد كان المسيحيون الأول متفرقين نوعا ما بسبب ما كان يصيبهم من الاضطهاد والمطاردة . على أنه ظهرت الحاجة فى هذه الطوائف المسيحية إلى أن يفقهوا فى الدين الجديد ، وأصبح من الضرورى أن يعطى الطالب شيئا من هذا قبل أن يدخل

فى عضوية الكنيسة . وأدى هذا الى نشوء نوع المدارس التى كانت تسمى المدارس العادية Catechumenal) والتى كانت تعقد حلقتها عادة فى جزء من بناء الكنيسة كرواقها مثلا . وكانت الدراسة دينيــة فى جوهرها وتتضمن قراءة الكتاب المقدس وحفظه عن ظهر قلب وترتيل الأناشيد الكنسية . وكان منهج الدراسة يستغرق ثلاث سنوات عادة .

وكان المسيحيون الأول يرتابون فى الفلسفة والتربية الإغريقية والرومانية ؛ وكان من الطبيعى أن يتذكروا رذائل الرومان واضطهاداتهم . ولكن الأمور صاحت بعد ذلك شيئا فشيئا وحدث توفيق بين الطرفين أدى الى نشوء ضرب من المدارس العادية جرى فيها نوع من الاتحاد بين الفكر الرومانى الإغريقى و بين الفكر المسيحى فى التربية ولعل أحسن ما عرف من هذه المدارس المدرســة التى أنشئت فى الاسكندرية التى كان على رأسهــا كلمنت (Clement) (١٥٠ — ٢١٥) وأوريجان (Origen) (١٨٥ — ٢٥٣) اللذان كانت آراؤهما فى اللاهوت متقدمة جدا حتى لقد اتهما لذلك بالإلحاد . فى تلك المدارس فسرت المسيحية تفسيرا فلسفيا ثم لكى يخرجوا طبقة عاملة للكنيسة و يمرنوا أولئك الذين عقدوا نيتهم على الدخول فى زمرة الكهنوت أنشئت مدارس أسقفية (Episcopal) فى كثير من المدن عرفت بعد ذلك باسم مدارس كاتدرائية (Cathedral Schools) نسبة الى محل إقامتها. ثم إن هذه المدارس تفرعت الى ثلاثة أنواع : المدرسة النحوية والمدرسة الغنائية أى الموسيقية والمدرسة الخورية (Choristers) التى كانت مزيجا من الاثنين . وقد زادت أهمية هذه المدارس حتى حلت محل المدارس الرومانية التى كان ينفق عليها القياصرة . وبانتشار هذه المدارس انتشر العداء مرة أخرى للثقافة الإغريقية الرومانية . وما كان لهــا من آراء فى الحياة وحدث نفور وابتعاد عن الفلسفة الإغريقيــة والرومانية فأدى هذا الى نشوء مدارس الأديار التى كان لها سلطان كبير مدى القرون الوسطى.

التربية فى القرون الوسطى — التربية الديرية

أصــدر جوستنيان فى سنة ٥٢٩ ميلادية مرسوما ألغيت به جميع المدارس الوثنية فخلا المجال بذلك للــمدارس الكاتدرائيــة والديرية . ولا يخفى أن الرهبنة نشأت من رغبة بعض الناس فى حياة دينية أعمق غورا وكانت بمثابة رد فعل لحياة الرذيلة التى كانت منتشرة يومئذ فتأسست أديار ليعيش فيها الرهبان فى حجرات صغيرة ولا يجتمعون بعضهم ببعض إلا فى أوقات الطعام والقداس والدرس . نشأت هذه الحركة فى مصر ولكن سرعان ما انتشرت فى سوريا وفلسطيـــن وبلاد الإغريق و إيطاليا وبلاد الغال (فرنسا) . وكان هم الرهبان فى الغرب متجها على التخصيص الى زراعة الأرض والمحافظة على المأثورات الأدبيــة . وكانت غالبية الأديار تجرى على سنة سان بينديكت (St Benedict) إذ قضى باتفاق سبع ساعات فى عمل يدوى وساعتين فى قراءة منظمة فنشأت على أثر ذلك حاجة شديدة الى المخطوطات . وكان

لدى كل دير " حجرة كتابة " لنسخ المخطوطات . وكان أغلب هذه دينية الموضوع ولكن كان بعضها من المأثورات الأدبية القديمةفساعد هذا النشاط الأدبى على استبقاء علوم القدماء كما أنه أدى إلى نشوء المدارس الديرية وسيرها على مناهج دراسية منظمة ذات أمد يبلغ ثمانى سنوات أو عشرا . وقد أنشئت هذه المدارس لتعليم الفتيان من أجل المراتب الديرية وإن كان فيهم من لم تكن غايته أن يصبح راهبا . وكان مثل هذا التعليم يعطى للنساء فى أديار الراهبات .

ولقد كان التعليم فى مبدإ الأمر أوليا ضيق النطاق ولكنه اتسع بعد ذلك فصار يتضمن تعليم نحو اللغة وبيانها وفن الجدل — وتسمى هذه الدراسات بالدنيا أو الأولية — ثم الحساب والهندسة والموسيقى والفلك — وتسمى بالدراسات العليا . وكانت دراسة نحو اللغة تشتمل على شىء من الأدب . والبيان يتضمن دراسة بعض القانون والتاريخ . وأدت دراسة الجدل الى علم ما وراء الطبيعة (الميتا فيزيكا) وكانت الهندسة تتضمن الجغرافيا والمساحة . وبلغت الموسيقى فى رقى دراستها حد نظرية الموسيقى . وتضمن الفلك بعض الطبيعيات والرياضيات العالية . ولذلك كانت مناهج الدراسة غير ضيقة كما يبدو لأول وهلة . ولقد كانت الكتب الدراسية نادرة فكان على المعلم عادة أن يملى على تلاميذه . وكان التلميذ يكتب ما يملى عليه على ألواح ثم يحفظه عن ظهر قلب . وبمرور الزمن وضعت كتب عدة كان بعضها من طبقة عالية فى موضوعه . نعم كانت هذه المدارس الديرية محافظة وخاضعة لأثر الخرافات ومعادية بلا شك للآداب القديمة وللعلوم ولكنها قدمت للدنيا خدمة عظيمة باحتفاظها بالثقافة الرومانية الإغريقية التى لولا الأديار لضاعت .

فى القرنين السابع والثامن انحطت المدارس فى أوربا وهان شأن التربية . وهذا هو الوقت الذى طلب فيه الملك شارلمان (Charlemagne) — لما رأى من انحطاط شأن التعليم — الى ألكوين (Alcuin) رئيس المدرسة الكاتدرائية الشهيرة بمدينة يورك (York) أن يأتى الى أوربا ويعيد تنظيم التعليم فى فرنسا . فبنى الكوين برعاية شارلمان " مدرسة القصر " حيث كان التعليم يتضمن علوم النحو والبيان والجدل والحساب واللاهوت . كما أنه أصلح المدارس الكاتدرائية والديرية ومدارس الأبرشيات . وبعد ذلك أقام الكوين فى دير تور (Tours) حيث أنشأ مدرسة كان يقبل عليها أبناء السراة من شبيبة الأمبراطورية النبهاء . وقد صار كثير من هؤلاء معلمين وقساوسة . نعم تطرف الكوين فى آخر أيامه فى المحافظة والجمود ولكن كان تلاميذه على وجه الإجمال ذوى سعة فى الفكر، وكانت نتيجة انتقاله الى فرنسا حدوث انتعاش ظاهر بين التربية والتعليم .

فضل الإسلام على التعليم

لما اتصل الإسلام بالفلسفة الإغريقيــة فى الشام وآسيا الصغرى كان لا بد من تفسير القرآن على القواعد الإغريقية . ولقد ترجمت الى العربية كتب عدة فى الفلسفة والرياضيات والعلوم واشتهرت المدن الإسلامية فى سوريا بعلومها ولكن هــذا لم يظفر برضا جمهور المسلمين وأضطر أصحاب الآراء المتقدمة الى الرحيل والالتجاء الى شمالى أفريقيا واسبانيا حيث أنشأوا كليــات فى قرطبة وغرناطة وطليطلة وغيرها ، حفظت العرفان من الزوال ولا سيما فى الرياضيات والعلوم الطبيعيــة والقانون والميتافيزيكا . هناك اتصــلوا بالمسيحيين وبعثوا فى النفوس شوقا الى العرفان الإغريقى . وبعد ذلك جلب البندقيون كثيرا من المدونات الإغريقية الأصليــة فى الآداب والفنون الى غربى أوربا . وقد أدى نقل هــذه المدونات الى الاحتفاظ بكثير ممــا وصل اليه الشرق من العلوم و إلا لذهبت ضياعا .

جامعات القرون الوسطى

نشأت جامعات شهيرة عدة فى أوروبا فى مختتم القرون الوسطى بفضل الإيقاظ الإسلامى من ناحية و بسبب الأحوال المحلية من ناحية أخرى . وكانت أولى هذه الجامعات فى سالرنو (Salerno) بجوار نابولى . على أنها لم تكن إلا مدرسة لدراسة الطب نشأت تبعا لظروف محلية مثــل وجود عيون معدنية هناك واحتفاظهم فى ذلك المكان بمــدونات الطب الإغريقية . ولعل أشهر هذه الجامعات جامعة بولونيا (Bologna) فى شمالى إيطاليــا ، ذلك أنه بفضل أبحاثها فى الشريعة الرومانية اشتهرت بمناهج لها فى القانون الدينى والمدنى . وقد منحت مرسوما من فردريك بار با روسا (Frederick Barbarossa) فى سنة ١١٥٨ وربما كانت أول جامعة بالمعنى العصرى لاشتمالها على أقسام دراسية للاداب والطب واللاهوت . وتأتى بعدها جامعة باريس فى ترتيب الحدوث ، ولكنها أصبحت أشهر الجامعات طرّا . وكانت جامعتا بولونيا وباريس من صنفين مختلفين ، فجامعة بولونيا تمثل النوع الذى يعرف بجامعات " الطلبة " حيث تكون ادارة الجامعــة فى يد الطلبة أنفسهم ، وكان هؤلاء فى كثير من الأحيان رجالا ناضجين فى يدهم انتخاب المعلمين وتقدير المصروفات الدراسية وأمد الدراسة ومواعيد البدء فيها . أما جامعة باريس فكانت من النوع المعروف بجامعات الأساتذة حيث كان الطلبة أصغر سنا وحيث كانت الإدارة منحصرة فى يد الأساتذة . وقد بلغ عدد الجامعات المنشأة فى أوائل أيام النهضة (Renaissance) على هذا النظام أو ذاك قرابة الثمانين . على أنه لم يبق منها إلا خمسون تغيرت بعد ذلك تغيرا كبيرا .

وكانت الجامعات تمنح عادة مراسيم تتضمن بعض المزايا مثل الإعفاء من دفع ضرائب أو الخدمة العسكرية وحق منح إجازة التدريس وحق الإضراب ضد ما كان يعتدى على ما لها من الحقوق . وفى هذه الحالة كان من الممكن أن يوقفوا إعطاء الدروس أو ينقلوا الجامعة إلى بلدة أخرى . ولم يكن هذا النقل بالأمر الصعب جدا عليهم لأنها لم تكن ذات مكتبات أو معامل أو ما شاكل ذلك . ومن مميزات ذلك الزمن أيضا نوع من الطلبة الرحّل مستهينين بالحياة ومستهترين وشريرين ، وكانوا يستجدون فى الطريق من بلد إلى بلد وينتقلون من جامعة إلى جامعة . وبعد مدة نظمت الجامعات على صورة جعلت الطلبة فيها طوائف تبعا للأقطار أو الأصقاع الأوروبية التى جاءوا منها ، وقسم المعلمون إلى كليات وكان لكل طائفة من الطلبة نقيب يمثلها (Counselor) ويعنى بمصالحها ولكل كلية عميـد (Dean) ينوب عنهـا . وكانت العادة أن ينتخب العمداء والنقباء معا المدير (Rector) أى رئيس الجامعة . وكانت الكليات الممثلة فى العادة هى كليات الآداب والقانون والطب واللاهوت . وكانت مناهج الدراسة فى كل معهد من هذه المعاهد توضع بمرسوم بابوى أو بتشريع تشرعه الجامعة نفسها . وكان منهج الدراسة فى قسم الآداب يتضمن المواد التى تدرس فى المدرسة الديرية مضافا اليها دراسة فلسفة ارسطو . وفى قسم القانون كان يعتمد على كتابى القانون المدنى الرومانى (Corpus Juris Civilis) ومرسوم جراتيان (Decree of Gratian) فى دراسة القانونين المدنى واللاهوتى .

وكذلك كانوا يدرسون كتبا خاصة فى الطب واللاهوت وكانوا يجرون فى الجامعـة على طريقة المحاضرة بتوسع ، وذلك أنهم كانوا يقرءون الكتاب ويشرحه المعلم بمذكرات وخلاصات وإحالات وآراء من عنده . وكان يسمح للطلبة بالمجادلة والمناقشة . وكانت تجرى جميع التمرينات باللغة اللاتينية التى كان حتما على الطلبة أن يتعلموها قبـل ان يدخلوا الجامعة . وكانت تعقد الامتحانات وتمنح الدرجات على نحو ما يحدث اليوم تقريبا . نعم كان ما يتلقاه الطالب من العرفان ضئيلا وطريقة التدريس جامدة وعرفية ، ولم يكونوا يعنون إلا قليلا بالتدريب على التفكير المستقل أو البحث والاستقصاء ، ولكن جامعات القرون الوسطى حملت فى أحشائها جرثومة الاستطلاع العلمى والحرية الحديثة . وبهذا مهدت الطريق لسير الآراء التعليمية الداعية الى التقدم . ولقد عززت مبدأ الفردية أى الاستقلال الذاتى وقامت بقسطها من العمل فى سبيل الحضارة والتقدم .

ونهضت فى القرون الوسطى عوامل خارجة عن النظام المدرسى نمّت أنواعا خاصة من التربية مثل ما كانت تتلقاه الطبقات العليا فى نظام الفروسية (Chivalry) أو التعليم الصناعى الذى كان يتلقاه اعضاء نقابات التجار أو الصناع . ففى الحالة الأولى كان حتما على الصبية الذين يرغب منهم أن يصيروا فى عداد الفرسان أن يقطعوا مرحلة طويلة فى التمرن فى منازلهم

أولا ثم فى إحدى القلاع حيث كان على الصبى أن يخدم بمثابة وصيف يعلمه سيد القلعة وسيدتها ثم بمثابة تابع (Squire) يرافق السيد فى الألعاب البرجاسية أو فى ساحة القتال . وهناك يتلقى من التدريب ما هو أشد وأقصى . وكان عليه أن يؤدى بعض المراسم عند ما يرسم فارساً .

وبنهوض التجارة والصناعة فى العهد الأخير من القرون الوسطى نشأت مدن تجارية وطبقة من الناس تنسب اليها . هناك ألف العمال لأنفسهم نقابات كانت تتولى مراقبة الصناعة مراقبة شديدة وتعنى بأمر تعليم الصناعة عناية دقيقة قصد المحافظة على درجة المصنوع من الجودة وضمانة الرفاهية للعمال ، وكان لهذا التعليم أطوار ثلاثة : (١) التلميذ (٢) الأجير (٣) الأستاذ .

أما التلميذ فما كان يتناول أجرة ولكنه كان تحت حماية النقابة ما دام يتعلم . وأما الأجير فكان يعطى أجرا ما دام يشتغل تحت إشراف أستاذ وكان حتما عليه أن يجوز امتحانا تعقده له النقابة إذا هو أراد أن يصبح أستاذا ، وبهذه الطريقة كان هناك تعليم صناعى مستكمل . وكانت النقابات توظف لنفسها قساوسة مهمتهم تعليم الأولاد أصول دينهم فى بعض يومهم وبعد ذلك استخدم القساوسة بطريقة نظامية لتعليم فرق مجتمعة ، ومن ثم نشأت مدارس النقابات . ولكن هذه المدارس اندمجت بعد ذلك فى المدارس البلدية حيث كانوا يدرسون القراءة والكتابة والحساب . وكانت هذه المدارس تحت إشراف السلطات العامة وتمثل فى كيانها مصالح طبقات التجار والصناع . ولم يقتصر أمر هذه المدارس على أنها رقت التجارة والصناعة بل إنها ربت أبناء الشعب أيضا فى الفنون الحرة ، وكانت عاملا كبيرا فى تمهيد الطريق للنهضة العلمية .

النهضة العلمية والإصلاح الدينى — التربية القديمة

إن التيقظ الفكرى الذى يعرف بالنهضة والذى حدث فى غضون القرن الرابع عشر الميلادى قد أحدث فى أوروبا انتعاشا علميا عقليا اتجه إلى دراسة الآداب القديمة (الإغريقية والرومانية) وملك أوروبا تحمس أو هيام لا حد له بهذا النوع من الدراسة . ولقد اقتصر هذا الأمر فى مبدئه على دراسة الآداب اللاتينية وكانت نشأته بطبيعة الحال فى إيطاليا موطن الآداب اللاتينية . ومن أول من اشتهر بدراسة الآداب اللاتينية بترارك (Petrarch) وتلميذه بوكاتشيو (Boccaccio) وبفضل هذين استنقذ كثير من المخطوطات اللاتينية وصينت واستنسخت وتوارث الناس منها علما واسعا باللسان اللاتينى . أما الآداب الإغريقية فلم يحدث فى شأنها قدر ما حدث فى تلك حتى وصل كريسولاس Chrysolas

لى ايطاليا رسولا من قبل الأمبراطور الشرق وأغرى بالبقاء فيها سنة ١٣٩٦ كى يعلم الإغريقية . فأمكن بمساعدته القيام بأعمال ترجمة كثيرة ووضع أجرومية إغريقية . ومن ذلك الحين أصبحت دراسة اللسانين اللاتينى والإغريقى أمرا رئيسيا .

وأسس الحكام المستبدون لكثير من المدن الإيطالية — ومنها فلورنسا والبندقية وبادوا وفيرونا وفرارا ومنتوا — مدارس لدراسة الآداب القديمة قصد اكتساب عواطف الجمهور والتمكين لأنفسهم بينهم ؛ وأشهر ما عرف من هذه المدارس تلك التى كان على رأسها فيتورينو دافلترى (Vittorino de Feltre) التى وضعت نصب عينها ترقية العقل والبدن والأخلاق تربية متناسقة . وكانوا يعلمون فيها أجرومية اللغتين اللاتينية والإغريقية وآدابهما وبذلك يمدون الطالب بقدر واف من ألفاظ اللغة وحسن إيقاعها وأسلوبها . وكذلك كانوا يعلمون العلوم الرياضية ويعطون الطلبة تعليما بدنيا وخلقيا . وقد خرجت هذه المدرسة عددا من أعلام السياسيين والكهنوتيين والعلماء والحكام . وكانت المدارس التى من قبيلها تأخذ أولاد النبلاء والأشراف فى سن مبكرة وتستبقيهم حتى يبلغوا الحادية والعشرين . ومن ثم أصبحت هذه المدارس منافسة للجامعات لأنها كانت تستمر فى تعليم الطلبة الى الحد الذى تصل اليه الجامعات وقد تتعداه بهم . ومن أجل هذا اضطرت الجامعات أن تضيف الآداب القديمة إلى مناهجها . على أن دراسة هذه الآداب انحطت فى إيطاليا شيئا فشيئا حتى لم تعد حد التقليد الأعمى لأسلوب شيشرون (Cicero) وأشكاله وعرف هذا بالشيشرونية (Ciceronianism) .

وانتشرت دراسة الآداب القديمة من إيطاليا شمالا إلى فرنسا وألمانيا حيث جرت على نظام أوسع نطاقا فى التثقيف . وقد أثير الاهتمام بها على وجه خاص فى فرنسا بفضل التحمس الذى تملك القلوب على أثر غزوات عدة قام بها الملوك الفرنسيون فى إيطاليا . ثم انتشرت دراستها فى نهاية الأمر بفضل رعاية فرنسوا الأول ، فى أغلب معاهد التربية فى فرنسا حيث خرجت عدة من أعلام العلماء . أما فى ألمانيا فقد كان الهيرونيميان (Hieronymians) أى أخوان الجمهور أول من أدخل دراسة الآداب القديمة فى مدارسهم . وفى هذه كان تعلم أراسموس (Erasmus) الذى صار فيما بعد زعيم التربية الكلاسية (Classic) أى المبنية على الآداب الإغريقية واللاتينية القديمة فى شمالى أوروبا ، وبنفوذه فى ذلك الصدد أعدت كتب كثيرة وبحوث عن التربية . وقد أدخلت هذه التربية الكلاسية — الإغريقية اللاتينية — فى كثير من المدارس وتولدت المدرسة الجمنازية (Gymnasium) الجرمانية وهى المدرسة الكلاسية الخصوصية فى نوعها بذلك القطر من المدارس الكاتدرائية القديمة والمدارس البلدية العليا . ومن هذه المدارس

مدرسة أنشأها استورم (Sturm) فى مدينة استراسبورج قسم منهج الدراسة فيها على عشرة فصول تدرس فيها الآداب القديمة بعناية ودقة . وقد امتدت النهضة الى انجلترا وتولتها أكسفورد وكامبردج . على أن الوسع الحقيق لم يحدث فى كامبردج لاحين رضى اراسموس (Erasmus) استاذ اللاهوت أن يلق بها محاضرات فى اللغة الإغريقية تكرما منه وحبا . وقد أنشئت مدرسة نموذجية للتعليم الثانوى فى سنة ١٥٠٩ فى سانت بولس (St. Paul's) على يد كوليت (Colet) على أن دراسة الآداب القديمة فى انجلترا انحطت حتى بلغت حالة شكلية ولم تتحسن المدارس الثانوية منذ ذلك اليوم إلا قليلا . والمدارس الثانوية التى أقيمت فى المستعمرات الأمريكية إما أقيمت على نمط المدارس الثانوية فى الوطن الأصيل .

أثر الإصلاح الدينى فى التربية

لم يقتصر فضل الإصلاح الدينى على أنه أعطى العالم يقظة دينية، بل أنه جاد عليها بوحى جديد فى التربية . نهض لوثر (Luther) أولا و بالذات من أجل الإصلاح الدينى ولكنه كان ينادى بضرورة أن تكون التربية مؤدية الى تربية الوطنية (Citizenship) وأن تتولى الدولة إعانتها وقد كان زفنجلى (Zwingli) يقول بهذا أيضا ولكنه قتل قبل أن يكون له أثر كبير فى هذا الصدد . أما كالفن (Calvin) فلم يقتصر على أنه أنشأ عدة من الكليات و بأنه وضع أساس الآراء المتعلقة بالتربية فى سويسرا وفرنسا والبلاد الواطئة (Netherlands) وانجلترا واسكتلنده .

وكذلك التربية الكاثوليكية أيضا فقد نشطت من جديد، وذلك أن اليسوعيين (Jesuits) أنشأوا كليات لنشر المسيحية الكاثوليكية عمادها تعليم الآداب القديمة الكلاسية واللاهوت والفلسفة . وكانوا يدربون المعلمين و يتخيرونهم بغاية الحرص . ولقد كانت هذه الكليات ذات أثر محسوس و إن كانت الأساليب التى جروا عليها لم تخرج فى جوهرها عن التحفيظ والمراجعة واستنباط الوسائل لإحداث المنافسة بين الطلبة . وقد زادت هذه الكليات زيادة عظيمة حتى بلغ عددها فى سنة ١٥٥٦ — ٧٩٦ مدرسة منتشرة على وجه الأرض وفيها من التلاميذ ٢٠٠,٠٠٠ على الأقل . و بسبب اختلاف جماعة اليسوعيين مع الكنيسة أمر البابا بإلغاء هذه الجماعة . وقد استطاعوا أن يلموا شعثهم فيما بعد ولكن أثرهم التعليمى لم يعد الى سابق عهده .

وأنشأت هيئات كاثوليكية أخرى مدارس لها وكان لها سلطان تعليمى يذكر مثل الجانسنيين (Jansenists) الذين يعرفون باسم البورت روياليست (Port Royalists) إشارة الى الطريقة التعليمية التى نهجوها فى مدرسة الدير فى " بورت رويال " قال هؤلاء

إن العقل أهم من الذاكرة وأنشأوا مدارس غير كبيرة تعرف " بالمدارس الصغيرة " كانوا يعتمدون فيها على التعليم الفردى ويعنون بصفة خاصـــة باللغة الوطنية والمنطق والهندسة. وهناك كانوا يستعملون الطريقة الصوتية (Phonetic) فى التعليم. وعنى الإخوان المسيحيون (The Christian Brothers) بالدراسات العملية فضلا عن المـواد العلمية والدين . وقد أدخلوا طريقة التدريس للجماعة بدلا من الطريقة الفردية التى كانت منتشرة فيما سبق . كما أنهم أنشأوا مناهج خاصة لتخريج معلمين للمدارس الأولية .

ومن آثار عهد الإصلاح نشوء الرغبة والمطالبة بنشر التعليم الأولى العام وإشراف الحكومة على المدارس .

ولقد كان هذا متجه بعض الكاثوليكيين فى ألمـانيا وهولاندا واسكتلنده وبعض المستعمرات الأمريكية . بيد أن حركة هذه المطالبة كانت بين البروتستانت فى هذه الأقطار أقوى واشد . وكانت مدارس التعليم الثانوية عند البروتستانت فى غالب أمرها تحت إشراف ولاة الأمر المدنيين . على أن رجال الكهنوت هم الذين كانوا يتولون التدريس فيها والتفتيش عليها فى العادة . أما المدارس الثانوية الكاثوليكية فكانت فى غالب أمرها فى أيدى اليسوعيين . وفى غضون هـذه الأيام تحولت كليات كثيرة عن الكاثوليكية الى البروتستانتية وتأسست كليات جديدة أخرى ما بين كاثوليكية وبروتستانتية .

العصور الحديثة

انتشرت التربيـة العلمية انتشارا سريعا فى القرن السابع عشر بفضل ما كان لأعمـال كوبرنيكوس (Copernicus) وكبلر (Kepler) وغاليليو (Galileo) من الأبحاث فى ميدان الفلك، وكذا لاستكشافات توريسلى (Torricelli) و بويل (Boyle) وجريك (Guericke) وعزز هذا الدافع نيوتن (Newton) وقوانينه عن الحركة وهارفى (Harvey) واستكشافه دورة الدم، وغيرها من العلماء بما كان لهم من الأعمـال فى ميدان العلوم . على أن الكنيسة ناهضت الحركة العلمية فى أول الأمر ولذلك لم تتناولها الكليات والجامعات ردحا من الزمن ولكنها تطرقت ببطء وبطريقة غير مباشرة الى المدارس الأولية . و بمضى الزمن دخلت فى مناهج الدراسة فى الكليات والجامعات فى العالم بأجمعه . وكانت الجامعات الجرمانية أول آخذ بها ولا سيما جامعتى هال (Halle) وغوتنجن (Gottingen) أما الجامعتان الانكليزيتان أكسفورد وكامبردج فكانتا أبطأ فى قبول الدراسات العلمية بين مواد الدراسة . وفى غضون الجزء الأول من القرن الثامن عشر استحدثت (فى أمريكا) مناهج علمية فى جامعات يال (Yale) و برنستون (Princeton) وكينجز (Kings) التى سميت بعد ذلك كولومبيا (Columbia) ودارتموث (Dartmouth) و يونيون (Union) وبنسلفانيا (Pensylvania) أما جامعة هارفارد (Harvard) فقد فعلت ذلك حتى قبل انتهاء القرن السابع عشر .

نمو الديموقراطية فى التربية وامتدادها إلى طبقات العامة

فى الستين الأولى من القرن الثامن عشر قامت ثورة فكرية على تقييد حرية الرأى فى الدين والتربية شبيهة الى حد كبير بالثورة التى كانت فى الجزء الأخير من القرن نفسه على تقييد الحرية السياسية . فقد كان هناك نضال لتخليص العقل من قيود الشكل ومرسوم العقيدة، ولتفسير الحياة من وجهة نظر أقرب الى العقل والطبيعة مما كان . وكان أحد عظماء المفكرين فى تلك الأيام فولتير (Voltaire) الذى أخذ بناصر المعقول ضد المنقول . وهو إن كان طعن مر الطعن فى الكنيسة البروتستانتيـة والكاثوليكية الرومانية ولا سيما الأخيرة لاعتقاده أنها عدوة الحرية والرقى فانه نفع التربيـة نفعا لا يقتصر على انتقاده نظمها القـديمة ، بل بإدخاله فى فرنسا نظريات التربية التى عرفها أيام كان منفيا فى انجلترا .

جرت فى القرن الثامن عشر محاولات كثيرة غرضها التعليم بين الناس ولا سيما فى انجلترا حيث كانت طبقة العمال التى تبلغ سدس سكان البلاد تقريبا شقية تعسة لقلة الأجور وعدم اطراد العمل وشيوع الفقر المدقع بين أفرادها . ولقد أنشئت عدة من مدارس خيرية وتألفت جمعيات إحسان لنصرة هذا العمل مثل جمعية نشر التعليم المسيحية (Society for the Promotion of Christian Knowledge) وجمعيـة نشر الإنجيل فى البلاد الأجنبية (Society for the Propagation of the Gospel in Foreign Parts)

وقد كانت الأخيرة تعين مدارس فى جميع المستعمرات الأمريكية ما عدا فرجينيا. وقد أنشأ هذه الجمعيات وتولى إدارتها أفراد من محبى الإنسانية لاقوا مقاومة من الطبقات العليا بدعوى أن مهمة طبقات العمال فى أن يشتغلوا لا أن يفكروا. ولاقوا من الطبقات الدنيا مقاومة أيضا لأنهـم أنفوا أن يتقبلوا الإحسان . وقد أفلحت هذه المساعى مدة ما وامتـد فضلها الى أمريكا كما سبقت الإشارة الى ذلك حيث أنشىء كثير من هـذه الجمعيات وتأسست مدارس ثم قل الاهتمام بشأنها وقلت الاكتتابات وسكنت الحركة .

مدارس العرفاء (Monitor Schools)

ومن الحركات التى أفادت كثيرا بفضل طريقتها فى إيصال التربية الى الجمهور نظام التعليم بواسطة العرفاء وهو نظام أحدثه فى انجلترا متنافسان أحدهما يدعى لانكاستر (Lancaster) والآخر بل (Bell) هذان وجدا أنه اذا استخدم الطلبة القدماء فى الدراسة بمثابة عرفاء يتيسر تعليم عدد أكبر بكثير ممـا يتيسر بالطرق السابقة التى تتمسك بالتعليم الفردى . وكان تنفيذ هذا النظام بتأليف فرق من التلاميذ وتمرينهم تمرينا عسكريا وإنشاء نظام من الضباط والأشرطة والمكافآت والعقوبات تبعا لذلك . ولقد ساعد هذا العمل ، بالرغم من كونه آليا وشكليا ،

على نشر فكرة التعليم القومى ومهـد الطريق لعناية الحكومة و إعالتها المدارس ، كما أنه حسن طرق التعليم تحسينا عظيما . ولقد انتشرت هذه الفكرة انتشارا واسعا واقتبست فى الولايات المتحدة الى مدى بعيد ولكنها اختفت بتحسين نظم التربية فيها ؛ على أنها قد أفادت بما كان لها من الأثر فى ترقية التربية .

هذا ، وقد أنشئت مدارس للأطفال الفقراء فى الأيام الأولى من القرن التاسع عشر فى فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة وهى و إن كانت وليدة عواطف خيرية فانها قد انتشرت انتشارا عظيما وجعلت جزءا أساسيا فى نظم التربية القومية ولكن سرعان ما أصبحت هذه المدارس شكلية وآلية و إن كانت قد أحدثت أثرا طيبا بما أدخلت من الطرق الحسنة وتزويد المدارس بمعدات أفضل . كما أنها وجهت النفوس الى ضرورة ساحات اللعب فى المدرسة وفى الولايات المتحدة أدخلت النساء فى المدارس للتعليم .

على أن هذه الحركة الخيرية بالرغم ممـا لاقت من المناهضة الشديدة كانت ذات قيمة إذ مهدت الطريق للتربية العامة على نطاق قومى .

إصلاحات فى التربية

(١) النزوع الى الفطرة — أشهر الموعزين بحركة النزوع الى الفطرة هو روسو (Rousseau) (١٧١٢ — ١٧٧٨) وهو و إن كان أكثر شهرة عند طالب علم الاجتماع والعلوم السياسية بكتابة العقد الاجتماعى (Social Contract) فان أثره كان عظيما جدا فى التربية بما تضمنه كتابه المعروف باسم أميل (Emile) من الآراء . يتضمن هذا الكتاب خمسة كتب فهو فى الكتاب الأول يتناول أميل من يوم مولده حتى يبلغ الخامسة من العمر و يقصر تعليم الطفل فى غضون هذه الفترة على الأعمال البدنية . وفى الثانى يتناوله من سن الخامسة الى الثانية عشرة أى مدى الطفولة ويجعل مدار التعليم تنمية الأعضاء والحواس . وفى الكتاب الثالث يتناوله من سن الثانية عشرة الى الى الخامسة عشرة، أى فى زمن المراهقة ويجعل التعليم عقليا موجبا أن يتضمن درس العلوم الطبيعية موقظا فى النفس إحساس الشغف بمعرفة ما يختص بالطبيعة . وفى الرابع أى فيما بين الخامسة عشرة والعشرين يعنى بتنمية المشاعر الاجتماعية والخلقية، إذ أن ظهور الميول الجنسية إنمـا يكون فى هـذا الطور ولا بد من قيادتها وتدبيرها على أسلم صورة . والكتاب الخامس يتنـاول تربية الفتاة وقد اختار روسو لإميـل زوجة من النوع الذى لا يعتمد على نفســه فى أمر مطلقا .

وروسو فى هذا الكتاب مبدع وملهم و إن ناقض نفسه فى بعض الأوقات ؛ ومن أجله يستحق أن يعد موجد الحركة الاجتماعية والعلمية والنفسية فى التربية . على أنه لم يؤثر به تأثيرا مباشرا فى رجال التعليم فى زمنه فقد كان من نصيب بازداو (Basedow) أن يكون

أول من يخرج نظرية روسو الطبيعية إلى حيز العمل . فقد قال بأن التربية يجب أن تكون عملية ويحتم أن تتبع خطط اللعب . وأنشأ بفضل الاكتتابات مدرسة نموذجية عرفت باسم فيلانثروبينوم (Philanthropinum) ووضع كتبا مدرسية لهذه الطريقة . وكان تعليم اللغات بواسطة المحادثة والألعاب والعلوم الأخرى بطرق طبيعية شبيهة أيضا بتلك . وأدخل التعليم الصناعى أيضا فى البرنامج . وقد نجحت المدرسة نجاحا عظيما واقتبست طرقها حتى أصبح هذا النموذج من المدارس هواية كل هاو . على أنها قد أفادت فائدة عظيمة بأن بعثت نشاطا جديدا فى التربية .

٢ — تربية الملاحظة والتعليم الصناعى — بستالوتزى (١٧٤٦ — ١٨٢٧) .

كان من نصيب نظرية روسو الطبيعية أن يقوم بتطبيقها العملى بستالوتزى ، فقد تشبع الرجل فى أوائل أيامه برغبته فى رفع المستوى المنحط الذى كانت عليه طبقة الفلاحين فى أوربا فى أيامه . فشـل بستالوتزى حين أراد أن يكون قسيسا أو رجلا من رجال القانون فعمد إلى التربية وقام بإدارة مدرسة بناحية نويهوف (Neuhof) جمع فيها بين التعليمين الصناعى والتهذيبى ولكنه حبط فيما تولاه . وفى سنة ١٧٩٨ تهيأت له فرصة أخرى لتنفيذ آرائه الخيرية والصناعية فى التربية . وإذ لم يكن لديه مساعدون ولا كتب ولا أدوات فقد اضطر أن يعلم تلاميذه بالملاحظة وهى طريقة استعملهـا فى تعليم الأخلاق والحساب واللغـات والجغرافيا والتاريخ . وفى مدرسة أخرى بجهة بورجدروف (Burgdorf) اضطر بستلوتزى أن يترك التعليم الصناعى ولكنه استطاع فى هذه المدرسة وفى أخرى بجهة ايفردون (Yverdon) بعد ذلك أن ينمى طريقة الملاحظة الى أقصى درجة . فقد كان بستلوتزى يرى أن التربية عبارة عن نتيجة طبيعية للقوى الكامنة فى الإنسان . وكان يعتقد أن الآراء الواضحة لا تتأتى إلا بمساعدة الحواس فعمل على تصفية كل موضوع وإرجاعه الى عناصره البسيطة وأن ينميـه بواسطة تمرينات مدرجة . وأصر على أن تسير التربيـة متتبعة خطوات نمو الطفل النفسية . وحاول بستلوتزى أن ينهض بالمجتمع بواسطة التربية ، وطريقته وإن كانت غير مبتكرة ولا عمليـة ولا مطردة وينقصها العلم والتنظيم فانه على ذلك يعد منشئ فن التعليم (البيداجوجيا) الحديث فلم يقتصر أمره على كونه فتح الباب لطرق جديدة فى التعليم بل تعداه الى كونه ابتكر نوعا جديدا من النظام حاملا الصداقة والمحبة فى مكان الطرق الوحشية التى كانت عرفا متبعا فى المدارس فى تلك الأيام . من أجل هذا انتشرت طرائقه بسرعة فى جميع أوروبا والولايات المتحدة حيث تبناها أنصاره تنمية واسعة النطاق . وقد نهض صديقه فيلنبرج (Fellenberg) (١٧٧١ — ١٨٤٤) فى هوفويل (Hofwyl) بأمر الجمع بين التعليم العقلى والصناعى الذى اضطر بستلوتزى أن يهمله بسبب ما كان لتلاميذه من المكانة الاجتماعية وقد اتبعت طريقته فى مدارس أنشئت للتعليم الصناعى فى أوروبا وفى حركة " الأعمال اليدوية " فى الولايات المتحدة حيث نميت على وجه

التخصيص فى مدارس الهنود والزنوج الأمريكيين مثل مدارس كارلايل (Carlisle) وهامبتون (Hampton) وتوسكجى (Tuskegee) وكذلك فى مدارس المعتوهين والمجرمين. هذا ، ومذهب بستلوتزى معمول به كذلك فى أقسام العمل اليدوى من مدارسنا العامة وكذلك فى مدارس الصناعة الخاصة .

٣ — هربارت (Herbart) (١٧٧٦ — ١٨٤١) وفروبل (Fraebel) (١٧٨٢ — ١٨٥٢).

من اتباع بستلوتزى رجلان نشرا عمل استاذهما ورقيا به الى درجة عالية فى النمو والرقى هما هربارت وفروبل . وضع كل منهما خططا فى التربية ؛ فبنى هربارت طريقته على آرائه المبتكرة فى علم النفس. وبناها فروبل على نوع من الفلسفة الصوفية . كلاهما أعاد نظريات بستلوتزى وبناها على قواعد أقرب الى المنطق . فأما هربارت وأتباعه فقد عنوا على وجه التخصيص بالغرض الخلقى للتربية وبضبط السلوك بواسطة الآراء . وقد استنبطوا نظرية لترتيب مواد الدراسة بنوها على أطوار النمو الثقافى ووضعوا منهجا دراسيا بنوه على ارتباط الدراسات بعضها ببعض وعلى اتحاد المعرفة بالتجربة . وقد كان هربارت يرى أن العقل ينمو بفعل تجاربه الخاصة ، ولهذا كان فى قدرة التربية أن تضبط نمو الذكاء والخلق ، وأن مهمة التعليم التنبيه بواسطة الآراء والتجارب .

أما فروبل فقد جعل همه وعمدته النشاط العملى الذاتى وجعله أساسا للتعليم وخطته . فاعتمد على ما يشتاقه الإنسان بفطرته من حيث أن هذا يعد نقطة الابتداء فى كل تربية ، وعلى اللعب والأعمال الإنشائية ودرس الطبيعة باعتبارها أقوى وسيلة من وسائل التعليم . وذهب الى أن إدراك المرء نفسه أى الشعور بالذاتية الخاصة لا يتيسر تحقيقه إلا بتنمية الغرائز الاجتماعية. وزاد على هذا أنه استحدث روضة الأطفال (الكندر جارتن Kinder-garten) أى المدرسة التى لا كتب فيها ولا واجبات . فكان بهذا مبتكر حركة رياض الأطفال التى انتشرت فى أوربا وأمريكا .

وتكاد كل مذاهب التربية الحديثة تمت بسبب الى هربارت أو فروبل بل الواقع أن النظرية الحالية فى التربية ليست إلا خليطا من آراء هربارت وفروبل معا . بيد أن آراء فروبل أقرب الى الرأى العصرى من آراء صاحبه .

التربية الأمريكية : التربية عند المستعمرين

كانت المدارس فى المستعمرات الأولى* تشبه بطبيعة الحال نظائرها فى الأقطار التى جاء منها المهاجرون ، كما أنها كانت متأثرة بالآراء الدينية والسياسية القائمة يومئذ . فالمستعمرات التى كانت تحت حكم ديموقراطى والتى انتشرت فيها آراء كلفين عمدت الى تقرير نوع من

* يقصد بهذه الإشارة الى استعمار البلاد التى أصبحت فيما بعد الولايات الأمريكية (المعرب) .

التربيـة العامة فى أصقاعها . وأما المستعمرات التى كانت تحت حكم ارسـتوقراطى وكانت مؤلفة من اتباع الكنيسة الانجليزية فلم تمل الى التربية العامـة ، وإنما رغب الكلفنيون فى التربية العامة لأنهم قالوا إن من الواجب أن يتعلم الشعب كيف يقرأ الكتاب المقـدس حتى يستهدى بكلمة الله . وأما المستعمرات الارستوقراطية فقـد أنفقت من المـال والزمن فى سبيل التعليم العالى أكثر مما أنفقت فى سبيل التعليم العام . وقد أدى هذا بعد جهود كثيرة الى إنشاء كلية وليم ومارى (William & Mary College) فى فرجينيا سنة ١٦٩٢ وأن لم يتم من الأعمال إلا قليل فى سـبيل تعليم طبقة الفقراء فى فرجينيا وفى الجنوب بعـد ذلك لسنوات عدة .

نشأت فى المستعمرات ثلاثة أنواع من المدارس :

(١) أولها الذى يترك حبل الأمور على غاربها من غير اتباع نظام خاص (Laissez faire). وقد ساد فى فرجينيا وفى غالب مستعمرات الجنوب وحيث روجت التربية الثانوية والعالية من أجل الطبقات العليا . ولم يكن لأولاد الفقراء واليتامى نصيب من التربية، اللهم إلا التدريب الصناعى الناتج من التلمذ فى صناعة من الصناعات . وكانت التربية فى تلك الجهات معدودة من الشؤون الخاصة بالأسرة .

(٢) ثانيها الطراز الأبرشى (Parochial) نسبة الى الأبرشية وهو الذى وجد فى هولاندة الجديدة (New Netherlane) وفى غالب المستعمرات الوسطى .

(٣) نموذج المدرسة الحكومية كما كان فى ماساشوست وغالب مستعمرات نيوانجلاند.

فترة الانتقال

حدث فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر تعديل تدريجى فى النظريات المرعية يومئذ فى التربية ، وكذا فى أساليب العملية فى هذه البلاد . واستمر هذا الأمر الى ما بعد الربع الأول من القرن التاسع عشر ثم استقرت المدرسة الشعبية على صورة فى جملتها ثابتة . بيد أن الأمر فى غالب الولايات الجنوبيـة ولا سيما فى فرجينيا كان فى حاجة إلى نشوء حركة تعطف على التربية العامة . وضع جفرسون[1] (Jefferson) فى أيامه مشروعا مفصلا للتربية العامة قسم فيه البلاد مراكز صغيرة وجعل لكل منها مدرسـة أوليه خاصة به على أن تنتخب أحسـن تلاميذ هذه المدارس ليتابعوا دراستهم فى مدارس أرقى درجة من تلك . وتجرى فى هذه كذلك عملية الاختيار حتى يجتمع خيار التلاميذ ويعلموا على نفقة الأمة فى كلية وليم ومارى . ولكن هـذا المشروع لم ينفذ مطلقا ولم تتقرر مخصصات مدرسية ثابتة الا بالتدريج بعد أن سنت

---

(١) ثالث رؤساء الولايات المتحدة (عاش من سـنة ١٧٤٣ الى سنة ١٨٢٦) وقد اشتهر بديمقراطيته وحبه الحرية .

قوانين أنشئت بموجبها مدارس شعبية . ولقد صادفت هذه المدارس فى مبدإ الأمر مقاومة كثيرة من الأغنياء لأنهم لم يروا لماذا تفرض عليهم ضريبة الاتفاق على مدارس لا يأتى لهم من ورائها فائدة . ولاقت كذلك مقاومة من الفقراء الذين كرهوا أن يقبلوا ما هو فى ظاهره نوع من الإحسان . زد على ذلك أنه كان من الصعب يومئذ الحصول على معلمين أكفاء لأن خريجى الكليات والمعاهد العلمية كانوا يرفضون أن يعلموا فى المدارس المخصصة للفقراء ولكن أمكن التغلب على هذه العقبات شيئا فشيئا وزادت المدارس عددا ونفعا .

وحوالى سنة ١٨٠٠ أخذت ولاية نيويورك فى تخصيص اعتمادات من أجل المدارس الأولية الشعبية ، على أنها ظلت الشعبية تهمل المدارس الثانوية . ولقد وجد فى مدينة نيويورك نوع من الجمعيات شبه الرسمية مثل جمعية المدرسة المجانية (Free School Society) التى سميت فيما بعد "جمعية المدرسة الشعبية" (Public School Society) يعزى اليه فضل نشر التعليم الشعبى . ونص الدستور الجديد الذى جرى العمل عليه فى ولاية بنسلفانيا فى سنة ١٧٩٠ على إنشاء مدارس للفقراء . ولكن كانت القاعدة العادية المتبعة هى أن تدفع الحكومة أجرة تعليم الأولاد الفقراء فى مدارس خاصة حتى أنشأت فيلادلفيا فى سنة ١٨١٨ مراكز مدرسية وأعدت فيها مدارس على النظام الذى وضعه لانكاستر . وتأسست مدارس شبيهة بهذه فى غيرها من الجهات ولكن لم يشرع فى وضع نظام حكومى للمدارس العامة إلا فى سنة ١٨٣٤ ومع ذلك لم يتم هذا إلا بالتغلب على مقاومة شديدة . على أن ولاية نيوجرسى وديلاوير كانت أبطأ خطوا فى هذه النهضة من سواها .

أما فى ماساتشوسيتس فقد كانت المخصصات التى قررت من أجل المدارس الشعبية كريمة ولكنها قلت مع الزمن بدلا من أن تزيد . على أن هذا إنما تأتى بسبب ضيق الحال وبسبب هجرة أكثر أهلها نشاطا نحو الغرب فانتقل الإشراف على المدارس من يد المدينة الى المركز المدرسى . وكان كثير من هذه المراكز من الفقر أو من عدم الاكتراث بحيث لم يكن يستطاع أن يستخدم الأكفاء من المعلمين ولا أن تمد المدارس بما يلزم لها من الأدوات ومن ثم حدث تفاوت عظيم فى المدارس . ولقد أصبح هذا الانحطاط عاما فى نيوانجلاند إلا فى رود أيلاند حيث أخذت لأول مرة فى إنشاء مدارس مجانية شعبية . وفى الولايات التى نشأت فى القطر الشمالى الغربى القديم (وهى المعروفة الآن باسم الولايات الشمالية الوسطى) كان الشعور بضرورة تأسيس مدارس شعبية مجانية أقوى منه فى الولايات القديمة . على أنها لاقت صعوبات كثيرة فى سبيل تحقيق هذه الرغبة مثل فقر المستعمرين وتشتت مراكز الاستعمار فى هذا الصقع ورداءة الطرق والحروب الدائمة مع الهنود . ولكن كان لها مشجع كبير فيما منحته من الأراضى الواسعة . وهكذا أمكن إنشاء نظم للتعليم الشعبى حوالى

سنة ١٨٢٥ لم يقتصر فضلها على تهيئة فرصة التعليم المجانى بواسطة المدارس الأولية بل تجاوزه الى إنشاء جامعات حكومية أيضا كان أشهرها جامعة ميشيغان التى تأسست بتشريع من الولاية فى سنة ١٨٣٧ وافتتحت فى سنة ١٨٤١

التربية العامة

فى مستهل الربع الثانى من القرن التاسع عشر انتشرت الفكرة الديموقراطية فى التربية انتشارا سريعا جدا ؛ اذ انهزمت قوى المعارضة والمناهضة التى كانت تحارب التعليم العام . فقد زال فى غضونها شيئا فشيئا امتعاض فريق الأغنياء من أن تفرض عليهم ضرائب من أجل تعليم أولاد غيرهم . وكذلك أمكن التغلب على روح الكراهية التى كانت تنفر الناس من فكرة إنشاء مدارس مجانية على زعم أنها مدارس للمعدمين . وقد حدث ما يعرف باسم نهضة المدرسة العامة فى نيوانجلاند وانتشر فى جميع البلاد . ولقد لقيت حركة الدعوة الى التعليم العام عضدا قويا فيما كان يبذله من الجهد العظيم فريق مقتدر من ذوى الرأى فى التعليم أمثال جيمس ج. كارتر (James G. Carter) (١٧٩٥ — ١٨٤٩) فقد كان عمليا فى مذهبه وكان يدعو الى إنشاء مدارس ثانوية واستطاع بفضل قانون سن فى ماساتشوسيت فى سنة ١٨٢٦ أن يؤلف لجانا مدرسية بلدية ويحصل على اعتماد لإعانة مدارس ثانوية . ذلك أن القانون المشار اليه قضى على كل بلدة تتضمن خمسماية أسرة أن تقوم بالإنفاق على مدرسة ثانوية وفى سنة ١٨٣٧ صدر قانون بتأليف مجلس أعلى للتعليم فى كل ولاية . واقتفى هوراس مان (Horace Mann) (١٧٩٦ — ١٨٥٩) آثار كارتر ودعا إلى تعلم البنات بالمجان كالبنين والى ضرورة أن تكون هناك مبان أحسن إعدادا وأفضل حالا من الوجهة الصحية وأحسن إضاءة . كما أنه طلب أن يكون التعليم على خطط أكثر انطباقا على العلم ؛ وأن يستخدم المعلمون المدربون وأن تكون الدراسات عملية ؛ وألح فى حمل الناس على الاعتقاد بأن تربية قوة الخلق يجب أن تكون مرمى التربية وغرضها . وبذل هنرى بارنارد (Henry Bernard) (١٨١١ — ١٩٠٠) جهده ليعرض على الجمهور طرائق جديدة فى التربية ولا سيما بواسطة صحيفة التربية الأمريكية (American Journal of Education) التى أخذ ينشرها على نفقته الخاصة .

هذا التيقظ وهذا النمو فى إحساس الجمهور تبعهما ازدياد مطرد فى التربية العامة وفى إعانة الحكومة ومراقبتها وإشراف الرجال المحليين وإنشاء مدارس ثانوية فى جميع أصقاع نيو انجلاند والولايات الوسطى . أما فى الولايات الغربية فالمستعمرون الوافدون من بلاد لم يتقرر فيها التعليم العام أقنعهم إخوانهم النازحون من بلاد تقرر فيها التعليم العام ، بفضل هذا التعليم

ومزاياه . وإذ تم استعمار الغرب خطت التربية والرقى التعليمى خطوات تمشت مع النمو العام فى البلاد وتقدم التعليم أيضا فى الولايات الجنوبيـة ولكن سيره تعطل تعطلا كبيرا بسبب الحرب الأهلية إذ أنها شلت حركة التعليم بأجمعها مدة من الزمن .

نظم التربية فى أوروبا

فى غضون المـائة والخمسين من السنين المـاضية نشأت فى كثير من أقطار أوروبا نظم تعليمية مركزة تختلف فى كثير من الوجوه عنها فى الولايات المتحدة . ولعل أهم هـذه النظم هى نظم بروسيا وفرنسا وانجلترا . فالتعليم الأولى فى جميع هذه الأقطار مجانى . أما التعليم الثانوى فليس كذلك إلا فى بعض المدارس . وتفردت فرنسا بجعل التربية علمانية بحتة لا دخل للدين فيها .

بروسيا

يرجع الفضل فى وجود نظـام للتعليم الشعبى فى بروسيا منذ زمن بعيد الى سلسلة الملوك الأقوياء من أسرة هوهنزلرن فقد كانوا على استبدادهم بالحكم ذوى فكر راق . وكانت مصالح الشعب الحقيقية هى شغلهم الشاغل . ولقد كان بدء الجرى على هـذه الخطة فى سنة ١٧١٧ حين أصدر فردريك وليام الأول مرسوما يقضى بأنه حيثما توجد مدرسة يجب أن يحضرها الأطفال فى الشتاء وكذلك فى الصيف أيضا كلما استطاع آباؤهم أن يستغنوا عن خدماتهم وتابع فردريك الأكبر ومن جاء من بعده هذه الخطة وتوسعوا فيها وأصابت دائما أقوى بسبب غزو نابليون لبروسيا إذ أدركوا أن من الضرورى أن يكون للبلاد نظام تعليمى مركز .

ونظام بروسيا فى المدارس معقد وقد يبدو غير عادل فى نظر الأمريكيين. وأحط هـذه المدارس هو النوع الذى يسمونه فولكشولن (Volkasschulen) أى مدارس الشعب، وهذه مجانية وتقبل الجميع . هـذه المدارس تعلم الأحداث من سن السادسة إلى سن الرابعة عشرة ولكنها لا تؤدى الى مدارس أعلى ؛ إذ الواقع أن الأحداث المتخرجين من هـذه المدارس لا يقبلون فى مدرسة الجمناز يوم (الثانوية) (Gennaium) : ويكاد يكون انتقال الطفل إلى نوع آخر من المدارس مستحيلا بعد أن يصل إلى السنة الثالثة . فاذا بلغ الحدث التاسعة من عمره كان مستقبله ونصيبه فى الحياة بعدئذ فيما يتعلق بالتعليم معينا معروفا وان كان مباحا للأحداث أن يلتحقوا بمدارس تكميلية ليتابعوا فيها دراستهم . وهذه المدارس الشعبية يحضرها أولاد الطبقة الدنيا بطبيعة الحال . وهناك نوع من المدارس يسمونه متلشولن (Mittels-schulen) أى المدارس الوسطى . وهذه معدّة لأهل الطبقة الوسطى الذين لا يستطيعون أن يرسلوا أبناءهم إلى المدارس الثانوية ولكنهم فى حاجة إلى تعليم أولادهم تعليما أرقى ممـا يتاح

للطبقة الدنيا . ويشتمل التعليم البروسى العصرى على نظام من المدارس الثانوية يتألف من ثلاثة أصناف (١) الجمنازيوم (Gymnasien) التى يهتمون فيها بتعليم الاداب القديمة الإغريقية واللاتينية و (٢) الريالشولين (Realschulen) التى يهتمون فيها بتعليم اللغات العصرية والرياضيات والعلوم الطبيعية و (٣) الريالجمنازيوم (Realgymnasien) التى هى مزيج من الاثنتين السابقتين دعا اليه انتقاد الناس للمدارس الثانيـة واعتبارها أحط من الأولى شأنا . ونظرا الى أن المدة التى يقضيها التلميذ فى هذا النوع ست سنوات فى حين أن مدة الدراسة فى الجمنازيوم تسع سنوات نشأ نوع آخر يدعى الأوبرريالشولين (Oberreal-schulen) ومدة الدراسة بها تسع سنوات . على أنه يغلب فى مدارس الريف أن يكون أمد الدراسة فيها ست سنوات فقط .

والعادة أن يتقاضوا مصروفات مدرسية عن التعليم الثانوى . وفى الأيام الأخيرة نشأت مدارس أولية يسمونها مدارس الإصلاح (Reformschulen) تجعل من الممكن للتلميذ أن يؤجل اختيار المدرسة الثانوية مدة ثلاث سنوات على الأقل وهى تؤدى الى أنواع المدارس الثانوية الثلاث جميعها . وتأتى الجامعات و "المدارس الفنية العالية" فوق المدارس الثانوية. وهذه المدارس الفنية العالية تخصص طلبتها فى الوجوه العلمية والفنية من العلوم .

فرنسا

وضع النظام الفرنسى بعد البروسى بمدة وذلك بسبب فساد ملوكها من أسرة البربون وبسبب الحالة الاجتماعية التى حطت من شأن الطبقات الدنيا من شعبها . ولكن وضع فى أيام نابليون نظام مركز راق للتربيـة جمعت فيه المدارس الثـانوية والعالية فى معهـد واحد سمى "جامعة فرنسا" (١٨٠٨) وفى أيام لويس فيليب أنشئت المدارس الأولية وفى أيام الجمهورية الثالثة جعل التعليم الأولى مجانيا و إلزاميا وعلمانيا بحتا . ويتألف النظام الدراسى الثانوى من المدارس المعروفة باسم ليسية (Lycée) والكليات الشعبية (Communal) وهى المعدودة دون الليسية فى المرتبة . وهـذه المدارس تتناول الحدث عادة وعمره عشر سنوات وتستبقيه حتى يبلغ السابعة عشرة وتعده بذلك لنيل درجة البكالوريا . ولقد كانت هذه المدارس فى أول أمرها للصبية ، أما الآن فهناك مدارس ثانوية للبنات أيضا سوى أن منهج الدراسة فى هذه المدارس أقصر من الأولى بسنتين . وليست هذه المدارس مجانية ولكن لمـا كانت الحكومة تعينها إعانة وافرة فان أجور التعليم فيها هينة . والواقع أن الفضل فى إيجاد هذا النظام يرجع الى نابليون الذى أنشأ عدة جامعات ألغوا منها نصفها من بعده . واليوم توجد خمس عشرة جامعة فى الأقسام التعليمية الستة العشر التى فى فرنسا .

انجلترا

كانت الحركة فى سبيل تعميم التعليم أبطأ من هذا فى انجلترا إذ لم تكن فيها حكومة مستبدة تضع مثل هـذا النظام ولا ثورة شعبية تقضى على عناصر المقاومة المناهضة لهـا . ومن ثم كانت التربية القومية نتيجة تطور بطىء . ولم تظهر أية عاطفة نحو التربية العامة إلا فى مختتم القرن الثامن عشر . فقـد غلت الطبقات العليا فى منع التعليم عن طبقات العامة وكان الإشراف على موارد الإنفاق على التعليم فى يد الكنيسة ؛ فامتد التعليم بالتـدريج الى العـامة ولكن لم تنشأ قبل سـنة ١٨٧٠ مدارس تتولى أمرها مجـالس مدرسـية انتخبها الشعب (وتعرف باسم المدارس المحلية) لتسـد فراغا فى النظم القديمة . واشتركت المدارس الطائفية (Denominational) أو (التطوعيـة) فى الحصول على إعانات من الحكومة ولكنهـا لم تأخذ شيئا من الضرائب الإضافية (Rates) وحيال مختتم القرن التاسع عشر تقرر جعل التعليم مجانيا وإلزاميا على كل حدث حتى يبلغ الثانية عشرة . وتألف فى سنة ١٨٩٩ مجلس معارف مركزى . ولكن التعليم الثانوى لم ينظم ويوجد قبل سنة ١٩٠٢ وفى غضون القرن التاسع عشر قضوا على ما كان للآداب القديمة من المزية الاحتكارية فى التعليم وزال ما كان لرجال الإكليروس من السلطان فيه وعنوا بعد ذلك عناية أكثر باللغات الحديثة والعلوم الطبيعية . هذا ، ونظام التعليم الثـانوى فى انجلترا يؤدى الى دخول جامعتى أوكسفورد وكامبردج وغيرهما من الجامعات الأخرى فى الأقاليم .

جنوح التربية الى الناحية العلمية

فى أثناء القرنين المـاضيين زادت العناية بالعلوم الطبيعية وكان هـذا ذا أهمية خاصة منذ منتصف القرن التاسع عشر فقد نمت الحركة تبعا لشيوع نظرية النشوء والتطور والاستكشافات العلمية وتطبيق نتائجها عمليا . وقد روج هذه النزعة فريق من قادة الرأى العمليين فى التعليم مثل داروين (Darwin) وهكسلى (Huxley) وسبنسر (Spencer) واليوت (Elliot) إذ قالوا أن العناية بمثل هذا التعليم لا يقتصر فضلهـا على كونها تفيد الشخص العادى فائدة ترجح على ما يسـتفيده من الآداب القديمـة بل تزيد عليها فى تنظيمها لقواه العقلية . ثم لاقت هذه الحركة مقاومة شديدة من جانب اتباع تلك الآداب ولكنها تابعت خطى النجاح شيئا فشيئا حتى لم يقتصر أمرها اليوم على اسـتقرار العلوم فى مناهج الدراسـة فى المدارس العالية ، بل وفى مناهج المدارس الثانوية والأولية فى ألمـانيا وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة .

وفى السنوات الأخيرة ظهرت نزعة فى الكليات والجامعات تعادل تلك فى شدتهـا وهى ترمى الى العناية بالعلوم الاجتماعية . وتؤذن هذه الحركة أن تمتد الى المدارس الثانوية .

الميول الحاضرة

إن نكن قد خطونا فى الماضى خطوات واسعة فى سبيل الرقى التعليمى فاننا غير قانعين بذلك ، بل متابعون السير بأسرع مما كان فى أى عهد مضى . ذلك أنه بسبب اتجاه الميول نحو الصناعة أدخل التعليم الصناعى والتجارى والزراعى فى نظم التعليم فى أوروبا والولايات المتحدة . ففى ألمانيا وفرنسا يتابعون التعليم الصناعى فى مدارس تكميلية حيث التعليم نظرى وعملى أما فى الولايات المتحدة فقد ابتدأ هذا النوع من التعلم فى مدارس ليلية ثم تحول بعد ذلك الى مدارس نهارية خاصة وعامة . واليوم أصبح هذا النهج جزءا مهما فى نظام تعليمنا الثانوى فهو يدرس فى كثير من المدارس العليا والكليات كأحد المناهج النظامية كما أنه يجرى فى مدارس معدة خصيصا لهذا العمل . وفى ألمانيا تعلم المواد التجارية فى مدارس تكميلية ينشئها الأفراد وفى مناهج ثانوية وجامعية .

وقد ظل التعليم التجارى الى عهد قريب مهملا جد الإهمال فى فرنسا وانجلترا ولكن أخذت انجلترا منذ عهد قريب فى تلافى هذا النقص . وفى أمريكا تولوا هذا النوع من التدريس فى كليات يسمونها " كليات الأعمال " وفى مناهج المدارس الثانوية والكليات . واليوم تعطى الكليات والجامعات الأمريكية الشهيرة دراسات راقية فى مواد التعليم التجارى والمعاملات فى أقسام خاصة بادارة الأعمال .

وفى ألمانيا وفرنسا بذلت جهود كبيرة فى سبيل التعليم الزراعى بصفة ابتدائية . ولعل الولايات المتحدة تتقدم جميع البلاد من حيث إنشاء المدارس الخاصة بالزراعة والوصول بها الى درجة الكمال .

ولقد ساعدت قوانين منح الأرض التى أصدرها المجلس التشريعى الوطنى على إنشاء الكليات الزراعية الخاصة ويمتد التعليم الزراعى اليوم الى مدارسنا الثانوية ، وآخر وجه من مظاهر هذه الحركة اتجاهها فى سبيل إنشاء مدارس زراعية ثانوية خاصة .

وفى غضون السنوات القليلة الماضية عنيت أوروبا عناية كبيرة بالتربية الخلقية . وهذا الموضوع يشغل أفكار الناس اليوم فى الولايات المتحدة وذلك على الأخص بسبب عظم ازدياد العلاقات المرضية فى حياتنا التجارية .

هذا ، ولئن كان تطور التربية هو فى الأكثر عبارة عن إنماء لروح الفرد فان الميول الحديثة قد صاغت نظم التربية على صورة تجعلها أنفع للمجتمع وتحافظ فى الوقت عينه على نمو الذاتية الفردية . وبهذه الطريقة تسعى التربية لتكون أنفع للفرد وللمجتمع معا . فهى لا تقتصر على تدريب الفرد ليصبح جزءا من البناء الاجتماعى بل وتساعد المجتمع على أن يزيد نفعه للفرد . وقد أنشئت مدارس لتعليم ذوى العاهات كالعمى والصم وكليلى الذهن ومعتادى الهرب من المدرسة

بل ولا لأولئك الذين بهم خصائص مرضية كالفأفأة ، وكذلك المصابين بالتدرن الرئوى. فنحن بدلا من أن ندفع العاجزين بالفطرة الى المدارس النظـامية ، ننشىء لهم مدارس خاصة بهم . ونزيد اهتمامنا كل يوم بالصحة فى المدرسـة والعناية بسلامة التلاميذ بتحسين أبنية المدارس ويجعل المعلمين أقدر على مهمتهم بزيادة عنايتنا بحرفتهم . كما أن التجارب التى تولاها حديثا رجال مثل ديوى Dewey فى مدرسته التجريبية بجامعة شيكاغو ومشروع مدرسة غارى Garyschool الذى ذاع صيته اليوم مؤدية الى زيادة الانتفاع بالمعدات المدرسية . واليوم يجرون على خطة جعل المدرسة أشد اجتذابا وأكثر فائدة وذلك باتباع دورة خاصة فى الأعمال المدرسية وتنويع هذه الأعمال. ولا تنقطع جهودنا فى البحث والتجربة . ونظامنا التعليمى بأجمعه موضوع اليوم موضع الفحص والدرس والتنظيم قصد جعله أقدر على الإنتاج وأفيد للمجتمع . وسيكون من نتائج الحرب العالمية ولا شك إحداث تغيير جوهرى فى نظمنا ومبادئنا التعليمية ولا سيما فى سبيل جعلها أكثر اطرادا وانطباقا على مثال واحد مقرر وأقدر على الإنتاج وتجنب الإسراف وكذلك فى سبيل وضع مناهج دراسية نافعة . وقد جرى هذا فى أول الأمر بزيادة الحث على الدراسات العلمية . أما اليوم فالهمة منصبة على المناهج الدراسية المؤدية الى الكفاية الاجتماعية .

الجزء الرابع

الفصل السادس عشر

الغرائز والشعور والعقل

لكى يتيسر لنا الحصول على فكرة عن كيفية تكوّن المجتمع يجب علينا أن ندرس القوى التى تسيطر على المجتمع والدواعى التى تحفز الإنسان الى العمل . ومن الضرورى قبل أن نشرع فى ذلك أن نبحث فى طبيعة الإنسان نفسه . وقد عقدنا هذا الفصل لنتناول فيه هذه الناحية من الموضوع .

إذا كان الإنسان قد بدأ حيوانا بين الحيوانات فقد كان حيوانا متفوقا بما خص من مواهب بدنية وعقلية وخلقية ليس لغيره من أعضاء المملكة الحيوانية نصيب منها . نعم يفوقه كثير من أنواع الحيوان فى أشياء كثيرة ولا سيما فى القوة والسرعة والجلد ولكنه مع ذلك غلبها بفضل تفوّق عقليته . ونحن وإن كنا لا ندعى أننا فى هذا الكتاب سنتدلى بتحليل نفسى أو ندرس جهازه العقلى لا يسعنا إلا أن نعنى بالجانب النفسى من علم الاجتماع ونحاول أن نتعرف الدوافع التى تحفز الإنسان الى التغلب ونزن القوى التى تسيطر على فعله . نعم إن الإنسان محكوم الى حد كبير بالبيئة التى سبق لنا الكلام عنها ولكن الأمر لا يقف عن هذا الحد بل إنه يرث خصائص تعين الى حد كبير أمر سلوكه ؛ وهذا صحيح سواء فى حالة الفرد أو فى حالة الجنس البشرى على الإطلاق .

الغرائز [1]

الغرائز أو الحوافز الباطنة أو الميول هى المحركات المباشرة أو غير المباشرة للنشاط الإنسانى وهى مصادر الفعل وبغيرها يكون المجتمع خامدا عديم الحياة . ولقد جرت عادتنا أن نلحق الغريزة بالحيوان وحده ولكن اذا نظرنا فى الأمر نظرة دقيقة نجد أن الإنسان يشارك الحيوان فى كثير

(١) يدرك المؤلف تمام الإدراك ما هنالك من النقد الحديث السالك الشائع حيال الغرائز وهو النقد الذى يدلى به علماء مثل الأستاذ فارس والأستاذ برناردولكن يلوح له أن اتباع مبحثهما فى الوقت الحاضر فى كتاب أولى من هذا القبيل يكون مبكرا . ولكنى أوجه القارئ الى رسائل كتبها الاستاذان الدكوران وقرئت أمام الجمعية الاجتماعية الأمريكية فى اجتماعها السنوى بمدينة بتسبرج فى ديسمبر سنة ١٩٢١

من الغرائز. وإذ كانت هذه الحوافز الغريزية معقدة التركيب كان من المستحيل أن تفصلها أقساما وأبوابا على الوجه الأكمل لأنه يتعذر أن يفصل الإنسان غريزة بعينها أو طائفة من الغرائز فصلا كليا عن غيرها لأنها متداخلة تدخلا أشد لزاما حتى من اتصال العضلات فى البدن . بل لوحاولنا أن نحللها مع الحرص والدقة لما أولانا هذا العمل شيئا مجديا فى علم الاجتماع لأن اهتمامنا بها يرجع اليها من حيث إنها دواع للعمل وأنها وسائل لتحديد سلوك المرء فى المجتمع . درس علماء النفس الغرائز بالتفصيل . أما الاجتماعيون فلم يدرسوا الموضوع مدققين ولعل الوود [1] هو الاجتماعى المصرى الوحيد الذى كتب فى الموضوع بشىء من الوضوح والتفصيل. ولكنا مضطرون الى الالتجاء الى علماء النفس الاجتماعيين أمثال ماك دوغال [2] (Mc Dougall) للحصول على ما نهتدى به فى هذا الصدد . ولا يجمل بنا أن نعد الغرائز مما يستحيل تعديله وإصلاحه . فأن غرائز الحيوان ممكن تدريبها . وكذلك لا بد للغرائز من منبهات لنموها وهى خاضعة الى مدى كبير لطبيعة هذه المنبهات . ووجود الغرائز ليس معناه أنها بالضرورة خالية من الارادة والتفكير إذ أن كليهما موجود فى أغلب الأحيان ويقوم بارشاد الغرائز وقيادتها . ولذلك يجب علينا أن ننظر الى الغرائز بأنها ميول باطنية تدفع الى الملاحظة والانتباه للاشياء، والى استشعار تنبهات وجدانية ذات طبيعة خاصة عند ملاحظة هذه الأشياء والى العمل أو الإحساس بدافع الى العمل لدى تلك الملاحظة .

وليست الغرائز الانسانية جامدة وثابتة كما هى فى الحيوان بل هى ميول للفعل مطلقة غير مخصصة وبهذا تكون للانسان عونا أقوى على مجاهدة بيئته اذ تهيئ له نقطة ابتداء لحياته العقلية الاجتماعية وتغدو أساسا لتكوين العادات؛ هذا ويكاد يكون لكل غريزة إنسانية موازيها أو مقابلها فى الحياة الحيوانية. وسنتناول فى تحليلنا هذه الغرائز أو هذه الطوائف من البواعث الغريزية التى لها ارتباط بكثير من أعمال الإنسان وسلوكه — نعم إن هذه البواعث كثيرا ما يعارض بعضها بعضا وكثيرا ما يتدخل بعضها فى بعض ولكنا سنعالج كلا منها على حدة .

غريزة الطعام

الإنسان مشترك مع غيره من أعضاء المملكة الحيوانية فى غريزة الحصول على الغذاء لنفسه وهذا مشاهد بوضوح فى الرضيع فإنه لا يحتاج الى من يعلمه الرضاعة وإنما يحتاج الى مجرد أن يوضع بحيث يتصل بثدى أمه . نعم إن هذه الغريزة قابلة للتعلم والإرشاد ولكن باعثها الأول يبقى عاملا طول الحياة كما هو فى سعيه للحصول على الطعام. ففى بكرة تاريخ الإنسان كانت

---

(١) الفصل التاسع من كتابه (Sociology in its Psychological Aspect) والفصول ٩ — ١١ من كتابه (Introduction to Social Psychology) .

(٢) وليم ماك دوغال فى كتابه (An Introduction to Social Psychology) وكذا كتابه (Mind and Body)

هـذه الغريزة باعثة الى جمع الجذور والأثمار وأنواع البندق والمحار (الأسماك الصدفية) وبعد ذلك انصرفت الى الصيدين البرى والبحرى . ويشحذ هذا الباعث ألم الجوع ويستحثه شعور الارتياح البدنى الذى يحدثه تناول الطعام . وهى غريزة حيوانية بحتة وإن كانت فى الإنسان أكثر خضوعا لإرادته منها فى الحيوان . وعند ما تترقى هـذه الغريزة تأخذ شكل حافز يدفع الى العمل ليضمن الإنسان لنفسه موردا من الغذاء على مدى العـام . ولهـذا فهى أساس اهتمام الإنسان بالمواد الغذائية ، وهى الباعث الأكبر لنشاطنا الاقتصادى والصناعى . وهى تؤدى أيضا الى خزن الطعام وادخاره وبهـذا توقظ قوة الاختراع . كما أنها من جانب آخر تحـدث نقائص كالسرقة والشحاذة واستغلال الغير بالاسترقاق والاسـتعباد وتقليل الأجور وما الى ذلك من الوسائل .

الغرائز المتصلة بالتناسل

ومن الحوافز التى يشارك فيهـا الإنسان الحيوان غريزة استبقاء الجنس . وهى أقوى فى الذكر منها فى الأنثى . ويندرج تحت هـذا العنوان غريزتان أصيلتان عظيمتان هما الجاذبية الجنسية والمحبة الوالدية وهما متصلتان إحداهما بالأخرى اتصالا حيويا . ويندرج تحتهما صور مختلفة من الاستعدادات ومنهما نشأ الحب الجنسى ومحبـة الأسرة وعليهما قام نظام الأسرة ونشأت أشكال الزواج المختلفة وكذا عنايتنا بالوالدين المسنين وبالضعفاء من أعضاء الأسرة . ومن العناية بالأطفال نشأ العطف الذى هو أساس خلة الإيثار (Aldruism) وفى حين أن الحيوانات ولا سيما العليا منها تعطف أيضا على أولادها وعلى الأخص الأم فان خمود هـذه العاطفة فى الحيوان أسرع حدوثا منه فى الإنسان إذ أن هذه العاطفة مقصورة عادة على الفترة التى تنتهى بظهور النسل التالى . وكلما هبطنا فى سلم الحيوانية وجدنا ازديادا فى عدد النسل عادة ونقصانا فى مقدار هذه العاطفة. ولهذا كان الطبيعى ، والانسان أقل الحيوانات نسلا تقريبا ، أن يكون ظهور هـذا الدافع فيه أقوى منه فى الحيوان . والغريزة التناسلية ليست شـديدة الانتظام فى ذاتها وهى فى الإنسان تحت ضابط أقوى منها فى الحيوان بسبب تفوق عقلية الإنسان وتفوق قواه الكابحة . وقـد أدت هذه الغرائز الإنسانيـة بفضل حسن التوجيه والضبط الى نمو أرق البواعث النفسية فى الإنسان وإلى قيام أعمـال وأوضاع تعد من أرق ما أنتجه الإنسان .

غريزة المحافظة على النفس

قد تسمى بواعث الطعام والتناسل والمحافظة على النفس البواعث الأولية فى الإنسان إذ هى مشتركة بين الإنسان والحيوان . والمحافظة على النفس غريزة فى الإنسان تبعث على تجنب الخطر إما بالفرار منه أو بالبقاء بعيدا عن متناوله . ولقد كانت هذه الغريزة ضرورية لاستبقاء حياة الانسان نفسها ولاسيما فى عهد طفولة الجنس البشرى أيام كان الإنسان ضعيف العدة اللازمة لمكافحة المخاطر التى تكتنفه . ولابد للطفل من غريزة الخوف لكى يعيش حين يكون بعيدا عن حماية والديه . فهى تحدث فى نفسه خوفا أو ذعرا لدى رؤية الخطر ثم تدفعه إلى الهرب أو الاختفاء من وجه ذلك الخطر ثم يكتسب عادة الابتعاد عن طريقه . والإنسان مزود بأعصاب تنذره بواسطة الألم عما يعتور بدنه من الخطر مثل البرد أو فرط الحرارة أو الرض أو تمزق فى الجسم . والعقل مزود بالذاكرة لتخبره بوجوب تجنب هذه الأخطار فى المستقبل . كما أن أعضاء الإنسان الإحساسية وإن كانت أحط من مثيلاتها فى الحيوانات تساعده على رؤية الخطر المقترب أو سمعه أو تذوقه . وتبدو هذه الغريزة من الطفل فى خوفه من الشئ غير المألوف أو غير المعتاد ، بل وفى كثير من الأحيان حين يخبره ذكاؤه أن ليس هناك خطر حقيق . وغريزة الخوف تعاود الإنسان أبدا وهى وإن كانت تنقذ حياته فى كثير من الأحيان فانها تمنعه فى بعض الأوقات من نيل ما كان يناله لولا التهيب . ولذا فانها من الدوافع التى يود الإنسان أن يخفيها أو يتغلب عليها . على أن فائدتها تقل بازدياد أسباب الحماية التى يهيئها المجتمع للناس . وقد كانت هذه الغريزة من القوى الداعية الى الاختراع ويقرب منها مجموعة الغرائز التالية .

المقاتلة والغضب

ليست الرغبة فى الاعتداء أو فى الحقد عامة كغريزة الخوف ، إذ هى فى الواقع ضعيفة جدا فى إناث بعض الأنواع . وهى أقوى فى بعض الناس منها فى غيرهم وتكون فى العادة أظهر فى الذكور منها فى الإناث . على أنه إذا كانت غريزة المقاتلة تستخدم فى الدفاع فهى أيضا تحفز الى الاعتداء بل وإلى اضطهاد الغير . واستخدامها معزز بغرائز أخرى كغريزة التملك ولكنها هى الحافز المباشر إلى الحرب والغزو وبدونها يصعب القيام بهذين الأمرين . وبفضلها استطاع الأقوى أن يبقى وأمكن الاحتفاظ بأفضل العناصر . والمشاهد أن الأجناس التى كانت فيها هذه الغريزة بقدر أكثر مما فى سواها تقدمت وترقت فى حين أن الأجناس التى أعوزتها هذه الغريزة انقرضت أو غلبت على أمرها .

وباعث الغضب يبدو فى الشخص حينما يحاول أحد الاعتداء على حقوقه . فان الشخص الذى لحقه الأذى أو الإهانة يبدى استياءه فى شعوره بالغضب وبدون غريزة المقاتلة والاستياء يستحيل حدوث الغضب . وكلما تقدم المجتمع حذنا نسيطر على شعور الغضب شيئا فشيئا ، وجعلنا نفخر باقتدارنا على كبح جماح الغضب أكثر مما نفخر باظهاره . ولقد كانت هذه الغريزة مفيدة للإنسان وإن كانت قد أدت حين أفرط فيها الى ارتكاب المظالم ونشر الشقاء الذى لا حد له والخراب . أما إذا ضبطت ضبطا شديدا فانها تفيد الإنسان فائدة عظيمة جدا إذ أنها تغريه بالإقدام والنجاح وبدونها يصبح الإنسان خادما تابعا أكثر من أن يكون زعيما متبوعا .

وتتصل غريزتا المنافسة والمباراة بهذه المجموعة من الغرائز التى منها غريزتا المقاتلة والاستياء اتصالا شديدا وربما كانتا من الغرائز التابعة لها فهما آخذتان فى النمو العظيم والانتشار وهما ترميان إلى نفس الأغراض التى ترمى إليها غريزتا الاستياء والمقاتلة . وعاطفة الغيرة متصلة بعاطفة الاستياء إذ تتضمن عادة شعور صاحبها بضعف أو إقرارا منه بأن شخصا آخر يملك أو يتمتع بشىء تشتهيه النفس سواء أكان هذا الشىء من قبيل الملاطفة التى ينالها طفل ما أو قطعة من الحلوى أو الزوجة الجميلة التى للغير . هى شعور الاستياء لنجاح شخص آخر . وهذه الغريزة وإن كانت فى العادة خلة ممقوتة ويحاول المرء أن يكبح جماحها ما أمكن ذلك ، فانها فى كثير من الأحيان من البواعث على العمل وكثيرا ما تكون هذه الغريزة سببا للظلم والإجرام

غريزة الميل الى الاجتماع

للانسان بالرغم من ميله الى القتال ، وبصرف النظر عما كان لمنازعاته من الأثر فى تقدم الحضارة ، شوق فطرى الى الصحبة والائتلاف . حتى لقد بنى الأستاذ جيدنجس (Giddings) على هذا الميل وحده نظاما لدرس علم الاجتماع غاية فى التركب والتعقد . ولا يقتصر هذا الأمر على أن شخصا واحدا يجذب نحوه شخصا آخر ، بل إن يجذب دائما الى صنف ذلك الشخص عينه . ولقد كان هذا الباعث مهما فى عهود الإنسان الأولى لأنه كان يؤدى الى اتحاد الأفراد طلبا للوقاية وسعيا لتحصيل العيش . وكذلك الأمر فى عاطفة المعاشرة فى المجتمع الحالى فأنها قوية أيضا كما سيبدو فى الفصل التالى وهى أساس كثير من مظاهر الصداقة المشاهدة بيننا . والواقع أن قليلا منا من يحب أن يعيش فريدا مدة طويلة من الزمن لأننا نشتاق الى الصحبة فنود أن يكون معنا شخص نستطيع أن نبثه شعورنا وأفكارنا ورغباتنا . وهذه الحافزة الاجتماعية مرتبطة ارتباطا شديدا بكثير من مظاهر نشاطنا وهى أحد العوامل فى نمو المدن وتكون الجماعات ومنها تتولد عاطفة الولاء للجماعة التى تتولد منها

روح الوطنية . ومن مظاهرها حب الإنسان استحسان الناس إياه أو رضاهم عن تصرفاته .
وكذلك حب الظهور والميل الى اجتذاب الأنظار فانه مظهر لهذه الغريزة أو لهذه الطائفة من
الغرائز . وهى وإن لم تكن أقوى الغرائز الأساسية فهى من أهم العوامل فى حياة المجتمع .

غريزة الحيازة

ومن الميول أو البواعث الفطرية فى الإنسان نزوعه الى تملك الأشياء النافعة له أى الأشياء
التى يرغب فيها . ولعل أول ما ظهرت هذه النزعة كان فى تملك الإنسان زوجا أو ادعائه الحق
على زوج . ثم امتدت بعد ذلك الى الأسلحة والعدد وسائر أشكال الثروة . وهى من الغرائز التى
كان لها دور مهم قامت به فى تاريخ الجنس الإنسانى لأنها سببت الحروب والهجرات والغزوات
ودعت الإنسان الى العمل والى إرغام غيره على العمل له . ولقد أقامت الصناعات بل الواقع
أنها دخلت فى كل ناحية من نواحى الوجود الإنسانى . وتكون هذه الغريزة فى العادة مقترنة
بدوافع أخرى مثل غريزة الطعام ، وهى من حيث كونها عاملا اجتماعيا فى أغلب الأحيان
مرتبطة برغبات أخرى .

غريزة البناء

يريد كل طفل أن يبنى أو يصنع شيئا . فهو يقيم بقطعه الخشبية مبانى وطرقا وبروجا
وجسورا ويصنع من التراب فطائر من الطين ومن الأعواد يستنبط لعبا . والمعروف عن الطفل
الكافرى[1] أنه فى الرابعة من عمره يصنع مصايد للطير معقدة فى تركيبها . وقصارى القول أن صنع
الأشياء من البواعث الإنسانيـة الفطرية . وهذه الغريزة هى أساس كل اختراع فان حاجة
الانسان الى الشيء مصحوبة بالباعث على عمله كانت سببا فى اختراعه لا عن طفرة اليه بطبيعة
الحال بل بالتدرج خطوة بعد أخرى .

غريزة التقليد

لا يكاد الإنسان أن يرى شيئا يعتقد أنه صالح حتى يسرع من فوره إلى تقليده ســواء
أكان هذا الشيء لغة أو سلاحا أو طريقة ظهور أو حيلة اصطياد أو آلة أو تدبيرا حربيا أو أداة
للزينة أو رقصـة أو أغنية أو اعتقادا دينيا أو نظاما حكوميا أو فى الواقع أى عمـل من
الأعمال أو نظاما من النظم . وتبدو هذه الغريزة فى الطفل بمجرد أن يصبح قادرا على الشـعور
بماثلة الأشياء . ونرى هذه الغريزة عاملة فيما يختص بأنواع الزى ولاسيما زى الملبس ، وهى تعمل

---

(١) نسبة الى قبيلة من زنوج إفريقيا الجنوبية الشرقية (المعرب) .

أيضا فى كل منحى من مناحى حياتنا العمومية فى الطهى والأكل والعادات الاجتماعية وصيغ الكلام واختيار الأثاث وفى انتشار السخافات وفى كل النواحى الأخرى من الحياة. وهى من شدة الأثر بحيث إن الأستاذ تارد (Tarde) قد حاول بناء نظرية كاملة لدرس علم الاجتماع على أساسها بطريقة تشبه كثيرا تلك التى حاول بها الأستاذ جيدنجس أن يبنى نظريته على غريزة التعاشر . نعم إن هـذه الغريزة قوية الأثر إلا أنها ليست بحال ما مفتاح كل الحركة الاجتماعية .

غريزة حب السيطرة وغريزة الاستكانة

كلا هاتين الغريزتين ظاهر فى العالم الحيوانى اذ يمشى الذكر صلفا عارضا جمال ريشه أو الزينة التى ازدان بها ، أمام عشرائه . أما الحيوان الأصغر والأضعف فيبدو فيه الباعث العكسى إذ يتزوى محاولا أن يتجنب العيون التى تنظر اليه وبهذا يحط من شأن نفسه باقراره لغيره بالتفوق . والطفل يبدى هذه البواعث بعينها فما أن يتعلم فنا أو حيلة جديدة كأن يمشى أو يقفز من فوق شىء صغير حتى يشتهى أن يعجب الغيرية ، ويسوءه ألا يبدى الناس مثل هـذا الإعجاب . وتبدو فيه هـذه الخلال اذا ترعرع يوم يدعو رفاقه فى اللعب الى مشاهدته وهو يفعل هذا أو ذاك .

والكبر عامل قوى فى الحياة وهو سبب الفخر والعجب وهو الذى يبعث الى حد كبير على ارتداء الملابس الأنيقة والتحلى بأدوات الزينة سواء أكان هذا لبوسا من الحرير أم نسيجا من لحاء الشجر وعقدا من اللؤلؤ أو خزامة من النحاس . وغريزة السيطرة هـذه هى التى تدعو بعض الناس الى التظاهر بالعظمة والتفوق سواء أكان لهذا أساس أم لم يكن. والغريزة المضادة لها هى التى تدعو بعض الناس إلى إظهار الاحترام لمن يعدونه أرقى منهم . ويبدى الطفل مثل هـذه الظاهرة اذ يزور عن الأجنبى عنه حتى ولو لم يستشعر منه خوفا . ونجد فى طى هذه الغريزة أصول خلق الخجل الذى لا يعد من الميول الغريزية بل مما يتكون بالتجارب . وهاتان الغريزتان أطول الغرائز عمرا وهما توجدان فى جميع العهود وجميع المواقف والأحوال فى الحياة وهما وإن كانتا من العوامل الصغرى فأنهما قامتا بدورهما فى ترقية الإنسان .

ومما يتصل بهما اتصالا وثيقا غريزتا النبذ والتقزز اللتان تهيجان لدى رؤية ثعبان مثلا أو أى شىء يعدكريها تعافه النفس . وهما تتعارضان مع غريزة الاجتماع .

ويجب علينا أيضا أن نشير هنا الى غريزتى العجب وحب الاطلاع اللتين تدعوان الإنسان الى محاولة كشف الأشياء وبهذا تقودانه الى اكتساب العلم والعرفان .

اللعب

ليس اللعب غريزة بالمعنى الصحيح ولكن يجب علينا أن نعـده ميلا أصيلا فى النفس يقوم بوظيفة مهمة فى حياة الإنسان الاجتماعية .

وقد حاول الكثيرون أن يفسروا اللعب بنظرية واحدة. ولكن للعب — كما لأغلب أوجه النشاط الاجتماعى — أكثر من أصل واحد وتفسير واحد . قال شلر (Scheller) إن اللعب مظهر لما فضل من نشاط الإنسان . على أنا وإن لاحظنا أن فى هذا تعليلا لا شك فيه وتفسيرا لكثير من أنواع اللعب ولا سيما عند صغار الأطفال — لا نستطيع أن نعطى لهذه النظرية كل ما أعطاه لها هربرت سبنسر من الأهمية . حقيقة إن الإنسان يكون أشد ميلا للعب حين يكون جيد التغذى غير منهوك القوى ولكن هذا الإنسان نفسه قد يلعب حتى تنهك قواه بتاتا كما يحدث فى أشواط لعب كرة القدم أو التنس . ويرى غيره أن الطفل بلعبه إنما يتأثر العهود التى مر بها أسلافه اذ يشتغل بألعاب الصيد ويلعب بالحيوانات وهلم جرا ممثلا بذلك مختلف أطوار الرق . ولكن هذه النظرية غير مقبولة اليوم عند الكثيرين. وأدلى جروس (Gross)[1] بنظرية مؤداها أن اللعب يقوم بمثابة تحضير لعمل الحياة الجدى ؛ فالهرة الصغيرة تحاور الكرة على الأرض فتعد نفسها بذلك لما هو أهم من ذلك ألا وهو صيد الفأرة فى مستقبل حياتها ؛ والطفل فى لعبه إنما يعد نفسه لعمل الحيـاة . فالفتاة تلعب بدماها وعرائسها وتصنع فطائر من الطين وتقلد أعمال أمها ، والصبى إنما يقلد أباه بامتطائه الاشياء و بنائه البيوت وما الى ذلك .

لا ريب أن هـذا تفسير لجانب عظيم من اللعب الذى نراه فى أيام الطفولة الأولى يوم يكون الطفل خاضعا لبواعث تقليد من معه من الكبار ولكنه لا يعلل جميع اللعب . فهو لا يحتوى فى تقديره عناصر المباراة والمنافسة التى لها أثر عظيم فى ألعابنا العصرية مثل الباسبول والتنس وكرة السلة والهوكى وكرة القدم أو ألعاب القوة كالملاكمة والمصارعة والركض والسباحة ، بل ولا الألعاب الهـادئة كالشطرنج والسيجة والورق . إذ الواقع أن أعمال النشاط الإنسانى هى من التعقـد والمغايرة بحيث لا يسهل تفسيرها بأى نظرية مفردة . وفضلا عن هـــذا فأنه لا يمكن رسم خط فاصل حقيقى بين الشغل واللعب ، فان عمل الحياة عند كثير من الناس معدود لديهم من جملة الألعاب ولا تعوزهم فيه روح المباراة والتنافس بل هى قوية لديهم قوتها فى ساحة الألعاب الجبارية .

---

(١) كارل جروس (Karl Groos) فى كتابه : (The Play of Animals and The Play of Man.)

هـذا ، وروح اللعب لدى بعض الشعوب أشـد نموا منه لدى غيرهم فهو على أوسع نطاق بين الشعوب الأوروبية وعلى رأسهم فى ذلك الانجليز وأعقابهم ؟ أما من الشرقيون فأنهم لا يستطيعون أن يفهموا لماذا يجهد الأوربيون أو الأمريكيون أنفسهم فى ساحة التنس أو الكرة أو الباسبول و يتساءلون لماذا لا يستأجرون أجراء للقيام بهذا العمل ؟ على أن من الممكن تنمية روح اللعب إذ أن الصينيين واليابانيين آخذون على عجل فى اقتباس ألعابنا ولا سيما الباسبول والتنس. هذا واللعب يعطى فرصة لتمرين الغرائز والبواعث الأولية ولتنمية الشخصية الفردية . وكانوا فيما مضى ينهون عنه أما اليوم فنكاد نذهب فى شأنه الى طرف النقيض باعطائه حرية واسعة جدا . والواقع أنه يهيئ فرصة عظيمة جدا لتـدريب الطفل ولتنمية تلك الصفات اللازمة للانسان مثل ضبط النفس وعدالة المعاملة ، وكذا ليبنى له من من جسده بنية صالحة للكفاح فى الحياة . أما الطفل الذى لا يستطيع أن يلعب لأنه حرم الرفقاء أو لعدم تيسر الفرصة لتمرين هذا الميل الطبيعى فأنه يعجز عجزا شديدا فى حياته . وروح اللعب من الأهمية بدرجة أنه أدمج فى نظمنا المدرسية لأن قيمته التعليمية تكاد تكون غير محدودة القدر . وهو أحد هذه الميول الطبيعية التى يجب توليها بالتوجيه والإشراف فاذا أحسن استعماله كان من أفضل النعم التى منحها الإنسان .

هـذا و إذا كانت الغريزة موجودة كقوى محركة فى جميع بنى الإنسان على التقريب فانهـا تختلف اختلافا عظيما فى درجاتها ؛ فبعضها يكون فى فرد معين أقوى كثيرا منها فى فرد آخر وهذا هو أحد الأسباب فيما يشاهد فى بعض الأشخاص من القدرة الزائدة وما يلقونه من النجاح بالقياس الى غيرهم . وتختلف الغرائز أيضا باختلاف الجنس فالأنثى إذ وهبها الله بواعث أقوى للعطف وللاجتماع نجدها تهتدى بالغريزة والوجدان أكثر مما يفعل الذكر؛ فى حين أن الذكر عنده بواعث المقاتلة أو الخصام بدرجة أعلى بكثير منها فى الأنثى . وبعض الأحيان ينعت الذكر بانه كاتا بولى (Katabolic) أى ميال إلى إنفاق جهده إذ هو إيجابى فى طبعه وتنعت الأنثى بأنها أنا بوليه(Anabolic) أى ميالة إلى اختزان الجهد إذ هى ذات طبع سلبى محافظ .

على أنه إذا وجب علينا أن نقر أن هذا اختلاف غريزى يجدر بنا أيضا ألا نغفل أن الأحوال الاجتماعية قد وطدت هذا الاختلاف وأن المرأة لم يكن لها نفس ما كان للرجل من فرصة للنمو العقلى والبدنى . فانحطاط المرأة اليوم جسمانيا هو إلى حد كبير نتيجة الأحوال الاجتماعية لأن العرف والعادة قد منعاها من تنمية عضلاتها . ونشاطها قيـده الزنار والمشد والنعال العالية الكعب. وكثيرا ما أتلفت صحتها باهمال قواعد الصحة. و إذا لم يصح القول إن أحد الجنسين أرقى من الآخر عقليا فلا مشاحة فى أن بين الذكر والأنثى اختلافا عقليا و إن لم يبلغ تلك الدرجة البينة المشاهدة فى اختلاف بنيتهما . هذا — وكما لا نستطيع ، كما أبنا فى فصل

سابق — أن نقول إن لجنس من الناس ميزة على جنس آخر فى القوة العقلية ، إذ الاختلاف اختلاف بين الأفراد لا بين الأجناس، كذلك الأمر فى الذكر والأنثى فانهما إذا اختلفا فى الخصائص النفسية فاننا لا نستطيع أن نعزو إلى أحدهما فضل التفوق العقلى على الآخر. وإذا قلنا إن الغرائز كانت لدى الإنسان الأولى أهم منها لدى الإنسان المتحضر (لأن المدنية قادرة على تدريب الإنسان وتربيته فهو لهذا أقل اعتمادا على الدوافع الفطرية) فان أمرها لا يمكن إهماله فى تحليل مجتمع العهد الحاضر ولكنها ليست وحدها معالم استهداء مأمونة الجانب فى ظروف الأحوال العصرية إذ لا بد من إضافة أشياء تكميلية اليها والإشراف عليها بقوة العقل والذكاء . وإذا كانت التربية لا تقتلع الغرائز فلا مشاحة فى أنها تنظمها وتزيد فى نفعها . وقد لخص الوود فوائدها فيما يلى [1] :

" إن البواعث الفطرية هى إذن من الوجهة النفسية أساس حياة الإنسان الاجتماعية. وهى إذ تمثل العنصر الحيوى (البيولوجى) فى علاقات الأفراد تعد بالضرورة المواد الأولية التى تتولد منها الحياة الاجتماعية . وهى التعبير النفسى للقوى البيولوجية فى الانتخاب والوراثة إذ أن هذه تبدو فى الحياة الاجتماعية فى أى لحظة . وهى — أى الغرائز — إذا لم تكن تهيىء إلا مبادئ التنظيم الاجتماعى — حتى بعض العلاقات المجردة البسيطة بين الأفراد — فان تعديلها بفضل الحس والذكاء وتأديتها عملها تبعا لمقتضيات البيئة هو الذى يحدث العادات المكتسبة التى تصدر عنها جميع الاشكال العليا من العلاقات الاجتماعية والتنظيمات الاجتماعية فان جميع الدوافع الغريزية على اختلافها تكون فى كل وقت كامنة تحت كل أعمالنا وسلوكنا سواء فى حالة الفرد أو المجتمع ومستقرة وراءها جميعها . ونظرا لأنها بمثابة القوى المحركة الأولى فلا غرابة فى أن تعدها القوى الحقيقية التى تدفع المجتمع القوى فان الإحساسات والانفعالات — كما سبق أن أشرنا — ليست هى الباعث على هذه الجهود وإنما تصاحبها . لهذا صارت الدوافع النفسية — التى إذا نظر اليها من وجهة بسيكولوجية سميناها غرائز — هى القوى الابتدائية الصادقة للمجتمع الإنسانى والمنابع الأصلية لجميع أشكال الافعال . أما الإرشاد والضبط بواسطة تربية العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وتنظيمها، أى ضبطهم بواسطة العقل فهذا هو المشكلة العلمية النهائية لحياة الإنسان الاجتماعية " .

الوجدان

هو عنصر آخر من عناصر الطبيعة الإنسانية، وقد أهمل بعض علماء الاجتماع شأنه فى حين أن بعضهم بالغ فى تقدير شأنه . وهو متصل اتصالا وثيقا بالغريزة ويكون بمثابة حلقة اتصال بين الغريزة والعقل ويشترك فيه الإنسان والحيوان معا وان كان هذا الاشتراك بدرجات

[1] فى صفحتى ٥ — ٢٤٦ من كتابه (Sociology in its Psychological Aspects.)

مختلفة. ويرى وارد [1] أن الوجدان هو العامل المحرك المجتمع لاعتقاده أنه نتج من الحياة وأن الفعل تكوّن من الوجدان . ويرى أن الوجدان هذا هو القوى المحركة فى الحيوان والإنسان معا ويبنى عليه تفسيرا واسع المدى ويرى أنه هو والرغبة سواء وأنه يشمل جميع الرغبات والإرادات والأمانى . وقصارى القول أنه يبحث فى الوجدان على أنه الرغبة بعينها . وهو تفسير نراه فى جملته واسعا جدا . وتسمى أنواع الوجدان أحيانا بالجانب العاطفى للغرائز والوجدان بهذا المعنى هو ما يعنى به علم الاجتماع بوجه خاص . فالإنسان يكاد يكون مخلوقا وجدانيا فهو عرضة لانفعالات الفرح والحسد والإعجاب والاعتراف بالجميل والتوقير والمقت والاحتقار والتأنيب والغيرة والانتقام والخجل والحياء والإشفاق والسعادة والحزن — ومتأثر بهذه الانفعالات النفسية دائما فى كل عمل من أعماله اليومية .

نعم إن الوجدان ليس هو العامل الأساسى فى الحياة ولا الغاية الرئيسية فيها . ولكنه عنصر يجب تقديره لما له من الأثر فى الأعمال الإنسانية . ويقول الأستاذ الوود [2] :

"الوجدان إذن عامل قوى فى تعيين تلاؤم الأفراد بعضهم لبعض فى المجتمع . والاتجاهات الوجدانية للأفراد بعضهم نحو بعض لا يقتصر أمرها على تفسير علاقة أعمالهم الاعتيادية بل هى تعدل هذه الأعمال دائما . نعم إن الوجدان فى جوهر أمره سلطة محافظة ومسلبية فى المجتمع ، ولكنه بما له من الصفة الذاتية يطبع الأعمال الاجتماعية لكل شخص بطابع خاص . ولهذا كان الوجدان عاملا إيجابيا كما أنه سلبى فى الحياة الاجتماعية . وهو من ناحية الفرد دائم التعديل للفعل سواء بقصد أو بغير قصد . ولذلك يجب أن يحسب للوجدان حسابه فى كل تفسير نظرى للحياة الاجتماعية ، بل وفى جميع الوسائل العملية التى يلجأ اليها التعديل أو ضبط نواحى النشاط الاجتماعى . نعم إن الوجدان ليس قوة أساسية فى المجتمع ولكنه يبدو كقوة ثانوية مهمة .

العقل

حيازة الإنسان قوة العقل هى العامل الفاصل فى تقدّم الإنسان بالقياس الى جيرانه من الحيوان . نجد أن أعضاء العالم الحيوانى مزودة بغرائز ووجدانات وإن اختلفت اختلافا طفيفا عما للانسان منها . والحيوانات مزودة أيضا بحواس أقوى فى أغلبها مما للانسان ويفوقه كثير من الحيوانات فى القوة والسرعة . ولكن اذا ذكر العقل وقف الإنسان فريدا لا شريك له . وبفضل هذه المزية استطاع أن يتغلب على الطبيعة وغير بيئته بدلا من أن يسمح لها بتغييره . والواقع أن العقل هو الذى يقوم بدور القضاء والفصل فى معترك الحياة . ولقد

---

(١) كتاب لستر وارد المسمى Pure Sociology الفصل السادس .

(٢) صفحة ٢٦٩ من كتابه السالف الذكر .

حاول الأستاذ وارد [1] أن يبين لنا كيف نشأ العقل من الوجدان . ولكن موضوع اصل العقل خارج عن مجال علم الاجتماع لأن الإنسان كان ذا عقل قبل أن يتناول علم الاجتماع درس الإنسان وأوضاعه بزمن بعيد . وكان الأولون من بني الإنسان مزودين بقوى عقلية . والعقل هو الذى يهدى ويوجه الوجدان اذ بدونه لا يستطيع هذا أن يرفع الإنسان فوق العالم الحيوانى . وليس مفتاح سلوك الإنسان فى بيئته بل فى جهازه العقلى . فالعقل هو الذى يقدر قيمة الأفعال ثم يعين نوع الإجراءات اللازمة . ويتوقف نوع هـذا العمل على ما يرى العقل أنه الأفيـد والأصلح . نعم إنه يسير بوحى الغرائز وملهماتها ويلبى نداء الوجدان ومشتهياته ولكنه مع ذلك يعدلها . وقد يبطل ذلك الوحى ويعصى ذلك النداء . فالعقل هو الذى تتقدم اليه الغرائز والوجدان طلبا لأوامره . ولكن لمـا كان العقل يصغى عادة إلى الغريزة والوجدان فان أفكاره تتلون بلونها وتتأثر بوحيها .

والاختراع والكشف أمران لا يتيسران إلا بالعقل لأن العقل هو الذى يتبين الحاجة والفرصة ويجمع بينهما ولولاه لبقى الإنسان حيوانا بين الحيوانات إن لم يكن حظه الفناء والهلاك . وما المدنية فى جوهر أمرها إلا تراكم آراء وتكويم اختراعات واستكشافات بعضها فوق بعض وإيراث الأجيال القادمة حكمة الأجيال الغابرة . فان الرأى شىء ثمين غال والآراء الجديدة نادرة الحدوث . ومن أندر الأمور أن يضاف رأى جديد أو اختراع حديث الى المدنية . وعلى الجملة فاننا إنمـا نقلد أو نعيد خبرة المـاضى ونحسن من أمرها ببطء باضافتنا اليها قطعة هنـا وقطعة هناك . وأغلب الأمور التى نتعلمها هى فى الواقع استكشافات حدثت فى المـاضى وكذلك المثل الاجتماعية العليا فانهـا من ثمرات العقل أوهى التقديرات التى يراها العقل لأعمال الجنس الإنسانى أو أفعاله .

تناولنا فى هذا الفصل درس علة الإنسان الاجتماعية وجعلناها نقطة ابتداء لسيرنا ومستفيدنا هذه فائدة أوفى فى تحليل أعمال الإنسان ودولاب المجتمع ، كما أنها ستكون لنا بمثابة توطئة لدرسنا الميول والقوى والأوضاع التى تضبط المجتمع .

---

[1] صفحات ١١٩ — ١٢٤ من كتابه السابق .

الفصل السابع عشر

الميول الاجتماعية

نريد بقولنا الميول الاجتماعية الدوافع التى تبعث الناس على العمل . فنحن نعمل أشياء معينة كأن ننهض من الفراش فى الصباح ونرتدى ثيابنا ونتناول فطورنا ونهرع الى عملنا فى المكتب أو المتجر أو المصنع ونقضى طول اليوم فى العمل إلا ما ننفقه فى تناول غدائنا ونعود الى المنزل فى الليل فنتناول عشاءنا ونقضى السهرة فى البيت نقرأ أو نلعب الورق أو نقتصر من الأمر على الراحة ، أو ربما نذهب الى دور الصور المتحركة أو التمثيل أو الأوبرا تبعا لهوانا واقتدارنا المالى . وقد نذهب فى عصر يوم السبت لرؤية مباراة فى لعب الكرة وقد نركب فى صباح الأحد الى الحديقة العامة أو الى الكنيسة وقد ننام بعد الظهر أو نذهب لمشاهدة مباراة فى لعب الكرة . فلماذا نعمل هذه الأمور ؟ لماذا نذهب الى التمثيل أو حفلات لعب الكرة ؟ لماذا نأكل ثلاث مرات فى اليوم ؟ وننام ثمانى ساعات فى الليل ؟ لماذا نقضى أعواما عديدة فى غرفة الدراسة بالمدرسة وقد يكون فى ذلك أذى لصحتنا ؟ لماذا نخاطر بحياتنا وأبداننا فى الرياضات الخطرة مثل لعبة الصولجان (البولو) وكرة القدم ؟ لماذا ننفق أيام حياتنا نشتغل لشراء بيوت وملابس وطعام وتذاكر تمثيل وأزهار وكتب ومجلات وسيارات أو زوارق ، مع أن فى مقدورنا أن نسير قدما ونعيش بدون أكثر هذه الأشياء قدر ما نعيش بها ؟ لماذا ننفق حياتنا نبنى صناعات ونجمع أموالا ونقيم معاهد قلما تتاح لنا الفرصة نحن أنفسنا للتمتع بها ؟ لماذا نقضى حياتنا فى وضع كتب قليل من يقرؤها أو فى المعامل نجرى تجاريب قل من يهتم بنتائجها أو ندرس فى المدارس نظريات لن تكون لها إلا قيمة عملية ضئيلة؟ إننا نفعل ذلك لأننا نريد ذلك . ولكن لماذا نريده ؟ لأن فى المجتمع ميولا تبعثنا على عملها . وسيعنى هذا الفصل بموضوع هذه الميول .

كثير من هذه الميول أو البواعث كالرغبة فى الطعام تتأتى مباشرة من دوافعنا الغريزية ولكن كثيرا منها مثل الرغبة فى رؤية حفلة مباراة فى لعب الكرة أو فى الذهاب الى الأوبرا خلقها المجتمع خلقا مصطنعا وأن صح أن هذه الميول متولدة من الدوافع الغريزية بطريقة غير مباشرة . على أن للعقل دخلا فى تشكيل هذه الميول فهو يعدّل و يوفق الدوافع الغريزية . ولكن فى الاجتماعيين كثيرين لا يفرقون بين القوى الاجتماعية والميول الاجتماعية ، بل يتناولون الفريقين معا تحت عنوان هذه أو تلك . غير أن القوى الاجتماعية تتضمن المؤثرات مثل

البيئة الجغرافية التى تعين الإنسان أو تعوقه فى سبيل مسعاه كالخلال الوراثية التى تحدد ما يقدر على تحصيله وتعين الى حد كبير بيئته الاجتماعية سليمة كانت أو غير سليمة مثال ذلك المؤثرات الأسرية والضوابط الدينية وحالة المسكن الذى يعيش فيه الإنسان .

والقوى إما أن تكون خارجية أو داخلية ، موضوعية (Objective) أو ذاتية (Subjective) أما الميول فأغلب أمرها ذاتى ، أى أنها فى داخل إدراك الإنسان نفسه . ولقد سبق لنا فى الفصول الماضية أن تكلمنا عن تأثير القوى الطبيعية فى السكان واليوم نتناول الميول التى تحفز الإنسان فى أفعاله الاجتماعية . وفى الفصل التالى سنبحث وسائل ضبط الإنسان بوساطة الأوضاع التى أحدثها . هذه الأوضاع تتولد مباشرة بوساطة الميول ، كما أن الميول متولدة مباشرة عن الغرائز وأنواع الشعور والعقل . نعم إننا نعمل عادة دون أن نتريث لنفكر لماذا نعمل ولكنا سنحاول تحليل أفعالنا وتدرسها .

حاول كثير من علماء الاجتماع أن يبوبوا ويرتبوا القوى أو الميول فى جداول ثابتة إطلاقا . وأصابوا فى ذلك درجات مختلفة من النجاح [1] ومع أن هذه التبويبات جميعها باعثة على التفكير وجديرة بالدرس فانه لا يوجد بينها واحد ترتاح اليه النفس ارتياحا تاما . ولعل أبسطها وأفيدها ، وإن احتمل فى نفس الوقت أن يكون أشدها تعرضا للنقد ، ما وضعه الأستاذ سمول (Small) إذ بوب الميول تحت عنوانات الصحة والثروة والمعاشرة والعرفان والجمال والاستقامة . ولكن هذا التقسيم لا يتضمن بالطبع جميع الميول الموجودة فى المجتمع . أما نحن فسنقسم الميول طوائف لا لأن الترتيب الذى سنورده من شأنه أن يبين درجات

(١) أهم هذه التبويبات ما وضعه وارد (Ward) اذ دعاها على أنها قوى اجتماعية فى كتابه (Pure Sociology) صفحة ٢٦١ وما وضعه راتزنهوفر (Ratzenhofer) اذ عدد ميولا فى كتابه (Sociologische Erkenntnis) صفحات ٥٤ — ٦٦ وما وضعه سمول (Small) فى كتابه (General Sociology) صفحة ٢٥٢ وما ذكره ستكنبرج (Stuckenberg) فى المجلد الأول من كتابه (Sociology) صفحة ٢٠٧ وكما ناقشها سمول على أنها ميول فى صفحات ٤٤٣ — ٤٦٧ من كتابه السالف الذكر فى مجلة (The American Journal of Sociology) صفحات ١٧٧ — ١٩٧ من المجلد السادس وكما ذكرها روس (Ross) اذ اعتبرها قوى اجتماعية فى كتابه (Foundations of Sociology) صفحة ١٦٩ وكما ذكرها بلاكمار وجيلين (Blackmar and Gillin) اذ اعتبراها قوى فى كتابهما (Outlines of Sociology) صفحات ٢٨٧ — ٢٨٨ ويعطى بلاكمار وجيلين كذلك فى الفصل الثانى من الجزء الثالث من الكتاب المذكور تقسيمات أخرى . ولقد أهملناها فى هذا الكتاب بسبب ضيق المجال وبسبب أن الطالب العادى يجد كثرة التقسيمات مضللة أكثر منها مفيدة . ولذلك فانا لن نستعمل شيئا من تلك ولن نحاول تبويب القوى الاجتماعية ، لا لسبب سوى أنه ليس فيها ما يمكن أن يعد تقسيما مرضيا ذلك لأن الميول من التعقد والتوضع بحيث لا تسمح بالفصل أو الترتيب والمعالجة التحكمية هذه ويتناول بارك (Park) وبرجس (Burgess) الميول والقوى تحت عنوان القوى الاجتماعية فى الفصل السابع من كتابهما (An Introduction to the Science of Sociology) وفى آخر الفصل المشار اليه أوردا قائمة مراجع جيدة .

الأهمية أو أنه النموذج الوحيد الممكن لترتيبها بل لمجرد أن لا بد لنا من اتخاذ ترتيب ما نجرى عليه . ولن نحاول أن نجمع كل الميول الاجتماعية أو نبين مختلف العلاقات بينها وإنما قصدنا أن نيسر الطالب على الحصول على فكرة عن الموضوع وتفهمه بقدر الطاقة دون أن نتطرق الى الاصطلاحات اللفظية أو العبارات الفلسفية .

الميول البدنية

بحثنا إذ تناولنا الغريزة دوافع الطعام وغرائز المحافظة على الذات. ونزيد الآن أن الميول البدنية تولدت من هذه الدوافع فان الرغبة فى الطعام والشراب هى إحدى الميول الرئيسية فى الإنسان . وليس هذا مقصورا فى معناه على الطعام الكافى والماء اللازم لإمداد الجسد فلقد تطورت الميول حتى أصبحت الشهية تتطلب الأطعمة الجيدة التتبيل والأعداد ذات المذاق الخاص . بل لقد اتخذت أشكالا مسرفة فهى تتطلب ألوانا غير عادية وغالية كما كان الحال فى الولائم المسرفة أيام الامبراطورية الرومانية القديمة يوم كانوا يتطلبون مخاخ الطواويس وألسنة البلابل ويوم كانوا يغوصون فى أعماق البحار وينقبون فى زوايا الأرض بحثا عن الأطعمة الخاصة والنادرة . ولقد انصرفت هذه الرغبة أيضا إلى نواح شاذة مثل التلهف على المسكرات والعقاقير وغلا الناس غلوا شديدا حتى كانت الأسرة الأمريكية المتوسطه تنفق فى الماضى قرابة ١٠٠ دولار فى السنة على الخمر وحدها. وانتقلت وجهة الحاجة الى الشرب من الماء الى المشروبات ذات المذاق المستطاب كالشاى والقهوة والشكولاته والليمونادة وعصير الليمون ومختلف الأشربة التى تقدمها نوافير الصودا والمشارب. وطلبنا الملبس ناشىء فى أكثر الأمر من حاجاتنا او ميولنا البدنية وإن كان الملبس إنما نشأ فى أول أمره طلبا للزينة ولايزال متخذا لهذه الغاية بقدر عظيم . ولكن الملبس فى المجتمع الحديث أمر جوهرى جدا ولاسيما فى أجوائنا الشمالية الباردة ومثله الرغبة فى المأوى وإن كنا نتطلب فى المنزل العصرى ماهو أكثر من صحية المأوى مجردة فأننا نتطلب جماله وملاءمة موقعه وموافقته لحاجاتنا .

والنفور من الألم وحب الدفء والرغبة فى الراحة الجسمانية والتماس الأمان من الأذى البدنى كل ذلك أمثلة أخرى من الميول البدنية . واشتهاء الرياضة هو إلى حد كبير نتيجة مباشرة للميل إلى الصحة وكذلك التماس المسرة الشهوانية داخل أيضا فى عداد الميول البدنية. وعلى الجملة فان هذه الطائفة تشمل جميع الميول المؤدية الى إجابة كل مطلب بدنى .

الميول الاقتصادية

إن تكن الميول الاقتصادية قليلة الأهمية فى ظروف الإنسان الأولية فربما كانت اليوم أقوى مايدفع الإنسان الى العمل . ويندرج تحت هذا العنوان كل ميل مؤد إلى إنتاج الثروة أو جمعها . وهو متصل اتصالا وثيقا بالميول البدنية وفى بعض الأحيان لا يمكن أن ينفصل عنها لأن الثروة إنما تنتج لكى تسد المطالب الإنسانية التى فيها شطر كبير بدنى . فالانسان يعمل من أجل أجرة يتناولها لأن هذه الأجرة تكفل له الحصول على ما يريد . وهو يجمع الأملاك ليدفع عن نفسه العوز فى المستقبل . ومع ذلك فان أولئك الذين يقيمون الصناعات وينظمونها قلما يفعلون ذلك لمجرد سد حاجاتهم البدنيــة . إذ الواقع أن الصناعة تقوم على أساس غير الحاجة البدنيــة كالمنافسة وحب الظهور وغريزة الاقتدار العملى وما إلى ذلك . ولكن علم الاجتماع لا يعنى بفكرة الرجل الاقتصادى التى رسمها الكتاب الاقتصاديون بل يرى أن الإنسان إنما يسعى للثروة ليكتسب أو لينال سلطة ومكانة أو ليحصل على زوجة أو يبتاع لقبا أو يظفر بثناء رفاقه أو أنه إنما يفعل ذلك طلبا لمـا فى العمل من مسرة من جهة ولسد حاجاته البدنية من جهة أخرى .

فالثروة بالاختصار هى وسيلة إجابة ميول أخرى غير الاقتصادية وعلى أن فكرة الميول الاقتصادية لا يدحض وجودها ارتباطها بالميول الأخرى بحيث لا يمكن فصلها عنها فان الإنسان يعمل لكى يحصل الثروة ويتبادلها ويوزعها ويستهلكها . وهذه الثروة قد تعود عليه بالقوة اللازمة لتحقيق رغباته فى أن يكون ذا سلطة فى المجتمع أو قوة على المنافسين أو فى الحصول على ما يريد من الكتب أو الكنوز الفنية أو السياحة أو الموسيقى أو الملذات الحسية . نعم إنه قد لا ينال هذه الأشياء ، ولكن الثروة فى نظره تمثلها كلها . من أجل الثروة يشق الناس ويأبون على أنفسهم إجابة ميول أخرى . وهم ينظمون حياتهم لهــذا الغرض وللاستعداد لمـا تتطلبه عملية تحصيل الثروة . وقد يفعلون ذلك من أجل أنفسهم وقد يضطرون بقوة نظام المجتمع وترتيبه الى أن يفعلوا ذلك لمصلحة شخص آخر . على أن الميول الاقتصادية لم تكن لدى الإنسان الأولى قوية كما هى اليوم إذ كانت الميول الأخرى المباشرة له أكثر من سواها ولا سيما البدنية منها ، متقدمة عليها . أما الآن وقد صار سد الحاجات أمرا غير مباشر بدرجة أكبر ، وأصبح هنالك كثير من التأجيل والتسويف فى استهلاك السلع بسبب زيادة عدد الأطوار التى يقتضيها إنتاج الثروة وتوزيعها ، فان ميل الثروة قــد أصبح أقوى من سواه حتى لقد أصبح اليوم فى نظام الرأسمالية الحاضر أقوى ميل فى المجتمع .

ميل المعاشرة الاجتماعية

بقيت غريزة المعاشرة الاجتماعيـة فى الإنسان على مدى التـاريخ وتخللت كل فرع من فروع المجتمع الإنسانى فان الإنسان لايستطيع أن يعيش عيشة روبنصن كروزو* (Robinson Crusoe) بل لا بد له من المرافقة . وهو يحرم نفسه تحقيق مطالب ميول أخرى للحصـول على ذلك فيقبل بسبب ذلك أجرا أقل ويحتمل الحرمان بل ويقاسى المشاق . ولذلك كان الحبس الانفرادى من أسوأ أنواع العقوبات بل إن البعـد المؤقت عن الأصحاب والأقارب معدود من المشاق .

والإنسان لا يتوق الى المرافقة مجردة ، بل إنه يتطلب المرافقة الودية أيضا أى معاشرة من هم على شاكلته . نعم هناك استثناءات كثيرة لهـذه القاعدة ولكن النزعة العامة هى أن كل عضو من أعضاء المجتمـع ينصرف الى التمـاس غيره ممن هم على شاكلته خلقا ومزاجا وكفاية وتربية والى الاختلاط بهم . وقد لا يتيسر هذا فى كل وقت ولكن هذه هى رغبة كل شخـص ومسعاه . كلنا نبتغى الاختلاط بالغير ممن هم من صنفنا . ونرى هـذا المبدأ ممثلا فى اقتصار أعضاء الطبقة العليا على من كان من قبيلهم ، وعملهم على رفض من يرون أنهم غير أكفاء للانضمام الى طائفتهم . ونرى تفشى هـذه العاطفة فى أخوية طلبة المدارس والنوادى والنظم الأخوية بل نراه وا أسفا فى بعض الكنائس . واذا لا حظنا أى مجتمع كبير مباح فيه حرية الاختلاط فسرعان مانشاهد أن الذين تجمعهم رغبات ميول واحدة قد تسللوا وتنقلوا حتى تجمعوا فى ناحيـة واحدة . نعم قـد تكون هذه الحركة غير مدركة منهم ولكنهـا حتمية . وهذا الميل من القوة فى المجتمع بحيث نراها فى أساس كل ناحية من نواحى النشاط الاجتماعى والسياسى والدينى .

ولقد كان هـذا الميل عاملا قويا فى التاريخ اذ كان أولو النفوس المتشابهة يتحدون لإنشاء مستعمرات كما هو حال بليمث (Plymouth) وبنسلفانيـا وماريلاند . ويقيمون مجتمعات أنموذجية مثل مزرعة بروك (Brook Farm) وأركاديا (Arcadia) وجماعة أونيدا (Oneida Community) وجماعات شيكر (Shaker Communities) المختلفة . ونجد مجاميع أفراد متحدى النزعة النفسية مشتغلين بالقرصنة ، وفى حملات حربيـة للغزو أو الاستكشاف وإحداث الانقلابات وإنشاء الحكومات وإنشاء أديان وعاملين فى الواقع فى جميـع مناحى أعمال الحياة على اختلافها . ولو نزعنا هذه العاطفة ، عاطفة المرافقة من المجتمع الإنسـانى

(*) قصة مختلقة عن رجل تكسرت به سفينة كان فيهـا فى رفقة ماتوا كلهم غرقا وقذفت به الأمواج حيا الى جزيرة عاش فيها فريدا أبدا طويلا على خيرات الطبيعة مباشرة كما كان يعيش الإنسان الأول . ثم تدركه أن جاءت سفينة الى الجزيرة عرضا فنقلته الى بلاده — (المعرب) .

لفقدت الحياة كثيرا من بهجتها . فالإنسان يريد عطف إخوانه ويريد أن يسد مطالب زهوه وصلفه. ولابد لإجابة داعى حبه للسلطان والمجد من أن يكون له رفقاء ليشاهدوا أعماله. ثم إن الاجتماع بالغير ليس هو العامل الوحيد فى المجتمع ولا هو أهم ميل فيه ولكنه من أشدها خطرا ولابد من الحرص فى تقديره عند درس أى مشروع اجتماعى أو عمل طائفى .

الميول الرياضية

الميول الرياضية متصلة أشد اتصالا بالميول الاجتماعية فان دافع اللعب يتطلب إرضاء والحاجة الى النشاط العضلى والى الراحة من عناء العمل والى التعبير عن العواطف جميعها تجد فرجة لها فى الميول الرياضية. وليس الحدث وحده هو الذى يشتاق الرياضة، بل وكذلك البالغ. والرياضة فى أمريكا تتمثل فى العادة فى صورة ألعاب فرق يحتاج أمرها الى اشتراك أشخاص عدة فيها ولا يحد عدد شاهديها إلا بالقدر الذى تسمح به معدات الجلوس . فان مباريات كرة القدم العظيمة تجتذب عندنا ألوفا عدة لرؤيتها بل الواقع أنه ليس فى المقدور بناء مقاعد ومدرجات من السعة بحيث تفى بالحاجة . وفى حفلات الألعاب المهمة تكون ساحة كرة الباسبول مزدحمة بالناس وكثيرا ما يقف الناس طول الليل مصطفين بعضهم وراء بعض ليضمنوا لأنفسهم الحصول على مقاعد صالحة. وكثيرا ما تباع مقاعد دور التمثيل وتنفد قبل الأوان بأسابيع . هذا، وقد نشأت صناعة الصور المتحركة وانتشرت بسرعة عجيبة ولم يكن نشوءها من هذا إلا صدى لما يتطلبه الناس من الملاهى الرخيصة. وتهيء الألعاب للناس فرصة المصاحبة كما تهيء فرصا للسكون وللاستر واح. وتختلف مذاهب الرياضة بين الناس باختلاف أجناسهم فالانكليز والأمريكان يستريضون عادة بألعاب تتطلب الحركة . والشرق يستريض بالسكون والتفكير. ومن الصعب أن تقيم حدا فاصلا بين الميول الرياضية والميول الفنية. فالرقص والغناء وكثير من الألعاب تقع على الحدود الفاصلة بينهما . كما أن الرياضة متصلة اتصالا حيويا بميول أخرى اذ أن الدافع الاقتصادى يعمل فى كثير من ألعابنا ويتسلط على بعضها فعلا كما هو الحال فى ألعاب الباسبول المنظمة والألعاب الاحترافية إجمالا لأن الاشتغال باللعب هو لدى فريق من الناس حرفة . ومن هذا الفريق الملاكم والمصارع ولاعب الباسبول المحترفون كما أن تعليم الألعاب حرفة تدر على أصحابها مبالغ كبيرة .

وفى الناس كثيرون يمزجون المسرة بالعمل وبعضهم يجدون لذة بالغة فى عملهم . فالزنجى مثلا لا يتيسر أن يكون عاملا مجيدا حتى تتلبسه العاطفة المناسبة للعمل حقا ، ولذلك فان أصحاب الأعمال الموفقين الذين يستخدمون الزنوج لا يفوتهم أن يستخدموا بعض عمال منهم يكونون مهرة فى الغناء للغناء. وبهذه الطريقة تنجز أعمالهم بسرعة أوفى. واذا قدر الإنسان

أن يتعشق عمله ويتخذ منه رياضة فلا يقتصر أمره على زيادة التذاذه به، بل العادة أن يكون فيه أكثر نجاحا مما لو أنه اعتبره فرضا يحتم أداؤه . واذا هو استطاع أن يقرن العمل بالقدر المناسب من الرياضة استطاع أن ينجز عملا من درجة أرقى بكثير مما يعمله اذا هو لم ينل شيئا من الرياضة بتاتا . والميل الى اللعب ، على الاستهانة بشأنه فى بعض الأحيان وإطلاق قدر كبير له من الحرية أحيانا أخرى ، هو ميل سليم . واذا ضبط بما يجب له من الضوابط أصبح من أكبر مرضيات النفس الإنسانية . والألعاب ، ولا سيما ما كان منها يتطلب شجاعة وإقداما، تعلم الشجاعة وتنمى روح العدالة كما أنها تقوى الباصرة والذاكرة وتمرن العضل على الدقة والسرعة فى الحركة وتهيء الإنسان لأن يكون صالحا فى المجتمع فضلا عن إجابتها داعى الشوق الى التسلى. وهذا الميل طبيعى كريم الجوهر تماما والواجب أن يستحث وينظم .

الميول الدينية

فى الفصل السابق الذى عقدناه للدين والأخلاق درسنا رقى الدين وتتبعنا مختلف خطوات نموه . وسنتناول الدين مرة أخرى فى الفصل التالى من ناحية أنه عنصر ضبط اجتماعى؛ ولذلك فكل ما يقال هنا مقصور على كون الدين ميلا اجتماعيا أن ميولنا الدينية تدخل فى كل ناحية من نواحى حياتنا فتعطى باعثا للعمل أو تكون رادعا عن عمل آخر، وبخاصة الثانية . ولكل امرئ طبيعة دينية من نوع ما تؤثر فيه حتى ولو حاول أن يكبحها أو يقتلها . نعم إن هذا الميل يعد إلى حدما فطريا ولكنه نتيجة التربية بقدر كبير، وكلما ارتقى التصور الدينى فى الإنسان تغير هذا الميل فيه بما يطابق هذا الرقى .

والميول الدينية مرتبطة أشد الارتباط بالميول الخلقية والإيثارية ، وهى تعطى الإنسان بواعث أنقى وأطهر من البواعث الاقتصادية والجسمانية . ومع أن الإنسان أنانى بطبيعته فانه لايخلو من مبادئ الاستقامة والعدالة والرغبة فى مساواة غيره بنفسه . نعم قد لا يكون شغوفا بأن يعطى غيره من مزايا المساواة مايجب أن يعطيه هذا الغير له ويكون أشد ميلا إلى إجبار الغير على اتباع هذه القاعدة منه إلى أن يجبره الغير على العمل بها ، بيد أن هذا لم يحل دون وجود نزعة الإيثار التى أخذت تنمو فى الإنسان نموا مطردا بتقدم المدنية . وقد أخذت الدنيا تلقى عن عنقها أغلال الاستبداد شيئا فشيئا ففكت رقاب الرقيق ورفعت من منزلة الفلاحين المستعبدين وقضت على ما كان للولاة من الحكم المطلق أو قصرت من مدى سلطانهم ووسعت حق الحكم الذاتى حتى شمل شعبا بعد شعب وأباحت للمرأة قدرا أعظم من الحرية وغيرت صيغة القانون فصار خلاصة الرأى الناضج للكثيرين بعد أن كان الارادة الإستبدادية لفرد أو لأفراد قليلين واستبدلت بالأحكام القاسية الظالمة أشكالا هى أدنى إلى العدل والإنصاف فى معاقبة المجرمين .

ولقد زاد نقاء الدين وسموه بارتقاء العواطف الخلقية الإيثارية ، وعاطفة الإيثار هذه ليست خصيصة فطرية وإنما هي وليدة العطف. ففي العالم الآن عاطفة متزايدة النمو نحو العناية بالغير. فيما مضى كنا ننظر بلا اكتراث إلى آلام الغير يوم لا يكون بيننا وبينهم قرابة أو رباط مودة . أما اليوم فإنا لا نفرق بين الناس. ولقد كان في الحرب العظمى مثل كثيرة لهذا الأمر . فالأمم المحايدة لم تقتصر على إرسالها مقادير كبيرة من المال النفقة على اليتامى والمشوهين والمعوزين من الأمم المحاربة بل هيأت المستشفيات والممرضات والأطباء وذلك في كثير من الأحيان بتضحيات كبيرة لكي تخفف من آلام من أصابتهم الشدة . ثم امتد هـذا العمل بعد ذلك وتناول تخفيف الآلام حتى في بلاد الأعداء . وكذلك إذا نزلت بالهند مجاعة بسبب خيبة المحصول ، أو خرب زلزال أو ثوران بركان وسائل العيش في إحدى الجزر النائية تدفق الطعام إليها من جميع أصقاع العالم. بمثل ذلك تخفف البأساء في الصين حتى ولو أنهم يسمون الذين يقدمون المعونة إليهم " بالشياطين الأجانب " ويكون هؤلاء في خطر من فقد أرواحهم في سبيل مروءتهم . ولقد حاول الأمريكيون مرة بعد أخرى أن يعملوا على تخفيف آلام الشعب المكسيكي في غضون السنوات العشر الأخيرة برغم أن عصابات من المكسيكيين كانت تعمد من آن لآخر إلى إتلاف أملاك الأمريكيين بل وإلى قتل من يقع في يدهم من الأمريكيين . وقد تحملت الحكومة الأمريكية الإهـانة تلو الإهانة ومع ذلك بذلت ما استطاعت للتغلب على حالة الفوضى في المكسيك ولإعطاء الشعب شكلا مستقرا من الحكومة .

هذه العاطفة الإيثارية قد تبدو في سياسات الحكومات الأخرى ونراها ممثلة بوجه خاص في سياسة انجلترا حيال بعض ممتلكاتها ، وفي بلاد جنوبي إفريقيا أحسن مثال . فإن الانجليز أعطوا البوير بعد غزو تلك البلاد حكومة أرقى واستقلالا أصدق وحرية أتم مما كان لهم من قبل، بل سمحوا لهم أن يختاروا القائد الأعلى للجيش البويري رئيسا للجمهورية الجديدة التي شملت يومئذ جميع افريقيا الجنوبية الانجليزية . على أن البوير قد أبدوا من جانبهم استعدادا لتقدير قيمة هذه المعاملة وبقوا على ولاء لانجلترا أيام شدتها في غضون الحرب العالمية فأثبتوا الفائدة العملية لهذه السياسة .

ولقد كنا فيما مضى لا نكترث لشقاء الطبقات الدنيا، أما اليوم فإننا لا نكتفي بالعمل على إزالة شقائها بل نعمل كذلك على منعه. ولا نكتفي بوقاية أنفسنا من العدوى بل نتناول المسألة بالمناهضة ونخفف بأساء الغير وبدلا من الاكتفاء بتجنب الأمراض نسعى إلى إيجاد الأدوية الشافية منها. وكثيرا ما يخاطر العلماء بحياتهم، بل وكثيرا ما يفقدونها في سبيل استنباط الأدوية الشافية من ويلات كالحمى الصفراء والبرص والطاعون والسل والحمى الرقطاء والكزاز . ويبذل المصلحون قصارى جهدهم في سبيل العمل لإزالة السيئات التي من قبيل تجارة الخمور وتعاطي

الأفيون والرشوة فى السياسة وتشغيل الأطفال، مع أن هذه السيئات لا تمسهم شخصيا بأذى .
وأولو الدخل الميسر يجاهدون فى سبيل أن تشرع الحكومة قانونا يعين الحد الأدنى للأجور؛ والذين يشتغلون ساعات قليلة يجاهدون لتقرير ثمانى ساعات للعمل فى اليوم؛ والذين لم يدخلوا السجون يعملون على إصلاح نظمها؛ والذين يعيشون فى بيوت صالحة يطالبون بتشريع قانونى المبانى وإصلاح المساكن والذين لا يشتغلون فى المصانع يعملون على حماية العمال من أخطار الآلات ووقايتهم من سوء الأحوال الصحية . ويذهب المرسلون الدينيون إلى البلاد الأجنبية يعملون بأجور ضئيلة فى حين أنهم يستطيعون أن يحصلوا على أضعاف هذه الأجور فى أوطانهم . ويكرس غيرهم حياته للعمل على ترقية الطبقات الدنيا وإزالة البأساء فى الوطن .
كل هذه الأمثلة ترينا ازدياد البواعث الإيثارية وأهمية هذه الميول فى المجتمع . على أنه يحق لنا أن نتوقع أن تصبح طائفة هذه الميول أقوى فأقوى كلما تقدمت المدنية فى سيرها .

الميول السياسية

الميول السياسية هى كالميول الاقتصادية من حيث إنها فى الغالب وليدة غيرها من الميول. كان الحكم فيما مضى لصاحب القوة وكان النظام السياسى الأول وسيلة لبسط سلطة عدد قليل . أما بعد ذلك فقد صار هذا النظام وسيلة لأن تبلغ العدالة إلى العدد الكثير . ولكن كثيرا ما يحدث حتى فى يومنا هذا أن تنقلب الحكومة فتكون وسيلة لتحقيق الرغبات الذاتية لأفراد مفضلين على سواهم . ومن هذا ما يدعيه البعض من أن دستور الولايات المتحدة إنما وضعه فريق الرأسماليين وأن هؤلاء قد صاغوه — عمدا أو غير عمد — لحماية مصالحهم .
ومن أهم أغراض الحكومة حماية أفراد الدولة وهى إلى هذا الحد وليدة غرائز الوقاية والدفاع عن النفس . وهى وسيلة لبسط العدالة وتنفيذ أحكامها ووسيلة المحافظة على المصالح الاقتصادية وحمايتها . فالدولة تحمى الأملاك وتنظم تبادلها والقيام عليها بل الغالب فى الميول السياسية أن يكون داعيها الأقوى مظاهرة الميول الاقتصادية . والدولة كذلك وسيلة لحماية الفرد من العسف ومن الأحوال غير الصحية فهى بهذا تقوم بتعضيد الميول الجسمانية .
وهى وسيلة توسيع مدى الميول الإيثارية أى الإنسانية بالعناية بالفقراء والمرضى وذوى العاهات وطبقات العاجزين . ومع ذلك فان الميول السياسية كالاقتصادية ذات مجال خاص بها إذ أن السياسة مفصولة عن حياة الأسرة وعن الأعمال الدينية والتجارة والصناعة . إن السياسة حرفة تحترف وهى كذلك شغل لكثيرين ممن لا يتخذونها وسيلة لكسب العيش .
وفى كل دولة حسنة التنظيم حيث يوجد حق انتخاب عام أو جزئى تنشأ أحزاب سياسية كل منها يقوم لتحقيق أغراض معينة إطلاقا مثل سياسات التجارة الدولية وتنظيم الصناعات أو الأوضاع . هذه الأحزاب لها نهضة ونمو وزوال ثم يحل غيرها محلها . وفى بلاد

كالولايات المتحدة تجد الفروق بين الأحزاب بينة والأحزاب من دقة التنظيم بحيث إن كل فرد فيها مفروض أنه ينتمى إلى حزب، بل هذا هو الواقع عادة. وفى كثير من الجهات ترى هذا الانتماء من الشدة والمتانة بحيث تجد الفرد يناصر حزبه بصرف النظر عن خطأ حزبه أو صوابه وعن أهمية الأمر الذى يدور حوله الجدل . ومثل هذه الأحوال مما يؤسف له . والواقع أنها آخذة فى التفكك على مهل إذ أخذ الناس ينظرون إلى النظم السياسية على اعتبارها وسيلة لغاية لا على أنها غاية فى ذاتها . ومع ذلك فان الميل السياسى ولا سيما فى البلد المحكوم بالأصوات الانتخابية أمر داخل فى الحياة اليومية لكل السكان تقريبا ولذلك لا يمكن إهماله .

الميول الفنية (Aesthetic Interests)

إذا نظرنا فى تاريخ الانسان الى أبعد ما نستطيع نجد الميول الفنية عاملة فيه بصورة ما : أولا فى تزيين الجسم ثم فى زخرفة الآلات والأسلحة والأكواخ والأدوات . وقد استقصى الأستاذ وارد (Word) نمو هذه الميول وتطورها فأسندها الى ما رأى الإنسان فى الحيوان من زخرف بجمال ريش الطيور أو الزخرف الطبيعى الذى تمتاز به حيوانات أخرى مثل معرفة الأسد وخطوط النمر . والانسان اتخذ الملابس لهذا الغرض ثم أدخل رغبة التزين فى كل ناحية من نواحى حياته على اختلافها . والميول الفنية قريبة قرابة شديدة من الميول الرياضية اذ كلاهما تدخل فى كثير من الأعمال مثل الرقص أو التمثيل . وهى كذلك مرتبطة بالدين اذ استعملها عونا على الرقى الدينى كما يرى فى جمال الهياكل والكاتدرائيات وملابس رجال الكهنوت وحفلات العبادة . وقد استفاد الدين من الموسيقى فى كل زمان (حتى فى أوقات الرقص) كما استفاد من فنون المعمار والتصوير والنقش . والدين من ناحية أخرى أعطى الفن أقوى ملهماته . فان أرق القصائد الشعرية وأحسن النقوش والمنحوتات هى نتيجة الموحيات الدينية . وأبدع التماثيل التى عملها الإغريق لتمثيل آلهتهم . وأجمل الصور ما نتج من عمل الفنانين اذ أرادوا أن يصوروا المناظر الدينية مثل صور العذراء والعشاء الأخير والمسيح أمام فيلاطس . وأجمل قطع المعمار هى الكاتدرائيات والهياكل مثل هيكل سليمان "وتاج محل" وكاتدرائيات أوروبا . على أن اتحاد الفن والدين معا فى العمل لم يحدث إلا فى بعض الأزمنة وقيد الدين الفن وهيمن عليه فى أزمنة أخرى . ولما تقدم حال المجتمع انقسمت الميول الفنية أقساما ممثلة فى الموسيقى وفى التصوير والنحت والمعمار . على أن هذه الميول الفنية تتخذ أشكالا شتى تختلف باختلاف الأجناس فالأشياء التى تبدو جميلة فى عين أحد الأجناس قد لا يستطيبها ذوق غيرها . وآراء الناس فى الجمال البدنى ليست واحدة فى الشعوب المختلفة فالهوتنتوت مثلا يرون البدانة من خصائص الجمال وينتخبون أجمل نسائهم من بين أملأ فتيات القبيلة جسما . ويرى غيرهم

الهيف ورشاقة القوام أخص صفات الجمال . هذا وطفل "الكافر"[1] يرى أن الشىء إنما يكون جميلا اذا كان صالحا للأكل . وكذلك نحن فالغالبية منا تطلب من الملابس جمالا حتى قبل أن تطلب منها الدفء وإن كانت آراؤنا فى هذا الجمال تحير العقل أحيانا وتتغير بين عام وآخر بل نحن نطلب حتى أن يقدم الطعام الينا بطريقة تسر العين ونحب أن يكون اثاثنا جميلا ونافعا معا .

وكلما ازداد وقت الفراغ وأصبح لدى الإنسان فرص أكثر لسد مطالبه ازدادت الميول الفنية فى المجتمع وضوحا . ولذلك يحق لنا أن نرتقب اطراد الزيادة فى أهمية شأن هذه الفنون .

الميول العقلية

وهنالك طائفة أخرى من الميول نماها المجتمع فى نفسه تنمية مصطنعة وهى الممثلة فى المعرفة والثقافة والتهذب . وميل المعرفة هو النتيجة المباشرة للنشاط الذهنى . فان الإنسان لما بدأ حياته واجهته حقائق من الطبيعة لم يستطع تعليلها وترتب على ذلك خوفه منها ولكن لما هدأ روعه أخذ يتأمل و يفكر فى علل الأشياء وأسبابها . ومن ثم أخذ يبحث و يستكشف الأسباب ووجد فى ذلك لذة مثيلة بما يستشعره الطفل عند ما يستكشف أشياء . وتأتى هذا السرور من إرضاء شعور العجب فى نفسه . وقد دخل هذا الميل فى الدين والسحر وكذلك فى الحياة الاقتصادية وكان الإنسان كلما وجد شيئا نقله من فوره الى الغير .

ولقد كانت هذه العملية فى أول الأمر بطيئة وصعبة وغير موثوق بها ولكن لما استنبطت الحروف الأبجدية ثم اخترعت الطباعة صارت هذه العملية أيسر شأنا . ثم كانت المنفعة هى الحرض على الكشف عن الأشياء ولكن الكشف نفسه كان فى ذاته مستحبا وكان يعطى النفس ارتياحا هو مصدره الوحيد . والواقع أن حل الأحاجى والمسائل المعقدة كان فى كل وقت من العمليات المستحبة وهو أهم عنصر فى كثير من ألعابنا كالشطرنج والضامة والسوليتير (Solitaire) فنحن نحب أن نفهم الأشياء لمجرد أن نكون قادرين على فعلها وتدخل روح التنافس فى الموضوع أيضا فنشعر بالخجل عند ما نجهل أشياء يعرفها سوانا وفى الناس كثيرون يقرءون الكتب لمجرد أن يقال إنهم قرأوها أو خشية أن يعدّوا جهلاء إذاهم لم يقرءوها . وهناك جانب كبير من تعليمنا لا نأخذ منه إلا فائدة عملية ضئيلة وكثيرا ما نطالع وندرس لمجرد أن نعرف الأشياء مع علمنا بأننا قد لا نستفيد من ذلك فائدة عملية . وكثيرا ما نتعلم الفنون كالعزف على البيانو أو لعب الكمان أو كالغناء لا لغرض سوى أن نكون قادرين على ذلك لاعتبارنا أن من علائم التهذب معرفة هذه الفنون .

[1] قبيلة زنجية فى أفريقيا الجنوبية "المعرب".

والمعرفة هي التي أعطت الانسان النصر والغلبة على الطبيعة، إذ لولا هذا الحاصل العقلي لبقي الإنسان على حاله لا يفضل الحيوان إلا قليلا . فالمعرفة ضرورية للكفاح في الحياة والمعرفة في مجتمعنا الحاضر من الضروريات الحتمية للحياة نفسها . والمعرفة وسيلة لمحافظة الإنسان على مستوى حياته ومقامه في المجتمع . ولقد نظمنا هذا الميل في معاهدنا التعليمية بفروعها وأقسامها العديدة فازدادت علاقتها بحياة كل فرد. ومع ذلك فان الميول العقلية لاتنقطع عن هذا الحد بل هي تبتدئ عنده. إذ أننا في مدارسنا إنما نطلق الفرد في طريق المعرفة. والميول العقلية تظل باقية مدى الحياة كلها وليس هناك حد يقف عنده ازدياد هذا الميل ولعله هو الميل الذي كان له أكبر قسط في النمو في حياة المجتمع والذي ينتظر أن يكون له أوسع مدى من الرقي في المستقبل. على أن هذه الميول ليست بحال ما كل طوائف الميول المختلفة التي يمكن ذكرها ولا كل فروع الميول التي يتناولها البحث ، إذ الواقع أن الإنسان مكون من مجموعات من الميول يستدعي كل منها العناية . ولا نعني بالميول القوى العظيمة العاملة في المجتمع بل البواعث أو المحرضات التي تحفز الإنسان الى فعل الأشياء . وهذه الميول أساس أوضاعنا الاجتماعية فالميل الديني هو المتجسد في نظمنا الدينية والميل السياسي أساس القانون والحكومة والميل الاقتصادي أساس الصناعة والتجارة وميولنا العقلية هي الموجدة لمعاهدنا التعليمية والميول الأخرى هي الدوافع الى إنهاض الأوضاع الأخرى . وسنرى في الفصل التالي كيف أن هذه الأوضاع تضبط بدورها حياة الإنسان .

ميول الجماعات

المجتمع الإنساني مجموع جماعات ، وكل فرد في المجتمع عضو من جماعات عدة فهو عضو في أسرة من الأسر أي في الجماعة التي تعد الوحدة الأساسية في المجتمع، وهو في الوقت نفسه عضو في كثير سواها من الجماعات فقد يكون عضوا في كنيسة أو مدرسة من مدارس يوم الأحد أو فرقة باسبول أو شركة تجارية أو حزب سياسي أو محفل ماسوني أو ناد أو مجلس ادارة أو جمعية شوتوكا (Chotouqua)[*] أو غير ذلك .

ولا تقتصر هذه العضوية على الجماعات الثابتة إطلاقا مثل الجماعات التي سبق ذكرها بل إن الإنسان لا يفتأ يلتحق بجماعات حائلة وينفصل منها فهو وحدة مثلا في جمهور محتشد في إحدى زوايا الطريق أو أحد الركاب في عربة سيارة أو مصعد أو واحد من جمهور مشاهدي التمثيل أو من الجمهور المحتشد حول ملعب الكرة أو في اجتماع سياسي وإن لم يكن في الحالة الأخيرة عضوا من الحزب الذي يقيم الاجتماع وقد يكون تابعا لعدة جماعات في وقت واحد ويتأثر في كل وقت الى حد ما بالمجموع الذي هو عضو فيه حتى ولو كان جماعة راكبين

---

[*] جماعة ذات مبدأ خاص في التربية تنسب الى احدى جهات أمريكا الشمالية هي جهة بحيرة شوتوكا .

فى المصعد السريع . وهو فى نفس الوقت يؤثر فى غيره من أعضـاء الجماعة حتى ولو لم يتكلم معهم أصالة . وقد تتألف الجماعة وتتظم من عمد وقصد وقد يكون تألفها عرضا و بغير عمد . وكل جماعة تتكوّن لغرض معين ولا سيمـا الجماعات التى تقوم عن قصـد وأدارك كالحزب السياسى أو المذهب الدينى ، ولكن للجماعات الأخرى حتى الجمهور الرا كب فى عربة سيارة غرضا مشتركا فهم راغبون فى أن يركبوا نفس العربة فى وقت واحد. وقصارى القول أن هذه الجماعات هى نتائج للميول الاجتماعية سواء أ كانت هـذه الميول دائمة أم متغيرة . وكل ميل يدعو فى وقته الى تأليف جماعة . والجماعة أقوى من الفرد لأن الفرد على اشترا كه فى تكوين الجماعة محكوم بها فاذا كان عضوا فى مذهب دينى فأنه يكون مضطرا الى اتباع مراسم هـذه الهيئة وإن لم يكن يشترك فى وضع تلك المراسم . والجماعة لا تفتر عن الإهابة بالفرد ليستقيم فى صفوفها . وقد يكون قانون السلوك الذى تتطلب الجماعة اتباعه أرق من قانون الفرد وقد لا يكون كذلك . ومع أن الفرد قد يحاول وهو فى الجماعة أن يخفى عيوب نفســه ولا يبدى الا أحسن صفاته فان هناك جماعات أخرى يصدق فيها العكس كما يرى الإنسان فى الجماعات التى تعدم الزنجى لإهانته أحدا من البيض . والجمهور قد تضبطه العواطف العلية أو تهيمن عليه العواطف السافلة تبعا للظروف . وفى الأفراد من يرتفعون دائمـا فوق الجماعة وفيهم من يكونون دائما تحت مستوى الجماعة ولكن الجماعة مع ذلك تعمل دائما على جعل أعضائهاسواسية والعادة فى دساتير الجماعات أن توضع بمراعاة العضو المتوسط ولذا فانك تجد دائمـا من يتأذون منها . فطلبة الفرق النهائية (Senior) فى كلية مثلا يعترضون أحيانا على ما يوضع من قوانين وقيود يراها المبتدئ (Freshman) هينة جدا . ذلك لأن هذه القواعد لم توضع لطلبة الفرق العليا بل وضعت لطالب الكلية المتوسط الذى هو ، نظريا ، فى منتصف الطريق بين طلبة الفرقتين الثانية والثالثة (Sophomore & Junior) . أما المنتهون فيكونون قد سمّوها ، ور بمـا يكونون قد تجاوزوا السن التى وضعت لها . وكذلك الحال فى سائر الحاجات تقريبا ، فاذا أصبح شخص أرق من جماعة (وهى حالة كثيرة الحدوث) فالواجب أن يتركها لأنه إما أن يهمل واجباته لأنه يحتقر مركزه أو يوقظ عاطفة الغيرة أو الحسد فى صدر أقرانه ور بمـا اثار الإثنين، ومن نتائج هذا فى كثير من الأحيان أن يكون شغل الانسان مركزا أقل منه أصعب من شغله مركزا أ كبر منه ، لأن أقرانه فى الحالة الأخيرة لا يحسدونه أو يخشونه ، بل يميلون الى تهوين مشاقه .

ويحصر التقدم الاجتماعى فى رفع المستويات أى رفع مستويات الجماعات . وهذا يجب أن يكون نتيجة عمل كل فرد فى داخل الجماعة. والمصلح فى العادة مكروه ومرذول، بل أحيانا قد يضطهد أو يقتل . ولذلك كثيرا ما تحصر مشكلة الحياة فى معرفة الإنسان الحد الذى

يجب أن يقتصر عنده جهد المصلح والوقت الذى يجب على الفرد أن يكتفى فيه بمجرد الموافقة . ولا بد لمن يأتى بالجديد أن يحمل معه البرهان ومع ذلك فان نجاح الجماعة لا يتوقف على إخضاع الفرد لها، بل على قيامها بخدمة الأعضاء الذين تتألف منهم الجماعة، فاذا هى جرت على غير مصلحتهم فانها لا تلبث أن تتوارى . فالغالب فى أمر منازعات الجماعة أن تكون مجرد منازعات بين أفراد منها وقد يكون أفضل المجتمع فى بعض الأحيان أن يبق الفرد فى جماعة معينة كالمثابة (السجن) (Penitentiary) أو الإصلاحية أو ملاجئ المجاذيب أو مدرسة ضعاف العقول أو المستشفى . ومن الخير الفرد فى أكثر الأحيان أن يبق فى الجماعة كالأسرة مثلا ، وإن جاز أن يكون عيشه خارجها أوسع حرية . وقد يعمل الفرد ويحسن عمله فى جماعة ويخفق فى أخرى . فقد يكون مثالا راقيا . لما يجب أن يكون عليه الزوج والوالد، وهو مع ذلك نشال أو ممن يحترفون المقامرة . وقد يكون قسيسا موفقا ويهمل مع ذلك شأن أسرته. وقد يكون رياضيا ماهرا ، و يكون مع ذلك طالبا رديئا ، وقد يكون تاجرا ماهرا ومع ذلك لا يدفع ديونه .

والعادة أن الجماعات الدائمة يكون قوامها الحرفة فاتباع كل حرفة يكونون جماعة من أنفسهم. فالبناءون تابعون لاتحادهم ويعملون على ترويج مصلحته ويختلطون بغيرهم من البنائين وبالعمال فى المهن المرتبطة بمهنتهم . وعمال المصنع يتحدون ويؤلفون جماعاتهم الخاصة بهم وكذلك أصحاب الأعمال فى مختلف الصناعات وأولو الحرف الفنية يجتمعون تبعا لحرفهم . وعمال اليومية يتحدون على هذا النمط . على أن الارتباط الاجتماعى ليس كله مبنيا على أساس الحرفة بل قد يكون تبعا للعمل الرياضى أو المساعى الاجتماعية أو الدين أو السياسة . فهناك كنائس لا يشهدها إلا الأغنياء وأخرى لا يحضرها إلا الفقراء. وكذلك الدكاكين ففيها ما يستحبه هذا الفريق وفيها ما يجتذب سواه. وكل حزب سياسى يسعى لجمع أنصاره تبعا للمهنة أو الجنس ويعتمد على المصلحة المشتركة فى استبقاء رباطهم . ويتحد الفلاحون مع الفلاحين لا للمصلحة الاقتصادية وحدها بل وللمصالح الدينية والاجتماعية والتعليمية والمصلحة العامة . ثم هناك وجوه استثناء كثيرة لهذه القاعدة ولكن النزعة الظاهرة هى أن الذين يكونون من حرف واحدة أو متقاربة يميلون ، اذا سمحت الظروف ، الى التجمع وتكوين جماعات أساسها المصلحة المشتركة حتى ولو كانت خارجة عن دائرة حرفهم ، وذلك لمجرد أن بينهم صفات مشتركة وبسبب هذا يرتاحون الى أولئك الذين يكونون من حرفتهم أكثر مما يرتاحون الى أصحاب الحرف الأخرى .

وفى استطاعتنا أن نورد أمثلة عديدة على فعل الجماعة ، بل الواقع أننا نستطيع أن نستخرج نظاما مركبا لمثل هذه التجمعات . فالإنسان لا يعمل ولا يشتغل بمفرده بل كعضو من جماعة معينة . وقد اعتبر كثير من النقاد أن موضوع ميول الجماعة ذو أهمية كبيرة حتى ليرى كثير منهم أن علم الاجتماع ليس فى جوهره إلا درس الجماعات وميول الجماعات وفعل الجماعات ونحن وإن كنا لا نماشيهم إلى هذا الحد المتطرف لا يسعنا إلا الإقرار بقيمة هذا العامل فى المجتمع . فالجماعات فى المجتمع هى بمثابة الألفاظ فى الكلام أو فى القصة ولكنا إذا تناولناها بمفردها كانت فى غالب الأحيان ثقيلة خالية من بواعث اللذة . وإنما يجب أن ننظر إلى ترتيبها والفكرة الكامنة وراءها . ويجب علينا لكى ندرس الجماعات أن ندرس الميول التى تقوم عليها الجماعات والأوضاع التى تحتها وعلاقتها بالمجتمع إجمالا . ولا يحسن بنا أن ننسى المجتمع حين ننظر فى أمر الجماعات . ولا يصح أن نهمل النظر إلى أعمال الإنسان فى تلهفنا على معرفة الوسائل التى تمت بها هذه الأعمال . ولا يصح لنا أن نهمل أحوال المجتمع ومشاكله فى دراستنا وظائف الجماعات .

للإنسان غرائز وإحساسات وعقل ، وتحفزه إلى العمل ميوله . وهذه الميول فى أكثر حالها وليدة هذه العوامل الثلاثة. وهى تبدو فى شكل ميول لجماعات ومن ثم ترى الإنسان يعمل فى الجماعات . وهذه الميول الطائفية بعينها تؤدى إلى نشوء الأوضاع التى تسيطر على المجتمع . وعلاقة الفرد بالجماعة هى كعلاقة الحرف بالكلمة أو الجزىء بالذرة ، فالفرد جزء من الجماعة ولكن الجماعة أقوى من الفرد . وللفرد فى العادة يد فى تشكيل الجماعة ولكن هذا لا يكون إلا بصفته عضوا فيها . وقد يستطيع الفرد أحيانا أن يحل الجماعة ويؤلف أخرى أو أن يبقى فى الجماعة ويهيمن عليها . بل الواقع أننا كثيرا ما نجد مثل هذه الأحوال ولكن عبء البرهان والإقناع واقع على الزعيم . ولا بد له أن يعمل لمصلحة الجماعة على أتمها ليتيسر له أن يستبق مركزه ويقنع أنصاره أنه عامل على ذلك . ومجمل القول أن الجماعة هى التى تسيطر على الفرد وليس الفرد هو الذى يسيطر على الجماعة .

الفصل الثامن عشر

الضبط الاجتماعى

نعنى بقولنا الضبط الاجتماعى ذلك الشكل من الضبط الذى يوجه أو يحكم عمل المجتمع او الجماعات التى يتكون منها المجتمع. وهذا الضبط هو الذى يعين عمل الجماعة أكثر من تعيينه عمل الفرد. وإذ أن كل فرد عضو فى جماعات عديدة فهو متأثر دائما بهذا النوع من الضبط ولكنه إنما يتأثر به لا بصفته عضوا فى جماعة بصفته فردا عاديا .

ولا بد فى أى شكل من أشكال المجتمع المنظم من وجود نوع ما من الضبط الاجتماعى . والواقع أننا معتادون الضبط الاجتماعى اعتيادا لايدع محلا للاستياء منه بل نحن لا نكاد نشعر به وإنما نتقبله كأمر عادى. ولكن الضبط الاجتماعى غير مقصور على الشعوب الراقية فى المدنية لأن للقبائل المتوحشة نظمها الخاصة من الضبط الاجتماعى . فالمتوحش تحكمه الخرافة والخوف والاعتقاد بالسحر والأرواح حتى ولو لم يكن له أوضاع اجتماعية مستوفية التكوين. وقد يختلف شكل الضبط ولكن الفكرة فيه واحدة . فالضبط موجود والأثر الذى يحدثه لا يقل شأنا عما قد يرى فى المجتمع الراقى حتى ولو كانت وسائله تختلف عن وسائل المجتمع الحديث .

نحن لا ندعى بتاتا أن هذا الضبط الاجتماعى جاء دائما عن عمد وقصد إذ أنه قد يجىء عفوا. ولعل الرأى العام كما سنرى هو أكبر ما لدينا من وسائل الضبط الاجتماعى وهو فى العادة يوجه أفعالنا دون أن نكون فى أنفسنا فكرة عنه . والفن والتربية والتقاليد والعادة تحكمنا بنفس هذه الطريقة تقريبا. والخوف والخرافة والإيمان بالأرواح كانت تسيطر على المتوحش بطريقة شبيهة بتلك . أما القانون فالشعور به شعور معروفة وكثيرا ما يكون الدين كذلك وإن لم يحتم أن يكون هكذا .

لما كان عمل الفرد يؤثر فى المجتمع كان من العدل أن يكون للمجتمع رأى يبديه فى هذا العمل وما يجب أن يكونه . فلا بد أن يكون للمجتمع الحق فى أن يحمى نفسه من أعمال الأفراد الذين يشذون عن الجماعة وفى أن يقيد الأعضاء المتطرفين من الجماعة ، وفى أن يلزم الأفراد فى المجتمع باتباع نواميس الجماعة ومبادئها المثلى بالقدر الواجب من الدقة والعناية قل أو كثر . فليس الضبط ضروريا فحسب لترقية الجنس الإنسانى وتقدمه بل لقد وجد أنه جوهرى للحياة نفسها .وكلما توشجت أمور المجتمع وزاد تعقد الحياة أصبح الضبط الاجتماعى ضرورة محتمة

وكلما ازدادت كثافة السكان زادت حاجة المجتمع الى وضع قوانين ولوائح فيما يختص بأعمال أعضائه لحماية حقوق كل منهم ولمنع القوى من استغلال الضعيف ولمنع الشاذين عن المجتمع من الأضرار بحياة المجتمع العادى . فالعطف وحب المعاشرة والشعور بالعدالة هى كما قال روس[1] (Ross) أمر مشاع يشترك فيه الناس وهى تنتج ما ينعته بأنه " نظام طبيعى " .

فينا جميعا القدرة على أن نستشعر العطف على الغير . بيد أن هذا الإحساس يكون فى بعض الأشخاص أشد وأقوى منه فى غيرهم . ففى كثير من الناس ينصرف الى القرباء أو من يتصلون بهم على حين أنه يرق فى بعضهم الى درجة الإيثار . ومؤداه عند بعض الناس مجرد محاولة التجنب ومؤداه عند البعض الآخر محاولة التخفيف وفى غيرهم الرغبة فى المعالجة القاطعة الدائمة الأثر . نحن جميعا كائنات اجتماعية بقدر كبير أو قليل لا نستطيع أن نحيا حياة عزلة ؛ فنحن مضطرون الى الاتصال بأمثالنا من الناس بل نحن فوق هذا نتلهف على معاشرتهم . وقد اضطر الانسان فى العهود الأولى أن يكون اجتماعيا الى حد ما لكى يعيش . ونحن مضطرون لكى نتقدم الى أن نكون كذلك اجتماعيين . وكذلك فى كل منا إحساس بالعدالة أى حب الإنصاف أى الرغبة فى وضع المتنازعين على قدم المساواة . وهذا مشاهد اليوم بصورة خاصة فى ألعابنا ، وهذا الإحساس بعينه موجود بين المتبربرين المتوحشين . على أنه فى بعض الأجناس بالغ درجة من التهذب أعلى بكثير جدا منه فى غيرها وذلك بسبب ملاءمة البيئة . ولهذه الأسباب نفسها كان هذا الإحساس فى الرجال أقوى منه فى النساء وإن كان شعور العطف على نقيض ذلك . اذ هو أقوى فى النساء لأنه وليد طبيعى لعلاقة الأسرة .

وليس هذا الإحساس بالعدالة بالضرورة عطفا ، اذ أن العدالة معناها محاولة جعل الناس متساوين ومعاملتهم على أنهم متساوون . أما العطف فأنه يتناول غير المتساوين اذ هو شعور من جانب القوى بالإشفاق على الضعيف وهو لهذا السبب يمقته الأقوياء ويحتقرونه ، ولا يلتمسه من الناس إلا من يحس ضعفه وسوء حاله . وبسبب هذا لا يتيسر أن يكون فينا شعور عدالة قوى حين تقر ما قد يكون هنالك من الامتياز بين السيد والمسود وصاحب الأرض والأجير . فكلما زاد مقدار التساوى قل احتمال نشوء روح العدالة وصعب على الناس إدراكها . ويرتبط بشعور العدالة هذا شعور الاستياء يوم لا تأخذ العدالة حقها . ولا تقتصر هذه الإحساسات الثلاثة — العطف وحب الاجتماع وشعور العدالة — على أنها تنتج نظاما اجتماعيا ، بل إنها تهيء أساسا للضبط الاجتماعى وسببا فى وجوده وعمدا لتشييد بنيانه .

---

(١) الجزء الأول من كتابه المسمى " Social Control "

وهناك تنازع بين مختلف أشكال الضبط الاجتماعى أى بين مختلف الدساتير الاجتماعية. وأقوى ما نرى هذا عندما تتغلب أمة على أمة أخرى . مثال ذلك تغلب الإغريق على الفرس والنورمانديين على البريطانيين ، والروس على البولانديين والفنلانديين . ولقد رأينا فى هـذه البلاد (الأمريكية) ، وإن كان ذلك بدرجة أقل — يوم وفدت الينا طوائف المهاجرين . ذلك انا نجد الآداب الطائفية تصطدم بآداب الفرد . وليس معنى هذا أنه الفرد هو المخطئ دائما بل الواقع أن آداب الجمهـور تكون فى كثير من الأحيان أحط من آداب الفرد أو — بعبارة أصح — أنها لا تستطيع أن ترقى رقيها . وهى عادة تكون أقرب الى المنزلة الوسطى . ومن ثم نجد المجموع يقصى على الإصلاح لأن الإصـلاح يكون من السمو بحيث لا يستطيع المجموع تقـديره . ومن ناحية أخرى نجد المجموع كابحا جماح الخوارج من أفراده . واذا لم تكن آداب المجموع أقل من أرقى آداب الفرد فانه يستحيل تنفيذها .

ولا بد لنـا لإمكان إيجاد ضبط اجتماعى من أن تكون لدينا سلطة لتنفيذه . ولسد هذه الحاجة نشأت فى أوقات شتى طوائف مختلفة تولت سلطة الضبط كالأنبياء ورجال الدين إذ كانت سلطتهم عظيمة بوجه خاص فى أوقات الخطر وفى عصور الجهل . وكالشيوخ الذين كان يلجأ اليهم بين كثير من الشعوب كالهنود الأمريكيين طلبا للنصيحة والاستشارة بسبب سنهم وخبرتهم وكطبقة النبلاء فى غضون القرون الوسطى جميعها، بل وفى بعض البلاد فى زماننا هـذا وكطبقة الرأسماليين الذين يتسلطون كلما ترقت الصناعة رقيا كبيرا وكالمتعلمين والذين يسميهم الأستاذ روس الصفوة (Elites) مثل فلاسفة الإغريق والرواقيين والآباء المسيحيين الأول والمندرينين الصينيين . هذا ، ولقد كان يوجد دائما أفراد أو نوابغ نالوا سلطة ونفوذا بفضل شخصيتهم وحدة ذكائهم مثل نابليون وكرومو بل وهانيبال . وتتغير صفة الضبط لدى كل تغير يحدث فى الطبقة الحاكمة أو بحدوث أى تعديل فى نظـام الضبط . فادارة الرأسماليين تختلف عن إدارة ملاك الأراضى القدماء التى تتقدمها عادة . كما أن طريقة الضبط التى يجرى عليها المتعلمون تختلف عما يجرى عليه شيوخ القبائل .

---

(١) كتاب Social Control تأليف E. A. Ross صفحة ٨٣

وسائل الضبط الاجتماعى — الرأى العـام

ربمـا كان الرأى العام أهم الوسائل أو الأشكال التى يتخذها الضبط الاجتماعى ، وإن كان فى العادة أبعدها عن تقدير عامة النـاس . ويقسم روس هذا الضبط إلى ثلاثة أجزاء : (١) عاطفة الجمهور أى الإعجاب أو السخط أو الاحترام أو الاشمئزاز الذى يبديه الجمهور حيال عمل أو حادث ما . (٢) الحكم العام : أى حكم الجمهور أى تكوينه فكرا فيما يختص بعمل ما يؤدى إلى الاستهجان أو الاستحسان أو إلى الحكم بأنه خير أو شر ، مفيـد أو غير مفيد . (٣) عمل الجمهور أى الإجراء الذى يتخذه الجمهور (خلاف مجرد العاطفة أو الحكم) فيما يختص بعمل ما للتأثير فى السلوك قصد ضبط مثل هذه الأفعال أو الأعمـال أما لإبطالها أو لمنع حدوثها فى المستقبل .

ويبدى الرأى العام حكمه عادة بالازدراء أو الصد أو الفتور . والقصد منـه عادة هو مقاطعة الشخص الآثم ويعبر عنه بواسطة فعل يقوم به فرد وبالصحافة والخطابة وبالقرارات العامة . ويبدو هذا الرأى واضحا أمامنا فى الصور التعريضية (Cartoons) والأغانى الشعبية واللوحات وبأى طريقة من شأنها أن تعين على إثارة العاطفة وإعلانها . ولكن الرأى العـام لا يقتصر دائمـا على مثل هـذه الوسائل الخفيفة الوطأة فى التعبير عن نفسه فقد ينقلب فى بعض الأحيان أهوج وينتهى بأن يركب المسىء قضيبا ، أو يلبسه ثوبا من القار والريش أو يقتله بالطريقة السرقية "اللنشنج" (Lynching) دون أن ينتظر حكم القضاء فى أمره . وهو يقتحم المنازل ويتدخل فى حياة الأسرة يوم تكون الإساءة من نوع ضرب الزوجة أو استعمال القسوة مع الأطفال . وهو يتخطى القوانين وينفذ قراراته بالرغم من القانون وهو يجبر موظفى الحكومة على عمل ما يريده . والرأى العام يقاطع الذين لا يسيرون مع الجمهور فإن الناس لا يرتاحون إلى الأشخاص الذين يختلفون عنهم . ثم إن الرأى العام تختلف درجة شدته باختلاف الأقطار ولكنه ملموس الأثر فى كل جزء من أجزاء أى قطر .

ولقد استخدمت حكومة الولايات المتحدة الرأى العـام استخداما مجديا جدا فى ترويج سندات الحرية (Liberty Bonds) التى أصدرتهـا ، ومبيع طوابع التوفير أيام الحـرب (War Saving Stamp) وفى تنفيذ لوائح المواد الغذائية وتعليم وسائل حفظ المأكولات

وطرق الاقتصاد أثناء الحرب الماضية ، واستعملته كذلك جمعية الصليب الأحمر وجمعية الشبان المسيحية وغيرها من الهيئات . وربما كان النجاح العظيم الذى نالته خطة أمريكا الحربية مرجعه قوة الرأى العام أكثر من أى سبب آخر بمفرده .

والرأى العام شديد الشذوذ فى أعماله وأقل انتظاما من القانون بكثير وإن كان فى كثير من الأحوال أقوى وأفضل، على أنه فى الكثير من الأحوال غير عادل . نعم إنه قد يصلح بعض الأذى العظيم كشأنه فى المطالبة بالعهد الأعظم (بالماجنا كارتا) (Magna Charta) فى انجلترا (*) وتقرير الحرية فى فرنسا وإجبار رئيس جمهورية فرنسا على العفو عن دريفوس وإلزام المصانع فى ماسا شوسيت بزيادة الأجور بعد إضراب لورانس فى سنة ١٩١٢ ولكنه من جهة أخرى طالب حتى ظفر بقتل كثير من عظماء من أحسنوا إلى العالم ومنهم المسيح وسقراط وهس (Huss) وكثيرون لايحصى عددهم من المصلحين الدينيين والسياسيين بل الواقع أن جميع الأمم قتلت أو اضطهدت أعظم من أحسن إليها من أبنائها . وقد ينهض الرأى العام أحيانا لإصلاح بعض الأذى الكبير، فإذا أزاله لم يقف عند ذلك ولم يهدأ من تلقاء نفسه بل يستمر ويصبح شرا جامحا كما أرتنا الثورة الفرنسية وكما رأينا فى الأيام الأخيرة من أعمال البولشفيك فى الروسيا .

آثار الرأى العام

(١) لعل أثبت أثر للرأى العام مانجده فى مراسيمنا القانونية فإن من طبيعة القوانين أنها لاتوضع بل ولا تنفذ إلا إذا عززها الرأى العام . فقوانين تحريم الخمر لم يمكن تنفيذها فى كنساس وماين إلا بعد أن صار الرأى العام فى جانبها تماما فكان تنفيذها بالقياس إلى غيرها سهلا وفعالا .

(٢) وأحكام المحاكم تتأثر بالرأى العام ويصدق هذا بوجه التخصيص على المحكمة العليا للولايات المتحدة فقد كان من نتيجة تأثير الرأى العام أن فسرت فى العهد القريب دستور الاتحاد تفسيرا أكثر جنوحا إلى التسامح والحرية . ومن أحسن الأمثلة على ذلك التغير الذى طرأ فى تفسير قانون شرمان لمناهضة كبار الرأسماليين (Sherman Anti – Trust Act) .

(٣) وسياسات الأمم يرسمها الرأى العام . وفى خروج إيطاليا على الحلف الثلاثى فى الحرب العظمى مثل جيد حديث للدلالة على ذلك فقد كان أهل إيطاليا يعطفون على فرنسا دون ألمانيا أو النمسا ولذلك ألزموا الحكومة الإيطالية أن تقاتل الى جانب الحلفاء بدلا من الانضمام إلى الدول التى كانت متحالفة معها وهذا النوع من الأثر يكون فى البلاد الجمهورية أقوى منه فى غيرها .

(*) الصك الذى أخذه الشعب الانجليزى من الملك جون تقرر حقوقه الدستورية الأولى وذلك فى سنة ١٢١٥ (المعرب)

(٤) والرأى العام ، كما سبق لنا القول ، يضبط تصرفات الأفراد حتى ولو كان الفرد مفروضا فيه الإخلاص وعدم التحيز . ويشاهد هذا كل يوم فى ملاعب الباسبول إذ تكون أعمال اللاعبين بل وأحكام المحكمين فى أغلب الأحيان متأثرة بأعمال الجمهور المشاهد . والواقع أن من الصعوبة البالغة أن تجد حكما كفءً : حكما يستطيع أن يصدر أحكاما عادلة بالرغم من اللاعبين والجمهور المشاهد .

ويتوقف نمو الرأى العام على حرية الاتصال ولاسيما حرية الكلام وحرية الصحافة . وتكون قوة ضبطه أشد كثيرا فى بلاد جمهورية كالولايات المتحدة منها فى بلاد مثل روسيا بل ومثل ألمانيا ؛ فلابد للقادة لكى يفلحوا أن يحترموا الرأى العام . والسياسى الناجح هو الذى يجس نبض الشعب ويبدى سياسته على نحو مايستطيعه الجمهور . ولعل تيودور روزفلت خير مثل حديث لمن اتبع هـذه الخطة من الساسيين . بل لعله خير مثل قدمته الولايات المتحدة فى جميع حياتها . ولقد عمل بعض الرجال العموميين من ناحية أخرى على أن يتقدموا الشعب بخطوة واحدة ووضعوا لسياسته خططا ومناهج قبل أن يكون الشعب مستعدا لقبولها فلماذاعت هـذه الخطط وراجت بعـد مدة ما اعتنقها الشعب . ولا يمكن أن تفلح حركة عظيمة ما لم يعززها الرأى العام ، فاذا كان الرأى العام مضادا لإصلاح ما أو لسياسة ترمى إلى التقدم كان من الواجب العمل على تغيير الرأى العام بأساليب الإعلان والإذاعة حتى يتيسر تنفيذ المشروع أو جعله ذا أثر. نعم إن الرأى العام عديم الانتظام كثير الخطأ ولكنه من أقوى ما لدينا من الوسائل فى الضبط الاجتماعى وأبعدها مدى . فلا ينبغى أن يستهان بأمر الجمهور بل لابد من العمل لإجابة رغباته .

القانون

أهمية القانون كوسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى بينه من نفسها، وربما وضعه أكثر الناس فى مقدّمة هذه الوسائل فى ترتيب الأهمية ولكنه فى الحقيقة ثانوى بالنسبة للرأى العام . فالواقع أن القانون كما رأينا ليس إلا رجعا أو صدى للرأى العام وهو يمثل حالة هـذا الرأى . والقوانين هى قواعد المجتمع وضعت لتدبيره وحكمه ؛ فالقصد منها حماية المجتمع وصيانة الفرد من التعرض له بسوء وحماية الجمهور من أعمال الشواذ فيه . ولكى يتسنى للقوانين أن تقوم بواجب الحماية يأخذ القانون فى يده حق إنزال العقاب. نعم إن نظرية هذا العقاب قد تغيرت كما سنرى فى فصـل آت من هـذا الكتاب عقدناه على الجريمة — إذ كان العقاب فى أول أمره وسيلة من وسائل الانتقام ثم أصبح بعد ذلك وسيلة لقمع ما يسمى بالطبقات المجرمة أو القضاء عليها ، ثم انقلبت هـذه النظرية تدريجيا فصار قصد العقاب إصلاح المجرم ومنع الإجرام فى النهاية — ولكن الفكرة الجوهرية من العقاب هى حماية المجتمع .

والقانون ، من حيث هو أداة للضبط ، أكثر انتظاما وأشد اتساقا من الرأى العام . ولهذا كان فى الجملة أبطأ خطوا وأكثر تعقدا . على أنه فى نفس الوقت أدق وأصوب وإن كنا نجد فى القوانين ماهو ردىء كما نجد الرأى العام فى بعض الأوقات مخطئا . وكثيرا ما يروغ الناس من القوانين ويجد دهاة المحامين منافذ فيها ومخالص . والواقع أن القانون كثيرا ما يعاقب من لا يستحقون العقاب ويسمح بالإفلات لمن تجب معاقبتهم . نعم إن القانون يتبع الرأى العام ولكنه كثيرا ما يكون متأخرا عنه بمسافات بعيدة ومحال أن يسبقه ، ولعل أكبر جانب من الثروات العظيمة التى فى هذه البلاد إنما تجمعت أو أنها نشأت بوسائل تعد اليوم إجرامية ولكنها كانت يومئذ شرعية اذ لم تكن هناك قوانين تمنع أعمالا مثل أساليب تقاضى الفائدة مرتين والتآمر لتحديد الأسعار والتضخيم فى رأس المال والاشتراك فى إدارة شركات متعددة متدخل بعضها فى بعض للتهرب من المسئولية ودفع مالا يسد الرمق من الأجور وتخصيص مبالغ مالية للرشوة السياسية واستخدام الأحداث فى المصانع وغش السلع وتنزيل الأسعار مؤقتا لقتل ضعاف المنافسين وغير ذلك من وسائل المنافسة الظالمة . فالقانون بطىء ومعقد الأسلوب أحيانا وغير عادل ولكنه ضرورى . على أننا لسنا اليوم فى حاجة أن تقل عندنا القوانين بل أن تكون هناك أداة قانونية أكفأ ومما كم أقوى أثرا ، فان أكثر ما يؤخذ على القانون مصدره قلة كفاية محا كمنا لا عدم كفاية قوانيننا .

الدين

الدين ، أى الاعتقاد بذات أو قوة عليا فوق البشر والإيمان بتلك القوة أو بتلك الذات ، كان دائما ولا يزال من أقوى العوامل الضابطة فى الحياة الإنسانية . ولعله يضبط حياة الإنسان المتوحش أكثر مما يضبط حياة المتمدين . ولقد كان هذا الضبط فى الماضى متأتيا فى أكثره من خشية الأذى البدنى أو العذاب فى المستقبل . كان دين المتوحش فى أكثره دين سحر وخرافة ، وما كان يمتنع عن عمل ما إلا اعتقادا منه بأنه اذا فعل ترتب على فعله أو عدم فعله عقوبة أو جزاء . وكان يؤدى بعض الشعائر قبل زرع محصوله خشية أن تمتنع بزوره عن الإنبات إذا هو لم يقم بتلك الشعائر أو أن يخيب محصوله يوم الحصاد . وكان يقوم بشعائر أخرى قبل نهوضه إلى غارة من غاراته خشية ألا توليه الآلهة أو الأرواح النصر إذا هو أهمل تلك الشعائر . وكان يتحاشى أن يعمل أعمالا معينة كأن يقتل حيوانا مقدسا خشية أن يثير عمله غضب الروح أو الإله الذى يمثله هذا الحيوان فيصيبه الشر من وراء ذلك . ولما كان دينه يتضمن شيئا من قواعد السلوك فى الحياة فانه كان يتبعها خشية العقاب فى المستقبل توقيا من أن تنتقل روحه — على اعتقاده بتناسخ الأرواح — إلى حيوان نجس أو حيوان غير محبوب مثل ضفدع أو ثعبان أو دودة . وكانت خشية الإضرار بأرواح أسلافه — إذا كانت

عبادة الإسلاف هي الدين القائم — من أقوى الوسائل لضبط أعمال الأفراد . وكان الخوف من سحر رجال الطب و بأسهم يدفع القبائل إلى طاعتهم وتنفيذ رغباتهم ، وكذلك كان الشأن مع الكهنة والأنبياء إذ كان يعتقد أن لهم صلة بالقوة التي فوق البشر وبذلك كانوا قادرين على الإضرار والنفع . وهذا مشاهد فى تاريخ العبرانيين القديم ، إذ كان الانبياء يخشى جانبهم و يطاعون لا من جانب الشعب والدهماء وحدهم بل ومن الملوك أيضا . بل لا يزال الدين حتى فى زماننا هذا يردع الناس بتخويفهم من نار الجحيم . ويقوم الضبط عند البرهميين والمسلمين وعند الكنائس الكاثوليكية الإغريقية والرومانية فى كثير من الأقطار على الخوف إذ ينذر الدين أهله بالعقاب فى الآخرة . وترويج الاعتقاد بالحياة الآخرة هو إحدى الوسائل القوية المستعملة اليوم لدى الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية الحديثة للتأثير فى أتباعها . على أن الميل اليوم غير منصرف إلى إثارة الخوف من العقاب والعـذاب الأخروى بقدر انصرافه إلى بعث روح التطلع إلى السعادة الأبدية المقبلة والنعيم فى الآخرة . وبعبارة أخرى صار الدين يعتمد على الاستهواء بالثواب وحسن الجزاء أكثر من اعتماده على الإنذار بالعذاب وسوء المصير . وفى هذا بلا شك تقدم عظيم إذ أنه يعطى للدين معنى أرق كما أنه يجعل العمل الديني نبيلا . وليس وعد نعيم الآخرة وحده هو الصورة التي يبدو فيها الضبط الديني فان له أيضا من رغبة الناس فى إكرام الراحلين من الأحباب إلى الآخرة صورة ضبط أخرى . وهذا مشاهد فى عادة تجميل قبور الأموات .

ويضبط الدين أيضا بجعله من مكان العبادة مركزا اجتماعيا فقـد كان هيكل أورشليم فيما مضى مقرا لحياتين الدينية والسياسية الاجتماعية وكانت كنائسنا فيما سبق تؤدى هذه المهمة أفضل مما تفعل اليوم ونحن نحاول اليوم حملها على تأدية هذه الوظيفة الاجتماعية بشكل أنفع فان كنائس المدن — أى الكنائس التى تعد أنجح من سواها — تستعمل اليوم أبنيتها فى غضون الأسبوع بمثابة دور للاندية — فهى تقيم أندية للألعاب الجمبازية ولفرق الباسبول وكرة السلة وللطالعة وتنظم فصولا لتعليم الصناعات اليدوية وعلوم التدبير المنزلى كما أنها تقوم بتعليم المهاجرين . فهى بهذه الطريقة عاملة على أن يكون لهـا قسط أوفر من وسائل ضبط أنواع حياة الناس اليومية . ولا بد للكنائس من أن تجرى على مثل هذا المنهاج إذا أرادت أن تستعيد مكانتها القديمة .

على أن الكنائس قد نزلت إلى غيرها من المعاهد — ولا سيما إلى المدارس — عن وظائف كانت فى يدها ومحال أن تستعيدها ، بل ربما كان من الواجب ألا تستعيدها . ذلك أن كثيرا من المعاهد المنتشرة اليوم لم يكن موجودا من قبل فكانت الكنائس تتولى القيام بأعمالها . ومن الأمثلة الظاهرة على ذلك القيام بمعونة الفقراء فان هيئات الإحسان فيما يخيل الينا أصلح لهذا من الكنيسة أو هى على الأقل قائمة بتحقيق مهمتها خيرا مما قامت به الكنائس فى المـاضى .

على أن ضبط الدين لا يقتصر على حياة الافراد بل يمتد الى سياسات الأمم ومصير الشعوب فلم تكن الفتوحات الإسلامية إلا أثرا من آثار الغيرة الدينيـة ولم يقف تيارها حتى ردتها قوة مثلها ابتعثتها المسيحية عند بلدة تور (Tours) على يد شارل مارتل (Charles Martel) وقد كانت البواعث الدينية هى التى دفعت بالهوجونوت (Huguenots) الى خارج فرنسا وكانت سببا فى مذابح الأرمن وحملت طائفتى الحجاج والبيوريتان (Pilgrims & Puritans) على الهجرة من انكلترا الى ولاية ماساشوسيت والكاثوليك الى ماريلاند فعملوا بذلك على استعمار أمريكا بقوم محبين للحرية . والدين هو الذى أعطى الجنس اليهودى طابعه الخاص وصانه من أن تمتصه الأجناس الأخرى . وقد سيطرت الكنيسة الرومانية على سياسات أوروبا قرونا عدة . ولم ينفصل الدين عن الدولة فى فرنسا وأسبانيا إلا منذ سنوات قليلة . وقد كانت الكنيسة متدخلة مع الحكومة فى روسيا قبل انقلابها ، ولعلها كانت أقوى دعائم أسرة رومانوف . وكانت جميع الشعوب التى اشتركت فى الحرب العظمى تتجه إلى الله بالتماس العون ، وفى اعتقاد كل شعب منها أن الله معها . فكانت حكومات الألمـان والروس والفرنسيين والانجليز تعلن للشعب بجد وخشوع أن الله فى جانبها ولا بد أن يكتب النصر لها وكان قيصر ألمـانيا بوجه خاص يعمل على إلحاق اسمه باسم الله .

ولقد كان للدين أثره أيضا فى التشريع وجاءتنا منه أكثر آرائنا عن الحق والباطل . وقد كان للمسيحية — كما سبق لنا أن ذكرنا عند الكلام على المرأة — أثر كبير فى رفع مقام المرأة فساعدت الأسرة بهذا العمل على أن تؤدى خدمة أجل فى سبيل المدنية . وكذلك كان من الدين وحى للفنانين والمصورين والمثالين والشعراء ، على أنهم ردوا هذا الفضل اليه إذ ساعدوا على زيادة ما للدين من قوة الضبط . وقد تدخل الدين نفسه فى جميع أوضاعنا الاجتماعيـة تقريبا . فنحن نفتتح مجالسنا التشريعية بالصلاة ونستشهد الله فى المحاكم كلما حلفنا اليمين كما أن مسكوكاتنا تحمل عبارة "على الله نتكل" (In God We Trust) ونحن نؤرخ الزمن من مولد المسيح .

على أن فى الكتاب فريقا كبيرا أجهدوا ذكاءهم ليثبتوا أن الدين عاق المدنية عن السير ووقف فى سبيل التقدم الإنسانى . وهم فى كثير من الأحوال على حق ؛ فقد ناهضت الكنيسة العلم مدة طويلة وكان الناس يحرقون مستشهدين على زعم أنهم ملاحدة لأنهم كانوا يرون أن الدنيا مكورة أو لاختراعهم طريقة جديدة لعمل بعض الأشياء أو لاعتراضهم على عادة مهملة من عادات الكنيسة ؛ كما أن فى الهيئات الدينية من كانوا يضطهدون أعضاء الهيئات الدينية الأخرى التى كانت تخالفهم . فالمسلمون اضطهدوا المسيحيين والمسيحيون اضطهدوا اليهود والروم الكاثوليك اضطهدوا البروتستانتيين وهؤلاء اضطهدوا الروم الكاثوليك . واضطهد

الأرثوذكس هؤلاء وهؤلاء . وبادت شعوب وأمم برمتها أو كادت بفعل العداوة الدينية . انظر مذابح الأرمن على يد الترك واذكر أن بعضا من أفظع الجرائم التى ذكرها التاريخ كان اقترافه باسم الدين . ولكن بالرغم من كل ذلك نرى أن مدنيتنا الحاضرة العالية يرجع الفضل فى معظمها الى الدين. فالدين هو الذى أعطانا أرقى ما لدنيا من الأفكار وخيرما لدينا من المستويات الخلقية وأنبل مبادئنا المثلى وهو الذى أوحى لنا ما أوحى لنحيا حياة أعظم وأنبل .

ورواج مذهب الإيثار فى يومنا هذا راجع عندنا فى معظمه إلى الدين فلقد كان للوصايا المسيحية الآتية : " ليحمل بعضكم عبء بعض " و " أحب جارك كما تحب نفسك " و " اصنع لغيرك ما تود أن يصنعه غيرك لك " أثر كبير فى ترويج روح الإيثار ، بل الواقع أن هـذه الفلسفة الأدبية كانت هى السبب الأكبر فى إنماء روح عاطفة الجوار فى معاملة الناس . على أن هـذه العاطفة ليست مقصورة على المسيحية ولكننا فى نظرنا إنما نرى على أتم درجات رقيها فى هذا الدين وهى توسيع لمدى شعور الأسرة ونشر لروح العطف والرغبة لا فى تخفيف آلام الغير فقط ، بل وكذلك فى منع الشقاء والضيق عنهم فى المستقبل . والدين، كما لاحظنا فى فصل سابق تناولنا فيه نشوء الدين ورقيه، آخذ فى السمو والرقى بحيث يصير أنفع للعالم . نعم أن سلطة الضبط المطلقة التى للكنيسة صارت اليوم أقل شأنا ولكن أثرها لا يزال عظيما،وستستمر على هذا الحال فى المستقبل. فسلطة الضبط آخذة الآن فى التغير من حال الإجبار والإكراه الى حال القيادة والإيحاء . فكنيسة المستقبل ستتولى قيادة الناس بدلا من أن تدفعهم أمامها . فبدلا من سوقهم بسوط الإنذار من عذاب النار واللعنة الأبدية فى الآخرة ستقودهم وتهديهم بأن تبين لهم طريق حياة أنبل وتلقنهم الى وجود قائم على الخدمة بدلا من وجود أنانى . وستوحى إلى الناس بما يجعلهم خيرا وأصلح بدلا من أن تجبرهم بالتخويف على أن يمتنعوا عن الخطأ .

التربية

ضبط التربية متأت فى جوهره من قوة أثرها فى الطفل . فما يتعلمه الطفل فى طفولته هو ما سيكون عقيدة له فى المستقبل . ولعل خير مثل نجده لهذا هو قوة تعليم الدين . فان شكل الدين الذى يتعلمه الإنسان فى أوائل الحياة هو الشكل الذى يتبعه عادة بعد ذلك . وهـذه الحقيقة تدركها بعض الكنائس ولاسيما الكنيسة الكاثولوكية الرومانية فأنها تعمل على تدريب أطفال أتباعها وفاق تعاليم تلك الكنيسة وتعمل على حضورهم الكنيسة من زمن الطفولة . ومن ثم ترى الناس أتباعا فى غالبيتهم لنفس المذهب الدينى الذى كان آباؤهم أتباعا له .

وآراؤنا عن الحق والباطل محكومة فى الأكثر بما تعلمناه فى بكرة حياتنا . ولذلك فان كثيرا من الناس لإدراكهم عظم ما للتربية من الأثر أثناء الطفولة ولخشيتهم من أن ترسخ الآراء التى يتعرض لها النشء يعارضون فكرة إدخال التربية الدينية فى المدارس العامة . هذا، ولا يقتصر فعل التربية على أنها تعد الإنسان للحياة بل من الممكن توجيهها بحيث تحبس التفات الطفل على أشياء معينة أو تقصره على التفكير بأساليب خاصة .

وقد أدرك أولو الأمر ما للتربية من القوة فمنعوها عن أتباعهم ليستبقوا سلطانهم ويديموه. من ذلك تحريمهم التربية الى حد كبير فى أغلب أقطار الرقيق وذلك ليبقى الأرقاء عند حد الرضى أو ليظلوا على الأقل مستسلمين لما هم فيه فيؤمن بذلك خروجهم من هذا الحال. وقد اتبع أصحاب الأراضى نفس هذه الخطة مع مواليهم (Serfs) وكانت جارية الى حد كبير فى روسيا حتى وقت الثورة الأخيرة، وذلك خشية أن يطالب جمهور الشعب بنصيب أكبر فى الحكومة. وقد كانت هذه دائما خطة كل طبقة حاكمة يوم كانت الطبقة المحكومة صاحبة الأغلبية . هذا ، والتربية مفتاح النجاح فهى تفتح أبواب الفرص وهى تعطى الانسان فضل اختبارات الغير ولا يقتصر أمرها على العلم بما حدث فى الماضى، بل تدلى بما يمكن عمله فى المستقبل . وهى تعطى الإنسان القدرة على معالجة المعضلات وعلى أن يعيش عيشة أنفع وأجدى . ولقد جادت الطبقات المتعلمة على العالم بأعظم حكامه فان المشرعين والقضاة والموظفين يكادون ينتخبون دائما من طبقة المتعلمين إذ يمثلون أصلح الناس لذلك . وما تفوق بعض الأجناس على بعض فى الغالب الا مسألة تفوق فى المعرفة . ويتوقف نجاح نشر العرفان وتمثيله فى النفوس على كفاية خطة التربية. هذا، وكفاية الخطة ونفع التربية يعينان الى حد كبير مركز الشعب ودرجته فى سلم المدنية ، ولقد سهل اختراع الأبجدية وفن الطباعة سبيل تقدم التربية تسهيلا رائعا . وزاد فعل التربية زيادة عظيمة بالغة باعتبارها وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى . والتفوق الرائع الذى كان للاسبارطى كرجل محارب إنما كان أثرا مباشرا لشدة نظام التربية التى درّبته لا على القتال وحده، بل وعلى احتمال الآلام والمصاعب والصبر على الأوجاع وأن يكون فوق كل الشدائد . أما تربية الأثينيين فكانت على نقيض ذلك تماما . فقد كان مدارها تعليم الموسيقى والخطابة والرياضة — ومن ثم أنشأت شعبا من فلاسفة وفنانين وساسة . وكان لنظام التربية عند الرومان أثره أيضا فى إحداث نماذجه الخاصة من الناس ولا سيما الرجل السياسى الرومانى والمشترع الرومانى اللذين مكنا روما من أن تحكم على مدى الأحقاب الطويلة تلك الأصقاع المترامية الأطراف التى بسطت سلطانها عليها .

ولا يقتصر أمر التربية على كونها تعين نوع حكومة الشعب وقوانينه وأوضاعه، بل إنها تتناول وتؤثر فى تقاليده وعاداته ومستويات معيشته . فان زيادة التربية يصحبها تقدم وتهذب فى مستويات المعيشة يزيدان فى أسباب السعادة البيتية . فهى تأتى اليه بالكتب

والمجلات والجرائد وتوقظ الرغبة فى الحصول على أثاث أفضل وطعام أجود وملبس أحسن والى التماس مساكن أرحب وأصلح . وهى تؤثر فى حياة الأسرة برمتها حتى من حيث ضبط عدد أطفالها ، فان من النتائج المباشرة لزيادة التربية نقص معدل المواليد ، لأن الأسرة — لشعورها بحاجة الأطفال الى مزيد من الأشياء وضرورة توجيهها قسطا أكبر من عنايتها حيث يجب أن يوجه، أى فى تربية الأطفال والعناية بهم — ترى من واجبها أن تعمل على تقليل عدد أعضائها بدلا من أن تأتى فى الدنيا بنسل كثيرين لايكفيهم دخل الأسرة . ويقابل ذلك النقص فى عدد المواليد بسبب التربية نقص فى عدد الوفيات .

هذا، ولم تعد التربية من الأمور التى ينظر اليها باعتبارها لائقةفحسب بل صارت ضرورة لازمة للمجتمع . كما أن الأمد اللازم للتعليم لا يفتأ يتزايد ، فبدلا من اقتصاره على بضعة أيام تنفق فى تعليم الحدث، كما هو الحال عند الشعوب الأولية، تطاولت المدة حتى صارت شهورا وسنين. ولا ينقطع دخول مواد جديدة فى مناهج التعليم و يكلف الطالب أشياء أكثر فأكثر. والمدارس اليوم قائمة لا لمجرد المحافظة على تراث العرفان الذى حصلته الدنيا ، بل كذلك لتمهيد الطريق للرقى والتقدم المستقبل فى جميع النواحى . بل إن التربية اليوم تشمل البالغين . ولعل هذا الأمر أرقى فى الدانيمارك منه فى أى قطر آخر ، وإن كانت الولايات المتحدة آخذة على العجل فى العمل بهذه الفكرة ولاسيما فيما يختص بالتعليم الزراعى وتوسيع مدى الفائدة منه بمناهج تعطى بالمراسلة وبالمحاضرات الإضافية التى تلقى فى الجامعات على الجمهور .

وقد حلت المدرسة محل الكنيسة فى كثير من وجوه العمل ولا سيما فى تعليم الصغار وفى القيام كمركز اجتماعى، والغالب أنها تؤثر فى الجماعة الى حد أبعد مدى مما تؤثر الكنيسة أو أنها على الأقل تتصل أسبابها بعدد من الناس أكثر مما تستطيعه الكنيسة . ولقد كان انشاء كلياتنا الأولى بقصد تخريج رجال لخدمة الدين ولكن هذه الوظيفة قد أصبحت اليوم ذات أهمية صغرى بالقياس الى مقاصد وأعمال الكليات والجامعات الأمريكية . على أن انتقال مهمة التربية من الكنيسة الى المدرسة — لا يعد بطبيعة الحال علامة ضعف بل ربما كان خيرا أن سلمت الكنيسة هذه الوظيفة الى المدرسة بمجرد أن أصبحت المدرسة قادرة على القيام بهذه المهمة لأن الكنيسة اكتسبت بهذا العمل وقتا تستطيع أن تنفقه فى غير التعليم من وجوه الأعمال التى لم يتيسر لها تناولها حتى اليوم ، وأتاحت لنفسها فرصة تستطيع بها أن تصبح أشد نفعا للمجتمع . ولا بد لنا أن نسلم أن التربية قد زادت زيادة سريعة ولا تزال تزداد نموا وتمكنا ، ونحن نرحب بهذا التغير لأن التربية قد أحدثت مستوى أرقى للمعيشة فقد ساعدت الإنسان على أن يحيا حياة منظمة رشيدة بدلا من حياة تجرى كيفما اتفق وهى فوق ذلك تبشر بتقدم أعظم .

العرف والعادة

العرف والعادة — كتكوين اجتماعيين — لاتبعثان على التقدم والترقى كما تفعل التربية بل هما من العوامل الباعثة على المحافظة والجمود إذ يقفان فى سبيل التغير والتقدم . وهما وإن كانا يقفان أحيانا بمثابة عائق مستحب فى وجه العمل الاندفاعى فإنهما يمنعان المساعى المنطوية على روح الإنسانية والإيثار وبهذا يمنعان تقدم المدنية . وأهم ما يدلى به لسان حال العرف الحجة الآتية : هـذا الأمر واجب الأداء لأنه كان يفعل دائما وهو خير ما يفعل لأنه كان هكذا دائما . فكل تغير فى طرق التربية وكذلك نشوء أى علم جديد كعلم الاجتماع مثلا يعترض عليـه العرف . فيرفع العرف أكف الفزع المقدّس لدى أى تغيير فى العقائد الدينيـة أو أى تفسـير للكتاب المقدّس يغاير ما فسر به فى المـاضى . وكذلك الاختراعات الجديدة فى الصناعة فكثيرا ما يتجاهلها صاحب المعمل حتى تضطره المنافسة أو ضيق الحال الى التمـاس وسيلة جديدة للإنتاج فيلجأ اليها . وفى الحياة المنزلية أمثال على هذا فأن طرق القيام بالأعمال تكاد تكون هى بعينها التى كانت منذ مائة عام وذلك بسبب قوة العرف هذه التى تقف فى سبيل التغيير . ولقد كان أكبر عقبة لاقتها النساء فى المطالبة بحق التصويت ، وكذلك الحركة النسوية ، ناتجة عن العرف الذى قرر مركز المرأة فى المجتمع من قديم ويرى بقاءه على حاله الى الأبد . ويذكر المؤلف جيدا أن ولاة الأمر فى جامعة هارفارد أبوا على مسز بانكهرست[*] (Mrs. Pankhurst) أن تلقى خطبة فى إحدى قاعات الجامعة لا لسبب سوى أنه لم يسبق لامرأة أن سمع لها صوت فيها من قبل .

والرجل العادى يتبع الجمهور بغير تفكير . وقليل من الناس من يرون أن هناك طريقا غير الطريق المعتاد أن يكون أفضل من سواه ويتبعون القديم لأنهم يرون أن التمشى مع الجمهور وإن كان طريقه معاورا غير مستقيم أسهل عليهم من أن يسيروا ضـد تيار العرف والعادة . وفيهم من يرون — بجرأتهم وإقدامهم — وجه الفائدة من التغيير فيسلكون الطريق المستحدث وفى بعض الأحيان تنجح الطرق الحديثة فى نهاية الأمر فى اكتساب التقدير وبعض الأحيان تحبط وتهزم .

وجميع الأوضـاع الاجتماعية تتغير ببطء ويأتى دافع التغيير من الباطن أكثر مما يأتى من الخارج . وتقع مهمة البرهان على صواب التغيير على عاتق الداعين اليه دائمـا ، إذ عليهم أن يثبتوا أن الوضع الجديد خير من القديم وأرقى .

---

[*] زعيمة المطالبات بحق النساء فى الانتخاب فى انجلترا فى العقد الأول من هذا القرن (المعرب) .

الفن

الفن من حيث هو قوة اجتماعية أصعب تبويبا من العرف، وهو ينقسم بطبيعة الحال أقساما عدة . وهو من الوجهة العملية يعد أداة تقدم ورجعية فى وقت واحد . وإذا تكلمنا عن الفن فقد نعنى به القصائد والأغانى والموسيقى . والفن من هذه الوجهة قد يفيد فى استبقاء روح محبة السلف والوطن مثال ذلك قصيدة الأنيد (Aeneid) والإلياذة (Iliad) من بين أمثلة العهد القديم وديكسى (Dixie) وأمريكا (America) من أغانى العهد الحديث . وقد يثير روح العطف على الفقراء كما تفعل مرثية غراى (Elegy in a Churchyard) . والموسيقى على أشكالها المختلفة تصل الى نفوس المتعلمين والأميين معا . وقد تحفز الجنود بتأثيرها الى أن يلقوا بأنفسهم فى كبات الموت . وهى توقظ عواطف المحبة . وهى اللسان المشترك العام بين بنى الإنسان .

ويكاد فن التصوير والرسم والنحت أن يكون فى قوته كالموسيقى . وقد وجدت رسوم فى مغارات أوروبا يرجع تاريخها الى ما قبل مائة ألف سنة [1] . ولكل شعب متوحش فنه الزخرفى . وقد بلغ بعضهم فيه درجات عالية فى الجمال لم يكن يظن أن مثله يبلغها . والنقوش الهيروغليفية فى مصر وأشور هى خليط من الفن والأدب يخبرنا عما كانت عليه مدنية بادت واليوم تذكر بلاد الإغريق بفضل ما وصلت اليه فى الفنون أكثر مما تعرف بقوتها الحربية أو السياسية .

على أن الفن ربما اتخذ أداة لتغذية الناحية المنحطة من الطبع البشرى؛ فقد وجد، ولا يزال يوجد، نماذج مزرية من الأدب ومن الموسيقى ومن الدرامة — وهى ميدان آخر عظيم القيمة فى ميادين الفن — وكذلك فى التصوير. وفى الناس من يتخذ الفن وسيلة لجعل الرذيلة جذابة كزخارف الحانات والصور المغرية فان كثيرا منها من الأعمال الفنية بالرغم من سوء أثرها . وقوة الضبط التى للفنون متباينة فقد تكون فى بعض الأحيان خفية دقيقة فى تأثيرها وتكون أحيانا قوية ومتملكة. على أن الفنون وإن كانت فى بعض الأوقات تستخدم فى الأمور المسفة كما هو الحال فى الحانة والماخور إلا أنها فى الجملة مما يرق النفس ويسمو بها . ولقد كانت عاملا قويا فى تقويم المدنية .

---

(1) انظر كتاب اسبورن *Men of the old age* .

الشخصية

ربما كانت قوة الضبط الناتجة عن الشخصية من الأمور التى بالغ المؤرخون فى تقدير قيمتها، ولو أن تأثير الشخصية فى نظر علم الاجتماع يختلف بعض الاختلاف عن نظرية " الرجل العظيم " فى التاريخ . فالشخصية معناها تأثير الفرد بقوة شخصيته فى جمهور الناس أو الجماعة . وقد يكون هذا التأثير ناشئا عن عظم الجسم أو روعة التقاسيم أو عن النشاط المدهش أو التحمس العظيم أو عن خاصة من الخصائص التى تستوجب الالتفاف . انظر الى عظم حجم الجسم الذى كان لبطرس الأكبر وما كان لنكولن من طول القامة والدمامة وما كان لكرمويل من مظهر الجد والعبوس . ولقد كان القواد الحربيون فى العادة كبار الأجسام فان لم يكونوا كذلك كانوا على جانب عظيم فوق المألوف من الإقدام والبسالة أو كان لهم مظهر حربى واضح . ويجد السياسيون أن حجم الجسم معوان عظيم فهو يكسب الإنسان وقارا ويسترعى النظر . وفى بعض الأحيان يعوض عن ضآلة الجسم وبشدة النشاط أو القوة أو بخصائص أو خلائق من قبيل عادة التحلى بمقدار مفرط من القصب كالمعروف عن ميرات Murat

ولا بد لمن يريد أن يكون قائدا من أن يكون ممن استوجب توقير الناس له وأن يكون الى حد ما ممن يستطيعون أن يبعثوا الهيبة فى النفوس . وهذا هو السبب فى أنه لا يوجد بين العظماء من هو عظيم حقيقة فى نظر خادمه وخلصائه وأقاربه . وتختلف الصفات اللازمة باختلاف مناحى الحياة، فالصيرفى لا بد له أن يكون ذا شخصية تدعو الى الثقة بنزاهته المالية. ولا بد للقسيس من أن يعرف بتقواه وورعه، وللعلم أن يكون ذا علم وقدرة على التعليم، وللتاجر أن يكون ذا اقتدار على بيع بضاعته أو اكتساب الثقة . ولا بد لكل من هؤلاء من شخصية خاصة . وقد كان هذا مشاهدا على الأخص فى معسكرات تدريب الضباط أثناء الحرب الأخيرة فقد كان لصنف الكاتب والملاحظ فى محال التجارة ولشرطى المرور ولطالب الكلية الحديث الصلف من شخصيتهم ذخرا أعظم مما كان لمديريهم أو أساتذتهم مكنهم من الحصول على مرتبة الضباط بسرعة . وإنما كان هذا كذلك بسبب الظروف الشاذة التى سادت فى تلك الأيام والى تغير موازين الأمور . ولعل هذا أحد الأسباب فى أن المتفوق فى الكلية كثيرا ما يخبط فى الحياة، وفى أن الطالب الذى يقطع مرحلة الكلية دون أن يلفت اليه النظر يظفر فى كثير من الأحوال بأعظم النجاح خارج الكلية .

وفى المجتمعات الأولية كانت قوة الضبط أى تولى السلطة بفضل شخصية من نوع ما كالقوة العضلية مثلا هى النوع المعتاد، وكان الزعماء ينتخبون للزعامة بسبب تفوقهم فى ذلك فلما نقلوا سلطانهم الى أعقابهم نشأت الأسر الملكية والحكم الملكى .

وقد كان هناك قادة أعوزتهم هـذه الشخصية ولكنهم استعاضوا عنهـا بالدهاء والمكر أو غيرهما من الخصائص . غير أن فقدانهم تلك المزية كان مع ذلك من العوائق فى سبيلهم . فاذا كان للانسان شخصية مهيبة كانت فرصة نجاحه فى الحياة أكبر منها بدونها .

وعلى الجملة فان التأثير بالشخصية صعب التحليل وإن كان أمره ظاهرا دائمـا . على أن قوة هذا الضبط آخذة فى الضعف لأن اتصالنا الشخصى بالغير أصبح أقل أهمية ؛ وذلك بسبب زيادة عدد قارئى الخطب على سامعيها زيادة بالغة ولأن القدرة على الكتابة تغلبت على القدرة على الخطابة ولحلول الضبط بالقانون محل الضبط بالقوة .

المراسم

أهم مقاصد المراسم والحفلات لفت النظر والتأثير فى الحاضرين بأهمية الحادث . فلبس القلانس والبرانس العلمية إنمـا هو لتوجيـه النظر الى أهمية اللابسين وإثارة الاحترام لهم فى النفوس . ولبس الشـعر المستعار والبرانس فى المحاكم وكذلك مراسم افتتاح الجلسـات مقصود منه ذلك أيضا . ومراسم التكريس فى الجمعيات الأخوية إنمـا هى لأشـعار المبتدئ بأهمية الخطوة التى يخطوها . ومراسم الزواج إنمـا هى للفت النظـر إلى جدية العهود والتغير الذى تتضمنه العلاقة الجديدة . والواقع أن المراسم تغشى الأمر بشىء من الإبهام، وقد تكون خداعة فى بعض الأوقات ولكن هـذه الناحية منها لم تعد ذات شأن كما كانت فى المـاضى على أن أثرها الفعال ليس أقل ولا أضعف اذا كان المشـاهد أو المبتدئ يفهم معنى المراسم على حقيقتها . بل الواقع أن أثرها فى كثير من الأحوال أبقى وأثبت لأن إدراك المعنى يجعل المراسم أدل على القصد وأهم . واذا كان بعض الأوضاع ضروريا للمجتمع فإن المراسم فيـه تؤدى وظيفة جليلة النفع اذ تسـتدعى الالتفات اليه والاهتمام به وتساعد بهذه الواسطة على حياة هـذا الوضع . أما اذا كان الوضع قد تعدى زمنه فقـد تضر المراسم إذ تطيل حيـاته فى المجتمع . وعلى الجملة فان المراسم شكل من أشكال الضبط الاجتماعى إلا أنه صغير الشأن .

وسائل الضبط الأخرى

هناك وسائل أخرى للضبط لا بأس بذكرها ؛ منهـا الواجب والإشارة (Allusion) والتقديرات الاجتماعية . والضبط بالإشارة ينحصر غالبا فى الإهابة بقوة الخيال بالإشارة إلى مبدأ يكون مقررا أو الى تقليد مرعى أو التنبيه إلى العرف مثل وجاهة الذهاب الى مدارس يوم الأحد أو كراهة الخروج يوم الأحد للانزلاق بالقباقيب (Skating) أو لصيد السمك : وكذلك الإهابة بعاطفة التماسك فى الجمهور وهى التى يلجأ إليها الزعيم السياسى لينصره الناس ويعطوا

أصواتهم فى مصلحته بلا تردد فإنها فى أكثر الأحيان قوية الأثر . ولكنها كثيرا ما تحبط ، وذلك إذا كانت مصلحة المجموع تعارض مصالحنا الذاتية الخاصة . مثال ذلك محاولتنا التخلص من الضرائب المطلوبة منا وإن كنا نعلم أننا بهذا إنما نعمل على زيادة الضرائب العامة . وإنما نحاول التخلص لأننا نهتم بضرائبنا الخاصة أكثر مما نهتم بضرائب المجموع . ونحن مع رغبتنا وتحمسنا فى أن يمتثل الغير ويطيع القانون ويعمل لمصلحة المجموع نرى ذلك شاقا علينا ونعمل على التهرب منه والتماس ما هو أهون . ومن طبائعنا أننا نسارع فنقترح على جيراننا مايجب عليهم عمله ولكن القليل منا من يكون راغبا فى اتباع الطريق الذى يدلنا عليه الواجب . ومع ذلك فان روح الواجب هـذا وهذه التنبيهات إلى قواعد الحياة الراقية لها أثر فى الأعمال الإنسانية فهى ممثلة فى قوانيننا وتقاليدنا وعاداتنا ولها أثر صالح فى مدنيتنا . ومن وسائل الضبط التى يتخذها القساوسة فى جميع البلاد الإشارة إلى الحياة الآخرة . ولكن الضبط بهذه الوسيلة آخذ فيما يلوح لنا فى الضعف ومعط مكانه لوسيلة الضبط بوحى الضمير والعطف أو روح الإيثار . فالناس بعبارة أخرى إنما يجرون اليوم فى الحكم على الأمور وفى تقديرها بعقولهم أكثر مما كان عليه الحال فى الأزمان الماضية فهم أكثر اتباعا لما تمليه عليهم عقولهم وضمائرهم وأقل اعتمادا على ما يقترحه الغير . والتربية لا تفتأ تقتلع تلك الوسائل وتحل محلها لأنها أكبر تأثيرا منها وأقدر على خدمة المجتمع .

الخصائص العامة للضبط الاجتماعى

يتضمن الضبط الاجتماعى على وجه الإجمال شكلا ما من أشكال الضبط بواسطة إحدى طبقات الشعب . فلم تكن القوانين فى أول الأمر إلا الأوامر العرفية الصادرة ممن كانت السلطة فى يدهم ، ثم وضع الحكام قواعد متناسبة لمصالحهم الذاتية وبعد ذلك ظفرت حقوق الطبقة المحكومة باعتراف الحكام بها وإن كان أولئك الذين كانت فى يدهم السلطة ظلوا يضعون القوانين بأنفسهم لمصلحتهم الذاتية سواء كان ذلك عمدا أو عن غير عمد . فالدستور الأمريكى مثلا على كونه وثيقة عظيمة إنما وضعته طبقة أصحاب رءوس الأموال على أنهم إنما وضعوه بدافع الرغبة بلا شك فى مصلحة البلاد بصفة عامة . ولكن هذا الدستور قد بالغ فى تقرير وجهة النظر الفردية فكان عائقا عن تحقيق كثير من الإصلاحات . والقوانين التى وضعها النورمانديون فى انجلترا كانت فى مصلحة النورمانديين دون سواهم فى بادئ الأمر ، وبعد أن اختلطوا بالزواج واعترفوا للانكليز السكسون بأنهم يستحقون الاعتبار صارت القوانين أميل إلى مراعاتهم . وكل طائفة دينية إذا كانت السلطة فى يدها تحكم لمصلحتها الذاتية . وكان النبلاء أيام الإقطاع يحكمون فى مصلحة النبلاء . وفى روما كان الأشراف Patricians يحكمون من أجل الأشراف . وفى بلاد الإغريق ما كانوا يعنون

إلا قليلا بغير أهل البلد . والواقع أن الضبط الاجتماعى قد اتخذ شكلا ما من أشكال السيطرة بواسطة إحدى الطوائف فى كل جهة تقريبا . حتى الرأى العام الذى يعد أعم وسائل الضبط الاجتماعى كلها وأوسعها مدى فانه ضبط من جانب أولئك الذين يبدون رأيهم أو من جانب الأغلبية أو الأقلية التى تستطيع أن تثبت حقها . بل إنا لنجد الرأى العام يوجه اتجاها خاصا وينمى على يد قليلين يصرفونه تبعا لمصالحهم إلى أقصى ما يملكون . وهذه هى الطريقة التى يجرى عليها السياسيون العصريون .

والآن يعرض لنا السؤال الآتى : إذا كانت طبقة من الناس هى الأسمى أليس لها الحق فى التسلط والضبط ؟ ويقال إن المجتمع المبنى على التنافس تكون فيه الطبقة السفلى هى الطبقة العديمة الكفاية عادة، وهذا هو السبب فى أنها هى الطبقة السفلى ، فاذا كانت الطبقة العليا هى الطبقة الأسمى فلماذا لا تحكم ؟ ونحن قد نسلم بوجاهة هذه الحجة ولكن يجب أن يتذكر الإنسان أن القوانين ينبغى أن ترعى حقوق الطبقات السفلى . ولكن إذا أصبحت تلك الطبقة وليس لها ذلك التفوق فهنالك يعرض لنا سؤال آخر لا يقل قوة عن ذلك وهو: لماذا تبقى لها السلطة ؟ ومن عادة المجتمع أن يجيب على هذا بالنفى ويبادر بإسقاط الطبقة الحاكمة ورفع طبقة أخرى تكون هى الأسمى ردحا من الزمن . فالأسر الملكية الأوربية الحاضرة تمثل من كانوا فيما مضى أقدر أهل أوروبا ولكنهم أصبحوا بعيدين عن أن يكونوا كذلك منذ أمد بعيد . ومع ذلك فان التقاليد والعادات والقوانين والرأى العام فى كثير من الممالك قد استبقتهم فى مراكز السلطة على أنهم التزموا أن يخضعوا للرأى العام ويسمحوا بانتقاص سلطتهم حتى لم يعد لهم من سلطتهم القديمة إلا أثر يسير . ثم يعرض لنا فى النهاية هذا السؤال : أيجب أن يكون الحكم للمتعلمين أم لذوى الهمة والنشاط أم للأقوياء ؟

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الضبط الاجتماعى متحول . فما يستطيع أى نظام بعينه أن يظل صاحب السلطة إلى الأبد . وكذلك لا يستطيع أى نظام بعينه أن يبقى على حاله من القوة والأثر على مضى الزمان ، لأنه لما كانت حاجات المجتمع تتغير فان الضبط يتغير تبعا لذلك . فالجهل يتطلب نوعا من الضبط يختلف بطبيعة الحال عما يحتاج اليه الأمر بين المستنيرين ، وهذا أمر ملحوظ على وجه التخصيص فى الطرق التى تستعملها الأديان المختلفة أو يستعملها الدين الواحد نفسه كلما تدرج أتباعه فى الاستنارة . فالمسيحية تضبط بطريقة

تختلف أشد الاختلاف عن اليهودية وهى ناشئة منها . كما أن ضبط المسيحية نفسه دائم التغير فضبطها للأسرة تتولاه الكنائس اليوم بطريقة أخرى غير ما كان فى السابق إذ الكنائس فى وقتنا هذا تجيز الطلاق مع أنها كانت فيا مضى تحرمه وبهذا تعترف بما يعترى المجتمع من تغير فى أطواره .

وكذلك الأمر فيا يختص بوسائل الضبط الأخرى فالقوانين تلغى ويوضع غيرها بسبب نشوء حاجات جديدة أو مختلفة وتهمل التقاليد والعادات وتبطلها وتحل مكانها تقاليد وعادات أخرى . وكذلك وسائل التربية تتغير فقد كانت الدراسات اليونانية واللاتينية مثلا ذات الشأن الأول منذ مائة عام أو ما يقرب من ذلك ثم جاءت العلوم الطبيعية من بعدها ؛ أما اليوم فالتيار يجرى آخذا فى التحول نحو العلوم الاجتماعية وذلك بسبب تقدير الحاجات المختلفة لكل زمن . ففى كل بضع سنين نجد تفوقا لإحدى الطرق فلما يثبت فضلها يقرها الناس ويستخدمونها . كما أن تضارب المصلحة فى المجتمع من شأنه أن يحدث تغيرات فى نظام الضبط فيحل نظام جديد محل آخر قديم . وكذلك المخترعات والمستكشفات فانها تحدث تغيرا فى وسائل الضبط كما يرى فى التغيرات التى طرأت على شؤون الحرب فالغواصة والطيارة مثلا قد أحدثت فى العهد القريب مسائل جديدة وكذلك السكة الحديدية والسيارة فانهما أحدثتا عادات وتقاليد وقوانين جديدة .

ولا بد لأى نظام من نظم الضبط الاجتماعى من أن يمارس سلطته بأقل ما يمكن من الاحتكاك بالناس ؛ فيجب أن يكون مستحبا غير مستثقل ويجب أن ينال إقرارا عاما أو إقرارا يكاد يكون كذلك ؛ ويجب أن يفيد الناس لا أن يضرهم . فالواقع أنه أسهل على الإنسان أن يقود من أن يسوق ومن ثم وجب ألا يثير عمل الضبط إلا أقل ما يمكن من مظاهر المقاومة والاستياء . أن كل ما يستطيعه القادة هو أن يشكلوا الرأى العام والآراء الدينية والسياسات التعليمية . ولا بد لجعلها ذات أثر من أن يناصرها جماهير الشعب . فانه إذا كان رأى الجماهير سيئا أو كانت عواطفهم فاسدة وكانت معلوماتهم صادرة عن خطأ كان من الواجب تغيير وجهة النظر بالتدريج والحذق ليتيسر تهيء الجهود للاصلاح . وإذا أريد سن قانون فلا بد من خلق عاطفة تحبيذ له قبل إمكان تنفيذه بنجاح . هذا ، والضبط بالإخافة لا يزال موجودا حتى فى يومنا هذا ولكنا نجد فى كل مكان تقريبا أن هذه الوسيلة أحط بكثير فى نهايتها من

أى نظام يقوم على رغبة الشعب فيه وإدراكه قيمته . ويجب ألا يؤدى الضبط الاجتماعى إلى إزهاق قوة الابتكار فى الفرد أو عرقلة مجهوده أو اعتراض عملية انتخاب الأصلح أو منع وسائل المنافسة وتنازع البقاء . وقصارى القول لا يصح فى الضبط الاجتماعى أن يناهض القوى التى كونت المجتمع إلا إذا لم تعد هذه القوى مفيدة للمجتمع ، بل أصبحت هادمة له . والواقع أنه لابد لأى وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى من أن تعتمد على ماتنطوى عليه من المزايا فتبق بفضل نفسها وتبطل بمجرد أن تعجز عن أداء مهمتها . هذا وحاجتنا إلى الضبط الاجتماعى لاتنقطع أبدا . نعم ليس لنا أن نرتقب درجة الكمال فيه ولكن يجب أن يكون قصدنا دائمـا منع الرجعى وذلك بالعمل على إضافة تحسينات إلى المجتمع . والمرجح أن الوسائل التى ستستعمل فى المستقبل ستكون ألطف وأمثل كلما ارتقينا فى مدارج المدنية ولكن سيبق الضبط قائمـا دائمـا وسيحتاج الأمر إليه دائمـا بقدر ما .

الفصل التاسع عشر

التنظيم الاجتماعى

لقد تمت العدة الآن لدراسة تنظيم المجتمع . فلقد كان من الضرورى قبل أن نشرع فى ذلك ألا نكتفى بدرس عوامل البيئة التى تؤثر فى حياة الإنسان ، بل كان حتما علينا أن نتناول الإنسان نفسه بأن نبحث فى مسألة سكنى بنى الإنسان الأرض ، وكيف عمروها وازدادوا عددا وقوة . وكان علينا أن ننظر فى تكون النظم الإنسانية وتدرجها فى الرقى قبل أن نتهيأ لدراسة بنية المجتمع نفسه .

رأينا ما كان من المحاولات الكثيرة لتقسيم المجتمعات وتحليل النظام الاجتماعى والتعاشر الإنسانى ، فقد حاول ذلك عشرات من الاجتماعيين وكان كل منهم يخرج من البحث بنظام يخالف نظام غيره[1] فوضع سيميل (Simmel) نظاما دقيقا أهمل فى سبيله مراعاة علم الاجتماع . ورسم جدنجس (Giddings) نظاما بالغا حد الغاية فى الدقة والتفصيل جعل أساسه الشعور بالنوع والإرادة المتحدة . وكذلك وضع غيرهما من علماء الاجتماع مثل سمول (Small) وتارد (Tarde) وراتزنهوفر (Rutzenhofer) وجامبلوفكس (Gumplowicz) ودوركيم (Durkheim) ودى جريف (De Greef) نظما للتعاشر الإنسانى وقد أضاف روس (Ross) أخيرا إلى هذه المباحث بحثا يدل على منتهى الحذق أشار فيه إلى ما يجب اتخاذه حيال أعمال المجتمع . وهذا البحث وإن كان شائقا جليل القيمة خارج عن دائرة هذا الكتاب . وجميع هذه البحوث جذابة مفيدة ولكن كل واحد منها غير كامل فان المجتمع على حال من شدة التعقد والتدخل بحيث لا يتيسر تبويبه بمثل تلك السهولة . إن العمل الاجتماعى لا يمكن إخضاعه لنظرية أو طائفة من النظريات ، لذلك فانا لا نحاول ذلك هنا وإنما نشير إلى بعض أحوال التنظيم الاجتماعى .

سبق لنا أن أبنا أن المجتمع يشتمل على عدد عظيم من الأشخاص يعيشون فى جماعات ، وأن كل شخص عضو فى جماعات متعددة فى وقت واحد ، إذ هو عادة عضو فى أسرة وفى مجتمع مدينته أو بلدته أو قطره وعضو فى جماعة أكبر من ذلك هى مجتمع الدولة أو الأمة التى هو منها ثم هو فوق ذلك عضو فى جماعة أوسع من ذلك مدى هى الإنسانية نفسها .

---

(١) أنظر الفصل الأول .

هذه الجماعات تؤلف دوائر ذات مركز واحد تشتمل كل دائرة كبيرة منها على ما هو أصغر منها من الدوائر . زد على هـذا أن كل شخص عضو فى جماعات أخرى ليست متناسقة مع الجماعات التى هو منها ولا موازية لها ولكنها كثيرة التداخل فيها ، وكل جماعة من هـذه الجماعات تؤثر فى الشخص ويؤثر الشخص فيها .

والحياة الاجتماعية أو التعاشر الإنسانى هى أن يعيش الأشخاص معا وأن يستمر اجتماعهم فى أحوال واجتماعات مختلفة ؛ فالناس يشتغلون معا ويلهون معا ويلتمسون مختلف المقاصد أو متحدها جنبا إلى جنب أو فى أماكن متعددة وأحوال مختلفة اختلافا واسع المدى . فمنهم من يجاهد فى سبيل الثروة ، ومنهـم من يعمل للشهرة وحسن الأحدوثة بكسب القضايا فى المحاكم أو تأليف القصص أو كشف العلوم أو بحفر الترع أو بنـاء المبانى الشاهقة ذات الطبقات الكثيرة المسماة "ناطحات السحاب" (Sky Scrapers) أو بالقاء الخطب أو بتحسين المخترعات أو بإنتاج التحف الفنية أو بإنشاء المعاهد ودور الصناعات . ومنهـم من يضرب فى الأرض ليحصل على الكفاف بالكد فى المناجم أو المحاجر بحرف الفحم أو بحفر الخنادق أو يلاحظ الآلات فى سيرها أو يرعى المـاشية أو يشتغل فى المزارع . ومنهـم من يسلك طريقا أقل نصبا فيشتغل بعمل فنى كالبناء والنجارة والحدادة والسباكة والتجصيص . بعض الناس خادم وبعضهم مخدوم . ومن الناس من يرى الأجور علامة النجاح ومنهم من يضع الفائدة المـالية فى المكان الثانى ويرى أن التبريز فى العمل والسعادة التى تشعر بها النفس عند إتقانه لا يقدران بمـال . ويجاهد السياسيون ورجال الدولة لنيل القوة والسلطان ويعمل رجال الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال للسيطرة على منابع الثروة . ويكافح المعلمون ورجال العلوم العقلية للشهرة ، ويكد القساوسة لتحسين الأحوال فى جهات عملهـم . ومن الناس من يعمل لرفع مستوى الإنسانية بالتبشير الدينى وخدمة المجتمع وبذل الإعانات بينما نجد غيرهم يجد فى افتراس المجتمع فيعمل على نيل أقصى ما يستطيع منه بلا عوض ، كالمجرمين، والسياسيين المرتشين ومن لا ضمير لهم من أصحاب الأعمال والصناعات الفنية . ومن الناس من يمـارس أعمالا مفيدة للمجتمع بينما يعمل غيرهم أعمالا مؤذية أو يعيشون عيشة مضرة بالمجتمع .

وبينما نرى جمهرة الأشخاص فى المجتمع يعيشون عيشة شريفة فيها جد وعمل نرى بجانبهم كثيرين يعيشون عيشة الطفيليات . وفى الناس من يعمل أعمالا بارزة كأعمال الرجل السياسى وأعمال مديرى الصناعات . وفيهم من يقوم بأعمال ليست أقل من تلك شأنا ولكنها غير ملحوظة بتاتا مثال ذلك العـمل الذى تقوم به أغلب الزوجات فى منازلهن كل يوم . ومن الناس من يلتمسون اللهو والتسلية ، ومنهم من يتخذون تسلية غيرهم حرفة لهم ؛ ومنهم أولو مواهب بالفطرة ومنهم من حرموا هذه المواهب . ومنهم من يستفيدون خير فائدة من الفرص التى تعرض لهم ؛

ومنهم من هو جذاب لطيف المعشر ومنهم من هو عتل بغيض . ومنهم طويل القامة ومنهم قصيرها ، ومنهم الضخم البادن ومنهم النحيف الضئيل . وبينا تجد فيهم المؤثر على نفسه صاحب العقل السامي تجد بينهم المستأثر الوضيع النفس والخلق. ففي الناس جميعا بعض صفات حسنة وبعض صفات سيئة ، وهم جميعا عرضة للتغير فيكونون مستأثرين في لحظة ومؤثرين في أخرى تبعا للأحوال. من مثل هذه المواد يتألف المجتمع — سواد عظيم الناس من جميع الطبقات في جميع أحوال التقدم والسعادة. وقد يشبه المجتمع بآلة ذات أجزاء كثيرة مشتبكة ، وربما كان أليق أن تشبهه بمصنع كبير به ألوف من الآلات معقدة مشتبكة أو بطائفة عظيمة من هذه المصانع بجميع آلاتها ، بعد أن قسمت أقساما . على أنه يستحيل علينا أن نذهب في هذا التشبيه بعيدا لأنه من المتعذر أن نستقر على ترتيب للآلات وأجزائها . فالمجتمع كما سبق لنا القول في الفصل الأول نظام عظيم من التعاون يؤدي كل شخص فيه — رجلا كان أو امرأة — نصيبه من العمل للمجتمع قاصدا أو غير قاصد لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش لنفسه لأنه جزء لا ينفصل من هذا النظام المعقد التركيب .

المجتمع كيان خلق وعقل لم ينشأ عن خطة ثابتة مدبرة ولكنه أثر التقدم الإنساني ونتيجة تكونت من التجارب والمجاهدة وبقاء الأنسب والأحسن لا من الأشخاص وحدهم بل ومن الآراء والمثل العليا والميول والنظم الاجتماعية . قامت أشخاص وطوائف وأمم وأجناس بعملها وأدت ماعليها ثم زالت . وهذا كله نتيجة عمل تدريجي — هو تكون ونمو مطرد وتجديد في التنظيم لا ينقطع .

المواصلة

كانت المواصلة الوسيلة التي تمكن الإنسان بفضلها من الاحتفاظ بما حصله ، الى أن سلمه الى أعقابه . ونقصد بالمواصلة هنا نقل الأفكار والآراء والكلمات والمقاصد وما يظهر على الوجه من دلائل النفس وما الى ذلك . ويتصل بعضنا ببعض اليوم بالكتابة والكلام والطباعة والتليفون والتلغراف البري والبحري والإشارة والراديو والسكة الحديدية والسفن البخارية والغواصات والمراكب الهوائية . ويستطيع الإنسان بالمواصلة أن يتصل بغيره على بعد الشقة فينتفع بأفكاره ويستفيد من خوالج وجدانه .

قال كولي (Cooley)[1] "الكلمة عجلة أو زورق منحدر من الماضي ويحمل بفكر أناس لم نرهم بتاتا ، فاذا نحن فهمناها فاننا لا ندخل بفضلها في عقول معاصرينا وحدهم بل في عقل الإنسانية الباقية على الزمن" فاذا عرضت لأي شخص فكرة جديدة استطاع أن يقيدها بالكتابة ويستذكرها اذا احتاج اليها وأن يمد بها سواه . وكان الناس قبل اختراع الكتابة يحتفظون

---

(١) ص ٦٩ من كتابه المسمى (Social Organization)

بحوادث الماضى بالرواية والحفظ وهما وسيلتان غير مأمونتين ، ولذلك فقدنا من الماضى شيئا كثيرا . فالكتابة لم يقتصر فضلها على إنها احتفظت بأفكار الأجيال الماضية، بل أنها جعلت المدنية أسرع خطوا وصيرت التاريخ فى متناول اليد اذ يستحيل بغير الكتابة أن يبقى الماضى بشكل صحيح . وقد أدى اختراع الطباعة ثم الليتوتيب الى نشر العرفان بين جميع الطبقات بجعله قريبا من متناول الجمهور . أما قبل ذلك فقد كان التعلم كثير النفقات لايحظى به إلا الأغنياء . وفى الحق أن الكتب حملت لنا حكمة الماضى ومكنت غير العاديين من نوابغ الرجال كيفما كانت منزلتهم الاجتماعية من رفع أنفسهم ورفع المجتمع معهم .

وقبل أن تعرض للانسان فكرة الكتب والطباعة والأبجدية بل قبل أن يعرف الكلام كان يتفاهم مع رفاقه بالإشارات والأصوات والعلامات . نعم كانت هذه المواصلة ساذجة صعبة ولكنه استطاع بفضلها أن يبلغ ذلك الطور الذى أصبح فيه التحصيل والتقدم أسرع خطوا .

وكان التصوير بأنواعه من وسائل الاتصال لأنه يحمل الآراء والعواطف ماثلة فى الصور والتماثيل والفسيفساء والأفاريز وشتى أشكال الزخرفة . وربما كانت الموسيقى أبعد منه مدى فى نقل العواطف والآراء كما كانت وسيلة للتقدم الاجتماعى والسيطرة على النفوس. ويعمل التصوير والموسيقى على توحيد منازع الناس اذ انهما ينقلان الى الجمهور أفكارا ومشاعر مماثلة .

وتختلف وسائل المواصلة الحديثة اختلافا كبيرا عن وسائل الماضى وهى أشد تعقدا وأكثر تركيبا . فالجرائد تنقل الى أبواب الناس على اختلاف طبقاتهم معلومات واحدة فيصيبون من ذلك ذخيرة من العرفان مختلفة الأنواع . ولقد تكون هذه المعلومات أحيانا غير صحيحة أو مقلوبة الوضع ولكنها تبقى معلومات على كل حال . والمواصلة الحديثة باستخدام المدونات الدائمة لا تنالها يد الزمان . وقد أصبحت بفضل سرعتها قادرة على التغلب على بعد المسافة فان الأخبار فى هذا العصر أسرع من حركة الأرض فى دورانها حول محورها . والمؤلف يذكر أنه قرأ فى إحدى الجرائد خبر اغتيال رئيس وزارة يابانى فى الصباح الذى يسبق المساء الذى وقع فيه القتل فعلا .

ولا يقتصر فضل اختراع التلغراف اللاسلكى على زيادة السرعة بل إنه يساعد على نشر المعارف . ولقد صارت المدنية بفضل الوسائل الحديثة السريعة ميسورة فقد أتاحت المواصلات للطبيعة الإنسانية أن تمتد وتتسع وتبدى ما يحول بخلدها . وفى استطاعتنا أن نعرف منزلة أى قطر فى المدنية بمقدار ارتقاء وسائل المواصلة فيه، وإنما يكون ذلك على قدر المكاتبات والجرائد التى ترسل والكتب التى تباع أو تقرأ وأميال السكك الحديدية الممتدة فيه وعجلات النقل التى تجرى على قضبان صغيرة (ترولى) وأسراب العربات العامة فى الشوارع وعدد الإشارات البرقية التى

ترسل وعدد الممرات (التليفونات) المستعملة بالنسبة لعدد السكان. ؛ ولا بد فى كل من الأحوال المتقدمة أن ينظر عند الموازنة الى اختلاف القطرين فى عدد السكان وفى المظاهر الطبيعية . ومن المسلم به أن القطر الذى يكون سواد سكانه غير متعلم والذى تنقصه وسائل المواصلات لايكون الا متأخراً، وأن القطر الذى انتشر العرفان بين جمهرة سكانه وكثرت فيه المواصلات وسهلت يعد بحق قطرا متقدما . والمواصلات لا يقتصر فضلها على تنظيم التقدم العلمى بل إنها تؤثر فى جميع نظم الأمة فهى تحدد خصائص الحكومة وطبيعة الدين وتقدم الفنون والآداب بل جميع وجوه حياة الانسان . والمواصلات وسائل نيل الرقى أو هى بالأحرى وسائل نقلها الى آخرين . والإنسان مفطور على تقليد بنى جنسه ولكنه محتاج الى الاتصال بهم حتى يتاح له هذا التقليد .

وبالمواصلة تنشأ تقاليد وعادات من شأنها أن تسيطر على أعمالنا بعد حين، وهذه التقاليد والعادات تنمو كما تنمو النظم الاجتماعية كالقوانين ونظام الحكومة والتربية والأسرة . ونحن نتقبل هذه التقاليد والعادات من غير مبالاة دون أن نفكر فى أننا بتمسكنا بها إنما نعمل على بقائها وتثبيت أقدامها أو أننا بالتبرم بها أو رفض العمل بها إنما نهدمها . وعلى هذا النحو يعمل كل شخص لاستبقاء نظم المجتمع أو القضاء عليها . فان هو ناصر الدين كان عاملا على تقوية نفوذه وإن انصرف عنه كان عاملا على إضعاف سيطرته فى المجتمع، واذا هو ناصر القانون والنظام ودفع ما عليه من الضرائب وصوت يوم الانتخاب فانه يقيم ركن القانون والحكومة؛ أما إذا اعتبر القوانين قيودا يجب التخلص منها وقصر فى التصويت يوم الانتخاب وراغ من الضريبة كلما استطاع فهو يهدم سلطة القانون . وهو يوم يشترى بضاعة إنما يعمل على معاضدة بعض الصناعات سواء أكانت فى يد الشركات الكبيرة المحتكرة أم الشركات الصغيرة . واذا اشترى من صناعة يرهق فيها العمال أو تستخدم فيها الأطفال فهو يساعد على دوام هذه المساوئ . والواقع أن كل شخص فى المجتمع يؤثر فى العادات والتقاليد والنظم التى تسيطر على المجتمع سواء قصد ذلك أو لم يقصد ، فهو أحيانا يكونها وأحيانا يقويها وأحيانا يهدمها .

وقد يعتبر المجتمع نتيجة للأعمال الاقتصادية والدينية والخلقية والحيوية والنفسية أو الفلسفية لأنه متولد من هذه جميعها متحدة . وكلها دائمة العمل والتأثير فى المجتمع وفى كل شخص هذه الميول مندمجة فى كيانه وهو يعمل لها أو عليها . وكل شخص خاضع لتأثير كل شخص . آخر متصل به سواء أكان الاتصال جسمانيا أم عقليا أم وجدانيا، وسواء أكان يرى الشخص الآخر أم يقرأ أحد كتبه وسواء أسمع أحد آراء الشخص الآخر أم تأثر بعمل من أعماله . وقد يكون هذا العمل الذى تأثر به صدر أمامه وقد يكون بصوت أبداه الشخص فى اجتماع مجلس مديرين منعقد على مدى أميال منه أو تعليمات أصدرها الى موظف لديه فى ولاية أو فى مدينة

أو قارة أخرى . على أنه يجوز أن الشخص الذى تأثر لم يسمع هذا الصوت أو هذه التعليمات بتاتا ويجوز أنه لم يدر إن كان هناك شخص أعطى صوتا أو أمر أمرا فى هـذا الصدد ، ومع ذلك يكون أثر ذلك فيه أثرا حيويا ، فقد يفقد منصبه أو ثروته أو حياته بسبب هذا العمل.

لأجل هذه الحقائق نرى التنظيم الاجتماعى من شدة الاشتباك والتعقد فى تكوينه بحيث يستحيل شرحه بأية نظرية أو طائفة من النظريات لأنه لشدة اشتباك شؤونه لا يمكن تقسيمه على مقتضى أية قاعدة . إن المجتمع يتألف من أشخاص يعيشون فى جماعات معينة تتأثر بميول خاصة وتسيطر عليها التقاليد والعادات ونظم الاجتماع . ألا إن مهمة علم الاجتماع يجب أن تنحصر فى هذه المسائل غير محاول البحث فى تقسيم مختلف العوامل فى المجتمع وتبويبها مهما كانت هذه البحوث لذيذة شائقة . لهذا جعلنا هذه الميول والقوى والنظم أهم غرض توخيناه فى بحثنا .

الطبقات الاجتماعية

المجتمع مؤلف من طبقات اجتماعية يتميز بعضها من بعض بحدود دقيقة كثيرا أو قليـلا يحمـل الناس على الاعتراف بها كثيرا أو قليلا . ففى بعض الأقطار نجد الطبقات محدودة حدا دقيقا جدا كما فى الهند ، وفى بعضها نجد الطبقات الاجتماعية المختلفة مثل طبقة النبلاء والطبقة الوسطى وطبقة الزراع أو خدام الأرض الدائمين التى كانت بفرنسا قبل الثورة الفرنسـية أو فى الروسيا حتى قبيل الثورة الحديثة . وفى بعض الأقطار يتسنى للأشخاص أن ينتقلوا من طبقة إلى طبقة وفى بعضها نجد هذا الانتقال محظورا حظرا شديدا . ولقد كان هذا الانتقال مستحيلا فى الهند فلم يكن يسمح لأى إنسان أن يغير طبقته . وفى الروسيا قبل الثورة كانت الأحوال الاجتماعية تجعل هذا الانتقال مستحيلا . وفى حكم الإقطاع كان الخدام الدائمون تابعين للأرض كما تتبعها مبانيها ومرافقها ، ولم تكن تعطى لهم فرصة لتغيير حالتهم . على أننا نجد أن بعض الأقطار ذات الحكومة الراقية حيث بلغ القانون والعدل أوجا بعيـدا كما كان فى روما كانت الطبقات الاجتماعية محددة تحديدا صارما ، فبينما كان الوطنى فيها يتمتع بمزاياه وحقوقه كان بها جمهور عظيم من الأرقاء ليس له حقوق ولا امتيازات البتة . وإنما كانوا يشترون ويباعون ويتهكون ويساء اليهم ويضربون ويعذبون بل يقتلون تبعا لإرادة ملاكهم أو هواهم ، كذلك لم يكن الوطنيون كلهم متساوين فى الحقوق فقد كانوا فى طبقات مختلفة أعلاها طبقة الأغنياء الذين كان يخدمهم أرقاؤهم وكانت الحكومة فى يدهم ، وأسفلها طبقة الدهماء الذين كانوا على حال من شدة الفقر بحيث كانوا يطعمون ويكسون ويسلون على نفقة الأمة . وفى عصور روما الأولى أيام أن كانت الفضائل مرعية ولم يكن اللهو والرذيلة على ما عرف عنهما من الذيوع بعد ذلك ، كانت هناك طبقات اجتماعية . فكان البطارقة (Patricians) يمثلون طبقة الأغنياء وكانوا هم الذين يتولون شؤون الحكم وحدهم غير مراعين

فى ذلك مصالح العامة وهم الطبقة الفقيرة أو الكادحة ، حتى ألزمتهم هذه الطبقة أن يمنحوها امتيازات أوسع مدى. وترتب على ذلك أن صار العامة جنودا فى الدولة، أما ضباطهم وقادتهم فلم يكونوا إلا من طبقة البطارقة . بل إننا نجد فى إغريقيا الديموقراطية، حيث بلغت حكومة المدينة أرقى درجات سموها وبلغت الحرية أبعد مدى معروف فى الأزمان السالفة ، فرقا بين الطبقات — ذلك أن حقوق الوطنية كانت مقصورة على الوطنيين ، أما الأجانب فكانوا محرومين كل الحقوق . على أن هــذه المساواة بين الأهلين فى حقوق الوطنية كانت مبنية على حالة من الاسترقاق كان الرقيق بمقتضاها محروما جميع الحقوق . وقد كان أمثال أفلاطون من الفلاسفة الطامحين إلى المثل الأعلى يقولون إن الرق حالة طبيعية مؤسسة على عدم تساوى الطبيعة الإنسانية . وفى مصر القديمة كان الكهنة والحكام معفين من جميع الضرائب وكانت لهم كل الامتيازات ، أما الدهماء فلم تكن لهم امتيازات وكانوا ملزمين الخدمة فى الجيش عند الحاجة ودفع كل الضرائب وفوق هذا لم يكن يسمح لهم بتحسين أحوالهم .

نشأت هذه الطبقات الاجتماعية فى الغالب من الفتوح ، وإن كانت ترتكز الى حد كبير على عدم التساوى فى القدرة الطبيعية . ولكنها وجدت على كل حال منذ بدء التاريخ . ثم إن التفاوت وجد مع الإنسان فى فجر التاريخ، ولكنه كان فى الغالب تفاوتا شخصيا نجم عن التفوق الشخصى فى العقل أو لعضل البدن أما الطبقات الاجتماعية فنشأت بنشأة النظام الاجتماعى بأن تأخذ إحدى الطبقات امتيازات أكثر من غيرها وتتخلص من بعض الواجبات المكروهة ولا سيما ما كان يتطلب الإجهاد البدنى ، وتختص نفسها بالأمور المستحبة كالزعامة السياسية والمناصب الدينية وولاية الأمور العامة .

وكلما تقدمت المدنيــة وأصبحت الحياة أكثر اشتباكا نجد هذه الطبقات المختلفة تزداد فى عددها وفى اشتباك شؤونها . ولقد حدثت محاولات لا عدد لها قصــد منها هدم الفروق وتكوين مجتمعات لا تكون فيها طبقات ، بل يكون الكل فيها على مستوى واحد فأنشأت مستعمرات شــيوعية ولكنها كانت تفقد قواعدها الاشــتراكية بعد وقت قريب أو بعيــد أو تهدم ما أنشأت . وعمل كثير من المصلحين على مناهضة الطبقات الحاكمة فخاب سعيهم أحيانا وفازوا أحيانا ، ولكنهم فى أحوال فوزهم كانت الطبقات الحاكمة تهزم وتهــدم فتنشأ طبقات حاكمة أخرى تحل محلهم . فالظاهر أنه من المستحيل منع تكوّن هــذه الطبقات ، بل الواقع أن هناك جانبا كبيرا من الصدق فى القول بأن هذه الأقسام ضرورية للمجتمع نفسه .
والرأى الحديث متجه الى الاعتراف بهذه الفروق الطائفية ولكنه يسمح للأشخاص بالانتقال من طبقة الى أخرى بشرط توافر الكفاية فيهم لهذا ، ويحظر اضطهاد طبقة لطبقة لحيلولة فى سبيل هذا الانتقال . وستبقى الطبقات الاجتماعيــة ما بقيت فروق فى الطبيعة الإنسانية وعدم تساو بين بنى الإنسان . على أن عدم التساوى هــذا لا يتوقف على الطبقة بل على الشخص نفسه .

نعم إن حدود الطبقات فى الولايات المتحدة أقل ظهورا منها فى غالب البلاد الأوربية ولكنها موجودة حقا. فبكل صقع ما يسمى بالطبقة الراقية ، وهى طبقة محدودة متميزة. وترسم الحدود بين طبقات الناس تبعا لأعمالهم ؛ فأعمال الشخص إما أن تسمح له بالدخول فى بعض المجتمعات وإما أن تحرمها عليه . وبالولايات المتحدة طبقات تقوم على أساس الثروة أو الدخل. وحال هذه الجماعات دائمة التنقل تبعا لحالة الإقبال الاقتصادى . والدخول فى مثل هذه الطوائف متوقف فى أغلب الأحوال على قيمة الشخص المالية أو قدرته على الإنفاق . وبيننا أيضا طبقات الصناعات العلمية ، وتشمل المحامين والمعلمين والأطباء وأطباء الأسنان. ويسمح للممتاز فى هذه الصناعات بالدخول فى أية طبقة أخرى، بل قد يلتمس منه ذلك التماسا . غير أن أعضاء هذه الصناعات يميلون عادة الى الاجتماع بزملائهم بسبب ما بينهم من المصالح والمطالب المشتركة . ويحتشد أصحاب الحرف كالنجارين والبنائين وما اليهم معا بسبب اشتراك المصالح فيما بينهم وهم فيما بينهم يؤلفون ما يمكن تسميته طبقة اجتماعية ترى نفسها أرقى فعلا من العمال العاديين، مع أن طبقتهم محتقرة أو أنها كانت كذلك فى الماضى — فى عين الكتبة وصغار التجار والمستخدمين فى الصناعات أو المتاجر حتى ولو كان الميكانيكى الحاذق يكتسب ضعف أجورهم . على أن الكتبة والباعة مستصغرون فى عين كبار رجال الأعمال كأصحاب المصانع ورؤوس الأموال والمصارف والسماسرة وكبار التجار .

ليس لطبقة من هذه الطبقات سيطرة على الحكومة فى الولايات المتحدة ، أو قل ليس لها سيطرة مباشرة ، لأنها لا تخلو من تأثير كيفما كان أمره ، ولكن الحدود الفاصلة بين الطبقات ظاهرة فى الولايات المتحدة واضحة . نعم أن الأفراد يستطيعون غالبا بقوة الإرادة والكفاية أن يلقوا عن أعناقهم أغلال طبقاتهم ويصعدوا الى الطبقة التى فوقها أو أن يصلوا الى الثروة كما أنهم قد يجبرون على الهبوط من طبقة الى طبقة بسبب نقص كفايتهم — ولكن الطبقات نفسها أشد ثباتا اذ يبقى أفرادها فى الجملة معا . وكثيرا ما يجاهر بعض هذه الطبقات بعضا بالعداوة. وتظهر فى كل حين كل طبقة عطفها على ذويها . وقد حاول الكتاب كثيرا أن يقسموا الطبقات الاجتماعية باعتبار منازلها فقالوا الطبقة "العليا" و "الوسطى" و "السفلى" ولكن مثل هذا التقسيم لا يفى بالحاجة دائما اذ تدعو الضرورة إثر ذلك الى تقسيم كل طبقة فيقال الطبقة " الوسطى العليا " أو " الوسطى السفلى " . ولكن سواد الأمة كثير التقلب ، ويشق جدا عمل أى تقسيم من هذا القبيل واذا عمل فما أسرع أن يصبح غير واف بالغرض لأن الطبقات الاجتماعية نتيجة الميول الاجتماعية وهى تعلو وتنحط تبعا لتغير أهمية هذه الميول . فعندما تكون الميول العسكرية فوق كل الميول تكون الطبقة العسكرية طبقة اجتماعية عالية ، وعندما تكون الميول الاقتصادية ذات الأهمية الرئيسية تكون الثروة عاملا هاما فى تعيين الطبقات الاجتماعية وكذلك الأمر فى مختلف الطبقات فان أهمية الطبقة تتوقف إلى حد كبير على أهمية الميل السائد .

وقيمة الطبقات الاجتماعية منتقصة فى كثير من الأحيان بالطعن عليها أو مزكاة بالدفاع عنها . فكثيرا ما تقوم الطبقات على أحوال مضى عهدها وحاجات لم يعد لها وجود ؛ غير أن الطبقات الاجتماعية من جهة أخرى تعد جزءا لا مندحة عنه أولا يستغنى عنه فى الدولاب الاجتماعى . ولكن لهذه الحالة عواقب تكون فى كثير من الأحيان ضارة بالمجتمع — فانه مما يضر بالمجتمع مثلا أن يكون به طبقة مستعبدة ليس لها حقوق أو طبقة عاملة ليس لها من الفرص، إن أسعدها الحظ، إلا ما يمسك رمقها وهى فى كل وقت على شفا جرف من الضيق. وقبيح أن تكون فى المجتمع طبقة تنعم بوسائل الترف وأخرى تعيش فى شقاء ، والحق يقضى بأن الطبقة التى تكون أكثر إنتاجا وأعظم إفادة للمجتمع يجب أن تنال الجزاء الأوفى وأن يكون لها فى المجتمع المقام الأسنى . نعم لا مشاحة فى أنه مما يضر المجتمع أن يكون فى حالة يستحيل معها على الفرد أن يرقى من طبقته الدنيا إلى طبقة فوقها ، لأن الحق والعدل يقضيان أن ينال الشخص الذى يعمل أكثر من غيره ويكون أنفع للمجتمع قدراً أكبر من الطيبات الدنيوية والمكانة الاجتماعية معا . وبينما نرى أن وجود طبقات اجتماعيــة محدودة مميزة شر مستطير يؤدى الى الظلم أحيانا ، فلسنا نملك إلا أن نقول إن هذا هو دأب المجتمع فى إثابة ما أسدى اليه من خدم . على أن السيطرة الاجتماعية كما استكشفنا فى الفصل السابق إنمـا تكون بالسيطرة على الطبقات وكذلك التقدير الاجتماعى فإنه إنما يظهر فى أقسام الطبقات .

قصد المجتمع وغرضه

قصــد المجتمع هو إحداث الرغد الاجتماعى . ولكنا إذا عمدنا الى فهم حقيقة المعنى المقصود بالرغد الاجتماعى وجدنا اختلافا كبيرا فى الرأى . نعم أنه يجب أن يقصد به إيصال أكبر قسط من الخير الى أكبر عدد من الناس نرى أن ما يكون من أعظم ضروب الخير فى حال لا يكون من أعظمها فى حال أخرى . فقد يكون الأمن والطمأنينة فى بعض الأوقات أهم ما يحتاج اليه المجتمع ، وقد يكون الاختراع والاستكشاف فى وقت آخر ، وقد يكون الرقى الصناعى والتجارى ، وفى وقت آخر يكون التقدم فى الآداب والعلم والتربيـة ، وقد يكون توفير الطعام فى بعض الأوقات أهم مقصد وفى غيرها يكون المقصد الأسمى حل معضلة مثل مسألة التوسع فى امتلاك الأرض .

ولا بد للمجتمع أن يعمل على تحقيق قوى كل شخص ونموها . ولكن المجتمع الكامل الطامح الى المثل الأعلى أعظم كثيرا من الفرد الكامل . والمجتمع الفاضل لا يسمح بتضحية شخص منه لأجل شخص آخر ، ولا بأن تصعــد إحدى طبقاته الى القمة ، بينما ترسف الأخرى فى قيود وأغلال . ولا يصح أن يقنع المجتمع بما لديه من تراث المـاضى كما هو حال الصين بل يجب أن يكون دائم العمل للتقــدم . نعم إن الكمال الاجتماعى محال أن يتحقق ، ولكن

يجب على المجتمع ألا يقف بل يجب أن يوالى العمل والتحصيل لأن حياة المجتمع وسنة بقائه فى دوام تقدمه. فالواجب على المجتمع أن يستمر فى خلق أحوال الوضع كل عضو فيه فى المكان اللائق به ، وأن يساعد كل فرد على أن يحل فى بنية النظام الاجتماعى على صورة أوفى وأنفع. وليس معنى هذا التسوية بين الناس لأنهم ليسوا سواء فى القدرة والقوى وانما معناه التسوية بينهم فيما يعرض من الفرص . فالمجتمع دائم المحاولة والمجاهدة — أو يجب أن يكون دائم المحاولة والمجاهدة — فى سبيل إعطاء كل شخص فرصة لبذل أقصى جهده وتقديم أقصى ما يستطيع فى هذه الحياة . وبعبارة أخرى ان واجب المجتمع توجيه كل إنسان إلى عمله على أحسن صورة مستطاعة .

والواجب على المجتمع أن يعمل دائما على إيجاد خير أنواع الحكومات — وهى الحكومة التى تستطيع أن تخدم المجتمع على أحسن أسلوب ممكن . فالاتجاه فى الوقت الحاضر مثلا انما هو الى ناحية لأنواع الديموقراطية والاشتراكية ، أى الأنواع التى تسمح بأكبر مقدار من الحرية والمساواة فى اقتناص الفرص . أن غرض المجتمع ترقية الفرد حتى يستطيع أن يحكم نفسه وبهذا تصبح سيطرة الحكم أقل مشقة عليه . واتجاه المجتمع من حيث الدين هو السماح بحرية واسعة وأن يكون للشخص الحق فى العبادة كما يطيب له ، ومساعدة كل شخص على أن يكون لنفسه عقيدتها لا أن يفرض عليه اعتناق مذهب غيره ، ومعنى هذا إقرار تسامح عظيم فى الدين . ومن أغراض المجتمع تكوين رأى عام مستنير حتى تكون سيطرته على السواد أنفع ومنها ذيوع الأفكار والمبادئ الخلقية العالية ، والقواعد الأدبية السامية ، والعادات والتقاليد الناهضة الراقية . ولا بد كذلك من العمل على تنمية روح العدالة حتى ينصف بعض الناس بعضا . وقد عمل الفلاسفة فى أوقات شتى . من عهد أفلاطون فما بعده — على تصوير نظم خيالية (Utopias) وأمثلة عالية للمجتمع ، ولكننا اليوم نرى غالب تلك المحاولات يدعو الى الضحك لأننا قد انتقلنا الى أحوال فى المجتمع أرقى كثيرا من تلك التخيلات التى عفى عليها الدهر . وقد حاول المصلحون عبثا أن ينشئوا مجتمعات نموذجية مؤسسة على مبادئ خلقية (Ethical) طايبة كمجتمع أونيدا : (Oneida Community) أو مزرعة بروك (Brook Farm) ولكنها حبطت جميعا ، على أن المجتمع كان فى أثناء محاولاتهم يغذ السير قدما لأن التقدم حركة حية مطردة السير الى غرض مقصود وليس أمرا عرضيا . نعم إنه لا مفر من تكرر حدوث الزلل فى سيره وتردد النكوص ، ولكن المجتمع مع ذلك مطرد التقدم .

سوء الوضع الاجتماعى

درسنا فيما سبق ميول المجتمع وتنظيمه وبحثنا بوجه عام مؤهلاته وتقدمه ونجاحه . ولكن المجتمع لا يقدر له النجاح دائماً فيما يحاول . فقد يعجز أحياناً كثيرة ويخيب سعيه فتجد فيه أحياناً بدل السعادة حزناً وشقاء وبدل الرخاء والراحة — الذين لا يفتر الناس عن العمل لتقريب متناولهما بزيادة المخترعات وتنمية الصناعة — فاقة وجوعاً . وبدلا من أن تكون ساعات العمل فى اليوم قليلة وهو ما يصبو إليه جميع العمال نجد يوم العمل فى كثير من الأحيان فوق طاقة العامل لا يتخلله إلا قليل من الراحة والترويح عن النفس والرياضة . وإلى جانب ما وصفنا من آداب السلوك العالية ، تلك الآداب التى لا يفتر المجتمع عن استكمالها ، لا تزال نجد الجريمة والرذيلة ومعاقرة الخمر والحاجة إلى قوة الوازع . كل هذه الأمور ناشئة عن سوء الوضع الاجتماعى و بعضها سببه المجتمع نفسه وبعضها يبقى عالقاً بالمجتمع على الرغم من كل الجهود التى يبذلها نحوه . ونحن الآن نتجه إلى هذا الجانب من علم الاجتماع فنتناول الأشكال الرئيسية لسوء الوضع بالبحث وهى : الفقر والجريمة والرذيلة . ولهذه الناحية من علم الاجتماع المكانة الأولى من اهتمام الباحثين . كما أن البحث فى المرض يستدعى عناية أعظم من البحث فى الصحة ، مع أن الصحة هى الأصل والقاعدة والمرض هو الاستثناء .

وإنما عنى الباحثون بدراسة هذه الناحية من علم الاجتماع لشدة الحاجة إلى الجهود المصلحة ذات الأثر النافع ، أما النظام الطبيعى للمجتمع فانهم يهملون النظر اليه لأنهم يرون أنه لا يحتاج إلى العناية . على أن سوء الوضع الاجتماعى ليس إلا ناحية واحدة من نواحى المجتمع وهو إلى ذلك ناحية غير طبيعية ، فهو لذلك فرع واحد من فروع علم الاجتماع .

الجزء الخامس

الفصل العشروں

الفقر

الفقر حالة من حالات سوء الوضع الاجتماعى

أغلب معضلات المجتمع آت من سوء الوضع . وأبرز هذه المعضلات وأهمها معضلة الفقر . على أن فى الدنيا من الثروة الاقتصادية ما يكفى لتفريج ضائقة الفقر القائمة . بل الواقع أنه فى الأوقات التى استحكمت فيها حلقات الفقر (ماعدا أوقات المجاعات والكوارث العامة) كانت الثروات والضياع فى الجملة فى أزهى أحوال نموها وازديادها . فبينما كانت إيالات روما يستنفد معينها فى سبيل تحصيل ماعليها من الضرائب كان سيل الغنى يتدفق فى مدينة روما وتتراكم أكداس الثروة فيها . وكنت ترى التبذير باسطا كفيه وترى الإتلاف والتبديد فى كل ناحية وفى كل مكان . وفى فرنسا قبل ثورتها الكبرى أيام كان الفلاحون فى حالة ضيق اقتصادى موئس ، كان سراتها ونبلاؤها منغمسين فى حياة الفراغ والملاهى الصاخبة . وفى أيام الثورة الصناعية فى انجلترا أيام غمر الناس الشقاء والفقر وكان ألوف منهم فى مجاعة تامة كان أصحاب المصانع يكدسون الثروة تكديسا . وفى الهند حيث يكثر الشقاء والضيق ويكاد سكانها عامة يعيشون على شفا جرف من الفقر — بحيث لو بخلت الأرض بغلتها لمات الألوف منهم جوعا — تجد الأمراء الوطنيين وطبقة السراة فيهم ذوى ثروات طائلة مدخرة . وكذلك الأمر فى الصين وفى جميع الأقطار قديمها وحديثها لا تجد ثروة بالغة حتى تجد الى جانبها شقوة غامرة . وحينما أنشئت فى أصقاعنا الجنوبية مزارع واسعة فياضة بالثروة بسبب استخدام الأرقاء أضطر فقراء البيض الى النزوح الى المناطق الرملية القاحلة من سفوح الجبال . وفى مدننا العظيمة حيث تكدس الثروة وتتراكم تجد أشد حالات الفقر والعوز . والمشاهد أنه كلما كانت المدينة أكبر والثروة أعظم كان الفقر أشد أنكى . وما على الانسان إلا أن يتناول كتب جاكوب ريس (A. Riis) وكتاب جاك لندن المسمى " أهل الهاوية " (People of the Abyss) أو كتاب بوث (Booth) المسمى " حياة أهل لندن وكدهم " (Life and Labors of the People of London) ليجد البرهان الساطع فى هذا الصدد كما أن فى مؤلفات ديكنز (Dickens) وفيكتور هوجو (Victor Hugo) صورا لأحوال ماضية ملأى بما كان فيها من الويل والأسى .

نسمع آنا فآنا بزيادة إنتاج سلعة من السلع ، كالأحذية أو البضائع القطنية أو الصوفية أو الأثاث وما إلى ذلك ونسمع على أثرها ببطالة العمال وتوالى نقص الطلب . وفى الوقت الذى يحدث فيه هـذا الذى يسمونه زيادة الإنتاج نجد أن هناك ألوفا من الناس فى أشد الحاجة إلى هذه السلع عينها . نجدهم فى حاجة إلى قمصان حين يكون هناك زيادة فى إنتاج هذه السلع القطنية. ونرى أطفالا يسيرون حفاة حين يكون هناك زيادة فى المصنوع من الأحذية . ونرى نساء ورجالا فى حاجة إلى الملابس المدفئة حين تكون الملابس الصوفية كاسدة فى الأسواق . نجد هؤلاء الناس فى نفس هذا الوقت عاطلين من العمل لا يستطيعون الحصول من المـال على ما يشترون به حاجتهم من هـذه الأشياء أو أنهم مع عملهم الشاق لا يكسبون ما يكفى لشرائها. و بينا نرى بعضهم يموتون جوعا نرى غيرهم يسرفون فى ألوان الطعام إسرافا . و بينا لا نجد عنـد بعضهم فلسا يشترون به طعاما نجد فريقا ينفق أحدهم خمسة دولارات أو عشرة فى غدائه ثم يمنح النادل دولارا آخر لأنه أحضر له غداء بهذا الثمن . على أن الثروات إذا قسمت بالسوية بين الناس فما هو إلا وقت يمضى حتى تعود الحالة إلى ما كانت عليه. غير أنه إذا سار نظامنا الاقتصادى كما يجب أن يسير تهيأت لكل إنسان فرصة الحصول على معاش كاف وأصبحت أحوال الفقر المدقع نادرة. نعم إن الناس يتفاوتون فى مقدار الكسب لأنهم متفاوتون فى الجدارة والقدر ، ولكن يجب أن يسير نظامنا الصناعى بحيث ييسر لكل شخص قادر البنية ذى ذكاء عادى أن يكسب قوته لا ليعيش وحده عيشة لائقة بل ليعول أسرة ذات عدد عادى حتى يتمكن بسبب ذلك من القيام بواجبه نحو استبقاء الجنس . والواقع أننا فى جميع الأحوال تقريبا حين نجد ناسـا بلا عمل ، نجد عملا يتطلب الإنجاز وسلعا واجبا أن تنتج . فلا بد إذن أن توضع حالة سوء الوضع هـذه موضع الاعتبـار حينما تتجه الجهود الإنسانية لحل مشكلة الفاقة والسعى فى علاج الموقف الاقتصادى بدلا من الاكتفاء بمجرد تفريج الضيق والشقاء .

ما الفقر ؟

هنا يعرض السؤال " ما حقيقة الفقر ؟ متى يكون الإنسان فقيرا ؟ " وقد نجيب أولا بأن الفقر فى معظم أحواله حالة عقلية اعتبارية. فقد يعد أحد ساكنى الجبال فى ولاية كنتاكى (Kentucky) غنيا إذا كان يمتلك بقرة ودارا ذات ثلاث حجرات . وقد يرى الزنجى نفسه غنيا إذا كان فى جيبه أربعة من الدولارات فى حين أن رجل المـال قد يعمد إلى الانتحار إذا هو تدهور إلى المليون الأخير من ثروته خشية ما يلقاه من عار الفقر . والفلاح الإيطالى العائد إلى بلاده وفى جيبه خمسمائة ريال يعد غنيا بينما الكونت ذو الضياع الواسعة قد يعـد فقيرا إذا هو لم يملك من المـال ما يكفى للقيام على هذه الضياع . والحقيقة أننا فى العادة نعد

الناس فقراء إذا أعوزتهم حاجات المعيشة العادية مثل الغذاء الصالح والكساء الواقى والمسكن اللائق والاطمئنان إلى استمرار تيسر هذه الحاجات. وسنعدّ فى هذا الكتاب أمثال هؤلاء الناس دون غيرهم فقراء قاصرين المراد من الفقر على هذا المعنى المحدود .

المُصَدِّق [1] (Pauper) من يأخذ من الدولة معونة بأى شكل قانونى . ولا يحتم أن يكون المرء مُصَدِّقاً ليسمى فقيرا . كما أنه لا يحتم — لسوء الحظ — أن يكون فقيرا ليكون مُصَدِّقاً. فقد يكون فى الناس من هو فى فقر مدقع ثم لا يلتمس معونة أحد. وقد يكون المرء غنيا ويكون مصدقا . وكثيرا ما نسمع عن أشخاص يموتون فى دور الاحسان تاركين وراءهم ثروة لم يخطر لأحد أن تكون فى حيازة أمثالهم . ولقد وجدت ألوف من الدولارات فى حيازة سكان دور الصدقات أو حيازة أشخاص تعولهم المدنية . ويتوقف الفقر إلى حد بعيد على نوع مستوى المعيشة . فما قد يسمى فقرا فى الولايات المتحدة قد يعد رخاء فى الهند أو الصين أو سورية ، لأن درجات المعيشة الرغدة مختلفة . فنحن فى الولايات المتحدة نعد تعليم الأولاد ضرورة فى حين يعد التعليم فى الصين أو الهند متعة مقصورة على أهل الثروة . ونحن نرى تناول ثلاث وجبات فى اليوم أمرا جوهريا فى حين أن غيرنا قد يكتفى بأقل منها . وفى حين أنهم فى اسكندناوة وألمانيا يرون أن أربع وجبات، وأحيانا ست وجبات أو سبعا، أمر ضرورى . ونحن نرى أن التفريق بين الجنسين فى السكنى أمرا واجبا وليس الأمر كذلك فى بعض الجهات . وفى بعض الأقطار يكلفون الأطفال العمل لمساعدة الأسرة . أما نحن فنكره هذه الحالة وننادى بوجوب جعلها غير ضرورية . فمن هـذا يتضح أن الفقر يتوقف إلى حد كبير على العادة والتقاليد .

وليس الفقر دائما فقدان الحاجات المعاشية ، فإن رجل جورجيا المعروف بالكراكر Cracker ليس من مستحق الصدقات إنما يعوزه التغير فى آرائه لا المعونة . وكذلك الأمر فى رجل كنتاكى ساكن الجبال أو فى الزنجى فإنه لا يدرك أنه فقير. ولا بد لمن يريد أن يستحث هؤلاء على تغيير حالتهم أو معالجتها من تبصيرهم بحقيقة حالتهم أولا. على أنا من جهة أخرى نجد فى الدنيا أناسا ينكرون على أنفسهم حاجتهم البدنية التماسا لتحقيق حاجتهم العقلية. فهناك طلبة يقضون مدة دراستهم حارمين أنفسهم فى كثير من الأحيان ما يجب لهم من الغذاء والكساء ونجد آباء يلجئون إلى التقتير لكى يتيسر لهم تعليم أولادهم فى المدارس . ونجد أناسا يؤثرون الجوع رغبة فى ادخار شىء من المال يمنحون الكنيسة إياه . والحقيقة أن الدين والتقاليد فى كثير من الأحيان يتطلبان مطالب كثيرة . فإننا نرى كثيرا من المهاجرين والزنوج ينفقون كل ما يملكون أو ما يجمعون ليقيموا لموتاهم جنازات فخمة تعادل جنازات

---

(1) المصدق بضم فتح فتشديد مع الكسر كمحدث آخذ الصدقات (المعرب) .

غيرهم . وكذلك الأمر فى الزواج إذ يتعجلون أخذ أجورهم فى سنوات طويلة لكى يتمكنوا من دفع نفقات حفلاته . ونجد فتيات يلبسن ثيابا رقيقة فى الشتاء وفراء فى الصيف . ونجد أناسا يعيشون على طعام لا يقوم بتغذيتهم لكى يلبسوا على أحدث طراز . والواقع أننا نجد فى الدنيا حاجات يجعلها الناس مقدمة فى اعتبارهم على ضرورات الحياة الحقيقية حمقا وجهلا . ونجد أناسا من جهة أخرى يحرمون أنفسهم من أجل رفاهية غيرهم . لذلك كان الفقر فى كثير من الأحيان نتيجة الحمق كما كان نتيجة الإيثار.

ولكن المجتمع دائم التقدم ومستويات المعيشة لا تفتأ ترتفع وتعلو . ويصاحب هذا التقدم ازدياد طلب السلع الاقتصادية. ومن شأن هذا أن يجعل الشدة أعظم وخطر الفقر أكبر. ومن ثم يعلو حد الفقر عما كان عليه فى الماضى . وإذا ازدادت الثروة والرفاهية ازداد خطر الوقوع فى الفقر على نحو أشد وأعظم . ونحن فى العادة نعد فى الفقراء من هم غير قادرين على الاحتفاظ لأنفسهم بالحد الأدنى من المعيشة وهو الحد الذى يقرره العرف الشائع .

مدى الفقر

الفقر أمر وجد فى كل زمن ولا شك فى أنه سيوجد فى المستقبل دائما ، وإنما يختلف باختلاف درجته . نجد الفقر فى جميع الأقطار بين جميع الطبقات وفى جميع أطوار المدنية. فقد كان الفقر فى مصر وفى بابل وأشور وفارس وكان فى أرض اليهودية أيام المسيح (عليه السلام) وذكره محمد (عليه السلام). ونرى الفقر بين المتوحشين لأن الناس يعدون فقراء بالنسبة الى مستوى المعيشة فى عرفهم. وكذلك الأمر فى أهل أستراليا الأصليين فانهم فى أسوأ حالات الفقر إذ يجدون مشقة عظيمة فى تحصيل القوت وإن كان أمر الكسوة والسكن لديهم من الأمور التى لا يكادون يرونها ضرورية . والفقر المدقع اليوم مخيم فى الصين حيث جماعات الشعب هناك فى تنازع عنيف فى سبيل البقاء . وكذلك فى الهند حيث يترتب على بوار إحدى الغلات موت الألوف من الناس . ولقد رأينا عند ما تناولنا موضوع الهجرة كيف أن الفقر لا يقتصر شره على أن يهوى بالطليانى والصقلى الى هوة من الشقاء والشدة بل يقيدهما ويعجزهما عن النهوض الى حالة أرقى فى المدنية ويدفعهما الى الانحطاط وإصابة مدينتنا بالأذى .

ولكن الفقر، باعتبار أنه معضلة كبيرة، غير مقصور على الماضى أو على الأقطار التى هى أقل منا فى المدنية فانه منتشر بين أرقى الأمم مدنية . وهو غير مقصور على فئة قليلة من البائسين ولكنه يتناول قدرا كبيرا من السكان. ولقد قدر بوث (Booth) نسبة الفقراء فى مدينة لندن بثلاثين فى المائة من سكانها مع أنه جعل قياس الفقر عند حد حطيط جدا . وذكر راونترى (Rowntree) بعد بحث أجراه فى يورك سنة ١٨٩٩ أن من سكان يورك — الذين

هم دون طبقة من يستخدمون الخدم فى بيوتهم — ٢٧٫٨٤ فى المائة من الفقراء . أى أنهم ماشون فى حالة فقر (بمعنى أن مكاسبهم غير كافية لإمدادهم بما يناسب من الغذاء والكساء والسكن لاستيفاء كفايتهم البدنية) . أو قريبين من تلك الحالة قربا يجعلهم عرضة الى الوقوع فى غمرة الفقر فى أى وقت .

وذكر هانتر (Hunter) [1] أنه وجد فى سنة ١٩٠٣ عشرين فى المائة من أهل بوستون فى شدة الضنك وأن تسعة عشر فى المائة من أهل ولاية نيويورك فى سنة ١٨٩٧ منهم ثمانية عشر فى المائة فى مدينة نيويورك كانوا فى مثل تلك الحالة . وذكر أيضا أن أربعة عشر فى المائة من أسر مانهاتان (Manhatan) كان يحكم عليهم كل عام بالإخلاء بسبب عجزهم عن دفع إجارات المساكن . وأن نحو عشرة فى المائة ممن يموتون فى ما نهاتان يدفنون على نفقة الحكومة . وذكر أيضا أن أربعة عشر فى المائة على الأقل فى سنى الرخاء، وعشرين فى المائة على الأقل فى السنوات السيئة ، يكونون فى شدة وضائقة. وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن هذا العدد الجم من الناس تجرى عليهم الصدقات . ففى سنة ١٩١٠ لم يدخل دور الصدقة إلا قرابة ٧٠٠,٠٠٠ نفس وهو عدد دون الواحد فى المائة من مجموع السكان فى الولايات المتحدة . ولكن اذا أضفنا الى هذا القدر عدد من يتناولون الصدقات من جماعات الخير فى خارج تلك الدور وأولئك الذين يصيبونه من الأشخاص ، نجد أن هذه النسبة ترتفع الى ما يقرب من خمسة فى المائة وهو الرقم الذى يذكر دائما تقديرا لمن يتناولون صدقات فى الولايات المتحدة فى سنة واحدة . على أن نسبة هؤلاء فى مدننا الكبرى أزيد من ذلك فهى تبلغ عشرة فى المائة تقريبا فى مدينة نيويورك . واذا لاحظنا فى تقديرنا الجم الغفير ممن يلتمسون المعونة ولا ينالونها أو أولئك الذين لا يلتمسونها منهم نجد أن تقدير هانتر لا يجاوز الصواب . على أن هذا لا يدل على أن هذا القدر من الناس فى حالة عوز مستمر و إنما يدل على أنهم فى ضائقة فى مدى جزء من السنة على الأقل .

والشدة فى الغالب أمر موسمى فهى أكثر فى الشتاء منها فى الصيف، وذلك نظرا الى ازدياد الحاجات فى ذلك الوقت الى الوقود والكساء والغذاء . والعمل فى ذلك الفصل يكون فى كثير من الأحيان أقل منه فى سواه . ومن ثم تكون المجاهدة فى سبيل الموازنة بين الدخل والخرج أشد

نعم إن أسرة الأجير تستطيع أن تقوم بشؤونها فى مدى الجزء الأكبر من العام ولكنها تعيش قريبة جدا من حد الفقر بحيث إذا أصابتها نكبة مفاجئة من بطالة ولو كانت مؤقتة — أو وقوع حادثة أو مرض اندفعت على عجل وراء ذلك الحد .

---

[1] ص ٢٠ — ٢٧ من كتاب Poverty تأليف روبرت هانتر (Robert Hunter) .

أسباب الفقر الخارجية

نعنى بالأسباب الخارجيــة البيئة والأحوال الخارجية عن الشخص نفسه وتكون الى حد كبير وراء مقدوره وإن لم تكن كلها كذلك . هذه الأسباب تعادل من ستين الى خمسة وسبعين فى المــائة من أسباب الفقر جميعها . ولقد سبق لنا القول بأن الفقر انما يحدث فى الغالب من ســوء الوضع فى المجتمع وأن أغلب الأسباب المحدثة ذلك خارجة عن طوق الشخص . أما أسباب الفقر فمن الصعب تبويبها ولكن ربما كان فى التبويب الآتى أساس علمى لذلك .

١ — عدم كفاية الموارد الطبيعية

من العوامل القوية فى ذلك ضعف التربة أو الحاجــة إلى المطر أو فرط برودة المناخ أو عدم قدرة الطبيعة على أن تعطى الإنسان معاشا ، كما هو الحال فى بلاد التبت واسكوتلاندة وبلاد العرب ولابرادور وشمــالى سيبريا والصحراء الكبرى . وفى الولايات المتحدة أجزاء لاتنتج أرضها من الغلة إلا القليل مثل الأصقاع الجبليــة من ولايات نيوانجلاند والكارولينا وأريزونا ونيفادا . والإنسان عامل على التغلب على هــذه المصاعب فهو مستعيض عن المطر فى كثير من الجهات بالرى . كما أن طرائق الزراعة الجافة جاعلة فى الإمكان إنتاج الغلات بمقدار قليل من الرطوبة . وبحسن انتقاء الحبوب أمكن استغلال أصقاع فى أقصى الشمال مثل ساسكاتشوان والبرتا وكولومبيا البريطانية .

وقصارى القول ان الانسان لا تفتر له همة فى محاولة التغلب على هذا السبب الطبيعى من أسباب الفقر إما باجبار الطبيعة على الإنتاج على الرغم منها وإما بتغيير نوع العمل المحلى كإحلال الصناعة والتجارة محل الزراعة كما هو الحال فى نيوانجلاند .

٢ — الأحوال المناخية غير الصحية

ســوء الأحوال المناخية مشاهــد فى الأصقاع المعرضة الى أوبئة مثل الملاريا والحمى الصفراء والكوليرا والدودة الخطافية والنوام (مرض النوم) . مثال ذلك أصقاع باناما وكوبا والصقع القريب من نهر المسيسبى ووادى الأمازون . وقد أخذ العلم فى التغلب على هذه الأمراض وإن كان سيره فى هذا لا يزال بطيء الخطى ولذلك أصبحت هذه الأقطار أقل ترويعا للنفوس بل أصبح كثير منها صحيا مثل كوبا وبناما .

٣ — سوء الحكومة

هناك أمثلة لسوء الحكم فى الأمم القديمة ولا سيما مصر وبابل وأشور وفارس وروما ، حيث كانت الايالات موضع النهب والسلب . ويدخل تحت هذا العنوان سوء نظام حيازة الأرض كما هو الحال فى انجلترا وإيطاليا والنمسا ، وكما كان الحال فى غالب أقطار أوربا . ويندرج

تحت ذلك أيضا الحكومات التى تهمل العناية بالاحتياطات الصحية ونخص منها بالذكر تركيا وإيطاليا وغالب البلاد الصقلبية . كما أن المدن التى تشيع الرشوة فى إدارتها السياسية — وغالب المدن الأمريكية الكبيرة يدخل تحت هـذا — تعمل على ذيوع الفقر . والتعريفات الجمركية التى تضع رسوما على ضرورات الحياة مثل السكر والملح والقمح وجميع المواد التى يحتاج اليها الفقراء والضرائب الخرقاء مثل ضريبة الملكية العامة فى الولايات المتحدة، وكذلك أعمال الطمع والنهم وعدم كفاية الإدارة الحكومية — كل هذه عوامل قوية فى احداث الفقر. على أن هذه الأحوال سائرة على مهل فى طريق الإصلاح فنظام الحيازة المعيب آخذ فى الزوال شيئا فشيئا. وقد تحسنت اليوم نظم الضرائب ولا سيما ضريبتا الميراث والإيراد. وقد أخذت هـذه النظم الجديدة تحل فى أغلب الأقطار محل ضريبة الملكية العامة . وقد أخذنا نقضى على الرشوة فى مدننا ولكنها لا تزال تصرف الأمر فى كثير من حكومات ولاياتنا صغيرها وكبيرها .

٤ — سوء التنظيم الصناعى

١ — البطالة :— تظهر الدلائل على سوء التنظيم الصناعى فى كثير من أحوال المجتمع . وأول هذه الأحوال البطالة ، فهى أس كثير من مشاكلنا الاجتماعية ؛ إذ المجتمع مؤسس على العمل ، والإنسان فى هذه الحياة مثقل بتكاليف لا يستطيع القيام بها إلا بما يناله من أجر عمله . وبعبارة أخرى يصح لنا أن نقول إننا نقدر الأشياء بالمـال، فاذا ذهبت قوة تحصيل المال انهار نظامنا انهيارا . وكان الناس يقولون قديما إن فى استطاعة أى إنسان أن يجد شغلا اذا هو أراده ، ولكن أحوال اليوم قد ذهبت بصدق هذا القول . فان ثلث مسائل العوز التى فحصت عنها معاهد الصدقات الامريكية قبل الحرب آت من البطالة ؛ ولو أمكن الحصول على إحصاءات لكانت نسبة هؤلاء أعلى من الثلث فى هذه اللحظة التى نكتب فيها ، لأن هناك الوفا من الناس لا يقدرون على الحصول على عمل فى كل فصل من فصول السنة على الرغم من رغبتهم فى العمل وعلى الرغم من جدارتهم واقتدارهم . ذلك لأن العرض فى الأعمال محدود بالنسبة الى سواه ، أما الطلب فدائم التقلب . فطلب الأعمال ينشأ من طلب الحاجات ، وطلب الحاجات يتوقف على مقدار الدخل وهذا يتوقف على العمل . فالمسألة كلها إنما هى سلسلة لا حد لها ، وأى فصم يصيب إحدى حلقاتها يتلف تركيبها . فاذا أصاب أى عمل من الأعمـال الكبيرة حبوط أو شىء من عدم الاطمئنان أو تزعزعت الثقة به أو منى بفشل أو دهمته كارثة ترتب على ذلك اختلال دولاب النظام برمته. والبطالة دليل من أدلة سوء الوضع فى المجتمع وهى فى الغالب ناشئة عن سوء التوزيع ، لأن المتعطلين فى مدينة شيكاغو مثـلا قد يكون الأمر محتاجا اليهـم فى نيوأورلينس أو فى حقل الغابات فى الشمال . على أننا لا ننكر أن فى السنة فصولا يكون فيها العمل قليـلا ؛ وأن لكل صناعة

أشهرا يتراخى فيها العمل مثل أشهر الشتاء فى المزارع وفى حظائر تربية الماشية وفى إنشاء السكك الحديدية وكذلك فى كل عمل يعوق البرد سيره . والبناءون والنجارون يتعطلون قليلا أو كثيرا أيام الشتاء . ومن الأعمال ما يكون بطبيعته موسميا مثل الخياطة وجمع القطن وقطف الأثمار وحصد الغلات .

وقد ذكرت لجنة المؤتمر الصناعى الوطنى بنيويورك فى تقريرها الصادر فى ٢١ يناير سنة ١٩٢٢ الإحصاءات الآتية عن أسباب عدم العمل فى نيويورك وماساتشوسيت :

سنة	جميع الأسباب		عدم الشغل		الإضراب والطرد		المرض والحوادث	
	ماسا .	ن . نيويورك	ماسا .	ن . نيويورك	ماسا .	ن . يورك	ماسا	ن . يورك
١٩٠٤	—	١٦٫٩	—	١٢٫١	—	٣٫٦	—	١٫٢
١٩٠٥	—	١١٫٢	—	٨٫٤	—	١٫٦	—	١٫٢
١٩٠٦	—	٩٫٣	—	٦٫٧	—	١٫٤	—	١٫٢
١٩٠٧	—	١٦٫٢	—	١٣٫٦	—	١٫٢	—	١٫٤
١٩٠٨	١٤٫٢	٢٩٫٧	١٢٫٥	٢٧٫٩	٠٫٦	٠٫٤	١٫١	١٫٤
١٩٠٩	٨٫٠	١٨٫٥	٦٫٦	١٥٫٠	٠٫٢	٢٫٢	١٫٢	١٫٣
١٩١٠	٧٫٥	١٩٫١	٦٫١	١٣٫٦	٠٫١	٤٫٢	١٫٣	١٫٣
١٩١١	٨٫١	٢١٫١	٦٫٥	١٨٫٧	٠٫٣	١٫٢	١٫٣	١٫٢
١٩١٢	٨٫٣	١٧٫٣	٥٫١	١٥٫٢	١٫٩	٠٫٩	١٫٣	١٫٢
١٩١٣	٨٫٧	٢٥٫٣	٦٫٥	٢٠٫٨	٠٫٩	٣٫٥	١٫٣	١٫٠
١٩١٤	١٣٫٠	٢٨٫٩	١١٫٠	٢٧٫٥	٠٫٥	٠٫٣	١٫٥	١٫١
١٩١٥	١٠٫٧	٢٤٫٧	٧٫٩	—	١٫١	—	١٫٧	—
١٩١٦	٥٫٧	—	٣٫٣	—	٠٫٩	—	١٫٥	—
١٩١٧	٧٫٢	—	٤٫٦	—	١٫١	—	١٫٥	—
١٩١٨	٦٫١	—	٣٫٣	—	٠٫٤	—	٢٫٤	—
١٩١٩	٧٫٥	—	٥٫٣	—	٠٫٩	—	١٫٣	—
١٩٢٠	١٩٫٧	—	١٦٫٥	—	٢٫٠٠	—	١٫٢	—
المتوسط ...	٩٫٧	١٩٫٨	٧٫٤	١٦٫٣	٠٫٨	١٫٩	١٫٤	١٫٢

ويستفاد من هـذا التقرير أيضا أن العامل يضيع عليه فى المتوسط فى الأوقات العادية ٤٢ يوما فى السنة (منها ٧ بسبب المرض) أى ١٤ فى المـائة من مدة شغله . وفى أول يونيه سنة ١٩٢١ كان أكثر من ربع الأجراء بلا عمل . على أن هـذه النسبة تختلف بطبيعة الحال باختلاف الصناعة فان مهنتى البناء وخياطة الملابس تعلو فيهما نسبة البطالة وتكون على أحطها فى مهن الطباعة . ومع ذلك لا حدّ لإنتاج السلع بشرط أن تكون من النوع الجيد المطلوب فالبطالة إذن لا تنشأ دائمـا من ازدياد عدد السكان أو كثرة العمال و إنمـا مرجعها سوء التوافق بين العمل والفرص الصناعية .

ويجب ألا نظن أن كل متعطل صالح للعمل ؛ اذ العـادة أن أول من يطردون من العمل هم آخر من يستردون . والطائفة التى تتعطل فى عام تتعطل فى العام الذى يليه . والقاعدة العامة أن أقل المشتغلين كفاية أرقى من أكبر المتعطلين كفاية . فهم متعطلون لأنهم لم يستوفوا وسـائل الكفاية وهم ضعاف الكفاية لأنهم متعطلون وقلة الأجور معناها عدم كفاية الطعام والكساء والمسكن وهذا يؤدى الى نقص القوى الحيوية ، وكما أن الفراغ يربى عادات سيئة كالكسل ومعاقرة الخمر والمقامرة وهذه تزيد فى انحطاط كفاية العامل . وهنا نقع فى الدور : أى أنه كلما كان الشخص أكثر تعطلا كان أقل كفاية ، وكلما كان أقل كفاية كان أكثر تعطلا. فلقد مر على المتعطلين (Bums) فى مدننا الكبرى يوم كان أغلبهم فيه قادرين راغبين فى العمل . أما اليوم فقليل منهم من يهتم بعمل ثابت لأنهم قضوا فى التعطل أمدا طويلا أصبحوا بسببه غير صالحين للعمل . وإذا زاد الطلب على العمل وجد اصلح المتعطلين للعمل فرصة للاشتغال ، أما أكثر العمال جدارة وكفاية فيعملون باستمرار فى معظم أيام السنة .

ولقد ارتفعت مستويات الكفاية فى السنوات الأخيرة وأصبح من الصعب أن يصل الإنسان الى حدها . فقد حلت الآلات محل فريق كبير من العمال غير الفنيين والطلب اليوم زائد على أولى الذكاء والمهارة . ومع ذلك هناك صناعات كبيرة يحب مديروها أن يكون فى متناول يدهم من العمال الصالحين لها عدد زائد ليأخذوا منه كفايتهم فى أوقات الحـاجة بدلا من الاحتفاظ بعدد قليل يشتغل طول المدة . ولقد كانت هذه خطة حظائر تربية الماشية إذ جرت على عادة استهواء عدد كبير الى الوقوف بأبوابها فى كل صباح طلبا للعمل . وكلما أخذ هذا العدد يقل بذل المديرون جهدهم فى زيادته وأغرقوا فى ذلك الى حد تشجيع المهاجرة . وهذه الخطة اتبعتها كذلك معامل الحديد والمعادن والمصانع الكبيرة .

وكثير من المتعطلين أصبحوا غير صالحين للعمل لجمود قرائحهم أو لعدم الثقة بهم لأنهم مجرمون أو لأن بهم نقصا جسمانيا أو عقليا ، حتى يوم لا يكونون عديمى الصلاحيـة للعمل بسبب التطور الحديث فى الصناعات . وكثير منهم لا يريدون أن يشتغلوا و إنمـا يجعلون بحثهم عن العمل عذرا لهم من البطالة . ومن هؤلاء من جعلوا دأبهم التسكع فى الطرقات .

نعم إن هذه الحالة تعقد مسألة البطالة ولكنها لا تقلل من ضرورة حلها .

والبطالة أكثر شيوعا بين أعضاء النقابات من العمال منها فى غيرهم ولكنها أخف ضررا لأعضاء النقابات وأقل خطرا ، لأن الرجل التابع للنقابة أقدر على احتمال مدة البطالة فأجرته فى أيام العمل أحسن حالا وهو لعضويته فى نقابة أحسن تنظيما لمعيشته . لذلك كانت عدته فى الحياة أقوى وأعظم . فالنقابات لها موارد ينتفع بها فى أحوال البطالة والمرض والحوادث كما أن قوة عضو النقابة فى المساومة على الأعمال تكون بفضل اتحاده أعظم فهو يستطيع لذلك أن يحصل على أجرة أعلى .

وأهم فرق المتعطلين ما يأتى :

(أ) الذين يستخدمون لمدد قصيرة فقط وعند الانتهاء من عملهم لم يأخذوا فى عمل آخر ، كالعمال الذين يعتمدون على الأشغال العامة . على أن البطالة فى هؤلاء لا تكون عادة إلا وقتية .

(ب) الذين يكونون فى حرف تختلف أعمالها كثرة وقلة باختلاف الفصول كحرفة البناء .

(ج) أعضاء الطوائف أو الأشغال التى يكون عمالها أكثر مما تستدعيه الحاجة . وهى حالة تعمل الاتحادات على منعها بتحديد عدد المبتدئين فى تعلمها .

(د) غير القادرين على إيجاد شغل لهم بسبب عدم كفايتهم لأنهم اختاروا فى أول أمرهم عملا لم يخلقوا له . وأعضاء هذه الفرقة على احتمال كفايتهم فعلا قد يصبحون غير صالحين للعمل بتاتا .

وهنا يعرض لنا السؤال الآتى :

ما ذا نعمل لتلافى هذه الحالة أو تخفيف أمرها ؟ إن منح الإعانات بلا تمييز لا يعالج الحالة بل يزيدها ويفسد العمل إفسادا كبيرا ، وإيجاد عمل للمتعطلين أمر شاق إذا تناولت البطالة أعدادا كثيرين من الناس . قد يجد الإنسان عملا لمتعطل ينشد عملا ، ولكن يكاد يكون من المستحيل أن يوجد شغل لألوف من العمال فى مدينة كبيرة . على أن هذا الشغل أيضا يجب أن يكون منتجا ومستمرا وإذا أوجدت مدينة من المدن عملا من الأعمال ليكون مرتزقا للناس فانه لا ينال حظا من النجاح إلا اذا أحسن وضع خطته . وقد يكون هناك تفريج فى بعض الأحيان بالشروع فى أعمال سبق وضع خطتها لحاجة اليها كبناء نفق أو عمل مجار . وقد نفذ النائب بل (Bell) النيويوركى مشروعا اقترحه وهو إعطاء العاجزين عن الجهاد فى سبيل العيش رخصا بتجاير لبيع الجرائد كالمقعدين والعميان ولمن فقدوا شيئا من أعضائهم

او غيرهم . وليس المقصد من المشروع الإكثار من حامل الرخص . ولقد استشعر بعض حملة الرخص القديمة روح المشروع فتزلوا عن حقهم وردوا رخصهم . وكان منتظرا أن تؤدى هذه الطريقة الى أشغال ١٢٠٠٠ شخص لولاه لكانوا غير صالحين للاستخدام . ولكن وكالات العمال تتناول هذه المسائل لا لتحلها بل لتنتفع بها . وفى أغلب مدن أوربا وكالات بلدية بينها نوع من الاتحاد ، كما كان الحال فى ألمانيا قبل الحرب، وهذه الوكالات تناولت موضوع البطالة بطريقة فعالة تستوجب الإعجاب . ولكن هذه المسألة لم تجرب فى الولايات المتحدة تجربة بعيدة المدى إلا فى غضون الحرب . وقد أنشأت بعض المدن قبل الحرب مصافق (برصا) بلدية للعمال ولكن أكثر هذه المنشآت لم ينجح لسوء الإدارة إذ كان المديرون ينتخبون لأسباب سياسية . على أن نظام المصافق (البرص) الوطنية للعمال مع عجزه فى بعض الجهات أدى أعمالا عجيبة ولم يبطل العمل إلا بسبب امتناع المؤتمر التشريعى عن وضع الاعتماد اللازم للنفقة عليها لأنه لم يدرك أن مشروعا إنشائيا عظيما — هو مصافق العمال — قد ابتدأ فعلا ، بل ظن أن هذا المشروع إنما كان إجراء حربيا مؤقتا . وعندنا أن التأمين الذى يدفع أقساطه صاحب العمل والعامل والحكومة يعد خير وسيلة لمعالجة الحالة لأن المسألة تمس الثلاثة جميعا ويجب أن يوضع نظام وطنى لمصافق العمال يمتزج بنظام للتأمين .

ليست البطالة سببا للفقر وحده ولكنها سبب فى الجريمة والسكر والرذيلة والقمار كذلك ، فهى تحل لحمة الأسر وتؤدى الى الطلاق ودفع الأطفال والنساء الى المعامل وانحطاط الأجور وإذا أمكن القضاء على البطالة أو إنزالها الى حدها الأدنى صارت هذه المسائل وغيرها أقل صعوبة على المعالج .

فى مبدإ الحرب العظمى سنة ١٩١٤ كانت البطالة فى الولايات المتحدة منتشرة جدا إذ كان ألوف من العمال بلا عمل فى جميع المدن الكبيرة ، وكان كل إنسان يظن أن الحرب ستدعو الى ازدهار الصناعة فى البلاد ولم يكن يدرك الحقيقة إلا القليلون . ومن ثم أخذ كل إنسان ينتظر ولكن المعامل والصناعات الكبيرة أخذت تخرج عمالها ولم تقم إلا بالقليل من الأعمال الجديدة .

وبعد قليل استقر الطلب على الحاجات التى تستدعيها الحرب وانتعشت الأسواق ونشأ يومئذ عجز فى العمال وهى حالة مناقضة للسابقة . وزادت هذه الحالة عندما دخلت الولايات المتحدة فى ميدان القتال وأخذت فى جمع الرجال من المعامل . نعم إن الحكومة عملت ما استطاعت على ألا تعطل أعمال الصناعة فى سبيل مطالبها الخاصة ولكن سرعان ما زادت الأعمال على كفايتها من العمال . ولقد بلغ نقص الرجال حدا كبيرا وطال عهد هذا النقص حتى ألفناه وأخذنا نعده أمرا طبيعيا وبدلا من أن تزدحم شواطئنا بالمهاجرين الى بلادنا أخذ

وجالنا في التزوج منها. ودخلت النساء المعامل لسد هذا الفراغ ولما أغراهن من ارتفاع الأجور. وبعد انتهاء الحرب وعودة جنودنا الينا استمر العجز في العمال لاستمرار زيادة الطلب على العرض ؛ ذلك لأن الحرب أتلفت كثيرا من الحاجات وأجلت مشترى الأشياء العادية الى حد عجزت عنده المعامل عن إجابة الطلبات. ومن ثم استمرت الحاجة الى العمال. وبعدما أجبنا الطلب الخارق للعادة وأخذت الصناعة تهيء نفسها لأحوال السلم عادت البطالة من جديد الى الظهور. واستفحلت هذه الحالة تبعا لمحاولة أصحاب المصانع إنقاص نفقات المصنوع بنقص الأجور والاستغناء عمن لا ضرورة له من العمال، وللضيق الحالى الذى نقص الإنتاج وزاد البطالة. بل صارت هذه البطالة أعظم من البطالة العادية بسبب أن عددا كبيرا من النساء اللائى كن قد وجدن لأنفسهن عملا في المعامل احتفظن به ، ذلك بأن كثيرات منهن أثبتن لمستخدميهن أنهن أفضل أو أنفع من الرجال الذين كن قد حللن محلهم. نعم إن عودة الأمور الى مجاريها الطبيعية هو ما كانت البلاد في حاجة اليه كما أن دخول عدد أكثر من النساء في المعامل لم يكن في حد ذاته سيئا ولكن هذين الأمرين زادا في حالة البطالة وشدتها. ولقد عملت يومئذ تقديرات مختلفة لمعرفة مدى البطالة فدل الإحصاء الذى يوثق به على أن المتعطلين كانوا يتراوحون بين ثلاثة ملايين وخمسة ملايين في الولايات المتحدة. وفى الشطر الأول من سنة ١٩٢٢ أخذت الأعمال تبدو عليها علائم الانتعاش. وتدل الدلائل الحاضرة على أننا سائرون في تهيئة أنفسنا للأحوال الجديدة ولكنا لا ندرى في الوقت الحاضر كم يكون لدينا من المتعطلين بعد استقرار الحالة الجديدة. وستبقى البطالة بيننا عرضا ملازما للصناعة عندنا ما لم يأخذ المجتمع من الآن في القيام بعمل إصلاحى لحل هذه المسألة. ولعل أصوب الوسائل في معالجة هذه الحالة إنشاء نظام وطنى لعرض العمال مصحوب بمشروع مناسب للتأمين من العطلة.

٢ — انحطاط الأجور

سبق أن تناولنا بالبحث مسألة انحطاط الأجور عند الكلام على ميزانيات الأسر. ونريد هنا أن نتناول الأثر الخلقى لانحطاط الأجور. اعتاد الناس أن يقولوا إن الإنسان يعطى أجرا منحطا لأنه ينتج قليلا. ولكن الواقع أن علاقة الأجور بالإنتاج ضعيفة جدا فنتائج العمل تحدد الحد الأعلى للأجور، أما الأدنى فلا. لأن هذا إنما تقرره المنافسة أو ينظمه العرض والطلب. والعادة أن الأعمال الواسعة تكون من التنظيم بحيث لا ينالها من تأثير المنافسة إلا شئ قليل. واذا كثر العمال كانت الأجور منحطة ، واذا قلوا كانت عالية. وبعض الصناعات لا تدفع للعامل ما يوازى فائدتها منه وإنما تعتمد على زيادة العمال وبهذا لا تعطى إلا أقل ما يمكن من الأجر فتدفع إلى الشخص الذى يعول عددا من الأشخاص أجرة ضئيلة لا تكفى شخصا واحدا.

ومخازن المنسوجات وما إليها مشهورة بهذا . أما معامل القطن ولا سيما في الجنوب ومعامل الحرير ومعامل الصوف ومصانع الحلوى والمسكرات فانها مغرقة فيه .

واليوم يحاول كثير من الولايات وضع حد أدنى للأجور في مختلف الصناعات . ففي سنة ١٩١٧ شرعت اثنتا عشرة ولاية في وضع قوانين للأجور . وكان لكل من هذه الولايات لجان للنظر في تقدير الحد الأدنى في كل صناعة ، ففحصت هذه اللجان عن أحوال كثير من الصناعات ولا سيما ما كان منها يستخدم عددا كبيرا من النساء كالمخازن المذكورة ومصانع الحلوى والمغاسل ووضعت لكل منها أقل حد للأجور . وهنا يعرض السؤال الآتي :

أيجوز خلقيا لأي صناعة أن يدفعها التطفل الى امتصاص أرزاق الناس كما كانت تفعل مخازن البضائع في أغلب الأحيان ؟ وهل من حق المجتمع أن يسمح لمخزن من المخازن المركزية العظيمة أن يستمر في كدس الملايين من الأرباح فوق الملايين لذرية من أنشأه وهم لم يفعلوا شيئا البتة في سبيل الحصول على هذه الثروة وإنما تجمع هذه الثروة بجهود المستخدمين المساكين الذين يعملون في الدكانة والذين لا يستطيعون العمل على رفع أجورهم ؟ إن الشخص المجد المنتج النافع يستحق معاشا ، ومع ذلك هناك ألوف لا يظفرون بهذا . كانت أجرة عامل المياومة في الماضي لا تكفي لإعالة أسرة . وفي الحق أن أجرة العامل غير الفني في الجملة لم تترك لصاحبها أية فضلة من المال بل أعجزته في الغالب عن العيش على وجه مقبول . فالأجور في كثير من الصناعات كالصناعات المرهقة لم تسمح لصاحبها أن يعيش عيشة لائقة به أن تنيله شيئا من طيبات الحياة . فهل من حق المجتمع أن يغض الطرف عن هذه الأحوال ؟ والوسيلة الفريدة فيما أرى لمعالجة هذه الحالة أن يقرر حد الأجور الأدنى بقانون . واذا أمكن وضع هذا القانون بدقة ثم طبق بشدة وناصره الرأي العام فان الحالة تتخلص بنفسها من بوائق الفساد . اذا كان العمل ضروريا اكتسب العمال بمزاولته دربة ومهارة ، وعندئذ يجب أن يأخذوا أجورا كافية لمعاشهم . واذا زاد هذا في قيمة السلع المصنوعة والمبيعة جملة أو مجزأة فذلك هو المراد لأن الأشخاص في تلك الحال الذين يتمتعون بثمار أيدي العمال يجب أن يدفعوا ثمنها . ويومئذ تحفز الحاجة الى إنشاء المدارس الصناعية التي تغرس في تلاميذها القدرة وهذا يساعد على حل المسألة .

ولقد كان من نتيجة الحرب أن كانت قلة العمال سببا في ارتفاع الأجور . وفي كثير من الصناعات كان ارتفاعها أعلى من ارتفاع الأثمان ، وفي بعضها ساوت الأثمان في ارتفاعها ، وفي بعضها لم ترتفع اليها مطلقا وذلك بحسب طلب منتجات تلك الصناعات . والعادة أن تكون الأجور أبطأ في الارتفاع من الأثمان كما أنها تكون أبطأ في الهبوط عند هبوط الأثمان .

والآن (١٩٢٢) من الصعب علينا أن نتنبأ بما تكون عليه الحال يوم تعود الى الأحوال المعتادة ولكن المرجح أن أنه سينقضى وقت طويل قبل أن نعود ، إن كنا سنعود مطلقا ، الى الأجور المنحطة التى كانت قبل الحرب .

(٣) عدم اطراد الاستخدام والعمل الموسمى

عدم اطراد العمل ممثـل ومشاهد فى أحوال عمال الأرصفة الانجليز الذين يشتغلون ليلا ونهارا حينما تكون أعمال الشحن والتفريغ ناشطة ويتعطلون أياما وأسابيع حين لا تأتى السفن. ولو أن الصناعة كانت منظمة على خطة صحيحة لأمكن جعل هـذه الحالة من عدم الانتظام عند الحد الأدنى . وهؤلاء العمال الموسميون يجب أن تتاح لهم أعمال فصيلة أخرى يصلون بها عملهم عند انقطاعه . واذا استحال هذا وجب أن تكون أجورهم من الارتفاع بحيث تكفى العامل أن يعيش فى الأيام التى لا يتيسر له عمل فيها .

(٤) عدم قابلية العمل للانتقال

العمل أشد الأشياء استعصاء على الانتقال . ومن شأن هـذا الأمر أن يزيد فى ضعف قوته فى المساومة . وكلما ارتقى العمـل سهل على العامل الانتقال وذلك لأن لديه ذخيرة من القوة المستمدة من تفوقه العقلى وزيادة أجرته . ولا يقدر الرجل الصغير الدخل فى العادة على الانتقال حتى ولو وثق من الحصول على العمل فى مكان آخر .

(٥) الأعمـال المضرة بالصحة والخطرة

فى سنة ١٩٠٧ قتل من الأشخاص ١٠,٠٨٧ وأصيب ١٩٤,٨٠٥ فى السكك الحديدية فى الولايات المتحدة وكان أربعة أخماس هذا العدد من عمال السكك الحديدية . نعم إنه لا يمكن جعل العمل فى السكك الحديدية مأمون الخطر ولكنه فى الواقع يقتل ويؤذى من الناس عددا مفرطا جدا . وكذلك الأمر فى التعدين . وكثير من المهن يؤذى صحة العمال . وكانت صناعة الثقاب بالغة فى ذلك مبلغا عظيما الى أن حرم استعمال الفوسفور فيهـا . وفى مصانع الزجاج والرصاص والحديد وكثير غيرها من المصانع خطر يهدد بفقدان الحياة . واذا لم يكن فى بعض المصانع خطر على الأنفس فان فى كثير منها حرفا غير صحيـة نذكر منها مصانع السجاير ومنازل القطن وغرف تحـويل التليفون . على أن التشريع المصرى لا يفى فى إلزام أصحاب الأعمال بحماية مستخدميهم من الآلات الخطرة فيكلف المتاسل وضع حوائل على المصاقل والدواليب حتى لا تتنـاول أصابع العمال فتبترها ويكلف أصحاب المعامل أن يغطوا السـيور ويضعوا الحوائل على آلاتهم الخطرة، ويكلف أصحاب السكك الحديدية أن يستعملوا المرابط (الفرامل) الهوائية ووسائل الربط والزم التى لا تؤذى أصابع العمال .

بهذه الوسائل التشريعية وتنفيذها يمكن تقليل كثير من المخاطر فقد كان من شأن حدوث بعض الفواجع مثل فاجعة حريق محل شركة (القمصان ترايانجل شرت كومبانى Triagle Shirt Company) فى نيورك وفاجعة ايسلاند (Eastland) فى شيكاغو ريفر (Chicago River) وحريق مسرح ابركواز واحتراق جنرال سلوكوم (General Slocum) حيث ذهب مئات من الأطفال حرقا أو غرقا ، أن دعت الجمهور الى التفكير فى ضرورة العمل على صيانة الأنفس والتشدد فى تنفيذ القوانين . وكلما حدثت فاجعة كبيرة كان الجمهور يطالب بتشريع لمنع وقوع فاجعة مثلها فى المستقبل . والواقع أنه اذا وجهت أنظار الجمهور الى مثل هذه المخاطر تنبهت نفسيته وأجبر الحكومة على وضع التقنين اللازم . هذا ، وكلما زادت الصناعة فى سرعة حركتها زادت المخاطر . ولكن الملاحظ أن هذه الزيادة تصحبها زيادة فى المراقبة . على أن الحوادث لا يمكن منعها بتاتا وإنما يمكن جعلها عند حدها الأدنى بفضل المراقبة والإشراف .

(٥) التغييرات فى الصناعة

(١) الآلات الجديدة — أحدث التطور الصناعى فى انجلترا شقاء عظيما فقد أدى بألوف من الناس الى العطلة وخفض الأجور ونشر العوز والشقاء فى كل مكان . والواقع أن اختراع أية آلة جديدة أو النظر فى تحسين أية طريقة حتى يتمكن الشخص الواحد من القيام بالعمل الذى كان يتطلب أيدى كثيرين من شأنه أن يدفع الناس الى البطالة ثم يلقيهم فى هوة الفقر . وقد تعود الصناعة بعد حين فتهيء نفسها للحالة الجديدة فتتحسن الأحوال بهذه التهيئة لأن الآلة المحسنة ستزيد مقدار الناتج ، ونقص الأثمان يدعو الى زيادة الطلب على البضاعة ، وزيادة الاستهلاك يدعو الى زيادة طلب العمال . ولكن الوقت الذى تقتضيه هذه التهيئة يعانى فيه العمال أشد ضروب البؤس والشقاء .

(٢) الأزياء الجديدة — اختلاف الأزياء يدعو الى التغير فى التجارة . فقد ترتب على ضيق المآزر قلة طلب المنسوجات بحيث أصبح من الضرورى سرعة العودة الى المآزر الواسعة حتى لا يضيع على صاحب المصنع شيء من المال . وقد كان الأذى فى ذلك متأتيا من أن الكثيرات من النساء استغنين عن شراء ملابس جديدة وذلك بتقصير مآزرهن القديمة . كما أن انصراف الناس عن الدراجة أدى الى تدهور هذه الصناعة ثم جاءت السيارة فملأت ذلك الفراغ . ولكن نشأ من نمو تجارة السيارات أذى لصناعة العربات . وقد تؤدى أعمال الإصلاح فى بعض الأحيان الى اضطراب الأحوال . فتحريم الخمر مثلا نشأ عنه نقص فى طلب القنينات والبراميل وأدى الى شيء من البطالة حتى عادت الصناعة فنظمت حالها . وكانت هذه الحال أيام التخيير المحلى ، يوم كانت المدينة وحدها هى التى تمسك عن الشرب أياما ، أظهر منها

عند ما أبطلت الأمة برمتها شرب الخمور . إذ أنه فى الحالة الأولى لم يكن هناك بقرع بما يأتى به الغد . أما التحريم العام فقد جاء فى وقت سعيد الطالع جدا ، ذلك هو الوقت الذى كان فيه طلب العمال شديدا فاستغرق جميع العمال الذين اضطروا الى ترك صناعة الخمور يومئذ ولذلك لم يحدث من العطلة شىء يذكر .

(٣) التغير فى قيمة النقد — عند ما تهبط الأثمـان وتصير النقود أغلى قيمة يترتب على ذلك ضرر للمدين. وعند ما يحدث ارتفاع مفاجئ فى الأثمـان تزداد مشقة الحياة على الصانع. إذ العادة أن الأجور يكون ارتفاعها أبطأ من ارتفاع أثمـان الحاجات، وفى الوقت الذى يكون فيــه العامل مضطرا الى أن يدفع قدرا أكبر ممـا اعتاد دفعه فى طعامه وملبسه وأجرة مسكنه والضرورات العادية تبقى أجرته على حالها مدة طويلة .

(٤) التغير فى تعريفة الجمارك — فرض ضريبة جمركية على الشىء يرفع ثمنه على الفور سواء أكان الشىء مستورداً أم غير مستورد ، إذ أن الأثمـان انمـا تبنى فى أكثر الأمر على القدرة على التحكم فى تقدير ثمنها لا على نفقة إنتاجها . ورفع الضريبة عن إحدى المواد يؤدّى فى أغلب الأحيان الى وقوف دولاب تجارتها ومن ثم تحدث البطالة والشقوة . ومن أحسن الأمثلة على ذلك صناعة السكر فى الولايات المتحدة التى حمتها الضريبة الجمركية فنمت وعظمت، فلما رفعت عنها هذه الضريبة تعرضت للخراب .

(٥) حدوث أى اضطراب عظيم فى الصناعة — تتأثر الأجور بكل اضطراب يحدث فى الخارج أو الداخل . وقد أحدثت الحرب مثل هــذا فى الولايات المتحدة فى سنة ١٩١٤ فهى وإن كانت قد عادت علينا بالفائدة المـالية بسبب ماهيأت لنا من أسواق جديدة ، قد أحدثت فى البلاد ضائقة طال أمدها ولم تنته إلا بعــد أن استطعنا أن نجعل صناعتنا ملائمة للأحوال المستجدة . وبعد انتهاء الأحوال غير العادية التى أحدثتها الحرب كانت تهيئة الصناعة نفسها للرجوع الى الأيام العادية مسببــة لكثير من الضيق . إلا أن الضيق فى الحالة الثانية كان أشد منه فى الحالة الأولى وذلك لأن العودة فى الثانية كانت تكمشا، أما فى الأولى فكانت تمددا . والواقع أن كل تهيئة تكون مصحوبة بشدة يلقاها بعض الناس .

(٦) النقص فى النظام التعليمى — الأميون وغير المتعلمين يكونون أعجز من غيرهم فى معترك الحياة . فان النظام التعليمى الذى لا يصل فضله الى الجميع يكون معيبا ، والنظام التعليمى الذى لا يعد الإنسان لتحصيل الرزق فى الحياة إنما هو سبب من أسباب الافتقار . والواقع أن نقص التعليم الصناعى فى بلادنا عيب واضح فى نظامنا التعليمى . نعم إنــ تعليم الأعمال اليدوية فى المدارس يعد خطوة فى سبيل التعليم الصحيح، ولكن لابد من تكميل هذا

التعليم إذ يجب أن يمتد التعليم المجانى و يتناول جميع أشكال التعليم الفنى والصناعى كما يتناول التعليم التهذيبى . وطريقة غارى Gary System التى تربط جميع أشكال التربيـة بعضها ببعض هى إحدى الطرق التى تعالج بها هـذه المسألة . ولا مشاحه فى أن التربية الضعيفة التى تجرى عليها فى تعليم الفقير من الأسباب المؤدية الى الفقر . على أن هـذه تسهل معالجتها وهى إحدى المسائل التى يقوم الامريكيون اليوم بمقاومتها . ومن الوسائل الحديثة فى معالجة الحـالة نظام التفتيش الطبى على المدارس و إيجاد الغذاء فيها .

(٧) المحاكم المعيبة والإدارة الجزائية — إذا كانت المحاكم فاسدة أو كان بها نقص لم يطع أحد القانون . و إذا كانت الإدارة الجزائية ناقصة وأحكام المحاكم لاتنفذ لم يراع أحد القوانين . ومعنى هذا أن التشريع الوزاع لا ينفذ وأن القـوى ينال الضعيف وأن الشقاء والضيق يزيدان . لم يشك أحد كثيرا فى طهارة ذمة المحاكم الأمريكية ولكن لا يستطاع أن يقال مثل هذا عن الإدارة القضائية فى كثير من الأقطار ولا سيما الصين وتركيا . على أن هناك شكاية عظيمة من نقص محاكمنا فالأحكام لا تصدر فى كثير من الأحيان حتى يكون جميع من لهم شأن فى الدعوى قـد ماتوا وغمرهم تراب القبـر وضاعت معالم القضية إلا عن أعين المحامين . واستئناف الأحكام من السهولة بحيث إن القضايا يفصل فيها عادة فى مصلحة أقوى الطرفين جلدا على النفقة . والفقير فى محاكم أول درجة لا ينال من العدل إلا ظاهره. فالقضايا التى لهـا مساس بمستقبل الإنسان لا تستغرق من الوقت لنظرها غير مدة تتراوح بين عشر ثوان وثلاثين وفى بعض الأحيان لا يعطى المـدعى عليه ، ولا سيما إذا كان مهاجرا ، فرصة الدفاع . ومن شأن هـذا أن يصرف الناس عن احترام القانون و يدعوهم الى كراهة المجتمع . على أن من الإصلاح العظيم إنشاء وظيفة المدعى العمومى ولا سيما أنه يلزم أصحاب الأعمال دفع أجور العمال و يلزم المدينين للفقراء أن يسددوا ما عليهم . ويجرى هـذا فى أغلب الأحوال بخطاب يكتبه المدعى العمومى الى المدين .

(٨) نقص وسـائل العناية الصحية — ذكرنا موضوع نقص العناية الصحية عنـد الكلام على الحكومة ، ولكنه راجع أيضا الى أسباب غير سـوء الحكومة فقد يكون هـذا النقص نتيجة الجهل أو الإهمال أو سوء الموقع . وهو من أشد الأسباب الداعية الى المرض ومن ثم فهو سبب عظيم من الأسباب المؤدية الى الفقر .

(٩) عدم ملاءمة البيئة — السكن بالقرب من مكان انحطت أخلاق سكانه أو حيث لا يتصـل الإنسان بحياة الجد والعمل الحقيقية سبب من الأسباب غير المباشرة فى الفقر ، إذ لا يتأتى للانسان من هذا الجوار شىء من روح التحمس . ويترتب على ذلك أن تثبط همته

إذ يشعر أن الحياة عديمة الفائدة . ويصدق هذا خاصة على من يعيش بين اللصوص والسلابين. فالإنسان عرضة فيها أن يشعر أنه لا فائدة له من أن يشتغل أو يدخر. وهذه البيئة ذات تأثير هادم ولاسيما فى تكوين الأطفال .

(١٠) بعض الأوضاع العرفية الاجتماعية مثل المكارمة — كانت عادة الشرب فيما مضى مثلا واضحا على شرور المكارمة . فقد كان الرجل يدخل المشرب ليشرب كوبا واحدا من الجعة فما إن يقابل أصدقاءه هناك حتى ينصرف الى شرب ستة أكواب أو ثمانية وينفق خمسين سنتا بدلا من خمسة لم يكن فى نيته إنفاق سواها .

(١١) المهاجرة — تؤدى المهاجرة الى زيادة مقدار المعروض من العمال على مقدار المطلوب من الأشياء زيادة غير متناسبة. وفى ذلك اختلال للتوازن بين العرض والطلب للعمال ومن ثم تنخفض الأجور أو تقف عن الارتفاع وبهذا يتعطل الكثيرون عن العمل . ولقد كان هذا من أسباب الفقر فى الولايات المتحدة فى الماضى وسيكون كذلك فى المستقبل إذا عادت موجة المهاجرة الى مدها مدة أخرى . وقد ظهر أثر هذا يوم ارتفعت الأجور ارتفاعا مباشرا على أثر وقف المهاجرة وأخذ الناس فى النزوح من الولايات المتحدة فى غضون الحرب .

(١٢) الحوادث التى تصيب الناس من غير الأشغال الخطرة — إن الحوادث التى تصيب الإنسان سواء أكان فى عمله أم فى خارجه من شأنها أن تنقص مكسبه وتزيد من نفقته ومن ثم فهى فى أغلب الأحيان تدفع الى مادون حد الفقر أسرا كانت لولا هذه الحوادث عائشة فى أمن منه . فموت العائل قد يحل الأسرة . وتعالج هذه المسألة فى البلاد الأوروبية كألمانيا وانجلترا بنظام التأمين من المرض والحوادث . وهذا التأمين إجبارى يشترك فى دفع أقساطه صاحب المعمل والمستخدم والحكومة معا . وهذه إحدى المسائل التى تأخرت فيها الولايات المتحدة عن اللحاق بأوربا فى الإصلاح الاجتماعى .

(١٣) المنح من غير روية والتصدق بلا تمييز — عادة الأمريكيين فى المنح بلا تمييز عادة سيئة . ولقد كان جانب كبير من أعمال التصدق التى تقوم بها الكنيسة بين الأذى . ذلك أن التصدق لذاته هو الأمر الذى يهمهم، واذ أنهم يجهلون كيف يمنحون فلعلهم قد أحدثوا فقرا بما فعلوا أكثر مما منعوا، لأن فساد وسائل المعونة من شأنه أن يزيد الفقر . مثال ذلك الطريقة الانجليزية القديمة التى كانوا يجرون عليها الا وهى تكميل نقص الأجور . إن خطة دفع الفرق بين الأجرة التى يتناولها العامل والحد الذى قدر للأجرة الكفيلة بمعيشه مما يعزز قلة الأجور. والخطأ فى الإعطاء من شأنه أن يمحو الدافع المحرض على العمل ويقتل روح الاستقلال . وربما كان إعطاء المتسول لمجرد الخلاص منه أو لأن حالته تلمس وتر العطف من نفس معطيه أسوأ ما يمكن أن يفعله الإنسان له . فالواقع أنه اذا كان المتسول ناجحا فى مهنته اختار التسول

مرتزقا لأنه أعود عليه بالربح من العمل . والتصدق على أسرة من غير بحث دقيق كثيرا ما يؤدى بها الى الانقطاع عن العمل ويجعلها تعتمد على الصدقات فى مستقبل حياتها . وقد استكشف فى مدينة شيكاغو أنه ما من أسرة نالت معونة من المدينة إلا بقى اسمها ثابتا فى كشف المستحقين . وإذا نجحت أسرة فى الحصول على معونة هب جميع ما يجاورها من الأسر الى طلب المعونة مثلها، حتى ولو كان أصحاب هذه الأسر فى كفاية وغناء . والواقع أن الإعطاء فى جملته إلا فى أحوال الفقر المدقع — ضرره أكبر من نفعه ولاسيما إذا كان المدد يعطى بغير فحص دقيق وبغير أن يتطلب فى مقابلة عوض من شغل أو خدمة . إن الشخص العادى أحوج الى أن تتاح له فرصة التكسب منه الى المعونة المادية .

(١٤) الحرب والمجاعة والنكبات — سببت الحرب فقرا لاحد له كما سببت آلاما وشقاء عظيمين ولن يقتصر أثرها على الناس فى وقتنا الحاضر وحده بل لابد أن يتناول أثرها عدة أجيال مقبلة . نعم إن أنكى شرور الحرب نالت البلاد التى اجتاحتها الجيوش ولا سيما جيوش دول أوربا الوسطى — وبخاصة بلاد بولندا وصربيا وأرمينية والبلجيك وشمالى فرنسا ، ولكن الحرب قد أصابت بآثارها جميع الأمم التى اشتركت فيها فقد اكتسحت أو قتلت أو أعجزت الملايين من كاسبى الرزق ورمت البلاد بالخراب والمجاعة . والأملاك التى كانت واقعة فى طريق الجيوش اجتيحت والصناعات بعثرت حتى ولو كانت على مدى ألوف من الأميال من مواقع القتال بسبب انفضاض الأسواق. وأثقلت الأمم المتقاتلة بالديون. وسيكون معنى هذه الديون تحمل الأعقاب بسببها ضرائب فادحة تصيب أجيالا عدة . وإذا قيل إن الحروب فى جملتها أسباب غير طبيعية فى الفقر فستكون الحرب العالمية مصدرا على الأقل .

الأسباب الذاتية فى الفقر

نريد بالأسباب الذاتية فى الفقر ما كان مصدره الإنسان نفسه، وتعادل هذه الأسباب من ٢٥ إلى ٤٠ فى المائة من أسباب الفقر جملة . وهى لا تساوى فى الأهمية الأسباب السالفة الذكر، كما أنها مختلطة بالأسباب الخارجية أو أنها فى الغالب من نتائجها . بل الواقع أنه يندر أن يكون فى الإمكان فصل الفريقين إحدهما عن الآخر فصلا تاما . وإليك أهم ما يرى من هذه الأسباب الذاتية :

(١) المرض والعلة وسوء الصحة .

قال ديفاين (Devine) فى كتابه المسمى "الشقاء وأسبابه" Misery and Its Causes إن ثلاثة أرباع الناس الذين يطرقون أبواب دور الصدقات يكونون فى حاجة الى العناية الطبية من أى نوع أو يكونون مصابين بعلة ما . وكثير من العلل متأت، كما قلنا، من العمل فى

أشغال خطرة ومن سوء البيئة ، فالأمر لذلك خارج عن إرادة الشخص . وكذلك الأمر فى سوء التغذية لأنه يعرض البدن للأمراض والعلل . ويصدق هذا على الأطفال بوجه التخصيص. فقد لوحظ أن عشرين فى المائة من الأطفال الذين فى المدارس العامة فى مدننا لا يتناولون من الغذاء ما يكفى من حيث المقدار ودرجة النوع ؛ لذلك هم عاجزون عن أن يقوموا بالواجب المدرسى المفروض . ويصدق هذا أيضا على عمل الشبان والرجال إذ لا بد ليستطيع الإنسان العمل من أن يكون فى حالة بدنيــة حسنة . وفيما مضى كان يظن أن العلة محنة أو عقاب يبتلى به الله الناس . أما اليوم فهم يرونه نتيجة سوء الوضــع فى المجتمع والمعيشة الحمقــاء . والأمراض العضال تسبب كثيرا من الفقر لأنها تزيد النفقة فى ســبيل معالجتهــا وتنقص الايراد . بل إن الأمراض العادية كالحصبة والسعال الديكى والأنفلونزا تسبب فقرا كثيرا لا من حيث ما تتطلب من زيادة النفقة فقط، بل من حيث ما تضطر الآباء إليه من التزام العزلة الوقائية أو البقاء بالمنزل لخدمة المريض . وفضلا عن هــذا فإن معدل الوفيات الناشئة من الحصبة والسعال الديكى عال جدا ولا سيما فى الأطفال وكثيرا ما يزيد على معدل الوفيات بالأمراض الخبيثة مثــل الجدرى ولكنهما لانتشارهما هان أمرهما على الناس فلم يتخــذوا فى كثير من الأحيان الوسائل لمنع انتشارهما .

هذا، وقد أخذت الجماعات تدرك مقدار ما يصيبها هى ومستخدموها وأسرهم من الخسارة الاقتصادية بسبب الأمراض ؛ فهى لذلك توظف أطباء وتنشىء مستشفيات وتلجأ الى ما هو أهم من ذلك وهو استئجار زائرات صحيات لا يقتصر عملهن على تمريض المرضى بل أنهن يعلمن الأمهات إحسان الطهى وتدبير المنزل على صورة صحية أوفى. وبهذا يزيدون فى كفاية العمال . وكذلك الأمر فى المدن فإن هناك مستوصفات ومستشفيات مجانية تنفق عليها المدن التمــاسا لذلك الغرض . ولا يزال العلم يتغلب شيئا فشيئا على مختلف الأمراض بإيجاد علاج لهــا . مثال ذلك الحمى التيفويدية والدفتريا والسعال الديكى والدودة الخطافية والسل والزهرى والتيفوس والحمى الصفراء فإنها جميعا تخضع بدرجات مختلفة لسلطان العلم الطبى . وإذا أمكن أن تقرب هذه الوسائل العلاجية من الفقراء بنشر المستشفيات والمستوصفات المجانية ونشر المعلومات الصحية (الهيجينية) بوساطة الزائرات الصحيات فإن خطورة المرض من حيث إنه سبب من أسباب الفقر تنقص نقصانا كبيرا . ولن يقتصر أمرها يومئذ على تقليل المرض بل سيكون من أمرها زيادة الكفاية العملية . وبعبارة أخرى يجب أن تكون سياسة المستقبل فيما يختص بالمرض جعل خير وسائل العلاج فى متناول الجميع ثم تعليم النــاس كيف يعيشون العيشة التى لا يترتب عليها حاجة الى هذه الوسائل . من ذلك نرى أن أحد الأسباب العظيمة والقوية الأثر من أسباب الفقر يقاوم الآن بطريقة صحيحة هى الوقاية من الأمراض المنتظرة بالإضافة إلى وسائل التفريج وعلاج الأمراض الحاضرة .

٢ — قلة الحيلة والكسل

يعزى قدرعشرة المائة إلى خمسة عشر فى المائة من أحوال الفقر إلى قلة حيلة الناس . ولكنا إذا أمعنا النظر وجدنا أن هذا الأمر فى الحقيقة نتيجة لا سبب . ومع ذلك نجد فى الناس من هم من البلادة بحيث لا يضعون ألواحا سليمة من الزجاج بدل ما انكسر منها ومن الكسل بحيث لا ينهضون لحصد غلتهم بعد أن نضجت ومن الخمول بحيث لا يعملون عملا مطلقا ما لم يكن مطلوبا منهم على وجه التحتيم . ويترتب على ذلك وقوع هؤلاء فى الضيق وإذا ألمت بهم المصايب انتابتهم النكبة الحازبة . ويلوح لنا أن هذه النزعة وراثية فى الأسر فهناك أسر تنشأ منحطة عديمة القيمة تكبد المجتمع ألوفا من الدولارات . أولئك عادة أصحاب الأسر الكثيرة العدد التى لا يستطيعون بطبيعة الحال إعالتها . والغالب فى الكسل أنه نتيجة قلة التغذية المتسببة عن سوء الطعام وسوء الأحوال المعاشية . وقد يكون المرض أو الاعتلال مصدر هذه العلة ؛ فالدودة الخطافية مثلا تدعو إلى كثير من البلادة فى البيض المساكين من أهل الجنوب وتفقدهم حيويتهم . وكذلك الملاريا فإن لها مثل هذا الأثر . من هذا نرى أن الطريقة الوحيدة لاستئصال هذه الحالة إنما هى مقاومة هذه الأمراض . أما فقدان النشاط والطموح النفسى فليس لدينا لها من دواء — ما لم يكونا ناشئين عن نقص مقومات الحيوية والمرض — إلا أن تلجأ إلى نوع من المنبهات والموقظات . وهذا ممكن فى الأفراد بإيقاظ عاطفة الكرامة فيهم أو بإحياء الرغبات فى نفوسهم كما يجتذب الزنوج بعرض السلع الجذابة فى نوافذ المحال التجارية . وقد استطاعت المحال الصناعية فى الجنوب أن تحصل على نتائج طيبة بإنشائها دكاكين تعرض فيها جميع صنوف الحلى والزينة فتوقظ فى النفوس رغبة فى العمل لاكتساب وسيلة الشراء .

٣ — سوء الحكم

سوء الحكم على الأشياء قريب الشبه جدا من الأمر السابق سوى أنه يلوح أشد منه استعصاء على الإصلاح . فمن الناس من يكونون أولى مقدرة على الحكم على ما يزاولون من الأعمال حكما رشيدا فيختارون طريق الصواب فى عملهم ويشترون أشد الأشياء صلة بالاقتصاد ويعرفون أرخصها وأفضلها على مضى الزمن ويختارون لحياة منهجا تمثلت الغاية

فيه لأعينهم . ومن الناس من حرموا هذه الموهبة ، فهم مغبونون دائماً لا يظفرون فى المعاملة بغير أسوإ الأمرين ، وهم فى مؤخرة الناس دائما ولكل منهم شكوى طويلة عريضة من الحياة وويلاتها . ومنهم من يلزمهم سوء الحظ لكثرة ما يصيبهم من الأخطار أو ما يعتادهم من المرض . وهؤلاء هم الأشخاص الذين يفقدون أشغالهم ويدفعون أعلى الأثمان فيما يشترون ولا يعرفون مطلقا كيف يقتصدون، ومن المحال أن تتهيأ لهؤلاء فرصة الادخار . وإذا قدر لهم فى بعض الأحيان أن يصلوا الى حافة النجاح فى أى عمل تراهم يغيرون خطتهم ويضحون بكل شئ جنوه . وقصارى القول كما يلوح لنا أن الدنيا ملأى بالحمق الذين يصبحون فريسة أولئك الذين حبتهم بفضل من الذكاء . ثم أن هذه الخصيصة وراثية فى الغالب ولكنا نرى فى بعض الأسر واحدا يكون دائما "موفقا" وآخر يكون دائما "سيء الحظ" ، واحدا صحيح الحكم وآخر فاسده . والظاهر أن هذه الحالة فى جملتها لا علاج لها سوى التدريب على صحة الحكم إلى حد ما إذا شرع فى ذلك فى بكرة الحياة . فاذا كان لهذا العمل من نتيجة فالأمر من اختصاص المنزل والتربية المنزلية .

٤ — تعاطى الخمر والعادات السيئة

كان تعاطى الكحول أحد مسببات الفقر العظمى فى بلادنا فقد كان يعزى اليه خمس وعشرون فى المائة من أحوال الفقر الصريحة ، وخمسون فى المائة على الأقل من أحوال الفقر كانت الخمر سببا غير مباشر فيها . على أن هذا السبب قد يكون ناشئا عن غيره فهو كالبطالة والمرض مصدر تجتمع فيه عدة أسباب . فتعاطى الخمر يزيد الفقر ويجعل الأسر أفقر حالا ويدعو الى أن تكون المنازل على حال تقل معها رغبة الانسان فيها ويجر سوء التغذية . وهذه الأحوال توقظ الرغبة فى الشرب ثم إن الشرب يدعو الى الفقر . فالفقر يدفع إلى الشرب كما أن الشرب يدفع إلى الفقر . والشرب ينقص الكفاية وهذه تنقص الدخل وهذا يزيد الفقر . والفقر يستحث على الشرب وهكذا دواليك : سلسلة لا نهاية لها . وكذلك استعمال الأفيون والمورفين وسعوط كوبنهاجن والكوكايين وغيرها من العقاقير التى تغرس فى الانسان عادة تعاطيها فان لها مثل ذلك الأثر . من أجل هذا جربنا فى الولايات المتحدة وسائل شتى لمناهضة هذه المفسدة مثل رفع ضريبة الرخص والتخيير المحلى ونظام المستوصفات ، وأخيرا وصلنا الى الحل الصحيح المنطق الفريد ألا وهو التحريم[1] . أما غيرنا من الأقطار فلا يزال يجاهد فى حل المسألة . على أنا قد عمدنا فوق هذا إلى تحريم بيع أشد العقاقير فتكا . وبعد ان استطعنا إزالة هذا السبب أصبح من الهين جدا أن نزيل الأسباب الأخرى مثل انخفاض الأجور والبطالة والمرض والفسوق والجريمة والإهمال والفرار من الإنفاق على الأسر .

---

(١) وضع هذا الكتاب قبل العودة إلى اباحة الخمر (المعرب) .

نحن فى الوقت الذى نكتب فيه هـذا الكتاب[1] نعانى صعوبة فى تنفيذ قانون التحريم ولكن هذا أمر طبيعى ولا بد أن ينقضى جيل على الأقل قبل أن تقضى على مشكلة الخمور قضاء تاما . ويمكن القول بأن مسألة المسكرات على اعتبارها مسألة المسائل قد أصبحت أمرا من أمور المـاضى فى الولايات المتحدة وعلى اعتبارها سببا من أعظم أسباب الفقر فيهـا قد زالت زوالا تاما[2].

٥ — الفسوق

الفسوق مرتبط ارتباطا وثيقا بالانحطاط والفقر فانا نجد فى مثل الأبحاث التى عملت عن أسر جوكس (Jukes) وكاليكاك (Kallikak) ونام (Nam) أن الفسوق والسكر يسيران جنبا الى جنب قابضين على هذه الأسر يستبقيانها فى وهدة الفقر والانحطاط . فالفسوق يضعف الحيوية والكفاية . وبهذا يقلل المكاسب . وهو من جانب آخر متصل بأسباب أخرى مثل ضعف الحكم والسكر وهو نتيجة مترتبة على الفقر، كما أنه سبب فيه . ويكاد يكون من المستحيل نظرا الى طبيعة مصدر الفقر هذا أن يتوصل الإنسان الى تقدير صحيح لأهميته وخطره .

٦ — الشيخوخة

قد يلوح أن الشيخوخة من أكبر أسباب الفقر ولكنا اذا فحصنا عن الأمر نجد أنها سبب غير مهم بالقياس الى غيره . فان الإنسان اذا أسن كبر معه من كان يعولهم ومن المحتم فى أغلب الأحوال أن يوجد فيهم من يعنون بالمسنين اذا لم يكن لديهم وسيلة للعيش . والبلاد الأوربية ، ولا سيما انجلترا وفرنسا والمـانيا ، تعالج هذه المسألة بنظام معاش المسنين ونظام تأمين المسنين . ولعله لا يمضى علينا وقت طويل حتى تحذو هذه البلاد نحوهم . نعم نحن نعنى فى العادة بالمسنين من الفقراء ولكن عنايتنا هذه تجرى على خطة عرجاء . على أن هذا السبب لا يمكن إزالته وإن كان من الميسور تقليل آثاره بزيادة فرص الادخار وبتقرير نظام أوفى للتضمين وهى مسألة سهلة الحل بالقياس الى بعض الأسباب الأخرى .

٧ — الإهمال وهجر الأسر من جانب الزوج والأقارب

يحدث الإهمال والهجر من خمسة الى عشرة فى المـائة من أسباب الفاقة. وهى أسباب مهمة ولسوء الحظ شائعة شيوعا عظيما ولا سيما يوم يكون الأولاد صغارا . فان الوقت الذى يكون فيه الأولاد من الصغر بحيث لا يستطيعون مساعدة الأسرة هو الوقت الذى تكون فيه

---

[1] أبريل سنة ١٩٢٢ (المعرب) .

[2] عادت الولايات المتحدة الى إباحة الخمر فى أبريل سنة ١٩٣٢ (المعرب) .

إعالة الأسرة فى أشق أحوالها . لذلك فان كثيرا من الآباء يصيبهم اليأس من عجزهم عن إعالة أسرهم منها فيزيدون المسألة تعقيدا. ومن الصعب مداواة هذه الحالة . نعم إن هناك محاولات فى بعض الأحيان لإعادة الآباء الآبقين وإجبارهم على إعالة أسرهم على العناية بالأبناء ولكن الواقع أن المعونة هى الشيء الذى يخفف من آلام هذه الحال وذلك بمساعدة الأم على لم شمل الأسرة أو نقل الأولاد من البيت اذا استحال عليها القيام بشؤونه . على أن هذه الحالة أيضا نتيجة أسباب أخرى ولا سيما السكر والفسوق وانحطاط الأجور والجريمة . وليس الأمر مقصورا على هجر الآباء أولادهم فان هجر الأولاد آباءهم من الأمور الشائعة فى أمريكا بسبب زوال السلطة الوالدية وقلة الاحترام للوالدين .

(٨) الجريمة والخيانة

لا يقتصر الأمر على كون الجريمة وفقدان روح الأمانة يؤديان بأهلهما الى البطالة والعجز بسبب ذلك عن إعالة أسرهم، فان الواقع هو أن الشخص اذا حكم عليه بالسجن تصبح أسرته فى كثير من الأحيان فى حالة عوز. وفضلا عن هذا فان من الصعب جدا أن يعود الرجل الى العمل يوم يطلق سراحه . ولكن الطريقة الحديثة المتبعة اليوم فى إطلاق سراح الجانى والبحث عن عمل له قبل إطلاق سراحه تعد وسيلة أقوى من سواها فى معالجة هذه الحالة وكذلك الرأى العام فانه أخذ يتغير نوعا ما من حيث استخدام من سبق سجنه، لأن الاعتقاد بامكان إصلاحه آخذ فى الانتشار. هذا الى أن العالم الآن يؤيد مذهب الإيثار ويميل الى منح مثل هذا الرجل فرصة أخرى . أما فقدان الأمانة فعقبة دائمة فى سبيل النجاح .

(٩) الجهل ولا يقصد به هنا نقص التعلم

الجهل شديد القرابة من خلة سوء الحكم ولكنه يختلف عنها فى مظهره اختلافا طفيفا . فهناك أناس لا يعرفون كيف يفعلون الأشياء ويستحيل عليهم أن يتعلموا أداء شيء إلا كما يوجهون. ولا يستلزم هذا أن يكون ضعفا عقليا ، ففى كثير جدا من الأحيان يكون الشخص ذا عقل عادى سوى أنه لا يعرف كيف يتناول الشيء ليعمله . أما الشخص الضعيف الحكم على الأمور فقد يكون شغالا وقد يجز أشياء ثم يتلف كل شيء بسبب ضعف أحكامه . ولكن الشخص الذى تنقصه الكفاية لا يقدر على أن ينتج شيئا كثيرا فلذلك لا يكسب الا قليلا . ومن ثم كان جهل الزوجات بالشؤون المنزلية — جهلهن بطرق إدارة المنزل وبوضع الخطة اللازمة لطعام جامع لعناصر التغذية وبالشراء مع الاقتصاد ثم بأصول الصحة والعناية بالمرضى وبتربية الأولاد، وهى المسائل الحادثة كل يوم فى البيوت — من الأسباب المؤدية الى قدر غير قليل من الفقر . ولكن تحسين البيئة يخفف هذه الحالة اذ يجعل مثل هؤلاء الأشخاص على اتصال بذوى الكفاية والمعرفة .

(١٠) كبر الأسر

كان كبر الأسر فى الماضى يعد من النعم وذلك لأنهم كانوا يدربون الأولاد على تحصيل جانب من طعام الأسرة عندما يجتازون طور الطفولة ، وإذا شبوا عن ذلك اشتركوا فى الدفاع عنها ، وفى إعالتها . وقد كان هذا شائعا فى أمريكا فى أيام الاستعمار ثم شاع على الحدود حين كان هناك أراض يمكن الانتفاع بها مجانا أو بأجر ضئيل . وبعد أن استقرت أحوالنا المعاشية لم يعد أمام أولادنا عمل منتج يعملونه . كما أن آراءنا فيما يختص بتربية الأولاد وإشغالهم قد تغيرت . وبعد أن كان الأولاد ذخائر ونعما صاروا مسئوليات ومصادر لزيادة النفقة. من هذا نرى أنه كلما كثر عدد الأسرة زادت الوطأة بنسبة ذلك . فالأسرة اذا استطاعت أن تبقى مستقلة غنية عن المعونة حينما يكون لها ولدان أو ثلاثة فإنها فى أكثر الأحيان تكون غير قادرة على أن تستبقى استقلالها اذا زاد عدد أولادها فبلغوا ثمانية أو عشرة مثلا . وقد زادت خطورة هذه الحال بازدياد نفقة حمل الأولاد وتربيتهم .

ترابط أسباب الفقر

مما سبق يتضح لنا أن الفاقة ليست نتيجة سبب واحد ، بل أسباب كثيرة ، وأن هذه الأسباب يسير بعضها آخذا بيد بعض: هذا يستدعى الثانى وذاك ينادى الثالث وهلم جرا . فالبطالة تؤدى الى معاقرة الخمر وهذه قد تؤدى الى الإجرام. والمرض قد ينقص كفاية الشخص وقلة الكفاية قد تجلب البطالة وهكذا . ونجد أن الكسل وقلة الحيلة ينشئان غالبا عن ضعف فى الحيوية وهذه قد تكون نتيجة المرض أو قلة الغذاء . وقد يكون الاثنان الأخيران كلاهما نتيجة الجهل أو ضعف طبيعة الحكم . وقد يكون الجهل نتيجة أن الشخص اضطر فى بكرة حياته أن ينزل ميدان العمل ليرتزق . وقد يكون هذا الاضطرار نتيجة موت الوالد بسبب وقوع حادثة له فى عمل محفوف بالخطر . وقد يكون خطر العمل نتيجة فقدان التشريع الواجب بسبب الرشوة السياسية أو بسبب عدم كفاية الحاكم لإهمالها فى تنفيذ القوانين . وقد تكون البطالة ناشئة عن حدوث تغيير فى الصناعة أو تغيير فى الزى أو عن عدم قدرة العمل على التجدد والانتقال أو بسبب حدوث نهضة عظيمة فى الصناعة . فلا يقتصر الأمر على استحالة عزو الفقر الى سبب واحد ، بل إنه لمن المستحيل أن يجد الباحث سببا قائما إلا كان معه سبب آخر. الفقر مترابط الأسباب ، والفقر يلد الفقر. وأغلب الفقراء مكبلون فى إسار الفقر بعنف وتحكم كأنما هناك حكم حديدى يأبى عليهم أن يخرجوا مما هم فيه .

أسباب الفقر هى أيضا نتائج الفقر

وفوق ما ذكرنا فإن الأحوال التى تناولناها الآن ليست أسبابا للفقر فحسب ، بل إنها أيضا نتائج للفقر فالفقر يجعل الإنسان عديم الكفاية والعطالة تتبع ذلك . والفقر يضعف فى الإنسان قوة المساومة ويترتب على ذلك قلة الأجر وعدم انتظام الشغل . والفقر يحول بين العامل والانتقال من مكان به ركود إلى آخر به عمل . والفقر لا يسمح للانسان أن ينفق وقتا ليتعلم فيه صنعة جديدة يوم يحرمه حدوث زى جديد أو اختراع آلة جديدة الانتفاع بصنعته القديمة. والفقر يمنع ابن الرجل المعدم من أن يظفر بكل ماتقدمه المدرسة من المزايا . وفقدان المال يجبر الفقير على أن يسكن فى غير الجهات المستحبة حيث تتضاعف العناية بالصحة . والفقر يدعو إلى إهمال شؤون الحياة ، وسوء التغذية الناشئ عن الفقر يجعل الإنسان أقل اقتدارا على حماية نفسه من الحوادث . والفقر يمنع الإنسان من استخدام الأطباء والممرضات الماهرين فى أحوال المرض ويمنع الاحتياطات الضرورية لتجنب المرض . والفقر يدفع بالنساء إلى الدعارة كما أنه نتيجة الفسوق . والفقر يحدث النزاع فى الأسرة ويدعو إلى الهجران والإجرام وفقدان الأمانة . والجهل إن حققت أثر الفقر كما أنه سبب له . وكذلك الأمر فى الحكومات الضعيفة فإن ضعفها ناشئ من كون القوة فيها منحصرة فى يد الأغنياء والفقراء فيها أضعف من أن يثوروا أو يجاروا بالاحتجاج لأنهم منسحقون تحت أقدام الأقوياء . وكذلك الأمر فى المحاكم والإدارة الجزائية الناقصة، ولكن العمال ظافرون اليوم بقسط أوفر من الدعاية منذ قويت اتحاداتهم،وقد أصبحت اليوم أحكام المحكمة العليا أشد رعاية لمصالحهم . والواقع أن الطبيعة البشرية تجرى على احتقار الضعفاء فهى بدلا من أن تعينهم تلكزهم حتى يشيخوا . وقد يكونون من الفقر بحيث لا يستطيعون أن ينتفعوا بنظام التعليم أو أن يطالبوا بمثل هذا النظام . وهذا حال أكثر البلاد حتى اليوم وقد يحمل الناس الأحوال المناخية السيئة أو موارد العيش الطبيعية الناضبة بعجزهم لفقرهم عن أن يتغلبوا عليها أو يهاجروا عنها . ويكاد يكون من المحال أن يوجد سبب من أسباب الفقر دون أن يكون نتيجة من نتائجه . وهذا سر اختلاف الآراء فى أسباب الفقر وعلاجه وهو السر فى أنه من الصعب جدا أن يجرى الإنسان بحثا دقيقا علميا عن الفقر ، فإنه كلما صار الباحث أدق فى بحثه وأوضح وجد نفسه أبعد من حقائق الواقع فى المسألة وأشرد .

ويمكن إيضاح ما فى الأمر من تعقد بالنظر فى أسباب الفاقة فى ٥٠٠٠ اسرة فى مدينة نيويورك تجرى عليهم معونة [١] .

[١] نقلا عن كتاب الشقاء وأسبابه (Misery and its Causes) تأليف ديفاين ص ٢٠٤

	سبب الفقر	المصابين	عدد	ن مئوية
١	البطالة	٤٤٧٤	٣٤٥٨	٦٩,١٦
٢	فرط الازدحام	—	٢٠١٤	٤٤,٦٨
٣	الترمل	—	١٤٧٢	٢٩,٣
٤	العجز الجسماني المزمن	١٦٠٣	١٣٦٥	٢٧,٣
٥	« « الوقتي (مستثنى منها الحوادث والولادة)	١١٥٨	٩٨٤	١٩,٦٨
٦	زيادة الأسرة عن ثلاثة أولاد دون ال ١٤ من العمر	—	٩٤٤	١٨,٨٨
٧	السكر	١٠٠٠	٨٣٣	١٦,٦٧
٨	قضاء أقل من ٥ سنوات في مدينة نيويورك	—	٨١٤	١٦,٢٨
٩	السل	٦٧٥	٦١٩	١٢,٣٨
١٠	الهجران والإصرار على عدم الإعالة	—	٦٠٦	١٢,١٢
١١	كون سن رئيس الأسرة ٦٠ سنة أو أكثر	—	٥٩٩	١١,٩٨
١٢	الكسل وقلة الحيلة	٦٦٧	٥٨٨	١١,٧٦
١٣	الخلقة	٣٦٣	٣٦٣	٧,٢٦
١٤	داء الروماتزم	٣٥٩	٣٤٧	٦,٩٤
١٥	الفسوق	٣٣٧	٢٥٦	٥,١٢
١٦	المرض أو النقص العقلي	٢٦٧	٢٤٨	٤,٩٦
١٧	القسوة والغلظة	٢٢٩	٢٢١	٤,٤٢
١٨	الحوادث	٢٠١	١٩٨	٣,٩٦
١٩	عدم الوفاء	٢١٠	١٩٤	٣,٨٨
٢٠	الإجرام	١٦١	١٥١	٣,٠٢
٢١	حدة المزاج	١٤٨	١٤٠	٢,٨٠
٢٢	نزق الأولاد	١٦٠	١٢٩	٢,٥٨
٢٣	الميل الى السؤال	١٣٤	١١٧	٢,٣٤
٢٤	استخدام الأولاد (العام لا المحرم)	٨٥	٤٢	٠,٨٤
٢٥	القمار	٢٢	٢٢	٠,٤٤

وقد وضع رونترى (Rowntree)[1] الرسم البيانى الآتى للأوقات التى يكون فيها الإنسان أشد تعرضا للسقوط تحت حد الفقر . وبمطالعة هـذا الرسم يرى أن هناك ثلاث فترات : الأولى فى الطفولة حين يكون الوالدان فقيرين ، ثم فى ريعان الحياة إذا كان هنـاك أولاد كثيرون فهم يزيدون الحمل على أهلهم ، وأخيرا فى الشيخوخة يوم يفقد الإنسـان قوة الكسب .



آثار أخرى للفقر

سنذكر هنـا مع أسباب الفقر بعض آثار الفقر . وقد تسمى هـذه وجوها مختلفة للفقر ولكن لمـا كانت هذه الآثار فى الواقع نواحى طبيعيـة للفقر فسنتناولها على اعتبار أنها عواقبه . وقد يعد كل منها فى ذاته مسألة قائمة بنفسها ولكنها جميعا أنسال تمخضت عنها أمها — الفاقة .

تشغيل الأطفال

فى سنة ١٩٠٠ كان فى الولايات المتحدة ١,٥٧٠,٠٠٠ طفل مستخدم . ولكن أغلب الولايات شرعت منذ ذلك الحين قوانين تحرم تشغيل الأطفال . واذ أصبح تشغيل الأطفال غير مشروع صار من الصعب الحصول على إحصائيات يصح الوثوق بها عن مدى حدوثه فى الوقت الحاضر . على أن التقديرات لذلك تتراوح بين ١,٥٠٠,٠٠٠ و ٢,٠٠٠,٠٠٠ لسنتى ١٩١٦ — ١٩١٧ ويرجع السبب فى هذا إلى التراخى فى تنفيذ قوانين تشغيل الأطفال وإلى عيوب فى تلك القوانين ولا سيما فى الولايات الجنوبية .

---

(١) ص ١٣ من كتاب (Poverty, a Study of Town Life)

وقد نشأ تشغيل الأطفال فى أكثر أمره أثر استعمال الآلات ؛ أما قبل ذلك فقد كان الطفل يشتغل فى المنزل حيث كان يدربه أبواه وكانا يفخران بشغله ويوقظان فى نفس الطفل رغبة التفوق . وكان الطفل مرعيا وقلما كلف عملا فوق طاقته . فلما أدخلت الآلات تغير الحال وأصبح الاهتمام منحصرا فى مقدار الناتج من تشغيل الطفل لا مصلحة الطفل نفسه إذ أن الناتج هو المعيار الذى كان يقاس به الربح . ولما حدث الانقلاب الصناعى فى أواخر القرن الثامن عشر كثر طلب الأطفال للاشتغال فى المعامل فى انجلترا . ولكن بسبب استهجان هذه الخلطة وبما كانت توصم بها الفتاة المشتغلة فى المعامل كان من الصعب جدا الحصول على العدد الكافى من الأطفال لتسيير العمل فى المصانع . ولم يجب أهل انجلترا داعى العمل فى المصانع إلا بعد أن اضطرهم الجوع إلى ذلك . وقد ملأ أصحاب معامل الغزل معاملهم بمن كانوا يستوردونهم من الملاجىء(*) . وظهر يومئذ تجار لجلب الأطفال . وكان الأطفال يباعون بيع العبيد تقريبا . والواقع أنه لم تكن تدفع لهم أجور ولم يكن يعطى لهم من الطعام إلا اسوأه ولا من الكساء إلا أقله . بل إن الوفا منهم كانوا فى شبه مجاعة مقصودة فانهم كانوا من الرخص بحيث لم يكن فى إطعامهم على الوجه المرضى عائدة لصاحبهم . وكان استبدال غيرهم بهم فى كل حين أعود بالفائدة على أصحاب الأعمال . كان هؤلاء الأطفال — وبعضهم فى سن الثامنة أو العاشرة — يلزمون العمل إلى منتهى ما تصل اليه طاقتهم . وكان يوم العمل ست عشرة ساعة عادة . فإذا كل الأطفال من العمل قبل وقت السراح جلدوهم بالسياط أو غمروهم فى برميل من الماء البارد . وفى بعض الأحيان كانوا يربطون الأطفال بالأغلال منعا لهربهم . لذلك كانت نسبة الوفيات بينهم عظيمة ولكن هذا كان يسر رجال الأبرشيات لأنه كان يخلصهم ممن لديهم من الأطفال الفقراء (*).

وقد اختزلت ساعات العمل بمقتضى قانون سنة ١٨٠٢ الى اثنى عشرة ساعة وكلف مستخدمو الأطفال كسوتهم وتعليمهم وإرشادهم الدينى إذا صح أن يكون فى الإمكان تصور مثل هذا الإرشاد فى مثل تلك الظروف . على أن هذا القانون لم يفرض تطبيقه على الأولاد « المشتغلين تحت مراقبة آبائهم » فكانت نتيجة ذلك أن انحل نظام استخدام آخذ الصدقات إذ كان أرخص لصاحب العمل أن يستأجر الأطفال من آبائهم بدلا من أن يتعرض لتطبيق لوائح هذا القانون الثقيل الوطأة . ولقد كانت الأجور إذ ذاك منحطة وكان البالغون لا يستخدمون إلا على شريطة أن يأتوا معهم بطفل أو اثنين . وفى نفس الوقت أخرجت الصناعات اليدوية من ميدان العمل بسبب نزول البضائع الرخيصة المصنوعة

---

* كانت الكنيسة تؤجر ما لديها فى الملاجىء من اليتامى أبناء الجنود الانجليزية الذين ذهبوا فى الحروب الفرنسية ، وهم فى رخص الطفولة (المعرب) .

* كان القساوسة يقولون أن الرب كتب لهؤلاء الأولاد الشقاء فلا يجوز لأحد أن يهوّنه عليهم — راجع كتاب هوليوك (المعرب) .

بالالات الى الأسواق . ولذلك كان على العمال أن يتفقوا مع أرباب الصناعات على ما يقيم أودهم . ولقد كان أولئك الأطفال الأحرار الذين يرسلهم آباؤهم الى المعامل يعاملون بنفس القسوة التى كانوا يعاملون بها فى النظام القديم وكانوا فى أغلب الأحيان يضربون ضربا مبرحا ولكن الآباء لم يكونوا فى حالة تمكنهم من الاعتراض .

حسبنا ما ذكرنا تقدمة للكلام عن مبدإ تشغيل الأطفال . وما مسألتنا الحاضرة إلا وليدة تلك الحالة ، سوى أن الأحوال التى تكتنفها جديدة ، وتشغيل الأطفال مع إمكانه يسبب ربما لأن الإنتاج الآلى من شأنه أن يجعل استخدامهم أدعى الى الاقتصاد ويجعل فى اقتدارهم القيام بأعمال كانت لولا الآلات من أعمال البالغين .

وهنـاك أنواع من الصناعات تعد أكثر الصناعات استخداما للأحداث . ولعل أشد هذه الصناعات إيذاء فى الولايات المتحدة مغازل القطن فى الجنوب . ويزكى أصحاب المغازل عملهم بقولهم إنهم إذ يعطون الناس عملا إنما يحسنون حالتهم . ولكن ساعات العمل كثيرة لأن يوم العمل الشائع هو عشر ساعات . وهم يكلفون الأحداث أن يديروا آلات ذات سرعة كبيرة وهم فى الغالب من صغر الجسم بحيث يضطرون الى تسلق الآلات لخدمتها . والمشتغلون فى جميع الولايات الجنوبيـة صغار أغلبهم فى الرابعة عشرة ، بل إنهـم فى بعض الولايات يستخدمون من هم دون ذلك . وفضلا عن هـذا فان هناك ألوفا من الأطفال دون السـن القانونية يعملون فى مختلف الأعمال بسبب تراخى الحكومة فى تنفيذ القوانين . ويدافع أصحاب العمل عن هذا بأن الأسر فى حاجة الى المـال الذى يستطيع الأحداث تحصيله وحالة الأجور على ما هى عليه فى الوقت الحاضر .

كذلك صناعة الزجاج فانها من الصناعات الآثمة . فالمعامل تكون عادة فى البلاد الصغيرة بالقرب من موارد الوقود مثل الغاز الطبيعى . و بسبب كونها قائمة فى بلاد صغيرة وأن انتقالها منها من الأمور الهينة نجد أن هناك أحوالا مسموحا بها فيها ما كان يتسامح فيها فى العـادة . فأصحاب المعامل يهددون بالانتقال منها الى بلاد أخرى وهو أمر ممكن تنفيذه بسهولة إذ أن العدة اللازمة لعملهم ليست كبيرة فلكى تستبقى البلاد المعامل فيها تراها لا تطبق قوانين استخدام الأحداث عليها . فى تلك المصانع يكلف الأحداث حمل القنينات من الأفران واليها ، فهم دائمو الحركة . أما البالغون فلا يكلفون هذا لأنهم ليسوا من السرعة بحيث يقومون بهذا العمل . وقد قرر الباحثون مدى ما يقطعه الغلام فى اليوم فوجدوه يعادل فى المتوسط اثنين وعشرين ميـلا فى يوم العمل أو ليله . إذ يجرى من الفرن واليه وهو يحمل أثقاله من القنينات . وكان الغلام يتناول من الأجر فى مقابل ذلك قبل الحرب بين ستين سنتا ودولار فى اليوم . والعمل فى ذاته مؤذ جدا ولا سيما فى الشتاء عند انفضاض نوبة الليل ، إذ أن الأولاد يتركون مكان العمل وهو ساخن لينغمروا فى لجة البرد القارس فى بكرة الصباح فيقعون فريسة الالتهاب الرئوى والزكام .

كما أن وهج النار يؤذى العين . واذا كان الأولاد يشتغلون فى نوبة الليل صعب عليهم أن يناموا فى النهار، ولهذا فهم لا ينالون القدر الكافى من الراحة . وفضلا عن ذلك فإن التأثير الخلق فيهم سىء إذ أن الأحوال المحيطة بهم ليست عادة كما يجب أن تكون .

وكذلك المناجم ولا سيما مناجم فحم الانثراسيت فى بنسلفانيا فأنها آثمة لأنها تستخدم أطفالا للتكسير مهمتهم العمل فى التراب لالتقاط مادة الأردواز من بين الفحم وهو ينحدر بجوارهم فتمتلىء رئاتهم بالتراب وترض أيديهم ويتقوس الطفل بسبب نوع العمل الذى يتولاه ويظل قزما طول حياته لا ينال تربية وإنما يخرج من المناجم ليصبح بوابا أو من سائق البغال فيها . وكذلك مصانع السيجار فأنها أيضا سيئة وإن كان العمل فيها غير شاق كما فى تلك . ففى مصانع السيجار يشتغل الأولاد والبنات فى جو غاص الى درجة عالية بالنيكوتين ومن شأن هذا الجو السىء أن يعرض الجسم للإصابة بالسل أو يوقف سير نموه مدى الحياة .

وتستخدم صناعة حفظ الأطعمة فى العلب قدرا كبيرا من الأطفال . والأحوال فى معامل حفظ حيوانات الأصداف والحيوانات القشرية على درجة عالية من الرداءة . فالأطفال يبدءون العمل غالبا وهم فى سن الرابعة أو الخامسة ويشتغلون مدى طويلا قد يبلغ خمس عشرة ساعة فى اليوم . واذ أن آباء هؤلاء الأطفال يعملون معهم فالأحوال فى هذه الصناعة ليست سيئة كما فى غيرها إذ قلما أسيء استخدام الأطفال . ولكن وجهة نظر أولئك الآباء تلوح غريبة فى أعيننا فأغلبهم من المهاجرين وهم يعدون أولادهم ذخيرة لهم ورأس مال وعليهم أن يعينوا الأسرة دون أن يروا التعليم ضروريا لهم . وإذ أن الأولاد يشتغلون من أجل آبائهم فأن من من الصعب أن تصل اليهم اليد إلا من ناحية القانون المدرسى لأنهم غير مدرجين فى كشوف العمال . ولقد كان الحدث فى السابعة قادرا قبل الحرب على أن يكسب من عشرة سنتات الى خمسة وعشرين سنتا فى اليوم ، والذى سنه بين ثمانى سنين وعشر كان يتناول ما يبلغ حوالى خمسين سنتا والذى بين الثانية عشرة الى الرابعة عشرة كان يبلغ أجره فى اليوم دولارا . ولكن البالغين ما كانوا يكتسبون بحال ما أكثر من دولار . ولذلك قلما هيأ هذا العمل للعامل فرصة التقدم . والعمل موسمى، فإذا انتهى الموسم انتقلت الأسر عادة الى حقول الأثمار العنبية (Berries) للعمل فيها ما بقى من السنة . ولما كان أكثر هذه المعامل فى الجنوب حيث يتراخى فى تنفيذ القوانين المدرسية تراخيا كبيرا لم ينل هؤلاء الأطفال من التربية ، اذا تيسر، غير القليل التافه . وتغلق المدارس فى موسم العنبيات فى نيوجرسى إذ تكون فى عطلة . وبعض الشركات يمثل مهزلة إذ يقيم مدرسة ويطلب الى الأولاد أن يعملوا أربع ساعات ويقضوا بالمدرسة نصف يوم ثم يكلفهم أن يشتغلوا أربع ساعات بعد ذلك . ومن السهل أن يتصور الإنسان مقدار ما ينال الطفل من التربية على هذا النظام .

وفضلا عن هذه الصناعات فإن بالمنازل عمالا من الأحداث يشتغلون لآبائهم فى الصناعات المرهقة . بل إن هناك أطفالا صغيرين لا يشبون عن طور الرضاعة يساعدون آباءهم فى عمل الوسائد والأزهار الصناعية والريش الصناعى وفى تنقية الألياف وفى كل ما تستطيع أناملهم الصغيرة أن تعمله . على أن الأحوال فى هذه الأعمال ليست بدرجة غيرها من السوء كما فى المعامل لأن الأولاد يشتغلون مع آبائهم ، ولكن أكثر هؤلاء الآباء لا يشعرون ما تشعر به من المبادئ العالية . والأطفال فى تلك الحال لا يتناولون على عملهم أجرا ويكونون فى الغالب دون السن المدرسية أو أنهم يشتغلون بعد المواعيد المدرسية . ولذلك فلا تصل اليهم يد أى قانون من قوانين تشغيل الأحداث .

وهناك نوع من تشغيل الأطفال غير مدرك عادة ، وذلك فى المزارع ولا سيما مزارع الخضر العظيمة حيث يستخدم الأطفال لتنقية الحشائش . نعم إن الشغل فى هذه المزارع أحفظ للصحة منه فى المعامل ولكنه فى الغالب أقسى وساعاته أكثر . ففى مزارع بنجر السكر فى ميتشيجان ، ولا سيما فى كولورادو ، نجد ألوفا من الأحداث يعملون لا فى التنقية والتخفيف وحدهما بل فى اقتلاع البنجر نفسه من الأرض وهو عمل مجهد جدا ومؤذ لجسم الطفل فى نموه . على أن أكبر خسارة تأتى الى هؤلاء العمال الريفيين ضياع فرصة ذهابهم إلى المدرسة . والقوانين المدرسية فى تلك الأصقاع غير منفذة . وتقدر اللجنة الوطنية لتشغيل الأطفال عدد الأحداث الذين يشتغلون فى المزارع ويكسبون ١,٥٠٠,٠٠٠ عامل بين العاشرة والخامسة عشرة من العمر . أما ديوان العمل فى الولايات المتحدة فيقدرهم بما لا يقل عن مليونين .

وهناك عملان من أشد الأعمال أثرا فى إفساد الأحداث وهما عمل السعاة والرسل وبيع الجرائد فثلث الصبية الذين يرسلون الى مدرسة John Worthy School فى شيكاغو من باعة الجرائد وثلث هؤلاء دون حد القياس الجسمانى المعتاد . هذا العمل من شأنه استبقاء الصبية فى الشوارع ساعات كثيرة . وهم دائما فى جهد دائم ولذلك يشيخون قبل الأوان . وتراهم يعتادون حياة الشوارع فى بكرة حياتهم . ولا تؤدى هذه الحرفة الى شىء معروف فهى متلفة عليهم فرصة استعدادهم للحياة . والصبى المشتغل بمهنة السعاة أسوأ من صاحبه حالا اذ أنه يشتغل غالبا فى الأحياء ذات النور الأحمر (حى الملاهى) فلا يقتصر حال الصبى على الاتصال المباشر بالرذيلة وإصابته عادة بالأمراض التناسلية ، بل إنه يكون عرضة للتجارب المغرية بفقدان الأمانة والشرف . فالنفحات والرضائخ (البقاشيش) أوفر والناس هناك أشد استهانة ومن السهل استبقاء بغية النقد والمطالبة بما هو أزيد من المعتاد . وحرفة نقل الرسائل كحرفة باعة الصحف لا تؤدى الى شىء معروف فهى لهذا تفسد على الصبى صلاحيته للعيش .

وقد كان ماسح الأحذية فيا مضى من هذا الفريق ، ولكن مواقف مسح الأحذية التي استحدثها الأروام قد أخرجت صبية البلاد الوطنيين من هذه الحرفة . على أن هناك جانبا كبيرا من تشغيل الأحداث فى هذه الحرفة إذ أن أربابها يستوردون من اليونان أطفالا دون السن القانونية أحيانا للعمل فيها .

والأثر الخلقى المترتب على تشغيل الأحداث سيء حتى ولو كان العمل فى ذاته هينا . وذلك لأن العمل الذى يقومون به لا يكون عادة من الأعمال الفنية التى تحتاج الى حذق . والبيئة التى يكونون فيها يحتكون فيها بأشخاص أجلاف غير ذوى تربية ، حيث لا يسمع فيها إلا هجر الكلام وفحشه . ومن المحال أن ينمو الطفل فى تلك الحال تمام النمو . بل إن اليأس يتملكه فى صغره ويشيخ قبل أوانه . قال راسكين " اذا صرت رجلا قبل الأوان كنت رجلا صغيرا فى العقل والبدن " . ذلك لأن حيوية الإنسان تستنفد فى زمن مبكر جدا ، ومن يدخل ميدان العمل قبل أوانه يلقى به على كومة المهملات قبل أوانه . على أن هذا يتلف الذرارى التالية . وفى حالة انجلترا أيام حربها مع البوير برهان صالح على تأثير تلك الخطة اذ كانت بنية أجسام أهل انجلترا من الانحطاط بدرجة أنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا لجيشهم العدد الكافى من الصالحين لمحاربة تلك الأمة الصغيرة . ولذلك اضطروا الى أن يحطوا مقاييس الشروط الجسمانية للقبول فى الجيش . وتشغيل الأحداث من شأنه أن يأخذ من الآباء شغلهم ولذلك تفسد حالة الأسرة من الوجهة المعنوية ، إذ ينقلب الحال ، فبدلا من أن يقوم الرجل بأود أسرته يضطر الى أن يسمح للأسرة أن تقوم هى بأوده . ثم إن تشغيل الأطفال يحط من الأجور اذ يقضى على البالغ فى هذه الحالة أن ينافس الطفل . ولذلك ترى اتحادات العمال تناهض شغل الصغار من أجل هذا السبب . كما أن تشغيل الأطفال يربى فى الآباء عادة الاتكال على مكاسب أولادهم ومن ثم تنضب من قلوبهم عاطفة المحبة والحنو الوالدى . وهو غير لازم للصناعة لزوم حتم ، إذ أن فى الدنيا من البالغين ما يكفى للقيام بالعمل . وهو غير ضرورى للأسرة لأنه اذا ترك هذا الأمر ارتفعت الأجور . وهو يمنع حصول التحسين فى الآلات لأنه يزيل المحرض على الاختراع — فقد اخترعت آلات للقيام بالعمل الذى يؤديه الأولاد عادة فى معامل الزجاج ولكنها لم تستعمل لأن استخدام الصغار لا يزال أقل نفقة . وفى الإمكان اختراع آلات للقيام بكثير من الأعمال التى يقوم بها الأطفال اليوم . كما أن استخدام الأطفال ليس من لوازم النجاح المالى للصناعات المذكورة لأن الصناعات التى تستخدم الأطفال تدفع فى العادة أرباحا عالية فى كل سنة ولا سيا مغازل القطن فى الجنوب ومناجم الفحم فى بنسلفانيا . والواقع أن فى استطاعة أى صناعة أن تقوم بعملها دون أن تستخدم الأطفال فى عملها .

ولكن ربما كان أهم شيء فى أمر تشغيل الأحداث أثره فى الأمة إذ أنه يستنفد موردها من العمال قبل أن تكمل قوتهم . وهذا أشبه شيء بحصد الغلة قبل أن يتم نضجها أو قطع الأشجار التماسا لخشبها وهى صغيرة لا يحل قطعها ، أو ذبح الماشية صغيرة لم يكمل نموها . سوى أن هذا الأثر أشد فتكا وأذى ؛ فانه بمثابة استنفاد ذخيرة المستقبل وهو إسراف كبير وخطر على المدنية . وفى أكثر الولايات، كما ذكرنا، قوانين خاصة بتشغيل الصغار وهى قوانين وافية ينفذونها بدقة وفى بعضها قوانين ناقصة أو متراخى فى تنفيذها ولا سيما فى الولايات الجنوبية وهذه الولايات تنتفع على حساب الولايات ذات القوانين الوافية .

كل ما نحتاج اليه هو قانون وطنى عام خاص بأمر تشغيل الأحداث . وقد قدمت مشروعات شتى فى هـذا الصدد ولكنها كانت تعد غير دستورية لأنها كانت تناقض بعض مواد فى قانوننا الدستورى المؤسسة على النظرية الفردية القديمة عن المجتمع . فنحن فى حاجة الى قانون يتجنب هذه الصعوبة أو الى تعديل فى نظامنا الدستورى وإلا فان الولايات المهملة والتى لم يتم فيها الإحساس بالمسئولية المعنوية على وجه سام ستستمر فى الاستفادة على حساب الولايات التى تكوّن فيها ضمير اجتماعى أرقى . فلا بد لنا الى أن نصل الى مثل هـذا القانون المطلوب ، من قوانين محلية تفضل ما لدينا . ولعله من الخير لنا أن نهتم بتنفيـذ القوانين الموضوعة بدقة وحزم وذلك بالدقة فى التفتيش وفى توقيع العقاب المفروض .

النساء فى المصانع

لا نتناول هنا بالبحث موضوع دخول المرأة العزباء فى المصانع بل دخول المتزوجة لا من حيث اعتباره وظيفة أو من حيث إيثارها إياه على العمل المنزلى، بل من حيث إنهـا تدخله عن حاجة — حاجة الى تكميل دخل زوجها . ففى رأينا أن دخول هـذا النوع من النساء فى المصانع يشبه شغل الأحداث فى كثير من الوجوه . فهو يدعو الزوجة الى إهمال منزلهـا وأطفالها ويجعل من المحال إمداد الأسرة بما يفى من الطعام وما يجب من العناية . فالأطفال يهملون ضرورة ويدفع بهـم الى الشوارع . واذا حاولت الزوجة أن تعمل فى بيتها فى نفس الوقت كان الجهد أعظم مما تطيق ، واذا هى تركته لأطفالها وضعت بعملها هذا عليهم أحمالا وهم فى سن لا تحمله . وكثيرا ما يضطرها الحال الى العمل وهى غير صالحة له بسبب حالتها الجسمانية ولا سيما قبل أيام الوضع مباشرة أو بعدها . ولا شك أن أثر هـذا إفساد للأسرة وإيذاء . كما أن من شأن دخول النساء فى المصانع فى مثل هذه الأحوال الحط من الأجور فيها وله أيضا أثر كبير فى تعقيد المسألة التى سنتكلم عنها بعد وهى إهمال الأطفال. وهو — أى انتقال المرأة — يجعل مقدار المعروض من العمل أكثر من المطلوب منه وهذا يدعو الى البطالة فهو من هذه الوجهة مشتبك اشتباكا شديدا بمسائل أخرى .

إهمال الأطفال

لا يقتصر أمر أولاد الفقراء على أنهم لا يتغذون تغذية كافية، بل إنهم فضلا عن ذلك لا يتغذون تغذية صحيحة . فكثيرا ما يكون الطعام كافيا فى مقداره وهو غير كاف فى نوعه إذ تنقصه العناصر المغذية. فنى هذه الحال يتعرض الأولاد للمجاعة البطيئة. وكثيرا ما يرسلون الى المدرسة دون أن ينالوا فطورا مغذيا . أما غذاء الظهر فهم يعطون من أجله بضعة بنسات ينفقها الطفل عادة فى مشترى المثلجات والحلوى والمخللات. وقد ذكر سبارغو (Spargo) فى كتابه "صرخة الأولاد المرة" (Bitter Cry of the Children) أن مليونين من الأطفال البالغين السن المدرسية كانوا فريسة الفقر اذ كانوا محرومين حاجات العيش العادية واتقلبوا فى الحياة بعقول وجسوم ضعيفة . وهو يبحث متسائلا : ألا يحسن أن يعنى بتغذية هؤلاء الصعاليك بدلا من محاولة تربيتهم ؟ ويتساءل كذلك : أليس من القسوة محاولة تربيتهم وهم فى مخمصة ؟

وسبب الغباوة فى المدرسة متأت إلى حد كبير من سوء التغذية ، إذ لا يذهب الى المخ إلا مقدار غير كاف من الدم. وكذلك عدم كفاية الكساء فإن معناه أن الجسم يخرج قدرا كبيرا من حيويته لدفع البرد ، ومن ثم يغشى اليأس الأولاد فيتركون المدرسة ويهيمون فى الشوارع ويتلقفهم تيار الجريمة . وكثيرا ما يخرجهم أهلهم من المدارس بدعوى أنهم ما داموا قد أثبتوا عدم قدرتهم على التعلم فلا جناح أن يعاونوا أهلهم على دفع أجرة المنزل . وشغل الطفل يعود فوق هذا بضرر آخر للجسم وللعقل والخلق لأن الطفل إذا لم يستطع تحمل المشقة المدرسية فإنه لا يستطيع من باب أولى أن يتحمل مشقة الحياة المصنعية، وسرعان ما يلحق بقائمة المنحطين .

وفريق المجرمين، كما سنرى فى فصل آخر، إنما يتكون فى الغالب من هذا الصنف من الأطفال المنحطين . والعادة فى أطفال الإصلاحية أن تراهم صغار الأجسام خفاف الأوزان عند دخولهم الإصلاحية بالقياس الى الأطفال العاديين الذين يكونون فى مثل سنهم . وإذا حققت وجدت أن سوء التغذية من الأسباب الرئيسية فى كثير من أنواع الجرائم . ولقد كان أثر هـذه المسألة من الخطورة فى أحياء الفقراء بحيث اضطرت مدارس الشعب فى غالب مدننا الكبيرة إلى اتباع خطة كثير من المـدن الأوروبية من تقديم غذاء للتلاميذ مجانا بقيمة قليلة. والغذاء المغذى اللذيذ الطعم لا يزيد ثمنه فى الغالب عندهم عن بضعة سنتات. وقد دهش الكاتب لما رأى من عظيم الإقبال على هذه المطاعم المدرسية عند زيارته لها ذات يوم فى شيكاغو ، وهى تدار عادة على طريقة الكافيتريا(*) (Cafeteria) مع بعض الاستعداد لإجابة

(*) هى أن يأخذ الزبون بيده أدوات المـائدة من شوك وسكاكين وملاعق ويذهب بها على صينية الى حيث يعطى الطعام ويطلب حاجته فيعطاها على الصينية ثم ينصرف الى خوان فى القاعة ليأكل ما أخذ بعـد أن يدفع الثمن . وبتحميل الآكل مهمة الخدمة تخفيف الثمن . (المعرب).

طلبات من لا يستطيعون دفع تلك القيمة الزهيدة . ومما يلاحظ أنه عند ما أدخلت هـذه المطاعم وجد أن الجهاز الهضمى فى كثـير من الأطفال كان فى حالة من الاضطراب بحيث لم يستطع أن يتحمل الطعام الجيد إذ كان من الضعف عن هضمه بحيث كانت المعدة ترفضه . وجد فى أحد الأمكنة أن الحساء كان من الجودة بحيث اضطروا إلى تخفيفه ووجد من الأطفال من لم يكونوا يستطيعون أكل الدجاج أو أى نوع آخر من أنواع اللحوم ، بل كان منهـم من لا يستطيعون أن يشربوا اللبن نفسه .

هذا مثل من الأمثلة لحال من الأحوال التى يجب على المدرسة أن تتقدّم لتقوم بوظيفة البيت فيها . والعادة أن يستتبع إنشاء هذه المطاعم المدرسية حدوث إصلاحات عظيمة فى العمل المدرسى . وفى سويسرا يطعمون الأطفال الفقراء ويكسونهم ويعطونهم نعالا على حساب الجمهور ويعملون لصغار الأطفال جدا بيوتا نهارية . وهم يفحصون الأطفال، فإذا وجدوا فيهم مرضى، لم يرسلوهم إلى بيوت أهلهم حيث يكونون عرضة لسوء العناية ، بل بعثوا بهم إلى المصحات وفى بروكسل والنرويج يلاحظون الطفل فإذ تبينوا فيـه الهزال غذوه غذاء خاصا . ومن النظم المدرسية عندهم أن يكون غذاء الطفل غذاء وافيا كاملا . فأمريكا من هذه الناحية وراء أوربا ولكنها آخذة على عجل فى اللحاق بها . ولا بد لنا أن نتوسع فى هذه الخطة إذا أردنا أن نحول دون إيجاد طبقة من المنحطين فى أجسامهم وعقولهم وأخلاقهم . على أنا عاملون على إنشاء محاضن (Nurseries) نهارية للأطفال حتى يستطيع الأمهات المشتغلات أن يودعن أولادهن فيعتنى بهم العنـاية الواجبة . ونحن موسعون عمل الزائرات الصحيات اللاتى يعلمن الأمهات كيف يطهين الطعام ويعنين بالمنـازل والأطفال . وكذلك تجرى تجـارب فيما يختص بإعطاء معاشات للأمهات ليتمكنّ بذلك من البقاء فى المنـازل والعناية بالأطفال . فالحكومة بهذا متكفلة بدفع قيمة هذه الخدمة المهمة ونحن عاملون كذلك فى سبيل تقرير الحد الأدنى للأجور لكى يتمكن الوالد من حسن القيام على الأطفال . فعملنا بعبارة أخرى غير مقتصر على تخفيف الشدة ، بل إنه يتناول محاولة استئصال جذور هذا الشر .

ويدخل تحت هـذا العنوان النقائص البدنية فى الأطفال مثل ضعف البصر والأورام الخيشومية وتضخم اللوزتين وغيرها من العلل التى يمكن مداواتها بسهولة إذا عولجت فى وقتها . وكثير من الأطفال تراهم أغبياء بسبب نقص قوة الإبصار أو السمع أو غير ذلك من الضعف الجسمانى . وإذا عولجت هذه النقائص فالغباوة تزول فى معظم الأحيان . يروى عن تيودور روزفلت أنه كان معدودا من الأغبياء حتى وجد أنه قصـير النظر ، فلما استعمل النظارات ذهبت عنه الغباوة على عجل . على أن هذا النوع من النقص غير مقصور دائمـا على أولاد الفقراء جدا إذ أن فى القادرين من يهملون العناية بأولادهم فى هذا الصدد زاعمين أن الطفل

لا يخشى عليه أو أنهم يؤجلون العناية بالأمر حتى يستعصى الحال ويتلف الصبى إلى الأبد . ويجرى التفتيش الطبى فى كثير من مدارسنا على صحة الأطفال فى أوقات مقررة، ولكن هذا التفتيش يحدث فى الغالب بطريقة سريعة فلا ينال الطفل إلا لمحة واحدة من الطبيب . وإذا حدث أن وجد لدى الطفل قصرا فى النظر اكتفى من الأمر بإرسال مذكرة إلى أهله يطلب إليهم فيها إصلاح الخلل . والغالب فى هذه الخطابات أن تهمل . بل الواقع أن الآباء لا يعنون بها فى أكثر الأحوال بسبب فقرهم أو جهلهم أو قلة حيلتهم أو فرط أثرتهم . ولذلك نعتقد أنه يجب أن يكون هناك ضمان أوفى لهذه الأحوال إذ أن البلاد لا تستطيع أن تترك أولادها يهملون هذا الإهمال . وهذا منحى من مناحى العمل الجدير بالتوسع إلى حد بعيد .

مما يسوء أن الفقر يكون أشد وقعا ونكالا على الذين لا يملكون وسيلة لدفعه ، ولا سيما الطفل الذى يقضى يومه بغير ما يغذيه من الطعام الواجب ، وبغير الكساء الصحيح أو المأوى اللائق الذى يقضى عليه أن يتحمل الآلام . وفى كثير من الأحيان يهلك أو يشوه طول حياته . ونسبة الوفيات فى الطبقات الشديدة الفقر من العمال يعادل ثلاثة أمثال ونصف من نسبة الوفيات من الميسورين . وإنما كانت وفيات الأطفال أكبر فى نسبتها بسبب انحطاط الحيوية وصيرورة الأجسام أضعف عن رد الأمراض عنها . والفقر أشد وقعا على المرأة منه على الرجل وأشد على الطفل منه على البالغ .

الانحطاط

لا نجد أسرا منحطة فقط، بل إنا نجد كذلك جماعات منحطة وأمما منحطة . والعوامل الداخلة فى هذا متعددة ولكن من العوامل الرئيسية فيها الفقر . فالفقر يقعد ويتلف أو أنه يمنع نمو روح التطلع والطموح . والفقر كما رأينا يجلب معه مالا عد له من الشرور والسيئات كالجريمة والرذيلة والجهل والفسوق والمرض وفقدان الكفاية العملية . على أن الانحطاط ليس كله ناشئا عن الفقر ، بل لا بد من اعتبار العوامل الحيوية البيولوجية الداخلة فى الموضوع . كما أن الأوجه الجغرافية ذات أثر فيه . بيد أن الفقر هو سبب قدر عظيم من الانحطاط . ويتذكر الكاتب جيدا أنه إذ كان فى رحلة خلال الجبال فى كنتا كيا الشرقية الجنوبية دهش لما رأى من رفاهية تلك الجهة والتقدم السريع الذى كان يخطوه ذلك الصقع . وقد وجد أن

السبب فى ذلك كله عثورهم هناك على مناجم للفحم كانت تدر الثروة على تلك البلاد . والواقع أن الثروة تمهد السبيل للتعليم وتوفر الوقت للدراسة وتحدث وسائل الانتقال وتعطى أصحابها فرصة التمتع بطيبات الحياة التى قد تميل النفوس اليه، ولكن الفقر يحول دون تحقيقه . ونحن إذا فحصنا عن الموقع والحالة الاقتصادية للجماعات التى وردت منها الأسر المنحطة مثل الجيوكس (Jukes) والكاليكاك (Kallikak) والنام (Nam) وهيل فوكس (Hill Folks) نجد أن الفقر شائع فيها . واذا نحن تناولنا الأقسام المنحطة والمتأخرة فى أى قطر نجد حالتها عين هــذه الحالة .

وهذه الحالة فى جزء منها سبب فى الفقر ولكنها كذلك نتيجة الفقر . فالتلال الرملية من ولايات كارولينا وجورجيا والأوزاركس فى ولاية أركانساس وجبال كنتاكيا وتنيسى كانت جميعها أصقاعا قاحلة غير مطروقة تركت فى فقرها . و إذا نحن فحصنا عن حالة الأقطار المتأخرة فى الدنيا وجدنا أنها لاتخرج عن تلك الحال .

الفصل الحادى والعشرون

معالجة الفقر

معالجة الفقر قديما

من أقدم الطرق فى معالجة الفقر الاسترقاق . ذلك أنه كان إذا عجز إنسان عن كسب عيشه — أو أن يدبر أمر نفسه حتى يفى دخله بحاجته ، بيع رقيقا الى من يقدر أن يعوله . وكذلك الحال فى الجماعة أو الأمة فانها حين تعجز عن الانفراد بشؤون نفسها يخضعها لأمره من هو أقوى منها . وهذه الطريقة ليست أثرا لنظرية ، بيد أن العمل بها كان جاريا على نطاق واسع فى العصور القديمة . وكان المسن والكسيح بين بعض الشعوب يقتل ، على أن هذا القتل كان فى كثير من الأحيان نتيجة رعاية للضعفاء أو إشفاقا عليهم .

والإحسان — أى اعطاء الصدقات — كان من قديم الزمان أشيع طريقة لعلاج الفقر وقد أخذ الإحسان بعد ذلك صورا متعددة منها المساعدة التى تبذلها الحكومة للفقراء وهو ما تقوم به معاهد أو جماعات تحت إشرافها أو إشراف أحد فروعها . ومنها الصدقة الخاصة أى المساعدة التى يقدمها الأفراد أو الجماعات مستقلة عن سلطة الحكومة .

وقد بلغت فكرة الإحسان فى فلسفة الهند والصين واليهودية مبلغا بعيد الشأو، فقد دعت اليه أديان هذه الأقطار ولا سيما البرهمية والبوذية على أنه إحدى الطرق الموصلة للخلاص والتكفير عن الذنوب . والبرهمى فى الهند يعتمد على الصدقات فى معاشه، إذ أن شرائع هذا الدين تأمر بإعطائها . ولقد أغرقوا فى فرضها حتى أصبح أولئك الذين يسمون «أولياء» فى الهند سببا فى الضجر والضيق ووجد ألوف من الدجالين فى ذلك طريقا سهلا للعيش . وعنى اليهود فى عهودهم الأولى بمبدإ الإحسان وتنظيمه ثم تناولته المسيحية وسارت فيه الى مدى أبعد مما بلغته اليهودية . أما بين البرابرة فأننا لا نجد الإحسان قد وصل الى درجة مذكورة إذ أن الضعيف كان بينهم مهينا لا ينال معونة إلا من أقاربه أو أصدقائه إشفاقا عليه ورحمة به . أما الشعوب المتقدمة ولا سيما ذات الأديان المبنية على نظم الشريعة كالأزتيك فى المكسيك والانكا فى بيرو فأن لها نظما للمعونة راقية رقيا كبيرا .

و إذا درسنا حالة الشعوب التى وصلت الى درجة أسمى فى سلم المدينة نجد أن روح الايثار عندهم أزيد وأقوى . ومن الأشكال التى تشكلت بها هذه الروح، الإحسان . ولم يكن هذا الإحسان إلا فيما ندر من الأعمال التى تتولاها الدولة ، و إنما كان صدقات يقدمها النـاس وكان فى أغلب الأحيان موكولا الى المشيخة الدينية ولا سيـما الكنيسة المسيحية . وفى أثينا كانت تجبى ضريبة للفقراء ، ولكن أثينا كانت فى هذا العهد مجتمعا راقيا رقيا كبيراً . وكانت روما فى عصر الأمبراطورية تنفق أموالا كثيرة تقدر بملايين الدولارات كل سنة فى إطعام المساكين والفقراء . وفى زمن أغسطس كان ٣٢٠,٠٠٠ نسمة يتناولون من الحكومة منحا من الغلال أو غير ذلك من المعونة . و يقدر ما أعطاه نيرون مدة حكمه بما يقرب من مائة مليون دولار من الخزينة العامة لإطعام الشعب . ولم يقف الرومان عنـد حد إطعام الشعب من الخزانة العامة بل تجاوزوا ذلك إلى تسليتهم . على أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك عن عطف و إنما الواقع أن الناس فى كانوا قسمين : السراة (Patricians) وهم ذوو اليسار، والعامة (Plebians) وهم الفقراء . وقد كان الحكم للسراة فى أول الأمر فانفردوا بغنائم فتوحهم ، لكن الشعب ظفر بعد ذلك بقسط من الحكم فأصبح يخشى جانبه ويخاف أن يثور و يقضى على حكم السراة . لذلك عمدت الحكومة الى مساعدة الفقراء بالعمل على تخفيض الأسعار ثم بإعطائهم الغلال و بعد ذلك بتوزيع الزيت والخمر عليهم، وأصبحت مسألة الاحتفاظ بسكينة الأهالى و إرضائهم من الخطورة بحيث رأوا من الضرورى أن ينشئوا لهم الملاعب البهلوانية وأن يقيموا لهم مباريات فى المصارعة لتسليتهم وتلهيتهم . وتنافس الساسة فى بذل العطايا لينالوا أصـوات الأهالى قبل الانتخاب و بعد توليتهم الوظائف . و ربـما زاد مقدار تلك المكارم التى يتحملها فى نهاية الأمر بيت المـال ، على المبالغ التى يقدمها الأفراد من تلقـاء أنفسهم لعول الأهالى . ولم يكتف الساسة باسـترجاع أموالهم عند تنصيبهم فى وظائفهم و إنما انتهزوا كل فرصة لملء جيوبهم حتى جرت عادة كل قنصل لدى منحه ولاية أى إقليم أن يعد ذلك فرصة ينتهزها ليعوض خسائره بعد انتهاء خدمته . وكان القنصل فى أثناء السنة التى يتولى فيها يجعـل نصب عينيه الحصول على ثلاث ثروات : الأولى يسد بها ما استدانه فى أثناء كفاحه للوصول الى منصبه ، والثانية ليسد بها ما يحكم به عليه فى الدعاوى التى تقام عليه عند اعتزاله منصبه ، والثالثة ليكون لديه ما يكفيه لقضاء بقية حياته فى يسر ونعيم . فأنت لاتجد فيما جرت عليه الحكومة الرومانية غير أثر قليل لروح الإحسان أو الإيثار .

ولـما قويت شوكة الكنيسة الكاثوليكية أخذت على عاتقها العناية بالفقراء وذوى المحن فأنشأت لهذا الغرض جماعات الرهبان والراهبات وجاهدت الكنيسة جهاد الأبطال فى هذا المضمار . ولكن وجهة هذا العمل إنـما كانت لتخفيف وطأة الشدة والضيق لا لمنع الفقر فانصرف جهدها الى دفع آلام الناس دون أن تحاول دفع أسبابها . و ربما كان ذلك لأنه قلما

خطر ببالها أن هذا فى حيز الإمكان . وزعت الكنيسة الصدقات وعنيت بالأطفال وعالجت الأمراض وعملت فى الجملة على تلطيف شدة البؤس . ومع هـذا لم تمح الكنيسة الفقر بل لعلها زادته ، فقد ظلت الأحوال التى يتولد عنها الفقر تفعل فعلها وكان امكان الحصول على الصدقات أكبر مغر للناس على ترك الجهاد لصد مصائب الزمن اكتفاء بالمساعدة من غيرهم . واستمر عمل الكنيسة هـذا فى معالجة الفقر حتى " زمن الإصلاح " حين أخذت الكنيسة الكاثوليكية تنقسم الى طوائف وشيع وأصبحت العناية بأمور اللاهوت أشغل لفؤاد الكنيسة من مهمة تخفيف آلام الناس فاضطرت أن تسلم جانبا كبيرا من هذا العمل الى الحكومة . ولقد كانت الكنيسة قبل ذلك تعد الإحسان من مبادئها الأساسية ولكن قلت أهمية ذلك لديها . وهذا مما يؤسف له من بعض الوجوه . إلا أن الكنيسة من جهة أخرى لم تتناول هذه المسألة كما يجب أن تتناول وربما زادت شرة الفقر بسوء بذلها بدلا من أن تخفف وطأته . وكانت نظريتها فى ذلك أنه كلما أجزل المرء عطاياه فى الدنيا عظم له الجزاء فى الآخرة .

تولى الحكومة أمر الإحسان

كان التسول فى بادئ الأمر جريمة وكانت القوانين التى سنت قبل عهد الإصلاح فيما يختص بالفقر صارمة فى شدتها . فكان الجلد والكى عقاب التسول ولم يكن هناك للمحتاج ملجأ سوى عطف الكنيسة ولكن لما أتى عهد الإصلاح وانقسمت الكنيسة إلى شيع ومذاهب استحال على الكنيسة الاستمرار فى أداء هذه المعونة . فلسد هذا النقص سنت قوانين فى أوربا كلها فى القرن السادس عشر . ومن ثم نشأ فيها روح اعتراف الجماعة بمسئوليتها إزاء فقرائها بدلا من تركهم لرحمة الكنيسة ؛ وعهد فى هذا الأمر الى المجالس البلدية .

ففى هامبرج منذ سنة ١٥٢٩ صدرت إرشادات للمشرفين " أن يزوروا البيوت الواقعة فى مراكزهم ، كل فى خطه ، مرة فى الشهر ليتعرفوا أحوال الفقراء ويجدوا عملا لمن يقدر عليه وليقرضوا الأموال بدون ربح لمن يثقون بأمانتـه ويرون فيه المقدرة على العمل مستقلا مع قليل من المساعدة أو يمنحوا العاجز المريض مساعدة مستديمة "[١] .

وفى سنة ١٥٣١ أمر الامبراطور شارل الخامس أن تجمع الإعانات فى طول الأراضى المنخفضة وعرضها للفقراء العاجزين وأن يساق كسالى القوم والأوغاد المشردون الى العمل وأما النساء الفـقيرات والأطفال فتمـد لهم يد المساعدة وأن يرسل الأطفـال الى المدارس ثم يفتح لهم فى المستقبل باب الخدمة أو الاحتراف[٢] .

---

(١) كتاب فاول (Fowle) المسمى (Poor Law) صفحة ٢٢ — ٢٣

(٢) الكتاب السابق صفحة ٢٣

وقضى قانون الامبراطورية الجرمانية سنة ١٥٧٧ على كل أبرشية أن تعين فقراءها وتقصى الأوغاد المشردين وتبنى منازل لمرضاها . والواقع أن أوروبا الشمالية سادتها فكرة عامة بوجوب أن يقوم كل صقع بإعداد العدة لطبقات الفقراء الثلاث : المشردين والعجزة وصحيحى البنية الخالين من العمل . وكان ذلك فى بعض الأحيان إلزاميا وفى بعضها لم يتعد الأمر حد الاقتراح . وفى انجلترا خير مثال لهذه القوانين .

قوانين الفقراء فى انجلترا ١٦٠١ — ١٨٣٤

الى ١٦٠١ لم يكن فى انجلترا سياسة معونة للفقراء تستحق هذه التسمية ، بل الواقع أن القوانين كانت الى تلك السنة مناهضة للفقراء ولحقوق العمال . فلقد أنزل العامل منزلة العبودية إذ كان يحجز فى مسقط رأسه ويلزم الاشتغال بأجر محدود . وقد كان هذا مقررا فى القوانين وفى بعض الأحيان بأحكام القضاة الذين كانوا هم أنفسهم ممن يستخدمون العمال . وكان معدل الأجور يحدد تبعا لأجور السنوات الخمس أو الست السابقة أو بنسبة أثمان المواد الغذائية فان طوّف العامل باحثا عن شغل بأعلى سعر ممكن عرض نفسه لعقوبات همجية منها الضرب بالسياط والوسم بالإحراق وصلم الآذان والتعذيب بالساجور بل بالإعدام نفسه .

وقرر قانون سنة ١٦٠١ ، وما هو الا مجموعة وسائل سابقة ، تعيين مشرفين اثنين أو ثلاثة فى كل أبرشية مهمتهم جباية ضريبة للفقراء بالاكتتاب أو فرض الضرائب . فاذا ما وجدوا شخصا غير قادر على كسب قوته أعانوه من هذا المال . وعلى هذا أنشىء نظام الإحسان كان عرضة للنهب والاختلاس . فاذا وجدوا عاطلا سمت الأبرشية فى أن تجد له عملا يرتزق منه أو تؤجره ، فاذا لم يتم عمله أو أجره بحاجته كملت ما ينقصه من خزانتها . وفى بعض الأحيان كانت تدفع للرجل نفقة إذا هو التمس العمل ولم يجده . وهذه الطريقة أدت الى عادة الطواف وأن يقدم المعدم شهادة من الفلاحين على أنه طرق بابهم يلتمس شغلا . وكثيرا ما كان يجبر هؤلاء الفلاحون على تشغيل المعدمين فيضطرهم هذا الإجبار الى ترك من لديهم من العمال المنتظمين فى العمل . ولقد أغرى هذا القانون أرباب الأعمال بتخفيض أجور العمال اعتماداً على أن العمال سيأخذون بقية ما يكفيهم من ضريبة الفقراء . ولقد صارت هذه الضريبة بطبيعة الحال جائرة فقد أربت فى النهاية على ثلاثين مليون دولار كل سنة فى انجلترا وبها يومئذ من السكان مالا يزيد على أحد عشر مليون نسمة . ولا يخفى أن النقود فى ذلك الوقت كانت أعظم قيمة مما هى عليه فى يومنا هذا . وارتفعت الضرائب الى حد أن أصبح من الصعب وجود مستأجرين للزارع . فقد بلغت الضريبة خمسة دولارات

من الفدادين فنجم عن ذلك أن أصبح المستأجر أسوأ حالا من المتول نفسه . وصار العامل الفقير في حالة أسوأ وأنكى ؛ ذلك أنه رأى نفسه مضطرا أن يضاعف جهده في العمل من أجل أجر هو أقل مما يناله أولا . وكان في خطر دائم من أن يحل أى معدم محله . وإذا كان شخص كادا فادخر لم يعط عملا ؛ ولذلك كان من الخطل أن يجهد المرء نفسه . وكثيرا ما ترك الزوجان منزلها ليسكنا ملجأ العمال حيث العمل قليل . ولقد ترتب على ذلك اضطراب حال جميع الصناعات . وكان العمال يرفضون الأجور الصالحة في أحوال كثيرة خشية أن يفقد العامل مستقره في ذلك الملجأ . وحدث انحطاط عام في الصناعة والأخلاق معا . وكان ساكنو بيوت الصدقة يطعمون طعاما حسنا إلا أنهم كانوا يعيشون في تراخ وكسل إذ لم يكن هناك ما يشغل بالهم .

أصبحت الحالة لا تطاق ولذلك عينت في سنة ١٨٣٢ لجنة تسمى لجنة قانون الفقراء فوضعته وأقره البرلمان في السنة التالية وعمل به في أرلندا سنة ١٨٣٨ وفي اسكوتلاندا سنة ١٨٤٥ . وأهم مميزاته أنه ألغى سياسة معونة الأشخاص ذوى البنية القوية ووضع الخطة الشهيرة باسم اختبار ملجأ العمال التي كانت تقضى بالا تعطى المعونة الأشخاص الأقوياء إلا في ملاجئ عمال منتظمة حسنة الإدارة تتطلب من كل من فيها أن يشتغل . فتألفت الاتحادات أو الأبرشيات لبناء هذه البيوت وإدارتها . بيد أنها لم تكن مما يغرى أحداً ، فقد كان ما يعطى فيها من المعونة مما لا يقبله غير المعدم . وزعمت اللجنة أنها بذلك قد حلت المسألة حلا نهائيا إذ في هذه الطريقة ضمان أن تقتصر المساعدة على من يستحقها من الفقراء ولكنها كانت طريقة قاسية وأصبحت مشكلة الفقر من الخطورة بحيث ترتب على فشل تلك الطريقة ، حيال مختتم القرن التاسع عشر ، ضجة استياء بالغة .

معالجة الأمريكيين للفقر .

كان محور الطريقة الأمريكية لمعالجة الفقر بيت الصدقة . ولعله لا يوجد بين الأوضاع ما هو أحق بالإصلاح من مزرعة الفقراء الأمريكية لما اعتورها من الإهمال من كل جانب فقد كانت بمثابة مصيدة نصبت لجميع الطبقات : ترى فيها الفقير المستحق وضعاف العقول والمجانين والمصروعين والسكيرين والبغايا ، وبعبارة أخرى كانت لجميع الطوائف ، من قوى الجسم الى العاجز ومن المجد الكدود ، رجلا كان أو امرأة ممن قضوا حياة شريفة مستقيمة ولكن هدم الكبر كيانهم ، الى السكيرين ، ومن هدمهم الفسوق أولئك الذين لم يعملوا في دنياهم عملا غير إتلاف ما أوتوا من المواهب . ومن اليتيم البرئ الى العتل المجرم المتحجر القلب الذى لا يصدر عنه خير . وبيوت الصدقة هذه تحت إشراف أولياء الأمور إلا في ولايات

ماين (Maine) وفرمونت (Vermont) وماساتشوسيت (Massachusett) ورود أيلاند(Rhode Isand) وكونيكتيكات (Connecticut) ثم اتجهت النية فى سنة ١٨٩٠ الى توحيد هذه البيوت الصغيرة فقامت على أثر ذلك مئات من الاتحادات . وكذلك اتجهوا فى السنوات الحديثة الى نقل كثيرين من بيوت الصدقة ممن لا يصح وجودهم بها مثل ضعاف العقول والصم والبكم والعميان والمجانين والمصروعين .

وقد مر نظام بيت الصدقة بأربعة أطوار وهى :

١ — النظام القائم قبل إنشاء مبان خاصة لذلك وهو إطعام المعول فى الخارج أو تسليمه فى بعض الأحيان لمن يقوم بذلك بأقل كلفة على ولاة بيت الصدقة .

٢ — الشروع فى شراء الأكواخ القديمة أو بيوت المزارع . وقد كانت هذه بمثابة مصايد للسن والعاجز والمجنون والمصروع والمعتوه وللأطفال المنبوذين واللقطاء ، حيث لم يكن الجمهور يهتم بهم إلا قليلا، اللهم إلا أن يتذمر لكثرة النفقات التى يكابدها فى سبيلهم. واذ كان كل القصد هو التوفير والاقتصاد فقد كان يعهد فى إدارة المكان الى صاحب أقل عطاء .

٣ — الذهاب الى طرف النقيض من الأمر وإقامة بناء فخم يبهر الناظرين خارجه أما داخله فلم يكن للراحة فى تنظيمه حساب . فقد كانت العادة أن يتألف من أربع طبقات أو خمس، وللنساء من حجراته مثل ما للرجال مع أن الرجال يزيدون على النساء ضعفين أو ثلاثة . ويذكر جيدا كاتب هذه السطور مزرعة من هذا القبيل فى مقاطعة لافاييت بولاية ميسورى.

٤ — نظام الأكواخ، حيث المنازل فى بعض الأحيان متصلة بممرات، وهو نظام يسمح بالتفريق بين الرجال والنساء ويجمع كل طبقة من ساكنيها المختلفين على حدة ، كما أنه يجعل بعض هذه الأكواخ مستشفيات منفصلة . هـذا هو بيت الصدقة الحديث وهو خير خطة ولا سيما اذا تيسر وجود فضاء يسمح آساسه أن يشتغل به من لا تزال به قدرة على العمل شغلا هينا .

وقد كانت بيوت الصدقة عندنا فيما مضى تدار على نمط زرى. فلقد كانوا يهملون من بها ويشتطون معهم، وكان إطعامهم فى جملة الأمر وكسوتهم على أسوإ حال. بل إنهم كانوا محرومين كل مسرات الحياة. وما على القارئ إلا أن يرجع الى ما كتبه الأستاذ الوود (Ellwood)[1] فى بحثه عن بيوت الصدقة فى جهات ميسورى لتتمثل له صورة تلك السيئات .

---

(١) تقريره عن بيوت الصدقة فى ولاية ميسورى .

وقد يبطل العجب من سوء هذا الحال اذا نحن راعينا الصعوبات التى تعترض إدارة بيوت الصدقة مثل (١) الحاجة الى المال وما يتبعها من أجور بخسة لايقبلها الا ملاحظون غير ذوى كفاية (٢) صنف من بهما من الناس — وهم سقط القوم وزبدهم والغنى فيهم والمخبول (٣) صنف البليد العديم العطف العديم الكفاية الذى تجتذبه هذه المنازل أو يرغب فى الخدمة فيها مشرفا (٤) سوء طبع قطان البيوت وفقدانهم خلة تقدير الأمور. وإنها لحالة تذهب بصبر كل ذى شفقة حليم . على أن هذه الصعوبات لم يتزايد أمرها إلا يوم أن وكل أمر الإدارة إلى المتعهدين أولى الإهمال والكزازة .

ولا تهتم إدارة بيت الصدقة كثيرا يوم يكون الساكنون بها من المسنين، إذ سرعان ما يأتى الموت فيريح أولئك البائسين من بؤسهم . وإنما الشر كل الشر واقع على الأطفال إذ تقضى هذه البيوت على حياتهم . ذلك أن الإهمال وسوء المعاملة وشناعة البيئة من شأنه أن يقضى على حسن الصفات فيهم قضاء مبرما ويخرج تاما مقضيا عليهم أن يعودوا اليها ليكونوا من أهلها الدائمين .

نعم إن هذه الحالة آخذة فى الزوال بالمعالجة البطيئة بفضل إزالة صنوف كثيرة من أهلها وزيادة العناية بالباقين . ولكن هذه مسألة تستدعى منا عناية أكبر مما يقتضيه كل وجه من وجوه سياستنا فى إعانة الفقراء . ولقد اقترح الأستاذ ألوود ثلاث خطط للجرى عليها (١) تفقد المجلس المحلى (٢) تفتيش السلطات الحكومية (٣) التشريع الكفيل ببيان ما يجوز وما لا يجوز . ولكن إدارة بيت الصدقات حتى مع هذا ليست من الأمور الهينة إذا ما راعينا الطبقة التى تسكنه . فمن الصعب أن يوجد العمل المناسب لكل فرد وإن كان من المحتم أن يشتغل كل من به لإراحة بالهم . حقا إن إدارة بيوت الصدقة لتحتاج الى حكمة ومقدرة يندر وجودهما فى الرجل العادى الذى يجد من نفسه الرغبة فى تولى إدارتها .

معاهد الإعانة الأخرى

هناك طبقة أخرى جديرة أن نتناولها هنا ، هى طبقة الأطفال المحتاجين للعونة. قد كان وسيكون دائما أيتام وأيتام يحتاجون للعول والمساعدة . ولقد كان هؤلاء فيما مضى بمثابة مورد تصدر عنه طوائف العبيد والأرقاء . وقد عنيت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وهى فى ذروة مجدها وقوتها بأمر هؤلاء الأطفال فكانت تعولهم فى أديار الراهبات والرهبان وفى ملاجئ الأيتام واللقطاء . على أنها ما كانت تفعل هذا عن رغبة فى الإحسان الى الناس أو طوعا لروح الإيثار بل لرغبتها فى الحصول على أتباع لها . وملاجئ اللقطاء معاهد قديمة العهد وكانت كثيرة العدد دائما فى فرنسا لشدة الحاجة اليها بسبب انتشار الفسوق فيها . فكان من أسهل الأمور أن يترك

أى إنسان طفلا دون حساب أو سؤال. وقد أعدت العدة لذلك بحيث كان يوضع الطفل فى سلة توضع خصيصا لهذا الغرض. وكانت ملاجئ اللقطاء فى الغالب تعينها الحكومة كما تعين ملاجئ الأيتام . ولكنها كانت فى الغالب سيئة الإدارة على نحو ما أبان ديكنز فى حرقة وشدة فى روايته "أوليفرتويست" (Oliver Twist) وهى صورة من حياة ملجأ الأيتام الإنجليزى .

وكان عمل الأيتام يباع فى انجلترا لأصحاب المصانع كما رأينا ذلك فى الباب السابق . وما أفظع ما كان فيه من الشطط . فلقد كانت نسبة الوفيات فى ملاجئ الأطفال فى بعض الأحيان عند درجة لا يمكن تصديقها . إذ كانت تبلغ سبعة وتسعين فى المائة . نعم لم يكن من الميسور تجنب هذه الحالة الى حد ما بسبب سوء حالة الأطفال عند قبولهم إذ كانت تغذيتهم رديئة وفى كثير من الحالات لم يكونوا ينالون شيئا من العناية . بل ربما كانت بهم إصابات أو عاهات ناشئة عن محاولة قتلهم قبل ميلادهم . على أنه لو عنى بتربية الرضيع لهبطت نسبة الموت الى معدلها العادى أو ما يقرب منها . ولكن جهل من يشرفون عليهم و إهمالهم قد جعل هذه النسبة أعلى مما يجوز . فما هم هؤلاء عادة من أمر الطفل إلا أن يعملوا ما من شأنه أن يمنعه من إقلاق راحتهم ما أمكن ، فكانوا فى كثير من الأحيان يستعملون المخدرات الأفيونية ولا يهمهم أمات الطفل أم عاش ، بل الواقع أن هذا الأمر لم يكن يهم أحدا .

ولكنا اذا نظرنا الى الطبقة التى يأتى منها هؤلاء الأطفال وما ينتظرهم من مستقبل خطر، كان لنا أن نتساءل : أحقا أن ارتفاع نسبة الموت فيهم تعد فى نهاية الأمر شرا محضا للجمهور أو للطفل نفسه ؟ من بين الأسباب التى تؤدى الى هذه النسبة العالية غير العادية أنه ليس فى الاستطاعة تربية الرضع جماعات تحت إشراف واحد لأن كل رضيع يحتاج الى عناية فردية ومحبة خاصة حتى ولو توفرت لهم كل الشروط الصحية الأخرى من شمس وهواء وطعام وكسوة فالطفل محروم مزايا الرضاعة الثديية وإن سدت هذه الحاجة فى بعض الأحيان فى خارج الملجأ بارساله الى مرضع كما هو المتبع لدى جمعية الإحسان بولاية نيورك فى تربية الأطفال الذين لا تتجاوز سنهم ستة أشهر . وقد أدى حسن الرعاية فى الخارج للقطاء فى جمعيات الإحسان فى مانهاتان وبرونكس وبروكلين الى نقص نسبة الوفيات من ٥٩,٩ فى المائة فى سنة ١٨٩٨ الى ١١,٦ فى المائة فى سنة ١٩٠٦ وفى ماساشوست تمتد كفالة الأطفال فى خارج الملجأ الى أبعد مدى ممكن لدى أسر يحرصون على اختيارها . والمشاهد أنه بعد أن يكبر الطفل يكون عرضة للمساوئ البالغة والقسوة الوحشية ممن هو بين ظهرانيهم سواء فى المعهد أو المنزل ولذلك حين يجرى على طريقة تربية الأطفال فى خارج الملاجئ يجب أن يقرن هذا العمل بالدقة فى انتقاء الأسر وموالاة التفتيش ، والتشدد فيه للتأكد من حسن معاملة الطفل بها .

وإذا كان اعتناء المعاهد بالأطفال ذا ميزة من حيث أن الطعام يكون فيها كافيا والملبس وافيا وأن بها منامات دقيقة وإنها تنظم تعليم الأطفال وتحميهم من الإخطار، فاننا نجد أن هذه المزايا قليلة بالقياس إلى سيئاتها . فالغالب فى هذه الملاجئ إساءة معاملة الطفل من الملاحظين الغلاظ القلوب . ولا يقتصر الأمر فيها على ارتفاع نسبة الوفيات بين أطفالها ، بل إن النظام المتبع فيها مفسد لمن يعيش منهم لأن هذا النظام من شأنه أن يربى الطفل ليكون آلة لا ليكون رجلا . فالطفل لا يعلم الأشياء العادية فى الحياة كاستعمال الكبريت وملاحظة النار إذ كل هذا يفعله الملاحظون . أما فى المنازل فالطفل يتعلم كثيرا من هذه الأمور ويكتسب شيئا من روح الشعور بالمسئولية . وسرعان ما يخضع هؤلاء الأطفال لحكم الأوامر والنواهى والمتاعب والآلام . والعادة أن يكون الملاحظون من ذوى الخبرة بالمعاهد وهم أشخاص أصبحوا بهذه المرانة قادرين على إخضاع الطفل بأقل مجهود. ويعلمون أنه كلما أخضع الطفل قلت المتاعب التى تأتى من ورائه . فاذا ما خرج الطفل من معهده لم يكن يعرف للمسئولية معنى ولا للنقود قيمة . وهذه الملاجئ لا تنمى فى الطفل روح الاستقلال ومن ثم يندر أن تربى فيه ملكة الحكم الصحيح. والواقع أن حياة الملاجئ تقضى فى الطفل على ملكة الزعامة. ولكنهم يتغلبون على هذه النزعة فى بعض المعاهد بفضل الجرى على نظام من الحكم الذاتى فى الملاجئ . ولعل أشهر المعاهد التى تتبع مثل هذه الطريقة هى "جمهورية جورج الصغير" كما أن خطة ما سانشوست خطة صالحة مركبة من نظم مختلفة بمقتضاها أن يعهد بأربعين فى المائة من الأطفال ، وهم غالبا صغار السن ، لمن يعولهم بأجر فى خارج المعهد ، ويسلم نحو خمسة وأربعين فى المائة وديعة إلى الأسر ويكتفون فى المعهد بالخمسة العشر الباقية . وقد يستخدمون المعاهد الخاصة أحيانا . ولكن هذه الخطة فى العادة سيئة لأنها تعمل على ترويج المعاهد الخاصة وتقضى فى كثير من الأحيان على روح الإنسانية إن لم تكن تؤدى إلى ترويج خلة الابتزاز. وفضلا عن هذا فان المعاملة هناك ليست دائما أفضل معاملة .

إن أنجع الطرق هى ما تتضمن العمل، إن أمكن ذلك، على إصلاح نقائص البيت ورأب صدوعه قبل أن يستطير الشر وتنفصم روابط الأسرة وحينئذ لا يلتجأ إلى عناية المعاهد إلا على إنها وسيلة مؤقتة للصم وضعاف العقول والمشوهين والزمنى والمجرمين من الأحداث . وفى اعتقادنا أن بيتا ينتخب بعناية تامة ويزار تنفيذا لنظام دقيق من التفتيش لخير بديل . كما أن هناك حاجة متزايدة إلى مراقبة المعاهد الخاصة. هذا والمعاهد الصغيرة ضعيفة المركز من جراء ما تنفقه لإيداع الأطفال فى الخارج وما يحتاج إليه أمر هذا الإيداع من المراقبة .

وإذا كانت المعاهد ضرورية فإنه يجب أن يكون تنظيمها على خطة الأكواخ بشرط ألا يكون فى كل كوخ إلا عدد محدود من الأطفال يعهد فى أمرهم إلى امرأة تكون لها صفة الأمومة .

وهناك نوع آخر من أعمال الإعانة يحتاج الأمر فيها إلى الملاجئ ألا وهو العناية بالمريض المعدم . خلال السنوات الثلاثين أو الأربعين الماضية تغير شعور الناس حيال المستشفيات فلم تعد تعتبر أماكن لبيوت فيها الإنسان بل أماكن لاكتساب الصحة والعافية . وفهم الناس أن الرجل الفقير الذى لا يمكنه أن ينفق شيئا يجد من حسن المعاملة فيها ما يجده الغنى . وإذ عمل ولاة أمور المستشفيات على تحقيق هذين الغرضين تضاعفت نفقات المستشفى بين سنة ١٨٧٠ ، ١٩١٠ نظرا إلى ارتفاع أثمان الغذاء وارتقاء نوع العناية ومكانها وإلى زيادة مرتبات الممرضين والممرضات . ولقد كان ما صرف على المستشفيات فى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٠٣ : ١٨,١ فى المائة من مال الخزانة و ٤٣,٢ فى المائة مما كان يعطيه المرضى الذين يدخلونها بأجر ، أما الباقى فكان الإحسان كفيلا به . وقد عالجت هذه المستشفيات ١,٠٦٤,٥١٢ من المرضى فى سنة ١٩٠٣ أى ١,٣ فى المائة من السكان وفى سنة ١٩١٠ بلغ عدد المستشفيات ١٩١٨ عولج فيها ١,٩٥٣,٣٩٠ من المرضى أى ٢١ ./٪ من السكان . على أن هذه المستشفيات ومنافعها وإن كانت مطردة الزيادة لا تزال دون حد الكفاية . وقد كان من بواعث انتشار معاهد الإحسان الطبى [١] ما يأتى :

(١) الرغبة فى مساعدة المعدم (٢) التحمس فى سبيل نشر الدين (٣) الرغبة فى تعليم الطلبة والتماس الاشتهار بالجدارة الطبية (٤) الميل إلى حماية صحة الجمهور من الأمراض والعدوى (٥) العامل الاقتصادى وهو الرغبة فى إعادة قوة التكسب إلى العامل تفاديا من فقدان الأجور على باذليها . وقد حدا الباعث الخامس بالشركات إلى تهيئة مستشفيات لمن لديهم من العمال .

وهناك نوعان من المستشفيات فى الولايات المتحدة :

١ — المستشفيات البلدية وقد تولدت من بيت الصدقات أو سجن المدينة فقد نشأت من محاولاتهم علاج المرضى فيها . نعم إن مثل هذه المستشفيات عرضة لسوء الإدارة من الوجهة السياسية (إذ أظهر الزمن الماضى كثيرا من أعمال الابتزاز وسوء الإدارة) ولكنهم أخذوا يطهرونها من هذه المسائل واليوم نجد بين ظهرانينا مستشفيات فى المدن على غاية من حسن الإدارة .

---

(١) الأسباب الأربعة الأول مأخوذة من كتاب (American Charities) تأليف وارنر (Warner) ص ٣٠٤

(٢) مستشفيات الجماعات . وهـذه يديرها عادة مجلس لا يتناول أعضاؤه أجرا ، يتألف من أعيان المواطنين ورجال الدين ورجال الأعمال العاملين للإنسانية . نعم إن أمثـال هؤلاء الرجال لا يكونون فى الغالب ذوى دراية بطرق إدارة المستشفيات ، ولكن تقع هـذه المستشفيات وكفايتها لتحقيق غرضها مطرد الزيادة . وقد نقصت نسبة الوفيات فى المستشفيات نقصا عظيما فى الثلاثين الماضية من السنين ولا سيا فى مستشفيات المـدن التى لا تتقاضى أجرا . ويعود هـذا النقص فى أكثره الى ازدياد كفاية الممرضين والممرضات بفضل إنشاء مدارس لتعليم التمريض وبفضل عقد امتحانات عامة لاختيـار من يتولون التمريض .

ولا يسعنا إلا أن نذكر الازدياد المطرد فى فائدة المسـتوصفات وانتشارها فى الولايات المتحدة وأغلبها لا يتقاضى إلا أجرا ضئيلا ثمنـا للادوية التى تصرف لمن يقدر على الدفع . هذه المستوصفات تعين الناس الذين أخنى عليهم الدهر : أولئك الذين يحتاجون الى العلاج ولكن ليس فى مقدورهم أن يدفعوا أجر الطبيب ، وكذلك الذين يقدرون أن يبذلوا مبلغا صغيرا للادوية والعلاج ولكن ليس فى استطاعتهم أن يدفعوا أجر عناية طبيـة خاصة . ويكمل عمل المستوصفات فى الأقاليم ، الزائرات الصحيات والمركزيات اللائى عليهن مساعدة المرضى بزيارتهم وتمريضهم فى بيوتهم الخاصة واللائى عليهن القيـام بما هو أهم من ذلك ألا وهو العمل على منع المرض أو على الأقل وقف تياره قبل أن يستفحل الأمر .

وفى سـنة ١٩١٠ [1] كان فى الولايات المتحدة ٥٧٤ مستوصفا ، دون النصف منها تابع لمستشفيات . وقد عولج ٢,٤٤٠,٠١٨ نفس . وأكثر من نصف هذه المستوصفات فى القسم الاطلنطى الأوسط . ولقد اطردت الزيادة منه سنة ١٩١٠ فى عدد العيادات ولا سيما ما كان منها خاصا بالأطفال المصابين بالتهاب رئوى أو بنقص فى قواهم العقلية .

وقد اتسع نطاق أعمال الإسعافات الطبية فأنشئت مستشفيات خاصة ببعض الأمراض وملاجىء لمن لا يرجى لهم شفاء . نعم إن هـذه المستشفيات يزداد عددها بكثرة ولكنها لم تبلغ بعد حد الكفاية وهى متمشـية مع النظرية الحديثـة لمنع الفقر . ومن أحدث المنشآت الطبية مستوصفات معالجة الأسنان . ولاتحاد جمعيات الإحسان (United Charties of Chicago) بشيكاغو مستوصفات للفقراء من هذا القبيل تجرى فيها منذ سنة ١٧١٥ عمليات جراحية للأسنـان كل يوم بأجر متوسط قدره ستة سنتات ونصف للعملية الواحدة .

---

[1] نقلا عن نشرة مكتب الإحصاء عن معاهد الإحسان سنة ١٩١٣ ص ٥١

وقد تزايد عدد البيوت والملاجىء المخصصة بالمسنين . ولكن فى اعتقادنا أن تقرير نظام يمنح به معاش للمسنين خير وسيلة لمعالجة هـذه المسألة بشرط أن يكون هذا النظام تكميليا لا وافيا لأن من شأن هذا النظام أن يجبر الناس فى شبابهم على العمل لتدبير أمر معاشهم فى كبرهم ويساعدهم على الاحتفاظ ببيوتهم بأنفسهم من غير حاجة الى الاعتماد على الصدقات . على أننا فى الولايات المتحدة على غير استعداد فى الوقت الحاضر لتقرير نظام التأمين للشيخوخة .

الإسعافات الخارجية

فضلا عن الإسعاف الداخلى الذى تقدمه المعاهد المختلفة بين جدرانهـا كانوا فيما مضى يجرون على نطاق واسع من الإســعاف الخارجى ، أى مساعدة الفقراء فى منازلهم مساعدة أخرى غير المساعدة الطبية . وقد تغير كنه هذه المساعدة فى السنين الأخيرة تغيرا كبيرا لاتجاه الرأى الى الاستعاضة عن المساعدة العامة بالخاصة ؛ فلا تكون مساعدة الشخص واجبة لأنه فقير ، بل لانتشاله من وهدته أو لمنع سقوطه وراء حد الفاقة. ولم يعودوا يتبعون الطريقة القديمة بشكلها السابق من حيث التصـدق ببضعة ريالات أو ببعض سلع البدالين ، منعـا لوقوع المساوئ التى كانت تحدث فى الماضى ولا سيما فى المدن الشرقية الكبرى . واذا ما اتبعت هذه الطريقة فانما تتبع لتقديم مساعدة جزئية أو عمل إسعاف وقتى .

وهناك حجج يدلى بها لاستبقاء الإسعاف الخارجى نورد منها :[1]

(١) أنها الطريقة الطبيعية فهى لهذا تعبير عن روح مراعاة الجوار فلا تفكك الأسرة ولا تعزل المحتاجين عن أصدقائهم وجيرانهم وعابها أقل من غيرها ، إذ المساعدة فيها أقل ظهورا وإن لم يكن هـذا الأمر فى ذاته مزية . فقد يكون من المستحسن فى بعض الأحيان عزل أولئك عن جيرانهم بل عن أقاربهم فى بعض الأحوال .

(٢) ويقولون إنها أدعى إلى الاقتصاد لأن غالبية الأسر فى مقدورها كسب العيش فن خطل الرأى حل الأسرة وإكثار النفـقة تبعا لذلك . على أن من شأن هـذه المساعدة من جهة أخرى ازدياد عدد من تقدم لهم يد المساعدة وربما زاد مجموع النفقة تبعا لذلك إذ أن كثيرا من الأسر كانت لولا ذلك تقوم بتدبير أمر نفسها .

(٣) ومن أقوى الحجج أنه لا توجد معاهد تكفى لسد الحاجة ، فلا بد والحالة هذه من زيادة المعدات لمقابلة الحاجة . وربـما لا يكون من الاقتصاد سدّ هذه الحاجات إذ أن درجة الفقر تتراوح زيادة ونقصا تبعا للفصول ولمقدار الرخاء . وقد تبقى المعاهـد المعدة لكفاية جميع الطلبات خالية فى أكثر الوقت .

---

(١) نقلا عن الكتاب السابق صفحات ٢٠٨ — ٢٠٩

(٤) إن الإحسان الفردى الخاص ، وهو يقابل الإسعاف الخارجى العام ، مشكوك فى صلاحيته ولا يمكن الاعتماد عليه إذ هو متوقف على الوجدان والعاطفة والرخاء وإنه عند ما تكون الحاجة ماسة إليه يكون بعيد المنال كما دلت الشواهد فى شتاء عامى ١٩١٤ — ١٩١٥ حين كانت معاهد الإحسان فى جميع بلاد القطر مزدحمة أشد ازدحام بطلبات المعونة ، بينما كانت الأموال اللازمة صعبة المنال بسبب حرج الوقت وشدته . وفضلا عن هذا فإن المعونة فى نظام الإحسان الخاص عرضة أن ينالها مستحقها مرتين . ويعارضون هذه الحجج بما يأتى :

(١) إنه لا يمكن أن يكون هناك تفتيش جدى أو إشراف حقيق ولا أية فرصة للفحص والتمحيص إلا فى الجماعات الصغيرة . والطريقة المتبعة عادة مؤداها وضع العقبات فى سبيل الحصول على المساعدة والنتيجة الفعلية لها أن يعافها من هم أحوج اليها فلا ينالها إلا من لا يستحقها . وبهذا يصبح الإسعاف عملا آليا خاليا من روح العطف .

(٢) مالم يجعل الحصول على الإسعاف والمساعدة كريها وبغيضا فلا بد أن يزيد عدد المعولين . ولا بد أن يقل الباعث على الاقتصاد والتوفير إذ تصير الحكومة موردا دائما يعتمد عليه . ومن شأن هذه الزيادة فى عدد المعولين أن تزيد وتربى فى نفقتها على ما يقدمه المعولون أنفسهم فى سبيل إعانة أنفسهم .

(٣) مثل هذه الطريقة من شأنها أن تؤدى إلى الفساد السياسى كما حدث فى روما . وهذه الحالة أبين أثرا فى المدن ولا سيما الكبيرة منها ، فما يكون البذل والعطاء إلا لاكتساب التأييد وترويج المطامع السياسية .

(٤) إذا أسرف فى هذه المعونة أدى ذلك إلى تخفيض الأجور علما من أصحاب الأعمال أن النقص فى الأجور ستنظمه وتتممه الإعانة العمومية كما كانت النتيجة فى انجلترا .

(٥) وأهم من كل ذلك أن الإسراف فى منح الإعانة يقتل ملكة الاقتصاد وروح الكرامة الذاتية ، إذ ما الذى يدعو المرء الى العمل وهو يرى باب الخزانة العامة مفتوحا أمامه؟ ومن شأن ذلك هروع الناس للحصول على المساعدة أو أنهم يطلبونها لأن جيرانهم سبقوهم الى ذلك .

فالمسألة كلها مسألة إدارة وتصرف . وعندنا أن طريقة الإعانة الخارجية للجمهور إنما تفضل سواها فى البلاد الصغيرة وفى الريف لا فى أحوال طبقات خاصة من ذوى العاهات . فان الأولى أن يعنى بهم فى مشاف . وتفضل الاعانة الداخلية فى المدن الكبيرة إلا فى الأحوال التى تتطلب المعونة الجزئية أو المؤقتة .

تنظيم الإحسان

خير بديل من الإعانة العمومية أى الحكومية هو الإحسان المنظم لا الإحسان الخاص الخالى من الحكمة. وقد بدأ الاتجاه نحو هذا النظام فى أوربا وكان ظهوره فى أول أمره فى المدن الرئيسية مثل باريس وبرلين وفينا وذلك فى منتصف القرن الماضى. ثم انتقلت هذه الحركة الى انجلترا وأمريكا وكان بدؤها فى الولايات المتحدة فى سنة ١٨٧٧ عند ما أنشئت جمعية تنظيم الإحسان فى بافالو، ثم امتدت من ذلك الحين الى جميع مدننا تقريبا واليوم اتخذت جميع مقاطعاتنا نظامها . وإنما اتبع ذلك لتجنب التكرار ولتقسيم العمل حتى تسد جميع الحاجات وحتى ينال كل مجهود نصيبه من المال . ولا مشاحة فى أن هذه الخطة من شأنها أن تمنع التراكب وتخرج كل مدع وتجرى التعاون بين الجهات بمقارنة سجلات محفوظة فى مركز رئيس مزود بفهارس مؤلفة من بطاقات. ومن السهل إيتاء الاعانة على وجه السرعة برفع الأمر عن الحالة الى السلطات المختصة. وقد ظهرت نتائج باهرة فى موضوع جمع الأموال بالتعاون. واليوم يكون هذا العمل بلجان توصية تنتخب عادة من الشركات التجارية أو غرف التجارة فتشرف على جماعات الإحسان المختلفة وتعمل على أن تسير أمورها وفقا لمبادئ العمل الصحيحة وعلى أن يكون إنفاقها للأموال بالحكمة وألا يكون ذلك إلا فى أحوال الحاجة الحقيقية .

ويصاحب هذه المهمة المعهودة إليها مهمة أخرى هى جمع الأموال عن طريق حفلات خاصة أو فرض الرسوم أو بالاكتتاب العام . وعلى ذلك يعلم كل من يود العطاء والاكتتاب أين تذهب أمواله وكيف تنفق. وفى هذا ما يحدوهم على إجابة السؤل بسخاء . والواقع أن تنظيم الإحسان هو تصريف الصدقة على القواعد الإدارية المرعية ومكاتب الأعمال. نعم إن له عيوبا كما أن له مزايا . إذ الإسعاف فى غالب أمره آلى يلتزم فى تصريفه الإجراءات المكتبية المعقدة . والغالب فى لجان التوصية أن تكون مؤلفة من رجال الأعمال الذين هم غير ملمين إلماما تاما بعمل الإحسان أو احتياجات الجماعة والذين لا يكونون أقدر الأشخاص على مسائل الإحسان . ولكن مهما يكن من القول فان خطة هذا النظام كفيلة بالقيام بقدر أوفر من العمل النافع وبإمكان تنفيذ مشروعات أعظم . وتعد إصلاحا كبيرا وتحسينا يدخل على نظام العطاء الخاص الذى يبذل بغير حكمة وعلى الإحسان غير المنظم . فان هذا النوع من الإحسان له الى حد ما نصيب من الأثر الشخصى وفيه قدر من الحكمة يندر أن يكون فى الصدقة العامة. ولا يمكن أن يعد الإحسان، تبعا لهذه الطريقة، حقا، كما يحدث فى كثير من الأحوال فى نظام الإحسان العام. على أنه قلما استطاع أن يسد الحاجة عند حدوث المصائب والأزمات العامة إذ أن تحصيل الأموال فى أيام الأزمات يزداد صعوبة ولكن نظرية الإحسان الخاص المنظم هى فى الجملة خير طريقة لدينا لمعالجة مسألة الإعانة .

طريقة البرفلد (The Elberfeld System) :

وهناك نظام للإسعاف والإحسان يعرف أحيانا باسم "هامبورغ — البرفلد" لأنه نشأ فى مدينة هامبورغ وتقدم حاله حتى وصل الى درجته العالية الحاضرة فى البرفلد بألمانيا ولكنه معروف فى الغالب باسم طريقة البرفلد . وقد عم استعمال هذه الطريقة فى أوربا بل إنهم يرونها من أحسن طرق الإعانة التى استنبطت إن لم تكن أحسنها على الإطلاق . ظهر هذا النظام فى هامبورغ سنة ١٧٦٥ فى وقت انتشر فيه الشقاء والفقر فى أوربا وكانت شوارع هذه المدينة تملؤها صفوف من الشحاذين . وورد اليها آلاف من الناس يطلبون العون مدفوعين اليها بما كانت فيه من الرخاء . وأول من اقترح هذا النظام أستاذ يدعى بوش (Bush) وبمقتضاه قسمت المدينة عدة أقسام عين فى كل منها ملاحظ ، يقدم تقريره الى مركز رئيسى . وحرم إعطاء الشحاذين شيئا . وأنشئت مدرسة صناعية للأطفال وأعدت دار للاستشفاء . ولكن أهم جانب من المشروع أنه عمل على تعليم الفقراء أن يعتمدوا على أنفسهم ، وبهذا خلت هامبورغ من الشحاذين بفضل هذه الطريقة وانقشع الفقر عنها ولكنهم أهملوها أخيرا . وعادت فانتعشت فى البرفلد مع بعض التعديلات فى سنة ١٨٥٢ واستمروا على العمل بها بالكيفية الآتية :

جعلت المدينة أقساما يعين فى كل منها ملاحظ أو "موزع للصدقات" مهمته أن يعنى بأمر الفقراء فى قسمه الخاص ، كما أن عليه أن يطلع على أحوال المعيشة بصفة عامة . وموزع الصدقات هذا لا يتقاضى راتبا وخدمته إلزامية جزاؤها أنه لم يتقدم لها وقت الحاجة اليها وقع عليه عقاب هو زيادة الضريبة عليه وحرمانه حق التصويت فى الانتخاب بضع سنين . ولكن لما كانت هذه المهمة بمثابة مرتقى الى الوظائف السياسية فانه قلما تخلى أحد عن أدائها بل يتولاها الكفاة الممتازون . وبما أن الأقسام من الصغر بحيث لا يعطى كل ملاحظ أكثر من أربع حالات ، وقلما أعطى أكثر من واحدة أو اثنتين فان ما يقوم به الملاحظ من الخدمة يكون أمرا شخصيا ووديا عليه مسحة رعاية الجار . وإذ أن هذا العمل إنما يؤدى بروح الوطنية فهو يؤدى على وجه الكمال . ومن شأن هذا النظام أن تتبع الأقسام الصغيرة أقساما أكبر منها ويجتمع الملاحظون مرة كل أسبوعين ويقدم رئيس هذه الاجتماعات تقريره الى لجنة رئيسية مكونة من تسعة هى صاحبة الإشراف على نظام الإسعاف فى كل المدينة . وتتألف هذه اللجنة الرئيسية من مدير موظف ذى دربة ومساعدين يتقاضون أجرا . ومن أعمالها أن تصدر التعليمات الى رؤساء الأقسام والزائرين وتقسم الأعمال وتعين الزائرين وتشرف على المستشفيات وتبحث فى أسباب الفقر وتقترح التشريع اللازم وتبتكر الوسائل الأخرى للتحسين والإصلاح .

ويبدو نجاح هذه الطريقة بوضوح من أن سكان البرفلد زادوا من ٥٠٠٠٠ فى سنة ١٨٥٢ الى ١٦٢٠٠٠ فى سنة ١٩٠٤ فى حين أن عدد من يتناولون مساعدة وقتية أو مستديمة لم يزيدوا إلا من ٤٠٠٠ الى ٧٦٨٩ فقط أى بهبوط النسبة من ٨ فى المائة الى ٤٫٧ فى المائة من السكان . وقد كانت نفقات إسعاف كل شخص فى سنة ١٨٥٢ ثمانية وتسعين سنتا وهذا نقص عظيم اذا ماراعينا الزيادة فى مقدار الثروة والنقصان فى قيمة النقود . ثم إن هذه الطريقة لم تتبع الى مدى عظيم فى أمريكا ولكنها تنطوى على اقتراحات كثيرة ذات قيمة واذا نحن اتبعناها مع شىء من التعديل المناسب لأحوالنا كانت خير خطة نجرى عليها لتخفيف وطأة الحاجة فى هذه البلاد ولا سيما فى المدن الصغيرة .

المساعدة العامة ومقارنتها بالخاصة

قامت مناقشة عظيمة حول مزايا ومضار طريقتى المساعدة الخاصة والمساعدة العامة . والواقع أن لكل جانب حججا كثيرة يستطيع أن يدلى بها . ويمكن القول إن الإحسان الخاص هو الخطة الجديرة بالاتباع يوم يكون علينا أن نضع خطة جديدة للعمل تتطلب اجراء تجارب واستكشافات فى ميدان جديد . ولكن إذا أصبح الجمهور موقنا بحاجته إلى خطة معينة للعمل ويوم يكون العمل قد وصل إلى درجة من التقدم تسمح بترتيبه وتنظيمه ويوم تكون هذه الحاجة دائمة فربما كان الأفضل توجيه هذا العمل وتسليمه إلى السلطات العامة . والعادة أن الصدقة الخاصة تكون أسهل توجيها إلى شئ يكون جديدا . ولكن عندما يصير العمل مألوفا تخمد جذوة الاهتمام به . ومن جهة أخرى فإن السلطات العامة غير مهيأة كثيرها للقيام بالأعمال الجديدة . وإنما هى أصلح للعمل على الخطط القديمة . ومما لا ريب فيه أنه إذا كان الجمهور استشعر حاجته إلى نوع معين من العمل كان من العدل والحق أن ينهض به الجمهور لا أن يلق عبئه على عاتق فئة قليلة من الأخيار. وفى الإمكان أن يتمشى الإحسان العام مع الإحسان الخاص جنبا إلى جنب فى طريق واحد لا أن يسير كل منهما مضادا للاخر. والإحسان الخاص ذو فضل بما يستحث من روح الإيثار (Altruism) فى النفوس . وبما يتيح للقادرين من فرص لتخفيف آلام نكبتهم ثم إن الإحسان العام ضرورى من حيث إن هناك أعمالا تتطلب نفقات عظيمة ولا يصح تركها أو نقصها بأى حال من الأحوال لافتقارها إلى مجهود مرتب عظيم .

وجهة الإحسان الحديث

لقد احتمل الزمن القديم الفقر والتعس والشقاء والعجز وعبودية الجهل على أنها أمور محتومة لا يمكن تفاديها . وجرى الناس على ألا ينظروا إلى ما حولهم من الآلام والشقاء بل على الابتعاد منها . أما اليوم فإننا نعلم أن فى الإمكان القضاء على الفقر والمرض والشقاء . ونرى فوق هذا أن القضاء على ذلك واجب حتم ، فإن لم نفعل طغت علينا الطبقات المنحطة . فبينما

نرى فريقا من العاملين فى ميدان الإحسان مشتغلين بالتقاط من سقطوا عن أعلى الصخرة ، عن بناء حاجز على قمتها لمنع السقوط نجد غيرهم مجدين فى بناء الحواجز عاملين على صيانة الناس من السقوط . أى إن الوقاية هى مبدأ العمل فى جميع جهود الإحسان فى المستقبل . " إنجد من يستحقون النجدة " . هذا واجب ولكن أوجب منه "إعمل على إنهاضهم حتى لا يحتاجوا إلى النجدة فى المستقبل " ثم لديك ما هو أهم وأعظم من ذلك وهو أن تمحو أسباب الفقر وتصون الآخرين من السقوط فى هوة الفاقة أو على حد المثل " اغلق باب الاصطبل حتى لا يسرق الحصان ". فإذا كان انحطاط الأجور ينتج عنه الفقر فقدر الحدود الواجبة للأجور، وإذا كان تعاطى الخمر هو السبب فاعمل على منعها . أو إذا كانت الوسائل الصحية رديئة فانشىء المجارى والبالوعات . وإذا كان سوء حالة المبانى سببا فسن القوانين لتحسين حالة البناء ولتحريم سكنى المنازل غير الصحية . وقصارى القول عليك بتخفيف الفاقة ثم اعمل على إزالة أسبابها .

خطة الوقاية من الفقر

عند ما تناولنا أسباب الفقر أشرنا فى أغلب الأحوال الى الوسائل المتبعة فى معالجتها . بيد أن الأمل فى المستقبل معقود باتباع المسالك الآتية :

١ — ترقية واستمرار جميع المساعى التى تعمل على منع أو استئصال الأحوال السيئة وذلك بتحسين السكن ، وتقديم اللبن النقى ، وتحسين الأحوال الصحية ، وتجفيف المستنقعات ، والتخلص من القمامات ، والرى ، ومنع الأمراض ومعالجتها ، وكذلك بانشاء المعاهد كمؤسسة روكفلر التى من بين أغراضها العديدة البحث عن علاج الأمراض ، وإنشاء مصحات للسل ، ومدارس لضعاف العقول وللعميان والخرس والمصروعين ، وبناء المستشفيات وتعميم نفعها ، وانشاء المستوصفات المجانية ثم توسيع عمل الزائرات الصحيات والمفتشين وبناء المستعمرات الاجتماعية وكل ما يماثل ذلك من الوسائل المؤدية إلى استئصال الأسباب التى تحدث الفقر فى المجتمع .

٢ — يجب تحسين ما لدينا من طرق التعليم حتى تلائم إنتاج الثروة واستهلاكها . كما أنه يجب تعديل برامج التعليم برمتها حتى تكون ملائمة لسن الحدث وللحاجات الاجتماعية . ويجب أن يعطى التدريب اليدوى والحرف قسطا أوفر من العناية . ويجب زيادة الحرص فى تعليم البنات والعناية بالطفل وتدبير المنزل . وأن تراعى بشكل أوسع أصول التربية فى اللعب والرياضة وأن تهيأ وسائل أوفى لقضاء أوقات الفراغ .

٣ — ويجب حماية العامل من أخطار الآلات والأمور غير الصحية في المصانع ، وجميع مجال العمل الأخرى حماية أوفى . كما يحتم ألا يكون يوم العمل طويلا حتى لا يضر بمقدرة العامل الجسمانية .

٤ — وهناك إجراءات ضرورية لحماية وتحسين حالة العامل المعيشية . فالواجب أن توضع خطة أفضل لفض المنازعات الصناعية حتى يمكن تلافى الخسائر التى تنشأ من انقطاع الأجور بسبب الإضراب أو إقفال أبواب المصانع . ويجب أن يكبح جماح الاحتكار وأن تجعل أثمان الحاجات الضرورية خاضعة لتقدير السلطات العامة كلما اقتضى الأمر ذلك ويجب تقرير طريقة أفضل لتصريف المواد الغذائية فى السوق حتى يقضى على الوسيط الذى لا ضرورة له . ويجب ترويج الدكاكين التعاونية ونظم البيع التعاونى . ولا بد من سن القوانين لتحديد أدنى حد للأجور فى الحرف المغبونة فى أجورها التى لا يتسنى لنقابات العمال أن تنظم شئونها . ومن الضرورى أن تقام الصناعة والتجارة على أسس أقوى دعامة وأثبت حالا . وأن يعمل على منع حوادث النكبات المالية والركود الصناعى . ويجب أن تنظم سوق العمال على طريقة وطنية شاملة مدارها إنشاء مصافق (بورصات) للعمال . ويقضى الأمر كذلك باتخاذ إجراءات أخرى لتقليل عدد العمال العاطلين إلى أدنى حد ممكن .

٥ — ومن اللازم إيجاد طريقة اجتماعية شاملة للتأمين من حوادث المصانع والأمراض الناشئة عن الحرف والأعمال والتعطل ثم من وفاة عاهل الأسرة . ولقد ظهرت قيمة مثل هذا التأمين واضحة وضوحا عظيما كما أنه قد حان الوقت لتعميم هذه الطريقة فى الولايات المتحدة.

ثم ليس فى الإمكان محو الفقر محوا تاما ، إلا أنه من المستطاع إبعاده وتجنبه باعتباره أكبر ما يخشى المجتمع من المسائل القائمة اليوم . وسيظل فى المجتمع فى كل حين أناس لا يمكن أن يقفوا على أقدامهم ويصلح حالهم مهما وجدوا أمامهم من الفرص ؛ ولكن يمكننا العمل على إيجاد أحوال تسمح لمن يريد أن يجد الفرصة أمامه لا ليعول نفسه فحسب ، بل ليحسن حاله أيضا . ومن الواجب أن يوجد لدينا على الأقل طريقة يتمكن بها كل من كان صحيح الجسم متوسط الكفاية محبوا بذكاء اعتيادى أن يعول نفسه وأسرته وأن يأتى إلى العالم بأولاد يجدون أمامهم من الفرص الطيبة مثل ما يجده سابقوهم .

الفصل الثانى والعشرون

الجريمة

المشكلة العظيمة الثانية التى تواجه المجتمع من مشاكل سوء النظام الاجتماعى هى الجريمة . وهى وثيقة الارتباط بالفقر وتسير معه جنباً لجنب . فالفقر يسبب الإجرام كما أنه إحدى نتائجه . وأحوال الإجرام متوشجة بأحوال الفقر بحيث اذا لمسنا الأولى وجدنا الثانية فى طريقنا . ولسنا نقصد بهذا أن الفقراء أكثر استعدادا للإجرام من الأغنياء ، بل إن الفقر يسبب الإجرام ، والإجرام يسبب الفقر وأنهما كليهما نتيجة أحوال متماثلة .

ما الإجرام ؟

الإجرام هو مخالفة أحد القوانين . وليس حتما أنه خطأ فى الفعل و إن كان كذلك عادة ، لأن الفعل قد يكون سيئا ولا يكون مع ذلك إجراما مادام لا يخالف قانونا . وقد يكون الفعل صالحا يتضمن إيثارا و يعد مع ذلك إجراما يستوجب فاعله العقاب حتى بالموت . فالمجرم إذن هو الذى يخالف أحد القوانين وليس لزاما أن يكون فاعل سوء . وكثيرا ما كان من بين هؤلاء أعلام رجال الخير الذين أحسنوا الى الدنيا كسقراط وهوس والمسيح إذ أعدموا على أنهم مجرمون . وكم من مجرم من كبار فعلة السوء فى العالم قد نجا بنفسه من وصمة الإجرام لإنه لم يخالف قانونا . على أن الإجرام و إن كان فى مبدئه تصورا قانونيا فان له ناحية اجتماعية . ذلك لأن القوانين وليدة الرأى العام ولا يمكن أن يعد الفعل جريمة إلا اذا وسمه المجتمع بخاتم الاستنكار . فالجريمة هى فعل يستنكره المجتمع ويقرر عقوبة لمن يرتكبه . على أن المجتمع يغير رأيه آنا فآنا فيما يعده ضارا أو مفيدا ، فما يكون اليوم جريمة ربما لا يكون كذلك غدا . وما يكون مشروعا اليوم قد يكون جريمة فى الغد . هذا ، الى أن ما يعد مشروعا فى الولايات المتحدة قد يعد جريمة فى ألمانيا كما كانت الخيانة العظمى (Lèse-Majesté) فيما مضى ، بل إن ما قد يكون جريمة فى ماساشوسيت ربما لا يكون كذلك فى كاروليتا الجنوبية كتشغيل الأحداث مثلا . فيتبين من ذلك أن الجريمة تختلف باختلاف الزمان والمكان ومع ذلك يتوقف على الرأى العام تصريفها . وهناك من غرائب الأمثلة على ذلك شىء كثير ، فالسوق بالجم كان فى وقت ما جريمة فى روسيا وفى سنة ١٦٣٥ حرم فرنسيس الأول الطباعة فى فرنسا وجعل الشنق عقوبة لاقترافها

وكان الأيونيون ينفون من لم يشاهدوهم يضحكون. وكان أهل قرطاجنة يقتلون القائد المهزوم وجرت اسبانيا مدة طويلة على هذه الخطة اذ كانت توقع هذه العقوبة بالقائد الذى يسلم جيشه. ولقد وقف قائد الجيوش الاسبانية الذى دافع الأمريكيين دفاعا مجيدا فى سانتياجو عقب عودته الى وطنه موقف الاتهام المحكم عليه بالإعدام ، وما كان لينجو بحياته لولا أن تغيرت عواطف الجمهور نحوه . وكانت العزوبة جريمة مقررة فى القانون الجوليانى وكان المصريون على العزوبة فى اسبارطة يجردون من ملابسهم ويجلدون فى ساحة السوق فى عنفوان الشتاء .

ويفرق القانون عادة بين الكبرى والصغرى من الجرائم، فالأولى تسمى جنايات والثانية تسمى مخالفات والعقوبة مقدرة تبعا لذلك . كما أن المجتمع ينظر الى كل نوع منها نظرة مختلفة ولذلك يمنح مقترف المخالفة امتيازات لا يمنحها مقترف الجناية .

اختلاف أنواع المجرمين

حاول كثيرون أن يقسموا المجرمين أقساما سواء من الوجهة البيولوجية أو من الوجهة النفسية . ومع أنهم وضعوا تقسيمات عدة فانه ليس بين هذه تقسيم كامل ولو أنها جميعها ذات فضل إيحائى . وإنا نورد التقسيم التالى لما فيه من فضل الإيحاء ولأنه من أحسن التقسيمات التى وضعت حتى الآن :

١ — المجرم بالغريزة : أى الذى يولد مجرما : هذا النوع قليل جدا ولعله لا يزيد على ٥ ٪ من مجموع المجرمين فى بلادنا ؛ والمعتوه المعنوى إن وجد شخص بهذا الوصف مثل حسن لهذا النوع .

٢ — المجرم بالعادة : وهو شخص عادى ينزع إلى الإجرام نزوعا اكتسبه من البيئة المحيطة به ويشمل هذا النوع اللص المحترف ونوع "اليجمان" (Yeggman) [1] اللذين هما أشد المجرمين جرأة . غير أن جملة أفراد هذا النوع أشخاص ضعفاء لا يستطيعون مقاومة أسباب الإغراء المحيطة بهم وليسوا من القدرة بحيث يمكنهم أن يغيروا من عاداتهم حتى ولو كانوا فى ذلك راغبين ، بل لقد جعل المجتمع فيما مضى أمر صلاحهم أشد صعوبة عليهم إذ كان يقاطع من كانت له سوابق فى الإجرام . ويقدر عدد المجرمين بالعادة من ٣٠ الى ٤٠ ٪ من جمهور المجرمين .

---

(١) صنف اللص الذى يفشل من المصارف ، وأحد أفراد العصابات التى تهاجم قطر السكك الحديدية والتى تغزو برجالها مصارف الأرياف (المعرب)

٣ — المجرم المفرد : وهو الشخص الذى يرتكب جريمة بدافع بفائى أوفى سورة غضب أو تحت تأثير الخمر . وقد كان من أكبر معايب قانون العقوبات فى الماضى عندنا أنه دفع بالمجرمين المرضيين الى صفوف المجرمين بالعادة . على أن هذا الصنف مجرم من الوجهة القانونية أكثر من كونه مجرما من الوجهة الاجتماعية . ذلك لأن استفزازه فى كثير من الأحايين يكون من الشدة بحيث يبرر الجريمة فى ذاتها من الوجهة الخلقية والأدبية . وهذه الطائفة تبلغ من ٣٠ الى ٥٠ ٪ من نزلاء سجوننا . ومن أجل هذه الطائفة بالذات وضعت الأحكام غير المحدودة العقوبة ومواد إيقاف التنفيذ وقبول إعطائهم تعهدات على أنفسهم بالإقلاع فى المستقبل عن مثل ما فعلوا .

٤ — ضعاف العقول والمجانين : هؤلاء يجب ألا يدرجوا بين المجرمين إلا أن بين نزلاء سجوننا نسبة مئوية كبيرة من هذه الطائفة أوتلك . وسنرى فى باب آخر أن ضعاف العقول يقترفون الجرائم بسهولة ومنهم عدد كبير بين نزلاء سجوننا وإصلاحياتنا ولا سيما الثانية . ثم إن المجانين يرسلون عادة إلى مستشفيات الأمراض العقلية غير أن بعضهم يرسل الى السجون .

ومما تقدم نتساءل : هل تعامل كل هذه الأنواع المختلفة من المجرمين معاملة واحدة حتى ولو كانت الجريمة واحدة ؟ والجواب على ذلك بالنفى طبعا إلا أن التفريق الصحيح فى طريقة المعالجة هو مسألة أخرى .

مدى الجريمة

ليس لدينا أرقام يمكن الاعتماد عليها لمعرفة مدى الجريمة بالدقة . واذا كان لدينا إحصاءات بعدد المسجونين والأحكام الصادرة فى كل عام ، فان هذه الأرقام لا تدلنا على عدد الجرائم التى ارتكبت . لأن كثيرا منها لا يمكن استكشافه مطلقا . كما أن كثيرين من المجرمين لا يضبطون حتى ولو كشفت جرائمهم . وفضلا عن ذلك فإن المحاكم كثيرا ما تبرىء المتهمين ولو كانوا مذنبين بسبب نقص فى القانون أو فضل مقدرة محامى الدفاع . ولقد يدان البرىء فى بعض الأحيان ويوقف التنفيذ على كثيرين أو تؤخذ عليهم تعهدات . لهذا كانت إحصاءات السجون لا تعطينا معلومات دقيقة فى هذا الصدد . وقد يدان كثيرون فى العام الواحد مرات عدة وهذا سبب آخر فى أنه لا توجد لدينا وسائل دقيقة لمعرفة مدى الجريمة .

ولكى نعطى فكرة عن عدد نزلاء سجوننا يجب علينا أن نقدم بعض الأرقام، ولكن نظرا الى قلة جدوى تلك الإحصاءات وضآلة قيمتها لا نورد منها إلا شيئا قليلا : فى يناير سنة ١٩١٠ كان فى الـ ٢٨٢٣ سجنا التى فى الولايات المتحدة ١١٢٫٨٨١ مسجونا تنفيذاً لأحكام صادرة عليهم، أى نحو ثمن فى المائة من مجموع سكان بلادنا . ومن بين هؤلاء ١٠٥٣٦٢ رجل و ٦١٣٦ امرأة ومنهم ٥٢٤٧٣ من البيض الوطنيين و ١٩٤٣٨ من البيض الأجانب و ٣٨٧٠١ من الأجناس الملونة ، ومنهم ٢٤٩٧٤ من الأحداث تنفذ فيهم الأحكام فى إصلاحيات الأحداث . ويجب أن يضاف الى هؤلاء عدد من أخذت عليهم تعهدات والذين وقف التنفيذ عليهم . وفى غضون سنة ١٩١٠ أرسل الى تلك السجون ٤٧٦٫١٥٦ مسجونا أى نحو نصف فى المائة من عدد سكاننا . على أن هذا لا يدل على أن هذا هو عدد من يدانون كل عام، إذ الواقع أن عدد أحكام الإدانة فى الجرائم مقدر بمليون على الأقل فى العام . ولكن الفرق مرجعه الى الأعداد الكبيرة من المذنبين الذين يدفعون غرامات أو يبرءون باستئناف الأحكام والذين يوقف التنفيذ عليهم أو يموتون أو يفرون . وصدور أحكام بالإدانة على مليون من الأشخاص لا يدل على ارتكاب مليون جريمة فقط كل عام ، إذ الواقع أن هناك جرائم لا عد لها لا ينكشف أمرها مطلقا ولا سيما الجرائم الصغرى كمخالفات اللوائح البلدية . وقد يكون حسنا ألا ينكشف أمر كثير من هذه الجرائم لأن غالبية الناس يرتكبونها كل يوم من أيام حياتهم تقريباً، عمدا فى بعض الأوقات ، وفى بعضها عن غير عمد . على أن ما يؤسف له أن هناك جرائم منكرة كثيرة جدا تحدث ثم لا ينالها قصاص وقد جرت صحيفة شيكاغو تريبيون (Chicago Tribune) منذ سنوات كثيرة بمساعدة مكتب اتحاد الجرائد على تدوين عدد القتلة فإذا عددهم يتراوح بين ستة آلاف وعشرة آلاف فى العام فى حين أن عدد الذين يودعون السجون بتهمة القتل لا يزيد إلا قليلا على ربع هذا العدد إذ بلغ ٢٤٤٤ فى سنة ١٩٠٤ وكان عدد القتلة فى ذلك العام ٨٤٨٢ . أما الباقون فلم يضبطوا أو — اذا قبض عليهم — ماتوا أو فروا . وتقع أكبر نسبة لحوادث القتل ، فى الولايات الغربية والجنوبية وفى مقدمتها تكساس إذ يبلغ عدد القتلة فيها حوالى الف كل عام . ومما يستوجب عظيم النقد لإجراءاتنا القانونية أن كثيرا من الجرائم عندنا لا يعاقب مرتكبوها حتى بعد القبض عليهم . ذلك لأن منهم عددا كبيرا يفلتون من العقوبة باستمساكهم بحرفية النصوص القانونية إذ الواقع أن المحاكم تعتد بمبنى القانون أكثر من اعتدادها بمعناه . وسنرى أن هذا أحد أسباب الجريمة ، وبخاصة الخطيرة منها ؛ وأنه أحد الأسباب الهامة فى زيادة الجرائم فى الولايات المتحدة .

كثيرا مانسمع هذا السؤال : هل الجرائم آخذة فى الأزدياد؟ ونحن إذا فحصنا من إحصاءات السجون انتهينا إلى الإجابة بالإيجاب . ذلك لأنه فى سنة ١٨٦٠ كان عدد نزلاء سجوننا ١٩٠٨٦ أى بنسبة مسجون واحد الى كل ١٦٤٧ من الأهلين . وفى سنة ١٩١٠ بلغ عدد المسجونين فى سجوننا ٨٨١ ، ١١٢ أى بنسبة مسجون واحد الى كل ٨٠١ من الأهلين . هذا إلى أنه منذ سنة ١٨٦٠ أدخل نظام وقف التنفيذ والتعهدات وخفضنا مدة العقوبة إلى درجة كبيرة . ومن جهة أخرى زيدت أنواع الجرائم فزاد بذلك عدد الجرائم التى يعاقب عليها بالسجن زيادة كبيرة . هذا إلى أن كفاية البوليس قد عززت فى كثير من الجهات . ولهذا كان من الصعب جدا أن تكوّن فكرة معينة عن هــذا الموضوع . لامشاحة فى أن هناك زيادة فى عدد الجرائم الصغيرة والمخالفات مثل مخالفة اللوائح المحلية نظرا للزيادة البالغة فى عدد تلك اللوائح . أما فيما يختص بالجرائم الخطيرة كالقتل والإحراق والسطو فلسنا على مثل ذلك من البينة فى أمرها . نعم إن هذه الجرائم يتزايد عددها بطبيعة الحال ولكن ليس لدينا ما يعلمنا أمتمشية هذه الزيادة أم غير متمشية مع زيادة عدد السكان . أما إحصاءات السجون فى السنوات الأخيرة فتدل على زيادة تلك الجــرائم الخطيرة ولكنا لا ندرى أناشئة هــذه الزيادة فى بعض أمرها عن ازدياد الكفاية فيما لدينا من طرق المباحث ووسائل الإدانة أم ناشئة عن سبب آخر . على أنه لا ريب فى أن بعضها راجع الى سوء نظام السجون فى المــاضى وإلى فقدان الرهبة فى المحاكم . ويرى الوود (Elwood)[1] أن انخفاض عدد الجرائم كبيرها وصغيرها فى انجلترا يرجع إلى نظام سجونها الفائق وإلى السرعة والحزم فى المحاكم الأنجليزية التى تقف على طرف النقيض فى هذا الصدد من محاكمنا البطيئة السيئة النظام العديمة الكفاية .

نفقات الجرائم

لانزاع فى أن نفقات الجرائم فى الولايات المتحدة باهظة جدا . غير أنه ليس لدينا أرقام مضبوطة للدلالة على ذلك ولا نملك فى هذا الصدد غير تقديرات تقريبية .

أما فيما يختص بما يحتمل أن تتحمله الحكومة من أجل سير المحاكم وحماية الشرطة والسجون والمناهضة العامة للجريمة فأن فى وسعنا أن ندلى بتقدير لا بأس به . فهذا يتطلب حوالى ٢٠٠ مليون دولار إجمالا . ولكن لا بد أن يضاف إلى هذا المبلغ قيمة ما يتلف من الأملاك وكذلك نفقات حماية الأفراد وضياع وقت الجمهور بصفة عامة، وقد يبلغ هذا ضعفى ما تتحمله الحكومة فعــلا . ويقدر مستر أوجين سميث (Eugene Smith)[2] أحد محامى نيويورك

---

(١) ص ٣١٩ من كتابه (Sociology and Modern Social Problems)

(٢) مقالته التى قرئت على جمعية The National Prison فى سنة ١٩٠٠

عدد عتاة المجرمين فى الولايات المتحدة بنحو ٢٥٠,٠٠٠ وأن متوسط ما تنفقه الحكومة على الواحد منهم يبلغ حوالى ١٦٠٠ دولار فى السنة وتبلغ جملة نفقاتهم نحو ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار، وبذلك يصبح مجموع النفقات ٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار وهو معادل لميزانية التعليم العام فى السنة أو ما يزيد على نصف قيمة غلة الأرض من الحبوب فى سنة ١٩١٥ . وقد يكون هـذا التقدير عاليا إلا أن نفقات الإجرام فى هذه البلاد باهظة جدا ولعلها أقل من نفقات الفقر الا أنهـا جديرة منا كل الجدارة بالانتباه . ولا تكون دراسة مثل الموضوع الذى نحن بصدده مستوفاة قبل أن نقف على أسبابه .

أسباب الجريمة

سنرى أن أسباب الإجرام كأسباب الفقر يتدخل بعضها فى بعض وأنها متراكمة يصعب فصل بعضها عن بعض وإن كانت أسهل تتبعا من أسباب الفقر. وسنبحث أولا فى الأسباب الخارجية أى الأجنبية عن الشخص ثم ننتقل الى الأسباب الداخلية أى المتصلة بالشخص ولا بأس أن نذكر كذلك ثلاثة شروط للجريمة هى : (١) الباعث على الجريمة (٢) الفرصة السانحة لارتكاب الجريمة (٣) فقدان المقاومة أو فقدان الوازع .

والشرطان الأولان إيجابيان والثالث سلبى .

الأسباب الخارجية للجريمة

يدخل تحت هذا العنوان الأسباب الناشئة عن البيئة الطبيعية والأجتماعية .

أولا — البيئـة الطبيعية . للمناخ أثر كبير فى طبيعة الجريمة وفى مداها . فإنا نجـد أن الجرائم التى تقع على النفس كالقتل والاعتـداء أكثر عددا ، فى بعض الأقاليم الحارة منهـا فى الأقاليم الباردة . وليس هـذا راجعا الى سرعة تهيج الأشخاص فحسب ، بل لأن الأرواح فى الجهات الحارة تعتبر أرخص منها فى الجهات البـاردة لأنه يسهل فيها تربية أسر كبيرة العدد وإعالتها . لأنه لمـا كانت نسبة الوفيات مرتفعة فى البلاد الحارة ألف الناس حوادث الموت وقست له قلوبهم . وينطبق هذا القول على الفصول أيضا إذ المشاهد أن الاعتداء على الأشخاص فى الفصـول الحارة أكثر منه وقوعا فى الفصـول الباردة . وعلى العكس من هذا نشاهد أن الاعتداء على الأملاك يزداد بازدياد برودة الجو فتكون أشد خطورة فى الشتاء منه فى الصـيف . ذلك لأن الدافع يزداد فى الجو البارد باشـتداد الحاجة الى الطعـام والملبس والمأوى نظرا الى قلة وسائل الحصول عليها . ومن هنا ينشأ الالتجاء الى الوسائل غير المشروعة ففى كل شتاء نرى الجرائد توجه الأنظار الى ما تسميه « موجة الجريمة » التى تغشى المدينة

والقطر . على أن هـذه الحالة لا تنطبق تمـام الانطباق على كل الأقاليم فان سكان أفريقيا وأمريكا الوسطى وغيرذلك من البلادالدفيئة المناخ مشهورون باللصوصية. ولكن لعل هذا يرجع الى أن الأقطار الشمالية تتمتع بحكومات أثبت دعامة .

ثانيا — البيئة الاجتماعية . الأسباب الواردة تحت هذا العنوان أهم بكثير من الأسباب الناشئة عن البيئة الطبيعية، كما أنها أصعب تفصيلا وتحليلا، و يمكن ذكرها تحت أبواب كثيرة.

(١) انحطاط المستوى الخلقى فى الأسرة — ذكرنا فى كلامنا على الطلاق أن تفكك الأسرة تنجمت عنه أشياء كثيرة بينها جرائم الأحداث . كذلك ذكرنا فى الكلام على الفقر أن الأطفال الذين يضطر آباؤهم الى التغيب عن بيوتهم ليحصلوا على القوت يقذف بهم الى الطرقات ليسعوا وراء أرزاقهم . وهـذا بطبيعة الحال يؤدى الى التشرد والإجرام . ولقد تبينا كذلك أن غلمان مدارس الإصلاح والأطفال الذين يمثلون أمام محاكم الأحداث إنما هم من البيوت التى تفككت عراها أو دكت متـاعب الأسرة والفاقة مستوى الأخلاق فيهـا . وفى الواقع نجد بين غلمان مدارس الإصلاح من ٨٥ ./ٍ الى ٩٠ ./ٍ من هم من أسر مفككة البنيان . والى نفس هذا السبب يرجع اندفاع الأحداث فى تيار الجريمـة . والأطفال غير الشرعيين أكثر من هؤلاء تعرضا لارتكاب الجرائم . ولا يقتصر أمرهم على أنهم عرضة لمثل هـذه المهاوى ، بل إنهم كذلك منبوذون من المجتمع . ومتاعب الأسرة من أسباب اندفاع الكبار كذلك الى ميدان الإجرام . فأن المنزل اذا لم يكن مستقراً للسعادة نزعت النفوس الى الحانات (Saloons) ودور الرقص والمقامرة. وغالبية المسجونين فى الولايات المتحدة من غير المتزوجين . وقد بلغوا ٦٤ ./ٍ فى سنة ١٩٠٤ غير أن هذا يرجع بعضه الى الإجرام نفسه إذ أن المسجونين بقضائهم زمنا طويلا فى السجون تصبح أمامهم فرص الزواج قليلة . هذا الى أن حياة الإجرام تحول دون الاستقرار لأنها تدعو المجرمين الى دوام التنقل . أما الحياة الزوجية فأنها ذات أثر يقر الفرد فى مكان ، ولا سيما اذا كانت هذه الحياة الزوجية سعيدة .

(٢) الفقر — سبق أن رأينا أن الفقر والجريمة يتمشيـان جنبا الى جنب . والواقع أن الفقر يزيد المغريات ويثير كراهية الحكومة ويولد فى النفس ازدراء القانون والنظام معتقدة أن الحكومة لا تحمى إلا الأغنياء وأن القانون لم يسن إلا للأثرياء دون الفقراء . وقد يكون هناك ما يبرر هذا التفكير يوم يكون الرجل رب أسرة فى حالة فقر مدقع ، ولا يستطيع مع ذلك أن يجد عمـلا أو يكتسب أجرا كافيا للعيش فالفقر يورث اليأس ولذلك كان كثيرا ما يدفع الى الإجرام . نعم إن الفاقة لا تؤدى حتما الى ارتكاب الجرائم ولكنها تقوى الدوافع اليها وبذلك تضاعف الجريمة — أى اذا كانت وطأة الفقر شديدة . وللناس حاجات لا تنقطع فاذا ما أعجزهم الحصول عليها بالطرق المشروعة كانوا فى كثير من الأحوال ضعافا

عن مقاومة ما يغريهم بمحاولة الحصول عليها بالطرق غير المشروعة، وهذه الحالة مشاهدة حتى بين الموسرين وأرباب الثراء ، كذلك البطالة وارتفاع أثمان المأكولات وما ماثلها فأنها بوجه عام تزيد الإجرام .

(٣) التنظيم فى الصناعة — الإضراب ووقف العمل وانحطاط الأحوال الصناعية والضائقات المالية والتغييرات التى تطرأ على الصناعة، كل هذا يخل بتوازن الأحوال ويبعث على العنف والإجرام . ويحدث هذا على وجه التخصيص فى أوقات الإضراب وإيقاف العمل عندما يفقد الطرفان كلاهما صوابه ويلجأ الى استعمال وسائل العنف . فيترتب على هذا إتلاف الممتلكات ووقوع المصادمات بل وحوادث القتل . وقد يضاف الى الأسباب الداعية الى الإجرام قلة الأجور واستخدام الأحداث وزيادة ساعات العمل وما الى ذلك .

(٤) ازدحام السكان — يشاهد أن الجرائم فى المدن أكثر منها فى الأقاليم الريفية وليس ذلك لأن الناس فى المدن يميلون الى الإجرام بطبيعتهم ، فالواقع أنهم ليسوا كذلك ، بل لأن الإغراء أشد ولأن الفرصة لارتكاب الجريمة أكثر توافرا . لأن المجرمين يتزحون من البلدان الصغيرة والأقاليم الريفية الى البلاد الآهلة بالسكان ليختفوا ، وبسبب هذا كانت نسبة الجرائم التى ترتكب فى المدن حوالى ضعفى نسبتها فى الريف . ومن بين الملاجىء المألوفة لدى المجرمين الجهة المعروفة باسم فلوبس (flops) فى شيكاغو والجانب الشرقى (East Side) فى كل من نيويورك ولندن « والطرف الشمالى » (North End) فى مدينة كنساس .

(٥) عيوب المحاكم وقانون العقوبات — إن افلات كثير من المجرمين من العقوبة يولد الاستهانة بالقانون وشدة العقوبة لا تردع عن الإجرام ، إذ يبلغ الغرور بالمرء أن يعتقد أن فى مقدوره الإفلات مادام هذا فى مقدور غيره . وإنما الذى يحول دون الجريمة هو اليقين بكشفها والاستهداف للعقوبة عليها حتى ولو كانت العقوبة خفيفة . أما إفلات هذا العدد الكبير من المحاكم فهو خير إعلان على عدم كفايتها . كما أن الطرق العقيمة التى تتبع فى معاملة المسجون عقب محاكمته تزيد الإجرام . ذلك لأن السجن بدلا من أن يكون أداة للإصلاح — كما يجب أن يكون — كان فيما مضى عاملا على رسوخ عقيدة الإجرام فى نفس المجرم . وكذلك السماح لمن يزلون للمرة الأولى بالاختلاط بالراسخين فى الإجرام ، وبخاصة فى سجون المقاطعات — يخلق مجرمين كانوا لولا ذلك من المحافظين على القانون . هذا ومما يفقد الناس ثقتهم بالمحاكم صعوبة نيل العدالة والشك فى إحرازها وتوقف الحكم على المقدرة المالية . وكذلك الفساد والرشوة فى الشرطة فانهما مما يعوق القضاء على الإجرام فرجال الشرطة إزاء تواطؤ رؤسائهم مع كبار المجرمين يخشون مغبة القبض عليهم . والحكم بالسجن لمدد قصيرة فى سجون الريف من شأنه الإكثار من الجرائم لا منعها .

(٦) قصور القانون والحكومة — لهذا السبب نفس الأثر الذى لسابقه فان كل نقص مرجعه فى كثير من الأحيان السماح ببقاء الأحوال الإجتماعية السيئة . فالقوانين التى تبيح فتح الحانات توجد مجالا للإجرام . والقوانين التى تفرض عقابا على طبقة معينة أشد مما تفرضه على غيرها والتى تفرض عقوبات غير متناسبة فى الجرائم الصغرى، تشجع على الاستهانة بالقانون. والقوانين التى لم تراع الدقة فى وضعها ينبنى عليها قصور الحاكم أو عجزها عن تنفيذ أحكامها . كذلك نجد أن سوء تصريف القانون من مشرفين تنقصهم القدرة أو المتراخين من الموظفين كما هى الحال فى كثير من الأحوال فى حكومات المدن، من العوامل التى تساعد على ارتكاب الجريمة ، بل إنها فى الحق تكاد تكون من الداعيات إليها .

(٧) الجنس والجنسية — رأينا فى الكلام عن الهجرة أن بعض الأجناس أكثر ميلا إلى الإجرام من غيرهم . وعرفنا أن البولنديين مولعون بشرب الخمر وانهم تحت تأثيرها يقترفون كثيرا من حوادث العدوان الخطيرة . ورأينا أن الأرلنديين تحت تأثير الخمر كذلك يرتكبون الجرائم الصغرى وأن الأيطاليين كانوا فى السنوات الماضية تسيطر عليهم جمعية اليد السوداء وأن الأمريكيين ميالون بوجه خاص إلى السرقات الطفيفة والجرائم الصغيرة . ويشتهر كثير من الجنسيات بارتفاع نسبة جرائمها وبخاصة جنسيات آسيا الشرقية وأمريكا الوسطى والجنوبية.

(٨) التربية أو الافتقار إليها — إذا كان المحتال المتعلم أشد خطرا من المحتال غير المتعلم فان الشخص المتعلم أقل تهيؤا إلى الإجرام . والواقع أنا نجد بين جدران السجون العادية قليلين ممن تلقوا قسطا وافرا من التعليم . وليست نسبة الأمية بين المجرمين كبيرة فحسب، بل إن الذين يعرفون القراءة والكتابة منهم يكونون أقل درجة فى التعلم من الرجل العادى لأن أغلبهم قد تركوا المدرسة قبل أن يتموا دراستهم بمدة طويلة ، أى قبل أن يحصلوا من التعليم على ما يجعلهم ذوى كفاية حقيقة لأى عمل . ويصدق هذا بصفة خاصة على كبار المجرمين إذ تبلغ نسبة الأمية فيهم مثل ما هى عليه فى عامة السكان . وليس أمر التربية مقصورا على كونها تعطى الأشخاص كفاية للحياة بل إنها تعلمهم احترام القانون وتحول دون تسكع الأطفال فى الطرقات وتجنبهم شر المغريات فى أثناء السنوات التى تتكوّن فيها أخلاقهم . نعم إن أقوم طرق التربية لا تستطيع محو الجرائم إلا أنه فى مقدورها أن تعوق تيارها إلى حد بعيد . وإذا كان أحد نظم التعليم ناقصا وغير مؤد إلى الغرض الذى وضع من أجله فأن الجرائم تقل معه وتزداد بدونه

فاذا هو أهمل جانب التربية الخلقية أو التربية البدنية أو الإعداد الصناعى فهو ناقص بقدر هذا الإهمال لأن المرء يحتاج إلى جسم سليم ليكون قويم الخلق والى فرصة للنجاح فى الحياة لكى يكون مطواعا للقانون. وطريقة التعليم التى تحمل الطفل على كراهية الدرس تدفعه إلى هجر المدرسة فى بكرة حياته ، كما أنهـا تغير كل أثر للدرسة، فى حين أن انتشار وسائل التعليم الرشيدة كطرائق مدرسة جارى (Gary Sohcol) من شأنها إخماد الجريمة . وكذلك الحال اذا ما أعدت مدارس خاصة للأغنياء من الأطفال وأخرى لناضجى العقل قبل أوانه .

هذا ويجب أن تضاف الى المدارس من حيث حالها من الأثر التعليمى المكتبات العامة والمجلات والجرائد على وجه التخصيص فأن ما تقتطعه من صفحاتها لشؤون الرذيلة وقضايا الطلاق كفيـل بالإعلان عنها وتعليم الناس تقليدها . والجرائد كثيرا ما تفتح الطريق للإجرام بإيضاح الخطط التى اتبعت فى ارتكابها كما أنها توجه الأنظار إلى الجرائم وتوقظ الميـول الإجرامية الراقدة .

(٩) الملاهى الاجتماعيـة المضرة — إن افتقار الناس الى الملاهى المباحة تدفعهم — وبخاصة الفقراء منهم الذين لايملكون أن يختيروا لأنفسهم شيئا آخر — إلى الحانات وقاعات اللعب والمراقص وبيوت الميسر ودور التمثيل البذئ والى مايشابه ذلك من أماكن اللهو . والواقع أن مثل هذه الملاهى تستحث على الرذيلة والإجرام . على أنهم يعالجون هـذه الحالة فى هـذه الأيام بانشاء الملاهى المباحة كالحدائق المجانية بمـا فيهـا من ميادين للعب الكرة بأنواعهـا وملاعب للتنس والجلف وأحواض للاسـتحمام ثم بمجالات للزحف والملاعب الجبازية . وقد أخذت الصور المتحركة تحل محل المسارح البذيئة، فاذا أمكن وضعها تحت المراقبة بحيث يمحى منها ما كان محطا ومثيرا للشهوات فأنها تكون ذات أثر تهذيبى وتقوم بنصيبها فى تسلية الجمهور تسلية مباحة . ولعل أنجع الطرق لمحاربة الجريمة هى أن يعد للجمهور وسائل لهو ولعب طاهرين نقيين .

الأسباب الذاتية للجرائم

هـــذه الأسباب معظمها حيوى (بيولوجى) وقد تكون فى بعض الأحايين صفات ملازمة للجريمة لا مسببة لها .

(١) الانحطاط الجسمانى والعقلى والخلق — ضعف العقل والخبل والصرع له علاقة وثيقة بالإجرام . فالشخص الضعيف هو الذى يقع فى الورطات . كذلك الحال فى الكلية فان الطالب الذى يغش فى الامتحانات أو ينتقـل عمل غيره هو الضـعيف الذى ليس لديه من القوة ما يجعـله يقاوم المغريات أو ليس له من القدرة العقلية وقوة الإرادة ما يستمد به

على نفسه فى القيام بواجبه . وكذلك الطالب الذى يساعده على ذلك فانه ليس عنده من الشجاعة ما يحمله على الرفض . وكذلك الحال فى عادتى تناول المسكرات وتدخين لفافات التبغ ، فان الضعيف هو الذى يقدم عليها فيعتادها وليس له من صفات الرجولة ما يقاومها به. وهذه النظرية بعينها تنطبق على الإجرام — فان ضعيف الإرادة هو الذى لا يستطيع مقاومة المغريات . ويقولون إن البحوث التى يجرونها عن أحوال القوة العقلية فى داخل السجون تفيد أن ربع المسجونين ضعاف العقول . وليس على المرء إلا أن يزور أحد السجون ليرى أن الحالة العقلية لأكثر المسجونين أقل من الحالة الطبيعية أو أنها غريبة . كما أن حالتهم الجسمانية أقل من الحال الطبيعية . ويأتى معظم المسجونين من أحط الطبقات الاجتماعية فهم من حثالة الناس وسقطهم . ومن هذه الطبقات ينشأ معظم المجرمين والمتسولين والمعتوهين والسكيرين والعاهرات وغيرهم من الساقطين . ويتضح لنا حقيقة ذلك متى درسنا أحوال عشائر الجوك (Jukes) وكاليكاك (Kallikak) ونام (Nam) وهيل (Hill) . نعم ليس جميع المجرمين منحطين إلا أن نسبة هؤلاء بينهم أكثر منها فى مجموع عامة السكان .

(٢) تعاطى المسكر — تعاطى المسكر يعتبر الى حد ما من الأسباب الخارجية ولكنه يجب أن يدرج هنا . يقول الثقات إن الخمر كانت سببا بوجه ما فى ٩٠٪ الى ٩٥٪ من الجرائم فى الولايات المتحدة فيما مضى وأن نصف تلك الجرائم كان ارتكابه نتيجة مباشرة لاحتسائها . ويستدلون على ذلك بكون كثير من السجون قد خلت من المجرمين منذ سن قانون تحريم الخمور . إذ الواقع أن الإنسان رجلا كان أو امرأة يفعل بتأثير الخمر أمورا لا يفعلها وهو صاح ، لأن الخمر تضعف الإرادة وتقلل من قوة المقاومة وهى تؤثر فى المدمن من وجوه لا عد لها . وقد تلحق العقاقير المخدرة والأفيون بالخمر فى هذا الباب . ومن المسائل التى يذكرونها عن أثر قانون تحريم الخمور فى الإجرام ازدياد صعوبة القبض على المجرمين المحترفين وإدانتهم. ذلك لأن امتناعهم عن شرب الخمر مضافا اليه استعمالهم السيارات من شأنه أن يعطيهم فرصة أوفى للفرار .

(٣) السن — معظم المجرمين صغار السن إذ تتراوح عادة بين ٢٠ و ٤٠ عاما . وفى الواقع أن متوسط سن المعتقلين فى السجون الإصلاحية يبلغ نحو ٢٧ و ٢٨ سنة . والسبب فى ذلك ظاهر : وهو أن الجرائم ترتكب فى فترة النشاط من الحياة عند ما يكون الشخص فى أقوى حالات بنيته . ومتى تقدم الإنسان فى السن ولم تدركه المنية أو تنصلح حاله فترت همته واستقر فى جهة ما وعمل على إيواء صغار المجرمين . هذا الى أن حياة المجرم مفعمة بالمخاطرات ولذلك يموت كثير منهم فى مرحلة الشباب .

٤ — الجنس : تبلغ نسبة الرجال بين المجرمين فى الولايات المتحدة ٩٥ ٪ أما فى أوربا فنسبة المجرمات تزيد قليلا عنها فى أمريكا، غير أن نسبة المجرمين من الرجال فى جميع أقطار العالم تفوق نسبة المجرمات من النساء بكثير جدا . وليس كل السبب فى هـذا أن الرجل بطبيعته أكثر ميلا للإجرام ولكن بعض الأمر راجع إلى أن النساء إذا ما أردن ارتكاب جريمة دفعن الرجال الى ارتكابها بدلا منهن . والنساء أضعف بنية من الرجال وتعوزهن الشجاعة لارتكاب الجريمة ولا سيما الخطير منها . وهن أهل لاقتراف المخالفات والجرائم الصغرى التى لا تقع تحت طائلة القانون . وقد يكون أهم من ذلك أن النساء لا يعاملن فى المحاكم بتلك الشدة التى يعامل بها الرجال . وإذا ما عضهن الفقر بأنيابه كن أكثر ميلا إلى الاندفاع فى طريق الدعارة منهن فى طريق اللصوصية. هذا، إلى أن عدد الرجال فى الولايات المتحدة يزيد على عدد النساء بنحو مليونين. على أنه يجب التسليم بأن النساء أشد استمساكا من الرجال وأكثر منهم رغبة فى الخضوع للقانون. والمرأة أكثر اعتيادا للطاعة وأنها تقضى فى البيت وقتا أكثر مما يقضى الرجل. وفضلا عن ذلك فان العناية بتربية البنات أكثر منها بتربية الأولاد، ولهذا كن أقل اقترافا للجرائم .

٥ — العادات والعواطف والمثل العليا : يمكن أن تعزى العادات المكتسبة إلى حد ما الى أسباب خارجية، إلا أنه يجب أن نعنى بها هنا. وكثير من هذه العادات منشؤه "العصابة" وبيئة الأسرة . ومثل هذه العادات والمثل العليا لا تتكون فجأة ولكنها تكون نتيجة البيئة الاجتماعية السيئة وهى تدل على تقليد السىء من الأعمال الاجتماعية دون الحسن منها .

٦ — الشهوات الجنسية : تدعو الشهوات البهيمية إلى بعض الإجرام كهتك العرض والإغراء والاعتداء على السيدات وقد تدفع كذلك إلى القتل والإحراق .

التحليل النفسى للإجرام

كتب شئ كثير عن بسيكولوجيا الإجرام، غير أن غالب هذه البحوث تتناول ما فى المجرم من الشذوذ العقلى . وهذه البحوث شائقة جدا وهى تتضمن آراء مفيدة الا إنها قليلا ما تصل بنا إلى نتائج معينة. وهذا الموضوع لا يمكن استيفاؤه فى مثل هذا الكتاب المختصر ولذا نرى تركه للمؤلفات التى توضع خصيصا لعلم الإجرام . على أنه لا يسعنا فى هذا الصدد إلا أن نوجه النظر إلى نظريات لومبروزو (Lombroso) وبحوث جورنج (Goring)

المذهب الإيطالى فى الأنتروبولوجيا الجنائية

حوالى عام ١٨٧٥ ظهر فى إيطاليا جماعة من علماء الإجرام عرفوا بأصحاب المذهب الإيطالى الأنتروبولوجى الجنائى . زعيمهم سيزار لومبروزو Lombroso وهو يذهب الى أن الجريمة منشؤها رجعى وذلك بالارتداد الوراثى Atavism الى النماذج الوحشية والحيوانية .

يرى أهل هذا المذهب أن هناك نموذجا معينا للمجرمين وأن أفراد هذا النموذج يمكن تمييزهم من الأشخاص العاديين بخصائص جسمانية أو عقلية . ولقد بنوا هذا على المبدأ المقرر القائل إن هناك علاقة وثيقة بين الحالات والعمليات الجسمانية والعقلية . وبناء على هذه النظرية أخذ لومبروزو يفحص المميزات الجسمانية للمجرم الجنائى وخصائصه وأوضح أن المجرم ، وبخاصة المجرم بالعادة ، يمكن تمييزه من سائر أفراد المجتمع بزيادة نسبة الشذوذ الطبيعى فيه من حيث تشوه تكوين الجمجمة والوجه والمخ وأعضاء الحواس . وضرب لذلك مثالا انشقاق الشفه ، وارتفاع سقف الحلق ورداءة الأسنان وأنه يمكن تمييزه كذلك بما فيه من الشذوذ البدنى كطول الأعضاء المفرط وبعض الخصائص النوعية ولا سيما وجود الأنوثة فى الرجال منهم والرجولة فى النساء . واستكشف لومبروزو كذلك عيوبا عقلية فيهم مثل اضطراب العصب وفساد الذهن وفرط الغرور وسرعة الغضب وحب الانتقام ، وبالإيجاز تلك العادات القريبة من عادات القبائل غير المتمدينة . وهو يعتبر المجرم وليد نزعات مرضية ورجعية مقامها بين أحوال المجنون والرجل المتوحش .

وقد صادفت هذه النظرية معارضة شديدة على أساس أن هذه الخصائص توجد أيضا فى المجنون والمصروع وفريسة الغول وفى البغى ومدمن التسول . كما أنها توجد فى المجرم وأن المجرم ليس الا فرعا لجذع فاسد أو فردا من مجموع أسرة منحطة . وقد ذهب لمبروزو وأتباعه وبخاصة فيرى (Ferri) إلى مدى بعيد فى نظريتهم حتى إنهم حاولوا أن يقسموا فئة المجرمين نماذج مختلفة تميز كلا منها خصائص جسمانية وعقلية معينة ، وأن يثبتوا أن بعض العيوب الجسمانية المعينة يدل على نزعات جنائية خاصة . على أن نظريات لمبروزو مع ما فيها من التشويق والإيحاء قد أهملت لاعتبارها غير عملية بغير مشاححة . نعم إن الخصائص التى يجزم بوجودها موجودة إلى حد ما ولكنها من آثار الحياة الإجرامية أكثر من كونها سببا فيها . وما دام أن المجرم فى كثير من الأحوال يأتى من الطبقة المنحطة من الأهلين كما أشار جورنج بوجه التخصيص فلا غرو أن نجد بينهم نسبة كبيرة جدا من النقائص والخصائص الجسمانية والعقلية .

مباحث جورنج — استنتج جورنج من فحص ثلاثمائة ألف سجين انجليزى أن الإجرام ليس حالة مرضية كالعلة يمكن تشخيصها ووصف الدواء لها ، وأن المجرمين ليسوا ذوى خصائص جسمانية أوعقلية لايشاركهم فيها سائر الناس . وأن ليس هناك مميزات أوخصائص جسمانية أو عقلية عامة فى جميع المجرمين . على أنه يسلم بأن المجرمين ينقصون عادة من الوجهة الجسمانية والوجهة العقلية معا . ويقول فوق ذلك ان اللصوص السارقين والسـاطين الذين تبلغ نسبتهم ٩٠٪ من مجموع المجرمين أحط من عامة السكان (بل من سائر المجرمين) وأن هذا لا يرجع إلى أنهم مجرمون بل إلى أنهم نشأوا من أسفل طبقات المجتمع .

وبحوث جورنج تنقض نظرية لمبروزو القائلة بأن هناك نوعا مجرما وقوله ان فى الإمكان التمييز بين صنوف المجرمين المختلفة . نعم يقول جورنج إن هناك فروقا بين المجرمين ولكنها عين ما يوجد بين الأشخاص العاديين . على أنه ينتهى فى بحوثه إلى بعض النتائج العامة الآتية[1] :

(١) لاعلاقة بين المرض والجريمة ، بل إن مخالفى القانون يتمتعون بصحة أحسن من صحة المحافظين عليه . وكذلك ينقص فى السجون عدد الوفيات الناشئة من حوادث الإهمال والحميات المعوية وأمثال ذلك من الأمراض وذلك بسبب احتباسهم فى السجن .

(٢) بين الإجرام والجنون علاقة كبيرة القدر وان لم يكن الإجرام سببا من أسباب الجنون .

(٣) لداء الصرع علاقة ثابتة بالإجرام .

(٤) للسكر أثر مهم فى ارتفاع نسبة الوفيات بين المجرمين وفى انتشار الأمراض الغولية وهو أحد العوامل المسببة لها .

(٥) هناك علاقة وثيقة بين الرذيلة والإجرام. وهذا يعلل تفشى الزهرى بين المجرمين .

(٦) الأمراض المزمنة تحول دون ارتكاب الجرائم ولاتكون سببا فيها لأنها تمنع الشخص من أن يتخذ الإجرام حرفة .

(٧) نسبة الوفيات بين المجرمين تكاد تعادل مثيلتها فى كل طبقات المجتمع التى يفد منها المجرمون .

(٨) المجرمون، مع أنهم يأتون من أكثر طبقات المجتمع تناسلا هم أقل نسلا من المتوسط. ولبيان ذلك يقول إنه فى كل ألف شخص فى انجلترا نجد ٦٢١ شخصا يتزوجون ويبلغ متوسط عدد أولاد كل منهم ٥٫٦٦ فى حين أنه من كل ألف مجرم نجد ٦٢٩ يتزوجون ومتوسط

---

(١) كتابه (The English Convict)

عدد أولادهم ٥,٣ فتكون النسبة ٥ إلى ٨ وليس هذا راجعا الى العقم بل الى انفكاك أواصر البيت وهجر الأسرة وإلى اضطراب الحياة الزوجية . وقد شوهد أن قوة الإخصاب تنقص بتكرار السجن وأن المجرمين معتادى الإجرام يفضلون حياة العزوبة . وبعبارة أخرى نجد أن الأحوال الزوجية تكاد تكون عين ما نتوقع .

(٩) الوراثة — ان النزوع إلى الإجرام يورث كما يورث غيره من الصفات البشرية الأخرى . هـذا إلى أن الاقتداء بالوالدين له أثر شديد يختلف باختلاف الأحوال . ويلخص جورنج كتابه المذكور فى نهايته بقوله :

"إن التكوين الجسمانى والعقل سواء فى المجرم ومطيع القانون اللذين من سن واحدة ، وقد واحد ، وطبقة واحدة ، وذكاء واحد . ولا وجود لما يسمى نموذجا أنتروبولوجيا إجراميا . غير أنه على الرغم من ذلك يظهر أن هناك حقيقة لا تقبل الجـدل وهى أنه يوجد نموذج جسمانى وعقلى وخلقى من أشخاص عاديين ينزعون إلى الإجرام . ومعنى ذلك أن مجرم السجون الانجليزية يتميز تميزا ظاهرا بنقص تكوينه من حيث القامة ووزن الجسم ، كما يتميز بنقص مقدرته الذهنية وبانطوائه على نزعات غير اجتماعية . وللص رأس أصغر وأضيق من رأس الشرطى الذى يعتقله . وليس هـذا لأنه لص بل لأنه أحط منه . وقد يدان فى بعض الأوقات $\frac{1}{12}$ من سكان انجلترا . ولو سار الكل جماعات كل منها ثلاثة عشر شخصا ثم انتخب من كل جماعة أحطها مظهرا من الوجهتين الجسمانية والعقلية ، فإن المجموعة الجديدة المنتخبة تشـبه طائفة المسجونين . أما النظرية القائلة بوجود قوة نفسية خاصة فى تركيب جسم الإنسان تدفعه الى الإجرام ففكرة قديمة . وأما النظرية الحديثة فهى أن الإنسان لا يولد مجرما ولكنه يصبح مجرما . وانا لنجد ارتباطا وثيقا بين نقص القوى الجسمانية ونقص القوى العقلية . والأمراض الغولية كالأمراض التناسلية مما يعين على الجريمة ، ولكنا لا نستطيع أن نقيم صلة معينة بين الجريمة وبعض الأحوال الاجتماعية كإهمال الوالدين والفقر وما إلى ذلك . كما أن السجن لا يؤثر تأثيرا ماديا فى صحة المجرم لأنه لوحظ أن صحة المجرم فى داخل السجن كصحته وهو فى خارجه تقريبا" .

الفصل الثالث والعشرون

معالجة المجرم

كان عقاب المجرم فى بداية تاريخ الإجرام مبنيا على قاعدة الانتقام ثم حلت نظرية القمع أو محاولة محو الجريمة محل هـذه النظرية . وهذه الفكرة أخلت السبيل لمبدإ الإصلاح الذى يصاحبه الآن — ويحل محله شيئا فشيئا — مبدأ الوقاية أى منع الجريمة قبـل وقوعها . ثم انه لا يمكن تحديد الزمن الذى انتشر فيه العمل بكل من هذه النظريات المختلفة ، ولكن ما رأيت هو ترتيبها فى التطور ونحن سندرسها على أساس ترتيبها هذا :

(١) نظرية الانتقام :

ظلت هذه النظرية سائدة قرونا عدة فى معالجة المجرمين . ذلك أن قوانين المجتمع ، أى سننه ، أباحت للمعتدى عليه أو لأقاربه أن يثأروا لأنفسهم من المعتدى ؛ "والمنتقم للدم" الوارد ذكره فى التوراة هو شخص معطى هذا الحق . ولقد كان المعتدى فى بعض الأحيان يصبح عبدا للمعتدى عليه الى حين أو يظل كذلك طول حياته . فخدن الزوجة الرومانية كان يسلم الى الزوج الحنق يفعل به ما يشاء وكانت العقوبة قصاصا أى مقابلة الشىء بمثله .

والقصد منها جعل المسىء يتألم فى مقابل ما سبب لغيره من الآلام . ولقد كانت العقوبات على مدى الأيام التى سادت فيها سنة الانتقام هى الإعدام والتشويه والتعـذيب والجلد والاسترقاق . ولعمرى إن النفس لتوجل حتى من قراءة أخبار ما كانوا يوقعونه فى العصور الماضية من أنواع العقاب . فلقد كان الفكر الإنسانى يرهق نفسه غاية الإرهاق فى ابتكار أنواع التعذيب وابتداع الأساليب التى يتم بها موت المسىء فى أطول مدى مستطاع والتى يعذب بها المسكين الى أقصى حدود احتماله . فالصلب والهرس والإجلاس على الخازوق والسلخ والإحراق والنشر عرضا والإغلاء فى الزيت والوأد والتهشيم بالربط على العجلات الجارية والجلد بالسياط والتمزيق أربعة أشلاء والإجاعة ، كلها أمثلة من عقوباتهم . أما الذنوب الصغرى فكانت لها عقوبات أخف كالوشم والتشويه والجلد . وكانت نظريتهم فى ذلك أن الخـير لا يتأتى من إيقاع الألم بالناس عقـابا لهم على ما أساءوا بل من أن منظر ما يلاقونه من عذاب يمنع الآخرين من اجترام نفس الذنوب . ثم أخلت هذه النظرية مكانها للنظرية القائلة بأن هناك طبقة معينة من الناس للإجرام وأن من واجب المجتمع أن يقمعها أو يمحوها بقاء على أثرها العهد الذى سنتكلم عنه .

(٢) نظرية القمع :

لم تكن المدة التى سادت فيها نظرية القمع أقل وحشية وسفكا للدماء من سابقتها إلا فى أن القائمين بها لم يعدموا الناس بالقسوة التى كانوا يعدمونهم بها من قبل . ولاعتقاد الجمهور أن هناك طبقة مجرمة ولذعره من انتشار الجرائم أخذ على عاتقه تخليص المجتمع من المجرمين وجعل الإعدام عقوبة لكل الجرائم تقريبا . فكان الانجليز فى زمن من الأزمان يعاقبون بالإعدام على أكثر من مائتى جريمة . وجعله الفرنسيون عقابا لأكثر من مائة . ولقد فاخر قاضى فرنسى فى نانسى بأنه أحرق ما يزيد على ثمانمائة إنسان فى ست عشرة سنة . وشوه القاضى جفريز (Judge Jeffreys) سمعته بمثابرته على تنفيذ ما كان يراه واجبا عليه وهو إعدام كل إنسان يمكنه إعدامه . ولقد أعدم اثنان وسبعون ألفا من الأنفس بالشنق فى حكم هنرى الثامن وهو ثمان وثلاثون سنة . وأخيرا مل العالم إهراق الدماء بجعل النفى الى مستعمرات العقاب جزاء لجرائم كثيرة . وأنشئت لذلك مستعمرات فى كثير من أنحاء العالم ومنها أستراليا وولايات كارولينا وجورجيا . وظلت أمريكا تتلق عددا كبيرا من مجرمى أوربا حقبة طويلة من الزمن . وكذلك ألغيت عقوبة الوشم وبطل التعذيب .

ولكن هذه العقوبات لم تكن لتستقيم مع خطة القمع مع طول جريهم عليها قصد إرهاب الناس . ورأى الجمهور أخيرا أن مثل هاته العقوبات لم تقف الجرائم ، بل إنها على العكس زادتها . كما أنهم وجدوا أن القمع لم يمنع الجريمة ، بل كانت الدنيا تنبت من الجرائم أكثر مما تستطيع حصده من المجرمين ذلك أنه كلما كان ينفذ حكم الإعدام فى مجرم كانت الدنيا تخرج واحدا بدله ، بل وفى العادة أكثر من واحد ليحل محله . ذلك أن الملكية لم تكن موزعة توزيعا متناسبا . وكانت العدالة من حق القوى وحده والقوانين مسنونة من أجل الحكام والبؤس منتشرا فى كل مكان والرذيلة طاغية جامحة . فلا عجب اذا ازدهرت الجريمة . ومع كل هذا ظلت نظرية القمع سائدة الى زمن قريب جدا و إلى أيامنا هذه فى كثير من الأنحاء . نعم ربما لا نكون ميالين اليوم الى إعدام المجرمين كما كنا فى الماضى وأننا نؤثر زجهم فى السجون ولكن النظرية واحدة فى أكثر الأحيان . ولما كانت القسوة والقمع والإرهاب لا تمنع الإجرام فشلت هذه الوسيلة وأحلت مكانها لنظرية الإصلاح .

(٣) نظرية الإصلاح :

نظرية الإصلاح حديثة جدا إذ كان رواجها فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر . تغير الرأى شيئا فشيئا تغيرا جوهريا فلم نعد نجرى على مبدإ الانتقام من المجرم لقاء فعلته أو قمع الجريمة بإبادة الطبقة المجرمة . وبدلا من عد المجرم غير قابل للاصلاح أو أنه من فريق

لا يمكن التوفيق بينه وبين المجتمع وصلنا الى فكرة أن المجرم إنسان لا يكاد يختلف عن غيره من بنى البشر وأنه اذا ارتكب الجريمة فما ذلك لميول إجرامية فطرت عليها نفسه ، بل لأن تربيته كانت ناقصة أو أن بيئته تنطوى على عيوب . وهذه النظرية مؤسسة على ما كشف من أن أكثر الجرائم ناشئ عن البيئة . وبرسوخ هذه النظرية انقلبت معاملة المجرمين انقلابا جوهريا من ذات قساوة الى ذات عدالة وتقدير حال . ولقد أحدثت هذه الوجهة الجديدة من النظر إصلاحا كليا فى إدارة السجون وغيرها من الأوضاع التعزيرية الأخرى فصاروا يعلمون السجين فى السجن حرفة بدلا من قصر الأمر على تكليفه الأشغال الشاقة المميتة . وبدلا من أن تطلقه الحكومة فى الدنيا لينساب مرة أخرى فى تيار الجريمة عملت على إيجاد مرتزق له . وبدلا من استعمال الجلد وأمثاله من طرق التأديب القاسية اتبعت أساليب أخرى أكثر إنسانية . وأمكن بفضل ذلك ، أن تجرى الحكومة على سنن الإصلاح العصرى فى المعالجة مثل اتباع نظام الاختبار مع المجرم باطلاق سراحه ومراقبته وقبول تعهد الجانى على نفسه وعدم تحديد زمن العقوبة ، ومثل الطريقة المعروفة بنظام الشرف . ولقد اتضح أن الوسائل السابقة فى معاملة المجرمين كانت تزيد من شرهم وتقضى عليهم أن يحيوا حياة كلها إجرام . نعم ليس من الميسور إصلاح كل المجرمين ولكن ذلك ممكن فى كثيرين ولقد كانت نتائج الجرى على تلك الخطة دالة على صواب ما يبذل فى هذا السبيل من الجهد.

(٤) نظرية الوقاية :

أخذنا اليوم مع شعورنا بفضل الإصلاح ندرك أنه لا يصل بنا الى الغاية المنشودة وأن الغرض الجوهرى ليس إصلاحا ،ومن بعد دخولهم حياة الإجرام بل هو أن نحول بينهم وبين أن يدخلوا هذه الحياة . من أجل هذا أنشئت محكمة الأحداث وما انطوت عليه من نظام الاختبار والمراقبة قصد الحيلولة بين الأحداث وبين أن يصيروا مجرمين . على أنه يجب علينا فوق ذلك أن نجعل نصب أعيننا إصلاح الأحوال البيتية السيئة والأحوال الصناعية الناقصة والحكومات المعيبة والمحاكم الظالمة وأحوال المساكن المزدحمة — وبالإيجاز أن نداوى جميع أحوال المجتمع التى تولد الجريمة . تلك هى الطريقة الحالية فى معالجة الجريمة . ولكننا فى الواقع لم نصل بعد الى هذا الطور وإن كنا قد أخذنا نتجه الاتجاه الصحيح . ولا بد طبعا من أن يقرن هذا بمعالجة المجرمين المنبثين فى المجتمع .

أنواع السجون المختلفة :

لم تكن سجون الأقدمين للعقاب ، بل كانت للحفظ والصيانة إذ كانت فى العادة جبابا فى غرف تحت الأرض من القصور أو الحصون والقلاع أو فى مكان سحيق موحش أو منأى لا يتيسر الوصول اليه . وكانوا يحبسون السجين فى تلك الجباب حتى يحاكم أو يدفع

قذية أو لمجرد أن يبعدوه عن العين أو ليذبذوه . وكانت هذه الأماكن معتمة موحشة موبوءة في كثير من الأحيان . وكان السجناء يقيدون بالسلاسل أو يوثقون الى الجدران أو الصخور أو قضبان الحديد . وكانوا يعطون أسوأ الطعام على إقلال منه . وكانوا فى كثير من الأحيان يتركون ليموتوا جوعا أو ليعيشوا عدة سنوات فى موت يدب اليهم بطىء الخطا . ولم يحكموا على المدينين بالسجن مددا معينة . إذ الواقع أن الحكم بالسجن قصد العقاب به أمر لم يحدث إلا منذ عهد قريب . أما سجون العصور الوسطى فكانت أهون قليلا منها فى العصور القديمة وكان غالبها فى قلاع الأشراف . وكان القصد منها حبس أعدائهم الشخصيين. وعند ما تولت الحكومة أمر السجون كانت السجون بمثابة أماكن للاهمال يكون السجين فيها أقرب الى الموت بسبب المرض والقذر منه الى الحياة حتى يرى نهاية مدة سجنه . أما سجون العصور الحديثة فهى مبنيــة ومدارة على ثلاث خطط مرسومة تـكاد تكون محدودة وتعرف باسم بنسلفانيا وأوبرن وألميرا وقد سميت كذلك تبعا للسجون الأولى التى أنشئت من نوعهــا فى الولايات المتحدة :

(١) نموذج بنسلفانيا :

نمــوذج بنسلفــانيا مبنى على قاعدة الحجــرة الفردية . فكل شخص يعيش فى حجرة خاصة ويأكل فيها وينام ويشتغل . وأول تجربة لهذا النموذج كانت فى انجلترا سنة ١٧٨٥ ثم اقتبس فى الولايات المتحدة الأمريكية فى فيلادلفيــا سنة ١٧٩٠ واقتبسته جهات أخرى ولكنه لم ينتشر فى الولايات المتحدة ، وسرعان ما أهمل . هــذا النوع له مزايا منهــا : (١) سهولة إدارة السجن لقلة الحاجة فيه الى الضبط . (٢) كون المسجونين لا يختالطون، فهم عند إطلاق سراحهم لا يعرف أحدهم الآخر . هم أقل عرضة للإغراء بارتــكاب جرائم جديدة . (٣) لمــا كان السجين فى هــذا المكان المنعزل فرصة أوفى للتفكير كانت هنــاك فرصة أوفق للإصلاح. ولكن ما يدلى به من الاعتراضات يربى ويزيد على هذه المزايا الطيبة. فمن هذه الاعتراضات: (١) أن للعزلة تأثيرا فكريا سيئا فى العقل والجسم . (٢) أن العزلة غير تامة بسبب زيارة الموظفين ، على مختلف درجاتهم ، ومنهم من هــو مريب الخلق . أضف الى ذلك أن تبادل الإشارات يقضى على كل عزلة . (٣) أنه من المحال أن يتخلص المسجونون من أفكارهم وهى فى أكثر الأحيــان أعدى أعدائهم . (٤) إن التعليم يكون أصعب كثيرا فى هذه الحالة لأنه لا توجد فصول للتدريس. (٥) مراقبة العمل الذى يقوم به كل مسجون على حدة تكون أصعب كثيرا وكذلك إيجاد عمل لهم جميعا .

(٢) نموذج أوبرن :

ويسمى باسم سجن أوبرن المؤسس فى نيويورك سنة ١٧١٦ — هناك كان المسجونون يلزمون اتبــاع السكوت التام ،ولكنهم كانوا يشتغلون جماعة أو فى طوائف كبيرة . وكان

النظام قاسيا ودقيقا . وقد اقتبست هذه الخطة بوجه عام فى جميع الولايات المتحدة . ولا تزال تتبع الى حد ما وإن أخلت مكانها الى حد كبير لنظام الألميرا الذى هو خليط من النوعين السابقين .

(٣) نموذج الميرا :

ويسمى باسم إصلاحية الميرا بنيويورك التى أنشئت فى سنة ١٨٣٦ ولقد حاز هذا النوع شهرته هنا برغم أن كثيرا مما انطوى عليه من الأفكار سبقت تجربته فى بلاد أخرى وبخاصة ذلك فى أستراليا . ومدار العمل فيه على منح درجات ورتب للمسجونين وقبول تعهدهم على أنفسهم فى أحكام الحبس غير المقيد بميعاد . والقصد من استعمال الدرجات والرتب معرفة الزمن الذى يكون فيه السجين أهلا لقبول كلمة الشرف منه ، فهى ، والحالة هذه ، وسيلة للإثابة أو المعاقبة . وهم يعلمون نزلاء هذه السجون فى العادة حرفة ويعطونهم شيئا من التعليم والتربية البدنية . والنظام ، على عدم القسوة فيه ، أشد تقاضيا والزاما وأقل تسامحا من نظام السجن العادى . فهو لهذا السبب مكروه من أسوأ الرجال . والإصلاح هو حجر الأساس فى هذه السجون اذ أن غايتها إعداد السجين للحياة حتى يصبح أقدر على الكفاح فى معترك العيش . ويطبق هذا النظام بصفة خاصة على صغار السن من المسجونين . ولكن لهذا النظام عيوبا منها أنه يفتح أبوابا للرشوة والفساد بين موظفى السجون وأنه فى كثير من الأحيان يعطى السجان سلطة أوسع مما هو أهل لاستعماله . ولكن هذا العيب يرجع الى سوء اختيار الموظفين أكثر من رجوعه الى النظام نفسه . ولقد جروا على هذه الخطة وطبقوها تطبيقا كليا أو جزئيا فى أكثر الولايات ومنها ماساشوسيت وبنسلفانيا وأوهايو ومتشيجان والينواز وميتوسوتا وكنساس وداكوتا الجنوبية . وهذه الخطة هى المقبولة الآن إذ أنها تتيح للمجرم الذى ارعوى حقا وأصبح أهلا للاشتراك فى المجتمع ، فرصة مغادرة السجن . ويوم تقرن هذه الخطة بنظام السجن غير المقيد بميعاد ونظام التعهد يكون نجاحها عظيما . ومن شأن هذه الخطة أنها تلزمنا دراسة كل مجرم على حدة وتقدير ما يجب له من المعاملة الخاصة الكفيلة بقبله العدل .

على أن نظم السجون الأمريكية لم تبلغ من النجاح درجة أمثالها فى بعض البلاد الأخرى . فنظام السجن عندنا إما شديد الى حد القسوة وإما رخو الى حد الضعف . وإنما كان هذا بسبب أن مأمورى السجون كانوا عادة موظفين عينتهم الأحزاب السياسية ممن لا يصلحون لوظائفهم . ولقد كانت سجوننا فى الماضى أشبه بزوايا من الجحيم حقا وكانت متابان أى سجون (Penitenxitries) ولايات ميسورى وأوهايو وتكساس وجورجيا وتنسى أشهر مثال لما يجب أن لا يكون . وكانت السجون بمثابة منشآت صناعية عظيمة يديرها متعهدون لما وجدوا فى هذه الطريقة من الفائدة الكبيرة . ولم يكن يهم الحكومة من الأمر إلا أن تكون السجون موردا للكسب لها . وكان المورد المالى فى نظرها مقياسا لنجاح أى نظام

من نظم السجون ولم يكونوا يعملون فى تلك السجون على تربية خلة ضبط النفس فى السجناء فلم يكن السجن يصلح المسجون بل كان يرده الى العالم وهو أشد عداء للمجتمع منه عند دخوله. ولكن حدث تغير فى السنين الأخيرة فقد أخذت سجوننا الكبرى تجرب وسائل أخرى فنصب عينها اليوم إصلاح المجرم لا عقابه . واليوم ينتخبون ولاة السجون لكفايتهم لا لمذاهبهم السياسية . وترى الكثيرين من ذوى القدرة يقبلون الانتظام فى سلك هذه الوظائف .

العمل فى السجون :

كان إيجاد عمل للسجناء الى حد ما مشكلة من المشاكل ، بيد أن الطرق التى اتبعت عادة هى الآتية :

(١) طريقة المقاولة : أى تأجير عمل المسجونين لمقاول يأتى الى السجن لينشئ فيه صناعة ويدفع للحكومة فى مقابل ذلك عادة مبلغا أو قدرا معينا عن كل سجين ثم يشغل المسجونين بقدر ما يستطيع من الإرهاق من غير أن يدفع لهم شيئا . وربما دفع لهم شيئا قليلا عن العمل الإضافى . والخطأ فى هذه الطريقة أنها تجعل النظام فى يد أشخاص عاديين لا يأبهون لغير المكسب ، ولا يهتمون أقل اهتمام بإصلاح السجين . فما معيار السلوك فيها إلا قيام المسجون (أو المسجونة) بالقدر المطلوب منه من العمل . وهى من الوجهة المالية مفيدة عادة للحكومة كما أنها تعفى الحكومة من نفقات شراء الآلات وتأسيس المصنع وتخلى الحراس من قدر كبير من المسئولية . وقد عم استعمال هذه الطريقة يوما ما أكثر سجوننا ، ولكنهم أخذوا يهملونها الآن. وإذ أنها تمنح بعض أرباب الأعمال ميزة تشغيل عمال رخيصى الأجور فقد عارضها أرباب الأعمال الآخرون وجماعات العمال المنظمة ، بصفة خاصة . وستصبح فى القريب من آثار الماضى .

(٢) طريقة الإجارة : أى تأجير السجناء الى مقاولين متعاقدين يأخذونهم من السجون ويتولون أمرهم فى كل شىء : فى عملهم وطعامهم وكسائهم وإيوائهم . ولقد أدى هذا الأمر عادة الى وحشية بالغة ذلك لأنهم يشغلون السجناء الى آخر حدود الاحتمال ، وأحيانا الى حد الموت ، ويطعمونهم أرخص الطعام وأسوأه ويئولونهم حظائر قذرة ونخرة ويعيدونهم معا فى أثناء الليل ويربطونهم فى كثير من الأحيان الى كرة بالنهار تحت مراقبة رجال مسلحين بالبنادق تعاونهم الكلاب . ومعاملة السجناء على هذه الطريقة فى كثير من الأحوال وحشية مفسدة للخلق الى أقصى حد ؛ بل من الصعب أن يعلل الإنسان كيف أن بلادا كالولايات

المتحدة تستعمل هذه الطريقة . ومع هذا قد استعملتها غالبية ولاياتنا الجنوبية ومنها جورجيا وتنسى وألاباما ومسيسبي وتكساس وفلوريدا . بل لقد ظلت معمولا بها فى الولاية الأخيرة حتى سنة ١٩١٦ . والطريقة كلها خطأ فى خطأ ، فانها لا تقتصر على إعطاء الأفراد حق التصرف فى السجناء والسيطرة عليهم بل إنها تعطيهم كذلك حق التصرف فى أرواحهم نفسها ولا يعرف المؤلف حجة يدلى بها أحد فى جانب هذه الطريقة الوحشية الحمقاء .

(٣) طريقة أجر القطعة : وبها تبذل الحكومة قدرا معينا من المال لكل قطعة من العمل يقوم بها السجين . وهى طريقة تستلزم فى كثير من الأحيان نظاما دقيقا محكما للتدوين فى الدفاتر فهى لهذا عسيرة التنفيذ . ولكنها تفضل الطريقتين السالفتى الذكر فضلا كبيرا لأنها تتيح للسجين فرصة معونة أسرته فى داره أو ادخار شىء من النقود . وهم فى كثير من الأحيان يقرنون هذه الطريقة بإحدى الطريقتين اللتين سنذكرهما فيصاحبهما النجاح

(٤) طريقة الحساب العمومى : وبها تقيم الحكومة المصنع أو تتولى الصناعة . وهذا يحتاج الى آلات كثيرة وأموال طائلة . وهى لهذا تتطلب مقدرة فنية للقيام بالعمل . ولكن من شأن هذا النظام أن يتمكن الحراس به من وضع نظام ثابت لإدارة السجون . على أن السلع الناتجة من هذه السجون تباع عادة فى الأسواق العامة وتنافس مصنوعات العمال الأحرار . كما أن فى الطريقة خطرا إذ من شأنها أن تمهد السبيل للرشوة والفضائح المترتبة على عدم مقدرة ولاة السجون على القيام بإدارة مثل هاته الصناعة . وقد استعملت هذه الطريقة مقرونة الى طريقة أجر القطعة السالفة الذكر فأصابت نجاحا باهرا فى سجن ولاية متشيجان بجاكسون ، ومع ذلك لا تعد طريقة عملية كطريقة المنفعة العامة الآتية .

(٥) طريقة المنفعة العامة : أى صناعة الأشياء أو الحاجات التى تستعملها الحكومة فى مختلف معاهدها وبذلك تستريح من ضرورة الالتجاء إلى السوق لمشترى هذه الحاجات الضرورية لها وتبتعد عن عرض مصنوعات السجن للبيع فى الأسواق العامة . ولا شك ان هذا يصون أموال الحكومة ويمكن ولاة السجن من وضع الخطط الكفيلة بإدارة السجون . هذا إلى أن لهذه الطريقة أثرا نفسانيا صالحا فى المسجونين إذ يشعرهم أنهم فى صدد عمل كريم لأنهم يشتغلون للنفع العام لا لمقاول خاص يعمل على الشراء من كدهم . وقد لاحظ الكاتب هذا المظهر خاصة فى سجن برايد ول (Bridewell) بشيكاغو فى صناعة الخبز لفنادق البلدية .

بعض الطرق الحديثة فى معالجة الاجرام

محاكم الأحداث :

محاكم الأحداث حديثة العهد فأول واحدة من نوعها افتتحت فى بوسطون سنة ١٨٩٨ وحذت شيكاغو حذو بوسطون فى سنة ١٨٩٩ . ودنفر (Denver) فى سنة ١٩٠١ ثم انتشرت الفكرة سريعا ولا سيما على أثر الترويج الذى قام به القاضى بن. ب. لندسى (Ben. B. Lindsey) قاضى محكمة الأحداث فى دنفر . وهى طريقة فى الإجراءات الجنائية يهتدى فيها العالم بالولايات المتحدة . وقد نشأت من الاعتقاد بأن الطفل الذى يرتكب مخالفة القانون ويعتقل ويعامل معاملة المجرمين البالغين إنما يعامل معاملة غير عادلة وأنها لا تصلحه بل تفسده . وقد تبين صدق هذا النظر بوجه خاص فى الأحوال التى كان يلقى بالصبى فيهـا الى السجن العادى بين المجرمين الراسخين فى الإجرام . ولذلك أحدثوا نوعا جديدا من الاجراءات القانونية ، فبدلا من اتباع طريقة المحاكم العادية صار القاضى يسمع القضية عادة فى حجرته بطريقة أقل إرهابا من طريقة محكمة الجنايات . وبدلا من حضور المحامين ونداء الشهود على الطريقة المعتادة يأتون بالحدث أمام القاضى فيحادثه هذا محادثة ودية ويسمع الشهود إذا أنكر الحدث التهمة . فان كانت أول حادثة له فانه لا يحكم عليه بل يضعه تحت الاختبار ويشرف عليـه موظف يناط به ذلك ، يزوره ويعاود الزيارة فى فترات معينة . وعلى هـذا الموظف أن يقابل القاضى بانتظـام فى صبيحة كل سبت عادة ويحضر معه فى هذه الزيارات تقريرا من معلم المدرسة التى فيها الحـدث . فاذا كانت هذه التقارير حسنة وكانت تقارير موظف الاختبار تفيد أن الحدث سائر سيرا حميدا أطلق سراح الحدث فى نهاية المدة المعينة وهى فى العادة من ستة أسابيع إلى ستة أشهر .

وتحتاج هذه الطريقة الى طائفة ذات كفاية من موظفى الاختبـار يكون بعضها من النساء كى يتناولوا مسائل البنات المجرمات وصغار المجرمين . وتستلزم كذلك منزلا للحجز تفاديا من إرسال الأحداث الى السجن . وفى العادة لايحتاج القاضى الى أن يصرف كل وقته لقضايا الأحداث إلا فى المدن الكبيرة ، فهو لهـذا لا يعدّ لها فى كثير من الأحيان إلا يوما واحدا فى الأسبوع ويسمع القضايا العادية فى الأيام الأخرى . وتتناول محكمة الأحداث بحث أحوال القصر مثلما تتناول مسائل المجرمين منهم . وكثيرا ما تدعو الوالدين الى المحكمة اذا كانت تقع عليهم تبعـة إجرام الطفل ، أو اذا كانوا يقصرون فى العناية به على الوجه اللائق . وتستدعى كذلك غير هؤلاء ممن يكون لهم يد فى وقوع جريمة الحدث فتؤنبهم أو تعاقبهم بما يجب .

هذا النظام برمته يتناول المشكلة من طريقها الصحيح ويعمل على منع الجريمة بوقف الحدث قبل إزماعه السير فى طريق حياة الإجرام . فاذا لم ينجح الاختبار أرسل الحدث الى

مدرسة إصلاحية يبقى فيها اذا لزم الأمر حتى يصل الى سن الحادية والعشرين. وما قبل إنشاء محاكم الأحداث فى الولايات المتحدة نرسل الى السجن العادى فى الولايات المتحدة خمسة آلاف حدث كل عام . وبذلك كنا نزيد عدة المجرمين بقدر هـذا العدد تقريبا .
وفى سنة ١٩٠١ كان لدينا خمس وستون إصلاحية نزلها الى ذلك العهد ٢١٠٩٩٩ حدثا .
وقد لمست محاكم الأحداث بعملها الوقائى وتر التلبية من الجمهور الأمريكى فروّجته الصحافة والمنابر ومنصات الخطابة . وكانت النتائج باهرة رائعة حتى لقد انتشرت هذه المحاكم بفضلها فى جميع أنحاء الولايات المتحدة . وتكاد كل مدينة من مدننا تحوى محاكم للأحداث على شكل ما وتعمل عملها بنجاح تختلف درجاته باختلاف البلاد . على أنا فى بعض الجهات نذهب الى طرف النقيض من الأمر ونتساهل كل التساهل إذ نضع عددا تحت الاختبار أكثر مما يلزم دون أن نعد لهم ما يحتاج أمرهم اليه من موظفى المراقبة الصالحين أو أن نهيئ لهم وسائل الإصلاح المدرسى للعناية بمن يقضون عهـد الاختبـار أو يعودون الى حظيرة الإجرام. ولا مشاحة فى أن نتيجة هذا النقص أن الأطفال يفقدون خلة احترام القانون. على أن هذا ليس عيبا فى الطريقة نفسها ، بل فى وسائل تنفيذها . فانه لا شك أن هذه الخطة تحتاج الى قضاة وموظفين ذوى كفاية خاصة لتناول الأحداث على الوجه الصحيح . ولم تقف محاكم الأحداث عند ما بلغته من تمـام النجاح فى معالجة جرائم الأحداث وفى حماية البلاد من آلاف ممن كان يحتمل أن يكونوا مجرمين فى المستقبل ، ومما كان يترتب على ذلك من نفقات لا نهاية لها ، بل إنها كذلك قدمت لنـا وسيلة نعامل بهـا الكبار من المجرمين .

الحكم مع وقف التنفيذ والحكم غير المقيد بزمن ، ونظام الاختبار ، ونظام التعهد :

يعالج المجرمون البالغون الآن أيضا بوسائل الحكم مع وقف التنفيـذ والحكم غير المقيد بزمن وكذلك بنظام الاختبار وبالتعهد . نعم إن هذه الطرق منفصل بعضها عن بعض ولكن من الممكن تناولها معا لأنهـا تتراكب إذ تقوم بتحقيق غرض واحد ، هو إعادة المجرم الى المجتمع . فالحكم مع إيقاف التنفيذ هو حكم لا ينفذ ما دام المجرم حسن السلوك . وهو من الوجهة النظرية فكرة رائعة بالغة اذا طبقت تطبيقا صحيحا على الشبان والمذنبين لأول مرة الذين يعرفهم القضاة . لكنه أسيء استعمالها فى بعض الجهات لتساهل القضاة إذ طبقوها على جميع المجرمين لا على المذنب الاستثنائى فقط . وهذا يصدق بصفة خاصة على تكساس . ولكن ليس لنا أن نعيب القانون بسبب عدم كفاية القضاة . ونعنى بالحكم غير المقيد بزمن ، الحكم على المتهم المدان بالسجن زمنا غير محدود بعدد معين من السنين كخمس أو ثمان مثلا. ونحن فى الولايات المتحدة نعين فى العادة حدا أقصى وآخر أدنى وتوجد اليوم نزعة الى نقص الحد

الأقصى وإزالة الحد الأدنى. وهذا يترك مسألة مدى الحكم لجنة وهي في العادة "لجنة التعهد". وهذه اللجنة تتألف عادة من مأمور السجن ومعه، في بعض الأحيان، القاضي الذي أصدر الحكم، ومن طبيب السجن أو قسيسه ومختص أو أشخاص من الخارج ممن لا مصلحة لهم. وهؤلاء يقررون الزمن الذي يطلق فيه سراح السجين. ولا تهتدي اللجان في قراراتها بنوع الجريمة التي اجترمها السجين بقدر ما تهتدي بسلوك السجين وما يبدو لها من دلائل صلاحه وإطاعته للقانون. فهم يرعون المستقبل، أي الأثر الذي يحدث للمجتمع وللسجين معا.

ويلحق عادة بالحكم غير المقيد بزمن، رغبة في انجاحه، ما سمياه التعهد (Parole) وهو إطلاق سراح السجين كي يؤدي المدة الباقية من سجنه خارج جدران السجن. ويطلب إليه عادة أن يبلغ عن نفسه في فترات معينة ويزوره أحد موظفي التعهد. ولا بد قبل إطلاق سراحه على أساس التعهد من إيجاد شغل له. وقرابة ثلاثة أرباع ولاياتنا لديها اليوم قوانين الحكم غير المقيد بزمن مشفوعة بنظام التعهد المذكور. ومنها ما يسمح به في أمثال جرائم القتل بعد قضاء السجين عشرة أعوام أو خمسة عشر في السجن. ثم إن في المسجونين من ينقضون عهدهم ولكن الغالبية منهم، أي خمسة وسبعين الى خمسة وثمانين في المائة منهم، يرعونه رعاية صادقة ولا يعودون يتعبون الحكومة بعد ذلك أبدا. ونصف أو ثلثا من يخلفون كلمة تعهدهم يقبض عليهم فيما بعد ويردون الى السجن لتشغيلهم إلى الحد الأقصى لحكم الصادر عليهم. وهؤلاء عادة هم المجرمون بالعادة الذين يعملون وهم في السجن على أن يكونوا مثالا في حسن السلوك كيما يخرجوا قبل الميعاد. وبالجملة أن الخطة ناجحة جدا وقد أخذ نطاق العمل بها يتسع كثيرا.

نظام الاختبار:

أما نظام الاختبار (Probation) فانه يختلف قليلا عما سبق. ذلك أنهم بدلا من إطلاق السجين قبل انتهاء مدته لا يرسلون المجرمين الى السجن بتاتا، بل العادة أن يصدر الحكم بحبسهم ثم يطلق سراحهم على الفور بشرط حسن السلوك. وليس هذا إلا توسعا في تطبيق نظام الاختبار الذي نشأ عن تجربته في محاكم الأحداث. ويستعمل في غالب الأحيان مع المجرمين لأول مرة ومع الذين يرتكبون جرائم صغيرة. واذا كان تنفيذه على يد جماعة منظمة من موظفي الاختبار نجح في كثير من الأحوال وأثمر على شريطة أن يستعمل القضاة الحكمة في منحه. ولكن كثيرا ما يستغله المجرم الراسخ في الإجرام مدعيا أن جريمته أول حادثة. فان كانت حقا أول حادثة له في تلك المحكمة أو تلك المدينة فانه في كثير من الأحيان يبغيته وأفلت من يد العدالة. فنظام الاختبار من هذه الوجهة لا يعد ناجحا نجاح التعهد لأنه لا يعطي القاضي فرصة الفحص التي يعطيها نظام التعهد، إذ يوجد وقت في نظام التعهد للبحث والتحقق من أن المجرم غير مطلوب في جهات أخرى لجرائم اقترفها هناك. أما في نظام الاختبار فهذه

الفرصة غير موجودة . والقضاة فى كثير من الأحيان مشغولون شغلا كثيرا لا يسمح لهم بالبحث عن جميع الحقائق أو هم غير أهل لإصدار الأحكام الصحيحة . نعم إن استعمال نظام الاختبار للبالغين مع التبصر والحكمة أمر طيب الى درجة عالية ولكن بشرط أن يظاهره عدد كاف من موظفى الاختبار وإلا انقلب الحال فأصبح مهزلة. هذا، وكثيرا جدا ما يلتبس نظام الاختبار بنظام التعهد فى عقول الجمهور فيعزون الى نظام التعهد كل أخطاء نظام الاختبار [١]

نظام الشرف : يختلف نظام الشرف عن النظم السابقة فى أنه يسمح للسجين أن يغادر السجن تحت تعهد منه ألا يحاول الهرب ويعود فى وقت معين . وقد جرب هذا لأول مرة فى أوريجون منذ بضع سنين . فهناك ألغى الحاكم العقود التى سبق عقدها مستعينا على الإلغاء بما تضمنته نصوص العقود من مواضعات اصطلاحية ولكنه لاقى بعد ذلك صعوبة فى إعداد عمل للسجونين ولذا عمد الى تجربة أن يجد لهم عملا فى خارج السجن .

ولقد ثبت فضل هذا المشروع ونجح حتى اقتبسته الولايات الأخرى . والآن نرى من السبعمائة والألف مجرم المزجوجين فى سجن أوهايو ما يقرب من ثلثمائة يشتغلون خارج أسواره ومنهم من يشتغل على بعد أربعين ميلا من السجن ، ومنهم كثيرون يشتغلون تحت إشراف ملاحظين من المسجونين أنفسهم.ومن الثلثمائة والثمانية عشر الأولين نقض ثمانية عشر كلمتهم ولكن أعيد منهم تسعة الى السجن . ومن بين الألف أو ما يقاربه من المسجونين فى جاكسون بميتشيجان مائتان يشتغلون باستمرار بعهد الشرف فى مزرعة السجن وهى على مدى بضعة أميال منه . ويسمح بهذا الامتياز لما يقرب من نصف عددهم جميعا فى أوقات مختلفة . والذين ينقضون العهد أقل عددا من الذين يهربون من فوق جدران السجون بالرغم من الحراس . والواقع أن قاطعى العهد يرون من العار الشائن أن يحاول أحد منهم التسلل . وهذا أبين ما يكون فى كولورادو حيث يشتغل خمسة وستون فى المائة من الرجال فى رصف الطرق . على أنهم هناك لا يسمحون إلا لذوى الصحف النقية، الذين يكونون قد قضوا جزءا كبيرا من مدة سجنهم فاستحقوا المعاملة بنظام التعهد ، أن يغادروا جدران السجن . واذ أن خطر القبض عليهم وإعادتهم الى السجن ليقضوا به مدة أطول هو أعظم من مجرد قضائهم المدة الباقية من الحكم، فليس هناك فى الواقع ما يغريهم بنقض العهد . وإذ أن العمل الخارجى يفضل كثيرا العمل الداخلى فان المسجونين يحرصون على مراقبة بعضهم بعضا وبذلك يمنعون

---

(١) فى ولاية نيو [illegible] ١٩٦٣٧ أطلق سراح [illegible] شخصا تحت الاختبار قضى ٧٩٫٦ فى المائة منهم مدة الاختبار [illegible] على ٢٫١ فى المائة منهم لنقضهم شروط الاختبار أو لاقترافهم جرائم أخرى [illegible] .

حوادث الهرب . وأثر إخراج المسجونين الى الخلاء صالح فى أجسامهم والأثر الخلقى أصلح لأن هذا النظام يولیهم قسطا أكبر من الثقة بأنفسهم إذ أنهم يحسون أنهم مأمونو الجانب . وهو يهيئ لهم قدرا أكبر من ضبط النفس ويجعلهم بذلك أصلح للحلول فى مراكزهم من المجتمع بعد إطلاقهم . ويسمح لهم عادة بامتيازات خاصة مثل محادثة الناس وتدخين التبغ ولبس الملابس العادية وبذلك يزداد إحساس السجين بأنه مثل غيره من الرجال .

ولم يحاول أى سجن، عدا سجن واحد فى ڤرمونت (Vermont) ، أن يجعل كل مسجونيه تحت حكم كلمة "الشرف" إذ أن هـذا امتياز يمنح . فقد سمح سجن ڤرمونت لمسجونيه أن أن يخرجوا ليشتغلوا فى المزارع بريالين فى اليوم أحدهما يحتفظ به السجين لنفسه . ولقد وجد أن المجرم المعضل الذى اعتاد طرق المعاملة الخشنة القديمة من الضرب إلى السلك فى السلاسل إلى التأديب بالماء إلى تقييد الأرجل إلى تطبيق نظام الأشرطة عليه يجيب داعى هذا النظام مسرعا و ينضوى تحته بلذته عليه . ولقـد جرب مظهر جديد من نظام الشرف — وهو فى الواقع شكل راق جدا من أشكاله — فى سنج سنج (Sing Sing) على يد مأمور السجن أوز برن (Osbrone) إذ أقام فى السجن نظاما من الحكم الذاتى بمقتضاه يقرر المسجونون بلجان منهم — ما يجب من العقوبة على من يخالف قوانين السجن . ولقد أنجح أوز برن هذا النظام بفضل شخصيته إنجاحا جعل سنج سنج بسرعة نموذجا لسجون الولايات المتحدة بعـد أن كان أسوأها إدارة . بل الواقع أن نجاح هذه الخطة كان من التفوق بحيث ألزم على عجل أن يستقيل . ومع ذلك استمر العمل على هذا المنوال إذ أن أوز برن قد أدخل بهذا طريقة مؤذنة بانقلاب فى طرق معالجتنا للسجون . وطريقة الشرف هذه حديثة كل الحداثة ولكنها آخذة فى الذيوع بسرعة بالغة . وهم اليوم يجربونها فى انديانا مع مسجونى هذه المقاطعةفى بيوت الأشغال المتحدة فى المقاطعة أوالمركز أوفى مزارع السجون المخصصة بذوى الجرائم الصغرى .

والواقع أن طريقة معالجة المجرمين برمتها قد تغيرت تغيرا كبيرا . فقد زالت منهـا فكرة الاقتصاص والفكرة القائلة بضرورة جعل معاملة المجرم قاسية خشنة وجعل حياته كلها متعبة ومضجرة بقدر المستطاع . فقـد أحلت الآن مكانها الفكرة القائلة بأنه مع وجوب جعل المعاملة حازمة دقيقة فى تنفيذ النظام — يجب فى الوقت نفسه أن تكون منطوية على روح الإنسانية ويجب أن يكون الغرض هو إصلاح المجرم ما تيسر هذا . فإذا لم يتيسر فالواجب حماية المجتمع منه بحجز المجرم فى مكان يعامل فيه بالرأفة على أن يكون حجزه فى مكان يستطيع فيه على الأقل أن يسد نفقة عائلته . أما النظرية القائلة بأن المجرم شخص ليس فى مكنته أن يستفيد من المعاملة بروح الرفق والعدل فقد تبددت اليوم وزالت .

سجن المقاطعة :

من المسائل التى أهملت فى الماضى إهمالا عجزنا سجن المقاطعة . وربما كانت الحاجة إلى العناية به اليوم أشد من الحاجة إلى أى شىء آخر، فان سجن المقاطعة العادى بناء يكون فى كثير من الأحيان حقيرا فاسدا وخطرا على صحة المسجونين . أضف إلى ذلك أنهم يستعملونه لكل غرض فيجعلون منه محجزه لمن هم تحت المحاكمة ومأوى للشاردين ولمن يريدون قضاء ليلة سواء أكانوا من الشرفاء الجديرين بالرعاية أم كانوا غير ذلك . وكثيرا ما ينفذون فيه الأحكام ولاسيما فيما يختص بالجرائم الصغرى . وهم عادة فى هذا السجن لايقدمون للسجين شغلا بل هو يعيش فى كسل عالة على الدولة متعرضا بهذا لفساد الصحة . هناك يحتشد مختلف الطبقات فى صعيد واحد من الأولاد الى المجرمين المعضلين الى المذنبين لأول مرة الى العائدين ، وهى نفس المشكلة التى لاحظناها فى بيوت الصدقات . على أن هناك حركة قائمة فى بعض الولايات ترمى الى توحيد سجون المقاطعات وتوجيه القضاة الى الحكم على أصحاب المدد القصيرة من الجناة بقضائها فى مستعمرات زراعية يتيسر إيجاد عمل فيها للجميع ويمكنهم فيها استعمال وسائل الإصلاح الصحيحة مثل نظام الشرف . وهم اليوم يجرون على هذه الطريقة فى أنديانا فيلقون نجاحا رائعا . وستنسج بقية الولايات على منوالها حتما . وببناء البلديات منازل صالحة للإقامة يكون فيها عمل للنازلين سينشر تناول مسألة الاشتراد تناولا صحيحا . أما فى الماضى فقد كان الشريد اذا احتاج الى حجرة صالحة يقضى فيها الشتاء أخذ يبحث لنفسه عن سجن يرتضيه ويرتكب فى المقاطعة جريمة هينة ليلزم المقاطعة إيواءه والنفقة عليه حتى يحين الربيع . ولو أنه كان يعلم أن عليه أن يشتغل شغلا شاقا فى محلة زراعية فى الشتاء لما كان يقدم على ارتكاب جريمة .

السجون المنفصلة للنساء :

السجونات مشكلة خاصة بين سببها فى بعض الأمر قلة عددهن . ففى معظم السجون يكون للنساء عنابر خاصة يلقين فيها نفس المعاملة التى يلقاها الرجال تقريبا . وهناك يقدم اليهن من الأعمال ما يليق بهن وبخاصة أعمال الغسيل والتصليح . وهناك ولايات قليلة ومنها نيويورك وأنديانا لديها سجون وإصلاحيات خاصة بالنساء ومنها إصلاحية بدفورد بنيويورك التى اشتهرت بما تصيب من النجاح فى استصلاح النساء . والمشكلة أصعب بكثير فى جهات الريف حيث المسجونات من النساء من القلة بدرجة يكون معها من الإسراف بناء مبان منفصلة لهن . فإذا ما قبض على امرأة حاروا فيما يفعلونه بها . وكثيرا ما يضطر حاكم المقاطعة أن يستبقيها فى منزله الخاص .

خطط أخرى :

يقومون الآن فى نيويورك وبوسطون بتجربة تستدعى النظر، ذلك أنهم يسمحون للمحكوم عليهم بغرامة أن يدفعوها منجمة (مقسطة) . فإن نجحت هذه الخطة هناك فإن من المحتمل أن يجربوها فى جهات أخرى . وهناك اقتراحات يقدمونها فى كثير من الأحيان مؤداها السماح للشخص الذى يسرق أو ينزل بغيره أضرارا أن يعوض الطرف الواقع عليه الأذى أو إجبار المجرم أن يدفع قيمة الضرر الذى يحدثه . نعم إن هذه الاقتراحات صعبة التنفيذ إلا أنها مهمة جدا . فإن كانت هذه الخطة تلزم الجانى أن يعوض المجنى عليه مما يحصله من أجرة وهو فى السجن فربما تجاوزت حد المعقول . وهناك اقتراحات لاينقطع سيلها القصد منها استبدال عقوبة الحبس . ومن هذه الاقتراحات كثير ثبت فضله كالاختبار والتعهد وكلمة الشرف ولا يبعد أن يظفر غير ذلك من الاقتراحات بالإقرار والموافقة .

موقف العلم حيال الجريمة :

الغرض الأساسى من العلم الجنائى يجب أن يكون المنع — منع خلق مجرمين جدد طوعا لاحوال البيئة . ومنع نشوئهم تبعا للأحوال الصناعية والحكومية والاقتصادية والاجتماعية السيئة، وإزالة أسباب الغواية بإيجاد حكومة صالحة حسنة التنظيم وقوانين تتولى تنفيذها قوة صالحة من الشرطة، وبوجود محاكم تنيل قاصدها العدالة، وإحداث أحوال اقتصادية تتيح للإنسان أن يكسب أجرا يكفى معاشــه ، وبتعليم جماهير العامة تعليما يكفل إعدادهم للحيـاة ويمكن كل إنسان بفضل هذا من أن يعيش فى درجة أرقى ويحتفظ فى حياته بمستوى أعلى . وعلينـا أن نصلح الأوضاع الاجتماعية السيئة التى تعوق الفرد . وعلينـا أن نصلح الأحوال فى الأسرة . ويمكن أن يفعل ذلك على يد الزائرات الصحيات وبإقصاء النساء والأطفال عن دور الصناعة حيث تضطرهم الحالة الى الدخول طلبا للقوت . ويجب أن نقيم للناس ملاهى مباحة بدلا من الحانات وقاعات المقامرة وأبهـاء الرقص والمسرح التمثيلى المنحط . على أن هذه الوسائل لا تمنع الجريمة منعا باتا ولكن من شأن هذا البرنامج اذا نفذ الى مدى يعد كافيا أن يقلل الإجرام الى حد أدنى . على أن هــذا لا يتيسر فى مدى جيل واحد ؛ بل لا بد من انقضاء بضعة أجيال لكى يتيسر رفع المفلوكين الى مستوى من العيش أرقى مما هم فيه . وبهذه الطريقة يمكننا أن نتناول أمرهم . ومن أجل ذلك كان من الضرورى وجود نظام للعقوبة نظام تنفذ به أحكام المحـاكم ويحمى به المجتمع ممن هم خطر عليه ويوقظ ضمير الجمهور الى عواقب الإجرام . ويجب أن يكون القصد الأول من كل خطة تتبع هو الإصلاح كلما وجد الى الإصلاح سبيلا . ويجب أن يتضمن هذا النظام القصاصى إنشاء السجون والإصلاحيات على الســواء مراعى فى ذلك أن تكون الإصلاحيــات لذوى الجرائم الصغرى وصغار السن

من المجرمين ، كما أنه يجب أن تكون هناك مدارس إصلاحية للبنين والبنات . وقد يكون من الضرورى وجود إصلاحية خاصة بالنساء . ويجب أن تكون هناك مشاغل تحت رقابة الحكومة يلزم فيها المجرم الذى اعتاد الإجرام بكسب عيشه ويتيسر المحكوم عليهم بمدد قصيرة أن يقضوها هناك بدلا من قضائها فى سجن المقاطعة كما هو الحال الآن . ويجب أن تجعل مدرسة الإصلاح أساسا لنظام الاختبار الخاص بالأحداث . وأينما استعمل نظام الاختبار للبالغين يجب أن يستخدم لتوليه موظفون يختصون به .

ويجب أن تكون هناك أماكن منفصلة لحجز الأشخاص المعتقلين لأغراض أخرى غير تنفيذ الأحكام كالذين هم تحت المحاكمة من المتهمين والشهود المحجوزين لأداء الشهادة . ويجب أن يكون لهؤلاء حجر منفصلة وأن يكون حجزهم قصير الأجل ما أمكن ، ولا سيما الشهود منهم . كما أنه يجب أن يعتنى بأمرهم . ولكن المشاهد أن محال الحجز المستعملة فى هذه الأيام تكون أسوأ فى كثير من الأحيان من السجون التى يقضى فيها المسجونون أيام سجنهم . فمركز الشرطة بشارع هاريسون بشيكاغو مثلا لا يصلح أن يكون وجارا للكلاب ، فما بالك بالإنسان . ويجب ألا تستعمل سجون المقاطعات لإيواء المتشردين ، بل يجب أن يعنى بهم فى منازل حسنة الإعداد لتزولهم حيث يكلفون أداء عمل فى مقابل ذلك . ويجب أن تكون لدى المحاكم وسائل الاختبارات الجسمانية والنفسانية حتى ترسل الى المستشفيات والمؤسسات الخاصة كل من تراهم يحتاجون الى رعاية طبية وترسل الى مستشفيات الأمراض العقلية ومدارس ضعاف العقول من تختص بهم تلك المؤسسات إذ لا يصح أن يزج من على شاكلتهم فى السجون أو الإصلاحيات . ويجب أن تستعد السجون ومراكز الشرطة استعدادا خاصا للنساء وأن يكون فيها رئيسات ، أو على الأقل مساعدات من النساء يكن تحت الطلب عند الحاجة . ويجب أن تكون معاملة المسجونين معاملة إنسانية ولا تكون مع ذلك معاملة جذابة . ويجب أن يكلف المسجونون القيام بعمل نافع . وقد ثبت بالاختبار أن نظام العمل من أجل المنفعة العامة هو خير نظام . ويجب أن توجد وسيلة يدفع بها للسجين أجر العمل الإضافى الذى يقوم به ليتمكن بذلك من مساعدة أسرته إن كانت له أسرة أو من ادخار ما ينفعه عند خروجه من السجن . فى سجن جاكسون بميتشيجان يطلب الى المسجونين أن يقوموا بنصيب مفروض من العمل ؛ وكل ما يقومون به بعد ذلك يدفع لهم أجره بالقطعة وبذلك يكسب بعضهم ما يبلغ الريال فى اليوم . وفى هذا ما يستحث السجين على العمل ، ويحمى السجين من الخسارة . ويجب أن يكون النظام فى السجن بحيث يكون فى السجين خلة الكرامة والاعتماد على النفس بدلا من قتل روح العزة الذاتية والميل الى العمل .

ويجب أن تكون النظرية التى يعمل عليها هى وقف الجريمة لا بالشدة فى معاملة المجرم، لأن هذه المعاملة الشديدة دائمة الفشل، بل وقفها بالتحقق من أن العقاب حاسم . فان العقوبة المعتدلة التى يكون موثوقا بصوابها أبلغ فى الزجر من عقوبة نكراء مشكوك فيها . أضف الى ذلك أنه يجب أن يكون المقصود هو العمل على إعادة المجرم الى المجتمع ليشغل فيه مكانا نافعا كما يجب أن تكون العقوبة ملائمة للشخص أكثر منها للجريمة . وهذا يستلزم إيجاد الحكم غير المقيد بزمن ويستلزم كذلك نظاما محكما للاختبار والتعهد . ويجب أن يوجد أيضا نظام الشرف لمن هم أهل له . وقصارى القول يجب أن يكون الغرض الذى نرمى اليه هو منع الجريمة المستقبلة وإصلاح طبقة المجرمين ما استطعنا الى ذلك سبيلا .

الفصل الرابع والعشرون

الفسوق

قد يندرج تحت هـذا العنوان الجنسى جميع أشكال الجريمة الجنسية على اختلافها مثل زنا المحصن (Adultery) وزنا المحـارم (Incest) وهتك العرض (Rape) والسفاح مطلقا (Fornication) ولكن كل هذه الاشكال الخاصة مما يدخل فى باب الجريمة ولذلك لا نتناوله هنا وسنقصر هـذا الفصل على موضوع البغاء (Prostitution) الذى يطلقون عليه عادة اسم « الشر الاجتماعى » (Social Evil) وعلى ما يصاحبه من الأحوال . ولن نحاول أن ندخل فى التفاصيل الوضعية لهذه الأحوال أو نتقصى تاريخ هذه المسألة خلال ماضيها المزعج. قد يكون البغاء جريمة أو لا يكون تبعا لوجهة نظر المجتمع ولكن يحسن بنا على الحالين أن نتناول البحث فيه على أنه مشكلة مستقلة ففى بعض الأحيان يفرضون له عقوبات شديدة وفى أخرى يرخص به المجتمع بل يحميه إذ أنه يرى فى بعض الأقطار شرا لا بد منه .

تاريخ البغـاء :

البغاء أمر يكاد يكون شائعا فى جميع أنحـاء العالم فهو فى جميـع الأجناس والأمم وإن كان مجهولا فى بعض الأماكن . ولقد سماه الناس مشكلة من مشاكل الحضارة محاولين أن يدلوا على أنه غير معروف بين القبائل المتوحشة ولكن البحث الدقيق يدل على أنه ليس مجهولا لدى كثير منهـا وأنه منظم فى بعضها تنظيما دقيقا . على أن حالة الرجل وهو لم ينل حظا من المدنية، الى البغاء أو فرصته الى ذلك أقل منها لدى الإنسان المتمدين . كما أن البغـاء لم يبلغ بطبيعة الحال درجة التنظيم العالية التى بلغتها فى المدنية . فالمدنية تجلب معها مسائل وأحوالا من شأنها تنمية البغاء تنمية لا يصل اليها فى الحياة الوحشية . ومع ذلك لا يمكن أن يعد البغاء من نتائج المدنية . فالتاريخ القديم غاص بأخبار هذا الشر . ففى كتاب العهد القديم نصوص كثيرة يستفاد منها أنه كان موجودا كما أنه كان معروفا بين أهل بابل ومصر وأشور وفينيقيا وغيرهم من شعوب آسيا . وبلغ البغاء فى بلاد الإغريق مبلغا يدعو الى القحر ولاسيا فى أمثال كورنثيا (Corinth) . وبقى لروما من بعدها أن تبلغ فى البغاء غاية الانحطاط . بل الواقع أن انتشار هذا الشر وشناعته فى الأيام الأخيرة من التاريخ الرومانى مما لا يكاد يسلم به العقل. وفى أوربا فى غضون العصور الوسطى والى يومنا هـذا استمر البغاء وأحدث أمره مشكلة

مختلفة الدرجات والأقدار . ولعله قد بلغ فى هذه الأحقاب غايته فى فرنسا أيام حكم ملوك البوربون. وقد استشرى ضرره بما أغرق فيه الملوك أنفسهم ؛ فان ملوك فرنسا جميعا إلاقليلا منهم اشتهروا بالفسوق . كما أن جميع ملوك أوربا ونبلائها فى غضون ذلك العهد اشتهروا بهذه النقيصة ، لا فرق بينهم وبين ملوك فرنسا سوى أن هؤلاء كانوا أشد منهم إسرافا فى ذلك . وليس البغاء أمرا من أمور الماضى المنصرم ، فانه اليوم معضلة ملموسة فى جميع أمم الأرض تقريبا ، وهو فى أسوأ صوره فى فرنسا وألمانيا واليابان . وقد يكون دون أن يسمى مشكلة فى الولايات المتحدة منه فى غالب الأقطار بل يظهر أن هذا الشر آخذ فى الزوال .

أسباب البغاء — العرض والطلب :

البغاء ككثير من ظواهر المجتمع خاضع للقانون الاقتصادى العظيم : قانون العرض والطلب . للرجل فيه جانب الطلب وللمرأة جانب العرض . وذلك لأن الطلب يحدث من أثرة الرجل ورغبته فى إجابة داعى الشهوة الجنسية على ماجرى به العرف المرعى فى المجتمع وأن خالف المصلحة، وعجزه عن ضبط هذه الرغبة . ويزيد كثيرا فى قوة هذا، ما هنالك من الظن الخاطئ — وإن كان ظنا يسلمون بصحته كثيرا — وهو أن المتعة الجنسية ضرورية لصحة الذكر البالغ . نعم ان هذه النظرية قد بددها العلم منذ كانت ولكنها لا تزال قائمة فى عقول كثير من الناس عاملة على زيادة الطلب زيادة بالغة .

ويحدث العرض من صنف النساء اللائى يدفع بهن المجتمع إلى حياة العار لكى يجبن داعى الطلب من الرجال . وقد كان ينهض بجانب الطلب فى العصور الماضية فريق الجوارى الرقيقات، وذلك إما ببيعهن لهذا الغرض ، وإما بدفعهن إليه بأيدى أوليائهن أو مختطفيهن أو مفسديهن . وكان يظهر هذا بوجه خاص فى بلاد الإغريق وروما فقد كانتا غاصتين بالإماء . وعندما كانت المدن تغلب على أمرها فى الحروب كان نساؤها وأطفالها يباعون عادة فى أسواق الرقيق ، وكان من الطبيعى أن يدفع بفئة كبيرة من الرقيقات اللائى صغرت سنهن وكن على جانب من الملاحة إلى حياة البغاء . وقد حدث فى بعض الأزمان أن صدرت قوانين تلزم النساء الدخول فى معترك هذه الحياة وذلك كالقوانين التى كانت تقضى على العذارى المسيحيات أن يحيين حياة البغاء إذا هن رفضن عبادة الآلهة الرومانية . تلك هى القوانين التى صدرت فى روما فى الأيام الأولى من عهد المسيحية . وسنت القوانين كذلك فى كورنثيا (Corinth) لإجبار الرقيقات على البغاء بأجر زهيد رغبة فى إغراء البحارة بالقدوم إلى ذلك المكان وقد كانت روما غاصة بطبقة طليقة من الناس مؤلفة من المصارعين (Gladiators) والجنود والأوباش وطائفة غير مستقرة من السكان ساعدت على اشتداد هذه الحالة الخلقية الشنيعة .

وكان جيش البغايا فى القرون الوسطى مؤلفا معظمه من البنات المهملات اللائى تشأن فى الطبقات الشقية الحظ ومن الأجنبيات اللائى وقعن فى الأسر أثر حروب صغيرة ثم تناولهن الجنود بالإفساد أو اختطفهن اللصوص ، أو أفسدهن النبلاء . وقد كانت أوروبا خاصة كذلك بطبقة غير مستقرة من السكان كالسياح والجنود المرتزقة والتجار، وهذه الطبقة عملت على زيادة الطلب الطبيعى .

وفى العصور الحديثة نرى البغى فى العادة امرأة من بنات الوطن أغريت باحتراف هذه المهنة أو أجبرت على قبولها خضوعا لأحوال المجتمع الحديثة . وفى هذه العصور أيضا نجد طبقة دائمة التزايد بسبب نمو المدن العظيمة والمراكز الصناعية ، من البالغين غير المتزوجين يزيدون فى مقدار الطلب . هذا، وقد كان هناك فى كل وقت فريق من فاسدات الأخلاق يخترن بإرادتهن حياة العار أو يضطرهن المجتمع بسبب أعمالهن إلى الانهيار فيها . وهؤلاء هن البغايا المفطورات على البغاء . وهن لا يمثلن إلا جزءا صغيرا من عدد البغايا . والطلب إذا كان قويا ومستمرا خلق العرض . وقد حصل هذا فعلا فى الماضى كما سبقت الإشارة اليه ، إذ كانوا يستمدون حاجتهم من طبقات الإماء والأجنبيات ، ولا يزالون يستمدونها اليوم من بين عناصر معينة فى المجتمع .

الأسباب الحيوية (البايولوجية) والنفسية (السيكولوجية) :

الأسباب الأولية المحدثة للفسوق صادرة بالأخص عن الشهوات الإنسانية وعن العجز عن كبح جماح الشهوات أو ضبطها . ويجب ألا يعزب عن تقديرنا حب المرأة لأدوات الزينة والترف ، فانه لما كان البغاء يساعد على تحقيق هذه الرغبات من طريق سهل فى كثير من الأحيان التجأ الكثيرات الى طرق باب هذه الحياة . كما أن من الدوافع الى ذلك الرغبة فى المرح وما هنالك من أسباب الإغراء بارتكاب المحرم . أضف إلى ذلك أن نسبة مئوية كبيرة من بغايا العصر الحاضر ، كما سترى فى الفصل التالى ، ضعيفات العقول تعوزهن القدرة على ضبط طبيعتهن ومقاومة عوامل الإغراء . ولقد كان البغايا فى الماضى فى معظمهن جاهلات وأميات الا من أجبرهن الرق وغيره من الوسائل العنيفة على البغاء ، والبغايا بفطرتهن يحترفن البغاء لأسباب حيوية (بيولوجية) أو نفسية (سيكولوجية) ناشئة عن شذوذ فطرى أو مكتسب . ولا شك أن هذه الأسباب أقوى أثرا فى جانب الطلب منها فى جانب العرض ، لأن الطلب برمته حيوى (بيولوجى) ونفسى (سيكولوجى) المصدر .

الأسباب الاقتصادية :

من الأسباب الاقتصادية فى الوقت الحاضر قلة الأجور والفاقة المالية الكبيرة التى تعود بها حياة البغاء، وغير ذلك من الأحوال الصناعية . فان الأجور التى يدفعها كثير من مستخدمى النساء مثل أصحاب دكاكين الأزياء غير كافية ، ومن ثم تضطر العاملة إما إلى البحث عن مورد آخر لاستكمال وسائل عيشها و إما إلى العيش على حالة من سوء المآكل والملبس وفقدان وسائل الترويح عن النفس والتزام جانب الوحشة تصبح فى بعض الأحيان فوق حد الاحتمال . والبغاء لسوء الحظ يعرض على العاملة التى لا تجد موردا آخر لاستكمال دخلها الضئيل وسيلة سهلة للحصول على مزيد من المال . نعم إن غالبية النساء يفضلن الموت جوعا على مثل هذه الوسيلة ولكن ضغط الفقر والإغراء الشديد يكونان فى كثير من الأحيان أشد مما تطيق الضعيفة مقاومته . أضف إلى ذلك انتفاء الأمل فى كثير من الأحيان لدى العاملة فى تحسن حالها الاقتصادى، فسرعان ما تجد العاملة التى كانت تمقت مثل هذه الحياة فى أول الأمر قد ضعفت واستسلمت لعوامل الاغراء . وفوق ذلك إننا نجد لسوء الحظ فى نظامنا الصناعى الحالى عددا عظيما من الرجال فى مدننا ومراكز الصناعة عندنا وصلت مكاسبهم من الضآلة إلى حد لا يكفى لإعالة أسرة على الصورة التى يتطلبها مستواهم فى الحياة فيترتب على ذلك أنهم يؤجلون زواجهم أو يتركونه . ولكى يسدوا شهوتهم ينشئون دور البغاء وبهذا يبقون جانب الطلب مرتفعا . نعم إن منهجنا الذى نجرى عليه الآن فى تبصير الشعب بخطر الأمراض السرية عامل على تقليل هذا الطلب شيئا فشيئا، ولكن هذا الطلب كان فى الماضى من العوامل القوية فى إحداث معضلة البغاء . وقد زاد الطلب فى المدن بسبب انتفاء الوازع المحلى أو جهل الأهل والجيران أعمال الشخص ، وهما مصدران للاتزاع فى جهات الريف .

الإجبار :

ولا يزال الإجبار كما كان فى الماضى سببا فى البغاء وان لم يكن بالشدة التى كان عليها أيام الاسترقاق والاستعباد . والإجبار نوعان مباشر وغير مباشر . ولقد كانت الحاجة الى النساء لسد الفراغ الذى يحدث بوفاة البغايا دافعة الى تنظيم ما يسمى عادة "تجارة الرقيق الأبيض" الذى يعمل فيها على دفع النساء الى حظيرة هذه الحياة . ولكن هذه التجارة غير سائرة اليوم سير الجرأة والنجاح الذى كان لها فى الماضى وذلك بفضل ما تبذله الحكومات فى سبيل القضاء عليها . وقد كانت هذه التجارة حتى اليوم منظمة كأية تجارة أخرى مشروعة ، فكان لها جيش خاص من الأعوان والقوادين الذين يعملون بالحيلة وعرض الأعمال والوعد بالزواج وبعقود زواج صورية ، على التغرير بالفرائس حتى يلقوا بهن فى التهلكة أو يعمدون الى

الاختطاف والإرغام ليملأوا الصفوف منهن بعدد جديد . وكانت المهاجرات وبنات الريف اللائى يردن إلى المدن أشد النساء تعرضا للوقوع فى الفخاخ وذلك بسبب جهلهن الأحوال والأخطار الجديدة وعدم قدرتهن على مكافحتها . وكانوا كذلك يبحثون عن النساء اللائى يتناولن أجورا لاتكفى مطعمهن فيغرونهن ويدفعونهن إلى حياة الرذيلة . وفى كثير من الأحيان كانوا يظفرون بالفريسة ويخضعونها بالقوة والعنف . وكانت بيوت البغاء تستعمل وسائل العنف بانتظام ومنها القيود والسلاسل والسياط والإجاعة والحرمان من الكساء واستخدام الأوباش لإجبار الفتيات المستجدات على الخضوع والتسليم . ولقد كان تنظيم هذه التجارة من الدقة والكمال بحيث كانوا يدفعون أثمانا مقررة عن الفتيات الواردات وتتراوح هذه الأثمان بين خمسين دولارا ومائة عن كل فتاة تبعا لمقدار ملاحة الفريسة . وكانت الفتيات الحائدات عن طريق الفضيلة يدخلن هذه الحياة مدفوعات بتأثير نبذ الأسرة والمجتمع إياهن على حين أن الرجال الذين أفسدوهن كان يسمح لهم بالبقاء فى أرقى الطبقات الاجتماعية . وقد كان الإجبار دائما سببا فى إبقاء النساء فى حياة العار متى دخلن فيها لأول مرة . فصاحب الماخور كان يستعمل الوسائل المباشرة لذلك والمجتمع يستعمل الوسائل غير المباشرة وأساليب النبذ الخفية ليرد إلى الدعارة كل من قدر لها أن تدخل فيها ولو مرة .

عواقب الفسوق — الأمراض :

المرضان الرئيسيان اللذان ينتشران بالبغاء هما : الزهرى والسيلان . وهما من الأمراض المعروفة منذ القدم ، وكلاهما من الأمراض الجرثومية . ويصاب المرء بالأول منها بملامسة الدم ، وبالثانى بالأنسجة . نعم ان المرضين من عواقب الفسوق ولكن الزهرى قد يصيب الإنسان بطرق أخرى غير المباضعة كاستعمال أكواب الشرب والمناشف وملاءات الفراش ومقاعد المراحيض الملوثة بالجراثيم . وكلا المرضين يمكن الشفاء منه بالعلاج الطويل الأمد والصبر ، ولكن المريض لايشفى تمام الشفاء ، بل يبقى السم كامنا فيه إلى مدى سنوات عدة بعد أن يكون المرض قد انقطع فى الظاهر ، ويصدق هذا بوجه التخصيص على الزهرى ، فان من خصائصه أن يكون ظهوره فى أطوار وربما كان بين الطور والطور عدة من السنين هذا وإن كان الزهرى هو المرض الذى يخشاه الإنسان عادة بسبب شناعة مظهره فى أطواره الأخيرة ، وكان السيلان يعد فى كثير من الأحيان من الأمراض المحلية . ويرى أحيانا من الأمراض الشبيهة بعلة البرد ، فان السيلان فى الواقع أنكى المرضين سواء من حيث آثاره فى المجتمع ، أو من حيث عدم مطاوعته للعلاج . وأثر كلا المرضين فى النسل رهيب ، فان ٨٠٪ من أحوال العمى فى الأطفال مرجعها هذان الشران فكلاهما من العوامل المؤدية إلى ذلك . والزهرى بوجه خاص مهلك للجنين ، فإما أن يقتله أو يشوه تكوينه . والواقع

أن سجلات المستشفيات تدل على أن متوسط الوفيات يتراوح بين ٦٠ ٪ و ٨٦ ٪ فى الأطفال الذين يكون والدوهم قد أصيبوا بالزهرى . والسيلان وإن كان أقل إهلاكا للنسل أشد أذى للزوجة . وهو بوجه خاص متلف لأعضاء التناسل فى المرأة . وهو السبب الرئيسى فيما يشاهد اليوم من أحوال العقم فى الذكور . وفضلا عن أن أحوال الزوجيات التى تتاجها شخص واحد يكون الحمل فيه قد حدث قبل ظهور بلايا المرضين . فان ٦٠ ٪ تقريبا من أحوال الزوجيات العقيمة برغم أهلها تكاد تكون مسببة عن هذين المرضين، والمعروف كذلك أن ٦٠ ٪ من العمليات الجراحية التى تجرى للنساء بسبب مايكون لديهن من العلل النسوية ترجع فى أصلها إلى الأمراض السرية . وكلا المرضين ذو أثر وراثى ، بل الواقع أن آثار الزهرى تنتقل إلى الجيل الثالث . هذا إلى أن هذين المرضين يضعفان البنية ، وبهذا يعرضان الجسم لمثل أمراض التدرن والسرطان والاضطرابات العصبية .

واذا راعينا أن بين الثقات من يرون أن من ستة الى عشرة فى المائة من الذكور فى أقطار مختلفة مصابون بالزهرى ومن ٢٥ ٪ الى ٧٥ ٪ مصابون بالسيلان ، أمكننا أن ندرك خطورة الحال على شكل واضح . ولعل السيلان هو أكثر الأمراض ذيوعا بين الرجال وقد دلت الاحصاءات الأوروبية منذ بضع سنين على أن ٧٥ ٪ من الرجال كانوا مصابين به . وقدر فى الماضى أن ٥٠ ٪ الى ٦٠ ٪ من الرجال فى الولايات المتحدة كانوا مصابين بهذا المرض أو ذاك . ولكن هذه النسبة (ولعلها أعلى من الواقع) قد هبطت فى غضون السنوات القليلة الماضية وذلك فى الغالب بفضل وسائل التبصير فيما يختص بهذا الأمر وبازدياد ما تتطلبه النساء من الرجال الذين يتزوجنهم .

وقد استدل على هبوط النسبة فى الولايات المتحدة بسجلات رجالنا المجندين والمحشودين فى الحرب الأخيرة . فاذا كان ما بها من البيانات صحيحا كان ١٠ ٪ فقط من تعداد الذكور عندنا مصابين بهذين المرضين بصورة خطيرة .

وأثر هذين المرضين فى نسبة مواليد الأمم وفى صحة الأفراد وآداب المجتمع رهيب . ولعل الأمراض السرية هى أكبر الأسباب فى انحطاط نسبة المواليد فى فرنسا . ويبدو مقدار آثارها المبيدة للامة فى كل قطر به سجلات لإحصاء هذه الشؤون . على أن آثاره غير المباشرة لا تكاد تقل عن ذلك اضرارا .

التنظيمات التجارية :

كانت الدعارة كما سبق أن ألمعنا اليه سببا فى نشأة المواخير منذ عهد قديم . وتنظيمها والجرى فى إمدادها بالنساء على خطط منظمة تعرف الآن بتجارة الرقيق الأبيض . ولقد ربطت هذه التجارة نفسها بكثير من الأعمال الأخرى فكانت مرتبطة ارتباطا حيويا بتجارة

المسكرات ؛ فأخذت تروج الدعارة رغبة فى زيادة ما تبيع من الخمور وأخذت الدعارة تستحث على الخمر لتثير شهوات الناس . وكان كثير من مشارب الخمر يعمل لتجارة الرقيق الأبيض لما فيها من زيادة الكسب . وكانت فى كثير من الأحيان تستأجر البغايا لاستثارة حركة البيع فى المسكرات . وتوثقت هذه التجارة أيضا مع السياسة وإدارة الشرطة ، فقد استخدمتهما فى الدفاع عن نفسها وحماية مصلحتها كما فعلت تجارة المسكرات .

تفكك الأسرة :

الأمراض السرية والفسوق من الأسباب القوية فى قضايا الطلاق وهدم الأسرة وإن كان أصحاب هذه القضايا لا يذكرون ذلك دائما . وتعدها قوانين جميع الأمم تقريبا من الأسباب الكافية للطلاق ، كما أنها فى كثير من الأحوال سبب فى شقاء الزوجية وإهمال الأطفال حتى ولو لم تتفكك روابط الأسرة .

أثر الفسوق فى الأخلاق :

ربما كان أكبر أثر للفسوق وإن لم يكن أسهلها إيضاحا أثره فى أخلاق المجتمع . فهو السبب فى وجود المستوى الثنائى الذى يوجد منذ عهود زعامة الأب إلى يومنا هذا ، والذى لم يبلغ الى أى حد يعتد به حتى فى هذا العصر . فان فى استطاعة الرجل بفضل هذا النظام أن يفعل ما يريد ويكون من الفسوق بالدرجة التى يريدها ومع ذلك يباح له أن يطرق أبواب أحسن المجتمعات . أما إذا حادت المرأة عن طريق الطهارة ولو إلى أدنى حد فان الناس يبادرون على الفور إلى نبذها . ولقد كان النساء أنفسهن اقسى فى توقيع هذه العقوبة من الرجال فهن يرين دعارة الرجل أمرا طبيعيا ولا يتجاوزن عنها البتة فى بنات جنسهن. ولا يزال هذا التفريق فى المعاملة قائما فى كثير من أنحاء هذه البلاد ولا سيما فى الولايات الجنوبية ، ولم يمح محوا تاما من أى جهة من الجهات. ولكن هناك جنوحا إلى تقرير مستوى واحد لمعاملة الجنسين على السواء ، لا بتكليف الرجال التزام مستوى فى السلوك والأخلاق أرقى مما هو حاصل بل لسوء الحظ بتخفيض مستوى النساء .

ويمتد الأثر الخلقى إلى جميع وجوه حياتنا فلقد أفسد طوائف الشرطة وأفسد أعمالنا وقوانيننا الشرعية والخلقية ، ولم يقتصر الإفساد على من لهم اتصال بهذا الشر ، بل تجاوزهم فتناول النظام الاجتماعى برمته . ولا نستطيع أن نقرر مبلغ هذا الانحطاط الخلقى من الخطورة لأنه يستعصى على التقدير ، ولكن لامشاحة فى أنه لولا هذا الشر الاجتماعى لكانت أخلاقنا فى مستوى أرقى من المستوى الحالى .

معالجة البغاء :

رأى المجتمع منذ القدم أن البغاء شر فاوفى عن السعى فى إزالته أو عوقه أو كبحه أو تنظيمه. وليس فى مقدورنا أن نتناول بحث هـذه المحاولات على ترتيب حدوثها التاريخى فقد نجد أن العمل كان يجرى بخطط متعددة فى وقت واحد لا فى أقطار متعددة بل وفى القطر الواحد . ولايمكننا أن نتناول الأقطار ونبحث فى جملة الخطط التى اختطتها لأن غالبها سلك فى المعالجة مسالك متعددة ولكنا نستطيع أن نجمع بحثنا فى ثلاث مسائل : هى القمع والتنظيم والوقاية :

(١) القمع :

فى بادئ الأمر قامت الأسرة بالقمع ، فكان هوالخطة المتبعة فى الأقطار التى سادت فيها زعامة الأب . وكان القصد منها حماية طهارة الأسرة وكانت الطريقة المعتادة فى تنفيذها إعدام المرأة المسيئة أو طردها . أما الرجل الذى اشترك فى الجرم فلم يلتفت إليه . وقد كانت هذه طريقة اليهود فى معالجة هـذه المسألة . وكانوا ينظرون إليهـا من الناحية الدينية ومن ناحية شرف الأسرة . وعلى مدى القرون الوسطى سنت القوانين والأحكام لمكافحة البغـاء . وكان أغلب هذه القوانين موجها إلى المرأة كما كانت توجه القوانين الى المجرمين والمتسولين . فكانوا يجلدون البغى ويكوونهـا ويضعونها فى قفص وكانت تدلى فى المـاء حتى تكاد تقضى غرقا ويلزمونها أن تلبس ثيابا تميزها، ويسجنونها، ويعرضونها عارية فى أغلب الأحيان للأنظار . وقد حبطت هذه الوسائل لأنهم لم يبذلوا شيئا من الجهد لمنع الأحوال التى كان يتولد منها هذا الشر . ومع ذلك لاتزال هذه الوسائل باقية ولا سيما فى الولايات المتحدة فيما يفرضون من الغرامة والحبس . وهى وإن كانت ذات أثر فى صد الشر أو حده بحدود ، غير قادرة على حل المسألة .

(٢) التنظيم :

كثير من الأقطار يعد البغاء شرا لا بد منه ؛ فهى تحاول تنظيمه ابتغاء تقليل الشر الى الحد الأدنى وحماية المجتمع منه . ويشاهد هذا على صورة أولية فى تاريخ الإغريق والرومان وبين بعض الشعوب الأولى . وقد حاولوا تنظيمه فى العهود الوسطى فى أصقاع شتى من أوروبا ليقمعوا سوء سلوك الفاجرات ؛ وكان عملهم فى الواقع محاولة لحماية الأسر، وصيانة النظام العام والحصول على إيراد للدولة ، فجعلت بيوت البغاء مباحة قانونا . بل لقد كان يرخص لمن فى افتتاحها فى غالب الأحيان ، وكان أولو الأمر يلزمون البغايا أن يسكن فى أحياء معينة من المـدن ، أو أن يلبسن ما يميزهن من شارة ونحوها . وكانت الإيرادات

التى تحصلها الحكومة لا يقتصر الانتفاع بها على الطوائف المدنيـة بل يشمل الطوائف الدينية أيضا . ولقد كان القصد من وضع هذه القيود جعل هذه التجارة أقل ربحا وأن يقل ما فيها من دواعى الإغراء وأن يزيد بها دخل الخزانة .

أما فى العصور الحديثة فقد عمدوا الى التنظيم لحماية الأسر ورواد أماكن البغاء من الأمراض . وإن أهم ظاهرة فى التنظيم الحديث هى الرغبة فى منع العدوى من الأمراض . ولقد جرت فرنسا وألمانيا منذ عهد بعيد على سنة إعطاء رخص للبغايا فاتبعت باريس هذه العادة سنة ١٨٢٨ وجرى الفرنسيون قبل هذا التاريخ بزمن بعيد على خطة حفظ أسماء البغايا فى سجلات . ويجرى فى كل من باريس وبرلين كشف طبى مرة أو مرتين فى الأسبوع عن البغايا، فاذا وجدوا بإحداهن مرضا ألزمها القانون العلاج. على أنه يقال إن فى باريس، على الرغم مما يدعى من تسجيل جميع من بها من البغايا، من ٥٠ ألفا الى ٦٠ ألفا من البغايا على حين أن المسجل منهن لا يزيد على ستة آلاف . أما برلين فيتراوح عدد بغاياها بين عشرين ألفا وثلاثين ألفا، على حين أن المسجل منهن قرابة ثلاثة آلاف وثمانمائة . أضف الى ذلك أن محاولتهم محو العدوى أو منعها قد حبطت لأن اللائى يعرفن أن بهن مرضا لا يعمدن الى تسجيل أسمائهن . وهؤلاء ، فى العادة لا ينكشف أمرهن سريعا ، ولأن الفحص لا يؤدى فى جميع الأحوال الى تبين المرض . ولقد أدى تسجيل أسماء البغايا فى أول الأمر الى كثير من العيوب وكان فى كثير من الأحيان يزج بالنساء فى حياة البغاء متى زلت بهن القدم، وفى بعض الأحيان عند مجرد الاشتباه فى سلوكهن. أما اليوم فيحاول رجال الشرطة منع المرأة الحديثة العهد بالبغاء من دخول هذه الحياة . والواقع أنهم لا يسجلون أسماء القاصرات إلا حين يعرفون أنهن فاسدات الخلق ، ويعملون على السماح لمن تجيش التوبة فى صدرها بالعودة الى صفوف المجتمع . ونزعة اليوم فى هذا الشأن جانحة الى ترك سياسة التنظيم الحكومى باعتباره وسيلة فى معالجة البغاء . ونرى التنظيم على شكل ما فى كثير من الأقطار ، وإنما يلجأ ولاة الأمر إليه لأنهم لا يعرفون وسيلة أفضل منه فى معالجة شر البغاء . ويشتمل التنظيم الحديث عادة على نوع من العزل ؛ فهو يلزم البغايا السكن فى نواح خاصة من المدن أو يحرم دخولهن فى نواح خاصة أملا فى تحديد العدوى وحماية بقية المجتمع ؛ وهـذا هو أقصى ما وصل اليـه التنظيم فى الولايات المتحدة فترتب على ذلك أن نشأت فى كل مدينـة كبيرة فى الولايات المتحدة فى أوقات مختلفـة نواح منعزلة للرذيلة ومنها — كما فى نيويورك — ما يوجد فيه عدة من هذه النواحى .

ولقد اتبع كثير من مدن الولايات المتحدة فى أوقات مختلفة وبطرق شتى وإلى مدة معينة نظام الترخيص فى افتتاح بيوت البغاء بأن تفرض على البيوت غرامة فى أوقات مقررة . على أن الغالب فى أمر هذا التسامح فى الترخيص أنه كان نتيجة رشوة للسياسيين ورجال الشرطة

ولكن أغلب المدن الكبيرة فى الولايات المتحدة قد ألغت اليوم نواحى البغاء المنعزلة. وكانت نتيجة ذلك طيبة جدا ، وإن كانت هذه الإجراءات فى بعض الأوقات قد عجزت فيا يلوح لنا عن إصلاح الحال لأنها دفعت بالبغايا الى الشوارع وأنزلتهن أحياء السكن العادية بجملت هذا الشر أبين وإن خفت نتائجه . على أنه يجب عندما يراد إلغاء نظام عزل البغايا فى أحياء خاصة أن يقرن مرسوم الإلغاء بوسائل تمنع ارتيادهن الطرقات وتوزع البغايا فى الأحياء الأخرى من المدينة . وعلى الجملة إن التنظيم عاجز عن أن ينظم أو أنه لا ينظم على الوجه المرضى .

(٣) الوقاية :

الجهود الحالية موجهة ، كما هو الحال فيا يختص بالمسائل الاجتماعية الأخرى ، الى الوقاية من البغاء أكثر من توجيهها إلى قمعه أو تنظيمه . نعم إن هـذا الشر محال إبادته إبادة تامة مادامت الطبيعة الإنسانية هى هى ، ولكن فى الطاقة الخلاص من أسوأ أحواله وتقليل هذا الشر الى الحد الأدنى . ولقد أمكن إلى اليوم تقليل أسوأ مضار البغاء ولا سيما أسوأ اعراض تجارة الرقيق الأبيض ، تقليلا عظيما ؛ ولم تعـد تلك التجارة كعهدها بالأمس خطرا وبيلا على الأنوثة المستضعفة ، ونقصت كذلك نسبة الرجال الذين يغشون بيوت البغاء نقصا عظيما . واليوم يجرون على طريقتين للوقاية :

(١) تبصير الناس بأخطار البغاء .

(٢) إزالة أسباب البغاء .

(١) التبصير بأخطار البغاء :

لم يقتصر الأمر مع صغار السن على أن آباءهم كانوا يبقونهم فى جهالة من أمر الأخطار المتأتية من العلاقات الجنسية ، بل كانوا يرون أن كل شىء له علاقة بهذا الموضوع محظور الكلام فيه فى المجتمعات المهـذبة . فكان الآباء يسمحون لأبنائهم أن يدخلوا معترك الحياة دون أن يكونوا بصيرين بما فيها من الأخطار المتأتية من الأمراض السرية وكانوا يهملون نصح بناتهم حتى يقعن فريسة الغواية واختطاف عصابة "تجارة الرقيق الأبيض" كما كانوا يسمحون لهن أن يتزوجن من رجال مصابين بالأمراض السرية وهى فى كثير من الأحيان فى أشنع حالاتها ، فيدخلن بذلك فى حياة كلها ذلة وآلام بله ما لهذا من الأثر فى الذرية التالية . وقلما سمع بوالد، مهما كان من يقظة الضمير والشعور بالواجب، يبصر أبناءه بهذه الأمور بل الواقع أن الآباء كانوا بدلا من ذلك يدفعون بأولادهم الى ما يبصرهم فى هـذه الناحية من مصادر الرجس والجهـل ، أو من طريق تجاريبهم الشخصية . فلا عجب اذن أن يغشى بنوهم دور

البغاء التماسا للعرفة فيصابوا بالأمراض السرية أو أن يتزوج بناتهم من رجال مصابين بها أو أن يقعن فى الحبائل التى ينصبها تجار البغاء لاصطيادهن . وعندنا أنه لم يوجد من الأمثلة على تقصير الآباء عن آداء واجبهم لأولادهم ما هو أروع من إهمال تبصيرهم بما ينطوى عليه هذا الشر الجنسى من المخاطر والغواية . فقد كان العرف ينهم ألا يتاح للفتيات العلم بأن هناك شرا اسمه البغاء و إنما يجب أن تظل عقولهن طاهرة إلى أن يأتى عليهن وقت يقاسين فيه الآلام بما جهلن كما وقع لنسبة بالغة من الفتيات .

ولكن من حسن حظ المجتمع أن أخذت خطايا تقصير الوالدين تغير من أمور الماضى . فالمجتمع لم يعد يحظر تبصير الناس فى هذا الصدد ؛ واليوم نرى الجيل الحاضر أقوى على مناهضة هذا الشر من الأجيال الماضية . فالمدارس العصرية آخذة فى إعطاء الناشئة شيئا من العلم بهذا الموضوع و إن لم يحصل هذا إلى اليوم على وجه كامل . ونرى اليوم كتبا ومجلات تعنى بذلك ، وأصبحت الكنائس والطوائف الدينية لا تنى عن نشر المعلومات الخاصة بهذا الشأن . ولكن هذه المعلومات تجيء فى كثير من الأحيان متأخرة عن وقتها المناسب لإيتاء الفائدة المرجوة ، وربما عجزت عن الوصول إلى من هم أشد الناس احتياجا إليها . وفى الأيام الماضية لم يكن رجال الدين يعرفون إلا قليلا عن المجتمع ، أو على أقل تقدير لم تكن تعطيهم المدارس اللاهوتية (Seminaries) فى هذا الصدد إلا قليلا من العلم فكانوا لذلك غير أهل لمعالجة المسألة . أما اليوم فان هذه المدارس اللاهوتية آخذة فى إعطاء طلبتها من العلم والتبصير ما يكون لهم منه فائدة عملية فى قيامهم بأعمالهم ؛ ولهذا أخذ رجال الدين يصيرون أقدر على مكافحة هذه المسألة . وقصارى القول ان أعضاء الجيل الآتى ظافرون بشيء من الإلمام بأخطار هذا الشر وهو ما لم ينله آباؤهم وأجدادهم من قبل .

ولقد كان الرجال يتطلبون فى الماضى دائما عفة المرأة التى يتزوجونها ، أما اليوم فقد شرع النساء كذلك يتطلبن هذه العفة من الرجال الذين يتزوجنهم ، وأغلب الظن أن النساء فى المستقبل سيتشددن فى هذا تشدد الرجال ، وربما كان أثر هذا فى التخلص من هذا الشر أقوى من كل شيء سواه ؛ لأنه إذا علم الرجال أنه سيصبح من المستحيل عليهم تقريبا أن يتزوجوا بمن يردن إذا هم كانوا قد قضوا حياة غير شريفة ، حاذروا كل المحاذرة أن يجروا على سنتهم القديمة . وكذلك إذا عرف الرجال مخاطر الأمراض وآثارها فى أزواجهم وأولادهم حرصوا على حسن سلوكهم . أما فى الماضى فقد كان الرجال يجهلون هذه المخاطر إلى أن يقعوا فيها . ولقد عمدت بعض ولاياتنا طوعا لإرادة الرأى العام إلى إصدار قوانين خاصة بالتناسل وأغلب الظن أن ستتلوها فى ذلك ولايات أخرى فى المستقبل لمنع زواج الأشخاص المصابين بالأمراض السرية . على أن أغلب هذه القوانين فى الوقت الحاضر تنطوى على

عيوب فضلا عن التراخى فى تنفيذها ، ولكن ينتظر أن تعالج هذه العيوب فى السنين المقبلة . على أن تبصير الناس فى هذا الصدد أمر ضرورى قبل أن تسن القوانين الملائمة وقبل أن تنفذ فان التربية تعطينا أبلغ الوسائل فعلا فى مكافحة هذا الشر .

(٢) إزالة الأسباب :

بعد ما نفهم المشكلة على حقيقتها ونتعرف الأحوال التى تؤدى إلى حدوث هذا الشر نستطيع أن نعالج هذه الأحوال معالجة منتجة . فمن الإصلاح الواجب فى هذا الصدد تقرير الحدود الدنيا للأجور ولاسيما للنساء ، وذلك لإزالة أثر الغواية الشنيعة المترتبة على الحاجة المالية . ومن المفيد جدا أن توجد قوانين لرقابة المبانى و إزالة أحوال الأحياء المزدحمة الفقيرة القذرة لأن الحياة فى كثير من المساكن عندنا خسيسة قذرة ومن الصعب الحصول فيها على مسكن مستقل ولذلك كانت الرذيلة فيها أمرا لا مفر منه . ولقد خطت الحكومة فى هذا الصدد خطوات صالحة لحماية المرأة المهاجرة إلينا . وأخذت جمعيات الشابات المسيحيات تساعد على حماية الفتيات النازحات إلى المدن ، وهذا هو الحال فى جميع مراكز الإصلاح الاجتماعى وقد شرع فى القضاء على تجارة الرقيق الأبيض بوسائل تزداد شدة وعنفا ، ولكنا لا نزال فى حاجة إلى المزيد من قوانين أدق مما لدينا وعقوبات أصرم ، بل إلى طرق أشد فى الاتهام وإقامة الدعوى . واليوم نجد أن البساتين العامة وساحات اللعب والملاعب الاجتماعية والمعاهد تعطى الناس من أسباب اللهو المباح أكثر مما كان يمكن الحصول عليه فى الماضى . ولذلك أخذ بؤس حياة الأجير وما يقاسيه من الوحدة يقل شيئا فشيئا وكلما انتشر العلم بشؤون هذا الموضوع كان لنا أن ننتظر توالى الجهود الناجحة لإزالة أسباب البغاء .

نعم إن الجهود فى الماضى كانت موجهة إلى جانب العرض بغير التفات إلى جانب الطلب ، ولكن جهود اليوم موجهة لناحية الطلب على البغاء . أى أنها تفوق سهمها إلى أصول الشر وجذوره . وإذا أمكن إزالة الطلب اختفى العرض من تلقاء نفسه . نعم لا يمكن محو هذا الشر بتاتا ، ولكن لا مشاحة فى أنه غير ميئوس منه ، وفى الطاقة الوصول إلى الحد الأدنى .

وشكرا للحرب الماضية فقد عملنا بفضلها شيئا كثيرا فى سبيل استئصال هذا الشر بمداواة الأمراض التى وجدناها فى الجنود وتبصير الجنود والسكان المدنيين بمخاطرها وإلزام المدن المجاورة لمعسكرات الجيش تطهير أحياء الرذيلة فيها .

الفصل الخامس والعشرون

ذوو العاهـات

من المسائل التى لم تسترع فى المـاضى انتباها كبيرا ثم أصبحت اليوم من أخطر المشاكل التى تواجه الشعب الأمريكى مسألة الضعف العقلى ؟ وهى مع ذلك مسألة سهلة المعالجة إذ الواقع أن الخطر منها ممكن منعه . فقـد توصل من يعنيهم الأمر إلى وضع خطة لمعالجته على أساس يكاد يكون ثابتا .

ماهو الضعف العقلى ؟

وأول سؤال يواجهنا هو: ما هو الضعف العقلى؟ وأين يمكننا رسم الحد الفاصل بين سليم العقل وضعيفه ؟ قـد يمشى الشخص فى بعض المجتمعات جنبا لجنب مع غيره حتى إذا انتقل إلى بيئة أخرى حيث تقاليـد الحياة أشد عدت دون العادى . ولقد يظهر التلميـذ على أقرانه فى أحد الفصول فاذا نقل إلى فصل ذى مستوى أعلى صار فى الذيل . فالمسألة بعبارة أخرى نسبية إلى حد كبير. وقد أمكن مع ذلك بفضل اختبارات "بنيت" (Binet) أن نفرق تفريقا يكاد يكون محـدودا بين ثلاث فرق من أصحاب العاهات وذلك تبعا لمـا يسمونه " السن العقلية " للشخص ، أى تبعا لإجابة الشخص على هذه الاختبارات بنفس النشاط والدقة التى يجيب بهما طفل ذو مواهب طبيعية عادية فى سن معينة . ولا يتبادر إلى الذهن أن الشخص الناقص لا يدرك من المعلومات سوى ما يدرك ذلك الطفـل ؛ لأن الشخص الضعيف العقل الذى قدّرت سنه العقلية بثمـانية أعوام يقضى بقية حياته وهو فى تلك السن فى حين أن الطفل السليم البالغ من العمر ثمانية أعوام إلا سنه ، بمرور سنة عليه ، أى عندما يبلغ حد التاسعة من عمره ، لا يكون فى غضون تلك السنة قد اكتسب من المعلومات ما يكسبه الشخص الناقص فى مدى العشرين أو الثلاثين من السنين التى يقضيها فى تلك السن العقلية . فقد يكتسب هـذا فى أثنائها ركاما من المعلومات — أى من النوع الذى يستطيع اكتسابه طفل فى الثامنة من عمره . والتقسيم أساسه المقدرة العقلية . والفرق الثلاث التى ينقسم اليها ضعاف العقول هى الآتية :

(١) البله (Idiots) : وهم الذين لا تفضل عقليتهم عقلية طفل عادى فى الثالثـة من عمره . ولا يقتصر الأمر معهم على أنهم لا يستعملون اللغـة أو لا يفهمونها بل هم عاجزون عن جعل أنفسهم بمنجاة من الوقوع فى أنواع المخاطر العادية كالنـيران مثلا . و بعضهم

يعجز عن السير أو النهوض بل يجهل متى يكون جائعا أو مقرورا . ويذكر المؤلف أنه شاهد فى مدرسة ضعاف العقول فى وايفرلى فى ولاية ماساتشوسيت جناحا يضم عشرين أو أكثر من تلك الفصيلة قد يموت أكثرهم من الجوع ، والطعام من حولهم ، أو من البرد إذا لم تتخذ الحيطة لتغطيتهم وتدفئتهم . وبعبارة أخرى كانوا رضعا كبارا يحتاجون إلى العناية بأمرهم كما لو كانوا كذلك . وتلك هى الفئة التى تدعو حالتها إلى أن يتساءل الناس قائلين " ألا يحسن أن نريحهم من شقائهم بسلام "؟ وهى تبلغ ١٠ ٪ من مجموع ضعاف العقول .

(٢) المعتوهون (Imbeciles) وهم : من تتراوح سنهم العقلية بين الثالثة والثامنة . والأشخاص الذين يلحقون بهذا القسم فى استطاعتهم تجنب المخاطر العادية كأن تدوسهم القطعان أو يسقطوا فى النيران ولكن تعوزهم القدرة على القيام بالأعمال العادية فى الحياة . ففى استطاعتهم الاشتراك فى الألعاب إذا نظم لهم اللعب . ومن السهل إدخال السرور على أنفسهم ، ولكن ليس فى استطاعتهم أن ينالوا من التعليم سوى القشور فيتعذر عليهم القراءة والكتابة بشىء من السهولة والسرعة . هؤلاء يكونون فريقا لايمكن يوكل إليه أمر نفسه فى المجتمع ، ولكنه فريق من السهل جدا أن يعتنى بأمره فى معاهد خاصة .

(٣) قصار العقول (Morons) : وهم أولئك الذين لهم عقلية من تتراوح سنهم بين الثامنة والثانية عشرة ، وفى مقدورهم القيام بأعمال الحياة العادية وأداء الواجبات الاعتيادية ويخالطون الناس دون أن يسترعوا كبير التفات . ولكن هذا الفريق ، لهذا السبب عينه ، أخطر الثلاثة لأنه هو الذى يرد منه كثير من المجرمين . ونسبة كبيرة بين المومسات والأحداث الذين يملئون محاكم الأحداث ومدارس الإصلاح والتلاميذ الأغبياء المتراخين فى المدارس . وقصار العقول تعوزهم قوة الإرادة للابتعاد عن الشر ، وليس لهم من قوة الثبات العقلى ما يعصمهم من الزلل ويقاومون به المغريات . إذ لابد للشخص الذى يريد أن يكون ذا خلق كريم أو مطواعا للقانون من أن يكون لديه قدر خاص من قوة العقل . بيد أن هذه الفئة هى الفئة التى تعنى بها مدارس ضعاف العقول عندنا وهى الفئة الخطرة على المجتمع ، لأنها الفئة التى يتناسل أفرادها بكثرة ، لأن الأبله لايلد والمعتوه يندر أن يقترن أما قصير العقل فلا يقتصر على الزواج بل الأدهى من ذلك أنه ينسل عن غير طريق الزواج .

مدى انتشار الضعف العقلى :

ليس لدينا إحصائيات يعتد بها نقدمها لبيان مدى انتشار الضعف العقلى ، فبينما يقدر بعضهم ضعاف العقول بثلث فى المائة من عدد سكان بلادنا يقدرهم آخرون بثلاثة إلى أربعة فى المائة . والأرجح أن اثنين فى المائة أقرب إلى الصحة . وتتضمن هذه النسبة عددا كبيرا من قصار العقول ، فى الدرجة العالية ، الذين يتولون أحيانا شئون أنفسهم . على أن

الخطر ليس فى عدد من لدينا منهم وإنما الخطر فيما نشاهده من السرعة فى تكاثرهم . فبينا تغص البيمارستانات بأمر ٨٥ إلى ٩٥ فى المائة من المجانين لانجد إلا عشرة أو خمسة عشر فى المائة من ضعاف العقول معنيا بأمرهم. فنحن لا نخشى منهم أعمال العنف كما هو الحال مع المجانين إذ أنهم من هذه الناحية لا ضرر منهم ، ولكننا نرى أن نسل كل ألف ممتاز الصلاحية من سكان بلادنا فى كل خمسين عاما ٦٦٧ عقب نرى أن كل ألف ممن هم أقل صلاحية ينتج ٣٦٥٠ عقب أى ستة أمثال ما يعقبه الألف من الأصلحين تقريبا . فان لقصير العقل البنية والشهوة والقوة اللازمة للتناسل لكن ينقصه القدرة على كبح جماح شهواته . فهو لذلك يخلف وراءه ذرية كبيرة . وكل ناقص على هذا الاعتبار لا يقتصر أمره على كون الإجرام فيه بل يتعداه إلى احتمال صيرورته مجرما — تبعا للأيدى التى تتناوله .

الضعف العقلى والجريمة والرذيلة :

ليس لنا على ضعيف العقل فى الوقت الحاضر سلطة حتى يقترف جريمة، وعند ذلك يبدأ إشرافنا عليه بمدارس الإصلاح والإصلاحيات أو الملاجئ . فربع الأطفال الذين يقدمون إلى محاكم الأحداث أو نصفهم مصاب فى عقله والإصلاحيات عندنا ومدارس الإصلاح ملأى بهم. وإليك بعض تقديرات للنسبة المئوية لضعف العقل فى إصلاحياتنا مبنية على اختبارات عقلية:

المعهد	النسبة المئوية لأولى العاهات
إصلاحية سانت كلود فى مينوسوتا	٥٤
« راهواى فى نيوجرسى (اختبار بنيت)	٤٦
« بدفورد فى نيويورك (دون سن الإحدى عشرة)	٨٠
« لانكاستر فى ماساشوسيت (للبنات)	٦٠
مدرسة ليمان للبنين فى وستبوروه بماساشوسيت	٢٨
معهد بنتونفيل بإيلنواز — للأحداث	٤٠
إصلاحية ماساشوسيت	٥٢
« نيو أرك بنيوجرسى . محكمة الأحداث	٦٦
« الميرا فى نيويورك	٧٠
« جنيفا فى الينواز (اختبار بنيت)	٨٩
مدرسة أوهيو للبنين «	٧٠
« « للبنات «	٧٠
ثلاث إصلاحيات فى فرجينيا «	٧٩
دار ولاية نيوجرسى للبنات	٧٥
مدارس جلين ميلز فى بنسلفانيا (للبنات)	٧٢

ومن هذا البيان يتضح أن نسبة ضعاف العقول على العموم فى معاهـد الإناث أعلى منها فى معاهد الذكور . ويرجع ذلك الى أن البنت الضعيفة العقل أقرب الى الزلل من الولد الضعيف العقل . على أنه وإن لاح للناظر من هذا البيان أن عدد الضعيفات العقول أكبر من عدد البنين الضعاف العقول فان العكس هو الصواب . إذ الفتيات الضعيفات العقول أضعف إرادة إزاء المسائل الجنسيـة من الذكور ولذلك يقعن فريسة لغير المتحرجين من الرجال . أما الرجل المصاب فى عقله فقلما يميل الى المرأة العادية . وتقدر بصفة عامة نسبة ضعيفات العقول فى المومسات عندنا بما لا يقل عن خمسين فى المـائة من عددهن . ويرى جودارد (Goddard) أن خمسين فى المـائة على الأقل من المجرمين مصابون فى عقولهم . وإن كانت غالبية الثقات تقدّر نسبة المصابين فى عقولهم من المجرمين بما يتراوح بين ٢٥ و٥٠ فى المـائة . وليس ضعاف العقول أكثر من غيرهم جنوحا بطبيعتهم الى الرذيلة والإجرام إذ الواقع أن ضعيف العقل العادى وديع سهل القياد وإنما علة هذه الطائفة هى عدم قدرتهم على ضبط أنفسهم فهم غير قادرين على مقاومة الإغراء ، ولذلك تزل بهم أقدامهم ويندفعون الى الرذيلة والإجرام . وهم عاجزون عن التمييز الدقيق بين ماهو حق وما هو باطل . ولذلك يجب ألا يعدوا مجرمين عاديين بل أطفالا أو مخبولين وينبغى ألا يعدوا مسئولين عما يقترفون . إذ الواقع أن الشخص الضعيف العقل له جسم الإنسان الراشد وعقل الطفل . وإنه لمـا ينافى المنطق والعقل أن ننتظر من مثل هـذا الشخص ما ننتظر من الشخص البـالغ الراشد . ويصدق هذا على ضعيف العقل من حيث عادة السكر فانه ما دام أقل اقتدارا على مقاومـة دواعى الإغراء يكون سريعا الى الوقوع فريسة للخمر . على أن هذه الدواعى قد قلت كثيرا مذ حرم القانون تجارة الخمور فى الولايات المتحدة ، أما قبل ذلك فكان كل ضعيف العقل فى حكم المدمن لا يعوزه إلا أن يرى طريق الغواية فيسير فيها .

الفاقة وضعف العقل :

إن علاقة الضعف العقلى بالفاقة والعـدم شـبيهة جدا بالعلاقة بينه وبين الجريمة . وضعيف العقل تنقصه قوة الفكر اللازمة لكسب العيش ، إذ أن نظامنا الاقتصادى الحاضر يقضى للقوى بالبقاء، أما الضعيف فيذهب ضياعا تحت أقدامه . ولـمـا كان الأبله غير قادر على أن يعمل شيئا فلابد أن يكفله الجمهور أو الأفراد . أما المعتوه ففى وسعه القيام بالأعمال الهينة ولكنه غير مهيأ لإعالة نفسه بنفسه من غير مرشد . وأما قصير العقل ففى وسعه أن يقوم بالأعمال العادية ولكن تعوزه ملكة التدبير ، لذلك كان غير قادر على تصريف شؤون حياته على وجه السداد . فلابد لهذه الطوائف الثلاث بعد قليل أو كثير من الزمن أن تطلب معونة الغير . وقد يعول الأهل بعض هؤلاء ، والجمهور يتولى إعالة الباقين . ومما يزيد

المسألة شرا أن قوانين جميع الولايات تقريبا تسمح لقصار العقول بل للمتوهين أن يتزوجوا . نعم قد يكون فى وسع بعض هؤلاء أن يعنوا بشؤون أنفسهم أما القيـام بأمر أسرة وأولاد فمستحيل عليهم . ومما يزيد المشكلة تعقيدا أن ضعاف العقول يكونون ذوى أسر كبيرة ويعيش معظمها عيشة شقاء . ولقد يلطف من بلواهم عطف أصدقائهم وجيرانهم ولكن ليس فى ذلك حل للمعضلة . أما الباقون فيلجئون فى النهاية الى دور البر والمواساة ويرى جودارد (Goddard) أن ٥٠٪ من حالات الشحاذة فى هذه البلاد مرجعها ضعف العقلية [1]

وضعف العقل كما أوضحنا سابقا مسألة نسبية فليس فى الاستطاعة رسم حد فاصل بين مرضى العقول وصحاحها . والاعتقاد سائد بأن كثيرا من الخائبين عندنا، إن لم نقل غالبهم، إنما كانوا كذلك لأنهم لا يملكون الكفاية العقلية ليكونوا على غير ما هم فيه . فهم وإن كانوا قادرين على العمـل تعوزهم القدرة على تنظيم الحيـاة تنظيما معقولا فتقديرهم للأمور ناقص وكفايتهم العقلية من الانحطاط بحيث تراهم غير قادرين على تشكيل أنفسهم بشكل البيئة التى يعيشون فيهـا . ولقد تراهم فى أيام الرخاء ماضين فى سبيل الحياة بغير صعوبة ولكن اذا ما اعترضتهم المصاعب عجزوا عن تخطيها .

علاقة الضعف العقلى بالتعليم :

مدارسنا غاصة بتلاميذ تراهم غير قادرين على التحصيل . نعم إن منهم من هم متأخرون بسبب الكسل أو ضعف البنيـة أو قلة الغذاء أو فقدان العناية ، ولكن منهم من هم كذلك لنقص فى عقولهم ، لا ترى عندهم ما عند الطفل العادى من القابلية للتعلم . فهم لا يستطيعون التفكير فى المعنويات وتجدهم بطيئى الفهم ضيقى الذاكرة لا يقدرون أن يتذكروا فى الغـد ما حفظوا اليوم . فهم عقبة فى سبيل تقدم الدراسة . ويلوح أن تعليم مثل هؤلاء التلاميذ يكاد يكون مستحيلا لأنهم عاجزون بالفطرة عن التقدم وليس وجودهم فى المدرسة ظلما لهم وحدهم من حيث إنهم فى حاجة الى عناية خاصة بهم بل إنه إجحـاف بالتلاميـذ العاديين إذ تتعطل دراستهم تبعا لذلك .

وكذلك مسألة هرب التلاميذ من المدرسة فانها من الأمور التى لها نصيب من الضعف العقلى فان كثيرين من التلاميذ يكثر هربهم بسبب عجزهم عن النجاح فى الدراسة .

---

(١) ص ١٧ من كتابه (Feeble-Mindedness, Its Causes and Consequences.)

أسباب الضعف العقلى :

إن من الصعب جداً ، اذا لم نقل من المتعذر ، التحقق من وزن كل سبب على حدته من أسباب الضعف العقلى. فكثيراً ما يكون السبب الذى يدلى به للتعليل غير السبب الحقيقى بيد أن جمهور الثقات متفقون على أن قدر ثلى أمراض العقل على الأقل مرجعها الوراثة أى أنها ترجع الى أرومة سيئة .

والضعف العقلى خاصة يمكن معالجتها فى ذاتها . وعلى هذا الاعتبار وجد أن يتبع قانون « المندلية » (Mendelism) على أنهم لايدرون أهو خاصة سائدة (Dominant) أو متنحية (Recessive) لذلك إذا حرمنا على ضعاف العقول أن يتناسلوا أمكننا بضربة واحدة أن نمحو ثلى ما يكون لدينا من ضعاف العقول فى الجيل القادم . أما الثلث الباقى فيرجع أمره إلى أسباب عدة كالمرض والحوادث المختلفة . وهناك نوع من الضعف العقلى يسمى المغولى (Mongolian) لشبهه بالخصائص البدنية المغولية وهو فى الأسر الراقية أكثر منه فى الأسر الفقيرة أو التى هى أقل كفاية من غيرها . ويظهر أنه من المتعذر تعليل ذلك إلا فى بعض حالات على حدتها .

وقد يرجع النقص العقلى الى سوء تغذى الشخص قبل ولادته أو الى صدمة أو حادث يقع للجنين . و يعزونه أحيانا الى مشقة الوضع ، أو استعمال الآلات لدى الولادة. ومع ذلك فإن الغالب فى هذه الأحوال أن يكون الطفل تام السلامة . وفى الأبحاث التى قام بها جوادارد (Goddard) يعزى ١٩٪ من أسباب الضعف العقلى الى وقوع حوادث للطفل منها ٨,٢٪ قبل الوضع و ١٠,٦٪ بعده . ويعزى ٥,٣٪ من أسباب الضعف الى حدوث التهاب العمود الفقرى (Spiral Meningitis) وهو مرض كان فى الماضى كثير الذيوع شديد الخطر على الحياة . فلقد قدر أن نسبة الوفيات بسببه كانت ٧٥٪ من الإصابات وأن من ال ٢٥٪ الذين كانوا ينجون ٩٧٪ أصبحوا ضعاف العقول . أما الآن فبفضل طرق العلاج الحديثة نزلت نسبة الوفيات الى ٢٥٪ .أما نسبة الذين تتأثر عقولهم فلم تعرف بعد . وثمة سبب آخر وهو مرض الزهرى . ولكن لصعوبة الحصول على معلومات كافية لا يمكن تحديد نسبة مضبوطة له . ولقد قيل إن سلالة الأسر التى يتزاوج أفرادها دون أن يدخلها دم جديد عرضة للضعف العقلى ولكن البحث لم يؤيد هذا القول فمتى كانت الأرومة جيدة فمن النادر أن يكون لهذا الزواج أثر سيئ و إنما يكون له ذلك الأثر اذا كانت الأرومة غير قوية . أى أن تزاوج أقارب الدم قد يزيد الضعف العقلى ولكنه لا يحدثه إلا فيما ندر .

علاج الضعف العقلى :

كان علاج ضعاف العقول فيا مضى مهملا وكان العاجزون منهم عن القيام بأمر أنفسهم يوكل أمرهم الى أقربائهم أو يودعون دور الإحسان مع سائر العجزة القاصرين . كانوا فريسة القوى وموضع اللهو من المجتمع . فأبله البلدة كان فى كل زمان شخصية معروفة . ولا يزال الى اليوم موضع الأذى من صبية المجتمع . وكانوا يتركون الأشخاص العاجزين عن أداء أى عمل عالة على الجمهور . حقا لقد وجدت مدارس خاصة لضعاف العقول منذ مدة طويلة تزيد على قرن ولكن كان موضع الخطأ أن الذين كان يجب أن يكونوا فيها لم يرسلوا اليها . وفى الولايات المتحدة على وجه التخصيص لا يوجد قانون يحتم عزلهم، ولم يكن يعتنى بأمرهم إلا يوم كان أهلهم يجدون من أنفسهم رغبة فى ذلك ويوم كانوا يجدون مكانا لهم فى المعاهد الخاصة . وكان عدم اتساع تلك المعاهد لجميع المصابين صعوبة أخرى إذ كانت قوائم طلبات الدخول أطول من قوائم المقيمين بين جدرانها . وفضلا عن هذا فان الأفراد الذين كان يسمح لهم بالدخول هم البله والمعتوهون من الدرجة السفلى الذين يكونون عبئا على ذويهم فهم لهذا غير مرغوب فيهم . والواقع أن هذا النوع من ضعاف العقول أقلهم خطرا لأن حياتهم وموتهم سواء . زد على هذا أنهم لا يتناسلون . أما الذين يحتاج الأمر الى حجزهم احتياجا شديدا فهم أهل الدرجة العليا من المعتوهين وقصار العقول . ومن العجيب أن هؤلاء يعنى بهم أقل عناية مع أنهم مصدر الخطر الأكبر . وربما لا يكون من الشر إخراج البله من المدارس الخاصة وإيداعهم دور الإحسان أو ترك أمرهم الى مجالس البلديات والمقاطعات وقصر معاهد العلاج على الطبقات العليا من ضعاف العقول . وليس ثمة علاج آخر اذا رفض الآباء أن تعنى المعاهد بأبنائهم . ولكن فى الواقع أن فى الآباء كثيرين يأبون جهلا منهم أن يرسلوا أبناءهم اليها غير مدركين أنهم يكونون أسعد حالا فى مأوى يحميهم ممن لا يستطيعون مجاراتهم .

وينحصر العلاج الحديث فى عزل هؤلاء المنكودين عن المجتمع عزلا تاما وحمايتهم وتوفير أسباب السعادة الممكنة لهم وتدريبهم الى الحد الذى تستطيعه مداركهم ، ثم جعلهم نافعين قادرين على إعالة أنفسهم أو على عمل ما تسمح به حالتهم . فلقد كان الصبية بمصنع الآجر فى مدرسة نيوجرسى (New Gersey) لضعاف العقول بفاينلاند (Vineland) يكلف الواحد منهم الحكومة قبل الحرب حوالى ٦٩ دولارا فى السنة وهو ينتج من الآجر ما قيمته فى العام مائة دولار . وكان الداخل فى بقية الأقسام كافيا لإعالة أهلها و يزيد فى بعضها عن حد الكفاية . وغالب المدارس الحسنة الإدارة تقوم بجميع ما تحتاج اليه من الأعمال تقريبا وتنتج

معظم الأشياء التى هى فى حاجة اليها وتبيع للجمهور بعض ما تخرجه من السلع . ومن ثم كانت نفقة إعالتهم قليلة . ويرعى فى هـذه المدارس أن يكون العمل سارا ومستحبا بقدر ما يمكن بحيث يشعر الأطفال أن العمل الذى يقومون به كأنه بعض ألعابهم . وينوع لهم العمـل تجنبا للسأم . فيقضى الطفل ساعة فى الفصل مثلا وأخرى فى غرفة صنع الأحذية أو فى عمل آخر ، ثم ساعة فى اللعب تحت مراقبة مدرب قدير . والقائمون على هذه المدارس لا يهتمون بحشو أدمغة الأطفال بالمعلومات اهتمامهم بجعلهم صناعا ماهرين . وأمكن الوصول بمزج روح اللعب بالعمل الى نتائج طيبة .

وقد اقتبست مدام مونتسورى (Madame Montessori) طريقتها التى جادت بها على الدنيا فى التربية من مدرسة باريسية لضعاف العقول . والواقع أن طريقتها هى مجرد تطبيق للطرق المتبعة فى معالجة ضعاف العقول من أكثر من سبعين عاما على صحاح العقول . ذلك أنها تكمل بحواس اللمس والذوق والشم عمل حاسة البصر . فالمعلمون فى مدارس ضعاف العقول بدلا من تناول الآراء المجردة أو أشياء خيالية يستخدمون أرغفة أو عددا من الطوب ، أو التفاح مثلا ، ويتناولون هـذه الأشياء باليد حتى يدرك الطفل لأول وهلة الحقيقة التى يريد المعلم أن يوصلها اليـه . والواقع أن مثل هؤلاء الأطفال لا يصح أن يجبروا على أن يعملوا شيئا ، بل يجب أن توقظ فيهم الرغبة فى عمـل الأشياء . بهذه الطريقة يتيسر فى كثير من الأحيان جعلهم نافعين جدا ولا سيما فى مثل أعمال العناية بغيرهم من الإطعام والقيام بالشؤون المينة . وفى معهد واڤرلى (Waverly) بماساشوسيت اذا كبر الذكور نقلوهم الى بيئة أخرى وشغلوهم فى إعداد الأراضى الزراعية . وبهذه الطريقة يقضون معظم الوقت فى الهواء الطلق ويمكنهم سد نفقة إعالتهم . وإذ أنهم هناك لا يرهقون بالعمل فانهم دائما سعداء راغدون . ومعظم المعـاهد المنشأة لعلاج ضعاف العقول يقوم بعمله خير قيام . وكل ما نحن فى حاجة إليه هو توسيع نطاق أعمالها وأن تتولى الحكومة العناية بجميع ضعاف العقول ولا سيما قصار العقول (Morons) ولا يتأتى هذا إلا بتشريع خاص ورقابة تنفيذية كافية . ولا بد أن يبقى أفراد هذه الطبقة من الناس معزولين فى المعـاهد طول الحيـاة إلا فى أحوال الشفاء التى قد تتأتى أحيانا بإجراء عمليات جراحية فى المخ أو العمود الفقرى .

ولقد قيل فى بعض الأحيان باعقام ضعاف العقول ولكن لم يعد أحد يقول اليوم بذلك لمنافاته للانسانية ولأنه لا يمنع الشخص من نشر المرض حتى وهو فى حالة عجز عن التناسل . كما أن هذا من شأنه أن يضع فى يد الغير سلطة كبيرة . على أن الإعقـام لا ضرورة له لأن العزل غير شاق ؛ بل إنه قد يكون فى بعض الأحيان نعمة يحيا بها المصاب لأنه يحميه . وفى الطاقة أن يجعل به سعيدا ونافعا . ثم إنها خطة أرخص كلفة على المجتمع إذ يندر أن يتمكن الضعيف العقل من تحصيل ما يقوم بأوده اذا هـو لم يكن فى مدرسة خاصة به . وبالعزل

يمكن التخلص من ثلثى ضعاف العقول بطريقة لا تنافى الإنسانية . ثم إن تحريم المسكرات ومناهضة الفسوق من شأنهما تقليل عدد ضعاف العقول . وجملة القول ان هذه المسألة سهلة التناول والحل . وكل ما هو لازم اليوم هو قليل من الدعاية والتشريع الصالح وفرض مقدار صغير من الأموال لهذا المشروع . أما بعد ذلك فلا تحتاج صيانة المؤسسات إلا لمخصصات ضئيلة فى كل سنة وربما لا تكون هذه المخصصات ضرورية فى كثير من الأحوال . ومن العجيب أن مسألة كهذه سهلة الحل قد أهملت فى الماضى هذا الإهمال المحزن .

العمى والصمم :

العمى والصمم من العاهات الجسمانية الدائمة التى تستوجب البحث . ويرجع السبب فى ٨٠٪ الى ٩٠٪ من حوادث العمى الى الأمراض السرية . ولقد أمكن منع حوادث العمى بنسبة كبيرة وذلك بقطر محلول الزئبق فى عيون الأطفال حديثى الولادة ، كما أن حقنة « ٦٠٦ » قد نجحت فى وقف بلايا الزهرى إلى حد معين . يزاد على ذلك حملتنا الواسعة النطاق على الشر الاجتماعى والتشهير بعواقب الفجور فقد أدت الى نقصان مداه رويدا رويدا . ولسوف نرى على مضى الزمن نقصان أحوال العمى [1] أما الصمم فهو يختلف عن ذلك قليلا ، وهو وإن كان عاهة وراثية كالمميزات الأخرى يتبع قانون « المندلية » فهو الى اليوم مسألة غير خطيرة . والواقع أنك قلما تعثر بشخص أصم أبكم . وفى الإمكان تخفيف وطأة العمى والصمم بالتعليم الملائم . فالعميان يمكن تعليمهم حرفا يستطيعون بها فى الغالب كسب عيشهم دون كبير مشقة . أما الصم فهم أحسن حالا إذ لا يقتصر الأمر فيهم على امكان تعليمهم أن يتفهموا الناس بقراءة حركات الشفاه بل إن منهم من يصبح بفضل التعليم قادرا على الكلام . وفى الإمكان أن يتعلموا التخاطب بأبجدية رمزية خالصة فليس الأمر سوى قليل من الصعوبة . والواقع أنه اذا حرم الشخص إحدى حواسه سدت سائر الحواس مسدها بصيرورتها أقوى حسا . وبديهى أن أصحاب هذه العاهات يلاقون كثيرا من العوائق فى طرق حياتهم ما خلا الاحتراف بالموسيقى وما يشبهها ، فالعميان فيها قادرون قدرة تامة على مجاراة غيرهم . على أن التعليم يحل هـذه المعضلات بسهولة لأنهـا لا تتضمن من أمراض الخطر ما فى ضعاف العقول . لأن العمى والصم لهم من قوة ضبط النفس ما للصحاح فهم لذلك لا يتناسلون بأسرع من هؤلاء . بل إنهم لا يتكاثرون مثل كثرة الصحاح لصعوبة حصولهم على الشريك . على أن العمى عاهة غير وراثية وكذلك الصمم فانه قلما يكون موروثا .

---

(1) لقد أظهر تعداد سنة ١٩٢٠ أن عدد العميان فى الولايات المتحدة هو ٥٢٦١٧ بمقابلة ٥٧٢٧٢ فى تعداد سنة ١٩١٠ (وربما كان كلا التقديرين أقل من الحقيقة) ومن هؤلاء ٣٠١٩٩ من الذكور و٢٢٤١٨ من الإناث منهم ٤٥٧٧٣ من البيض و٦٣٠٦ من السود و٤٨٨ من الهنود مما يظهر معه أن نسبة العمى من السود والهنود أعلى منها فى البيض .

الجنون :

ليس من أغراض هذا الكتاب محاولة تعريف الجنون وتناول صوره المختلفة أو الدخول فى بحوث مسهبة عن أسبابه . وإنما غرضنا الاقتصار على توجيه النظر اليه من حيث إنه نوع من العاهات ومن حيث إنه جزء من موضوع معالجتنا سوء تنظيم المجتمع . فالجنون حالة تؤثر فى الجهاز العصبي وهى لذلك تؤثر فى سلوك الأفراد . ومن الصعوبة القصوى كما قلنا فى معرض الكلام على الضعف العقلى أن نرسم الحد الفاصل بين الجنون والعقل . والواقع أنه يتعذر رسم حد دقيق . فالإنسان الكامل فى عقله يكاد يكون نادرا ندرة الرجل الكامل فى جسمه . على أن هذا لا يفيد أن الشخص غير كامل العقل مجنون فثمة أناس كثيرون لهم صفات وعادات خاصة ويعرفون بغرابة مزاجهم وهم مع ذلك لا يعدون مجانين . وقد يكون الشخص شاذا ويختلف اختلافا ظاهرا عن رفاقه ولا يحتم أن يكون لذلك مجنونا . ويعد الشخص من الوجهة القانونية سليم العقل حتى ولو كثر شذوذه ما دام يحيا حياة عادية ويستطيع أن يعنى بأمر نفسه ويحافظ بدرجة صالحة على السلام مع أقربائه وجيرانه ويستطيع القيام بنصيبه من الأعمال الاجتماعية المعتادة . واذ هو لم يستطع أن يعنى بشؤونه الخاصة أو اذا صار خطرا على من حوله فعندئذ قد يعتبر مجنونا . وإذ أن الجنون مسألة نسبية فان من الصعب جدا الحصول على إحصاءات خاصة به وكل ما يعرض من الإحصاءات قابل للنقد .

كثيرا ما يقال إن الجنون مرض من أمراض الحضارة ولإثبات هذه النظرية يقدمون إحصاءات تفيد تكاثر أحوال الجنون ، إحصاءات يلوح أن المراد منها الإشارة الى أنه كلما زاد ضغط الحضارة زاد عدد الأشخاص الذين ينوءون بأعبائها فيفقدون عقولهم تبعا لذلك . ولكنا بتمحيص الوقائع نجد أن جزءا كبيرا من تلك الزيادة المزعومة إن لم تكن كلها ، راجع الى أن عددا أكبر من المجانين أصبح اليوم يجد سبيله الى البيمارستانات . ولذلك سهل تعرفهم وعدّهم . كما أن المجنون فى الوقت الحاضر أصبح يعيش مدة أطول من قبل بفضل ما يلقاه من حسن المعاملة . وإنه ليلاحظ أن حوادث الجنون أكثر وقوعا فى طبقات العمال منها فى طبقات أصحاب الحرف الفنية . والواقع أن نسبة الجنون بين أصحاب الحرف الفنية من الرجال والنساء الذين يعانون أكبر الجهد كالمدرسين والمحامين والأطباء أقل من نصف نسبة الجنون بين العمال . وأقل نسبة معروفة بين هؤلاء هى نسبة الجنون فى طبقة المدرسين — على أنهم ربما كانوا أشدهم إجهادا للعقل . ولقد اتضح أن العمل الراتب الذى لا تنوع فيه أشد إضرارا بصاحبه من الإجهاد العقلى . فان فى استطاعة الإنسان أن يتحمل الجهد اذا كان فى عمله تنوع . ومن أجل هذا نجد الجنون بين الزراع وزوجات الزراع خاصة بقدر كبير .

وللجنون فنون كثيرة ومن فنونه الرئيسية الهوس (Mania) إذ تصدر من المجنون أعمال لايدرك خطورتها كالانتحار أو القتل. ومنه السوداء—الماليخوليا (Melanoholia) ومنه الجنون الفارغ (Paranoia) حيث يبدو المصاب رزينا عاديا فى معظم الأمور ثم يكون متهوسا فى أمور معينة كالدين مثلا . ومنه الخبل (الديمانتيا) (Dementia) وهو انحلال عام فى العقل كثيرا ما يأتى عقب نوع آخر من الجنون ثم الشلل العام (الباراليسيس) (Paralysis) . ولقد قسم المشتغلون بهذا الموضوع هذه الأنواع الى أقسام ثانوية ثم هم يقولون بوجود أنواع أخرى كثيرة من الجنون الظاهر . على أنهم يربطون الجنون بالضعف العقلى والصرع . نعم إن من السهل التفرقة بين الضعف العقلى والجنون ، فأولئك الذين لا تصل عقولهم فى نموها الى المستوى العادى يعتبرون ضعاف العقول وأولئك الذين يولدون صحاح العقول وتصل عقليتهم فى حينها الى الحد الطبيعى ثم يفقدونها بعد ذلك يعتبرون مجانين . ولكن من الصعب عمليا رسم هذا الحد الفاصل . وكثيرا ما تؤدى نوبات الصرع كما سنرى، الى خمود القوى العقلية .

وأسباب الجنون كثيرة ومختلفة وموضوعها من الموضوعات التى يثور حولها جدل لا حصر له . واليك بعضا من الأسباب المتداولة : الصرع والفجيعة والانفعالات العنيفة وإدمان المسكر والمخدرات والانفلونزا وإجهاد الفكر والشيخوخة وعيب التكوين الخلقى والوراثة والإصابات البدنية والروماتزم وبعض الأمراض كالتدرن والزهرى وكذا النفاس والغلو الدينى ورتوب العمل والشغل المرهق ونقص الغذاء والحنين الى الوطن والغيرة والملع ومتاعب الأعمال ، أى أن هناك فئتين رئيسيتين لأسباب الجنون : الوراثة والجهد العقلى . هذا ويكاد يكون من لوازم الجنون سوء التغذى وسوء قيام أعضاء الجسم المختلفة بأعمالها .

علاج المجنون :

كان الإنسان الهمجى ينبذ المجنون أو يقتله ولو أنه فى بعض الأحيان كان يقوم بحمايته. ويمكن القول بوجه عام إن معاملة المجنون كانت سيئة حتى القرون الوسطى فقد كانوا يعاملون المجانين معاملة المجرمين فيودعونهم السجون والكهوف مثقلين بالأغلال متحملين كل أنواع الإهانات . أما الآن فقد أبطلت تلك الوسائل ولم يعد المجنون فى نظر الناس شخصا مجرما بل منكودا يستحق العطف وإن لم تنتبه النفوس فى هذه البلاد الى ما يلقاه المجانين من المعاملة الوحشية فى كثير من بيمارستاناتنا إلا منذ سنوات قلائل . وأصبحت العناية اليوم بأمر المجانين من واجبات الحكومة . فقد اتضح أن من الخطل ترك هذا الأمر للأفراد والجمعيات الخيرية . وحلت الشفقة اليوم محل تلك الوسائل القديمة وما تضمنت من حبس

انفرادى فى الغرف الضيقة والكهوف والأقفاص وتقييد بالسلاسل و ربط الى الكرى واستعمال القمصان والشباجات والحجامة والإجاعة. ومن النادر اليوم أن يلجأ المختصون برعاية المجانين الى أى ضرب من ضروب الشدة . ولم يعد الجنون فى نظر الناس تلك المصيبة المروعة كما كان بل أصبحوا يرون كثيرا من حالاته قابلا للشفاء . فعند ما يدخل المريض البيمارستان العادى يؤخذ من فوره الى المستشفى لتشخيص حالته . فاذا رئى أن حالته مما يرجى له الشفاء اتبع العلاج الذى يرسمه الأطباء إما بالمستشفى وإما بمكان آخر . واذا كان المريض أن يتقه فالغالب أن يكون ذلك فى أثناء السنة الأولى ولذا كان من الحكمة والاقتصاد السخاء ، بل الإسراف فى الإنفاق على المريض فى أثناء الشهور القليلة الأولى . بهذا تصون الحكومة مبالغ كثيرة. وتحتاج الحالات الحادة الى معالجة شخصية خاصة ولا سيما الى الحمامات والأغذية المتنوعة والتدليك كما يجب للمصاب بمرض عادى . أما حالات الجنون المزمن فهى فى حاجة الى حراسة مستمرة ولكن ٥٠ ٪ من المصابين هادئون مطيعون ومنهم من يكون قادرا على العمل ولمعظم البيمارستانات الحسنة الاستعداد بهذه البلاد مزارع يعمل فيها كثير من أهلها. وكانت أشيع طريقة فى بناء مستشفيات المجانيب فى الماضى تنطوى على إنشاء حجرة نوم مستطيلة الشكل مقسمة أقساما لكل طائفة من درجة واحدة فى الجنون قسم خاص ثم كانت هذه الأبنية تسترعى النظر نظرا الى قلة نفقاتها والى ما تثيره فى نفس سكان المدينة المشيدة بها من الفخر ولكنها ليست خير نموذج فى الأبنية لأنه لا يمكن معه أداء العلاج الفردى. ويشبه هذا الطراز بل يفوقه طراز «المنظرة» (Pavilion) المشتمل على أجنحة من طبقتين فانه يساعد على حسن الإضاءة وكمال التهوية. على أن النظام المتفق عليه الآن هو نظام الأكواخ للأسباب التى جعلته أصلح نظام لتشييد التكايا . ولقد اشتهر فى بلدة غيل (Gheal) ببلجيكا فاقتبسته أقطار أوربية كثيرة . وبمقتضى هذا النظام يؤخذ المرضى الى منازل الفلاحين كأنهم بعض أفراد الأسرة . ولكن هذا النظام لا يلائم الأحوال فى أمريكا. وفى اسكتلندا يكون ⅕ من المصابين الى الأسر تحت مراقبة منتظمة. وهم هناك يعاملون معاملة سائر أفراد الأسر ولقد اتبعت هذه الطريقة فى « ماساشوسيت » فى معالجة بعض أحوال الجنون التى يرجى شفاؤها فكان لها نتائج طيبة . ولكن الطريقة الحديثة تتضمن اليوم العلاج فى المستشفى للمرضى الذين يرجى شفاؤهم ثم علاج الولاية والحراسة المستمر تبعا لنظام الأكواخ فى أحوال الجنون المزمن . أما المصابون القادرون على العمل والذين هم فى حاجة الى العيش فى الخلاء فانه يتبع معهم نظام المستعمرات ما تيسر ذلك . وهم اليوم يعنون بحالة المرضى الجسمانية عناية طبية ولكنهم كثيرا ما يهملون الحالة النفسية . وتكاد تكون وسائل الرياضة والتسلية الكافية مفقودة فى أغلب الأحوال. على أنهم أخذوا فى معظم المصحات يوجهون جهدهم الى تلافى هذا النقص .

الصرع :

الصرع مرض زادت العناية به عما كانت عليه فى الماضى . وهذا المرض أشكال شتى فالمصروعون أنواع : بعضهم صرعه عنيف شديد فهم عرضة لإيذاء أنفسهم أو رفقائهم ، وبعضهم مصابون به بدرجة خفيفة ، ومنهم القادرون على مزاولة أعمالهم العادية فى الحياة والقائمون بأود أنفسهم ، ومنهم من لا يستطيع ذلك لتوالى النوبات عليه وشدتها . ويقترن الصرع بالضعف العقلى عادة فهو سبب فيه وقد يصير بعض ضعاف العقول من جهة أخرى مصروعين . نعم ان الصرع لا يؤثر فى البدن تأثيرا بالغا ولكنه يؤثر فى العقل عادة ، وكثيرا مايؤدى الى حالة ضعف العقل . وهو فى جوهره مرض عصبى وورائى الى درجة كبيرة ولكنه يحدث أحيانا أثر وقوع خوف فجائى أو إجهاد عقلى طويل أو إفراط فى العمل أو انهماك فى الدعارة . وهو كما أسلفنا سبب من أسباب الجنون .

كان الصرع فيما مضى يهمل أو تعالج حالاته الفردية على يد الأطباء . أما اليوم فقد أخذوا فى معالجته فى المصحات أو المستعمرات . وكانت أول مستعمرة أنشئت لهذا الغرض فى بيلفلد (Bielfeld) فى ألمانيا وأنشئت مستعمرات عدة فى الولايات المتحدة يلحقون بها عادة مزرعة كمستعمرة كريج (Craig) فى سونيا (Sonyea) بولاية نيويورك. أما العلاج الحديث فيتطلب نظام الأكواخ مصحوبا بالحياة الخلوية أو بنوع من نظام المستعمرات الزراعية بحيث يتيسر فيه العناية ويقل فيه الإجهاد العقلى والشعور بالذلة الى أقصى حد ممكن .

وجملة القول ان الجنون والصرع ليسا من المسائل الخطيرة فى المجتمع خطورة مسألة الضعف العقلى . فالمجانين يحجزون فى مصحات خاصة . وكل مافى الأمر أنهم يتطلبون معاملة الرحمة والحكمة. وكذلك الشأن فى الصرع فنحن نعالج المسألة كما نعالج الجنون عاملين على وقاية المجتمع من أذاه . أما مسألة ضعف العقل فانا لم ننتبه بعد الى ما تنطوى عليه الحالة من الخطر مع أن هذه المسألة هى شر المسائل الثلاث وأنكاها .

الجزء السادس

الفصل السادس والعشرون

التقــدم

حاول الكثيرون أن يعرفوا التقـدم فعرفوه بأنه زيادة فى السعادة الإنسانية [1] أو « تحسين المجتمع » أو « التحسن الاجتماعى » أو أنه « التغلب على الطبيعة » أو « تحصيل المعرفة » . ولسنا بصدد أن نضيف الى هذه القائمة تعريفا جديدا . و إنما نحاول أن نكوّن فكرة عن حقيقة التقدم ثم ننظر أيتقدم المجتمع حقا أم لا :

معنى التقدم :

يمكن أن يفسر التقدم بأنه ضمان أوفى لبقاء الجنس أو لحفظ المجتمع الإنسانى . فلقد عاش الإنسان فى مبدإ الأمر قليل الأمن على حياته إذ كان فى خطر الفناء والإبادة فى كل آن تقريبا وعرضة للهلاك اذا واجهته نكبة من النكبات الكبيرة .

و يقرر علماء الأجناس أنه لا بد أن يكون عدد لا حصر له من الطوائف أو العصب قد فنى عن آخره ، إما لأن عصبا أقوى منهم وأكبر قد أبادتهم وإما لوقوع كارثة من الكوارث عليهم . يخبرنا التـاريخ الانجيـلى وأساطير بلاد كثيرة عن حدوث طوفان عظيم فى مبدإ التاريخ الإنسانى كاد يذهب بكل الجنس البشرى . ويخبرنا علمـاء الأجناس أيضا عن وقوع نكبات أخرى ، وعن فناء أجناس فى أزمنة أخرى مثلما أباد عنصر الكرومانيين (Cro-Magnon) عنصر النياندرتال (Neanderthal) بل إن تاريخ العصور التى تعـد حديثة نوعا ما، ينبئنا عن وقوع كوارث وملاحم كانت مهلكة جدا كوجات المهـاجرة المغولية المختلفة وحملات أتيلا والغزوات الإسلامية . ولقد سبب الموت الأسود (Black Death) خسارة جسيمة فى أهل أوروبا . كما أن الحرب العظمى الأخيرة أنذرت بتأخر المجتمع، الى ما سببت من موت الملايين . ويرى بعض العلمـاء الآن أنه سيأتى فى القريب العاجل زمن يصبح فيه العالم مكتظا بسكانه اكتظاظا يجعل الحصول على وسائل العيش عسيرا

---

[1] كتاب (Dynamic Sociology) تأليف (L. F. Ward) صفحة ١١ وصفحات ١٧٤ — ١٧٧

جدا إن لم يكن مستحيلا. بل يغالى بعضهم فيتكهن بهلاك المجتمع نفسه. لهذا يتضمن التقدم المقدرة على مقاومة مثل هذه المخاطر وضمان بقاء المجتمع فى المستقبل . ثم إن هذه الفكرة ولا شك تعد وجها من وجوه التقدم ولكن التخلص من الخطر ليس كل شىء . فليس التقدم مجرد عملية تأمين وليس هو فكرة سلبية محضة ، بل هو كذلك فكرة إيجابية ولا بد أن يهئ لنا غرضا آخر غير مجرد البقاء .

أجل إن التقدم معناه أوسع من مجرد بقاء المجتمع ولا بد أن يتضمن حياة أتم ويطمح الى وجود أكمل . فيجب أن يكون معناه تيسر قدر أكبر من السعادة وحصول فكرة أسمى عن معنى الحياة نفسها. كما يجب أن يتضمن حدوث اختلاط يكون أكثر انسجاما بين أفراد المجتمع مما هو الآن . ولا بد أن يعنى بقيام الأوضاع الاجتماعية بوظائفها على وجه أصلح؛ فلا يكفى أن يقتصر جهد هذه الأوضاع على كبح جماح الأفراد ، بل يجب أن يكون فى مقدورها أن تعطى الناس فى مقابل ذلك خيرا كثيرا . يجب أن تخدم المجتمع وتحميه . ولا يقتصر التقدم على كونه يتضمن معنى النجاح بشرور المجتمع فحسب ، بل وعلى الانتقال به الى حال أحسن وأسعد . وهو غير مقتصر على مجرد تحصيل قدر أوفى ونوع أرقى من الطعام والكسوة والحصول على منازل أتم وأرخى وعلى تقليل ساعات العمل وتحسين أحواله وعلى إحداث بيئة صحية أوفى — كل هذه الأمور من المسائل التى يسعى اليها ولا بد من أن ندخلها فى اعتبارنا عند ما تمثل لأنفسنا صورة عن التقدم. ولكن التقدم يعنى شيئا فوق هذا؛ فهو يتضمن زيادة فى الثقافة وتحسنا فى التربية واتساعا فى مدى الإنتاج الفنى وتقدير الفن ، وإشباعا لحواس الجمال من أنفسنا . وفيه فضلا عن ذلك معان أخرى فهو يتضمن حتما ذيوع الرقى الخلقى والروحى على وجه أعم وأسمى . كما أنه يتضمن زيادة نمو روح الإحسان بين الناس ورعاية الحقوق . وفيه معنى قيام العدالة وانتشار المساواة بين الناس (الديموقراطية) على وجه أعظم وكذلك زيادة المساواة فى الفرص بين الأفراد وتنمية روح الخدمة الاجتماعية ، وإحلال مبدإ الاتجاه الى ما يمكننا تأديته للمجتمع محل ما يمكننا أن نجنيه منه من الفوائد . وموجز القول لا بد أن يتضمن التقدم ذيوع مبدإ القاعدة الذهبية على وجه أعم .

ثم إن هناك معانى للتقدم يمكن إضافتها الى ما سبق أو أن يستبدل بها سواها ، ولكننا حاولنا أن نلم بمعالم التقدم كما تبدو لمين العالم الاجتماعى . ولنتناول الآن سؤالنا الثانى وهو : هل نحن سائرون فى طريق التقدم ؟ هذا سؤال كثيرا ما يلقى ويجيب عليه كثيرون بالنفى . نعم لا مشاحة فى أن هناك تقدما من ناحية زيادة المعرفة وإنتاج الثروة والتقدم الصناعى ، ونرى أن التقدم فى ميدان الحياة الاقتصادية غنى عن البيان غناء لا يدع مجالا للمجادلة ، ولكننا اذا تناولنا بالبحث حال المشتغلين بالصناعة وجدنا مجال النقد فسيحا . أما من وجهة الحالة الدينية والخلقية فانك تجد الناس دائمى التحسر على ما يزعمونه انحطاطا وانحلالا من

هذه الوجهة . وفى بعض الأحيان يرمون الأسرة بالفشل فى مهمتها . ويقول بعض الناس الان بأنهـا عاشت أكثر مما كان يجب لتحقيق غرضها . ولا يفى المتشائمون يذكروننا أن الأمور سائرة من سيء الى أسوأ ؛ ولكنها فلسفة تشاؤم لا يمكن أن يقرهم عليها من ينظر الى الموضوع بعين التحقيق . وما على الإنسان ليدحض مثل هذه الحجج إلا أن يوازن بين أحوال المجتمع اليوم وأحواله منذ بضع مئات من السنين .

صيرورة الأوضاع الاجتماعية أكثر فائدة للناس :

الأسرة : فى المجتمعات التى كانت تسـودها زعامة الأم (Matriarchy) كانت روابط الأسرة عرضة للانفصام فى كثير من الأحوال ولم يتيسر أن تقوم الأسرة دائما بمهمتها خير قيام. وهى فى أفضل صورها لم تزد على أن تكون نظاما اقتضته الضرورة. أما فى المجتمعات التى كانت تسودها زعامة الأب (Patriarchy) فقد قويت أواصرها وإن كان هذا باخضاع الزوجة والأولاد فيها للرجل . وقد صارت المرأة إما منحطة المقدار، وإما خادمة لزوجها . وكثيرا ما أصبحت مجرد متاع فى منزله . وبتقدم الزمن ارتقى مقام المرأة وحسن حالها حتى لقد أوشكت فى أكثر الممالك أن تكون على قدم المساواة مع الرجل ظافرة بامتيازاته وفرصه كافة . وتقوم الأسرة الآن بواجباتها فيما يختص بالأولاد على صورة أوفى منهـا فيما مضى . فقد أتى على الأولاد زمن كان من المستطاع فيـه بيعهم بيع الرقيق ، وكثيرا ما كان يحدث هـذا . وكان للأب على أولاده فى نظام زعامة الأب حق الإعدام والإبقاء مثلما كان له على زوجته تماما، وهى حال لم يبق لها وجود فى البلاد المتمدينة. وكان الآباء فى المـاضى يهملون الأطفال إهمالا كبيرا ولا نزال نرى شيئا من ذلك حتى فى يومنا هذا، وإن لم يصل الإهمال اليوم الى ما كان عليه من قبل . ولقد أصبحت الأسرة اليوم على وجه الإجمال أقدر على أداء واجبها مما كانت فى أى عصر من العصور المـاضية ، بل إنه ينتظر من علائق الأسرة الآن قدر أكبر من النفـع . فنحن نتطلب منها اليوم السعادة والراحة على حين أنهم كانوا فيما مضى لا يرونها إلا أداة لحفظ النوع .

الحكومة :

التطور من هذه الوجهة مستمر . فالحكومة التى لا تقوم بخدمة الناس أحسن قيام لابد أن تزول عاجلا أو آجلا وتحل محلها أخرى تحسن العمل . فاذا أصبحت الحكومة استبدادية أو اضطهادية فانها تندحر حينما تصبح قوى الشعب التى كانت مكتوفة ، من البأس بحيث تملك أن تثبت اقتدارها .ولقد زاد نصيب الشعب فى إدارة شؤون الحكومة زيادة مطردة .

وكانت الحكومة فى مبدإ الأمر آلة تستعمل لتحقيق المصالح الشخصية لفئة قليلة ، أما الآن فلا بد لإمكان نجاح الحكومة من أن تقوم بخدمة الأهلين على أحسن وجه ممكن. وهناك نزعات متزايدة فى السنوات الحديثة نحو أشكال الحكم الجمهورى أو الدستورى حتى إننا نرى نموا مطردا فى كفاية هذا الشكل من الحكم للنفع العام وترانا فى بلادنا نجاهد بلا انقطاع فى تطهير الحكومة من أذى أثرة بعض الطبقات وعوامل النهب ، ونجتهد فى خدمة الجمهور على وجه أفضل .

نعم لم تبلغ حكومة من الحكومات حد الكمال وإن بها جميعا كثيرا من العيوب ولكن لا محل للموازنة بين الخدمات التى تؤديها نحو الشعب حكومة حديثة كحكومات الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وبين حكومات بابل ومصر القديمة وآشور وفارس وروما . فقد كانت الحكومة القديمة قاسية ضيقة الصدر مستبدة على حين نرى الحكومة الحديثة تحمى وتخدم رعاياها .

الدين :

كثيرا ما نسمع أن هناك انحطاطا فى الدين وأن الدين فى طريق الفناء ، ونحن نرى مع ما يشاهد من تضاؤل فى الرسميات الدينية وتناقص فى سلطة الدين المطلقة أن الدين نفسه أصبح أنقى وأنفع للانسان ، ذلك لأن قوة الضبط التى كانت للدين الأولى تعتمد على الخوف والخرافة ، وكان الخوف أكبر عامل للضبط فى المسيحية الأولى حتى عهد البيوريتان .

وكان الدين فى الماضى ضيق العطن(*) لا يسمح أى شكل منه ببقاء غيره بجواره. وقد حدثت اضطهادات فظيعة أيام المسيحية باسم الدين لا لشئ سوى ضيق عقل القادة الدينيين وتعصبهم الأعمى . أما اليوم فقد صار رجال الدين كما صار رجال الحكومة أقل استبدادا يحاولون جهدهم خدمة الناس. وقد لا حظنا إذ تناولنا موضوع الدين أنه كان فى تطور مستمر الى أن ظهرت المسيحية ، وهى فى نظر المؤلف أرقى نظام دينى معروف فى هذا العصر ويقول إن المسيحية تزداد نقاوة وتعمل — أكثر مما عملت فى أى وقت آخر — على تنفيذ تعاليم السيد المسيح . وأنها عاملة على أن تكون مهمتها قيادة الناس لا أن تسوقهم وتدفعهم ، وأن تخدمهم لا أن تفرض عليهم الطاعة لأشكال وعقائد مرصوصة . وهى لا تعمل كثيرا على إلزام جميع الناس اتباع أفكار دينية أو مبادئ لاهوتية واحدة بل هى تترك كل فرد حرا فى تكوين عقيدته وأن يتعبد على النحو الذى يراه .

(*) لو درس المؤلف الاسلام وتقصى سياسته لم يفته أن يذكر سماحة الاسلام وتسامحه الباهر مع سائر الأديان فى كل عصوره ولوجد فى شريعته دواء العيوب والفضائح والمشكلات التى يحاول أن يلمس لها علاجا فلا يجده ولعمرى إنهم ما يوفقون الى خير او اصلاح يحمدون الله عليه الا ما سبقهم الاسلام الى تقريره . (المعرب)

المستويات الخلقية والمثل العليا :

كلما تقدم المجتمع وجدنا أن المستويات الخلقية والمثل العليا تصبح أسمى وأنقى . فاذا وازنا بين مالدينا من قوانين الأخلاق وبين ما كان عند البابليين أو المصريين القدماء أو ما كان بين العبرانيين والإغريق القدماء أدهشنا عظم الفرق. نجد أن مبدأ الانتقام الذى كان أساس الجزاء فى الماضى قد بطل وحلت محله تعاليم المسيحية المبنية على التسامح والعفو ولم نعد الآن نقر الرق أو قتل الأطفال وقد امتنعنا عن تعذيب المتهمين والشهود وعن التفنن فى ابتكار أشد ما يمكن من أنواع الآلام لتوقيعها على المجرمين. بل إنا لنحرم ضرب الزوجات وتشغيل الأطفال ونحاول إصلاح ما فسد من مجرمينا ما استطعنا الى ذلك سبيلا . وهى مثل عالية لو قال بها أحد فى العصور الماضية لرمى بالجنون . ونحن ننادى بوجوب التسوية بين الجميع فى فرص تحقيق المطالب . نعم قد نحيد فى بعض الأحيان عن مستوياتنا الخلقية ولكن هـذا يكاد يكون مرجعه دائما أن مستوياتنا القديمة قد قصرت بنا عن الغاية قبل أن نجد لأنفسنا بدلا جديدا منها .

التربيـــة :

على الرغم من أن نظمنا فى التربيـة عرضة لكثير من النقد المستمر نراها مطردة السير فى سبيل التقدم والنفع وما تبينا عيوبا فى نظم التربية عندنا إلا علامة طيبة . ولعل أعظم تقدم فى ميدان التربية كونها الآن فى متناول الجميع بعد قصرها على عدد ضئيل من الناس كما كان الحال فى الماضى . والتربية اليوم تجرى قدما على خطط موجهة الى خدمة الفرد ونفع المجتمع جملة .

وقصارى القول ان كل أوضاع المجتمع أصبحت أنفع أثرا وأعود عليه بالفائدة ، والمجتمع لا ينى فى هدم سـيطرة الأوضاع على الأفراد ثم فى صوغها من جديد صوغا يزداد به نفعها لبنى الإنسان .

قيام المجتمع بعمله على وجه أكمل :

إن مافى المجتمع من الميول والبواعث آخذ فى النقاء والبعد عن الاثرة وأن يكون أقل تجمعا حول الفرد . فاننا نرى روح الإيثار أصبحت مطردة النمو، ونلاحظ فى أنفسنا ازدياد الرغبة فى تقديم مصلحة غيرنا على مصلحتنا . بل إن الأمم نفسها قد أخذت تعمل بهذا كما يتبين

ذلك من السياسة الاستعمارية التى تتبعها بريطانيا العظمى ومن سلوك الولايات المتحدة نحو جاراتها وبخاصة المكسيك . واليوم نرى المصالح الاقتصادية ملزمة أن ترعى مصالح العمال الصحية . كما أن المجتمع لا يتى فى غل يد المصالح الشخصية المؤذية للجموع وفى استئصال الطوائف والجماعات القائمة على مثل هاته المصالح ، كتجارة المسكرات والبغاء والحلقات السياسية. ومع أن هذه المصالح الفردية ستبقى على الدوام فان المجتمع دائب على غل تلك النزعة ويحاول أن يجعلها أنقى وأ كثر فائدة للجتمع والأفراد المتقمصين بها .

ولقد أخذت نظم الضبط أو وسائله تصير أقدر على تأدية الغرض منها. فالرأى العام الآن أشد أخذا بأسباب المنطق وأقوى أثرا ، لأننا لا نفتأ نحسن مواصلاتنا فنهيئ له بذلك فرصة زيادة استنارته. ولما كان الرأى العام يتعلم بالمرانة فانه سيصبح بذلك أكثر كفاية من ناحية كونه وسيلة من وسائل الضبط . وكذلك القوانين فإنها آخذة فى أن تكون أكثر ميلا الى المساواة (الديموقراطية) وأقرب الى الوجهة العملية . وقد رأينا تقدما وائما فى التشريع الاجتماعى فى السنوات القليلة الأخيرة فلدى كل الأمم الأوربية تقريبا نظم لتأمين العمال المشتغلين بالصناعة ، من الحوادث . كما أن لدى أكثر من نصفها نظما للتأمين من المرض . ولدى الكثير منها نظم لمعاش المسنين . أما فى الولايات المتحدة فنحن متأخرون من هذه الوجهة وإن كنا قد تقدمنا بعض التقدم فى السنوات القليلة الأخيرة . والآن بدرت البوادر بما يدل على أننا سنسبق جميع الأمم فى القريب العاجل . فلقد صار عندنا نظم لتعويض العمال فى كل ولاياتنا تقريبا ، وتشريع لمعاش الوالدات فى ثلاثة أرباع الولايات، وعندنا قانون لتحديد النهاية الصغرى للأجور فى ربع ولاياتنا تقريبا . كما أن هناك عاطفة فى مجرى التكوّن نحو التضمين على الصحة . ونحو تنظيم مكاتب التوظف الدائم تكون على النسق الذى اتبع ونجح إبان الحرب العظمى . ونحن آخذون فى اقتباس قوانين لحماية صحة العامل وأخلاقه فى كل فرع من فروع الصناعة . فقد سنت كثير من الولايات القوانين لتنظيم ساعات العمل للنساء والأحداث وتقييد العمل الليلى . وهى تحدد مدة عمل النساء بوجه عام بثمانى ساعات . فأما الصناعات التى يكون طول زمن العمل فيها ذا خطر على الجمهور مثل أعمال السكك الحديدية فاننا جاعلون ساعات العمل فيها أقل فى العدد أحيانا باختيارنا وأحيانا بالتشريع . وقد صدرت قوانين لحماية صحة العامل فى كثير من الصناعات الخطرة غير الصحية كالقوانين التى تحرم استعمال الفوسفور فى صناعة أعواد الثقاب . كما أن القوانين مسارعة الى إجبار أرباب الصناعات على حماية العمال من الآلات الخطرة باستعمال أجهزة الأمن والوقايات .

ولقد كان القوى فى الماضى يسن القانون لمصلحته الخاصة ، أما الآن فالغرض من القانون هو الهيمنة على القوى وحماية الضعيف فاننا نسن القوانين لمحاربة الخطيطة وأعمال التآمر على تثبيت الأسعار وتقسيم الأرباح وأمثال ذلك من وسائل المنافسة غير المشروعة فى الأعمال المالية والتجارية . ونحن فى نظامنا التشريعى عاملون على إعطاء الضعيف فرصة أوفى لنيل العدالة كما يتبين من تنصيبنا المدعى العام .

ولقد أخذ الضبط الدينى بالرغم من تهدم تأثيره المباشر يكون أنفع للفرد والمجتمع معا كما أسلفنا . فالدين بدلا من وقوفه فى سبيل الإصلاح باذل اليوم أقصى جهده فى تنفيذ وسائل الإصلاح. فهو يدعو تابعيه الى أن يكونوا أكثر فائدة للمجتمع ببث روح معاونة المجتمع فيهم بدلا من أن ينعزلوا عن العالم . والضبط بالتعليم والمثل العليا والمعرفة يزداد يوما بعد يوم . واليوم يزداد الالتجاء الى رجال العلم وأصحاب الحرف الفنية والخبراء لاستشارتهم أو لوضعهم فى مناصب ذات مسئولية . فالضبط الاجتماعى زاد أثره وفعله وأصبح أداة لتيسير المساواة بين الناس بقدر أكبر مما كان فى الماضى . وهو بدلا من أن يوجه لمصلحة طبقة خاصة من الطبقات كما كان الحال فى الماضى تراه الآن متجها الى إقرار الحرية والمساواة (الديموقراطية) بقدر أكبر . فأما الضبط القائم على وسائل مصطنعة من خرافات الى شعائر الى عادات أو تقاليد ، فقد أخذت أهميته فى الضعف على حين أن الضبط بمعونة الرأى العام والتربية والاستنارة فى زيادة مطردة بالغة .

وجهازنا الاجتماعى كله يعمل معا بطريقة نافعة ملائمة فهو يتيح للناس قدرا أكبر من الرقى الخلق ومدى أوسع من المساواة فى الفرص . على أننا نرى اليوم انتقادا عظيما لنظامنا الاجتماعى بسبب أنه اذا ساءت حالات المجتمع يجبر الطبقات السفلى على التزام حالة من الشقاء والعجز يستحيل عليهم فيها أن يحاروا بالاحتجاج أو يتطرق الأمل اليهم . وهناك نزعة مستمرة نحو صبغ أوضاعنا صبغة اشتراكية . ففى حياتنا السياسية نجد النزعات الاشتراكية مطردة الاستباق الى الأمام : فى بعض الأقطار بفضل قيام حزب اشتراكى صريح ، وفى بعضها كما فى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، باقتباس الأحزاب السياسية الكبرى سياسة اشتراكية كسياسة التأمين الاجتماعى فى بريطانيا العظمى والهيمنة الحكومية فى بلادنا هذه . وحالة النظام الاجتماعى الآن أفضل كثيرا مما كانت فى الماضى على رغم ما قد يوجه من النقد الى حالة الطبقات الاجتماعية الحالية ولا سيا فى بعض الأقطار . نعم قد تكون الفروق بين طبقاتنا كريهة وممقوتة فى بعض الأوقات ولكن هذه الفروق لا تقف فى سبيل المساواة والحرية والتقدم كما وقف نظام الطبقات الاجتماعية فى الماضى فى أمثال بلاد مصر وفارس والإغريق وروما ، وفى فرنسا فى أيام البوربون وروسيا فى أيام أسرة رومانوف ، وفى كل

قطر من أقطار العالم فى القرون الوسطى . والواقع أن الأخطاء التى تشاهد فى النظام الاجتماعى الحالى هى فى العادة نتيجة بعض احتكاكات ضئيلة . ولكنا دائبون على إزالة الأسباب وتسوية حزونها ولا بد طبعا أن تجد مشاكل كثيرة بسبب تغير الوسائل وقيام نظم جديدة كالتى يسببها اختراع الآلات أو الاستكشافات العلمية ، ولكن المجتمع يناضل مثل هاته الصعاب ويصرعها .

نعم إن كان المجتمع يزداد اليوم تعقدا وتوشجا ولكنه يعد أنجح فى عمله منه فى الماضى وذلك لأنه يخدم الإنسانية بدرجة أوفى ويسمح بحدوث التقدم فى جميع المرافق بخطى أوسع.

سوء التنظيم الاجتماعى صائر أقل ضررا :

نعتقد — وإن تكن تتوالى علينا النذر كل يوم بخطر شر قائم فى المجتمع وترى الناس يتذمرون عند نشوء حالة جديدة — أن معضلات الأسس العظيمة قد أخذت تحل صعوبتها ، كما أننا نلاقى الأخطار الجديدة ونقاومها بنجاح . فالفقر والإجرام كانا فى وقت ما أكبر مسائلنا الاجتماعيـة حتى لقد عدنا فى بعض الأحيان فى عداد ما لا دواء له . وكثيرا ما ذعر المجتمع لنسبتهما الهائلة. ومع ذلك فإننا — بالرغم من أنهما لا يزالان بين ظهرانينا بل لا بد من وجودهما بيننا على شكل ما — لم نعد نعدهما مستعصيين على العلاج . فنحن الآن عاملون على اقتلاعهما من جذورهما ، ومجاهدون فى استئصال أسبابهما وفى تطبيق وسائل العلاج الرشيدة على من يرزحون تحتهما . فأما من جهة الجريمة فإننا عاملون على حماية المجتمع منها وإصلاح جميع المجرمين الذين يستطاع إصلاحهم . كما أننا عاملون على اجتثاث أسباب الجرائم والحيلولة دون بثها مجرمين جددا . ومع أن جهودنا لا تزال بخفة غير متقنة وعلى الرغم من أننا كثيرا ما نفشل فى محاولتنا نجد أنفسنا سائرين على النهج الصحيح ظافرين بنتائج طيبة .

ولقد كنا فيما مضى نعد عادة تناول المسكرات حالة طبيعيـة لا مسألة خطيرة حتى إذا ملكنا الذعر منها أخذنا نعالجهـا ولكنا لم ننجح إذ ذاك نجاحا يذكر إلا فى تنبيـه الناس إلى شرورها وإيقاظ الرأى العام لضررها. ثم اختمرت الفكرة بمافيه الكفاية فتقدمنا فى الولايات المتحدة فى سبيل حل المشكل تقدما متنقلا وأصدرنا قانون التحريم[1] . وبهذا اختزلنا المسألة حتى جعلناها مما يدخل فى حظيرة القانون وتحت سطوته . وخطت أوروبا منذ بداية الحرب العظمى خطوات واسعة فى سبيل تحقيق الغرض نفسه . على أنهم بالرغم مما يلقون هناك من صعوبة حيث شيطان هذا الأمر محصن تحصينا أقوى مما كان عليه فى الولايات المتحدة ، ملاقون قسطا من النجاح فى عملهم .

(١) وضع المؤلف كتابه هذا أثناء سريان قانون التحريم الذى ألغى اليوم . (المعرب)

فأما الفسوق فاننا مع تسليمنا بأن الحالة فيه كانت سيئة فى عشرات السنين القليلة الماضية — تقرر أنه لم يصل الى الدرجة الكبيرة التى وصل اليها فى روما أو فى أوروبا فى العصور الوسطى . ونحن عاملون على تقليل أهمية هذه المعضلة وإضعافها بإقلاعنا عن العمل على كبح معالمها الظاهرية والانصراف الى اجتثاث الشر من أصوله وذلك باستئصال أسبابه . فنحن عاملون على القضاء على ناحية الطلب المندفع الى هذا الشر بدلا من الاكتفاء بمعالجة ناحية العرض منه . وكذلك الأمر فى معالجتنا الرذيلة فنحن لا نحاول القضاء عليها وإنما نعمل على منعها . وقد لاقت جهودنا فى هذه البلاد نجاحا يعد متوسطا ولكنا سائرون الى الأمام .

ومن جهة ذوى العاهات تراناً نحاول أيضا أن نعالج المسألة بطريقة إنشائية منتظمة هى استئصالهم من المجتمع بطريقة منطوية على روح الإنسانية والإيثار بقدر الإمكان . فنحن عاملون على استئصال هذه الطبقات فى الأكثر بمنع تكاثرها وما يتبعه من حلول أجيال جديدة من ذوى العاهات محلها . وبهذه الطريقة سيتيسر لنا استئصال هذه الطبقات الخطرة بدلا من تركها تملأ علينا الفجاج . ولسنا ندعى لأنفسنا نجاحا كبيرا فى أمر ضعاف العقول ولكنا آخذون فى التنبيه الى ضرورة العمل وسنستطيع فى القريب العاجل أن نتناول المسألة بعلاج على أساس علمى متين .

نعم إننا ننظر الى المستقبل بعين الاستبشار ولكن التحسن لايمكن أن يأتى بغير عراك دائم وجهد مستمر . ولذلك نحن فى حاجة دائمة الى الاجتماعى الحاذق وكذلك الى المصلح . وسيستلزم الأمر يقظة وجهودا من المجتمع وعزما أكيدا منه على بلوغ النجاح . سيتطلب الأمر كفاحا وجهدا دائمين بدلا من التزام سياسة دع الأمور فى مجاريها "Laissez faire"

ولقد ينكر علينا العراك العالمى الهائل ، الذى اجتزناه توا — ذلك الكفاح العصيب الذى لم ير التاريخ له مثيلا — حسن ظننا هذا أو يزعزعه . فلقد زعم الناس عند بداية الحرب العظمى أنها المدنية الأوروبية قد نعيت . بل لاتزال هذه الفكرة قائمة حتى فى يومنا هذا بعد ما انقطعت الحرب بمدة . ولكنا قريبو العهد بذلك الكفاح الشنيع حتى ليصعب علينا تبينه على حقيقته . فقد تكون تلك الحرب على رغم فظاعتها سببا فى مغنم لم يكن يمكنا أن نفوز به لولا قيامها . كذلك كان الأمر فى الثورة الفرنسية فقد لاحت خارقة فيما سفك فيها من الدماء

ولكن فرنسا الزاهدة السعيدة التى قامت بعد ذلك لم يكن من الميسور أن توجد بدونها . وكذلك الأمر فى حريق شيكاغو وزلزال سان فرانسسكو فقد كانا من الكوارث الداهية ولكن شيكاغو وسان فرانسسكو الحديثتين لم تكونا لتوجدا لولا ذلك . وكذلك كان حريق روما ولندن نعمتين خفيتين . ولقد تخرج من الأنقاض التى سببها العراك القريب العهد ، أوروبا أخرى حرة وزاهدة ، كما قد يصل بنا الزمان إلى مستوى من المدنية لم نكن لنبلغه لو لم تحدث تلك المذبحة الهائلة . وقد بدأت الدلائل تدل فعلا على أننا مطالعون حالة جديدة من مساواة (ديموقراطية) أعظم وحرية سياسية أوسع ورقى اجتماعى بالغ . وربما كان العالم فى حاجة إلى مثل هذه المحنة النارية النكراء ليستخلص بها معانى أرقى فى الأخلاق وليتخذ منها نموذجا اسمى من المدنية والحضارة . هكذا كان تاريخ الماضى . وتدل الدلائل الحاضرة على أن الحرب الحديثة ستساعد على الوصول إلى قدر أكبر من التقدم فى المستقبل لا أن تقف فى طريقه

مراجع للقارئ

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
	A	
New York, 1910 ...	Woman in Industry	Abbott, Edith.
„ 1917 ...	The Immigrant and the Community.	Abbott, Grace.
„ 1898 ...	The Science of Finance	Adams, Henry, C.
„ 1905 ...	Labour Problems	Adams, T. S. and Summer, H. L.
„ 1902 ...	Democracy and Social Ethics ...	Adams, Jane.
„ 1909 ...	The Spirit of Youth and the City Streets.	—
„ 1912 ...	A new Conscience and an Ancient Evil.	—
„ 1905 ...	Marriage and Divorce	Adler, Felix.
London, 1907	Housing	Alden, Percy and Haywood, E. C.
Boston, 1909	Civics and Health	Allen, W. H.
Yonkerson-Hudson, 1919	Rural Education and the Consolidated School.	Arp, J. B.
Frans. by Albrecht, ; Boston, 1913.	Crime and Its Repression	Aschaffenburg, Gustav.
New York and London, 1911.	War, Totemism and Religion ...	Avebury, Lord.
Stuttgart, 1861 ...	Das Mutterrecht	Bachoffen, J. J.
New York, 1911 ...	The Country Life Movement ...	Bailey, L. H.
„ 1906 ...	Modern Social Conditions	Bailey, W. B.
„ 1908 ...	Following the Color Line	Baker, R. S.
„ 1910 ...	Our Slavic Fellow Citizens... ...	Balch, Emily G.
„ 1913 ...	Social and Ethical Interpretation.	Baldwin, J. Mark.
Boston, 1905	The Saloon Problem and Social Reform.	Barker, J. M.
New York, 1913 ...	A Short History of the United St[illegible].	Bassett, J. S.
London, 1909	Unemployment : A Problem of Industry.	Beveridge, W. H.
Boston, 1903, 2 vols.	Psychological Aspects of the Liquor Problem.	Billings, John.
New York, 1915 ...	Outlines of Sociology	Blackmar, F. W. and Gillin, J. L.
„ 1908 ...	New Encyclopedia of Social Reform.	Bliss, D. P.
„ 1911 ...	The Mind of Primitive Man ...	Boas, Frans.

تاريخ الطبع ومكانه	ان الكتاب	اسم المؤلف
Los Angeles, 1917 ...	Introduction to Soc iology	Bogardus, Emery S.
Los Angeles, 1920 ...	Essentials of Social Ps ychology.	"
New York, 1901 ...	The Science of Penology	Boies, H. M.
" 1903 ...	Getting a Living	Bolen, G. L.
Boston, 1916	Criminality and Economic Conditions.	Bonger, W. A.; Transl. by Horton.
London, 1892	Life and Labour of The People of London, 5 vols.	Book, Charles.
New York and London, 1906	The Family	Bosanquet, Hele
London, 1910	An Elementary Manual of Statistics.	Bowley, A. L.
New York, 1905 ...	Family Desertions	Brandt, Lilian.
Philadelphia, 1901 ...	Races and Peoples	Brinton, D. G.
New York, 1897 ...	Religions of Primitive Peoples ...	"
Cambridge, Mass, 1915	Social Adaptation...	Bristol, L. M.
New York, 1903 ...	The Social Unrest	Brooks, J. G.
New York, 1889 ...	The American Commonwealth ...	Bryce, James.
" 1901 ...	Industrial Evolution	Bucher, Carl.; Transl. by Wichett.
London, 1857–1863 .	Introduction to the History of Civilization in England.	Buckle, H. T.
3rd edition, New York, 1908.	Introduction to the Study of Economics.	Bullock, C. J.
New York, 1914 ...	Report on the Cost of Living for an Unskilled Laborers Family in New York City.	Bureau of Standards.
Chicago, 1908	Chapters in Rural Progress ...	Butterfield, K. L.
" 1911	The Country Church and the Rural Problem.	—
Boston, 1901	Substitutes for the Saloon ...	Calkins, Raymond.
New York. 1919 ...	The Anatomy of Society	Cannan, Gilbert.
" 1920 ...	The Czechs in America	Capek, Thomas.
Boston, 1911	The History and Problems of Organized Labour.	Carlton, F. T.
Chicago, 1912	Country Life and the Country School.	Carney, Mabel.
Boston, 1906	Sociology and Social Progress ...	Carver, T. N.
" 1911	Principles of Rural Economics....	—
Cambridge, Mass, 1915	Essays in Social Justice	—
Chicago, 1912	Heredity and Eugenics	Castle, W. E., Coulter, J. W., Davenport, C. B., East, E. M., Tower, W. L.
Cambridge, Mass, 1920	Genetics and Eugenics	Castle, W. E.
New York, 1913 ...	Introduction to the Study of Social Evolution.	Chapin F. S.

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
New-York 1917 ...	An Historical Introduction to Social Economy.	—
" 1909 ...	Standard of Living among Workingmens' Families in New York.	Chapin, R. C.
—	Our Italian Fellow Citizens ...	Clark, F. E.
New York 1911 ...	Making Both Ends Meet	Clark, S.A. and Wyatt, E.
" 1919 ...	Economics for the General Reader.	Clay, Henry.
" 1908 ...	The Story of Primitive Man ...	Clodd, Edward.
" 1912 ...	Child Labor in City Streets ...	Clopper, E. N.
Chicago, 1916 ...	Psychology of Religion	Coe, G. A.
New York, 1911 ...	Report	Commission on Country Life.
" 1920 ...	Races and Immigrants in America.	Commons, John R.
London, 1858	Positive Philosophy	Compte Auguste. Transl by Martineau, 2 Vols.
Princeton, 1915... ...	Heredity and Environment ...	Conhlin. E. C.
New York, 1909 ...	How to Help	Conaungton, Mary.
" 1902 ...	Human Nature and the Social Order.	Cooley, Charles H.
" 1909 ...	Social Organization	—
" 1918 ...	Social Process	—
London, 1888	Flagellation and Flagellants ...	Cooper, W. M.
New York, 1914 ...	Co-operation among Farmers ...	Coulter, J. L.
"	Thinking Black	Crawford. Daniel.
London, 1898	Civilisation and Progress	Crosier, John B.
New York, 1912 ...	The Improvement of Rural Schools	Culberley, E.P.
" " 1914 ...	Rural Life and Education ...	—
Boston, 1914	Play and Recreation for the Open Country.	Curtis, Henry S.
Cold Spring Harbor, 1912.	The Hill Folks	Danielson, F. H. and Davenport, C B.
New York, 1871 ...	Descent of Man and Selection in Relation to Sex.	Darwin, Charles.
" 1911 ...	Heredity in Relation to Eugenics.	Davenport, C. B.
Cold Spring Harbor, 1911.	A First Study of Inheritance of Epilepsy.	Davenport, C. B. and Weeks D. F.
Indianapolis, 1920 ...	Twentieth Century Rural School	Davis, C.C.
Boston, 1920	Immigration and Americanization.	Davis, Philip.
London, 1910	The Vagrancy Problem.	Dawson, W.H.
New York, 1905 ...	Text-Book in Sociology	Dealey, J. A. and Ward L. F.
" " 1903 ...	The Fenement House Problem, 2 vols.	De Forest, R. W. and Veiller, L.
" " 1907 ...	Sex Equality	Dunsmore. E.

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
New York 1904 ...	Principles of Relief	Devine, Edward T.
" 1909 ...	Misery and its Causes	—
" 1922 ...	Social Work	—
5th edition, New York, 1915.	Financial History of the United States.	Dewey, D. R.
New York, 1909 ...	Ethics	Dewey, John and Tufts J. H.
" 1910 ...	Hygiene and Morality	Dock, Lavinia L.
London and New York, 1907.	Woman; Her Position and Influence in Ancient Greece and Rome	Donaldson, James,
New York, 1921 ..	The Little Town	Douglass, Harlan P.
Chicago, 1903	Souls of Black Folks	Du Bois, W. R. D.
4th, edition, NewYork, 1916.	The Jukes	Dugdale, R. L.
London and New York 1905.	At History of Political Theories.	Dunning, W. A.
New York, 1914 .	The Rural Church Movement ...	Earp, E. L.
" 1915 ..	Problems of Community Life ...	Eldredge, Seba.
" 1914 . .	Juvenile Court and the Community	Eliot, T. D.
London, 1894 .	Man and Woman	Ellis, Havelock
" 1890 and 1899	The Criminal	—
Revised edition, New York, 1913.	Sociology and Modern Social Problems.	Ellwood, C. A.
New York, 1912 ...	Sociology in its Psychological Aspects.	—
" 1915 ...	The Social Problem	—
" 1917 ...	An Introduction to Social Psychology.	—
Revised edition, Minneapolis, 1920 ...	Technique of Social Surveys ...	Elmer, M. C.
New York, 1894 ...	Socialism and Social Reform ...	Ely, R. T.
" 1903 ...	The Evolution of Industrial Society.	—
" 1908 ...	Outlines of Economics	—
11th edition	Encyclopedia Britannica	—
Cold Spring Harbor, 1912.	The Man Family	Estabrook, A. H. and Davenport, C. B.
New York, 1896 ...	Introduction to Sociology	Fairbanks, Arthur.
" 1913 ...	Immigration	Fairchild, H. P.
" 1916 ...	Outlines of Applied Sociology ...	—
" 1913 ...	Village Improvement	Farwell, T. P.
" 1909 ...	The German Element in the United States	Faust, A. B.
" 1908 ...	Co-operation at Home and Abroad.	Fay, C. R.
Boston, 1911 .	Criminal Sociology	Ferri, Enrico, Transl. by Kelly and Lisle,
New York, 1887 and, 1902.	Romantic Love and Personal Beauty.	Finch, H. T.

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
New York, 1910 ...	The American Rural School ...	Foght, H. W.
" 1902 ...	The Care of Destitute, Neglected, and Delinquent Children.	Folks, Homer.
London, 1890	The English Poor Law	Fowle, T. W.
New York, 1909 ...	Workingmen's Insurance in Europe.	Frankel, L. K. and Dawson, M.
London, 1907–1913 ...	The Golden Bough; a Study in Magic and Religion, 10 vols.	Frazer, J. G.
" 1910	Totemism and Exogamy, 3 vols.	—
" 1921	Social Decay and Regeneration.	Freeman, R. Austin.
New York, 1918 ...	Rural Life	Galpin, C. J.
London, 1869	Hereditary Genius	Galton, Francis.
New York, 1897 ...	The Evolution of Woman	Gamble, Eliza B. ...
" 1910 ...	Introduction to Political Science.	Garner, J. W.
" 1910 ...	The Evolution of Sex	Geddes, P., and Thomson, J. A.
—	Progress and Poverty	George, Henry.
Boston, 1914	Problems in Political Evolution.	Gettell, R. G.
London, 1911	Unemployment Insurance	Gibbons, I. J.
New York, 1896 ...	Principles of Sociology	Giddings, F. H.
" 1901 ...	Inductive Sociology	—
" 1905 ...	Elements of Sociology...	—
" 1906 ...	Readings in Descriptive and Historical Sociology.	—
" 1922 ...	Studies in the Theory of Human Society.	—
" 1913 ...	Constructive Rural Sociology ...	Gillette, J. M.
Chicago, 1916	Sociology	—
New York, 1912 ...	The Kallikak Family	Goddard, H. H.
" 1914 ...	Feeble-mindedness	—
" 1915 ...	The Criminal Imbecile	—
" 1919 ...	The Family as a Social and Educational Institution.	Goodsell, Willystine.
London, 1913	The English Convict	Goring, Charles.
Revised edition, New York, 1918.	The Passing of the Great Race.	Grant, Madison.
New York	Student's History of Education.	Graves, F. P.
New York, 1913 ...	Play of Man	Groos, Karl.
Boston, 1911	Criminal Psychology	Gross, Hans; Tansl. by Kollon.
New York, 1907 ...	The Beginnings of Art.	Grosse, E.
" 1918 ...	Rural Problem of To-day	Groves, E. R.
" 1896 ...	General History of Civilization in Europe.	Guizot, F. P. G.
Innsbruck, 1883 ...	Der Rassenkampf	Gumplowicz, Ludwig.
Philadelphia, 1899 ...	Outlines of Sociology	— Transl. by Moore.

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
London, 1895	Evolution in Art	Haddon, A. C.
„ 1913	Rural Denmark and its Lessons...	Haggard, H. Rider.
New York, 1907 ...	Three Acres and Liberty	Hall, Bolton.
„ 1919 ...	American Marriage Laws in their Social Aspects.	Hall, Fred S., and Brooke, E. W.
—	Adolescene	Hall, G. S. Stanley.
New York, 1913 ...	Immigration	Hall, Prescott.
„ 1910 ...	The Southern South	Hart, A. B.
„ 1910 ...	Juvenile Court Laws in the United States.	Hart, H. H.
„ 1916 ...	A Political and Social History of Modern Europe.	Hages, Carleton J. H.
Boston, 1913	British Social Politics	—
New York, 1915 ...	Introduction to the Study of Sociology.	Nayes, E. C.
—	The Individual Delinquent ...	Healy, William.
New York, 1893 ...	Dependants, Defectives and Delinquents.	Henderson, C. R.
„ 1904 ...	Modern Methods of Charity ...	—
Chicago, 1907	Outdoor Labor for Convicts ...	—
„ 1911	Industrial Insurance	—
„ 1908	American Communities	Hinds, W. A.
London and New York, 1887.	Leviathan	Hobbes, Thomas.
New York, 1900 ...	Morals in Evolution	Hobhouse, L. T.
London, 1906	Problems of Poverty	Hobson, J. A.
New York, 1922 ...	The Settlement Idea	Holden, A. C.
Boston, 1914	Abolition of Poverty	Hollander, J. H.
Chicago, 1904	A History of Matrimonial Institutions, 3 vols.	Howard, G. E.
New York, 1915 ...	The Modern City and Its Problems	Howe, F. C.
„ 1913 ...	European Cities at Work	—
London, 1904	Native Tribes of Southeast Australia.	Howitt, A. W.
New York, 1904 ...	Poverty	Hunter, Robert.
„ 1916 ...	The Socialism of New Zealand.	Hutchinson, R. H.
London, 1893	Evolution and Ethics	Huxley, Thomas H.
Columbus, 1915 ...	Cost of Living of Working Women in Ohio.	Industrial Commission of Ohio.
Lancaster. Pa.	German Sociology	Jacobs, Philip P.
Philadelphia, 1901 ...	The Study of Religion	Jastrow, Morris.
New York, 1912 ...	The Immigration Problem... ...	Jenks, J. W., and Lauck, W. J.
Cambridge, London, 1909.	Ethnology	Keane, A. H.
New York, 1915 ...	Societal Evolution	Keller, A. G.
„ 1905 ...	Some Ethical Gains Through Legislation.	Kelley, Florence.

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
—	The Pittsburgh Survey	Kellogg, P., and others
New York, 1901 ...	ExperimentalSociology;Delinquent	Kellor, Francis.
„ 1915 ...	Social Euolution	Kidd, Benjamin.
London, 1904	The Essential Kaffir	Kidd, Dudley.
„ 1906	Savage Childhood	—
New York, 1915 ...	Wealth and Income of the People of the United States.	King, W. I.
„ 1912 ...	Elements of Statistical Method.	King, W. S.
Boston, 1916	Fundamentals of Sociology ...	Kirkpatrick, E. A.
London, 1900	History of Socialism	Kirkup, Thomas.
New York, 1913 ...	Commercialized Prostitution in New York.	Kneeland, G. J.
Boston, 1902	Economic Aspects of the Liquor Problem.	Koren, John.
Berkaly, Cal. 1920 ...	Source Book in Anthropology ...	Kroeber, A.L. and Waterman, T. T.
London, 1887	Ritual and Religion, 2 vols. ...	Lang. Andrew, Myth.
Boston, 1906	Elements of Political Science ...	Leacock, S.
Boston, 1915	Means and Methods of Agricultural Education.	Leake, A. H.
New York, 1897 ...	The Crowd	Le Bon, Gustave.
London, 1921	The World in Revolt	—
New York, 1870 ...	A History of European Morals ...	Lecky, M. E. H.
„ 1902 ...	Constructive and Preventive Philanthropy.	Lee, Joseph.
„ 1917 ...	The Offender	Lewis, B. G.
„ 1916 ...	The Planning of Modern Cities...	Lewis, N. B.
„ 1909 ...	Divorce — a Study in Social Causation.	Lichtenberger, J. P.
„ 1905 ...	Juvenile Court Laws of the State of Colorado.	Lindsey, B. B.
„ 1904 ...	Problem of Children; How the State of Colorado cares for them.	—
—	The Beast	—
New York, 1911 ...	Bacteria in Relation to Country Life.	Lipman, J. G.
„ 1865 ...	The Female Offender	Lombroso, Cesare, and Ferrero, G.
„ 1903 ...	The People of the Abyss	London, Jack.
„ 1907 ...	Before Adam	—
London, 1856	Harem Life in Egypt and Constantinople, 2 vols.	Lott, E.
New York	Public Opinion and Popular Government.	Lowell, A. Lawrence.
New York, 1920 ...	Primitive Society	Lowie, Robert H.
London, 1874	Origin of Civilization and Primitive Condition of Man.	Lubbock, John.

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
New York, 1897 ...	Our Juvenile Offenders	Morrison, W. D.
" 1904 ...	Social Diseases and Marriage ...	Morrow, P. A.
" 1921 ...	The Government of American Cities	Munro, W. B.
" 1916 ...	Principles and Methods of Municipal Administration	—
" 1919 ...	Government of European Cities...	—
" 1911 ...	Wages in the United States ...	Hearing, Scott.
" 1911 ...	Social Adjustment	—
" 1913 ...	Social Religion	—
Philadelphia, 1916 ...	Poverty and Riches	—
New York, 1911 ...	The Declining Birth Rate	Newhouse, A.
Chicago, 1921 ...	Readings in Evolution, Genetics, and Eugenics.	Newman, H. H.
Albany, 1909	Report	New York Commission on Immigration.
New York, 1916 ...	City Planning	Nolen, John.
New York	Rural Hygiene	Odgen, R. H.
3rd edition, New York, 1918.	Men of the Old Stone Age	Osborn, Henry Fairchild.
New York, 1914 ...	Within Prison Walls	Osborne, T. M.
" 1913 ...	Paths, Roads and Bridges ...	Page, L. W.
" 1904 ...	The Negro: The Southerners Problem.	Page, T. M.
Chicago, 1921	An Introduction to the Science of Sociology.	Park, R. E., and Burgess, E. W.
New York, 1921 ...	Old World Traits Transplanted ...	Park, R. E., and Miller, H. A.
" 1908 ...	Principles of Anthropology and Sociology in Their Relation to Criminal Procedure.	Parmelee, Maurice.
" 1913 ...	Science of Human Behavior ...	—
" 1916 ...	Poverty	—
" 1919 ...	Criminology	—
" 1906 ...	The Family	Parsons, Elsie Clews.
" 1911 ...	Social Basis of Religion	Patten, Simon N.
" 1907 ...	Hewer Basis of Civilization ...	—
" 1909 ...	An approach to the Social Question.	Peabody, F. G.
" 1900 ...	Jesus Christ and the Social Question	—
" 1879 ...	Races of Man	Peschel, O.
" 1920 ...	Readings in Rural Sociology ...	Phelan, John.
" 1918 ...	American Negro Slavery	Phillips, V. B.
—	The Republic	Plato.
New York, 1909 ...	Introduction to Public Finance, 3rd edition...	Plehn, C. G.
" 1918 ...	Applied Eugenics	Plunkett, Paul, and Johnson, R. H.

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
New York, 1912 ...	Criminal Responsibility and Social Constraint.	McConnell, R. M.
„ 1893 ...	Criminology	McDonald, Arthur.
Boston, 1909	An Introduction to Social Psychology.	McDougall, William.
Glasgow, 1890, New York, 1895.	Introduction to Social Philosophy.	Mackenzie, J. S.
—	Ancient Law	Maine, H.J. S.
London, 1909; adb. edition, New York 1916	An Essay on the Principles of Population, 3 vols.	Malthus, T. R.
New York, 1907 ...	The Problems of Child Welfare ...	Magnold, G. B.
London	Principles of Economics	Marshall, Alfred.
London, 1867–1894 ...	Capital, 3 vols.	Marx, Karl.
New York, 1907 ...	Woman's Share in Primitive Culture.	Mason, O. T.
Boston, 1910	Report	Massachusetts Commission on Old Age Pensions.
New York, 1909 ...	Social Teaching of Jesus	Mathews, Shailer.
„ 1913 ...	The Church and Changing Order	—
„ 1896 ..	Statistics and Sociology	Mays-Smith, R.
„ 1891 ...	Emigration and Immigration ...	—
London, 1905	Woman in Transition	Meakin, Annotte.
„ 1905	Model Factories and Villages ...	Meakin, Budgett.
New York, 1914 ...	Democracy and Race Friction....	Mecklin, J. M.
„ 1920 ...	An Introduction to Social Ethics. .	—
4th. edition New York. 1911.	History of Religion	Menzies, Allan.
New York, 1920 ...	American Political Ideas	Merriam, Charles E.
Lansing, 1915	Report	Michigan State Commission of Inquiry on Minimum Wage.
London	Subjection of Woman	Mill, John Stuart.
London, 1888	Principales of Political Economy.	Miller, Kelley.
New York 1908... ...	Race Adjustment An Essay on the Negro in America.	—
„ 1903	Organized Labor	Mitchell, John.
Revised edition, New York.	A Brief Course in the History of Education.	Monroe, Paul.
New York, ...	Source Book in the History of Education.	—
New York, 1921 ...	The Labor Problem and the Social Catholic Movement in France.	Moon, Parker T.
„ 1916 ...	History of Religions, 2 vols. ...	Moore, George F.
„ 1907 ...	Wage Earners' Budgets	Moore, L. B.
London, 1904 ...	Utopia	Moore, Thomas
New York, 1877 ...	Ancient Society	Morgan. Lewis H.
—	Heredity and Sex...	Morgan, T. H.

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
Paris, 1896	Theories Modernes sur les Origins de la Famille, de la Société et de l'Etat.	Posada, Adolphe.
Boston, 1912	The boy and His Gang.	Puffer, J. A.
Battle Greek, Michigan 1913 and 1915.	Proceedings of First and Second National Conferences on Race Betterment.	Race Betterment Foundation.
London, 1896-1998 ...	The History of Mankind, 3 vols.	Ratzel, F.
New York, 1907 ...	Christianity and the Social Crisis.	Rauschenbusch, Walter.
London, 1905	Principles of Heredity	Ried, G. Archdall.
New York, 1920 ...	The Old estament in the Life of to day.	Rice, J. A.
„ 1917 ...	Social Diagnosis	Richmond, Mary P.
„ 1892 ...	Children of the Poor	Rus, Jacob A.
„ 1892 ...	How the other Half Lives ...	—
„ 1901 ...	The Making of an American ...	—
„ 1902 ...	The Battle with the Slum ...	—
„ 1899 ...	The Races of Europe; A Sociological Study.	Ripley, W. Z.
London, 1906	The Fools	Rivers, W. H. R.
New York, 1912 ...	Of the New Immigration	Roberts, Peter.
Boston, 1906	Economics, Politics, Jurisprudence, and Social Sciences.	Rogers, H. (Editor) Congres of Arts and Sciences at St. Louis, Vol. VII.
New York, 1901 ...	Social Control	Ross, E A.
„ „ 1905 ...	Foundations of Sociology	—
Boston, 1907	Sin and Society	—
New York, 1908 ...	Social Psychology...	—
„ [illegible] ...	Principles of Sociology	—
New York....	The Social Contract	Rousseau, Jean J., Transl. by Harrington
Now York, 1916 ...	Society, Its Origin and Development.	Rowe, H. K.
London, 1902	Poverty-astudy of Town Life ...	Rowntree, B. S.
New York, 1900 ...	The Temperance Problem and Social Reform.	Rowntree and Sherwell.
„ 1913 ...	Social Insurance	Rubinow, I. M.
„ 1916 ...	Standards of Health Insurance.	—
„ 1906 ...	A Living Wage	Ryan, John A.
„ 1907 .	Parenthood and Race Culture ...	Saleeby, C. W.
Boston, 1913.	The Individualization of Punishments.	Salleilles, R., Transl. by Jastrow.
New York	History of Prostitution	Sanger, W. W.
„	Manual of the Science of Religion.	Saussaye, De la.

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
New York, 1917 ...	The Theory of Evolution	Scott, W. B.
„ 1910 ...	Social Insurance	Seager, H. R.
„ 1916 ...	Principles of Economics	Seligman, E. R. A.
Cambridge, England, 1911.	The Veddas	Seligman, R. R. and B. J.
New York, 1911 ...	Influence of Geographic Environment.	Semple, Ellen C.
Boston...	American History and its Geographical Condition.	—
New York, 1920 ...	The Rural Community	Sinis N.L.
London, 1906	Pagan Races of the Malay Peninsula, 2 vols.	Sheet, W. W., and Biagden, O.
New York, 1920 ...	Creative Chemistry	Slosson, Edwin E.
Chicago, 1905 ...	General Sociology...	Small, Albion W.
„ 1907	Adam Smith and Modern Sociology.	—
		—
„ 1910	The Meaning of Social Science...	—
„ 1913	Between Eras	—
New York, 1897 ...	Introduction to the Study of Sociology.	Small, Albion W. and Vincent Geo.
London, 1776	Weather of Nations	Smith, Adam.
London	The Theory of Moral Sentiments.	—
New York, 1919. ...	The Worlds' Food Resources ...	Smith, J. Russell.
Carnegie Foundation, New York, 1919. ...	Justice and the Poor	Smith, R. H.
New York, 1911 ...	Social Pathology	Smith, S. G.
Washington	Annual Reports	Smithsonian Institution.
St. Louis, 1901 ...	Social Institutions	Snider, D. I.
—	Health and Hygiene of Sex ...	Society of Social and Moral Prophylaxis.
2nd edition, New York, 1897.	The Present Distribution of Wealth in the United States.	Spahr, H.
New York, 1906 ...	The Bitter Cry of the Children.	Spargo, John.
New edition, New York 1909.	Socialism	—
London, 1917	Native Tribes of the Northern Territory of Australia.	Spencer, Baldwin, and Baldwin, W.
„ 1908	Northern Tribes of Central Australia.	Spencer, Baldwin, and Gillen, F. J.
„ 1899	Native tribes of Central Australia.	—
New York, 1891–1897	Principles of Sociology, 3 vols....	Spencer, Herbert.
„ 1887 ...	Social Statics...	—
„ 1893 ...	Principles of Ethics	—
„ 1889 ...	Study of Society	—
„ 1912 ...	Old Age Dependency in the United States.	Squier, L. W.

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
New York 1899 ...	Psychology of Religion	Starbuck, E. D.
„ 1906 ...	On the Trail of the Immigrant.	Steiner, Edward A.
„ 1909 ...	The Immigrant Tide, Its Ebb and Flow.	—
„ 1910 ...	Neighbourhood Entertainments...	Stern, B. B.
Boston, 1898	Women and Economics	Stetson, Charlotte P.
New York, 1920 ...	The Rising Tide of Color	Stoddard, Lothrops.
„ 1908 ...	Studies in the American Race Problem.	Stone, A. H.
Boston, 1911	The Standard of Living of Industrial People of America.	Strightoff, F. H.
New York	Social Progress	Strong, Joseiah.
„ 1905 ...	Introduction to the Study of Sociology.	Stuchenberg, J. W. H.
Boston, 1907	Folkways	Summer, W. G.
London, 1898	The Origin and Growth of the Moral Instincts.	Sutherland, A.
New York, 1899 ...	Social Laws	Tarde, Gabriel; Transl. by Warrern.
„ 1903 .	Laws of Imitation	— Transl. by Parsons.
2nd edition, New York.	Principles of Economies, 3 vols.	Taussig, F. W.
New York, 1915 ...	Satellite Cities	Taylor, Grahma R.
„ 1905 ...	An Introduction to the Study of Agricultural Economics.	Taylor, H. C.
„ 1918 ...	Instincts in Industry	Tead, Ordway.
„ 1907 ...	Contrasts in Social Progress ...	Tenney, E. P.
Chicago 1907	Sex and Society	Thoamas, W. I.
„ 1909	Source Book for Social Origins ...	—
Boston, 1886 and 1913	The Family—An Historical and Social Study.	Thwing, C. F. and C. F. B.
New York, 1897 ...	Elements of the Science of Religion, 2 vols.	Tiele, C. P.
„ 1902 ...	The Negro in Africa and America...	Tillinghast, J. A.
„ 1908 ...	The Young Malefactor	Travis, Thomas
„ 1874 ...	Primitive Culture, 2 vols.	Tylor, E. B.
„ 1878 ...	Anthropology	—
—	Bulletins and Reports	U.S. Census Bureau.
—	Annual Reports	U.S. Bureau of Ethnology.
—	„ „	U.S. Labor Commission
	„ „	U.S. Museum.
New York, 1910 ...	The Conservation of Natural Resources in the United States.	Wan Hise, C. R.
„ 1911 ...	The Theory of Leisure Classes.	Veblen T.
„ 1914 ..	The Instinct of Workmanship ...	—

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
New York, 1910 ...	Housing Reform	Veiller, L.
Chicago, 1911	The Social Evil of Chicago ...	Vice Commission of Chicago.
New York, 1917 ...	Introduction to Rural Sociology	Vogt, P. L.
„ 1921 ...	Church Cooperation in Community Life.	—
Boston, 1883	Land and Its Rent	Walker, Francis A.
New York, 1888 ...	Political Economy	—
„ 1914 ...	The Great Society	Wallas, Graham.
„ 1916 ...	Socialism of To-day	Walling, W. E., and others.
„ 1913 ...	Genetics	Walter, H. E.
„ 1883 ...	Dynamic Sociology, 2 vols. ...	Ward, Lester F.
Boston, 1893	Psychic Factor of Civilization ...	—
New York, 1903 ..	Pure Sociology	—
„ 1904 ...	Outlines of Sociology	—
Boston, 1906	Applied Sociology	—
Revised Edition, New York, 1919.	American Charities	Warner, Anos G.
Revised Edition, Chicago, 1913.	Social Welfare and the Liquor Problem.	Warner, H. S.
Boston, 1899	The Future of the American Negro	Washington, Bookert.
New York, 1917 ...	Up from Slavery	—
„ 1904 ..	Working with the Hands	—
„ 1909 .	Story of the Negro, 2 vols. ...	—
London, 1902	Industrial Democracy	Wabb, S. and B.
New York, 1908	Primitive Secret Societies... ...	Webster, Autton.
„ 1913 .	The Education of To-morrow ...	Weeks, A. D.
American Journal of Sociology.	The Mind of the Citizen	—
London, 1903	Sex and Character	Weineinger, Otto.
New York, 1916 ...	The Marking of Farm Products ..	Weld, L. H. D.
„ 1921 ...	The Outline of History	Wells, G. H.
London, 1901	History of Human Marriage ...	Westermarck, Edward.
London, 1906–1908 ...	Origin and Development of Moral Ideas, 2 vols.	—
New York, 1891 ...	The Divorce Problem ; A Study in Statistics.	Wilcox, W. F.
London, 1893	A Review of the Systems of Ethics Founded on the Theory of Evolution.	Williams, C. M.
New York, 1920 ...	The Foundations of Social Science	Williams, James M.
Philadelphia, 1905 ...	The American Boy and the Social Evil.	Willson, R. N.
New York, 1911 ..	The Church of the Open Country...	Wilson, Warren H.
Boston, 1912	The Evolution of the Country Community.	—

تاريخ الطبع ومكانه	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
Boston, 1900	The State	Wilson, Woodrow.
Revised Edition, New-York, 1919.	Punishment and Reformation ...	Wines, F. H.
Boston, 1897	The Liquor Problem in Its Legislative Aspects.	Wines, F.H. and Koreu John.
New York, 1896 ...	The Nature of the State	Willoughby, W. W.
Boston, 1916	Readings in Social Problems ..	Wolfe, A. B.
London, 1907	Co-operative Banking	Wolfe, H. W.
Boston, 1902	Americans in Process	Woods, Rovert A.
„ 1898	The City Wilderness	—
New York, 1894 ...	Industrial Evolution of the United States.	Wright, C. D.
Boston, 1902	Some Ethical Phases of the Labor Question.	—
New York, 1906 ...	Practical Sociology	—
Revised Edition, New York, 1916.	American Municipal Progress ...	Zueblin, Charles.

JOURNALS, ETC.

American Journal of Sociology, Chicago.
Annals of the American Academy of Political and Social Science, Philadelphia.
Journal of the American Institute of Criminal Law and Criminology, Chicago
National Municipal Review.
Quarterly Journal of Economics, Cambridge, Mass.
Proceedings of the American Prison Association.
Proceedings of the National Conference of Charities and Corrections.
Publications of the American Sociological Society, Chicago.
The Survey (formerly Charities and Commons), New York.



تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ٣ من شوّال سنة ١٣٥٦
(٥ من يناير سنة ١٩٣٨) م

مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين بهجت

المطبعة الأميرية ٢٣٦١٥-١٩٣٥-٤٠